سيرغو بيريا

أبي لافرنتي بيريا

مرآة ستالين الدمويّة

ترجمة وتقديم:

بسّام مقداد

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



أي

لافرنتي بيريا

سيرغو بيريا

أبـــي
لافرنتي بيريا
مرآة ستالين الدموية

ترجمة وتقديم: بسام مقداد

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. ٨٣٧٥٠ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخـراج الفنـي: بسمة التقي

مقدمة الترجمة العربية

حين أنجزت ترجمة الكتاب، عرضت المخطوطة على أحد الأصدقاء لاستطلاع رأيه. ولم يتأخر الرجل في مصارحتي بطلب عدم نشر الكتاب، لما يتضمنه من معطيات وأطروحات تقلب رأساً على عقب الكثير من التصورات الراسخة منذ أجيال في أذهاننا. وذكّرتني ردة فعله هذه بما حدث لي، حين قرأت في مطلع الثمانينيات محضر اجتماع مولوتوف مع روبنتروب عشية الحرب الثانية في "ليتراتورنايا غازيتا" التي كانت تُشكّل آنئذٍ مع مجلة "أغانيوك" منبراً لأطروحات البيرسترويكا. أذكر أنني لم أتمالك نفسي حينها وبكيت. فما كان بوسعي أن أتقبل مجرد فكرة الاجتماع هذه، علماً أنه كانت قد مضت سنوات طويلة على وجودي في الاتحاد السوفياتي بين الدراسة في جامعة موسكو والعمل في أماكن مختلفة على علاقة بالنشر والإعلام. لكن ردة فعل أصدقائي من الروس، ممن كانوا في مثل عمري آنذاك، لم تختلف كثيراً عن ردة فعلي هذه . فقد كانت معارفنا وخبراتنا السياسية والاجتماعية تمر عبر «الفلترات» نفسها، وإن في بيئات مختلفة وبلغات مختلفة.

إن ما كانت تنشره "الليتراتورنايا غازيتا" و"الأغانيوك"، وغيرهما في تلك الفترة من الثمانينيات، لم يكن سوى الإشارات الأولى لانطلاق عملية البيريسترويكا، وفتح أبواب الأرشيف السوفياتي بصورة تدريجية أمام الناس. وتبيَّن لاحقاً أن هذا الأرشيف لا يحتوي سوى على القليل من المحفوظات

والوثائق المتعلقة بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي الذي كان يمثل قلب الماكينة التوتاليتارية، وبخاصة بعد أن بلغت ذروة نضوجها في أواخر الثلاثينيات. ويُعزى السبب في ذلك إلى عوامل متعددة، من بينها أن الأرشيف السوفياتي لم تُشرع أبوابه على مصاريعها حتى الآن، بل فُتحت نصف فتحة فقط. إضافة إلى ذلك فقد كان هذا الأرشيف يتعرّض لحملات تنظيف دورية على أيدي المعنيين بالأمر، سواء أيام ستالين أو بعده. ويذكّر سيرغو بيريا في كتابه الذي بين أيدينا، استناداً إلى وثائق الحزب الشيوعي السوفياتي، بما قام به مالينكوف من إخفاء الوثائق المتعلقة بدوره في "ملف لينينغراد" بعد الحرب. كما يُذكّر أيضاً بتعليمات غورباتشوف في أواخر أيام الاتحاد السوفياتي بإخفاء الوثائق المتعلقة بإعدام الضباط البولونيين خلال الحرب الماضية. ويؤكد الكاتب، في أكثر من مكان في الكتاب، أن الكثير من الوثائق المتعلقة بوالده قد جرى تزويرها أو إخفاؤها من الأرشيف.

إن مذكرات سيرغو بيريا هي مذكرات ابن الرجل الذي دعاه ستالين "هملر"، وكان من أكثر المقربين إليه. وهي تُدخلنا إلى أضيق حلقات السلطة السوفياتية، بل إلى القلب منها، حيث كان يدور كل شيء خلال سنوات طويلة.

في مقدمتها للترجمة الفرنسية (Plon/Criterion - 1999) تقول فرانسواز توم، مترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية والأستاذة المحاضرة في جامعة السوربون والمتخصصة بالشؤون السوفياتية، إن مذكرات سيرغو بيريا تتمتع بأهمية تاريخية كبيرة تتعدى الأقاويل والحكايات التي كانت تدور في الكرملين. وهي تقارن هذه المذكرات بمذكرات خروتشوف التي تصفها بأنها "مليئة بالتخيلات والتعديلات الذاتية". ولا تعود الأهمية التاريخية للكتاب إلى أن بيريا الأب كان يُسرّ لابنه بالكثير من المعلومات حول أعماله ومشاريعه، بل لأن سيرغو بيريا يملك موهبة ملاحظة الأمور والإحساس بها، ومذكراته مليئة بما كان يعيشه ذلك الوسط، الذي كان خلف المدى المسموح به للنظر والسمع آنئذٍ. فقد كان الكاتب، بحكم كونه ابن لافرنتي بيريا، يعيش في هذا الوسط بالذات، ويخالط أولئك الذين كانوا يتعاونون مع والده، وكبار العسكريين والعلماء السوفيات وبعض

أعضاء المكتب السياسي وأسرهم. فقد رأى ستالين وهو لا يزال فتى، ثم تابعه لاحقاً من خلال الازدواجية التي أصبحت تتسم بها شخصية والده، والمتمثلة في الخدمة الأمينة للنظام السوفياتي، من جهة، وكراهية ستالين المتعاظمة في داخله، من جهة ثانية.

لا شك في أن السؤال الأساسي الذي يبرز بالنسبة لهذه المذكرات، هو إلى أي مدى بوسعنا أن نثق بشهادة ابن يُفاخر بحبه لوالده؟ هل نُكذِّب كل ما ورد فيها بسبب هذه العلاقة، وبسبب التناقض مع الصورة الشائعة التي نعرفها عن بيريا؟

يقول المؤلف في تقديم كتابه بالروسية "... إن واجبي كابن يقتضي مني فهم جوهر القضية وعزل الحقيقة عن الوشاية".

ويقول في مقدمته للترجمة الفرنسية للكتاب: "لم أؤلِّف هذا الكتاب لأعيد الاعتبار لذكرى والدي، وليس هذا هدفي الأول على كل حال. إنني أُدرك تماماً اليوم، أنه لم يكن بوسعه أن يكون في عداد قادة الاتحاد السوفياتي ويبقى نظيف الكفّ. إننا دوماً نملك الخيار.. . لو كان والدي يريد الاستيلاء على السلطة، لكان بوسعه أن يفعل ذلك حين كان لا يزال ستالين على قيد الحياة وبعد وفاته. ووالدي لم يكن بالتأكيد شخصاً تحرّكه الدوافع الإنسانية ويحلم بالخير للشعب، بل كان رجل دولة براغماتياً يريد الحصول على نتائج ملموسة... كان يقف ضد القمع ليس لدوافع إنسانية، بل لأنه كان يعتبر أنه لا يمكن كسب الناس بالخوف".

إن صورة بيريا، التي كانت معروفة حتى اللحظة الأخيرة في الاتحاد السوفياتي وفي العالم أجمع، هي الصورة التي رسمها التاريخ الخروتشوفي له. وهي صورة الوحش السادي المسؤول عن تعذيب وإعدام الملايين من الأبرياء، وصورة الداعر الذي لا تزال سيارته تجول شوارع مدن الاتحاد السوفياتي السابق، وهو يختبئ وراء زجاجها المعتم يتصيّد الحسان اللواتي بلغ عددهن، بحسب ما يقول ألكسي أدجوبي، صهر خروتشوف، ٢٠٠ امرأة. البعض يرفع

العدد إلى ٧٠٠ و٨٠٠ إمرأة. لقد بقي خروتشوف حتى آخر أيامه فخوراً جداً بنجاحه في القضاء على بيريا، وتمكنه، من خلال الانقلاب الذي نظمه، من إحكام قبضته على السلطة وترسيخ شرعيته وسط أقرانه في قيادة الحزب. ويتحدث أدجوبي، صهر خروتشوف، عن ذلك صراحة، فيقول إن حتى مظهر خروتشوف الخارجي قد تبدّل، وأصبح أكثر ثقة بنفسه، وصار الأول بين قادة الحزب الآخرين. ولكي يحتل انتصار خروتشوف هذا مكانته اللائقة، كان يجب تشويه شخصية بيريا إلى أقصى درجة ممكنة. وكان هذا الأمر بالذات يشكّل أحد أهداف المحاكمة التي جرت خلف الأبواب المغلقة، وانتهت بالحكم عليه وعلى زملائه بالإعدام رمياً بالرصاص، وتنفيذ هذا الحكم، بحسب الرواية الرسمية، في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٣.

كان زملاء بيريا في السلطة (خروتشوف، مالينكوف، وغيرهما) يتوقعون أن يغلقوا، بإعدام بيريا، ملف الفترة الستالينية كلها، وتحميل بيريا وحده المسؤولية عن كل ما جرى في تلك الحقبة. وكان هذا الأمر بالذات يشكّل الهدف الآخر للمحاكمة تلك، كما اعترف خروتشوف نفسه في مذكراته لاحقاً، حيث يتحدث عن سعيهم لإلصاق كل جرائم ستالين "بعصابة بيريا" وتحييد ستالين نفسه، وتصوير بيريا بأنه "عبقرية ستالين الشريرة".

يقول سيرغو بيريا في كتابه أن والده لم يُعدم في التاريخ المذكور أعلاه، بل جرى اغتياله في منزله في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٥٣، حيث تقول الرواية الرسمية إنه قد تم اعتقاله في هذا التاريخ. وبالتالي، فإن المحاكمة كلها لم تكن أكثر من مسرحية مدبَّرة لتغطية جريمة القتل السياسية هذه، كما يؤكد المؤلّف.

هذه المحاكمة لم تنته قط بالنسبة لسيرغو بيريا، وبقي طوال حياته يخاطب مدعيًا عاماً موهوماً. وبالفعل، شكّل الكتاب المرافعة الأساسية أمام المحكمة العليا في روسيا الاتحادية، التي كانت تنظر في طلب إعادة الاعتبار إلى بيريا ورفاقه الذين أعدموا معه. لكن المحكمة رفضت في حكم صادر عنها في ٣٠ أيار/مايو ٢٠٠٠ إعادة الاعتبار إليه، واكتفت بإلغاء الحكم بمصادرة ممتلكات بعض رفاقه الذين أُعدموا آنئذٍ.

بعد وفاة ستالين في آذار/مارس ١٩٥٣، كان لافرنتي بيريا الشخصية الأقوى وسط القيادة التي خلفت ستالين في السلطة. فقد كان عضواً في المكتب السياسي، وعضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، والنائب الأول لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي، ووزيراً للداخلية. إضافة إلى كل ذلك كان بيريا يتولى منذ العام ١٩٣٨ رئاسة المخابرات الاستراتيجية السوفياتية، وبقي في هذا المنصب حتى لحظة القضاء عليه.

كان جميع من في القيادة يخشون جانب هذا الجورجي المتبقي بعد الديكتاتور الجورجي المتوفّى يوسف ستالين.

يقول سيرغو بيريا إن والده دعا زملاءه إثر وفاة ستالين مباشرة إلى عقد مؤتمر للحزب الشيوعي الحاكم، ومصارحة الناس بحقيقة ما جرى إبان المرحلة الستالينية والدور الذي لعبه كل منهم في هذه المرحلة.

وجاء جواب زملاء بيريا على اقتراحه هذا باغتياله وتحميله المسؤولية عن كل الإرهاب وكل الدماء التي سالت إبان الفترة الستالينية. وقد برّأ هؤلاء أنفسهم، وبرّأوا معهم حتى ستالين في البداية، أي قبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، الذي لم يعقد إلا بعد مرور ثلاث سنوات على وفاة ستالين.

إن صورة بيريا هذه ، التي ثبتّها رسمياً اجتماع تموز/يونيو ١٩٥٣ للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، بقيت دون أي تعديل حتى أوائل التسعينيات، حين أخذ بعض قادة البيريسترويكا، من أمثال ياكوفليف، يعلنون صراحة أن بيريا كان الإصلاحي الوحيد وسط الذين خلفوا ستالين في السلطة. وقد أصبحنا نعرف الآن أن بيريا كان يسعى خلال "المئة يوم" التي أعقبت موت ستالين لتنفيذ برنامج إصلاحات تهدف إلى إحلال جهاز الدولة محل جهاز الحزب الشيوعي في كافة المجالات .

إن ملف بيريا ليس الملف الوحيد، من ملفات الحقبة السوفياتية السابقة، الذي لا يزال مفتوحاً، بل إن تاريخ هذه الحقبة كلها لا يزال مفتوحاً على مصراعيه. فما هو متوفر في كتب التاريخ التي كان يُصدرها ذلك النظام لا يمتّ

في معظمه، بصلة إلى التاريخ الفعلي لتلك الحقبة. وقد اعترف النظام السابق بهذه الحقيقة في أواخر أيامه، حين أصدر في ربيع ١٩٨٨ قراراً بإلغاء امتحان مادة التاريخ للمتخرجين من المدارس الثانوية. يقول الكاتب الكبير بوريس باسترناك "إن الواقع لا وجود له في الاتحاد السوفياتي".

هل يتصدّى سيرغو بيريا لكتابة تاريخ الحقبة الشيوعية من تاريخ روسيا؟ كلا، بالتأكيد . وهو يقول إنه يترك هذه المهمة للمؤرخين الذين ينتظرهم عمل كبير في البحث عن التاريخ الفعلي لتلك الحقبة، وسط ركام هائل من الكذب وتزوير الحقائق وإخفاء الملفات والوثائق. لكن مما لاشك فيه أن ما رواه المؤلّف في كتابه من ذكريات وانطباعات عن ستالين وغيره من كبار القادة والعلماء في الاتحاد السوفياتي يتمتع بأهمية كبيرة لكتابة التاريخ الحقيقي لتلك الفترة. فالمؤلّف، عدا عن كونه ابن بيريا، كان بل وبقي، على الأقلّ حتى صدور كتابه بالروسية، يحتل موقعاً مرموقاً بين مصممي الأسلحة الجديدة ومهندسيها. وهو اسم شهير جداً لدى أجهزة المخابرات في العالم، وإن كان حتى صدور كتابه اسماً مغموراً بالنسبة للجمهور . فقد كان سيرغو بيريا في عداد الأشخاص العشرة الذين تولوا تفجير أول قنبلة نووية سوفياتية، إلى جانب كورتشاتوف وفانيكوف وسواهما من كبار العلماء. وتولّى بعد تخرّجه من الأكاديمية العسكرية منصب كبير المهندسين وكبير المصممين في "مكتب التصميم الأول" الشهير التابع لمفوضية الشؤون الداخلية (NKVD). وقد مُنح وسام لينين تقديراً لنجاحه في تصميم أنظمة صاروخية شديدة الفاعلية. وحين اعتقل، إثر مقتل والده، تولّى الدفاع عنه والمطالبة بإطلاق سراحه كبار العلماء ومصممي الطائرات والأسلحة في الاتحاد السوفياتي، من أمثال كابيتسا وفانيكوف وكورتشاتوف وتوبوليف وسواهم.

يتعرّض سيرغو بيريا في كتابه لملفّات صعبة للغاية من ملفات الحقبة الستالينية في النظام السوفياتي. ويستعرض سيرة والده، ويتحدث عن شخصيته من خلال هذه الملفات. فهو يتصدى لملف ستالين وتحليل شخصيته وعلاقته بالمحيطين به، ويفتح ملف الأجهزة الأمنية وأجهزة المخابرات ويحلّل علاقتها

بالقيادة الحزبية. ويخلص إلى تحميل هذه القيادة، وليس الأجهزة، المسؤولية عن كل الجرائم التي ارتكبت إبان المرحلة المذكورة. كما يتطرق إلى ملف الحرب العالمية الثانية ويسخر من الأسطورة التي نشرتها القيادة الحزبية والقائلة إن هتلر قد أخذ الاتحاد السوفياتي على حين غرّة، حين بدأ الهجوم عليه في ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٤١. إلا أنه يرفض في الوقت نفسه ما أصبح يسمّى "النظرية الثالثة"[(١)] حول الحرب العالمية ، والتي تشير إلى أن ستالين كان يُعدّ للهجوم على ألمانيا والزحف على أوروبا بأسرها، وأن موعد الهجوم كان ٦ تموز/يوليو ١٩٤١، أي أن هتلر استبق ستالين بأيام معدودة، وبالتالي لم تكن حربه إلا حرباً وقائية لا أكثر.

كما يستعرض بيريا الملف النووي، ويحدّثنا عن الدور الأساسي الذي لعبته المخابرات السوفياتية في صنع أول قنبلة نووية سوفياتية. فنعرف منه أن أوبنهايمر، أبا القنبلة الذرية الأميركية، قد حلّ ضيفاً على بيريا في منزله لمدة أسبوعين في العام ١٩٣٩. كما نعرف من خلال هذا الملف أيضاً أن ثمة أسماء لم يتم الكشف عنها حتى اليوم من أسماء كبار العلماء الغربيين في حقل الذرّة الذين تجسسوا لصالح الاتحاد السوفياتي.

يعرّج المؤلّف، عبر فصل صغير، على مؤتمر طهران العام ١٩٤٣ للترويكا الكبرى: روزفلت وتشرشل وستالين. ويذكر أنه كان يتنصّت شخصياً على روزفلت، ويقدّم تقريره صباح كل يوم إلى ستالين.

ويخصّص المؤلّف فصلاً صغيراً للحديث، من خلال الوثائق، عن مقتل نقولا الثاني، آخر قياصرة روسيا، ويحمّل لينين بالذات المسؤولية عن ذلك. وهو يؤكد بذلك مقولته التي يردّدها عبر الكتاب كلّه إن الإرهاب كان من طبيعة هذا النظام، وليس ميزة تميّز بها ستالين وحده.

---

(١) بدأ بالدعوة إلى هذه النظرية فيكتور ريزون المعروف باسم فيكتور سوفوروف، وهو ضابط سابق في الكي .جي .بي فر في العام ١٩٧٨ إلى الغرب. وقد نشر حتى الآن عدة كتب حول هذا الموضوع، أهمها "كاسحة الجليد" و "اليوم - م" ـ المترجم.

ونعرف أن الألمان شكّلوا أثناء الحرب مع الاتحاد السوفياتي تسعين كتيبة من مواليد القفقاز وآسيا الوسطى وتسع فرق روسية وفرقة إسلامية من مواطني الاتحاد السوفياتي حاربت إلى جانبهم ضد السوفيات.

كما نعرف لماذا تمت تصفية الكومنترن في العام ١٩٤٣ بسرعة وعلى نحو مفاجئ، دون أن يكون أحد من العاملين في هذه المنظمة أو من الأحزاب الشيوعية المنضوية تحت لوائها على علم بالأمر.

ثم نعرف من خلال الكتاب أن زينوفي بيشكوف، شقيق ياكوف سفيردلوف أول رئيس للجنة التنفيذية المركزية (SIK)، كان رئيساً للمخابرات الفرنسية.

وفي موقع آخر من الكتاب يشير المؤلّف إلى أن الرئيس الأميركي روزفلت كان على علم مسبق بالهجوم الذي كان يُعدّه اليابانيون على بيرل هاربور، كما أن تشرشل كان على علم مسبق أيضاً بقصف المدن الإنكليزية من قبل الطيران الألماني. لكن قوانين المخابرات، كما يُشير الكاتب، تجيز أحياناً مثل هذه التضحيات الجسام كي لا يتم الكشف عن عملية أو سر معيّن.

ومن خلال الكتاب، نعرف كذلك حجم الخسائر التي تكبدها طيران الأسطول السادس الأميركي والطيران الحربي البحري الفرنسي والطيران الإسرائيلي على أيدي بحارة الأسطول السوفياتي في العام ١٩٥٨، أثناء الأحداث التي انفجرت آنئذٍ في لبنان.

لكن مذكرات سيرغو بيريا لا تتوقف أهميتها على الكشف عن مثل هذه المعلومات البالغة الأهمية، بل تتخطّى ذلك لتطرح العديد من الأسئلة حول النظام السوفياتي، والتي لا تزال تبحث عن الإجابات عليها. والسؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن بعد قراءتها هو: من كان القاتل ومن كان القتيل في النظام المذكور؟ فعلى الرغم من كثرة ما كان قد نُشر قبل ذلك وأضاء جوانب كثيرة مما كان يجري في الزوايا المظلمة من هذا النظام، إلا أنه كان من الصعب أن يصدّق المرء أن هذه الزوايا ستتكشف عما يُحوّل بيريا من "جلاد البلاط" إلى ضحية للنظام، كما يؤكد المؤلّف.

إن كتاب سيرغو بيريا هو الكتاب الرابع، حيث يتحدث الأبناء عن آبائهم من قادة الاتحاد السوفياتي السابق. فقد سبقته إلى ذلك سفتلانا أليلويفا، ابنة ستالين، وسبقه أندريه مالينكوف وسيرغي خروتشوف. لكن مذكرات هؤلاء لم تغير شيئاً يُذكر في الصورة المعروفة عن آبائهم من خلال التاريخ الرسمي للنظام السوفياتي. أما سيرغو بيريا فقد قلب (أو حاول ذلك) في مذكراته الصورة الرسمية المعتمدة منذ الخمسينيات رأساً على عقب، وحاول إضاءة تلك الفجوة المعتمة التي رُميت فيها كل جرائم المرحلة الستالينية وبشاعاتها. ويتجاوز المؤلِّف في كتابه المسؤولية المباشرة لكل من خروتشوف ومالينكوف عن انقلاب العام ١٩٥٣ وتصفية والده، ويحمّل النظام نفسه وليس الأشخاص المسؤولية عن كل ما جرى منذ العام ١٩١٧ وحتى انهياره.

إن أكثر الأرقام تواضعاً تشير إلى أن هذا النظام قد أباد عشرات الملايين من الناس، مؤيدين وأخصاماً. ويتساءل الكاتب: إلى متى تستمر هذه السذاجة، أو افتعال السذاجة بالأصح، في الإصرار على إلقاء المسؤولية عن كل هذا الدم المراق على عاتق شخص، أو حتى مجموعة أشخاص؟

إن قتل ملايين الناس كان بحاجة إلى ملايين الناس أيضاً لكي يتولّوا ترتيب عملية القتل، بدءاً من الوشاية مروراً بالاعتقال والمحاكمات، وصولاً إلى التصفية الجسدية. فهل يكفي، في متابعة ما كان يجري في هذا النظام، وفي متابعة البحث في أسباب قيامه وانتشاره، وأسباب انهياره، معرفة من تولّى إصدار الأوامر بالقتل والتعذيب والنفي وتهجير شعوب بأسرها، ومن كان ينفذ هذه الأوامر؟ قد يكون كافياً جواب أحدهم من أن نصف الشعب الروسي كان يقف ضد نصفه الآخر. لكن السؤال هو كيف تيسّر وضع الشعب الروسي في مواجهة بعضه البعض باسم الدعوة إلى بناء الجنّة على الأرض، كما شبَّه يفتوشنكو، على لسان أحد أبطاله، الشيوعية التي كان النظام السوفياتي يدعو إلى بنائها؟

لماذا الكتاب بالعربية

صحيح أن الأرشيف السوفياتي لم يفتح أبوابه إلا جزئياً، ولم يتم الكشف كلياً بعد عمّا يخبئه من أسرار النظام السوفياتي، لكن ما نُشر حتى الآن من وثائق ودراسات وأعمال، تحاول الوقوف على التاريخ الحقيقي لهذه التجربة وأسباب قيامها وسقوطها، يشكّل مادة غزيرة جداً لم يصلنا منها إلى العربية حتى الآن سوى النزر اليسير. فالبشرية لا تزال مشغولة بمناقشة التجربة التي شغلت كل القرن العشرين من تاريخها، وخلفت ذلك الاستقطاب الحاد، الذي لم يبق إنسان في أقصى زاوية من الأرض إلا وانخرط فيه. ولا غرابة في الأمر، فقد كان من الطبيعي جداً أن تخلق التجربة التي تصدّت لبناء "الجنة على الأرض" مثل هذا الاستقطاب، وأن يتابع الناس مآل هذه التجربة وأسباب سقوطها. ومن الطبيعي جداً أن أسئلة كبيرة جداً حول مسار هذه التجربة ومصيرها لا تزال تنتظر الإجابة عنها. فهل صحيح، على سبيل المثال، أن أهل النظام السوفياتي يتحمّلون وحدهم مسؤولية ما جرى في الاتحاد السوفياتي وفي البلدان الأخرى تحت راية الشيوعية؟ وما كان دور الناس الذين كانوا يبنون نسخة من "الجنة السوفياتية" في بلدانهم، أو كانوا، مثلنا، يدعون إلى بنائها؟ هل كان أهل هذا النظام وحدهم يصفّقون لكل "إنجاز" وكل "انتصار" يحقّقه هذا النظام؟ وما كانت كلفة تصفيق الآخرين (فيما يتعدّى الجردة المالية التي كُشف عنها في الأرشيف السوفياتي) لهذه "الإنجازات والانتصارات" خارج الاتحاد السوفياتي؟ هل يكفي أن يتحسّر واحدنا الآن على عمر قضى نصفه وهو يصفق "لإنجازات وانتصارات" ذلك النظام، ويقضي نصفه الآخر، وهو يسعى لمعرفة حقيقة تلك "الإنجازات والانتصارات" وبأي ثمن كانت تتم؟ وكيف كانت توظف؟ ما هي النتائج التي أسفرت عنها البديهيات الأساسية التي كان يقوم عليها البناء الأيديولوجي للنظام السوفياتي، مثل "النضال في سبيل سعادة الآخر" و "التحزّب للغاية والهدف" وذوبان المفرد في الجمع، وما إلى ذلك من بديهيات أدّى فرضها إلى مصادرة الآخر باسم سعادته، وضرب الحقيقة باسم الغاية، واضمحلال الفرد ومصلحته الخاصة وتمايزه من الآخر، وبالتالي فقدان الدافع الأساسي لحركة المجتمع؟

أسئلة كثيرة مماثلة تبحث عن الإجابة عليها في إطار المسؤولية حيال المستقبل، وليس على أرضية الحنين القاتل إلى ما مضى والتحسّر عليه. فعلى الرغم من كل مشروعية هذا الحنين، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، إلا أنه لا يجوز أن يحول دون معرفتنا حقيقة ما جرى في هذا الماضي. كما لا يجوز أيضاً أن يحول التحزّب لهذا الماضي والتعلّق به من معرفته على حقيقته، وليس كما كانت تُقدّمه الماكينة الأيديولوجية. فبئس ذلك الماضي الذي يُصار إلى التهرّب من معرفته على حقيقته، وبئس ذلك المستقبل الذي لم يزل البعض يتوهّم إمكانية بنائه على أساس مثل ذلك الماضي.

إن ما نُشر حتى الآن، وما يتم نشره في العالم أجمع حول ما كان يجري حقيقة في النظام السوفياتي، يتطلّب جهداً كبيراً لمتابعته والاطّلاع عليه، ولا يفيد أن تحلّ محلّ هذا الجهد تلك التحليلات والاجتهادات التي تمتلئ بها الدوريات العربية وتتحايل على كل ما يُنشر وتهمله، أو تنسبه إلى حملات الافتراء على ذلك النظام.

إن ما سقط هناك لن يستمر على حاله في مكان آخر. ولا تفيد في هذا المجال لا التحليلات ولا المذكرات التي تحاول عبثاً تأكيد استقلالية عن التجربة السوفياتية لم تكن موجودة بالأصل. فهذه الاستقلالية المزعومة عن التجربة السوفياتية، بل وعن الاتحاد السوفياتي أيضاً، تمسّك بها في حينه كلٌ من تيودور جيفكوف في بلغاريا وأريك هونيكر في ألمانيا الديموقراطية ويانوش كادار في هنغاريا وسواهم، لكن ذلك لم يعفِ هؤلاء مع أحزابهم من مواجهة الحقيقة. فهل يصدّقون أنفسهم فعلاً أولئك الذين يتحدّثون عن مثل هذه الاستقلالية، ويتذكّرون في الوقت نفسه كيف كان الجميع يحتكمون في جميع القضايا الداخلية للأحزاب الشيوعية العربية إلى "الرفاق السوفيات" ليقولوا كلمتهم الفصل في مَن هو محق ومن هو على ضلال، في مَن يكون جاسوساً للمخابرات الغربية ومَن يكون "رفيقاً صالحاً"، في مَن يبقى في موسكو محتجزاً ومن يُغادرها للقيام بمهماته القيادية في حزبه. ويتحدث سيرغو بيريا في كتابه لأول مرة عن سجن أُقيم خصيصاً للقيادات الحزبية الرفيعة ليس السوفياتية، فحسب، بل والأجنبية أيضاً.

لم يشعر أحد "باليتم" الذي شعر به العرب جرّاء انهيار الاتحاد السوفياتي. ويتبارى الجميع الآن، من متدينين وقوميين وشيوعيين، في البكاء على أطلاله والتحسّر على ذلك الدعم الذي كنا نلقاه من جانبه. فالعلاقة مع الاتحاد السوفياتي لم تكن محصورة بالشيوعيين فقط، بل كانت تشمل كل مكونات "المشروع الوطني العربي" من أنظمة وأحزاب وهيئات وشخصيات. وأدركت جميع هذه المكونات فداحة الخسارة التي لحقت بها جرّاء سقوط النظام السوفياتي، وأصيبت بشلل أقعدها عن أي حركة أومبادرة جدية، سوى ما تفرضه ضرورة اتقاء الانهيار والسقوط. وعلى الرغم من الوهن والاهتراء الداخلي الذي يتآكل هذه الأنظمة والأحزاب، إلا أنها لا تزال عاجزة في أحيان كثيرة عن تغيير حتى اللغة التي ورثتها من تلك المرحلة.

وإذا كانت الأنظمة عاجزة عن تغيير نفسها وتنتظر نهايتها المحتومة، فهل يمكن للمكونات الأخرى، التي لا تزال تحجز مكاناً لها في المستقبل، كما تقول، أن تبني في الحاضر توجّهاتها وبرامجها على تجهيل الماضي؟ هل يمكن لمثل هذه المكوّنات أن تقود الناس فعلاً إلى المستقبل، أم أنها تصرّ على التوظيف السياسي الآني لما تبقى ولمَن تبقى في داخلها وللتضحيات الماضية للناس، وتحول بذلك دون مراجعة الماضي ومعرفته على حقيقته كشرط ضروري لبناء شيء ما فعلي للمستقبل؟

إن الماضي الرهيب، الذي لم يتمكن سيرغو بيريا من التحدث عنه إلا بعد انهيار النظام السوفياتي، لا يزال واقعاً نعيشه نحن. وهو واقع لا تعيد إنتاجه الأنظمة القائمة وحدها، بأدواتها وآلياتها المتوفرة لديها، بل تُعيد إنتاجه أيضاً كافة المكونات الأخرى "للنظام الوطني العربي"، بعجزها التاريخي عن تحقيق التغيير الذي نادت به، وعجزها الراهن عن تغيير ذاتها على ضوء الواقع الجديد من حولها.

إن جميع القضايا والأسئلة التي يطرحها الكتاب هي جزء من الواقع العربي الحاضر بالنسبة لنا، والتي يدور النقاش حولها في محاولة للخروج من المأزق التاريخي الذي تعيشه الشعوب العربية. ولم نقصد من نقل الكتاب إلى العربية سوى المساهمة، ولو البسيطة، في النقاش المذكور.

حين علم أحد الزملاء، أستاذ التاريخ في إحدى الجامعات، بقرب صدور الكتاب اعترض قائلاً: ولمصلحة من الحديث عن بيريا الآن؟ لماذا لا نتذكر النظام السوفياتي إلا بما يسيء إليه؟

يشير سيرغو بيريا في كتابه إلى أن أحد المؤرخين المشهورين تحدث يوماً إلى جنرال سوفياتي سابق شغل خلال عدة عهود منصب رئيس مديرية التوجيه السياسي في الجيش والاسطول السوفياتيين. وحين تطرّق الحديث إلى الحقيقة في علم التاريخ، أجاب الجنرال قائلاً: «ومن بحاجة لحقيقتك هذه إن كانت تُنغص عيشنا؟».

أرجو ألا يُفهم من كل ما تقدّم أنني أُحاول الإجابة عن تساؤل زميلنا، لأنني أعتقد بأننا قد جاوزنا، على الأقل، هذه المرحلة في تعاطينا مع الحقيقة، حين كنا نطلق النار عليها، عندما تكون في غير صالحنا.

بيروت في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢

بسام مقداد

الفصل الأول

أول الدرب

لا أذكر بوضوح جدي لوالدي بافل. فلم يتبقَ في الذاكرة إلا عباءته الجورجية السوداء وقلنسوته وحكايات تتحدث عنه كشخص كادح يتمتع بحيوية فائقة.

لم تتيسر سبل الحياة له في موطنه مينغريلي[1]. واضطُرّ للانتقال إلى أبخازيا بسبب ملاحقة الدرك له. وكان للأمر على ما أعلم، علاقة بتحركات الفلاحين. وعلى الرغم من من أن بلدة ميرخولي الجبلية كانت تقع في أبخازيا، إلا أنها كانت بلدة مينغريلية. وهذا ما كان يفسّر خيار جدّي، على ما يبدو.

لم يجنِ جدّي ثروة طائلة لا في موطنه القديم ولا في هذه القرية المنسية حيث كان يقيم. وقد اضطُرّ للتخلي في مينغريلي عن القليل الذي كان يملك، والبدء من الصفر في مكان إقامته الجديد.

أما جدّتي مارتا دجاكيلي، فعلى الرغم من أنها كانت تمتُّ بصلة قربى ما إلى دادياني، مالك مينغريلي، إلا أنها كانت امرأة فقيرة جداً ايضاً. تزوّجت من بافل بعد وفاة زوجها الأول وكان لها منه ولد وبنت. هكذا انتهت حياة العزوبة لجدّي. وأعرف من أحاديث جدّتي مارتا نفسها أن الفلاح بافل قد فتنها بإقدامه

(١) المنطقة التي يسكنها الشعب المينغريلي، أحد الشعوب التي تتشكّل منها جمهورية جورجيا- المترجم.

وجماله. وكانت هي نفسها تجيد الخياطة على نحو ممتاز. وبقيت طوال عمرها تفيد من مهارتها هذه للمساعدة في إعالة الأسرة. وبافل هو الآخر، ومنذ سن الشباب، لم يخلد للراحة لحظة واحدة.

ولد لبافل ومارتا ثلاثة أولاد، إلا أن مصير الثلاثة كان مأساوياً: احد الصبيين الاثنين عاش سنتين ثم أصيب بالحصبة ومات. وأضحت البنت آنا صماء خرساء بعد مرض أصابها. وبقيت كل الآمال معلّقة على الابن لافرنتي. كان بافل ومارتا يرغبان في تعليم ابنهما. وكان والدي في السابعة حين قرر جدّي إرساله إلى مدرسة سوخومي الابتدائية العليا. كانت توجد في تلك الأيام مثل هذه المدرسة التي تحمل هذه التسمية غير الاعتيادية. وكانوا يطلقون على مثل هذه المدارس أيضاً تسمية "المدارس الحقيقية". ما كان لوالدي ليُقبل في المدرسة الثانوية، فانتسب إلى "مدرسة حقيقية" يدرس فيها الناس الأكثر فقراً. ومع ذلك، فقد اضطُرَّ جدّي بافل لبيع نصف ما بحوزته من أجل تحقيق حلمه المنشود، حيث لم تكن الأسرة في حينها، ولا فيما بعد، تملك أية مدخرات.

التقيت في جورجيا بعد مرور سنوات كثيرة بعض مدرّسي والدي. كان هؤلاء أشخاصاً مدهشين مارسوا مهنة التدريس بجدارة. وقد رووا لي الكثير عن طفولة والدي. كما أنه هو نفسه كان يتذكرهم دوماً بشعور من الدفء يعبّر عن امتنانه لمربّيه الأوائل.

كان والدي في الخامسة عشرة حين أنهى مدرسة سوخومي بدرجة ممتاز، وقرر متابعة دراسته. واضطُرَّ جدّي بافل إلى بيع النصف الآخر مما يمتلك، والانتقال مع الأسرة للعيش في كوخ من ألواح الخشب. أما والدي، فانتقل إلى باكو للدراسة في مدرسة ميكانيك البناء التقنية.

بعد أن أصبح والدي نائب رئيس لجنة الدفاع عن الثورة (التشي.ك)[1]

---

(١) "اللجنة الاستثنائية (أو الخاصة) لمكافحة الثورة المضادة والتخريب". تشكلت في العام ١٩١٧ بعد الثورة مباشرة، وتولى رئاستها إدموند دزيرجنسكي البولوني الأصل. بقي تمثاله العملاق في الساحة التي كانت تحمل اسمه في موسكو أمام مبنى الأجهزة الأمنية السوفياتية حتى زوال الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٩١ - المترجم.

(Sh.K) في جورجيا. كان من الطبيعي أن يمد يد العون لأبويه، إلا أنهما بقيا يعيشان حياة فقيرة. وكان جدّي بافل يردُّ على إلحاح والدي عليهما للانتقال إلى مدينة تبيليسي والعيش معنا بالقول: "ليس لديَّ ما افعله في مدينتكم". وهو بالفعل لم يكن يتصور حياته دون عمل الفلاح الصعب. فقد كان يعشق الحرية. وكان يردد دوماً بشعور من الحسرة: "لماذا لا تريدون إرسال سيرغو إليّ لمدة سنة كاملة ؟ فأنا سأعمل منه إنساناً!". إلا أن والدتي لم تكن موافقة على ذلك، بالطبع.

حين بلغنا أن جدّي بافل قد أُصيب بالزكام وأصبح طريح الفراش، سافرت والدتي حالاً إلى ميرخولي التي لا تبعد كثيراً عن سوخومي لتفقُّده. وقد لفظ جدّي أنفاسه الأخيرة بين يديها. أما أبي فلم يتمكن من وداع والده قبل أن يفارق الحياة.

والدتي، نينا تيمورازفنا، تصغر والدي بست سنوات، ولدت في العام ١٩٠٥. والدها تيموراز غيغتشكوري، سليل أسرة من النبلاء. والدتها، أي جدتي، داريكو تشيكوفالي (داريا)، ترجع في نسبها إلى الأمراء.

زواج جدّي وجدّتي كان الزواج الثاني لكل منهما. فقد توفيت زوجة تيموراز غيغتشكوري الأولى في يوم واحد مع ابنيه الاثنين إثر إصابة الجميع بحمّى التيفوئيد. أما جدّتي داريكو فقد توفي زوجها الأول وترك لها ثلاثة أطفال. بقي جدي فترة طويلة بعد وفاة زوجته الأولى عازفاً عن الزواج، ولم ينجب من زواجه بجدتي إلا طفلاً واحداً هو أمي.

كان جدي، كما جدتي، على ثقافة عالية جداً. شارك في الحركة الوطنية، وكان في السبعين حين أصيب خلال إحدى الانتفاضات الفلاحية المناهضة للقيصر بسبع طلقات حطّمت رجليه. لم يمضِ عام إلا وكان جدي قد فارق الحياة متأثراً بإصابته. الرجل الذي أطلق النار على جدي كان دركياً قيصرياً من المنغريل المحليين. وبقي خصمه هذا يعيش في القرية حين كان والدي على رأس التشي.ك وعلى رأس الإدارة السياسية في جورجيا وما وراء القوقاز،

وحين كان السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب في جورجيا، وكان قادراً على الثأر من خصمه الذي مات في القرية ميتة طبيعية. أعتقد أن هذه السمة بعدم الثأر تطبع كل أسرتنا. فلم يقدم أحد منا في وقت من الأوقات على الثأر من أحد.

أنهت والدتي المدرسة الزراعية في القرية المينغريلية، ثم أنهت بعدها الثانوية وقد نشأت في بيت عمها ساشا غيغتشكوري، وكان هذا بلشفياً. وكان والدي يتردد إلى شقته السرية، وتعرف عن طريقه إلى والدتي.

عمّها الآخر كان يفغيني غيغتشكوري، الذي أصبح وزيراً للخارجية أيام المناشفة.

وبعد مجيء السلطة السوفياتية، انتقل الوالدان إلى باكو ومن ثم إلى تبيليسي. أنهت والدتي المعهد الزراعي ثم دافعت بعدها عن أطروحة الدكتوراه. وبعد أن نُقل والدي إلى موسكو عملت في أكاديمية تيميريازيف الزراعية.

في العام ١٩٥٣ طُردت الجدتان، وكانت قد بلغت إحداهن الرابعة والثمانين والأخرى الحادية والثمانين، في وقت واحد، من شقتيهما ونُقلتا إلى مأوى للعجزة يبعد مئة كيلومتر عن تبيليسي. لم تسمح السلطات لأحدٍ من الأقارب باستضافة العجوزين. وحين أُطلق سراحنا، أنا ووالدتي، من السجن وأصبحنا نقيم في مدينة سفردلوفسك متمتعين بحرية نسبية، تمكنت والدتي من السفر سراً إلى جورجيا، لتجد أن جدتي داريكو كانت قد فارقت الحياة قبل سفر والدتي بأربعة أشهر.

أما جدتي مارتا، فكانت قد فقدت بصرها كلياً، لكن حين دخلت والدتي غرفتها، أمسكتها جدتي من يدها وتعرفت إليها حالاً ونادتها: "نينو...".

بقينا طوال شهرين نحاول عبثاً الحصول على إذنٍ بنقلهما للإقامة معنا في سفردلوفسك، إلا أن القدر استبقنا...

إنني أجد صعوبة حتى الآن في فهم الغاية التي كانت تتوخاها السلطات من خلال التنكيل بكل أقارب بيريا. فما الذي جنته، مثلاً من عزل هاتين العجوزين؟ فهل كانت السلطات ترى فيهما أيضاً تهديداً للدولة؟.

وجدنا عزاءنا، أنا وأمي آنئذٍ في أن جدتي مارتا قد عاشت إلى اليوم الذي علمت فيه بأننا لا نزال على قيد الحياة. فقبل ذلك اليوم لم تكن تعرف، بالطبع، شيئاً عنا. كما أننا نحن لم نعرف شيئاً عن مصير أقاربنا قبل أن نقيم في مدينة سفردلوفسك.

لقد كُتب الكثير من الكذب عن أبي وعن أسرتنا خلال السنوات الأربعين الأخيرة. وقد عاشت والدتي سبعة وثمانين عاماً، وبقيت طوال حياتها على حبها لوالدي، وماتت وهي على قناعة راسخة بأن كل هذه الأقاويل والأكاذيب المفضوحة كانت القيادة الحزبية العليا (وهي مصدر الأباطيل عن أبي) بحاجة إليها من أجل تسويد صفحة والدي بعد موته المأساوي.

فمن لا يعرف، مثلاً، أسطورة اختطاف لافرنتي بيريا لخطيبته الفاتنة؟ في واحد من كتب "سير الحياة" صادر في الغرب ومعروف جيداً عندنا، يؤكد الكاتب أنه في نهاية العشرينيات سافر أبي إلى أبخازيا مستخدماً قطاره الخاص الفخم في جولة تفقدية للمنشآت الاقتصادية في الجمهورية، والتقى هناك والدتي المقبلة. أعجب والدي بالفتاة واختطفها. هذه الكذبة تنتقل اليوم من مطبوعة إلى أخرى دون أن يكلف أحد نفسه، ولسبب ما، عناء التأمل في الوقائع، علماً أن الأمر جدير بذلك.

في تلك الفترة، في أواخر العشرينيات، كنت أستعد لدخول الصف الأول في إحدى مدارس موطني تبيليسي. أما والداي فقد تعارفا، كما سبق أن ذكرت، قبل ذلك بوقت طويل. كان والدي يمضي عقوبة السجن في زنزانة واحدة مع ساشا غيغتشكوري في سجن كوتايسي. وكانت والدتي تزور عمها في السجن. هكذا تم تعارفهما. يكفي مقارنة بعض الوقائع والتواريخ حتى تنهار مقولة الاختطاف كبيت من الكرتون. لكن، ولسبب ما، لا أحد يقوم بذلك. أما القطار الخاص، فإنَّ التشيكيست[1] الشاب لافرنتي بيريا لم يره في عينيه. بل لم تكن رتبته تخوّله آنئذٍ مثل هذا الامتياز.

---

(١) الشخص العامل في "التشي.كا"، وهي تطلق الآن بالروسية على الشخص العامل في الأجهزة السرية - المترجم.

سوف أعود لاحقاً إلى الذكريات عن أسرتنا. وأود الآن التحدث قليلاً عن والدي. فقد ولد في ١٧ (٣٠)[1] آذار/مارس ١٨٩٩، وكان يحلم بدراسة الهندسة المعمارية، وكان رساماً جيداً. أتذكر واقعة تعود إلى فترة طفولتي. على الرغم من نظرة الاحترام العميق إلى الدين، إلا أنني لم أصبح رجلاً مؤمناً. أما في تلك الفترة، وكنت لا أزال يافعاً، فقد كنت ملحداً متصلّباً وحطّمت في أحد الأيام أيقونة. من المضحك، طبعاً، الحديث في هذا الصدد عن قناعات ما، فأغلب الظن أن الأمر يرجع إلى التربية التي تلقيت في المدرسة. لقد تكدّرت جدتي مارتا كثيراً، إذ إنها كانت امرأة مؤمنة وبقيت حتى أيامها الأخيرة تمد يد المساعدة للكنيسة وروادها.

حين رجع أبي من العمل هدّأ من أجيج حماسي الإلحادي و...قام برسم أيقونة جديدة. وبقي ذلك الحديث ردحاً طويلاً من الزمن في ذاكرتي: "ينبغي التعامل باحترام مع قناعات الآخرين".

كان أبي متعدّد المواهب. فقد كان يرسم بالفحم والأكواريل والزيت وكان يحب الموسيقى ويفهمها. في أحد الكتب السياسية الصادرة في الغرب يوصف بيريا بأنه "القائد السوفياتي الوحيد الذي كان يسمح لنفسه الاستمتاع بالرفاهية على النمط الغربي". فهم يذكرون سيارة "باكّارد" تم الحصول عليها، بحسب زعمهم، عبر السفارة السوفياتية في واشنطن، ومنزلاً صيفياً[2] فخماً كان يملكه في يوم من الأيام الكونت أورلوف، ومنزلاً صيفياً آخر من المرمر في مدينة سوتشي. كما يذكرون ملاعب تنس وطاولات بليارد وحقلاً للرماية وحوض سباحة مقفل وزوارق سريعة. ويبلغ بهم الأمر درجة التأكيد أن البذلات كانت تُخاط لوالدي في روما ولندن، وأنه كان يمتلك واحدة من أفضل مجموعات

(١) بعد ثورة أكتوبر تم في الاتحاد السوفياتي تقديم التقويم السنوي ١٣ يوماً. فأصبح، مثلاً، الاحتفال بقيام الثورة في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر يجري في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر- المترجم.

(٢) المقصود بالمنزل الصيفي هو الداتشا، وهي عبارة عن بيت في ضواحي المدينة، يستخدم لقضاء العطلة الصيفية وعطلة آخر الأسبوع أحياناً - المترجم.

الاسطوانات في البلاد، وكان يشرب الكونياك الفرنسي، ولم يكن يقرأ سوى شعراء الماضي الرومانطقيين...

ما الذي يمكن قوله بهذا الصدد؟ إنها كومة من الأكاذيب. كانت والدتي كثيراً ما تقوم بشراء اسطوانات مصنع "ابريل"[1] التي تحمل تسجيلات الموسيقى الكلاسيكية وتستمع إليها مع والدي بكل سرور. أما بخصوص الشعر، فلم يكن أبي يقرأه، على ما أذكر. كان يحب الأدب التاريخي، ويبدي اهتماماً دائماً بالمؤلفات الاقتصادية فقد كان هذا أقرب اليه.

لم يكن أبي يدخن التبغ،وكان يكره الكونياك والفودكا. لكن حين كنا نجلس إلى المائدة كانت زجاجة النبيذ حاضرة دائماً، لم يكن أبي يشرب سوى النبيذ الجورجي الجيد وبكميات معتدلة، كما يُقال. ولم أره ثملاً في يوم من الأيام. أما هذه الخرافات حول السكر الذي لا صحو منه، فلا تستحق التعليق عليها.

إن الحديث عن بذلاتٍ من روما ومن لندن، ولا أدري من أين أيضاً، حديث مثير للضحك. وبوسعكم أن تتأملوا جميع صور والدي لتروا كم كان شكل بذلاته أخرق. كان يخيط هذه البذلات رجل من عائلة فورمان. ولم يبلغ مسمعي ذكر بذلات أخرى. لم يكن أبي يعير هذه الأمور اهتماماً، على ما أعتقد. فقد كانت طبيعة الحياة مختلفة كلياً عما هي عليه الآن. قد تسمّون ذلك نفاقاً أو ما شئتم، لكن العيش المترف لم يكن من عادات قادة الدولة يومئذٍ. إنَّ أسرتنا، على الأقل، لم تعرف السعي إلى الترف في يوم من الأيام.

كان يوجد بيت صيفي واحد تم تشييده حديثاً، ولا يمتّ بأية صلة، بالطبع، للكونت اورلوف. وكانت ملكيته تعود للدولة وليس لأبي، وهو مكوّن من خمس غرف ليست كبيرة، بما فيها غرفة الطعام. وكانت توجد في إحدى الغرف طاولة بليارد.

---

(١) المؤسسة التي كانت تحتكر إنتاج التسجيلات الموسيقية في الاتحاد السوفياتي ـ المترجم.

حين انتقلنا من تبليسي إلى موسكو، حصل والدي على شقة في بيت تملكه الحكومة كانوا يطلقون عليه أيضاً تسمية " بيت السياسي المحكوم بالأشغال الشاقة". وكان يعيش في هذا البيت وزراء وعسكريون كبار وبعض أعضاء اللجنة المركزية. وفي إحدى المرات دخل ستالين شقتنا وبادر إلى القول: "لن تعيشوا في وكر النمل هذا، عليكم أن تنتقلوا إلى الكرملين !". لكن والدتي لم ترغب في ذلك. حينئذٍ قال ستالين: "حسناً، كما ترغبون. إذاً سوف أُفتش عن بيت منفرد".

بعد زيارة ستالين، استبدلنا البيت الصيفي أيضاً. كان عندنا بيت صغير يتكون من ثلاث غرف ليست كبيرة، ويقع في منطقة بلدة ايلينسكويه على أوتوستراد روبلوفسكي. مرّ ستالين لزيارتنا وقال بعد أن تفقّد البيت: "كان سكني في المنفى أفضل من ذلك". وتم نقلنا إلى بيت صيفي يقع في جوار منزِلَيْ كاغانوفيتش وأوردجونيكيدزه. لم تكن توجد عند أحد من هؤلاء أحواض سباحة وملاعب للتنس. أذكر فقط المنزل الصيفي للماريشال كونيف، الذي كان يربّي طيور طاووس حملها معه من ألمانيا.

أما السيارة من طراز "باكّارد" فقد كانت موجودة بالفعل، كما لدى سائر أعضاء المكتب السياسي. وأعتقد أنه تم شراء خمس عشرة سيارة آنئذٍ،خصصوا واحدة منها لوالدي. إلا أنه، خلافاً لستالين ومولوتوف وفوروشيلوف والآخرين لم يتنقل أبي في هذه السيارة المصفحة، بل كان يستخدم سيارة عادية.

إنني لا أسوق هذا القول لأؤكّد أنَّ قادة الدولة لم يكونوا يتمتعون بأية امتيازات. كان بوسع والدتي، كما سائر زوجات أعضاء المكتب السياسي، ألا تذهب إلى السوق للتبضع. فقد كانت توجد إدارة متخصصة. وكان الشخص التابع لهذه الإدارة يتلقى الطلبية ومبلغاً من النقود ويشتري كل ما هو ضروري لهذه الأسرة أو تلك. أما الإسراف فلم يكن مسموحاً به حتى فيما لو برزت مثل هذه الرغبة لدى شخص ما من المحيطين بستالين.أسوق مثالاً واحداً فقط: أنا شخصياً كنت أملك بنطالاً واحداً لا غير. إنَّ أول معطف من الفرو حصلت عليه والدتي في حياتها كان هدية مني حين مُنحت جائزة الدولة. ويجب ألا يُفهم من

هذا أن أبي وأمي كانا فقيرين. كلا، بالطبع. لكن في تلك السنوات، وأقولها ثانية، لم تكن حياة الترف مقبولة. فقد كان ستالين نفسه شخصياً متقشفاً لا يحب الإسراف. ومن الطبيعي أن يترك هذا الأمر تأثيره على المحيطين به أيضاً.

لم يكن ستالين يُخطر عن زياراته مسبقاً. وكان هو نفسه يحب الطعام البسيط، ويتأمل كيف يعيش الآخرون. ولم أر أنا قط، لا عندنا ولا في بيوت ستالين الصيفية، موائد البذخ تلك التي كُتب عنها هذا الكم الهائل مما كُتب. كما لم أر على هذه الموائد الفودكا والكونياك، بل كان يوجد دائماً النبيذ الجورجي الجيد. مذاق الترف استطابه قادة البلاد لاحقاً، لكن ليس في تلك الأيام. أتذكر حادثة جرت مع مفوض الشعب (وزير) لطرق المواصلات كوفاليوف. فقد أهدى مرة زوجته أقراطاً من الماس بمناسبة عيد ميلادها. مثل هذه الأقراط تحملها الآن تلميذات مدارس. أبلغ الأمر إلى ستالين فوراً، وطُرد المسكين من الحزب ومن العمل دون أخذ وردٍّ في الموضوع. وقد ساعده أبي فيما بعد في تدبّر أمره... هل كان هذا السلوك صائباً أم لا؟، لا أحكم أنا في الأمر. ومن الجائز أن مثل هذا الزهد لم يكن ضرورياً، إلا أنه كان موجوداً.

صادفت في الصحافة أكثر من مرة ذكر "وقائع" على غرار أنه تم العثور في منزلنا أثناء تفتيشه على مئات الآلاف من الروبلات وعلى مجوهرات وأربعين قطعة سلاح... جميع هذه الأخبار الملفّقة لا تستحق التعليق عليها. فمثلاً، كان يعيش في تبيليسي خياط اسمه ساشا. وقد نسيت حتى اسم عائلته. جاء مرة إلى موسكو وطلبت منه والدتي أن يخيط لها فستاناً. هذه الحادثة تم تذكير والدتي بها أثناء التحقيق بوصفها "استغلالاً للعمل المأجور!". وجّهوا إلى والدتي الاتهام أيضاً بأنها نقلت من منطقة التربة غير السوداء دلو تربة حمراء مستخدمة وسيلة نقل تملكها الدولة، وهي الطائرة. كانت والدتي تعمل في الأكاديمية الزراعية وكانت تشتغل آنئذٍ بالفعل في دراسة التربة.

حماقة تتلو حماقة! فقد اتُّهمت والدتي أيضاً بأنها كانت تركب خيلاً مزينّة بأجراس من ذهب. كانت والدتي تحب ركوب الخيل بالفعل، وكانت ترتاد

أماكن ممارسة هذه الهواية. أما قصة الأجراس الذهبية هذه، فهي بالطبع قصة أخرى من القصص الملفّقة.

جميع هذه "الاتهامات" سوف تتكاثر، مع مرور الوقت، طباعة ونسخاً، وسوف تجول في العالم وهي تجمع حول نفسها أساطير جديدة. ومن هذه الأساطير على سبيل المثال، الأسطورة التالية: يزعمون أنه كان لأبي حرس خاص يتميز بقسوته ويتكون من مئتي عنصر من الجورجيين. وإذا صدّقنا المصادر الغربية هذه، فإن هذا الحرس "كان يحب بيريا كزعيم لقبيلته". تلك أساطير بالطبع، إلا أنَّ خلفية هذه الأساطير واضحة تماماً: رجلان من جورجيا[1] احتلا روسيا وعاثا فيها فساداً. كان يوجد حرس بالطبع، ومن جورجيا أيضاً. كما كان يوجد من جورجيا كذلك عاملون في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD)، غير أن الأمر الوحيد الصحيح في كل ذلك هو أنّ الحرس الشخصي كان يحب والدي، بالفعل. وكان هو بدوره يتعامل معهم على نحو جيد. وكان تعداد هذا الحرس لا يزيد على ١٠ أو ١٢ شخصاً، ولم يكن هؤلاء يخدمون في وردية واحدة. لم أر أكثر من ثلاثة اشخاص قط. وعادة كانت تسير سيارة مرافقة واحدة خلف سيارته. ذلك هو كل حرسه. وكان يتواجد عند بوابة البيت الصيفي رجل، لكنه لم يكن عسكرياً. وثمة تفصيل آخر مثير: لم يكن في عداد حرس والدي الشخصي سوى جورجي واحد وأرمني هو سركيسوف. أما البقية، فكانوا من الروس والأوكرانيين.

مهما بدا الأمر مستغرباً، إلا أنهم أفلحوا في إعادة كتابة سيرة حياة والدي على نحو يصعب التعرف إليها. فإذا صدّقنا بعض المطبوعات، يكون والدي واحداً من قادة الدولة في مطلع الثلاثينيات. لكن الأمر ليس كذلك، بالطبع. لقد انضم والدي في مرحلة مبكرة إلى الحركة الثورية، فقد كان لا يزال في المدرسة حين نظم حلقة ماركسية سرية.

في حزيران/يونيو ١٩١٧، أرسل إلى الجبهة الرومانية بوصفه تقنيّاً متدرّباً

---

(١) هما: ستالين وبيريا ـ المترجم.

في المدرسة الهيدروتكنيكية العسكرية. وجاءت الثورة، وكان والدي قد سبق أن انخرط قبل الثورة في العمل السري وتم اعتقاله، ثم عاد مجدداً إلى العمل السري ثم اعتُقل من جديد...

سارت حياة والدي بعد الثورة على نحو مختلف تماماً عما كان قد خطط له. فلم يصبح مهندساً معمارياً كما كان يحلم، بل انخرط في العمل بالتنقيب عن النفط. وقد أحب عمله هذا، حتى أنهم كانوا ينوون إرساله للدراسة في بلجيكا، وهو ما ذكره بنفسه أكثر من مرة فيما بعد. لكن حياته لم تنتظم هنا أيضاً. في العام ١٩٢١، أصبح والدي نائب قائد وحدة العمليات السرية في التشي.ك الأذربيجانية، ثم قائداً لها. ثم انتقل بعدئذٍ ليصبح رئيساً للتشي.ك الجورجية. وكان قد عمل قبل ذلك، ولفترة قصيرة، في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في أذربيجان، إضافة إلى الدراسة في معهد البوليتكنيك في باكو في تلك الفترة.

ثمة وثائق لا تزال موجودة تتعلق بعمل أبي في أذربيجان يعود تاريخها إلى العام ١٩٢٣.

مقتطفات من الملف الشخصي لبيريا:

"يتمتع بمؤهلات كثيرة برزت في مختلف أجهزة الدولة... وقد نفّذ بمثابرته وحيويته المعهودتين جميع المهام التي أوكلها إليه الحزب وأحرز نتائج باهرة بنشاطه المتعدد الوجوه.. يجدر تقديره بأنه العامل الأفضل الذي لا يعرف الكلل، والضروري جداً في المرحلة الراهنة من بناء النظام السوفياتي".

ويحمل هذا التقويم لبيريا توقيع سكرتير اللجنة المركزية أخوندوف. هكذا كان الرؤساء المباشرون يقدرون عالياً هذا التشيكيست الحيوي الشاب الذي فُصل للعمل في التشي.ك. ومن الواضح أنه، ليس دون مباركة دزيرجنسكي، مُنح والدي وسام الراية الحمراء ومسدس "براونينغ" وساعة يحملان اسمه. في سن الثانية والثلاثين أصبح والدي رئيس المديرية السياسية (GPU) في ما وراء القفقاز وفي جورجيا، والرئيس المفوض للمديرية السياسية الموحدة (OGPU)

في ما وراء القفقاز. ثم انتقل بعد ذلك إلى منصب أرفع هو منصب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب في جورجيا وقائد المنظمة الحزبية في ما وراء القفقاز قبل أن ينتقل إلى موسكو. إنّه صعود خاطف للسلم الوظيفي، بكل تأكيد، لكن أين يكمن مصدره؟ هل هو في احتضان ستالين له،كما يكتبون عادة؟ إطلاقاً، ليس كذلك، إذ أن الرجلين لم يكونا على معرفة أحدهما بالآخر آنئذٍ. اذاً أين يكمن مصدر هذا الصعود؟

عادة، كان يوجد سبيل واحد لا غير. فمالينكوف، مثلاً، وعلى غرار الكثيرين سواه، بدأ صعود سلم الوظيفة في القسم التنظيمي للجنة المركزية. ولا يشكّل خروتشوف استثناءً من القاعدة، فهو أثار انتباه ستالين والقيادة الحزبية العليا حين تمكّن من ضرب المعارضة التروتسكية. لقد كانت الوشايات والدسائس السمة النموذج للسلوك في ذلك الوقت. أما سيرة حياة والدي، وأقصد السيرة الحقيقية التي تستند إلى الوقائع الفعلية وليس إلى الأوهام، فهي تختلف اختلافاً شديداً عن سيرة حياة الغالبية. إنَّ صعوده السريع للسلم الوظيفي، حتى بمقاييس تلك الأيام، يعود بالدرجة الأولى، إلى الموقف الذي اتّخذه في العام ١٩٢٤ من انتفاضة المناشفة في جورجيا. هذا الموقف بالذات جعل المكتب السياسي يلتفت حينئذٍ إلى والدي.

ما الذي حصل آنئذٍ؟ في العام ١٩٢٤ كان والدي نائباً لرئيس التشي.ك الجورجية وبلغه قبل، متّسعٍ من الوقت، أنَّ المناشفة يُعدّون للقيام بانتفاضة. فاقترح والدي، الذي كان يعرف الحجم الذي ستتخذه الأحداث المقبلة، اتّخاذ كلٍّ التدابير السياسية للحؤول دون إراقة الدماء. وقام أوردجانكيدزه بإبلاغ هذه المعلومات إلى موسكو. كان الوضع مثيراً للقلق، فالمخابرات تملك معلومات مؤكدة بأنه قد تم إعداد خطة متكاملة للانتفاضة، ويجري إعداد فصائل للمشاركة فيها، ويتم إنشاء مخازن للأسلحة. وسوف تندلع الأحداث في كل أنحاء الجمهورية وتبدو وكأنها انتفاضة شعبية شاملة، حتى لو لم تكن في حقيقة الأمر كذلك.

كان والدي يدرك أن هذه المغامرة محكومة بالفشل سلفاً، وسوف تسفر عن

ضحايا كُثُر. فكان ينبغي اتخاذ تدابير عاجلة للحؤول دون إراقة الدماء. وقد اقترح والدي تسريب المعلومات التي تم الحصول عليها. وكان يهدف من وراء اقتراحه هذا إلى جعل القادة المناشفة يعرفون من مصادر موثوقة أنَّ التشي.ك الجورجية تمتلك معلومات كاملة حول الانتفاضة التي يتم الإعداد لها، وبالتالي يصبح توقع نجاحها أمراً لا معنى له. لم يعترض أورجنكيدزه على الاقتراح، بعد حصوله على موافقة موسكو، كما يبدو. ففي ذلك الموقف غير السهل كان هذا الاقتراح يمثّل الحل الوحيد الصحيح. إلا أن المناشفة لم يصدّقوا المعلومات التي تم تسريبها إليهم واعتبروها تضليلاً ليس إلا. ويبدو أن فرنسا وبريطانيا كان لهما التأثير الحاسم على رأي المناشفة بالوحي إليهم بأنْ "إبدأوا وسوف تلقون الدعم من جانبنا".

وتطورت الأحداث لاحقاً على النحو التالي: تم إرسال أحد زعماء حركة المناشفة، وهو قائد الحرس الوطني دجوغيلي، إلى جورجيا. وقد علم والدي بانتقاله مسبقاً من خلال مخبريه، واتخذ، بالطبع، التدابير اللازمة. فقد تم وضع فاليكو دجوغيلي تحت المراقبة منذ لحظة عبوره الحدود، ولم يكن أحد في عجلة من أمره لاعتقال هذا الزعيم من زعماء المناشفة البارزين، بل تقرّر استخدام وجوده في جورجيا لصالح الخطة المرسومة. فقام والدي عبر قنواته الخاصة بتحذير دجوغيلي من أن عبوره الحدود لا يشكّل سرّاً يخفى على التشي.ك الجورجية، وعليه أن يقتنع بنفسه بأن الانتفاضة محكومة بالفشل.

لكن، للأسف، اعتُبرت هذه المعلومات أيضاً بمنزلة تضليل من قبل رجال التشي.ك. فقد اعتقد دجوغيلي أن التشي. ك الجورجية تخشى الاضطرابات الجماهيرية في البلاد وهي عاجزة عن الحؤول دون وقوعها، ولهذا تحاول بشتى السبل إقناع القيادة المنشفية بعدم القيام بذلك.

تم اعتقال دجوغيلي لاحقاً، لكن بفعل مصادفة مؤسفة، إذ تعرف إليه في الشارع أحد معارفه القدامى وجرى اعتقاله رسمياً. وتم إطلاع دجوغيلي في السجن على المعلومات التي تمتلكها مخابرات التشي.ك الجورجية، فكتب رسالة إلى مناصريه حاول فيها إقناعهم بالتخلّي عن فكرة الانتفاضة. لكن

هؤلاء، سواء في الخارج أم في الداخل، رفضوا الاستماع إليه. وقام المناشفة بتنظيم الانتفاضة، إلا أن الجيش، وكما كان متوقعاً، قمعها وتكبّد الشعب تضحيات غير مبررة كان يمكن تفاديها كلياً. وكان بالإمكان تفادي سفك الدماء لو تدخّل أورجنكيدزه. فقد جرى اعتقال جميع قادة الانتفاضة ومصادرة مخازن الأسلحة في الساعات الأولى منها. ولم يقمع الجيش في الحقيقة، سوى الناس المعبّئين والعُزّل.

ولكن بصرف النظر عما انتهى إليه الأمر، فقد لفت أبي الانتباه إليه بعد أن بذل ما في وسعه من جهد للحؤول دون إراقة الدماء. وبالمناسبة، لقد كان أبي يؤيد دائماً المعالجة السياسية لمختلف القضايا ويرفض اللجوء إلى القوة. وسوف يتسنّى غير مرة للقارىء أن يقتنع بهذا الأمر.

لقد كان تحليلياً بطبعه، ولم يتعجل قط في الاستنتاجات، إذ كان يرفض الاستناد إلى انفعالاته الذاتية فحسب، في فهم هذه الأحداث أو تلك. وكان يعتبر أن هذا الأمر ليس مسموحاً به على الإطلاق للرجل السياسي. إن عمله الطويل في المخابرات قد ترك، دون أدنى شك، بصماته في تكوين طبعه. فقد كان الاستنتاج الذي يتوصّل إليه يستند دائماً إلى معلومات ملموسة تم درسها بعمق. وأستطيع أن أحكم في ذلك من خلال سعيه لتكويني كشخصية، وكيف كان يدرّبني على العمل المنظّم ودراسة المعلومات ومقارنة الوقائع وبلورة التوقعات.

من الواضح أن ميله القديم إلى التقنيات قد ترك تأثيره عليه. فالاشتغال في التقنيات يتطلب عقلاً تحليلياً، حتى لو لم يكن المرء على علاقة مباشرة بحساباتها. فقد راقبته غير مرة كيف كان يتخذ خلال مدة لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة أخطر القرارات المتعلقة بسلاح جديد، على سبيل المثال. لكن ذلك كان ظاهر الأمر لا غير، إذ كنت على معرفة حقة بما يقف وراء ذلك. فمثل هذا القرار كان يسبقه عمل هائل، لا يقتصر على الاجتماعات واستشارات الاختصاصيين التي تمتد لساعات طويلة، بل يتعدّى ذلك إلى العمل المنفرد في دراسة المعطيات المتوافرة. هذا ما كان عليه الأمر، كما أذكر، حين تقرر مصير خطة السلاح النووي ومخطط الصواريخ البالستية وأنظمة الدفاع الجوي وسواها.

إضافة إلى ذلك كان رجلاً مثابراً لا يحيد عن هدفه. وكان دائماً ينجز العمل الذي يبدأ. ولم يكن يتحاشى العمل الخشن والتنقلات المرهقة.

لم يغير قط، على ما أذكر، العادات التي اكتسبها في شبابه. فكان ينهض من سريره في السادسة صباحاً، وبعد التمارين البدنية كان يعمل لمدة ثلاث ساعات على الأقل في الملفات التي بحوزته. وحين كان يعود من العمل، يتناول طعام العشاء، ثم يدخل مكتبه حيث كان يعمل مجدداً لمدة ساعتين أو ثلاث. ولم تكن تشكل استثناءً سوى تلك الأيام التي كانت تطول فيها الاجتماعات الهامة.

تلك هي مكونات تلك النتائج الملموسة التي كان يُحرزها. وخلافاً لأعضاء المكتب السياسي الآخرين المنشغلين باستمرار، وهذا ليس سراً، بالديماغوجية وقضايا "الكادر"، كانت تُوكل إلى أبي قضايا ملموسة دوماً. إن العمل الحزبي، كما أفترض، كان هو الآخر يتطلّب علاقات مع الناس ومعالجة قضايا تنظيمية ما. إلا أنني على قناعة عميقة، بأن هذا العمل كان يثير الضجر في نفس والدي لأنه لا يعطي، بل لا يمكنه أن يعطي، نتائج ملموسة، وبالتالي ذلك الشعور بالرضى عما تم عمله. فحين تم نقل والدي من المخابرات إلى العمل الحزبي في مطلع الثلاثينيات لم يكن يخفي استياءه من الأمر. إلا أنه لم يجلس في مكانه هذا مكتوف اليدين. لم ينخرط في العمل الحزبي بالمعنى المتعارف عليه لهذا العمل، بل تركه في عهدة الجهاز الحزبي، وتفرغ خلال السنوات القليلة تلك للنهوض باقتصاد جورجيا مستفيداً من حقوقه كزعيم للجمهورية. وقد أشار مراراً فيما بعد إلى أنه لا ينبغي أن يحل الحزب محل الهيئات الاقتصادية. لكن، كما يبدو، كان يستحيل في الثلاثينيات، أن يكون الأمر غير ذلك. لقد كان بوسع السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب في الجمهورية، إنْ لم يكن بيروقراطياً بطبيعته، أن يفعل الكثير في الصناعة والزراعة وفي قطاع البناء. لقد أتاح منصب السكرتير الأول للجنة المركزية الفرصة للتدخل الفعّال بالقضايا الاقتصادية ومعالجتها على أرفع المستويات بشكل لم يكن بوسع المسؤولين الاقتصاديين أن يقوموا به مهما خلصت النيات.

لكن الهيئات الحزبية تحولت لاحقاً، وللأسف، إلى هيئات مراقبة لا أكثر، بعيدة كل البعد عن معالجة المهمات الملموسة.

قد يبدو الأمر مستهجناً، إلا أن والدي كان رجلاً وديعاً. وهو يبدو مستهجناً لأنه قد كُتب خلال السنوات الأربعين الأخيرة الكثير من التحقيقات التي تزعم أن والدي كان يقوم بالتحقيقات في أقبية لوبيانكا[1]، وتتحدث عن ضيقه بالرأي الآخر، وعن فظاظته... إنني أقول بالفم الملآن إن هذا كله كذب وقح. فلقد تم بإصرار منه حظر استخدام أي شكل من أشكال العنف بحق المتهمين. وتوجد في الأرشيف رسالة بهذا الخصوص موجهة منه إلى المكتب السياسي للجنة المركزية. إنه هو الذي بذل ما بوسعه لوقف عجلة الاضطهاد وتطهير أجهزة أمن الدولة من العاملين الذين تلطخت أيديهم بالمشاركة النشطة في التنكيل الجماعي. على كلٍّ، إن هذا الموضوع هو موضوع حديث بحاله لا أنوي التهرّب منه مهما كان الأمر. وأكتفي الآن بالقول إن أبي لم يكن كذلك، بل لم يكن بوسعه أن يكون كذلك، لأنه كان يرفض العنف بكل أشكاله. وهم يتجنبون الحقيقة كذلك حين يشيرون إلى أن أبي قد شتت "الأجهزة" المسؤولة عن فضائح الثلاثينيات حين أصبح مفوض الشعب للشؤون الداخلية. فلم يترك الأجهزة بل لم يجبر أحداً على تركها، سوى أولئك المحققين والعاملين في حراسة المعسكرات الذين خرقوا القانون. ولم يكن أبي ليصفح عن ذلك لا حاضراً ولا مستقبلاً. في حين أن الآلاف الآلاف من العاملين الشرفاء قد استمروا في العمل في مكافحة الجريمة وفي المخابرات وأجهزة مكافحة الجاسوسية. ولقد ارتبط مجيء مفوض الشعب الجديد، على ما أعلم، بإعادة تنظيم الأجهزة الأمنية وإطلاق سراح مئات الآلاف من الأبرياء في السجون ومعسكرات الاعتقال.

قلائل هم الذين يعرفون اليوم أن أبي قد عُيّن مفوضاً للشعب للشؤون الداخلية في آخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨. والأشخاص المسنّون يذكرون

(١) المقر الرئيسي للأجهزة الأمنية السوفياتية في موسكو - المترجم.

جيداً متى توقف الاضطهاد في الاتحاد السوفياتي. وبعد العام ١٩٤٢، لم يعد لوالدي أية صلة بأجهزة أمن الدولة، وهذا الأمر معروف. فخلال الحرب حل محلّ والدي في هذا المنصب فسيفولاد ميركولوف. وبعد الحرب، تسلّم قيادة الأجهزة الأمنية كل من أباكوموف وايغناتييف. ومع ذلك حين يتحدثون عن كل جرائم النظام بعد الحرب يفضلون أن لا يتذكّروا ذلك. فبين الحين والآخر، تطالعك المصادر المختلفة بالحديث عن ل.ب. بيريا كوزير للداخلية. وكل ما في الأمر أن والدي ترأس فعلاً وزارة الداخلية في آذار/مارس ١٩٥٣. لكن لم يتسنّ له العمل هناك أكثر من ثلاثة أشهر. وأعتقد أن القارىء يرغب في الاطلاع على هذه الصفحة من حياة والدي. إلا أنني الآن أكتفي بالقول إنه لم تكن لديه أية رغبة في شغل هذا المنصب. ومن المؤسف أن نيكيتا سيرغييفتش خروتشوف لم يورد في مذكراته كيف بقي خلال عدة أيام في بيتنا الصيفي يقنع أبي قائلاً: "عليك أن تقبل وزارة الداخلية، فالأمور بحاجة إلى ترتيب هناك". كان أبي يرفض معلّلاً رفضه بانشغاله الشديد في قضايا الدفاع. إلا أن المكتب السياسي استمر في الإصرار على رأيه، ولم تكن حجج المطالبين بتسلّم والدي وزارة الداخلية أقلّ إقناعاً من حججه. فهو قام في حينه بعمل الكثير لإعادة هيبة القانون إلى الأجهزة الأمنية، والوضع القائم فيها حالياً شبيه بالوضع في الماضي ويحتاج لتدخل شخص ذي خبرة، فكان والدي مكرهاً على قبول الأمر.

أعتقد أن كل ذلك جرى ترتيبه بهدف بعيد هو تحميل جميع الخطايا في المستقبل لوزير الداخلية الجديد. فقد كان ينبغي إيجاد تفسير ما أمام الشعب لحملات القمع قبل الحرب والجرائم اللاحقة للنظام. وكان أبي، كما اعترف خروتشوف نفسه فيما بعد، هو الشخص المناسب. والمستغرب أن تحويراً بسيطاً في التواريخ كان كافياً لتشويه الحقائق كلها. فمن بربكم يذكر اليوم، وبخاصة من جيل الشباب، من ومتى كان وزيراً للداخلية؟

كثيرون من المؤرّخين، على سبيل المثال، يلمحون بلا مواربة إلى مسؤولية والدي عن موت سيرغو أورجنكيدزه ومقتل سيرغي ميرونوفيتش كيروف.

وتتحدث عن ذلك سفتلانا أليلويفا[1]، أيضاً حيث تقول: "ومرّ صيف العام ١٩٣٤ على هذا النحو أيضاً. إذ كان كيروف معنا في سوتشي. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر، أطلق نيكولاييف رصاصته... أليس من الأفضل ومن المنطقي أكثر ربط هذه الرصاصة باسم بيريا وليس باسم والدي، كما يفعلون الآن؟ إنني لن أصدق أبداً بأن لوالدي علاقة بحادث القتل هذا... وكان لأسرتنا صديق قديم أيضاً فقدناه في العام ١٩٣٦، وأعتقد، ليس من دون دسائس بيريا وسفالته، إنني أتحدث عن غيورغي كونستنتينوفيتش (سيرغو) أورجنكيدزه". إنني على ثقة بأن القارىء قد صادف مثل هذه الاتهامات كثيراً. لكن من يعرف كم كان هذان الشخصان عزيزين دائماً على أبي وعلى كل أسرتنا. سيرغو أورجنكيدزه هو "عرّابي". وقد سُميت أنا سيرغو تيمناً باسمه. وحين كان والداي يسافران من تبليسي إلى موسكو كانا يقيمان في بيته. كما أن سيرغو نفسه كان كثيراً ما يقيم عندنا حين كان يسافر لضرورات العمل أو للاستراحة في جورجيا. هكذا كانت علاقتنا.

أما سيرغي ميرونوفيتش كيروف فقد انتشل أبي مرتين من سجن المناشفة. وحين قُتل كيروف كان أبي يعمل في جورجيا، إلا أنه قال لاحقاً أن لا وجود لأية مؤامرة كما كتبت الصحف. فالقاتل كان شخصاً منفرداً. وحين أصبح أبي على رأس وزارة الداخلية رجع، بالطبع، إلى هذه القصة المأساوية وحاول الوقوف على تفاصيل ما حدث. إلا أنه لم يعثر على أية وثائق تسمح بتفسير مغاير لمقتل سيرغي ميرونوفيتش. هذه الوثائق لم تكن، بالطبع، موجودة أيضاً لدى أولئك الذين اتهموا فيما بعد ستالين بتنظيم حادث الاغتيال هذا. ومع ذلك لا تزال هذه الرواية تعيش حتى الآن. فقد كتبت سفتلانا أليلويفا أنه، خلال الحرب الأهلية في القفقاز، "تم اعتقال بيريا من قبل الحمر، وأصدر كيروف أمراً بإعدام الخائن رمياً بالرصاص"... وكيف يمكن التعليق على التأكيدات التي

(١) ابنة ستالين. وهي معروفة باسم عائلة والدتها ناديجدا أليلويفا التي انتحرت بإطلاق النار على نفسها في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٢. ولد لناديجدا من ستالين سفتلانا وفاسيلي. أما ياكوف، الابن البكر لستالين، فهو من أم جورجية توفيت في العام ١٩٠٩- المترجم.

تشير إلى أن بيريا كان عميلاً لمخابرات حزب "المساواة"[1]؟ وقد تردّد هذا الاتهام بحق والدي حتى في الاجتماع الموسع للجنة المركزية الذي طُرد خلاله أبي من الحزب بعد مقتله. أمّا وأنَّ أبي قد عمل في جهاز مكافحة الجاسوسية في باكو وبموجب مهمة من حزب البلاشفة، فلم يكن الأمر سراً يخفى على أحد في يوم من الأيام. فهناك بالذات بدأ نشاطه في المخابرات. وأفضل من يعرف هذا الأمر هو أنستاس ميكويان الذي كان يعمل هناك بموجب المهمة نفسها.

في الاجتماع الموسع للجنة المركزية قاموا، وببساطة، بتشويه الوقائع المعروفة من الجميع. وقد أخبرني ميكويان فيما بعد بأنه تحدّث في ذلك الاجتماع مدافعاً عن أبي وروى ما يعرف. ولكن للأسف، تبيّن أن هذا أيضاً ليس صحيحاً.

لم يكن لدى القيادة الحاكمة، بل كان من المستحيل أن يكون لديها أية إثباتات لإدانة والدي. إلا أن تشويه صورته في عيون الناس كان ضرورة ملحّة، إذ إن الأسطورة كانت معرّضة للانهيار... حين ينتهي القارىء من قراءة هذا الكتاب آمل أن يتوصل إلى استنتاجات ما. وما أسرده أنا ليس سوى ملامسات لصورة الرجل الذي كان يؤدي عمله بإخلاص، وكان ابناً طيباً وأباً طيباً، وزوجاً محباً وصديقاً وفياً. إنني، كسائر الذين عرفوه خلال سنوات طويلة، لم أتمكن من التسليم بالادعاءات التي تنشرها الدعاية الرسمية حول أبي. هذا مع العلم أن من السذاجة أن ينتظر المرء غير ذلك من النظام الذي يقوم في أساسه على الكذب.

حين أتكلم عن والدي تطفو في الذاكرة صور الطفولة المنسية من زمان.

---

(١) حزب "المساواة": حزب أذربيجاني تأسس في العام ١٩١١، وكان يدعو في برنامجه إلى الاستقلال الذاتي لأذربيجان وإلى الوحدة الإسلامية والوحدة التركية، وقف إلى جانب الإنكليز والأتراك في حرب التدخل ضد النظام السوفياتي. في العام ١٩١٨ نجح في تسلّم السلطة في أذربيجان وبقي حتى العام ١٩٢٠، حين أعيد النظام السوفياتي إلى أذربيجان، وتم إلغاء هذا الحزب - المترجم.

لقد كنت منذ الطفولة أهتم بالتقنيات، وكان والدي يشجعني على ذلك بكل ما أوتي. لقد كان شديد الرغبة في دخولي أحد معاهد التعليم العالي الفنية لأصبح مهندساً. ومن الأمثلة البالغة الدلالة على تنشئتي في هذا الاتجاه، أنه لم يسمح لي بقيادة السيارة إلا بعد أن قمت، بمساعدة ميكانيكيين مدربين، بإصلاح سيارة فورد قديمة كانت متوقفة في المرآب بين غيرها من السيارات العتيقة. لقد كان والدي يدربني على العمل منذ نعومة أظفاري، الأمر الذي يجعلني ممتناً له حتى يومي هذا.

كان عادة يحمل معه إلى البيت مجموعة مجلات أجنبية، ويسألني ترجمة هذه المقالات أو تلك، أو كتابة ملخص عن هذه الموضوعات أو تلك. ولم أدرك إلا متأخراً أنه لو كان الأمر جدياً لكان كلّف مترجمين محترفين القيام بمثل هذا الأمر. غير أنه كان بهذا الأسلوب "الذكي" يجبرني على العمل. وعلى الرغم من ضيق الوقت لدى والديَّ، فإنهما كانا يعتنيان كثيراً بتربيتي. فقد كانا يجبرانني على الاهتمام باللغات والموسيقى، وكانا قدوة لي في ممارسة الرياضة.

درست في المدرسة اللغات الألمانية والإنكليزية ومن ثم الفرنسية والدانمركية والهولندية. أقرأ قليلاً باليابانية. ولا حاجة إلى القول كم أفادني ذلك في حياتي.

أتذكر رحلاتنا للتزلج على الثلج في ضواحي موسكو ونزهاتنا في الغابة. لقد كان أبي يحب الاستجمام النشيط ويعرف كيف يستجم. أذكر أننا قضينا سوية مدة أسبوعين نجهّز ملعباً للرياضة. فقد وجدنا مدحلة يدوية صغيرة لرصّ التربة واشترينا شبكاً للكرة الطائرة. لقد كنا سعيدين جداً.

حين كنا نسافر إلى الجنوب لقضاء الإجازة، كنا نبقى معاً باستمرار. وفيما بعد أصبح والداي يقضيان الإجازة منفردين. كان أبي يحب السير على الأقدام في الجبال وكان يجيد السباحة ويحب ركوب الزوارق الخفيفة ذات المجذاف الواحد أو المجذافين. وكانت والدتي رفيقته الدائمة في جميع هذه النشاطات.

كان والدي يزور مع والدتي أماكن ركوب الخيل. فقد كان يمارس هذه الرياضة منذ طفولته، وكان من الواضح أنه لم يكن خيّالاً سيئاً في شبابه.

أما تعلق أبي بكرة القدم فهو موضوع يتداول الناس الأساطير حوله، ويذهبون في تأكيداتهم حد القول أن بيريا كاد أن يصبح في شبابه لاعب كرة قدم محترفاً. هذه مبالغة، بالطبع، علماً أنه كان يحب كثيراً كرة السلة وكرة القدم، ولم يكن يلعب على نحو سيِّء، كما أعتقد.

حين أنشئت جمعية "دينامو" الرياضية كانت إحدى مهماتها الرئيسية أن تجعل العاملين في التشي.كا يتعوّدون ممارسة التربية البدنية والرياضة. وكان على قادة الجهاز أن يكونوا القدوة في ذلك. وأصبح من المحرج بالنسبة للعاملين الشباب في التشي.كا أن يتخلفوا عن القيادة في هذا المجال.

لم يكن أبي، كما نحن جميعاً، محباً للطعام. وكانت حياة الطبقة العليا تختلف، بالطبع، عن حياة الناس العاديين. كان يوجد حرس، وكانت توجد امتيازات محددة، إلا أنها ليست إطلاقاً تلك التي أنعمت بها القيادات الحزبية على نفسها لاحقاً. كانت تأتي إلى البيت فتاة تساعد في ترتيب الشقة والمطبخ. وكان يوجد طباخ شاب لطيف جداً أنهى، إن لم أكن مخطئاً، المدرسة الفندقية. لكن تبيّن أن الخبرة تنقصه، الأمر الذي لم يكدّر أحداً من أهل البيت. فقد كانت والدتي تطبخ جيداً، وتعلمّ طباخنا كل أسرار مهنة الطبخ بسرعة وأصبح طبخه محتملاً.

كان المطبخ الجورجي، ولا سيما الفاصوليا وصلصة الجوز، هو، بالطبع، المطبخ المفضل في البيت. وحين كنا ننتظر ضيوفاً كنا نشارك جميعاً في إعداد المائدة. لم يكن يحصل قط أي شيء غير اعتيادي أثناء هذه الدعوات، إلا أنها كانت دائماً مدعاة للارتياح. كان يأتي لزيارتنا علماء وفنانون وكتاب وعسكريون، كما كان يزورنا الأقارب والأصدقاء من جورجيا. باختصار، كل شيء عندنا كان كما عند سائر الخلق.

كانت تعيش بيننا، كواحدة من أفراد الأسرة، امرأة رائعة هي أيللا

إيمانويلوفنا المادينغر، وهي ألمانية كانت تعمل مدرِّسة. وقد عاشت في بيتنا سنوات طويلة حتى تاريخ وفاة والدي. ولم نفقد الصلة بها حتى حين كنا في المنفى.

حين اندلعت الحرب بدأوا بترحيل جميع الألمان، غير أن ألمانيتنا هذه لم تبارح منزل بيريا. جاء ستالين لزيارتنا في أحد الأيام وكان من عادتنا أن نتناول طعام الغداء مجتمعين. ونشأ وضع مثير للغاية، إذ كان يجلس حول المائدة نفسها يوسف فيساريونوفيتش وأيللا إيمانويلوفنا. وبادر ستالين إلى السؤال:

- آه، هذه أنتِ إذاً ممثِّل هتلر؟ غريب، لم أكن أعتقد قط أنك ألمانية.

أما أيللا إيمانويلوفنا فقد انعقد لسانها، إذ لم تكن تدري ما الذي ستحمله لها هذه الزيارة. لكن الأمر مر بسلام، إذ ما لبث ستالين أن ضحك وأخذ يتذكر النمسا وانتهى الأمر عند هذا الحد. أما مسألة ترحيل الألمان نفسها، فقد كان موقف والدي منها سلبياً للغاية. لكن الكلمة الأخيرة، وكما كان يحدث عادة، لم تكن كلمته، بالطبع.

سوف أتحدث بالتفصيل لاحقاً عن مشاركة والدي، بصفته عضو "لجنة الدولة للدفاع"، في تنظيم المجابهة مع العدو في القفقاز. وأتذكر هذه الصفحة من حياة والدي للقول إن السكان المحليين قد شاركوا أيضاً في الدفاع عن القفقاز. فقد استمات الأنغوش والأستين والشيشان في القتال ضد العدو في الممرات الجبلية. لقد رأيت ذلك بأم العين. وكان والدي ينظر باحترام عميق إلى هؤلاء الناس، وكان يلتقي رجال الدين وكبار القوم فيهم.

للأسف، كان قرار المكتب السياسي قد تم اتخاذه وجرى ترحيل هؤلاء الناس. إنها سفالة، ولا شك. لكن الأمر صدر ووجدت قوى الأمن الداخلي نفسها مجبرة على القيام بهذه السفالة.

لقد بدأ الأمر حين قامت جماعة من الناس، وليس الشعب، بإهداء هتلر حصاناً وعباءة قفقازية. لكن هل كان يا ترى قليلاً عدد الذين استقبلوا المحتلين بالخبز والملح في أوكرانيا وبيلوروسيا وروسيا، وعدد الذين تعاونوا مع الألمان؟ لقد كان يوجد ما يكفي من الخونة في كل مكان، للأسف. أما ستالين

فقد أبلغ الأمر بأنه خيانة شعب. لم يناقش المسألة طويلاً. بل أصدر أمره:

- ترحيل الجميع.

وما جرى لهذه الشعوب في القفقاز جرى، للأسف، للتتار في القرم أيضاً. وأتذكر في هذا الصدد حادثة مضحكة. كان صديقي آمات - خان سلطان طياراً مدرِّباً حاز وسام بطل الاتحاد السوفياتي مرتين. وبصفته هذه أقيم له تمثال نصفي في موطنه. وحين جرى ما جرى لقومه أصبح الأمر على شيء من السخرية. ففي حين تم ترحيل تتار القرم من القرم يقام تمثال نصفي لتتري من القرم. قال صاحبي: إن الوضع محرج، فالتتري الوحيد المتبقي في القرم هو هذا البرونزي... تعال لنزيل توأمي البرونزي هذا، وأظن أن الأمر لن يكلفك أنت بالذات شيئاً. وكنا نعمل آنئذٍ في حقل للتجارب بضواحي مدينة كرتش. قضينا الليل كله نقاسي العذاب لكننا أزلنا التمثال.

شاء القدر أن أضطرّ لترك بيت أهلي في السادسة عشرة. وكمعظم أبناء جيلي، شطبت الحرب أيضاً خططي للدراسة في الجامعة. التحقت بمدرسة المخابرات ثم انتقلت إلى الجبهة قبل أن أعود إلى مقاعد الدارسة في أكاديمية لينينغراد العسكرية للالكتروتكنيك. حين رجعت إلى موسكو سكنت مع والديَّ، مع العلم أنني كنت قد تزوّجت، وكان والدي هو الذي أصرَّ على ذلك. لقد كانت حياته بأسرها تمر على مرأى منَّا جميعاً. وأفترض أن بوسع المرء التستّر على حادثة ما بمفردها، لكن ليس بوسعه، مهما حاول، التستر على نمط حياة بكامله. ولا أقصد التستر أمام المقربين، فحسب، إذ إن مثل هؤلاء الناس يبقون دائماً في دائرة الضوء، شاءوا ذلك أم أبوا.

عشرات السنين واسم بيريا لا يزال يرتبط في أذهان الناس بحملات القمع في الثلاثينيات والخمسينيات، وبمئات النساء اللواتي يُزعم أنهن أصبحن ضحاياه. للوهلة الأولى، كل شيء يبدو منطقياً إلى حد بعيد. إذ ليس سراً أن معظم القادة السوفيات، بدءاً من فلاديمير إيليتش (لينين) وانتهاءً بليونيد ايليتش

(بريجنيف)، كانوا يعانون نقاط ضعف بشرية معينة. لكن، لماذا عمدت اللجنة المركزية والدعاية الرسمية إلى زرع هذا الاهتمام الفائق لدى الناس عامة "بالنزوات الجنسية" لدى والدي وحده، وخلقت صورة منفّرة عنه كوحش جنسي. إن كبار السن يتذكرون جيداً أن موسكو لم تعرف في حياته أية "شائعات شائنة" عنه. إلا أنهم يؤكدون عكس ذلك اليوم متناسين أن أولئك الذين بوسعهم تكذيب ذلك دون عناء لا يزالون أحياء. لكن الكذب يجرّ الكذب، كما يُقال.

مقتطفات من محضر لاجتماع تموز الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في تموز/يونيو ١٩٥٣:

"لقد عثرنا على رسائل كثيرة من نساء، ذات مضمون حميم. كما عثرنا ايضاً على كمية كبيرة من الأشياء التي تخص رجلاً فاسقاً (إننا نتحدث عن حصيلة التفتيش الذي جرى في مكتبه في مبنى مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي في الكرملين). هذه الأشياء تتحدث عن نفسها ولا حاجة إلى التعليق عليها، كما يُقال... وأورد في ما يلي إفادة المدعو سركيسوف، الذي عمل طوال ١٨ عاماً في حراسة بيريا. وكان قائداً لحرسه في الفترة الأخيرة. إليكم ما ورد في إفادة سركيسوف هذا :" إنني على علم بعلاقات متعددة أقامها بيريا مع نساء من مشارب مختلفة. كما أنني على علم بأنه تعرّف عبر المواطنة C (اسمحوا لي الا اذكر عائلتها) إلى صديقتها التي لا أذكر عائلتها، والتي كانت تعمل في "دار الأزياء"... إضافة إلى ذلك إنني على علم بأن بيريا كان يساكن الطالبة في معهد اللغات الأجنبية مايا. وقد حملت من بيريا فيما بعد وأجرت عملية إجهاض..... كما كان يعاشر بيريا ايضاً الفتاة ليليا التي كان يراوح عمرها بين ١٨ و٢٠ سنة.... وأثناء تواجده في تبليسي تعرف بيريا إلى المواطنة M وعاشرها. وقد ولد للمواطنة M طفل بعد معاشرة بيريا... كما أنني على علم ايضاً بأن بيريا كان يعاشر المدعوة صوفيا. وبناء على اقتراح من بيريا، وعبر رئيس القسم الصحي في وزارة الداخلية فالوشين، أجريت لها عملية إجهاض. اكرر القول إنه كان لبيريا علاقات كثيرة على غرار هذه العلاقات.

"وبأمر من بيريا نظمتُ قائمة بالنساء اللواتي كان يعاشرهن (ضحك في القاعة). وبناء على اقتراح منه قمت لاحقاً بتمزيق هذه القائمة، لكنني احتفظت بنسخة أخرى منها. ويرد في هذه القائمة ذكر عائلات أكثر من ٢٥ امرأة من هؤلاء النساء (القائمة التي يتحدث عنها سركيسوف، تم العثور عليها...). منذ سنة أو سنة ونصف السنة، علمت بصورة مؤكدة أنه أُصيب بالسفلس نتيجة علاقاته مع العاهرات. وقد تولى علاجه طبيب عيادة وزارة الداخلية يو.ب. إنما لا أذكر اسم عائلته. سركيسوف".

هذا هو، أيها الرفاق، الوجه الحقيقي لهذا الطامح إلى زعامة الشعب السوفياتي. وقد تجرأت هذه البعوضة القذرة على منافسة العملاق، منافسة حزبنا ولجنتنا المركزية... إن الحزب واللجنة المركزية قد تغلّبا على ثرثارين أكبر حجماً...".

مهلاً! ألم يتمادَ في صراحته سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ن. شاتالين وهو يفضح الانحطاط الخلقي لعضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية؟ انتبهوا لهذه الجملة : "هذا هو، أيها الرفاق، الوجه الحقيقي لهذا الطامح إلى زعامة الشعب السوفياتي". "الطامح" لم يعد في عداد الأحياء، فلِمَ لا يصوَّر كمجرم وليس كخصم سياسي ؟ ويبدو الأمر منطقياً للغاية، فمَنْ بربكم، بلا خطيئة؟ وإذا جرى تضخيمها فليس في الأمر ما يعيب...

لقد وقع في حبائل "القصص الغرامية" هذه كاتب مشهور كرّس قصة قصيرة لهذا الموضوع، تلقى بطلاته الشابات حتفهن على نحو مأساوي، بعد ليلة قضينها في غرفة نوم عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية. وقد لقين حتفهن في حجرة الغاز متأثرات بغاز "السيكلون". والحجرة تقع، بالطبع، في قبو منزل لافرنتي بافلوفيتش بيريا.

هراء، بالطبع، إذ كيف يمكن الحديث بجدية عن هذا؟ أية حجرة، أيّ "سيكلون"... إنني أفهم، بالطبع، لماذا لجأوا إلى فبركة هذه القصص السخيفة في الاجتماع الموسع للجنة المركزية. فلم تكن تتوافر لهم الوقائع التي تؤكد مشاركة أبي في ما يسمى بالمؤامرة، وعلاقته بالأجهزة الخاصة الأجنبية، أو

كما كانوا يقولون آنئذٍ المخابرات الإمبريالية. ولهذا قرروا إظهاره للناس بمظهر الشخص المتحلل السكّير الفاسق والسادي الذي كان يزمع أن يصبح ديكتاتوراً، ويغرق البلاد في مستنقع الإرهاب الدموي. لكنني لا أفهم الآن ما هو السبب الذي يدعو إلى فبركة كل هذا؟

قد تكون المدعوة نينا فاسيليفنا، الفنانة السابقة وعضوة فرقة موسكو للرقص والغناء، أكثر من تفنن في وصف المغامرات الغرامية. لقد تخطت هذه المرأة عتبة السبعين منذ زمن بعيد، إلا أنها لا تزال تتمتع بحيوية تُحسد عليها. منذ سنوات وهذه العجوز تقوم، بكل طيبة خاطر، بعقد اللقاءات مع الجمهور على مختلف مشاربه والظهور في مقابلات مع أجهزة الإعلام. كما أنها تزمع إصدار كتاب مذكرات عن لافرنتي بافلوفيتش بيريا الذي كانت، كما تزعم، على علاقة حميمة به. ولا يسعنا إلا أن نتكهن فقط بما ستركز عليه هذه الكاتبة المتجددة في الكتابة. إلا أن ما نُشر من مذكراتها بمختلف اللغات في الدوريات لا يدع أيَّ مجال للشك في هذا الصدد. كل ما في الأمر، برأيي، أن نينا فاسيليفنا قررت كسب لقمة العيش في هذه الأوقات العصيبة. وإلاّ كيف يمكن للمرء، بالله عليكم، ألا تساوره الشكوك وهو يقرأ "الوقائع" التالية:

كنت، في الحقيقة على علاقة حميمة مع لافرنتي بافلوفيتش. لم تبدُ منه، بالطبع، أية بوادر عنف تجاهي. جلسنا بداية إلى الطاولة وكان بيننا ما لا يخطر ببال!.. وللحقيقة كان رجلاً قنبراً وبدون أية تشوهات. أعتقد أن رجلاً كهذا لا تكفيه امرأة واحدة، بل يحتاج إلى نساء كثيرات... حين واقعني للمرة الأولى واقعني بشغف شديد وشعرت أنني أُعجبه، بالطبع. وأخذ يتكرر ظهور السيارات الرسمية قرب منزلي. لقد زارنا سركيسوف هذا في شقتنا. كنت أرى علاقته بي علاقة لطيفة للغاية إلا أنه لم يكن يثيرني. وقد قال لي مرة :"إنكِ باردة، لماذا أنت على هذا القدر من الجمال وعلى هذا القدر من البرودة..." ثم إن منزله الذي كان في شارع كاتشالوف لم يكن يعجبني من الداخل. لقد كان منظره الخارجي جميلاً للغاية، إلا أنه كان باهتاً في الداخل، ولم أكن لأصدق أن بيريا يعيش هنا. كان يوجد سرير لشخصين صنع من خشب الجوز. وأذكر أنه حين جاء بي سركيسوف للمرة الثانية أو الثالثة إلى هنا انتظرت لافرنتي بافلوفيتش فترة طويلة جداً قبل أن تخرج لي

امرأة ترتدي رداءً أبيضَ، وكانت لطيفة وودودة للغاية وبادرت إلى القول :"لا تقلقي سوف يأتي بالتأكيد ". أتذكر جيداً أنه كانت توجد مكتبة إلى الجهة اليسرى من الممر. تأملت الكتب فيها فلم أجد سوى كتب ستالين. وفكرت في نفسي: أيعقل أنه لا يهتم بالأدب الكلاسيكي؟"

أتحفظ في التعليق على هذا الكلام. فإذا كان ما ورد على لسانها من وصف للمكتبة في بيتنا كلاماً صحيحاً، أستميحكم عذراً بالتساؤل حينئذٍ أين ذهبت مكتبة لافرنتي بافلوفيتش نفسه، والتي كانت مكتبة لا بأس بها، وأين ذهبت كتب المرشح[١] في العلوم الزراعية نينا تيمورازوفنا بيريا والدكتور في العلوم الفيزيائية - الرياضية سيرغو بيريا؟ هل كانت في القبو المليء بغاز "السيكلون" المزعوم؟ كيف يمكن أن يصدِّق المرء أن رب البيت كان خلال سنوات يتمادى في فجوره ويقيم حفلات المجون في غرفة نومه الخاصة على مرأى من زوجته وابنه وزوجة ابنه والآخرين من أهل البيت؟

ما كنت لأنطرق يوماً إلى موضوع على هذا القدر من الحساسية، لو لم تكن السيدة الكسييفا مستمرة، كما في السابق، في الظهور بكثافة على صفحات المطبوعات والدوريات. وكان آخر ما نُشر من "يومياتها" على صفحات إحدى الصحف الروسية الكبرى مثيراً للغاية. فإذا كانت نينا فاسيليفنا غير قادرة (؟) فيما مضى على سرد بعض التفاصيل لجمهور القراء، فقد أصبحت الآن في منتهى الصراحة. فهي تؤكد أن والدي كان يصطحبها إلى بيت ستالين الصيفي في منطقة كونتسيفا[٢]. وبالمناسبة فإن التعرف إلى الزعيم لم يترك أثراً يُذكَر في نفس ألكسييفا، مما يجعلنا نأمل بأن مسلسل "غرام الزعماء" سوف يتواصل. فمن يدري ما هي الأسرار التي تختبىء خلف جدران البيت الصيفي في كونتسيفا، والتي أعتقد أن نينا فاسيليفنا لن تتوانى عن الحديث عنها...

لفتت انتباهي ردة فعل أحد القراء الذين أثار امتعاضهم نشر المقابلة مع

(١) المرشح في العلوم: شهادة جامعية تعادل شهادة PHD في النظام الأنكلوسكوني - المترجم.
(٢) ضاحية من ضواحي موسكو في تلك الأيام، أصبحت الآن أحد أحياء المدينة - المترجم.

الكسيفا على صفحات صحيفة واسعة الانتشار تحت عنوان مثير "أمَةُ حب لافرنتي بيريا". ما الذي أثار امتعاض القارىء؟ لم يمتعض القارىء من ظهور حكاية جديدة عن "الوحش" في الصحافة، بل إن ما أثار استياءه هو "لماذا نُظهر للجيل الشاب أن بيريا لم يكن مخيفاً إلى هذه الدرجة؟" فهذه المقالة كما يظهر، تبدو باهتة بالمقارنة مع الحكايات عن نائب الرئيس (بيريا) الذي يصطحب النساء الجميلات إلى منزله وعن الكولونيل سركيسوف الذي يتم حشره في كل مكان...

لقد قرأت رسالة القارىء الغاضب هذا وفكرت: كم هي راسخة تلك الكليشيهات التي زُرعت يوماً ما في عقولنا. أليس بوسعنا أن ندرك ما نفعله! فأولئك الذين استخدموا هذا الكذب لتضليل عقول الناس غادروا هذه الدنيا منذ زمن بعيد، كما لم تعد موجودة اللجنة المركزية وأبواقها التي كانت تنشر الكذب، ومع ذلك لا تزال سيارة الكولونيل الأسطوري (سركيسوف) تجول شوارع موسكو مثيرة الذعر في قلوب حسناواتها. قسماً بالله إن الأمر أصبح مضحكاً! إلا أنه محزن في آن معاً. فهل من شعب غير شعبنا يرضى لنفسه البقاء مغفّلاً طوال أربعين عاماً؟ فعلاً، إن سذاجة شعبنا لا حدود لها.

إنني أكرر مرة أخرى أن حياة والدي كانت تمر على مرأى من الأسرة. ولا شك في أنه كانت لديه نقاط ضعف كسائر البشر، لكن الحديث عن مثل هذه المغامرات محض هراء. وفي هذا الصدد أستطيع الحديث عن فتاة كانت بالفعل عشيقة لوالدي، إلا أنها لم تحدّث أحداً بالأمر قط.

كنت قد أصبحت شاباً، إلا أن علاقتي بوالدي بقيت تتميز بصراحة نادرة. استدعاني مرة إليه وقال: " ثمة ضرورة للتحدث إليك. أريدك أن تعرف أن لي بنتاً. وأهتم كثيراً لأمر هذا المخلوق الصغير. أريدك أن تكون على علم بالأمر. حياة المرء عرضة لكل المفاجآت، إنما عليك أنت أن تتذكر أنه أصبح لك الآن شقيقة. لكن دعنا لا نحدّث والدتك بالأمر..."

لقد رأيت هذه المرأة، وكان لها من العمر آنئذٍ عشرون عاماً أو ما يزيد

قليلاً. كانت امرأة متواضعة للغاية لم توفَّق في حياتها. تزوجت من رجل ما لبث أن استُشهد بعد أن أنجبت منه ولدين، فعادت وتزوجت ثانية. كان والدها موظفاً وكانت والدتها مدرِّسة. أما شقيقتي من أبي فمن الطبيعي أنه قد أصبح لها أولاد الآن.

كانت في وقت من الأوقات متزوجة من ابن عضو المكتب السياسي فيكتور غريشين. حين علم غريشين أن ابنه ينوي الزواج من ابنة بيريا قرر استشارة بريجنيف بالأمر. وقد رد ليونيد ايليتش (بريجنيف)، عليه، بقوله :

- حسناً، وما علاقة ابنك بكل ذلك؟ وما بالك تتصنّع أنت وكأنك لا تعلم بأن الأمر كله مضخم...

وبالمناسبة، لقد تسنّى لي أن ألتقي بريجنيف غير مرة في اجتماعات مجلس الدفاع وفي اجتماعات أخرى، حيث كانت تناقش القضايا المتعلقة بعملي في صنع أنواع جديدة من الأسلحة، إلا أننا لم نتحدث قطّ بما جرى لوالدي... لم يتطرّق ليونيد إيليتش إلى هذا الموضوع بتاتاً متظاهراً بأنَّ غيغتشكوري[1] هو بالنسبة إليه غيغتشكوري ولا علم له قط بأي أمر آخر.

لم يكن لبريجنيف نفسه علاقة بقضية والدي. بل لم يقتصر الأمر على بريجنيف وحده، فليس كل أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي كانوا على علم بأمر الإعداد لاغتياله. وبعد أن حدث ما حدث وجد كل منهم نفسه مضطراً لاتخاذ الموقف الأنسب لنفسه، مستنداً إلى تجربته الحزبية الطويلة بالانحياز إلى الأقوى. لكن التطور اللاحق للأحداث أظهر أن الوحدة في قمة السلطة السياسية لم تتوافر حتى بعد وفاة والدي. فلعل القراء يتذكرون انتفاضة مولوتوف وكاغانوفيتش وغيرهما ضد خروتشوف، ثم تنكيل هذا الأخير بهما. كما يتذكرون أيضاً كيف أُجبر على الخروج من الحكم كل من مالينكوف وبولغانين، أي أولئك الذين اشتركوا مع خروتشوف في القضاء على

(١) اسم العائلة التي فرضت على مؤلف الكتاب سيرغو بيريا بعد مقتل والده لافرنتي بيريا وهو اسم عائلة والدته - المترجم.

والدي، وكيف تم إقصاء خروتشوف نفسه عن السلطة فيما بعد. إن الصراع على السلطة في الكرملين لم يتوقف قط، كما لم يتوقف سعي القادة الجدد إلى تشويه سمعة زملاء الأمس. لقد بقيت ستارايا بلوشاد[1] تعيش تحت ظل هذه القوانين حتى آخر يوم من وجود الحزب الشيوعي السوفياتي.

إن جميع القادة اللاحقين كانوا يعرفون جيداً قيمة "الانتهاكات" التي كشف عنها خروتشوف. كانوا يعرفون، لكنهم لم يرغبوا في تهديم الأسطورة، لأنهم كانوا سيضطرون عندئذٍ للكشف أمام الناس عن أمور أكثر جدية بكثير من تلك "الانتهاكات".

أقول بصراحة كلية : لم يكن أبي راهباً، لقد كان شخصاً طبيعياً لم يجانبه، على ما أعتقد، الحب الكبير ولا النزوات الطبيعية لكل رجل. وقد حدث له شيء مشابه في جورجيا، حين أقام علاقة مع امرأة جميلة. وقد انتهى الأمر بنزاع عائلي. كانت والدتي تنوي ترك المنزل، إلا أن والدي طلب إليها الصفح، طبعاً، وانتهى الأمر. بوسعكم أن تتصوروا ردة فعل والدتي، لوكان في كل ما يُكتب جزء من الحقيقة. إنها امرأة جورجية ! كان بوسعها مجادلة ستالين، فما الذي كان يمنعها من صفق الباب وراءها وترك مثل هذا الزوج؟

أما تلك الاعترافات التي انتُزعت من سركيسوف والآخرين، فإن موقفي منها واضح ومحدد. فقد وعدوه كما وعدوا الآخرين، "بتقصير" مدة السجن، إذا قالوا ما ينتظرون منهم قوله. وقد خدعوهم، بالطبع، إذ كانوا بحاجة إليهم في مرحلة محددة. فالسجن كان بانتظار الجميع بعد التوقيع. ثم ما الذي كان بوسع قائد الحرس أن يقوله في مثل هذا الموقف؟ هل كان سيقول، مثلاً، إنه كان يحرس عميل المخابرات الإمبريالية وعدو الشعب والحزب؟ لقد أمروه بالقول إنه كان يأتي إلى بيت بيريا بنساء سيئات السلوك، وكان هو يردد ما يقولونه له. لقد كان ذلك أمراً مفهوماً للغاية، وكان يستحيل أن يكون على غير ذلك، آنذاك.

---

(١) وتعني الساحة القديمة، وهو المكان الذي كان يوجد فيه مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في موسكو - المترجم.

قد تكون بعض النساء قد اعترفن أيضاً خلال التحقيق بأنهن كن عشيقات والدي. إن أيّ شخص يعمل في أجهزة أمن الدولة وفي البوليس والمخابرات يعرف ما هي الشقق السرية. مثل هذه الشقق كانت تُدار عادة من قبل نساء. كما كان يوجد عدد غير قليل من النساء، وهو أمر مفهوم للغاية، وسط العملاء الذين يشتغلون مع الأجانب، بصورة خاصة. وبحكم موقعه على رأس وزارة الداخلية الموحدة التي أُلحقت بها، قبل وفاته بفترة وجيزة، المخابرات السياسية وإدارة مكافحة الجاسوسية، كان والدي يمر بالتأكيد بمثل هذه الشقق، حيث كان يلتقي العملاء. ولهذا ليس من الصعب، في حال توافر الرغبة، إضافة عدد هائل من أسماء العائلات بما فيها الأجنبية، إلى القائمة اللعينة تلك.

لقد انتشرت على نطاق واسع أيضاً حكاية أخرى عن والدي تتهمه بمحاولة مزعومة لاغتيال ستالين في أبخازيا. فلا تزال شائعة بين الناس حكاية تزعم أنه في أيلول/سبتمبر ١٩٣٣ فبرك والدي سيناريو محاولة اغتيال لستالين حين كان هذا الأخير يستجمُّ في أحد البيوت الصيفية في الجنوب. والهدف من ذلك كان، بالطبع، استمالة الزعيم إليه. هراء كثير كتب حول هذا الأمر، إلا أن الحقيقة كانت في مكان آخر.

كان يوجد ما يسمّى بالفترات الخاصة التي كان يستجم أثناءها ستالين في مكان ما. وهذا ما كان في العام ١٩٣٣ أيضاً. الجميع كانوا على علم بأن ستالين قد غادر إلى موسكو. وقرر رئيس الإدارة السياسية في أبخازيا ميكاليدزه (وهو بالمناسبة رجل طيب للغاية) أن يأخذ قسطاً من الراحة. خرج مع أصدقائه إلى "أحضان الطبيعة"، كما يقال، للاسترخاء قليلاً. توقف الجميع عند شاطىء البحر وأخذوا يأكلون ويشربون قبل أن يشاهد ميكاليدزه زورقاً تابعاً لحرس الحدود. ولسوء حظه لمعت في ذهنه فكرة القيام مع المجموعة، التي كانت تضم نساءً، بنزهة على متن الزورق.

إضافة إلى موقعه على رأس أجهزة أمن الدولة في أبخازيا، كان حرس الحدود يخضعون لإمرته بوصفه قائداً لقطاع العمليات. لكن كيف له أن يوقف زورق حرس الحدود هذا؟ أخذ ميكاليدزه يطلق النار في الهواء محاولاً لفت

انتباه طاقم الزورق. أشدد: في الهواء وليس على الزورق. ومن أين كان له أن يعرف أن ستالين كان يوجد في هذا الوقت على متن زورق الحدود؟.

جرى التثبت من حادثة إطلاق النار وبدأت التحقيقات. وقد سارع بعض المتحمسين إلى وصف الحادثة بالعمل الإرهابي، حيث حاول ميكاليدزه اغتيال رئيس الدولة. وهكذا تحوّل هذا التصرف، الذي جرى تحت تأثير الخمرة، إلى محاولة اغتيال...

ومع ذلك تمكّن والدي من حماية ميكاليدزه، واقتصر الأمر على نقله إلى عمل آخر برتبة أدنى في جورجيا. كان يتردد وزوجته إلى بيتنا بعد هذه الحادثة، وكان يعبّر عن تحسره للظلم الذي تعرّض له. وكان والدي يجيبه بالقول:

- إسمع، ماذا كان بوسعنا أن نفعل؟ أنت نفسك تفهم ما يجري. فهاهم يأخذون عليَّ أنني أتستَّر على إرهابي. بوسعك أن تعتبر أن ما نالك ليس الأسوأ مما يمكن أن يحصل.

كانت والدتي أيضاً تشعر بالأسى على هذه الأسرة. فقد كانت زوجة ميكاليدزه امرأة طيبة للغاية، وكانت تمتهن الكيمياء.

باختصار، غادر ميكاليدزه إلى جورجيا وبدأ الناس ينسون (ليس الجميع، بالطبع) تدريجياً سوء التفاهم المؤسف هذا.

حين تُوفي رئيس مجلس مفوضي الشعب (مجلس الوزراء) في أبخازيا (لاكوبا) ربطوا بين وفاته واسم ميكاليدزه. وأتذكر بهذا الصدد الحادثة التالية: كان لاكوبا لا يزال على قيد الحياة حين أطلقت بنت حاكم البنك المركزي روزنغولتس النار على نفسها في بيته الصيفي ومن مسدسه. وقد ربطوا هذه الحادثة أيضاً باسم ميكاليدزه. وقد انطلق التحقيق (جاء المحقق خصيصاً من موسكو) من فرضية تقول إن هذه الفتاة كانت تسترق السمع إلى أحاديث المتآمرين، مما جعلهم يقضون عليها بهذه الطريقة. لم يسمح للمديرية السياسية (GPU) في أبخازيا بالتدخل في التحقيق. وقد جرت المحاكمة فيما بعد وأصدرت المحكمة حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص على عدد من الأشخاص بمن فيهم "الإرهابي" ميكاليدزه. لكن تناهى إلى مسامعي أن المحققين الموسكوفيين

وعدوه بإطلاق سراحه واستبدال وثائقه الشخصية. كما قيل إن إعدامه رمياً بالرصاص كان إعداماً وهمياً، وإن القرار حول ميكاليدزه تم اتخاذه على "أعلى" المستويات. وقد اعتبروا في قرارهم هذا أنهم لم يتمكنوا من كسر شوكة ميكاليدزه، إذ إنه كان، بالفعل، شخصاً قوي المراس، فقرروا أخذه بالحسنى. غير أنني لا أستطيع التأكيد أن الرئيس السابق للمديرية السياسية (GPU) في أبخازيا قد تمكن بالفعل من الإفلات من الإعدام آنئذٍ.

ليس نادراً ما ينسبون إلى أبي أيضاً الوقوف وراء موت نيستور لاكوبا، الأمر الذي لا يستند إلى أيّ أساس، بالطبع. وبوسعي أن أروي حادثة، إمّا أنّ المؤرخين يجهلونها، وإما أنهم يفضلون عدم تذكّرها.

بعد مقتل سيرغي ميروتوفيتش كيروف، سافرنا مع أسرة لاكوبا لقضاء فترة من الراحة على بحيرة ريتسا. لم تكن الطريق إلى البحيرة قد شُقّت بعد، وكان أبي ولاكوبا يعاينان المنطقة لاختيار مكان لشق الطريق. كنا حوالى خمسة عشر شخصاً بمن فيهم والدتي وزوجة لاكوبا وابنه الذي كان يكبرني بحوالى عامين وأبوانا وعدد آخر من الأشخاص.

نصبنا الخيم وقررنا قضاء الليل على شاطىء البحيرة. استسلمنا نحن الصبية للنوم قبل الراشدين، بالطبع، وذلك بعد أن أخذ منا تعب اللعب طوال النهار كل مأخذ. كنت في الخيمة حين أيقظوني. فقد اقترح لاكوبا، لسبب ما، على والدي أن ننتقل إلى خيمته. وقد أثار هذا الاقتراح بعض الاستغراب، بالطبع، وأذكر أن والدتي لم توافق على ذلك. إلا أن لاكوبا أصرَّ على اقتراحه دون أن يقدّم أيّ تفسير للأمر. انتقلنا نحن في نهاية المطاف إلى الخيمة الأخرى وغفوت أنا من جديد، في حين بقي والداي جالسين مع زوجة لاكوبا حول النار. كان الظلام قد خيّم كلياً حين اخترقت الخيمة التي كان ينبغي أن تقضي أسرتنا الليل فيها، رشقات بندقية رشاشة.

إنني لا أجد أيّ تفسير آخر لما حدث سوى أن نيستور لاكوبا كان على علم بخطة معدة لاغتيال أبي حال هو دون تنفيذها. فلو كانا عدوّين ما كان عليه سوى أن يلتزم الصمت لا أكثر.

لم تكن توجد في يوم من الأيام أية عداوة بينهما، بل على العكس كانت العلاقة بينهما تتميز دائماً بالود والصراحة.

كان لاكوبا يمتلك وجهة نظر سياسية محددة كلياً لم يكن يتستر عليها حتى أمام ستالين. وكان يشرح لوالدي موقفه الانفصالي بالقول: إن مد الخط الحديدي، مثلاً (وكان لاكوبا يقف ضده على نحو قاطع) ليس إلاً تغلغلاً لروسيا في جورجيا. وهذا ما كان يرفضه لاكوبا.

كان والدي أيضاً يدافع عن موقفه في مثل هذه الأحاديث الصريحة. فقد كان، مثلاً، يعتبر أن الاتحاد السوفياتي يجب أن يكون متراصاً، ولم يكن يؤمن بوجود مناطق مستقلة ذاتياً. إلا أن الجمهوريات التي تدخل في نطاق الاتحاد يجب أن تتمتع بحقوق أكبر، بما لا يقاس، من تلك التي كانت تتمتع بها آنئذٍ.

كان والدي يقول إن على الجمهوريات أن تنتمي، بشكل أو بآخر، إلى معسكر. وهذا المعسكر، من وجهة نظر تاريخية، ليس إلا روسيا بالنسبة إلى جورجيا، وذلك لأن تاريخ جورجيا الذي يمتد لألف عام هو تاريخ نضال شعبنا من أجل البقاء. إن معاهدة غيورغيفسك[1] قد تم التوقيع عليها منذ زمن بعيد، أي قبل دخول جورجيا العهد السوفياتي، وهذه السياسة ينبغي مواصلتها. فنحن تربطنا معاً عقيدة دينية واحدة وثقافة واحدة. إنما ينبغي أن نتخلى بشكل حازم عن الوسائل التي كان يعتمدها النظام القيصري، فلا نسحق اللغة ولا نستبدل بالكوادر الوطنية موظفين من أصول روسية.

كان والدي مقتنعاً إجمالاً بضرورة مراعاة الظروف المحلية. فكان، مثلاً، يعتبر أن بوسع جورجيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخرى أن يكون لها حرس وطني، وهو أمر لا يقوض إطلاقاً وحدة الاتحاد. إلا أن الاقتصاد والجيش ينبغي، بلا أدنى شك، أن يبقيا موحدين.

---

(١) المعاهدة التي أصبحت بموجبها جورجيا تحت الحماية الروسية. وقد تم التوقيع عليها في قلعة غيورغيفسك في ٤ آب/أغسطس ١٧٨٣. وتعهدت الحكومة الروسية بموجبها الإبقاء على الحكم الذاتي في جورجيا والدفاع عنها في حال الحرب. المعاهدة تمت بطلب من حاكم جورجيا آنئذٍ أبراكليا الثاني- المترجم.

كانت آراء والدي ولاكوبا تتفق حول بعض القضايا وتختلف حول بعضها الآخر، إلا أن ذلك لم يكن يؤثر على الصداقة والعلاقات بينهما. وأعرف أنه كان يروق لوالدي أن لاكوبا كان يرغب صادقاً بازدهار أبخازيا. لقد كان لاكوبا شخصاً محباً للعمل، وإن كان متطرفاً أحياناً، نشيطاً ينجز العمل الذي يباشره. وبعد عدة "دروس" مناسبة في الاجتماعات الحزبية الموسعة بدّل لاكوبا في أواخر أيامه (بالمناسبة، كان معتل الصحة للغاية وسافر إلى ألمانيا للعلاج) آراءه، وأخذ يميل على نحو متزايد إلى اعتبار أنَّ الاتحاد ينبغي أن يكون موحداً، وأن لا سبيل آخر أمام الجمهوريات.

يمكن، من وجهة نظر اللحظة الراهنة، قبول هذه الآراء أو رفضها. لكن الحديث لايدور عن ذلك الآن. لكن من المفهوم أنه حين يقال إن بيريا قضى على لاكوبا، فإن هذا الكذب لا يثير في نفسي إلّا الامتعاض.

إن محاولة الاغتيال تلك التي أفشلها لاكوبا لم تكن، بالمناسبة، المحاولة الوحيدة. ومن المعروف أن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD) لم تكن في الثلاثينيات تأخذ بالاعتبار آراء المنظمات الحزبية في الجمهوريات. فقد كان الجهاز المركزي للمفوضية المذكورة يستند إلى توجيهات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي). وهذه حقيقة مثبتة منذ زمن بعيد ولا أقول شيئاً جديداً في هذا الصدد. فقد كان ممثلو القسم التنظيمي في اللجنة المركزية يسافرون إلى الجمهوريات للإشراف على حملات القمع وتنظيمها. مالينكوف، على سبيل المثال، سافر إلى بيلوروسيا من أجل هذه الغاية، وسافر كاغانوفيتش إلى أوكرانيا للغاية نفسها. لقد كانت الاعتقالات والإعدامات بحق الناس الأبرياء تتم على أيدي آخرين، بالطبع، إلا أن مندوبي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) كانوا هم الذين ينظمون هذه الفظائع.

لم تشكّل جورجيا، استثناءً للقاعدة. فقد بلغت مدحلة القمع هذه الجمهورية أيضاً. كان سيرغو أورجانيكيدزه لا يزال على قيد الحياة حين وجّه والدي بواسطته عدة رسائل إلى ستالين تحدث فيها عن رأيه دون مواربة : إن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD) تقوم بتصفية منهجية للمثقفين

الجورجيين والشعب الجورجي. كان أوردجانيكيدزه يدعم موقف والدي كلياً، لأنه كان دائماً يقف ضد القمع.

بعد وفاة أورجانيكيدزه اتخذت عملية ضرب الكادر طابعاً أكثر شمولية. وعلى الرغم من الاحتجاجات التي كان يبديها والدي، كزعيم للجمهورية، كانت أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية تواصل حملات الاعتقالات. ولم تكن تقوم بذلك بمبادرة ذاتية منها، بل كانت تنفّذ التوجيهات المباشرة من قبل المركز. وكان هذا الأمر نفسه يجري في الجمهوريات الأخرى أيضاً.

بين الناس، الذين كان يتم توقيفهم بأمر من الهيئات المركزية، كان يوجد عدد غير قليل من كبار العلماء والكُتّاب. فقد توجّه والدي مرتين إلى ستالين في مسعى منه لإنقاذ حياة دجافاخيشفيلي[1]، أحد مشاعل العلم في العالم. كما قام مرتين أيضاً بإنقاذ حياة غمساخورديا[2]. لكن للأسف، كان الجواب يأتي دائماً بتشديد حملات القمع. فقد قُتل فيما بعد ميخائيل دجافاخيشفيلي كما قُتل كثيرون غيره من العاملين في حقل العلم والثقافة في جورجيا.

يبدو أن سلوك والدي أخذ يزعج القيادة الحزبية العليا، فقرر يجوف (EJOV)، الذي كان يترأس آنئذٍ أجهزة أمن الدولة، تنظيم محاولة لاغتياله عبر عملائه في جورجيا. هذه الحادثة أعرفها ليس عبر شخص آخر، بل شاءت الظروف أن أكون في سيارة والدي في ذلك اليوم المشؤوم.

... كنا عائدين من موسكو عبر طريق " فاينو - غروزينسكايا " إضافة إلى والدي ووالدتي، كان في السيارة معنا زوجة أحد العاملين الحزبيين، كما كان يوجد السكرتير الثاني للجنة المركزية خاتسكيفتش، وهو بيلوروسي. كان الظلام قد بدأ يرخي ستاره حين حاولوا إيقاف سيارتنا، ومن ثم أطلقوا النار عليها من الأمام ومن الخلف. وكان واضحاً أن إطلاق النار يتم بهدف الإصابة.

---

(١) الموسوعة السوفياتية تشير إليه كاتباً وليس عالماً. فقد يكون المؤلّف قد خلط بينه وبين ألكسندر الذي كان عالماً في الجغرافيا، أو إيفان الذي كان مؤرخاً - المترجم.

(٢) والد الرئيس الأسبق لجمهورية جورجيا، الذي اختفى في ظروف غامضة بعد وصول شيفارنادزه إلى السلطة. وهو كاتب، ترجم إلى الجورجية " الكوميديا الإلهية " لدانتي. في العام ١٩٤٤، أصبح عضواً في أكاديمية العلوم في جورجيا - المترجم.

كان خاتسكيفتش يجلس إلى جانبي ورأيت بأم عيني كيف جُرح.

لفظ أنفاسه بين يدي والدتي، وقد سمعنا نحن جميعاً كلمته الأخيرة : "نينا، لا تنسي طفلي...".

بعد مرور سنة على الحادثة، وردت من بيلوروسيا معلومات تقول إن خاتسكيفتش، الذي كان قد أصبح في عداد الأموات، قد أُعلن عدوّاً للشعب. وفي الحالات المشابهة كانت الأسرة تتعرّض للقمع، إلا أن والدتي تمكّنت بطريقة ما من إنقاذ طفل خاتسكيفتش، وآوته لدى أُسرة مقرّبة منا.

تفصيل هام: كان خاتسكيفتش يضع نظارة منفردة كما والدي. ويبدو أن هذا الأمر قد ضلّل أولئك الذين أطلقوا النار على والدي.

وهكذا، فأنا أعلم بمحاولتين فقط لاغتيال والدي، أما كم كان عدد هذه المحاولات فلا أعلم. وكنا نتحاشى نحن في الأُسرة التطرق إلى مثل هذه الذكريات المزعجة.

على الرغم من أن والدي كان سكرتير اللجنة المركزية في الجمهورية، إلاّ أنَّه بقي بالنسبة للجهاز الحزبي، وأقصد به جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)، واحداً من عاملي الأطراف، الذي يملك رأيه الخاص. وكان الموقف من مثل هؤلاء الأشخاص يتميز دائماً بالحذر. وقد قام كل من ياغودا (YAGODA) ويجوف (EJOV) بمحاولة استمالة والدي إلى جانبه. وليس صحيحاً ما يُشاع عادةً عن هؤلاء الناس بأنهم كانوا معوّقين لا يملكون ذرّة عقل. بل إن الهول، كل الهول، كان يكمن في أن هؤلاء الناس المسؤولين عن الفظائع التي ارتُكبت بحق شعبهم، كانوا أشخاصاً واسعي الحيلة، وفي أحيان كثيرة، أشخاصاً أذكياء، الأمر الذي لم يمنعهم إطلاقاً من ارتكاب الجرائم.

كان يجوف، الذي صعد سلم الوظيفة انطلاقاً من القسم التنظيمي في اللجنة المركزية، يدرك جيداً، كما كان يدرك ياغودا والآخرون، مقدار الخطر الذي يمثله بيريا حتى على الصعيد الشخصي. فهو يتمتع بخبرة هائلة في العمل بالمخابرات. وهو ذكي وذو سمعة طيبة لدى القيادة. يعرفه ستالين، وهو جورجي. فالتنبؤ بنقله إلى موسكو كان أمراً لا يحتاج إلى كبير عناء.

لم يكن أيٌّ من سكرتيري اللجان المركزية في الجمهوريات يلقى معاملة التودّد التي كان يلقاها أبي وتلقاها أسرتنا. كانوا يرحّبون بنا لدى وصولنا إلى موسكو ويصطحبوننا إلى منازلهم الصيفية... إلا أن والدي كان دائماً ينظر بحذر إلى هذه المظاهر الخارجية للودّ تجاهه. وكان هذا الأمر يدهشني إلى حد ما لأنني كنت أعرف والدي جيداً. فقد كان رجلاً منفتحاً، وكان يحب كثيراً مثل هذه اللقاءات مع الأصدقاء.

أذكر، وكان ذلك شتاءً، حين دعانا يجوف إلى منزله الصيفي. ظاهرياً، كان الأمر كدعوة صديق لصديقه. فقد كان يتخاطب وأبي بصيغة المفرد، إلا أن أبي رفض الدعوة.

أكرر القول إن يجوف والآخرين لم يكونوا أغبياء. فقد كانوا يرون ويدركون أن أبي هو بين الذين يمكن أن ينتقلوا إلى الجهاز المركزي، وكانوا يسعون لإزالة المنافسين في وقت مبكر. وكان هذا الأمر، إذا شئتم، يمثّل القانون الحديدي للنظام.

لم يتحدث والدي عن هذه الموضوعات قط، إلا أنني أعتقد أنه كان قد كشف نيات كل من ياغودا ويجوف قبل ذلك بكثير. وعلى الرغم من أن منظّمي محاولات الاغتيال المباشرين لم يُكشف عنهم خلال فترة طويلة، لكن كان واضحاً أن الخيوط تؤدي إلى مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD). إن المسؤول المباشر، عن محاولة الاغتيال التي جرت على طريق فاينو - غروزينسكايا، كان، دون شك، مفوض الشؤون الداخلية في جورجيا. ومن المعروف جيداً من الذي كلّفه القيام بهذا العمل.

بالمناسبة، بعد محاولة الاغتيال التي تعرّض لها والدي، أرسل إليه ستالين في تبليسي سيارة أميركية مصفحة. وقد حصل على مثل هذه السيارات آنئذٍ السكرتيرون الآخرون للجان المركزية في الجمهوريات.

حين أُفكر بكل ذلك، أميل إلى الاعتقاد، أكثر فأكثر، أن خيوط المؤامرات الأولى ضد والدي (المؤامرات التي حيكت قبل الحرب) كانت تُشير دون شك إلى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي (NKVD). وكأنهم

كانوا هناك يحدسون بتلك التغيرات الجذرية التي سيحدثها انتقاله إلى موسكو في هذه الإدارة التأديبية ذات القدرة المطلقة...

لماذا تخلّص الحزب، أو بالأصح قيادته العليا، من أبي ؟ لأنه مسَّ قدس أقداس (النومانكلاتورا) (Nomenclature) السوفياتية، مسّ أساس النظام. ولا أقول هذا لأبرّىء ساحة أبي أمام أيٍّ كان. فقد كان يعرف أخطاءه، كما كان يعرف ذنبه. أجل، لقد كان مذنباً، لأنه ليس من فارق كبير بين أن تؤيد آراء أولئك الذين توجد معهم في قيادة البلاد وألّا تؤيّدها، وبين أن تصوّت على أمر ما انطلاقاً من قناعات شخصية وأن تصوّت بفعل ظروف معينة. نعم، والدي لم يكن يوقّع قوائم الإعدام، كما كان يفعل فوروشيلوف، ولم يقم بحملات قمع، كما فعل كاغانوفيتش أو ماليتكوف أو خروتشوف أو جدانوف. لكن، ما دام واحداً من أعضاء القيادة السياسية، فإن المسؤولية لا شك تقع عليه أيضاً وعلى كل واحد منهم. فقد كان يصرّ على الدعوة لعقد مؤتمر استثنائي للحزب لأنه كان يرغب في إجراء تقييم عادل لعمله وعمل زملائه.

إن ما كان لدينا قبل الحرب وبعدها لم يكن نظام ديكتاتورية ستالين الشخصية. انه لمن المريح جداً للمدافعين الحاليين عن البلشفية تصوير ستالين ديكتاتوراً شبه مجنون، وتصوير أعضاء المكتب السياسي المحيطين به ضحايا صامتين للظروف. كما أن الحزب البلشفي نفسه يُقدَّم أيضاً كضحية لإرهاب مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) ذات القوة المطلقة، وضحية لتسلّط أمينه العام. هذا ليس صحيحاً. فالذنب كان ذنب كل واحد منهم، كان ذنب ستالين وكان ذنب الآخرين. إنهم هم المسؤولون عن كلّ الحسابات الخاطئة وعن جميع الاعوجاجات والأخطاء التي ارتكبها النظام. إنهم مسؤولون أيضاً عن الجرائم التي ارتكبت منذ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٧. أما من كان أكثر ذنباً أو أقلّ ذنباً، ومن كان أكثر فضلاً أو أقل، فإن التاريخ سوف يفصل في ذلك.

كان يوجد دائماً في القيادة السوفياتية أشخاص يناضلون إلى هذه الدرجة أو تلك من أجل تطهير الحزب والنظام الشيوعي. لكنني على قناعة عميقة بأن هذا العمل كان شبيهاً بعمل سيزيف، إذ لم يكن يوجد ما يُطهَّر. هكذا كان هذا

النظام في أساسه: كامنيف وزينوفيف، وفي مرحلة ما بوخارين... كان يذهب أشخاص ويأتي آخرون، إلا أن أساس البلشفية وجوهرها، أي ديكتاتورية البروليتاريا، لم يكن يتغير. صحيح أن هذه الديكتاتورية تغيرت مع الوقت لتتحول إلى ديكتاتورية الجهاز الحزبي، لكن لم تطرأ عليها أية تغيرات مبدئية. فالديكتاتورية تبقى دائماً ديكتاتورية.

بعد وفاة ستالين كان والدي لا يزال يأمل بتغيير ما حتى في ظروف النظام الموجود. كما كان أولئك الذين كانوا يعملون معه مثل خروتشوف ومالينكوف والآخرين يدركون أيضاً أنه لا بد من تغيير النهج. لكن لم يكن بوسعهم القيام بتحولات جذرية لأنهم كانوا يعرفون أن إزالة الأساس الحزبي في قيادة البلاد، كما كان يطالب والدي، سوف يضعهم في خانة المعارضة للجهاز الحزبي ذي القوة المطلقة في كل الأوقات. وكان هذا بمنزلة النهاية للقيادة الحزبية العليا. ويكفي أن نتذكَّر كيف اهتزّ الكرسي تحت الأمين العام الأخير حين بدأ يترجّح بين الأصدقاء القدامى والجدد؟ وكيف أزاحوا خروتشوف؟ ليس الأمين العام كلّي القدرة، إنما الكلّي القدرة هو الجهاز الذي كان الأمين العام صنيعته.

لم يكن والدي يستبعد إمكانية حلول قيادة جديدة محل القيادة التي كانت لا تزال ستالينية. وبرأيه كان يوجد في الجمهوريات عدد غير قليل من القادة الأذكياء القادرين على انتهاج سياسة جديدة، وتحمُّل مسؤولياتها، وهو الأمر الذي لا يقلّ أهمية عن الأول. وأذكر أنه تحدث مرة حول الموضوع مع كل من خروتشوف ومالينكوف:

- لنفرض أنه بات علينا أن نذهب ويحلُّ شباب محلّنا، فهل سيعملون على نحو أسوأ ؟

فأجاب كلّ من خروتشوف ومالنيكوف:

- كلا، بالطبع، فنحن أيضاً كنّا شباباً...

وأذكر جيداً أيضاً كلمات مالينكوف التالية:

- وأنا كنت أحلم طوال حياتي أن أكون مهندساً...

لكن والدي لم يمهله في الجواب قائلاً:

- دع عنك يا غيورغي! نحن نعرف بماذا كنت تحلم أنت. فقد كنت لا تزال على مقاعد الدراسة حين أصبحت تتحرّق شوقاً للالتحاق بالأجهزة الحزبية. فلا تحدّثنا نحن، بمثل هذه الأساطير.

أجل، كانت تدور فيما بينهم مثل هذه الأحاديث الصريحة.

الخطأ الرئيس في حسابات والدي يتلخّص في أنه كان يصدّقهم جميعاً. ومع أنه كان يعلم مع من يتعاطى، إلا أنه كان يصدقهم. غير أنني أفترض بأنه كان يحدس، بالتأكيد، بأن هيئة رئاسة اللجنة المركزية يمكنها أن تقف ضده. إلا أنه كان يناقش الأمور على النحو التالي : سوف ينعقد المؤتمر الاستثنائي ويضع كلَّ الأمور في نصابها ويكافيء كلاً بما يستحق. إن الوضع نفسه، بعد وفاة ستالين، كان يشجّع على الحديث الصريح والمباشر. فالناس عادوا من الحرب ونهضوا بالبلاد المدمرة، وهم ينتظرون الإجابة عن الأسئلة التي يطرحونها منذ سنوات عديدة : كيف حصل كل ذلك ولماذا؟ ما الذي يجري اليوم ؟ من هو المسؤول؟.

لو قُدِّر لوالدي أن يتحدث في المؤتمر لكان لقي التأييد، كما أعتقد. إن ترؤسه للإدارة التأديبية ما زال منذ سنوات عديدة يعرقل الفهم الموضوعي لنشاطه كواحد من كبار المسؤولين في الدولة. وليس يَهمُّ متى كان على رأس هذه المفوضية وأيّ مفوض كان، بل إن الأحرف نفسها التي تختصر اسم مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD) تفعل فعلها في هذا الصدد، وكأنها وصمة.

إنني لا أدعو القارىء إلى أن يغيّر من خلال هذا الكتاب رأيه بالأجهزة التأديبية، بل آمل أن يتعرّف أخيراً إلى تلك المحرّكات السرية التي كانت تدفع هذه الأجهزة إلى ارتكاب أفظع الجرائم.

إن تاريخ التشي.ك (Sh.K)، والمديرية السياسية الموحدة (OGPU) ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD)، ومفوضية الشعب لشؤون أمن

الدولة (NKGB)، ووزارة أمن الدولة (MGB)، ووزارة الشؤون الداخلية (MVD)، ولجنة أمن الدولة (KGB)، ليس إلا جزءاً من الحقيقة عن الماضي. إن هذا الكتاب هو، إلى حد بعيد، عن الحزب نفسه، عن قيادته العليا التي بسببها فقد والدي حياته. إلا أنه أيضاً عن الذين كانوا يخلصون في القيام بما كانوا يعتبرونه صحيحاً. فكانوا يعززون الاقتصاد وأمن الدولة وعلاقاتها الدولية. كانوا يصنعون الأسلحة الجديدة ويبنون المصانع الجديدة... لقد كان أبي لافرنتي بيريا واحداً من هؤلاء.

لم يعش أبي حياة طويلة، إلا أنني على قناعة بأنها حياة مضيئة. تعرّف إلى الكثيرين خلال حياته. وكان يجتمع حوله دائماً المفكرون وأصحاب المبادرات الخلاقة والناشطون. بين الأصدقاء المقرّبين من والدي كان النائب الأول لوزارة التصنيع المتوسط في الاتحاد السوفياتي بوريس لفوفيتش فانيكوف، والأكاديمي كورتشاتوف، ووزير الصناعات الميتولورجية تيفوسيان. كما كان مقرّباً من والدي إلى حد بعيد مصمم الطيران أندريه نيكولايفيتش توبولوف، والأكاديمي مينتس، والعامل الحزبي كودرياتسيف والماريشال جوكوف...

ومن الضيوف، الذين كانوا دائماً على الرحب والسعة في منزل بيريا، الرسام تويدزه، والفيلسوف نوتسيبيدزه، والكاتب كونستانتين غامسا خورديا، إضافة إلى الشخصيتين الشهيرتين في تنظيم الحركة الرياضية في جورجيا: آرتشيل باكراردزه وإيغنا تشيفلي، والعديد من الأشخاص المهمين في ذلك الزمن.

لقد اضطرّته الحياة أن يصبح رجل مخابرات، إلا أنه احتفظ لسنوات طويلة بحب مؤثر للهندسة المعمارية التي درسها خلال شبابه. كان يحسد، بالمعنى الطيب للكلمة، معارفه القدامى وأصدقاءه الذين أصبحوا مهندسين معماريين مشهورين. وأنا على علم بأن والدي كان يلتقي، في جورجيا وفي موسكو، المهندسين المعماريين المعروفين جيلتوفسكي وسيرفيروف وأبراسيموف وسواهم، وكان يتأمّل مشاريعهم بشعور من الارتياح.

كان والدي يكنُّ احتراماً خاصاً للعسكريين. إضافة إلى جوكوف، بوسعي أن أذكر الماريشال فاسيليفسكي والجنرال شتيمنكو المقرَّبَين منه.

كثيرون جداً من الناس في ذلك الوقت صعدوا سلم الوظيفة بمساعدة أبي. بين أكثر المعروفين من هؤلاء أوستينوف الذي عُيِّن بتوصية من والدي وزيراً للتسلح وهو في عمر فتي جداً. وكذلك فانيكوف وتيفوسيان، ووزير الصناعات الكيميائية بيرفوخين، ونائب رئيس مجلس الوزراء ماليشيف، ورئيس مجلس تخطيط الدولة سابوروف. إن سابوروف هذا، مثلاً، كان مختصاً في الاقتصاد، وكان شخصاً خارق الذكاء، إلا أنه لم يرقَ للنخبة الحزبية لأنه لم يعمل يوماً في الأجهزة الحزبية. وكان هذا الأمر في نظر النومانكلاتورا عيباً جدياً. فلم تكن هذه تطيق الاختصاصيين الحقيقيين في أي حقل من الحقول. ومع أن كثيرين جداً كانوا ضد ترقية سابوروف، إلا أن والدي أصرّ على رأيه. لقد كان والدي يعرف كيف يدافع عن الناس الذين يتقنون عملهم دون أن يلتفت إلى منصب من يقف ضده.

وهذا ما حدث لدى تعيين ديمتري فيودوروفيتش أوستينوف في منصب "مفوض الشعب". فقد كان والدي يبرهن أن الرجل منظِّم رائع ومهندس موهوب، في حين أن الموظفين الحزبيين كانوا يجيبون بالقول :

- كيف ذلك يا لافرنتي بافلوفيتش؟ إنك تقترح لمنصب مفوض الشعب للتسلح (!) شخصاً لم يعمل يوماً واحداً سكرتير لجنة حزبية في مصنع. فهو يجهل العمل الحزبي كلياً!

وكان والدي يرد :

- إنه يعرف عمله، وأعتبر هذا كافياً كلياً.

في مثل هذه الحالات غالباً ما كان يتدخل ستالين وتُعالج على نحو آخر المسائل المتعلقة بتعيين هؤلاء أو أولئك من الناس الذين كان يقترحهم والدي. إن تقديم الناس ليس بناءً على مواصفاتهم العملية هو ممارسة فاسدة، تمكّن الجهاز الحزبي، للأسف، من نشرها في كل مكان. فمن منا لم يصطدم بهذا الأمر في عمله؟

لقد كانت علاقات والدي مع الأجهزة الحزبية تتسم دوماً بالتعقيد. لقد حسمت أنا هذه المسألة منذ عقود عدة، حين لم يكن إحراق البطاقة الحزبية

يعتبر بعد عملاً شجاعاً[1]، إذ رفضت بعد السجن رفضاً قاطعاً العودة إلى صفوف الحزب. بالنسبة لوالدي كان الأمر أكثر تعقيداً، إذ إن المناصب الرفيعة التي كان يشغلها كانت تفترض بالضرورة عضوية المكتب السياسي..

إلا أن والدي لم يخف قط علاقته بالجهاز الحزبي. فكان على سبيل المثال، يقول صراحة لكلٍ من خروتشوف ومالينكوف إن الجهاز الحزبي يُفسد الناس. كل هذا كان ضرورياً في المراحل الأولى لبناء الدولة السوفياتية. وكان يسألهما: ما حاجتنا اليوم إلى المراقبين ؟

مثل هذه الأحاديث الصريحة كان يجريها والدي أيضاً مع المسؤولين في الصناعة ومديري المصانع. أما أولئك الطفيليون في اللجنة المركزية فلم يكونوا يطيقون هذه الأحاديث.

كان والدي على هذه الدرجة من الصراحة مع ستالين أيضاً. وكان يوسف فيساريونوفيتش (ستالين) يوافق على أن الجهاز الحزبي قد ابتعد عن مسؤولية العمل الملموس، ولا يشتغل إلا بالسفسطة. وأنا على علم أنه قبل سنة من وفاته، حين اقترح ستالين هيئة رئاسة جديدة للجنة المركزية، ألقى خطاباً كان في جوهره يدعو إلى ضرورة البحث عن أشكال جديدة لقيادة البلاد، إذ إن الأشكال القديمة لم تعد ملائمة. كما جرى حديث جَدِّي آنئذٍ حول نشاط الحزب أيضاً. وأعتقد أن الكشف عن هذه المعطيات أمر مثير للاهتمام اليوم. إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة، إذ تم الإعلان رسمياً أن المحضر المذكور ليس موجوداً في الأرشيف الحزبي. هذه كذبة من جملة الأكاذيب بالطبع.

إجمالاً، إن مسألة الأرشيف مسألة مثيرة جداً. فأنا أعرف أشخاصاً حاولوا، وبكل إلحاح، الوصول إلى الوثائق المتعلقة بتلك الفترة والتي تتحدث عن نشاط والدي والقيادة العليا للبلاد. وأشير إلى أنني أتحدث عن محاولات بُذلت لفهم الأحداث التي جرت منذ أربعين عاماً فهماً موضوعياً. إلا أن أحداً لم يحصل على هذه الوثائق. من فرض الحظر على الوصول إليها؟ إنه المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي.

---

(١) في إشارة إلى ما شاع في مرحلة من مراحل البيريسترويكا من إقدام الحزبيين على إحراق بطاقاتهم الحزبية أمام الناس في الشارع ـ المترجم.

كما أنني على علم أيضاً بمحاولات أخرى لا تقلّ إلحاحاً للوصول إلى الأرشيف بُذلت من قبل أحزاب شيوعية أجنبية. إلا أن الأمر كان يتطلب إذناً من قبل الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. ومع ذلك لم يتمكن ممثلو "الأحزاب الشقيقة" من الوصول إلى الوثائق نفسها. فقد كان جهاز اللجنة المركزية، ودون أن يطّلع على الوثائق الأصلية، يقدم إفادات أعدّت من قبل اللجنة المركزية حول هذه القضية أو تلك. هكذا كان الأمر بالنسبة للوثائق المرتبطة بعلاقتنا مع ألمانيا الديمقراطية وبولونيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا...

لم يعد للحزب الشيوعي السوفياتي والمكتب السياسي واللجنة المركزية وجود منذ زمن بعيد، لكن حتى في روسيا ما بعد الشيوعية يتم الكشف بصورة انتقائية عن وثائق المرحلة الستالينية والوثائق التي تعود إلى ما قبل خمسين عاماً. فاللعبة السياسية، على ما أفهم، لم تنتهِ بعد. فجميع الملفات المتعلقة بنشاط والدي ومصيره لا تزال سرية كما في السابق. وهذا نموذج ليس إلا...

إن أسرار الكرملين (ليعذرني القارىء على هذا التكرار) خلال كل العقود من وجود الدولة السوفياتية بقيت بالنسبة للناس سرّاً مخفياً خلف سبعة أبواب. ومن الطبيعي ألا يكون بوسع الذين "تحت" أن يعرفوا أي لهيب يضطرم "فوق". ومن البديهي أن المعلومات عن إدارة لافرنتي بيريا السرية لم يكن بوسعها أن تصل إلى الذين "تحت".

لم يكن والدي كثير الظهور، مثل الآخرين، في الصحف وهو يلقي الخطابات. كما لم يكن يظهر، ما خلا استثناءات قليلة، في المهرجانات والتجمعات الحزبية وسواها من التجمعات الحاشدة. ولم تكن "السرية" فقط هي السبب في ذلك. فكل هذه البهرجة كانت تثير في نفسه الاشمئزاز. لقد كانت حياته كلها مفعمة بالعمل الملموس والمسؤول. هكذا كان الأمر قبل الحرب. وهكذا كان أثناء الحرب. وهكذا كان بعد الحرب. وبكل بساطة، لم يكن لديه الوقت للنشاطات الجماهيرية التي كانت تعشقها القيادة الحزبية العليا. إن تجربة القادة السوفيات في الحزب وفي الدولة خلال العقود الأخيرة تجعلنا

نقتنع بأن المرء إما أن يعمل، و إمَّا أن يتحدث "إلى الشعب" حديثاً فارغاً خلال ساعات طويلة. ولا وجود لخيار ثالث، كما كانوا يقولون في القدم. أما أبي فقد كان يحرص على كل ساعة من الوقت. لقد كان ذا قدرة هائلة على ضبط النفس، وأعرف أنا هذا منذ الطفولة. وحين يقال "شخص على قدر المسؤولية" فإن هذا القول يقصده هو بالذات.

لم يكن والدي يكترث للشهرة. وهو لا يختلف في ذلك، كما يبدو، عن أيّ شخص آخر يحتلّ منصباً رفيعاً بهذا القدر. هذا مع العلم أن في القيادة السوفياتية، كما هو معروف، ما يكفي من الاستثناءات...

في المؤتمر السابع عشر تم انتخابه عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي)، ثم ما لبث أن أصبح عضواً في المكتب السياسي. كان يحمل رتبة "مفوض عام لأمن الدولة". وفي العام ١٩٤٥ حصل، بوصفه عضواً في "لجنة الدولة للدفاع"، على لقب "بطل العمل الاشتراكي". وكان هذا اللقب قد مُنح آنئذٍ أيضاً لمالينكوف ولآخرين من كبار القياديين. وحين تمت مساواة الرتب في أجهزة الأمن الداخلي وأمن الدولة مع الرتب في الجيش، أصبح والدي برتبة "ماريشال الاتحاد السوفياتي". وتقديراً لجهوده في تنظيم الدفاع عن القفقاز أثناء الحرب، حصل على وسام "سوفورف". وكان قبل ذلك قد حصل على وسام "الراية الحمراء" تقديراً لعمله في المخابرات. وأذكر أنه قال في أحد المرات ضاحكاً : "وما حاجتي إلى ستة أوسمة من "وسام لينين"؟ ألم يكن يكفي وسام واحد؟ وبالمناسبة، كان لدى والدي اقتراحات مهمة حول تغيير نظام الأوسمة والجوائز السوفياتي، وهو الأمر الذي تمكنوا من استخدامه ضده أيضاً. وكان الأمر يتعلق باستحداث أوسمة جديدة على صعيد الجمهوريات الاتحادية.

من محضر اجتماع تموز/يوليو الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي العام ١٩٥٣.

"**باغيروف**": الأمر يتعلق بإنشاء أوسمة جديدة على صعيد الجمهوريات.

اتصل بي بيريا هاتفياً وقال: إنني أعُدّ لطرح مسألة الأوسمة. قلت، ولماذا أنت تعدّ. عدّل في كلامه وقال نحن نريد إدخال أوسمة جديدة. إن هذه المسألة ليست مسألة تنظيمية. إنها تدخل في مهام اللجنة المركزية للحزب والحكومة، إنها مسألة سياسية، فكيف يسعه هو إعداد هذه المسألة ؟

"**مالينكوف**": أية أوسمة ؟

"**باغيروف**": أوسمة في حقل الثقافة، أوسمة على صعيد الاتحاد وصعيد الجمهوريات في حقل الثقافة.

"**بولغانين**": لأية فئة من الناس ؟

"**باغيروف**": للعاملين في الثقافة، وللعاملين في المسرح.

"**مالينكوف**": أية أوسمة، مثلاً؟

... الأوسمة يمكن أن تكون باسم شخص ما.

"**يوسوبوف**": اتصل بي هاتفياً، بتكليف منه، مساعده أوربينتسوف، ليطلعني على أن بيريا سوف يطرح اقتراحاً بإنشاء مجموعتين من الأوسمة: المجموعة الأولى وهي أوسمة على صعيد الاتحاد، والمجموعة الثانية وهي أوسمة على صعيد الجمهوريات. ثم إنشاء أوسمة باسم الأشخاص العظماء في الجمهوريات مثلاً، النظامي[1] عنده (عند بيريا)، أليشير نافوي[2] عند الأوزبك وهكذا دواليك. قلت له عندئذٍ إنه ينبغي التفكير بهذه المسألة (ضحك) لقد ربّونا على نحو مختلف حتى الآن..."

كم من السهام أطلقت خلال هذا الاجتماع الموسع على أبي الذي "تطاول" على "السياسة القومية اللينينية، وعلى الصداقة العظيمة بين شعوب الاتحاد السوفياتي". أما والدي فكان، بكل بساطة، يسعى إلى منح الجمهوريات الاتحادية حقوقاً واسعة، ويدعم الكوادر القومية بكلّ الوسائل. إن حادثة الأوسمة هذه حادثة ذات دلالة كبيرة. فقد كان والدي يعتبر، مثلاً، أن جميع الجمهوريات يجب أن تكون لها أوسمتها الخاصة بها. فقد كان من

(١) المقصود به أبو محمد الياس بن يوسف النظامي الذي عاش حوالى ١١٤١-١٢٠٩ ميلادية، ويعتبره الروس أذربيجانياً-المترجم.

(٢) شاعر أوزبكي عاش بين العامين ١٤٤١هـ - ١٥٠١ - المترجم.

المفترض، مثلاً، أن يكون "وسام شفتشنكو"[1] هو الوسام الأرفع في أوكرانيا و "وسام روستافيللي"[2] الأرفع في جورجيا. لكن القيادة الحزبية العليا لم تخاطر في الإقدام حتى على هذا الأمر.

لم يقم والدي بأيّ تشويه "للسياسة القومية"، كما اتّهموه مراراً في الاجتماع المذكور للجنة المركزية. لقد كان والدي إلى جانب الدولة القوية الموحدة. لكنه مع ذلك كان على قناعة بأن السياسة التي كان يتبعها المركز تجاه الجمهوريات كانت تضر بالصداقة بين الشعوب. فقد كانت اللجنة المركزية تسعى دائماً للإبقاء على الجمهوريات "تحت اللجام"، كما يقال، وهو الأمر الذي لم يكن بوسع والدي تقبّله.

لقد أورد والدي أكثر من مرة أمثلة من الماضي مستخدماً وثائق من الأرشيف تتعلق بالسياسة الإمبراطورية لروسيا القيصرية. وكان يبرهن أن مثل هذه الوسائل، ولو تغيرت من حيث الشكل، لا يمكن تطبيقها في بنية الدولة الحديثة.

إنني على علم بأنه قد تناقش مع جوكوف في يوم من الأيام حول المرحلة التي يصبح خلالها ممكناً تشكيل وحدات وتشكيلات عسكرية وطنية. تجادلا طويلاً وتوصّلا إلى الاستنتاج بأنه ما إن يبدأ تشكيل مثل هذه الوحدة حتى تصبح الجمهورية المعنية خارج الاتحاد السوفياتي. وقد لا يبدو الأمر مستساغاً اليوم، إلا أن جوكوف ووالدي قررا أن التشكيلات الوطنية ينبغي أن تبقى بالنسبة للشعوب تشكيلات للزينة فحسب. وذلك تماماً حال وزارات الخارجية في الجمهوريات. وأذكر أن جوكوف كان يحاول إقناع والدي بقوله :

- أنت يا لافرنتي عليك أن تدرك أن مثل هذه التشكيلات ما إن تظهر في أوكرانيا، مثلاً، أو في جورجيا، حتى تكون بمنزلة النهاية للجيش وللاتحاد...

---

(١) تاراس شفتشنكو: ١٨١٤ -١٨٦١: شاعر ورسام أوكرانيا الكبير. مؤسس الأدب الأوكراني الحديث، ومؤسس اللغة الأدبية الأوكرانية الحديثة ـ المترجم.

(٢) شاعر جورجي عاش في القرن الثاني عشر اشتهر بقصيدته المعروفة عالمياً " فتياس في جلد النمر" ـ المترجم.

وردّ والدي ضاحكاً :

- أمر سليم،ما دمنا نخنق بعضنا بعضاً... أما جدياً فإنه ينبغي علينا أن ننظم بنية الدولة على نحو نبقى معه موحدين بالنسبة للأنظمة الخارجية، لكن دون أن نضغط على الجمهوريات.

وافق جوكوف على ذلك، وإن كانت الشكوك بقيت، كما يبدو، تساوره في داخله. لكن لم يسمح بتشكّل الوحدات الوطنية مع ذلك. قال والدي مازحاً:

- وممَّ يشكو غريتشكو حتى لا يكون قائداً للجيش الأوكراني؟ لماذا يستطيع روكوسوفسكي[1] أن يكون وزيراً للدفاع في بولونيا، بينما لا يستطيع غريتشكو ذلك؟ كما بوسعنا أن نجد شخصاً بيلوروسياً أيضاً.

لندع المزاح جانباً. إن التفكير باتحاد حقيقي، وليس باتحاد مفروضٍ بقوة السلاح، لم يفارقه حتى لحظة مقتله. ولا تزال في أوكرانيا وبيلوروسيا وجورجيا وجمهوريات البلطيق وثائق عديدة يشرح فيها والدي مقترحاته. وقد جرى تذكيره بها في اجتماع اللجنة المركزية ذاك. فالمركز كان يخشى حتى ذلك الحين استقلالية الجمهوريات.

يضيف القرار الذي صدر عن الاجتماع المذكور بعنوان "حول نشاطات بيريا الإجرامية المعادية للحزب والدولة" اتهاماً آخر لوالدي، حيث يقول. "وكما تثبت الوقائع فإن بيريا، وفي ظل وجود ستالين وبعد وفاته بشكل خاص، كان يقوم بكل ما أوتي من قوّة وتحت مختلف الذرائع، بعرقلة معالجة القضايا الحيوية الملحّة المتعلقة بتعزيز الزراعة وتطويرها. وقد أصبح من المؤكد الآن أن عدو الشعب السافل هذا كان يضع نصب عينيه ضرب الكولخوزات وخلق المصاعب في تموين السكان بالمواد الغذائية". المضحك أنه خلال السنوات الخمس عشرة التي سبقت الاجتماع المذكور لم تكن لوالدي، وكما

(١) أحد كبار القادة العسكريين السوفيات في الحرب العالمية الثانية، وهومن أصل بولوني، أصبح وزيراً للدفاع في بولونيا بين العامين ١٩٤٩ و١٩٥٦. ثم عاد ليصبح نائباً لوزير الدفاع السوفياتي بين العامين ١٩٥٨ و ١٩٦٢ - المترجم.

هو معروف، أية علاقة بالزراعة، ولم يكن قد بقي على قيد الحياة ذاك الذي يستطيع الرد على هذه الشتائم، ولذا اتهموه بانهيار الزراعة والصناعة وسوى ذلك. إلا أن في الأمر شيئاً من الحقيقة. فقد كان موقف والدي من الكولخوزات معروفاً، الأمر الذي استغلته القيادة الحزبية العليا لتصوره عدواً للنظام الكولخوزي. وفي الحقيقة، كان والدي يقول بأن الكولخوز هو نظام مثالي لاستغلال الإنسان، وليس عبثاً أن يقوم الألمان أثناء الاحتلال بتنظيم عمل الكولخوزات. إلا أنه كان يضيف: إن هذا النظام مثالي، لكنه ليس الأكثر جدوى. كان والدي يرى سبيلين لنهوض الزراعة :

سبيل المزرعة الصغيرة المنفردة وسبيل الاقتصادات الزراعية الكبيرة. كان والدي يدرك أن الكولخوزات لن تتمكن من بلوغ مستوى الاقتصادات الزراعية الكبرى. ولذلك اقترح القيام بتجربة عن طريق اختيار حوالى مئة سوفخوز وتجهيزها بالتقنيات الملائمة واعتماد أجور للعاملين فيها تعادل أجور العمال المؤهلين فنياً في المصانع، ثم القيام بمقارنة النتائج الأكثر ربحية. كما اقترح، في خط مواز لذلك، العودة إلى المزرعة المنفردة، لكن ليس عن طريق مرسوم بحل الكولخوزات، إذ إن ذلك، برأيه، سوف يكون حركة تعاونية جديدة تترافق مع العنف. وقد سمّى مناطق محددة مثل، أوكرانيا الغربية وليتوانيا ولاتفيا وأستونيا، حيث كانت للمزرعة المنفردة فيها جذور عميقة، ويستحيل فرض الكولخوزات على سكانها.

لا أذكر من صرّح أثناء اجتماع اللجنة المركزية بأن بيريا لم يقرأ طوال حياته كتاباً واحداً... كان والدي يشتغل باستمرار في وثائق من الأرشيف، ويقرأ أعمال المؤرخين من عهد القياصرة. وكان يسوق ما يكفي من الحجج في معرض تأكيده أن الانتفاضات الفلاحية لم تكن تقوم في أوكرانيا وفي منطقة الدون بالمصادفة، فقد كانت توجد دائماً في هذه المناطق اقتصادات فلاحية ناجحة، وكان يعرف الناس لماذا يقاتلون. وقد أنشئت الكولخوزات هناك بالدم، وذلك بالمعنى الحرفي للكلمة. أما في روسيا الوسطى، مثلاً، فلم يكن يوجد شيء من هذا القبيل. لكن والدي لم يتمكن للأسف، من إقناع القيادة

العليا. فقد سعت هذه القيادة إلى تطبيق نظام التعاونيات بأي ثمن في البلطيق وفي أوكرانيا الغربية، الأمر الذي لم يكن يجدر، بالطبع، أن تقوم به. أما مقترحات والدي فقد وضعت في الأدراج. ولم يتذكروا هذه المقترحات إلا بعد مرور عشرات السنين، لكنهم أخفوا عن الشعب أنها مقترحاته.

أعرف أن والدي كان يبدي اهتماماً كبيراً بأفكار ستوليبين[1] المؤيد لفكرة المزرعة المنفردة. كان والدي يستخدم الأرقام المستقاة من مصادر الأرشيف ليثبت أن بلوغ تلك المحاصيل الزراعية الوفيرة التي كانت في مطلع القرن أمر ممكن، شرط عدم الخشية من الإفادة من تجربة ستوليبين، وحزم الأمر لإجراء إصلاحات جدية مماثلة. ولكن، وكما كان متوقعاً، لم تُنفّذ هذه المقترحات ولم يجرؤ أحد بعد استشهاد والدي على أن ينبس ببنت شفة حول المزرعة المنفردة.

كان والدي يقول : "عن أية شيوعية يمكن أن نتحدث، ما دمنا لم نتمكن من إطعام الناس". ولم يكن هذا موقفاً استعراضياً لموظف رفيع المستوى يسعد بالكلام فقط لسعادة الناس. كان والدي يرغب مخلصاً في تحسين ظروف حياة أولئك الذين تحمّلوا أوزار الحرب الرهيبة. كان يعتبر أن مستوى المعيشة في البلاد هو المهمة الرئيسية، وقد عمل الكثير لتحقيق أفكاره. أحد العاملين الحزبيين صرّح مرة أن بيريا قال علناً إن النقابات متعطّلة عن العمل. أقول صراحة: إذا كان والدي لم يُخفِ يوماً موقفه من الجهاز الحزبي، فإن مثل هذا الكلام عن النقابات، كان بوسعه أن يقوله أيضاً. إلا أن قدامى العاملين في صناعات الميتالورجيا والصناعات النفطية وصناعة الفحم، التي تولّى والدي الإشراف عليها في أحد الأيام، لم ينسوا بالتأكيد كيف كانوا يعملون ويعيشون في تلك المرحلة. وأجرؤ على القول إن المسألة هنا لم تكن مسألة إظهار عناية رقيقة من جانب النقابات السوفياتية، بل كان والدي والمحيطون به على قناعة بأن الموقف من الإنسان العامل لا يمكن أن يكون على نحو آخر. ولست متأكداً ما إذا كانت المسائل الاجتماعية في هذه الفروع الصناعية تعالج لاحقاً

(١) سياسي روسي (١٨٦٢ - ١٩١١) قاد في مطلع القرن عملية الإصلاح الزراعي في روسيا التي سمّيت باسمه - المترجم.

على هذا النحو من المثابرة التي كانت تعالج بها في السنوات الصعبة تلك بعد الحرب...

إقرأوا بأيّ شعور من الضيق تحدّث عنه الكهنة الحزبيون في الاجتماع المذكور ذاك: " كان يُغرقنا بالأوراق والاقتراحات..كان يبحث عن شهرة رخيصة... ". إن الشعور بالكراهية تجاهه من جانب النومانكلاتورا أمر مفهوم للغاية. فقد كان الحزب الشيوعي و "لجنته المركزية اللينينية" بحاجة إلى أشخاص مطواعين عديمي المبادرة، لا لأشخاص خلّاقين. وحين بلغت الكراهية أقصاها، لجأت القيادة الحزبية العليا إلى الاغتيال السياسي وأقامت مسرحية قضائية بعد اغتياله.

لا أدري ما إذا كانوا محقّين أولئك الذين يعتبرون أن والدي قد خسر عام ١٩٥٣. فإن كان المقصود اغتياله، فمن المحتمل أن تكون مثل هذه التأكيدات قريبة من الحقيقة. إلا أن أفكاره ومبادئه التي آمن بها طوال حياته تخلق القناعة بأنها كانت تستحق القتال من أجلها. والزمن نفسه قد فصل، كما تأكدنا الآن، إلى جانب مَنْ كانت الحقيقة.

يمكن إقصاء السياسي عن المسرح السياسي، بل يمكن، كما فعلوا مع والدي، أن يقتلوه ويشوّهوا سمعته في نظر الناس ويختلقوا الأكاذيب عنه، لكن يستحيل، وأنا على قناعة بذلك، إلغاء كل ما قام به من عمل في سبيل بلده.

الفصل الثاني

ستالين وبيريا

ستالين وبيريا: مَن مِن المؤرخين السوفيات، وحالياً الروس، لم يحاول الوصول إلى جذور العلاقة بين هاتين الشخصيتين التاريخيتين؟. من هؤلاء، ديمتري فولكوغونوف (أحد قادة مديرية التوجيه السياسي الكريهة في الجيش والأسطول، والجنرال من قبل اللجنة المركزية)، الذي لجأ مراراً إلى التشويه المباشر للحقائق ليفرض على القارىء، عبثاً، صورة مشوهة عن بيريا، وكأنه ظِلٌّ باهت لديكتاتور الكرملين. ومنهم من لا يميل إلى مثل هذه الاختلاقات الغزيرة ويواصل لعب "الورقة الجورجية". لكن، للأسف، هذه الأوهام لم تقرّبنا، هي الأخرى، من الحقيقة. فأحجية العلاقة بين ستالين ووالدي لا تزال أحجية.

لنقارن، أيها القارىء، بين واقعتين ثابتتين لا غير. الواقعة الأولى: موسكو، الساحة الحمراء، يوم دفن ستالين. لافرنتي بيريا يلقي من على منصة ضريح لينين خطبته التأبينية الشهيرة "من ليس أعمى، فإنه يرى....". الواقعة الثانية التي، لسبب ما، لم تُثِر، خلافاً للأولى، اهتمام المؤرخين والناشرين: موسكو، الكرملين، اجتماع تموز/يوليو الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. لم يمر سوى أربعة أشهر على تلك الخطبة التأبينية، ومع ذلك، فإن أحد الاتهامات التي سيقت ضد والدي كان حرفياً على النحو التالي : "لقد أراد بيريا ضرب عبادة الفرد عند الرفيق ستالين". وفي الكلمة المشوّشة التي

ألقاها أنستاس ميكويان في الاجتماع، ثمة جملة أخرى بارزة: "في الأيام الأولى التي أعقبت وفاة الرفيق ستالين كان (بيريا) يقف ضد عبادة الفرد".

إن المحضر نفسه للاجتماع المذكور، والذي لم يفرج عنه إلا منذ مدة قريبة فقط، بوسعه، للوهلة الأولى، أن يلقي الضوء على العلاقة بين قائد الدولة السوفياتية وأحد زملائه المقربين منه. فميكويان ذاك يأسف، في أكثر من مكان، لأن "الرفيق ستالين كان يثق على نحو مفرط ببيريا"، إلا أنه يعود مباشرة ليناقض نفسه ويؤكد أن ذلك... لم يحصل. والحجج، التي يسوقها على عدم الثقة الواضح للعيان، ليست أقلّ إثارة للشكوك. فهو يقول إن ستالين قد فصل أثناء الحرب أمن الدولة عن وزارة الداخلية، وتم تعيين لافرنتي بافلوفيتش في مجلس الوزراء وفي لجنة الدولة للدفاع. فإذا أخذنا بالاعتبار أنه في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٤١ أصبح والدي عضواً في لجنة الدولة للدفاع، التي كانت تمسك بأيديها كل السلطة في الدولة، فإن كلام ميكويان يبدو أكثر من مستغرب.

لكن مهما يكن من أمر، فإن التصريح الذي أُطلق من فوق المنبر الرفيع هذا، حتى لو كان يفتقد الى أبسط قواعد المنطق، فإنه يستحق الاهتمام ويستثير بعض الأفكار.

إلى أي مدى كان والدي صادقاً مع نفسه حين ألقى كلمته في الاحتفال التأبيني في آذار/مارس ١٩٥٣؟ ألا يتناقض هذا مع تصريحاته الأخرى؟

إن ما كان بوسعه قوله (وكان يقوله) في اجتماعات هيئة رئاسة اللجنة المركزية، لم يكن مسموحاً به من فوق مثل هذا المنبر. وأعتقد بأن هذا الأمر مفهوم. وكان والدي فعلاً هو أول من وقف ضد عبادة الفرد عند ستالين. ويتضح ذلك جلياً في وثائق الاجتماع الموسع للجنة المركزية. وقد أثار هذا الأمر بالذات انزعاج قيادة الكرملين.

كثيراً ما يسألونني، مَن أنا ؟ ستاليني، أم معادٍ لستالين؟ أجيب بأنني لست ستالينياً ولست معادياً لستالين. أنا ضد النظام، الذي أوجده لينين وستالين وتروتسكي وبوخارين وريكوف... هذه القائمة بوسع القارىء أن يكملها دون

صعوبة. تذكروا حملات القمع على الأقلّ. فهي لم تبدأ سنة ١٩٣٧ ولا سنة ١٩٣٤، لقد بدأت قبل ذلك بكثير! وكم من الضحايا البريئين يتحمّل مسؤوليتهم أولئك الذين أتوا بعد ستالين؟ على أن المسألة ليست في الأرقام. فالمسؤول هو النظام ! ومن ثم ستالين وتروتسكي وسواهما. غير أن ستالين مسؤول لا ريب في ذلك. وأولئك الذين كانوا يحيطون به مسؤولون أيضاً. لكن بما أن ستالين كان يقف على رأس هؤلاء، فهو يتحمل مسؤولية أكبر، بالطبع.

لقد تقبّلت موت ستالين، وأقولها صراحة، بشعور مزدوج. فقد أسفت في الأساس لحال سفتلانا، ابنته. فقد كانت قبل ذلك، وكنت أعرف ذلك جيداً، إنساناً موجوداً، وبعد موت ستالين لم تنتظم حياتها مطلقاً. في الظاهر، بالطبع، كان خروتشوف وفوروشيلوف، على سبيل المثال، يتوليان رعايتها. لكن في الواقع كان هذان الشخصان يعرفان جيداً حالة سفتلانا النفسية الضعيفة جداً، وكانا يدفعانها إلى ما قد حصل في نهاية المطاف[1].

ما حدث لستالين علمت به من والدتي حين عدت إلى المنزل لتناول طعام الغداء. في مثل هذا الوقت، عادة، كان والدي أيضاً يعود إلى المنزل، إلا أنه لم يكن موجوداً في ذلك اليوم. كانت والدتي تجلس باكية وقالت لي على الفور إن يوسف فيساريونوفيتش أصيب بنوبة[2]، ولن ينجو منها، على الأرجح.

فسألتها: وأنتِ لماذا تبكين؟ إنك تذكرين بالتأكيد ما قاله والدي...

كنت أقصد بكلامي ما كان يُعِدُّ ستالين لنا.

لقد كانت والدتي تعرف كل ذلك، بالطبع، إذ إن والدي كان قد حذّرنا مما قد يحدث.

أجابت والدتي: أتدري؟ أنا أفهم كل ذلك، ومع هذا آسف له، فهو ذو حضور قوي للغاية.

(١) المقصود هجرتها من الاتحاد السوفياتي في الخمسينيات - المترجم.

(٢) لا يحدد الكاتب إن كانت نوبة قلبية أم نزف في الدماغ، كما شاع فيما بعد - المترجم.

جلست أتناول طعام الغداء، في حين غادرت والدتي لزيارة سفتلانا.

لقد كُتب الكثير عن موت ستالين، وعن سلوك المقربين منه وزملائه في تلك الأيام، إلا أن ذلك بغالبيته ليس إلا تكراراً لروايات ملفقة.... فمن المعروف على نطاق واسع، مثلاً، أن سفتلانا بقيت أياماً بكاملها جالسة عند سرير ستالين. لكن كنا نعرف أنها كانت موجودة في المنزل وكانت هادئة كلياً. لا أريد القول إنها لم تكن تحب والدها، لكن لم يكن ذاك الحب المجنون، الذي كُتب عنه الكثير، ولا سيما الذي كتبته هي نفسها.

لقد حضرت، بالطبع، جنازة ستالين. وكالعادة في مثل هذه الحالات قامت الأجهزة الحزبية بتوزيع الأوامر على المنظمات، وهذه بدورها حددت الأشخاص الذين ينبغي لهم الحضور. إلا أن هذا لايعني، بالطبع، أنني لما كنت لأحضر لولا ذلك.

في ذلك الحين، في آذار/مارس ١٩٥٣، لم أعد ذاك الفتى من مدرسة تبيليسي الذي يؤله القائد. لقد عرفت الكثير وفهمت الكثير. وبوسعي أن أقول اليوم على نحو لا لبس فيه: إنه لو قُدّر لستالين أن يعيش عدة سنوات أخرى، لما كان بقي في هيئة رئاسة اللجنة المركزية أحد من أولئك الذين عاشوا بعده. ولا يشكّل والدي استثناءً، بالطبع. فالقضاء عليه كان يجري الإعداد له حين كان لا يزال ستالين على قيد الحياة. وقد حدّثنا والدي عن هذا الأمر، أنا ووالدتي.

أذكر، وكان ذلك بعد وفاة ستالين، حين كان والدي يحدّث والدتي عن الإصلاحات التي اقترح على كل من خروتشوف ومالينكوف والآخرين إجراءها، فقالت والدتي :

- وما الفارق إن قام بذلك يوسف فيساريونوفيتش أم هم؟.. لكن لو كان هو، لما كان الأمر مؤسفاً لهذه الدرجة.

كانت والدتي تعرف المحيطين بستالين جيداً، ولم تكن تصدق أنهم سوف يسمحون لوالدي بتحقيق أفكاره. على كل حال، لم يكن يساورها، حتى في ذلك الحين، أدنى شك في أنهم سوف يزيحون والدي.

إن وفاة ستالين قد أنقذت، دون أدنى شك، حياة المحيطين به. فقد كان سيستبدل حتماً بهؤلاء أشخاصاً جدداً كلياً لا يعرفون ما كان يعرفه مولوتوف ومالينكوف وخروتشوف وغيرهم، بمن فيهم، وأكرر القول، والدي. وكان ستالين سيزيح أيضاً، وبلا أدنى شك، وزير أمن الدولة إيغناتيف. لقد كان ستالين يستعد لدخول التاريخ شخصاً نظيفاً، صنع دولة عظمى وربح حرباً عظمى. ولنكن موضوعيين، فقد ذهب ستالين وترك وراءه بلداً عظيماً بالفعل، يفاخر، وله ملء الحق، بالكثير من الإنجازات. أما بأيّ ثمن تم إنجاز ذلك، فتلك مسألة أخرى...

كان والدي يدرك كل ذلك جيداً. وعلى الرغم من أنه كانت له مصادمات مع ستالين، إلا أن وفاة رئيس الدولة قد أحزنه أكثر من أيّ عضو آخر في المكتب السياسي. وأعرف أنا، بأنه لم يكن في الأمر تمثيل، كما عند خروتشوف، مثلاً. أعتقد، أنه على الرغم من كل شيء، فقد أثّرت فيه وفاة ستالين على المستوى الإنساني البحت. وقد يبدو هذا مستغرباً، وبخاصة في ضوء "قضية مينغريلي" تلك، إلا أن الأمر كان كذلك. لم يكن والدي إنساناً قاسياً وحقوداً. وكان كثيرون يعرفون ذلك.

من مذكرات سفتلانا أليلويفا

"شخص واحد لا غير كان يتصرف على نحو غير مهذب تقريباً، هو بيريا. كان متوتراً إلى الحد الأقصى، وكان وجهه، وهو القبيح أصلاً، تتشوّه ملامحه تحت وطأة المشاعر التي تمزّقه. ومشاعره لم تكن سوى الطموح، القسوة، الخداع، السلطة... لقد جهد في هذه اللحظات الحرجة كي لا يبالغ في الخداع، أو كي لا يخادع كفاية. وكان ذلك ظاهراً للعيان على وجهه. كان يقترب من السرير ويحملق طويلاً في وجه المريض. وكان والدي يفتح عينيه أحياناً، إلا أن ذلك كان، كما يبدو، دون وعي. كان بيريا ينظر حينئذٍ محملقاً في هاتين العينين اللتين يغشاهما الضباب، وكان يتمنى حتى في هذه اللحظة أن يكون "الأوفى" و "الأكثر إخلاصاً"، كما كان يحاول أن يظهر لوالدي بكل ما أوتي من قوّة، الأمر الذي نجح فيه طويلاً، للأسف...

في الدقائق الأخيرة، حين انتهى كل شيء، لاحظني بيريا فجاة وأمر قائلاً : أبعدوا سفتلانا!". نظر إليه الموجودون، إلا أن أحداً منهم لم يفكر بأن يحرك ساكناً. وحين انتهى كل شيء، كان أول من قفز إلى الممر، وفي صمت القاعة، حيث كان يقف الجميع صامتين حول سرير الموت، كان يُسمع صوته الجهوري، الذي لم يكن يُخفي الشعور بالزهو: " خروستالوف! آت بالسيارة !" لقد كان نموذجاً حيثاً رائعاً لسيد القصر الماكر، وتجسيداً للغدر الشرقي والمداهنة والمراوغة، تمكن من الاحتيال على والدي الذي كان من الصعب الاحتيال عليه. إن الكثير مما اقترفت هذه الشخصية الزلقة يلطخ الآن اسم والدي، وهما المسؤولان معاً عن الكثير..."

وفي كتاب "عشرون رسالة إلى صديق" ترد الكلمات التالية : "لقد أدّى بيريا دوراً رهيباً في حياة أسرتنا. كم كانت ترهبه والدتي وتكرهه!". في حين أن والدة سفتلانا، ناديجدا أليليوفا، لم يكن بوسعها أن تحب أبي أو تكرهه. فهما، بكل بساطة، لم يتعارفا. لقد أطلقت زوجة ستالين النار على نفسها في العام ١٩٣٢، قبل ست سنوات من انتقال أسرتنا إلى موسكو، وكانت سفتلانا ما تزال طفلة...

إنني أفهم سفتلانا، لكن ليس بوسعي أن أوافق، بالطبع، على ما كتبته. فقد كانت لا تريد أن يبدو والدها فظيعاً إلى هذه الدرجة... ومعروف على نطاق واسع اسم الشخص المتهم رسمياً بجميع الجرائم، وبالتالي يمكن أن تكتب عنه ما تشاء، إلا أن الأخلاقيات هنا، كما أفهم، تتراجع إلى الخلف...

قبل عدة سنوات، انتقلت سفتلانا للعيش في الاتحاد السوفياتي، وعبّرت عن رغبتها في لقائنا، أنا ووالدتي التي كانت لا تزال على قيد الحياة. وقررنا نحن بأنه لا يجدر القيام بذلك، ولم يجرِ اللقاء. لا أعرف عن حياتها سوى ما ينشر في الصحافة الغربية لا أكثر.

في يوم من الأيام كنا على معرفة جيدة للغاية أحدنا بالآخر. كنت أدرس في المدرسة نفسها التي كان يدرس فيها أولاد ستالين. وكانت سفتلانا أليلويفا تجلس على المقعد الدراسي نفسه مع زوجتي العتيدة. وهي التي عرَّفتنا أنا ومارفا[1] أحدنا بالآخر.

---

(١) مارفا بيشكوفا: زوجة الكاتب وحفيدة الكاتب الكبير مكسيم غوركي لابنه - المترجم.

أتذكَّر ابنة ستالين فتاة ذكية متواضعة. كانت تعرف الإنكليزية جيداً. وكانت متعلّقة جداً بوالدتي. وفي أثناء الحرب، وقعت لي حادثة مزعجة لها علاقة بسفتلانا. بعد العودة من الجبهة أهديتها مسدساً من غنائم الحرب. مر الوقت، وكنت أتابع دراستي في الأكاديمية. وفي يوم من الأيام أتى الجنرال فلاسيك، قائد حرس ستالين الشخصي، إلى الأكاديمية ليبلغني بقوله :

- كن على أهبة الاستعداد! فإن يوسف فيساريونوفيتش يستدعيك إليه.

وصلت إلى مكتبه. ولم يسبق له أن استدعاني من قبل.

تحدثنا قليلاً عن دراستي، ثم بادرني بقوله:

- أهذا أنت من أهدى سفتلانا المسدس؟ أتعرف ما كان لنا في البيت مع السلاح ؟ والدة سفتلانا كانت بمزاج سيّىء وانتحرت...

شدهت. فقد كنت على علم بأن والدة سفتلانا قد توفيت، إلا أن أحداً في بيتنا لم يأتِ يوماً على ذكر الانتحار.

قال ستالين:

- حسناً إذهب، إلا أن مثل هذه الأمور يجب أن يُعاقب عليها المرء...

التقيت ستالين غير مرة، بالطبع، في ظروف وأوقات مختلفة. ويجدر بي أن أعترف بأن موقفي منه ليس واحداً على الإطلاق. حين كنا نعيش في جورجيا، كنا، بكل بساطة، نصلّي لشخصه. في موسكو تغيّر الموقف منه. فقد كان يتسنّى لي أن أستمع إلى أحاديث والدي عن ستالين، إضافة إلى أنني كنت قد أصبحت أدرك شخصياً من المسؤول عن حملات القمع وعن المحاكمات السياسية وغيرها.

ومع ذلك فقد كان إنساناً بوسعه سحر أيّ شخص. ليس صحيحاً أن المداهنين العاديين فقط كانوا يعتبرونه شخصاً عظيماً. أعتقد أن الكثير من العاملين في حقل الثقافة، بمن فيهم عظماء الكتّاب والرسامين السوفيات، كانوا على طريقتهم صادقين مع أنفسهم وهم يتغنون بستالين. هذا مع العلم أنه كان

يوجد ما يكفي أيضاً، وكما يحدث عادة، من الخبثاء الكُثر الذين كانوا يقتاتون على تمجيد القائد...

إنني لا أجازف، حتى في يومنا هذا، بتوجيه اللوم إلى بعض مشاهير كتاب الغرب، الذين كانوا حينئذٍ من المفتونين بستالين. فهؤلاء يمكن فهمهم كلياً. فقد كان ستالين، بالفعل، شخصاً بمقدوره أن يفتن العجوز الذي حنّكته الحياة والطفل على حد سواء. وقد حدث لي شيء من هذا القبيل، ولذا أعتبر أني أملك الحق بتأكيد الأمر على هذا النحو بالضبط.

ليس المقصود بالكلام ما إذا كان ستالين جيداً أم سيئاً، أو كان ديكتاتوراً أم لا. لقد كان ديكتاتوراً بالطبع. وأنا لا أفهم مطلقاً الجدال بين " الستالينيين" و "المعادين لستالين ". أكرر : أنا لا أنسب نفسي لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك. ألا يكون الأمر أكثر أهمية لو رأينا خلف الشخصية التاريخية المعنية ظاهرة؟ لكن، للأسف، أنا أعرف القليل من المحاولات التي تسعى فعلاً لفهم " ظاهرة ستالين".

من مذكرات رجل الدولة والسياسي والعسكري الفرنسي الشهير شارل ديغول (١٨٩٠-١٩٧٠)

"... تكوّن لديَّ انطباع أنني أمام مناضل من أجل روسيا، التي أنهكها الطغيان، داهية صلب يتوهج اعتزازاً قومياً. كان ستالين يمتلك إرادة هائلة. تعب من حياة المتآمر، الذي يتستر على أفكاره ودخيلته، قاسٍ، لا يؤمن بالإخلاص، وكان يشعر في كل شخص مقاومة أو مصدراً للخطر. كل شيء كان بالنسبة له احتيالاً وريبة وعناداً. الثورة، الحزب، الدولة، الحرب كانت بالنسبة له سبباً وأداة للتسلط. لقد تقدّم، مستخدماً في الأساس حيل التفسير الماركسي والقسوة التوتاليتارية، معولاً على الإقدام والغدر غير الطبيعي، يُخضع هؤلاء ويبيد أولئك.

منذ ذلك الحين وستالين يرى روسيا غامضة، ونظامها أقوى وأصلب من كل الأنظمة الأخرى. لقد أحبها على طريقته. وهي أيضاً تقبّلته كقيصر في فترة رهيبة من الزمن، وساندت البلشفية لتخدمه كأداة. جَمْع شمل السلاف، القضاء على الإلمان، التوسع في آسيا، الحصول على منفذٍ إلى البحار الواسعة، تلك كانت أحلام

الوطن، وتلك كانت أهداف الطاغية. كان يلزم شرطان لإحراز النجاح : جعل الدولة قادرة أي صناعية، وإحراز النصر في اللحظة الراهنة في الحرب العالمية. المهمة الأولى كلّف تنفيذها آلاماً وضحايا بشرية لم يسبق لها مثيل. وحين رأيت ستالين كان بصدد إنجاز المهمة الثانية وسط القبور والخراب. لقد كان محظوظاً، لأنه وجد شعباً حيوياً وصبوراً لدرجة لم تستطع معها أقسى أنواع العبودية أن تشلّه، ووجد أرضاً مليئة بالموارد، التي لم يستنزفها أبشع أنواع التبذير، ووجد حلفاء لم يكن بمقدوره تحقيق الانتصار على الخصم من دونهم، ولم يكن بوسعهم هزيمة العدو من دونه.

خلال خمس عشرة ساعة من الحديث مع ستالين درست سياسة العظمة والتكتم لديه. شيوعي في لباس ماريشال يخفي وراءه ديكتاتوراً شغفه يتسم بالقسوة وبعدم الجاذبية ".

يستحيل تبرئة ستالين، أضف إلى أنني، وكما لاحظ القارىء حتى الآن، لا أسعى لذلك، إلا أنه كان شخصاً ذكياً، بالفعل، فهم جيداً كل عيوب التيار البلشفي. لم يكن شخصاً مهووساً لا يقدر على تحليل الموقف وتحليل تصرفاته. وحين كان الأمر ضرورياً، كان يجيد استخدام ما تجيزه البلشفية، وبالدرجة الأولى مركزة السلطة. لقد أتاحت السلطة الفردية القيام على نحو سريع وفعّال بمعالجة تلك القضايا، التي لم تكن لتعالج، وأنا موقن بذلك، خلال عقود من الزمن. لعل هذا الأمر إيجابي، لكن أين هو ذلك الحد الذي لا يجوز تخطّيه؟... فحين يعوزه الأمر كان ستالين يستخدم بسهولة هذه السلطة نفسها لأغراض أخرى. وهو يتحمل المسؤولية عن ذلك أيضاً. فلو كان ستالين شخصاً محدود الأفق أو مهووساً، كما يحاولون تصويره اليوم، لكانت مسؤوليته أقلّ. إلا أن الأمر لم يكن قطُّ كذلك. فعلى رأس الهرم في السلطة البلشفية كان يتربع شخص موهوب، الأمر الذي يفاقم مسؤوليته ليس إلاّ.

لقد لاحظ أحد ما أن الطاقة الثقافية لقادة الاتحاد السوفياتي كانت على مر العقود تتدنّى باستمرار. وهذا صحيح أيضاً. فلا شك في أنَّ الأمر يبدو مضحكاً أن نقارن اليوم ستالين بكلّ من خروتشوف أو تشيرنَنكو أو غورباتشوف... ومجدداً أذكر ذلك ليس من قبيل تبرئة ستالين، بل العكس، ذلك أنه، حتى في

إطار البلشفية، في إطار السلطة القمعية والرهيبة، في إطار ديكتاتورية البروليتاريا، كان بوسعه، لو شاء تغيير الكثير من الأمور وليس كُلّها، لكن النظام لم يكن يسمح له بذلك. غير أن ستالين لم يعمد إلى تخفيف وطأة النظام، بل فاقم متعمّداً الكثير من الأمور، مستخدماً المقولات البلشفية لقمع أخصام هذا التيار. من هنا حملات القمع والمحاكمات السياسية.

لا أستطيع الموافقة على القول إن ستالين كان شخصاً لا يعرف الرحمة والرأفة، إلا أنني لا أوافق على التأكيد أن ستالين قد أقام عبر حملات القمع نظام التكافل والتضامن من خلال إشراك الآلاف والآلاف من الناس في الجرائم. أليس من هذه النقطة بالذات بدأ القائد البلشفي الآخر فلاديمير إيليتش؟ أليس تروتسكي من أنشأ بسهولة فائقة معسكرات الاعتقال، التي قضى فيها البلاشفة على الملايين من الناس؟ ثم، أليس تروتسكي وبموافقة لينين، من بدأ العمل بنظام الرهائن؟ أسمح لنفسي بألا أوافق مع المدافعين عن لينين والبلشفية. فستالين لم يقم إلا بتطوير ما كان قد بدأ في عهد لينين. ومن وجهة نظري، فإن لينين وستالين لم يتمايزا أحدهما من الآخر لا في الذكاء ولا في المكر. وأنا شخصياً لا أتعجّل في الاستنتاج مَن مِن القائدين "أكثر الناس إنسانية"[1] إذ لا بد هنا من التفكير، والتفكير جيداً.

إن جميع "القادة" اللاحقين كانوا يتحايلون على الحقيقة حين كانوا يقنعوننا بأن ستالين قد خان "معلمه العظيم". إن مؤلفات لينين ورسائله المأخوذة ممّا يسمى بالأرشيف السري (لم ينشر سوى جزء منه حتى الآن) تسمح كلياً بتأكيد عكس ذلك. "اعتقلوا..."، "أطلقوا النار..."، "أعدموا..."، "اطلقوا النار عليهم في مكانهم..."، "اعتقلوا بضع مئات دون إعلان الأسباب..." كم كتبنا نحن وتكلمنا عن تراث فلاديمير ايليتش الذي يضج بالحياة. فلماذا نسكت خجلاً عن هذا "التراث"؟ آنذاك لم يكن في السلطة لا

(١) الشعار الذي كان يرفعه الشيوعيون في وصف لينين حتى آخر أيامهم في الاتحاد السوفياتي - المترجم.

ستالين ولا مفوضية الشؤون الداخلية وعلى رأسها ياغودا ويجوف (YAGODA) و(EJOV).

قد تكون المسألة ليست في لينين، أو على الأقل ليست فيه وحده، بل في بنية تلك السلطة التي كان يتصورها، في ذلك النظام الرهيب واللاإنساني الذي أوجدته البلشفية ؟ إلا أن المسألة في لينين أيضاً بالتأكيد.

حين كان والدي لا يزال على قيد الحياة، ولأسباب مفهومة كلياً، كان يستحيل التحدث عن كل ذلك، إلا أنني أعرف أن والدي كان أبعد من أن يؤلّه لينين أو ستالين. وكان بشكل عام، يثير اشمئزازه تأليه أي كان. إذا أخذنا بالاعتبار أن والدي كان شخصاً مطلعاً على المعلومات، فليس من الصعب أن نحزر بأنه كان على علم بالكثير مما ارتكبه هذا وذاك. من المضحك نفي دور ستالين في حياة والدي. فقد صادق قائد الحزب والدولة على تعيين والدي في منصب قائد جورجيا، وعلى انتقاله اللاحق إلى موسكو.

تم تعيين والدي في منصب مفوض الشعب للشؤون الداخلية في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، خلفاً ليجوف. ما الذي دفع ستالين إلى هذا الاختيار؟

حين صادق ستالين على نقل والدي إلى موسكو، فكر في الأمر، كما أعتقد، على النحو التالي: إنه رجل شاب (كان والدي دون الأربعين)، يمتلك خبرة في العمل بالمخابرات. وبالفعل كان والدي يمتلك مثل هذه الخبرة خلال عمله في التشي.ك في العشرينيات، بغض النظر إن كانت هذه الخبرة إيجابية أم لا. كما يحتمل أن يكون ستالين قد فكر على النحو التالي : سوف ينفذ أوامر القائد دون اعتراض، أو بشكل أبسط، سوف يتبع خطواته صامتاً. لكن الأمر لم يكن على هذا النحو... وأول نزاع جدي بين والدي، من جهة، وستالين والمكتب السياسي، من جهة أخرى، نشب في الأربعينيات، حين كانت تجري مناقشة مصير آلاف الضباط البولونيين، الذين أعدموا رمياً بالرصاص لاحقاً في كاتين. لم ينسَ ستالين ذلك، لكن عدم الطاعة هذا، وهو حدث نادر جداً، لم

يؤدِّ حتى إلى إبعاد والدي عن منصبه. وقد اعتبر، على الأرجح، أن الوقت لم يحن بعد لاستبدال مفوض الشعب. وكان النظام دقيقاً في هذا المجال حتى أدق التفاصيل، إذ كان يتم امتصاص كل ما هو ضروري من الشخص، وحين يصبح غير ذي فائدة، تتم إزالته. على أن ستالين كان يراعي شرطاً ضرورياً آخرَ، وهو أن المُعاقَب لا تستبدل به إلا شخصية موازية له كفاءة، وحين يسمح الظرف بذلك فقط. فالتغييرات المختلفة في الكادر يجب ألّا تسيء إلى حسن سير العمل...

كان ستالين يقوّم موضوعياً في تلك المرحلة الموقف الصعب الذي نشأ حول الحزب وحوله شخصياً كزعيم للحزب. فالاستياء من خطه، وبخاصة من حملات القمع، كان يتبدى حتى في المحيط القريب منه.

الظرف الآخر الذي لا يقلّ أهمية عن الأول، هو اقتراب موعد نشوب الحرب الكبرى. وحين حدث الصدام بين والدي وستالين بشأن كاتين، سارع جدانوف فوراً للاقتراح قائلاً:

ـ أنا على استعداد لترؤس مفوضية الشعب للشؤون الداخلية !.

لم يُقدم ستالين على ذلك، إذ على الرغم من كل شيء، كان يرغب في رؤية اختصاصيين في كل المواقع. وجدانوف كان ابن الجهاز الحزبي حتى العظم، ومؤيداً لحملات القمع، وكانت قد انتفت الحاجة إليه في مثل هذا المنصب، إذ إن حملات القمع كانت قد توقفت، ولم يكن ستالين ينوي تجديدها. على العكس، في تلك الفترة كان يلزم شخص من نوع آخر لمنصب مفوض الشؤون الداخلية. لقد كان ستالين جائراً، إلا أنه كان إنساناً ذكياً، وكان يدرك جيداً أن متابعة حملات القمع تؤدي في نهاية المطاف إلى تداعي سلطته الشخصية. ولا ريب في أنه كان قد قرر أن كل ذلك أصبح يتم خصيصاً من أجل إزالته هو نفسه. وكان يلزم شخص يقوم، في ظل الرقابة، بالطبع، بوقف تلك المدحلة التي أنشأها النظام الشيوعي. وهذا الشخص كان والدي الذي "أغرق" موسكو بالرسائل دفاعاً عن المثقفين الجورجيين. باختصار، في تلك

الفترة كان والدي يناسب ستالين كلياً. أضف إلى ذلك، أنه كان يوجد مصدر إزعاج خارجي هو تروتسكي، الذي كان يقض مضجع الزعيم البلشفي منذ الثلاثينيات. وكانت قد فشلت عشرات المحاولات في القضاء عليه. ويمضي الوقت، وتندلع الحرب ويعود والدي مجدداً إلى مكانه الطبيعي. فحين تم فيما بعد إنشاء المديرية النووية على قاعدة المختبر الخاص لمفوضية الشؤون الداخلية، جرى تكليف والدي الاهتمام بهذه المسألة. وتوالت فيما بعد القضايا المتعلقة بتطوير الصواريخ والطائرات والصناعة ومشروع القنبلة الهيدروجينية... وانطلاقاً من كل هذا، على ما يبدو، لم يكن ستالين يتعجل القضاء على والدي. ولديَّ ما يكفي من الأسباب لتأويل الأمر على هذا النحو، وأهم هذه الأسباب هو أن ستالين كان يراعي الوضع دوماً. في نهاية حياته، حين كان قد أنجز العمل في الصواريخ المضادة للطائرات، وأصبحت الصواريخ العابرة للقارات جاهزة تقريباً، واقترب العمل في المشروع الهيدروجيني من نهايته كان من الواضح أن ستالين قد أصبح على استعداد لاستبدال والدي والأعضاء الآخرين في قيادة البلاد، إلا أنَّ الوقت لم يسعفه...

من السذاجة أن نفكر أنَّ أحداً ما كان بوسعه تغيير أيِّ شيء في تلك الظروف. وقد كانت هذه افتراضات من جانبي لا أكثر، إلا أنني على قناعة مطلقة بأنه لو قام ستالين بإزاحة والدي لكان لقي الدعم من قبل الكثيرين ممن يحيطون به. وأول من كان سيفرح لذلك هو الجهاز الحزبي الذي كان يرى في والدي تهديداً لمكتسباته. فهو لم يكن يتستر في يوم من الأيام على موقفه المناهض لديكتاتورية الجهاز الحزبي على الدولة، وكانت القيادة الحزبية والأجهزة الحزبية ككل شديدة الحساسية تجاه هذه الأمور...

لقد كانت القيادة الحزبية تؤدي، بشكل عام، خدمة سيئة لستالين أيضاً. فقد كان والدي يتحدث، حتى في ظل ستالين، عن ضرر عبادة الفرد. وبالمناسبة، كان ستالين نفسه يتحدث عن ذلك. وأنا على يقين بأن القيادة الحزبية كانت تتعمد في السنوات الأخيرة من حياة ستالين الترويج لعبادة الفرد هذه، ليس فقط بسبب طبيعتها المداهنة، التي كانت تتميز بها دوماً، بل لا

يوجد أدنى شك في أنها كانت تتوخى هدفاً بعيداً من وراء ذلك. فقد كان لسان حالها يقول " وماذا تبقى لنا جميعاً أن نعمل ؟ "فهو الرب، وهو القيصر، وهو القائد العسكري..." وهو بزعمهم المسؤول عن كل شيء. ومن المعروف أن هذه الورقة قد استغلّها الحزب بحذاقة لا بأس بها في المؤتمر العشرين، حيث ألصق كل شيء بالزعيم الذي فارق الحياة. كان والدي قد أصبح في ذلك الحين في عداد الأموات، ولم يجد أحد من زملاء ستالين السابقين الشجاعة في نفسه للتحدث بصراحة عن دور المحيطين بستالين في جرائم النظام.

الشيء نفسه تقريباً، حصل في ألمانيا، حيث أُلصق كل شيء بهتلر. وهذا أمر مريح، بالطبع. لكن مهما تكن الديكتاتورية، فإنها لا تقوم على يد شخصية منفردة...

أذكر أن والدي تحدث غير مرة قائلاً:

- لقد ارتكب ستالين أموراً لا تغفر لأيّ إنسان.

فقد ارتكبت بأمرٍ مباشر منه أو بموافقته، جرائم فظيعة. ولا يجدر بأحد أن يجد مسوّغاً لستالين في ذلك، كما كانوا لا يزالون يفعلون أحياناً. ولم يكن والدي يبحث عن مثل هذه المسوغات، علماً أنه لم يكن من محبّذي تشويه صورة ستالين كشخص. هكذا كان على الأقل في ربيع ١٩٥٣. فقد كان يعتبر أنه ينبغي باديء ذي بدء تشريح خط الحزب الذي كان يتزعمه ستالين. فالحزب بالذات، وقيادته العليا بالدرجة الأولى، يجب أن يتحمّلا أمام الناس المسؤولية عن كل ما جرى.

كان والدي يقول لكل من خروتشوف ومالينكوف والآخرين:

ـ لا أعرف إن كنا سنبقى في مناصبنا. فلنقدّم نحن تقاريرنا، وليقرر من ثَمَّ المؤتمر. فإذا ارتأوا استبدالنا، فليكن ذلك. وسوف يأتي حينئذٍ مكاننا شباب لن يكرروا، بكل تأكيد، تلك الأخطاء التي لم تتفادَها القيادة السابقة.

أعرف أن خروتشوف ومالينكوف كانا يوافقان معه:

أجل، نحن أيضاً كنا شباباً وكنا نمتعض من حؤول المسنين دون قيامنا بالعمل كما نرغب. يجب، بالطبع، عقد المؤتمر وفتح مثل هذا الحديث...

كانت توجد شكوك، في الحقيقة، تتعلق بكيفية التعاطي مع اسم ستالين. فقد كان عضوا المكتب السياسي للجنة المركزية يعتبران أن الحديث الصريح في المؤتمر سوف يوجّه ضربة موجعة لهيبة الأمين العام السابق. وكان والدي يعترض بقوله:

- لن يستوي الأمر دون حديث صريح. والمسألة ليست في القيام فوراً وبصورة علنية بتقويض عبادة الفرد عند ستالين أو بتشويه صورته في نظر الناس. ينبغي أن نبدأ بأنفسنا، نحن أعضاء المكتب السياسي للجنة المركزية. نقدّم تقاريرنا، نكشف خطأ نهج الحزب ونستمع إلى ما سيقوله المؤتمر.

وعلى هذا أيضاً وافق عضوا المكتب السياسي مع أبي. وافقا وهما يدركان أنهما لن يقدما أبداً على مثل هذه الخطوة المحفوفة بالخطر. فقط كان هذا بالتأكيد، يمثل منتهى الرعونة بنظر قادة البلاد آنئذٍ.

في معرض الحديث عن ستالين، أتذكر لاشعوريّاً انتقالنا إلى موسكو. فلم يكن والدي يرغب في العودة إلى العمل في التشي.ك، وطلب نقله إلى عمل في حقل الاقتصاد. وقد حدث مثل هذا الأمر في حياته غير مرة. ولكن حتى حين كان قد اتُّخذ القرار بنقل والدي إلى موسكو، لم تكن والدتي ترغب في مغادرة تبليسي. وقد أغضب جداً هذا الأمر ستالين، وتم نقل كل أسرتنا إلى العاصمة خلال يوم واحد. النزاع الثاني نشب حين رفضت والدتي الانتساب إلى الحزب. حتى أن ستالين وجّه ملاحظة إليها بقوله ما معناه: أنت لست سيدة منزل، بل عالِمة سوفياتية، إضافة إلى كونك زوجة مفوض للشعب ولا يسعك أن تكوني خارج صفوف الحزب.

خلال السنوات الخمس عشرة التي عمل أثناءها والدي في موسكو، شهدت علاقته بستالين أموراً كثيرة، إلا أنهما لم يكونا قطُّ متقاربين، كما هو شائع. كان ستالين نادراً جداً ما يتحدث باللغة الجورجية، وحين كان يتحدث

بها كان بالضرورة يعتذر من الحاضرين. ولم يكونا يتخاطبان قطُّ بصيغة الفرد، كما يكتبون. كان ستالين ينادي والدي دائماً باسمه واسم والده[1].

كان والدي الشخص الوحيد في هيئة رئاسة اللجنة المركزية، الذي يسمح لنفسه بمجادلة ستالين. هذا الأخير كان، بالمناسبة، يسمح بذلك للآخرين أيضاً. لكن المسألة كانت في أنه لا خروتشوف ولا مالينكوف ولا الآخرون جادلوا في يوم من الأيام أو حاولوا معارضة رأي "السيد"، كما كانوا يسمونه. إن الخضوع الأعمى والاستعداد لتنفيذ أي أمر من أوامر "السيد" كان مردّه، من وجهة نظري، سبب بسيط للغاية، وهو أن الخوف على المنصب كان يكبّل هؤلاء.

لقد كان ستالين كثيراً ما يدعو إلى الصراحة، ولا أعتقد بأنه كان يستمتع كثيراً حين لم يكن يرى في محدّثيه سوى منفذين طيعين. على العكس. أنا أعرف أنه كان يحب جداً إقناع من يناقشه، بل يجب الاعتراف بأنه كان يجيد ذلك. إلا أن هذا نادراً ما كان يحدث، بالطبع، إذ كانوا، بكل بساطة، يفضّلون عدم مناقشته. فيما عدا والدي، كان مولوتوف يسمح لنفسه أحياناً بألاّ يتفق معه في أمر ما. قد يكون عدد مثل هؤلاء في المراحل الأولى أكثر من ذلك. ولا شك في أنَّ تروتسكي كان شخصاً من هذا القبيل. أما الآخرون، فلست واثقاً بصددهم. أنظروا إلى الخطابات المبكرة لكل من بوخارين وزينوفيف وكامينيف والآخرين، فهي مليئة بمديح ستالين. إن هؤلاء بالذات مَنْ صنع عبادة الفرد بعد وفاة لينين مباشرة.

أعرف، من خلال والدي، أن شخصاً واحداً لا غير من بين العسكريين هو غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف كان يدافع عن وجهة نظره بلا خوف من إثارة غضب الديكتاتور. هكذا كان عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ وفي الأعوام اللاحقة. لقد كان شخصاً لا يمكن ألّا تحترمه. ويبدو أن ستالين كان يرى نفس الرأي.

لم يكن ستالين يخاطب بصيغة المفرد سوى شخصٍ واحدٍ فقط هو مولوتوف، وهذا لا يعني أنني أسعى لوضع مسافة بين والديّ وستالين. إلا أن

(١) دليل عدم رفع الكلفة بين المتخاطبين ـ المترجم.

الأمر كان كذلك. وبالفعل فإن ستالين لم يكن يسمح لنفسه تجاه والدي ومولوتوف ما كان يسمح لنفسه به تجاه ميكويان وفوروشيلوف، مثلاً. فهذان الأخيران كان ستالين يتجاهلهما، بكل بساطة.

قد يكون جدانوف هو أكره الشخصيات التي كانت تحيط بستالين. فقد كان يغار من أيِّ شخص يُصادف أن يكون في هذا الوقت أو ذاك مقرباً من ستالين. كان، كما لم يكن أيُّ شخص آخر، يتحرق شوقاً، بكل معنى الكلمة، لخلافة ستالين. إنه الكاردينال الأغبر في محيط ستالين. ولعل هذا الوصف هو الأدقّ له. لقد كان هو بالذات إيديولوجي حملات القمع في البلاد. وحين سيتم الكشف عن الأرشيف السري سوف يتم العثور، بالتأكيد، على البرقيات والرسائل الموقعة من قبله ومن قبل ستالين. في أحيان كثيرة يوجد توقيع ستالين وحده، إلا أن الأسلوب، هو أسلوب جدانوف. فهو لم يتقدم إلا بفضل حملات القمع، وما كان يعتزم التقدم لاحقاً إلا على الجثث، وبالمعنى الحرفي للكلمة. لقد كان إنساناً رهيباً!.

من المحتمل أن يكون فوروشيلوف قد حلم هو الآخر بالتقدم اللاحق في سلم الوظيفة، لكن من الصعب الفصل في ذلك. غير أن تقدّمه اللاحق كان مستحيلاً في ظل ستالين، إذ لم يكن يقيم له أيّ وزن. هذا إضافة إلى أنه قد برز لاحقاً طامحون جدد إلى مركز القيادة أكثر نشاطاً وأوفر حظاً.

كان كاغانوفيتش يدرك جيداً أن ليس بوسعه أن يحلم بمناصب رفيعة. يكتبون أنه كان في السنوات الأخيرة يصطدم بستالين ويصرخ به. هذا كله كذب. سألته والدتي مرة إن كان يصدّق فعلاً ما يقوله حول "أعداء الشعب" وما إلى ذلك. أجاب كاغانوفيتش قائلاً : "إنها قناعاتي!".

لقد كان شخصاً غريباً. فهو لم يحرّك ساكناً لإنقاذ أخيه ميخائيل، مفوض الشعب للصناعة. كان يتملّق ستالين جداً.

كان والدي ينظر إلى كاغانوفيتش كشخص مرتدّ. فحين جرت، بمبادرة من والدي، محاولات لاستخدام الحركة اليهودية العالمية لمصلحة الاتحاد

السوفياتي. وقف كاغانوفيتش موقفاً انتهازياً على الفور. فمن المعروف كيف كان كاغانوفيتش يجبر العاملين في الحركة اليهودية على التوقيع على عرائض مناهضة لليهودية.

كما أن دوره في حملات القمع معروف أيضاً. إنه يتحمل مسؤولية إهراق الكثير من الدماء. ويكفي أن نتذكر ما جرى في أوكرانيا...

أما اتهامه بالمشاركة في ترحيل عدد من الشعوب من أرضها الأم، فهو اتهام صحيح جزئياً فقط. فهو، كغالبية أعضاء المكتب السياسي، قد صوّت بالفعل مع القرار، إلا أنه لم يكن منفذاً نشيطاً للسياسة القومية الروسية. ففي هذا الأمر تبرز بصمات جدانوف وخروتشوف وغيرهما. وعلى الرغم من كل النزعات الديكتاتورية عند ستالين، إلا أنه لم يكن بوسعه إلا أن يقدم على تنازلات أمام التعصّب القومي الروسي. وكان يستغلّ هذا التعصّب، ضد السياسة الإمبراطورية المتعصبة لروسيا. إلا أنني أكرر القول إن كاغانوفيتش لم يكن على علاقة مباشرة بهذا الأمر.

بعد وفاة ستالين، أعتقد بأن مولوتوف كانت تتوافر لديه كل الأسباب للطموح إلى منصب قائد الدولة. وأقصد بذلك سيرة حياته وليس ميزاته السياسية. فقد انتسب فيتشسلاف سكريابين (لقبه مولوتوف) الى الحزب منذ العام ١٩٠٦، حين كان لا يزال على مقاعد الدراسة في مدرسة قازان الواقعية[1]. اعتُقل في العام ١٩٠٩ كواحد من قادة المنظمة الثورية. بعد المنفى التحق بمعهد البولتكنيك في بتروغراد. وفي ربيع العام ١٩١٦ تم نفيه مجدداً إلى سيبريا، إلا أنه هرب من منفاه.

في العام ١٩١٧، أصبح عضواً في مجلس سوفيات بتروغراد وفي لجنة بتروغراد الحزبية، ومحرراً في صحيفة "برافدا". كان على معرفة شخصية بلينين. ومنذ أواسط العشرينيات، أصبح عضواً في المكتب السياسي. وبوصفه سكرتيراً

---

(١) مدارس في روسيا القيصرية كانت تركز في برامجها على المواد العلمية وبخاصة الرياضيات. ظهرت أول مدرسة من هذا النوع في العام ١٨٦٤ - المترجم.

لنجنة المركزية كان يحل محل ستالين في حال غياب الأخير. وفي العام ١٩٣٩، أصبح وزيراً للخارجية إضافة إلى منصبه السابق. في تلك السنوات لم يكن يتمتع أحد من محيط ستالين بمثل هذه السيرة الذاتية. وكان جدانوف، على سبيل المثال، يدرك هذا الأمر، ولهذا كان يحاول ما بوسعه لتشويه صورته في نظر ستالين. وفي العام ١٩٤٩ تم اعتقال زوجة مولوتوف، بولينا جمتشوجينا. إن كبار السن يتذكّرون هذه المرحلة بأنها مرحلة النضال ضد "الكوسموبوليتيين الذين لا وطن لهم".

كانت جمتشوجينا من العاملين النشطين في تنظيم الحركة اليهودية في الاتحاد السوفياتي، واتُّهمت بالارتباط بالحركة اليهودية العالمية. وقد صادقت اللجنة المركزية على أمر اعتقالها. وليس صحيحاً أن مولوتوف وحده تحفّظ لدى المصادقة في المكتب السياسي على اعتقال زوجته. ففي تلك الجلسة تحدث والدي معلناً أنه لا يوجد أيّ أساس لاعتقال عضو اللجنة المركزية جمتشوجينا. واتضح أن جمتشوجينا كان لها غير حديث في أمكنة ما عن قرارات اللجنة المركزية وخطها حيال اللجنة اليهودية. ومثل هذه الأمور كان يحظّر نقاشها خارج إطار اللجنة المركزية والحكومة.

كان مولوتوف يعرف أنهم كانوا يريدون اعتقال جمتشوجينا حتى قبل الحرب، وأن تدخّل والدي النشيط حال دون قيام مجموعة من أعضاء المكتب السياسي بتوجيه الضربة إليه.

لقد كان مولوتوف، بلا أدنى شك، شخصاً يفوق جدانوف والآخرين ذكاءً لكن لا توجد وثيقة واحدة، تتعلق بقادة سابقين للحزب وبتكتلات حزبية، لا تحمل قراراً من مولوتوف، وأقصد هنا المحاكمات السياسية وحملات القمع. فقد كان يقوم بكل ما كان يقوم به الآخرون.

لم تقع في يوم من الأيام صدامات مباشرة بينه وبين والدي. بل على العكس كان يقدّر والدي عالياً. إلا أن هذا لم يحل دون اتخاذه موقفاً حاداً ضد والدي في قضية مأساة كاتين، وفي بعض القضايا المتعلقة بسياسة الدولة

الداخلية. كما لم يُعجَب مولوتوف إطلاقاً بموقف والدي المدافع عن تيتو. وقد وصف ستالين آنئذٍ والدي وبعض الأشخاص الآخرين الذين وقفوا ضد المجابهة مع يوغوسلافيا، "بالتيتويين". أما مولوتوف فقد اتسم تصريحه حول تيتو بحدة بالغة، إذ وصفه بالخائن لمصالح المعسكر الاشتراكي.

لم يكن والدي في مثل هذه الحالات يتوانى عن الرد بالمثل، وقد اتسم رده بحدة مماثلة.

لم يجرِ تثبيت ذلك في وثائق الاجتماع الموسع للجنة المركزية، إلا أنني أعرف، بأنه قد جرى، عشية هذا الاجتماع، اجتماع لهيئة رئاسة اللجنة المركزية، تحدث خلاله مولوتوف على نحو مغاير تماماً. فقد انتقد في الاجتماع الموسع والدي بسبب قطع العلاقات مع يوغوسلافيا. كان يمكن لأيّ شخص آخر أن ينسى ما حصل بالفعل لكن ليس فيتشسلاف ميخايلوفيتش. اللافت هنا أمر آخر تماماً، فخلال الاجتماع الموسع كذب بعضهم قليلاً، وكذب بعضهم كثيراً، إلا أن الجميع قد كذبوا. وهذا مفهوم كلياً. لكن ما يثير الفضول، هو أنه عشية الاجتماع الموسع تحدث مولوتوف هذا نفسه في حلقة ضيقة[1] بكلمات مختلفة كلياً :

– ليس بيننا من هو أكثر فطنة من بيريا، ولا أكثر حيوية واطّلاعاً على القضايا التي كان يعالج. أما وأنَّه كانت لديه وجهة نظره الخاصة، فهو، وكما نعرف جميعاً، لم يكن يُخفي ذلك قطّ. بوسعنا أن نتفق أو نختلف معه،إلا أننا قد وافقنا نحن على مقترحاته التي نسوقها الآن اتهامات بحقه...

إن محضر اجتماع هيئة رئاسة اللجنة المركزية ذاك ليس موجوداً لدي، كما لا توجد لديّ إثباتات أخرى، إلا أنني أميل إلى تصديق الشخص الذي حدثني عن خطاب مولوتوف ذاك. وأعتقد أن مولوتوف كان سيختلف سلوكه كلياً في الاجتماع الموسع، فيما لو عرف أن والدي ما يزال على قيد الحياة. إن

(١) المقصود اجتماع هيئة رئاسة اللجنة المركزية - المترجم.

أشخاصاً كثيرين جداً، من الذين شاركوا في أعمال ذلك الاجتماع الموسع، كانوا على علم أيضاً بأن والدي لم يعد بين الأحياء، وبالتالي لم يعد للصراع معه معنى. إن الاستهتار الذي زرعه الحزب في الشعب خلال عقود من الزمن، قد أزال كلياً مفهوماً مثل مفهوم الذاكرة...

لقد عرفت خروتشوف معرفة لا بأس بها. فقد كان كثيراً ما يحل علينا ضيفاً. يحاولون اليوم تصويره مناضلاً ضد عبادة الفرد، في حين أن الأمر كان عكس ذلك تماماً. فهو لم يعترض على ستالين يوماً. أذكر أنه تحدّث مرة بلوعة ونحن إلى مائدة الطعام: "إن السيد يمسك بنا كالأطفال، لا يسمح لنا أن نخطو خطوة واحدة ويحول دون إبراز طاقتنا". عادة كان يلتزم الصمت في حضوره ويمثّل دور المهرج. كان يفرط في الشرب.

لقد كنت أعرف أسرته أيضاً. فقد تعرّفت إلى صهره، ألكسي أدجوباي قبل زواجه من رادا. كانت والدة ألكسي خياطة ممتازة. وكانت تشتكي لوالدتي من أن ابنها يضيع حياته من أجل الوظيفة. وكانت حاسمة في وقوفها ضد هذا الزواج. لأنها لم تكن تطيق أسرة خروتشوف وتسمّيهم....يهوداً.

لقد كان ألكسي شاباً موهوباً، بالفعل. درس في استديو للتمثيل. وبعد زواجه من رادا خروتشوف أصبح رئيس تحرير صحيفة "كومسومولكايا برافدا". ومنذ نهاية الخمسينيّات وحتى لحظة إقصاء خروتشوف عن السلطة، كان رئيس تحرير صحيفة "إزفستيا". كما كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ونائباً في مجلس السوفيات الأعلى. وقد مُنح جائزة لينين تقديراً لمشاركته في تغطية زيارة حميه لأميركا في الصحافة. وفقاً لكل المعايير المعروفة، كان صعوده سلّم الوظيفة باهراً وبسرعة البرق، لكن، لأسباب معروفة، انقطع هذا الصعود في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤.

على الرغم من أن خروتشوف، وكما ذكرت، كان يزورنا كثيراً، إلا أننا لم نكن على علاقة وطيدة بأسرته. فلم نقم في يوم من الأيام، لا أنا ولا والدتي،

بزيارتهم في منزلهم، مع العلم بأنني كنت أتعلّم في مدرسة واحدة مع بنت خروتشوف.

كنا نعرف بعض أخبارهم عبر نينا ماتفيفنا، والدة أدجوباي، التي كانت تشكو لوالدتي همومها أحياناً. وكانت والدتي تطيّب خاطرها، قائلة:

- ولماذا تتكدّرين أنت، إنها فتاة جيدة، ويقول سيرغو إنها تدرس جيداً...

وتسأل نينا ماتفيفنا:

- وهل رأيتها أنت؟ إنه لن يحبها. ألا تدركين أنت لماذا تزوجها؟ لم أفكر يوماً أنَّ بإمكان ألكسي أن يتصرف على هذا النحو...

بعد مرور عدة أشهر، حين كنا نتناول طعام الغداء عندنا في البيت، عادت نينا ماتفيفنا فجأة للحديث عن شجونها، إذ كانت ترغب، كما يبدو، في الإفصاح عنها لشخص ما:

- إنها أُسرة فظيعة، يا نينا ! إنهم لا يتقبلونني بينهم. فأنا في نظرهم لست سوى خياطة.

بهتت والدتي وقالت:

- ما هذا الذي تقولينه! أنت محترفة، أنت فنانة ! لا يمكن لهذا أن يكون.

- بل يمكن أن يكون. أنتم تنظرون إلى الأمر انطلاقاً من موقفكم من الناس، أما هناك فالأمر مختلف. إنهم نخبة، وأنا لست سوى خياطة، شخص من غير بيتهم. وفي مثل هذه الأسرة وقع أليوشا (ألكسي)...

أعترف، وقد حضرت مصادفةً هذا الحديث، بأنني قد أصبت أنا أيضاً بشيء من الدهشة. فلم تكن نينا ماتفيفنا محترفةً رائعة في مهنتها، وإنساناً مثقفاً واسع الاطلاع، فحسب، بل كانت فنانة حقيقية أيضاً. ولم تكن أسرة خروتشوف تملك أية أسباب تؤهلها للنظر إليها نظرة متعالية. وأعتقد أن هذا

الموقف لم يكن من والدة الصهر بالتحديد، بل كان موقفاً عاماً من الناس الذين "من غير بيئتهم". ويقدم هذا المثال نموذجاً دقيقاً إلى حدّ بعيد عن الأخلاق التي كانت تسود في الكرملين وفي ستاريا بلوشاد.

خلافاً للغالبية العظمى من قادة الكرملين، كان والدي إنساناً مستقيماً وصادقاً، وهي السمة التي كان يعزُّ وجودها على جبل أولمب الكرملين. وأقول ذلك ليس بصفتي ابناً، بل كشاهد على سلوكه في ظروف حياتية مختلفة.

حين كانت البلاد تهتزُّ تحت وقع الأصداء التي تركتها "قضية لينينغراد"، قال والدي لمالينكوف مباشرة:

- لقد فعلت، أنت ياغيورغي، الشيء نفسه الذي فعلته قبل الحرب في بيلوروسيا. صدّقني، إن صدى هذا الأمر سوف يلتفُّ عليك... لا يجوز هكذا وليس عدلاً تذويب الناس في مغامرة سياسية!.

كان والدي يقصد مشاركة مالينكوف، كرئيس للقسم التنظيمي في اللجنة المركزية، في حملات القمع في بيلوروسيا خلال الثلاثينيات.

قال مالينكوف مبرّئاً نفسه :

- وما علاقتي أنا؟.. إنه موقف ستالين، يجدر بك أن تفهم أنت ذلك.

- كلا، يا غيورغي، سوف يطالبونك أنت. فكّر بما تقومون به.

لا أدري ما الذي بقي في الأرشيف، إنما أعتقد أن الوثائق حول مشاركة مالينكوف وخروتشوف وسواهما من كبار الموظفين الحزبيين في حملات القمع يجب أن تكون قد بقيت.

إنني، إذ أتحدث عن ذلك مجدداً، فليس لتبرئة ستالين إطلاقاً، وأعتبر أن كل شخص يجب أن يكون مسؤولاً عن تصرفاته، لا أن يتقاسم المسؤولية مع شخص آخر. وأنا أعرف أنه بعد انتهاء حملات القمع كانوا عاجزين عن تهدئة خروتشوف، فقد كانت أوكرانيا تئنُّ، بالمعنى الحرفي للكلمة، تحت وطأة غياب القانون، حتى أن ستالين أرسل اليه مذكرة تقول: "توقّف، أيها الغبي!".

من مذكرات نيكيتا سرغيفيتش خروتشوف:

كانت الاتهامات وحيثيات الاعتقال تُفبرَك، وبالمعنى الحرفي للكلمة، بحسب أمزجتهم، وكأنه كان يتم استلهامها من نظرة إلى الفضاء الأعلى، أو تتوقف على أية واحدة من الاثنيْنِ تثير الحكاك لديهم. وقد أصابوا بأفعالهم هذه الآلاف من الناس. ولم يكن مثل هذا السلوك حكراً على فوروشيلوف، فحسب، بل كان يتميز به أيضاً مولوتوف، على سبيل المثال.

في العام ١٩٣٨، وفي ذروة القمع، كان يقف وراء تنفيذ هذا النهج السياسي كل من ستالين ومولوتوف وفوروشيلوف، وكان كاغانوفيتش يداهنهم في ذلك، ويطوي ذنبه أمامهم. لم يكن كاغانوفيتش على ما كان عليه مولوتوف، إلا انه كان يرغب أن يبدو أكثر شراسة من مولوتوف. كان مولوتوف أكثر الناس قرباً من ستالين. هذا مع العلم، أن كاغانوفيتش كان هو أيضاً شخصاً مقرباً جداً منه، أو كان ستالين يقدمه نموذجاً للبلشفي الصلب بسبب إحساسه الطبقي وعدم مهادنته الطبقية تجاه الأعداء. أما نحن، فكنا نعرف جيداً هذه "الصلابة". فقد كان هو نفسه الشخص، الذي لم ينطق بكلمة دفاعاً عن أخيه ميخائيل، الذي انتحر حين لم يعد أمامه من مخرج بعد أن اتهموه بأنه عميل ألماني، وبأن هتلر كان ينوي إدخاله في عداد حكومة روسية. محض هراء ! إذ كم يبدو الأمر سخيفاً: هتلر يَعِدُ اليهودي ميخائيل كاغانوفيتش بدخول حكومة روسيا ؟.. لم يعد لازار كاغانوفيتش إلى ذكر مأساة أخيه، بعد أن اتضح أن خطأً فادحاً قد وقع. كما لم يعد الى ذكر هذه القصة لا ستالين ولا أيّ شخص آخر. وكأنه كان يوجد مفوض شعب لصناعة الطيران اسمه ميخائيل كاغانوفيتش، ثم لم يعد موجوداً، أو كأنه لم يكن موجوداً أصلاً. كان هذا من طبائع لازار كاغانوفيتش. فكم كان يتملق ويتزلف أمام ستالين بعد هذه الحادثة خوفاً على نفسه!

إن كلام خروتشوف والآخرين ممّن أدانوا ستالين وحملات القمع، أعتبره قمة النفاق. فقد فعلوا ذلك ليس من أجل جلاء الحقيقة إطلاقاً، بل لسبب أبسط بكثير، وهو أن أياً منهم لم يكن يرغب في تحمّل المسؤولية عمّا جرى.

لا أعتقد أن مالينكوف كان شخصاً سافلاً يستمتع بحملات الاعتقال وإعدام الناس الأبرياء. لكن الجهاز الحزبي لم يكن، كما يبدو، بحاجة إلا إلى مثل هؤلاء. ومالينكوف كان، مثل الكثيرين سواه، من لحم هذا الجهاز ودمه. بدأ

خدمته في الجيش الأحمر كأحد الكتبة البسيطين في دائرة التوجيه السياسي. ثم انتقل إلى وظيفة فنية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي، دون أن ينهي دراسته في مدرسة موسكو الفنية العليا. وتدرّج بعد ذلك: أمين سر محاضر الجلسات في المكتب السياسي، رئيس قسم الكادر في سكرتارية الأمين العام، رئيس القسم التنظيمي في لجنة موسكو الحزبية (كان كاغانوفيتش السكرتير الأول)، رئيس قسم في اللجنة المركزية، سكرتير اللجنة المركزية. إنه تدرج نموذجيّ لعامل نموذجي في الجهاز. لعله كان أوفر حظاً من الآخرين، إلا أنه كان مثلهم. وثمة تعبير مناسب في وصفه: "كان يتقلب مع خط الحزب". حين اعتمد الحزب نهج القمع، اندفع فوراً إلى المعركة، وحين أدان الحزب هذا النهج أدانه هو أيضاً. هكذا تماماً تصرف الآلاف أيضاً من العاملين الحزبيين في الجمهوريات والأقاليم والمناطق. وحين آن الأوان لتقديم شرح ما للبلاد عن جرائم النظام سارعوا هم وحزبهم الحبيب إلى التنصّل من المسؤولية. ولحسن حظهم أن الحزب لم يتخذ في أي زمان ومكان المسؤولية على عاتقه. وكما كان فوروشيلوف يقوم بالمصادقة على اعتقال العسكريين، كان خروتشوف يقوم بالشيء نفسه أيضاً. فلم تكن الاعتقالات في موسكو وأوكرانيا تتم إلا بعد مصادقته عليها كقائد حزبي. وماذا عن "قضية لينينغراد" و "قضية الأطباء" وسواهما من "القضايا" المشابهة؟ باختصار، إن الفئة العليا في الحزب تتحمّل المسؤولية عن سفك الكثير من الدماء. فاللجنة المركزية بالذات، لا سيما القسم التنظيمي فيها، هي التي حرّكت طاحونة القمع، الأمر الذي لا يُعفي، بالطبع، ستالين بوصفه قائداً للدولة وأميناً عاماً للجنة المركزية، من المسؤولية.

يقال إن ستالين، إما لأن يديه كانتا تغوصان بالدم حتى المرفقين، وإمَّا لأنَّ غريزة الخوف من الثأر قد استفاقت بداخله، كان يخشى الظهور أمام الشعب، ويدفع شبهاً له إلى المنابر بديلاً منه. حتى أنهم يسمّون عائلة واحدٍ منهم، من مواليد فينيتسيا، ي.لوبينسكي. وها هي الأحاديث عن شَبَه ديكتاتور الكرملين هذا تتنقل منذ عدة سنوات من صحيفة إلى أخرى. ويؤكد الصحافيون، استناداً إلى مذكراته، أن أجهزة مفوضية الداخلية أبادت أسرة لوبينسكي، وحوّلته هو نفسه

إلى "ستالين رقم٢". ويزعم بأنه بقي تقريباً حتى وفاة قائد الدولة يصعد إلى منصة ضريح لينين في أيام الأعياد الوطنية، ويلتقي مع الوفود الأجنبية، ويظهر في الاستقبالات الرسمية، الأمر الذي كان يستفزُّ مولوتوف وكاغانوفيتش وفوروشيلوف وخروتشوف والآخرين.

إنها أسطورة أخرى، بالطبع. فلم يكن لدى ستالين أو لدى والدي أو لدى أيّ شخص آخر من أعضاء المكتب السياسي أشباه في يوم من الأيام. من الناحية الفنية، كما يقال، لا ينطوي هذا الأمر على أية صعوبة، بالطبع. فلو كان ثمة ضرورة لذلك لكانوا وجدوا مثل هؤلاء الأشخاص. إلا أن مثل هذه الضرورة لم تكن موجودة. فمن أجل حماية ستالين والمحيطين به كانت تُتَّخذ تدابير أكثر فاعلية. لقد كنت في جميع بيوت ستالين هذا الصيف، والتقيته في سنوات مختلفة حتى لحظة وفاته. وأصرّح بصورة رسمية كلياً : إن هذا كله من باب التلفيق. هذا إضافة إلى أن جهاز الأمن في أوكرانيا، وبالتحديد فرعه في منطقة فينيتسا، لم يؤكد خلال هذه السنوات حقيقة وجود ي.لوبينسكي الأسطوري هذا.

تتكاثر التلفيقات حول ستالين مع مرور السنين. ومن الروايات المتداولة رواية تزعم أن ستالين تُوفي منذ خريف العام ١٩٥٢، إلا أن أنصاره أُصيبوا بالارتباك وأخفوا موت الزعيم عن العالم. وتم في ذلك الحين إبعاد كل من فلاسيك وبوسكروبيشوف عن الكرملين كي لا يتسرّب سر الدولة...وهذا أيضاً هراء. في العام ١٩٥٢، رأيت ستالين حوالى ١٥ مرة، منها: اجتماعات هيئة رئاسة اللجنة المركزية، حيث كانت تناقش مسائل عسكرية فنية. كما كنت ألتقي ابنته سفتلانا أكثر من مرة في الأسبوع. لقد رأيته كذلك في مطلع العام ١٩٥٣.

في نهاية حياته أقلع ستالين عن التدخين. وطلب مرة من والدتي خدمة. فقد كان طبيب أسرتنا كيشيدزه يسكن في تبليسي، وهو طبيب ممتاز كان قد سمع به ستالين، وطلب دعوته إلى موسكو. وقد حضر كيشيدزه بالفعل وعاين ستالين، إلا أنه رفض أن يصبح طبيبه الخاص، متذرّعاً بتقدم السن... أعتقد أن الخوف قد اعتراه، بكل بساطة، إذ كان يعرف مصير الأطباء المقرّبين...

والآن: ماذا عن محاولات اغتيال ستالين؟ لم تجرِ محاولة اغتيال واحدة. أو على الأصح، لم يسمح بذلك، وأعرف ذلك بمنتهى الدقة. في طهران خططت المخابرات الألمانية لاختطاف ستالين أو قتله، ولا يخفى على أحد كيف انتهى هذا الأمر، إذ بفضل جهود المخابرات السوفياتية تم الكشف عن المؤامرة ضد "الترويكا الكبرى"، ولم يُصَب قادة كل من بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بأذى.

في نهاية العام ١٩٤٢، قام سافيلي ديمتريف الفارّ من الجندية بإطلاق عدد من العيارات النارية على سيارة خارجة من بوابة سباسكي في الكرملين. السيارة تلك كانت سيارة ميكويان. لم يصب آنئذٍ أحد بأذى. أما الإرهابي ديمتريف فقد أمطره الحرس بوابل من القنابل المسيلة للدموع.

أفاد ديمتريف نفسه أثناء التحقيق بأنه قد خطط لاغتيال ستالين. وقد اعتبر والدي أنَّ الجندي السابق ديمتريف قد يكون اعتبر نفسه متضرراً من السلطة السوفياتية، إلا أن الدوافع الغالبة تبقى، دون شك، هي الاختلالات النفسية عند الجندي الفارّ ديمتريف.

أفترض أنه جرى التخطيط لمحاولات اغتيال أخرى، لكن تم الكشف عنها من قبل الأجهزة الامنية إما في مرحلة الإعداد لها، وإمَّا أنّ الإرهابيين أنفسهم تخلُّوا عنها، دون أن ينفّذوا ما كانوا يخططون له.

مقتطفات من المصادر الرسمية:

تم اعتقال الإرهابي ديمتريف في الساحة الحمراء في ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٢. وفي ٢٥ آب/اغسطس ١٩٥٠ تم إعدامه رمياً بالرصاص بموجب الحكم الصادر عن الغرفة العسكرية في المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي.

وفقاً لمعطيات جهاز الكي.جي.بي. السابق، فإن إدارة جهاز الأمن الإمبراطوري (الألماني) خططت لواحدة من محاولات الاغتيال ضد ستالين. وقد جرى التخطيط لتنفيذ العملية، التي أُطلق عليها اسم "تسيبيلين"، في خريف العام ١٩٤٤.

في السادس من أيلول/سبتمبر ١٩٤٤، حطت طائرة نقل كبيرة في أراضي منطقة سمولينسك. أثناء عملية الهبوط، انتبهت مواقع وحدات الدفاع الجوي إلى وجود الطائرة وأبلغت الأمر إلى الأجهزة الأمنية. فتم على الفور استنفار مجموعة عملانية وقطعت جميع الطرقات، وتم بعد وقت قصير اعتقال عميلين ألمانيين، بمن فيهما المكلف تنفيذ العملية بيوتر إيفانوفيتش شيلو، البالغ من العمر ٣٣ عاماً، في منطقة تشيرنيغو. وضُبطت لدى الإرهابي أوراق ثبوتية باسم الميجور في المديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (SMERCH) وبطل الاتحاد السوفياتي تافرين. كما ضُبطت معه أيضاً أداة تنفيذ الجريمة التي لم تقع، وهي على شكل أنبوب من الصلب تم تثبيته على ذراع اليد اليمنى، في حين تم تثبيت الأسلاك وزر الإطلاق على اليد اليسرى. وكانت هذه الأداة مؤهلة لإطلاق قذيفة صاروخية. وكان يفترض أن تتم محاولة الاغتيال أثناء مرور سيارة ستالين المصفحة في أحد شوارع موسكو.

وقد اعتُقلتْ، مع شيلو ـ تافرين زميلته التي كانت ترتدي زيَّ عسكريٍّ برتبة ملازم.

كَتب عن محاولة الاغتيال الفاشلة هذه، وفي فترات مختلفة، عاملون سابقون في التشي.ك، وصحافيون. إلا أن تناقض الكثير من تفاصيل عملية "تسيبيلين" كان واضحاً للعيان. فقد ذكرت واحدة من الروايات التي يوردها الكابتن السابق نازاروف، أن عائلة الشخص الذي انتحل شخصية الميجور في المديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (SMERCH) هي بوليتوف. وخلال التحقيق في مركز مفوضية الشعب لأمن الدولة (NKGB) [وفي مصادر أخرى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD)] تناول المخرب من جيبه سجائر ألمانية فافتضح أمره. ألا يبدو الأمر مستغرباً ؟ فهل أن السجائر، التي قد تكون غنيمة حرب، بوسعها فضح أمر إرهابي؟ وأين اختفت أداة الجريمة؟.

باختصار، القصة كلها تثير بعض الشكوك. ولم يتسنَّ لي أن أسمع بها في حينه. كما أعتقد أن كثيرين كان ينبغي أن يعلموا بمثل هذه القضية الكبيرة.

ومع هذا، فإن النية بقتل ستالين كانت موجودة لدى أجهزة المخابرات الهتلرية.

من منكرات رئيس المخابرات السياسية في المانيا والتر شيلنبرغ:

"نهض روبنتروب واقترب مني، وعلى وجهه ملامح جدية بالغة، ودفعني إلى الزاوية:

– دقيقة من فضلك يا شيلنبرغ، ينبغي ان اتحدث معك عن قضية شديدة الاهمية. وينبغي مراعاة السرية المطلقة، إذ لا أحد سوى الفوهرر وبورمان وهملر على علم بذلك. ثم تابع كلامه بعد أن رمقني بنظرة ثاقبة : يجب إزالة ستالين. اومات براسي، وأنا لا اعرف كيف أتصرف حيال هذا التصريح. ثم أوضح روبنتروب إن النظام في روسيا يرتكز بأسره على قدرات وبراعة شخص واحد، وهذا الشخص هو ستالين".

استناداً إلى حديث شيلنبرغ، كان ينبغي القضاء على ستالين خلال أحد المؤتمرات. ومن الواضح جداً أن المقصود بذلك هو مؤتمر طهران الذي عُقد في العام ١٩٤٣. ويؤكد رئيس المخابرات السياسية الهتلرية أن محاولة أخرى قد جرت أيضاً، إذ يقول:

"بعد البحث مع هتلر تقدم هملر بمخططه الذي كان ينكّر كثيراً بمخطط روبنتروب. وبمقتضى هذا المخطط قام اختصاصيونا بإعداد لغم من أجل اغتيال ستالين. وكان اللغم هذا بحجم قبضة اليد، وهو على شكل كومة من الوحل. وكان ينبغي تثبيت هذا اللغم في سيارة ستالين. وكان للغم صاعق يمكن التحكم به بواسطة جهاز إرسال يعمل على الموجات القصيرة، وهو نو قوة تفجيرية شديدة، لدرجة أنه لم يبقَ من سيارتنا شيء ينكر حين قمنا بتفجيره اثناء الاختبار. كان جهاز الإرسال بحجم علبة السجائر، وكان بوسعه تفجير اللغم من مسافة تصل إلى أحد عشر كيلومتراً.

وقد تولّى تنفيذ هذه المهمة اثنان من جنود الجيش الاحمر السابقين (كانا على معرفة بميكانيكي من مرآب ستالين)، قضيا قبل الحرب فترة طويلة في المنفى في سيبيريا. وقد تم نقلهما ليلاً في طائرة نقل كبيرة إلى المكان الذي كان يوجد فيه مقر قيادة ستالين، بحسب الإخبارية التي أرسلها عملاؤنا. قفزا بالمظلة، وبقدر

ما استطعنا أن نتحقق، بلغا الارض تماماً في المكان المحدد. إلا أن هذا كان آخر ما عرفناه بشأنهما، علماً بأنه كان لدى كلّ منهما جهاز إرسال يعمل بالموجات القصيرة. لست على ثقة بأنهما قد حاولا، أصلاً، تنفيذ المهمة، والاغلب أنهما قد اعتقلا فوراً بعد بلوغهما الارض، أو أنهما قد استسلما طوعاً لأجهزة مفوضية الداخلية وكَشفا أمر المهمة".

هل تبقى الأحجية ؟

ثمة رأيٌ بأن والدي، ومن أجل التقرّب من ستالين، "كان يبحث عن سبل أخرى"، كما يكتبون. وهم يؤكدون أن ابنة عمه ألكسندرا ناكاشيدزه قد عملت لفترة طويلة مدبرة منزل في بيت ستالين... لا أخفيكم القول إن الأمر ينطوي على شيء من عدم الدقة.

كنا لا نزال نسكن في تبيليسي حين طلب ستالين من والدي البحث عن امرأة تقبل رعاية سفتلانا التي بقيت من دون أم. وكانت سفتلانا في العاشرة من العمر آنئذٍ.

وقد توقف اختيار ستالين على ألكسندرا ناكاشيدزه بين عشر أو خمس عشرة امرأة تم اقتراحهن عليه. وبالمناسبة، لم تكن هذه المرأة ابنة عم والدي، إنما كانت على صلة قربى بعيدة به. لكن المسألة ليست في ذلك. فستالين، كما ترون، هو الذي اختار هذه المرأة. وقد قرأت في مكان ما لاحقاً أنها كانت برتبة ميجور في جهاز الأمن. لا أعرف عن ذلك الأمر شيئاً فلم أهتمَّ به. إلا أنني أفترض أن هذا الاحتمال وارد كليّاً. فقد كان جميع الموظفين الذين يقومون بخدمة ستالين وأسرته ذوي رتب عسكرية. لم يكن الأمر مختلفاً في عهد خروتشوف، وفي عهد بريجنيف، وفي عهد غورباتشوف. وتفسير الأمر بسيط، إذ كان الناس يتمتعون من جرّاء ذلك بحق الحصول على امتيازات وعلاوات في الرتب مقابل الرتبة العسكرية.

حين بلغت سفتلانا السادسة عشرة قررت ألكسندرا ناكاشيدزه العودة إلى جورجيا. وصرفها يوسف فيساريونوفيتش بشعور كبير من الامتنان لها. وقد عادت إلى بلدها وتزوجت. تلك هي القصة بكاملها حول قيام والدي "بزرع"

قريبته البعيدة في منزل ستالين. وقد تذكروا هذه القصة في العام ١٩٥٣ حين كانوا يبحثون عما يشوّه صورة والدي.

لقد ذكرت سابقاً أنني كنت أتردد برفقة والدي وبمفردي إلى بيت ستالين. وكنت أعرف أولاده، بل كانت تربطني بسفتلانا علاقات ودية.

لم توفق سفتلانا في حياتها كما هو معروف. فقد فقدت أسرتها وأولادها. وهي كشخص أَعتبرُ أنها قد خانت والدها الذي حاولت تبييض صفحته بأيّ ثمن. وأنا أعتبر أن على المرء في مثل هذه الحالات أن يُثبت شيئاً ما من خلال حياته الشخصية...

من كان فاسيلي ستالين؟ في العام ١٩٤٤، قرر ستالين إرسال بضعة أشخاص في دورة تدريبية إلى بريطانيا، وعينني مسؤولاً عن المجموعة. رفضت أنا ذلك قائلاً: امنحوني الفرصة لإكمال دراستي في الأكاديمية، وقد وبخني ستالين حينئذٍ للمرة الأولى في حياتي بقوله:

- أنت عنيد مثل كلّ أُسرتكم.

لقد رفضت أنا ذلك، والحق يقال، ليس لأنني كنت أرغب بالفعل في إنهاء دراستي في الأكاديمية العسكرية، فحسب، بل لسبب آخر أيضاً. فقد كان فاسيلي ستالين في عداد المجموعة. لقد كان شاباً ودوداً، إلا أنه كان منذ ذاك الحين شخصاً يتعذّر ضبطه. وأنا أعرف ذلك جيداً...

إنني على قناعة بأن الذين كانوا يحيطون به هم الذين أفسدوه. لقد كنت في المنفى حين قُتل، ولم يسمحوا لي بحضور مأتمه.

بحسب الرواية الرسمية، توفي الابن الأصغر لستالين نتيجة إدمان الكحول في ١٩ آذار/مارس ١٩٦٢ في قازان، حيث كان منفياً بعد خروجه من سجن لافورتوف. وقد دُفن في مقبرة أرسك في قازان تحت اسم عائلة دجوغاشفيلي. اعتُقل للمرة الأولى في ٢٨ نيسان/إبريل ١٩٥٣، وسجن في سجن فلاديمير تحت اسم فاسيلي بافلوفيتش فاسيليف.

خلال سنوات الحرب، تدرج ابن ستالين من خريج مدرسة الطيارين إلى

قائد فرقة. وقد أصبح برتبة كولونيل في العشرين من العمر، وفي الرابعة والعشرين، أصبح جنرال ميجور، وفي السابعة والعشرين جنرال ليتانت...وقد تولى قيادة فيلق للطيران، ثم أصبح قائداً للقوى الجوية في منطقة موسكو العسكرية. أعتقد أن ستالين كان يدرك النتيجة الحتمية لمثل هذا التدرج السريع. وقد شهدت مرة الحديث التالي، حيث كان ستالين يوجه اللوم، لسبب ما، إلى فاسيلي الذي كنت أقف إلى جانبه. قال ستالين:

- أنظر إلى سيرغو. فقد أنهى الأكاديمية بامتياز ونال الدكتوراه في العلوم العسكرية والدكتوراه، وأنت، لماذا لا تدرس؟

أجاب فاسيلي متأففاً:

- أنت نفسك لم تنه الأكاديمية، وبوسعي أنا أن أتدبر نفسي دون ذلك.

لقد كُتب الكثير عن تفلّت سلوك فاسيلي، وأسهم في الكتابة أولئك الذين ساعدوا في هذا الأمر. ومن الصعوبة بمكان إضافة شيء إلى ما كتب.

لقد تأثر بوفاة والده، بالطبع، فأصبح يشرب الخمرة أكثر من السابق، ولم يكن ينتبه كثيراً لما يقول. في العام ١٩٥٣، حُكم عليه للمرة الأولى بالسجن ثماني سنوات. وتقول الرواية الرسمية إنه قد حكم عليه بسبب المغالاة في استعمال السلطة وسوء استخدامها. وفي المرة الثانية زجّوا به في السجن بسبب حادث سيارة. فقد كانوا يعرفون أنه ممنوع من الشرب، ومع ذلك أسكروه ووضعوه خلف مقود السيارة. وكان السجن والمنفى بانتظاره من جديد.

كتبت والدتي من سفردولوفسك إلى سفتلانا أليلويفا تقول لها: "أرسليه إلينا". فقد كان بوسعي مساعدته بشأن إيجاد عمل له، وفي ضبط تفلّته. لكن سفتلانا أجابت بأنه قد فات أوان مثل هذه الأحاديث. وكتبت تقول: "حتى أنا أصبحت عاجزة عن ضبطه. لقد انتهى أمره كإنسان".

لم أحضر جنازته، إلا أنني علمت من رسائل أصدقاء مشتركين بأن فاسيلي قد قتل في عراك بطعنة سكين. إنني أشعر بالأسف حتى الآن، لأنني لم أتمكن من نقله إلى الأورال، إذ كان من الممكن أن تجري حياته كلها على نحو مختلف تماماً.

ياكوف دجوغاشفيلي هو الابن الأكبر ليوسف فيساريونوفيتش من زوجته الأولى. كنت على معرفة أقلّ به، إذ كان يكبرني سنّاً. كنا نلتقي معاً في منزلهم وفي البيت الصيفي. كان يختلف اختلافاً شديداً في طبعه عن كل من فاسيا (فاسيلي) وسفتلانا. فقد تُوفيت والدته بمرض صدري حين كان ستالين في المنفى. وتولى أقارب يكاترينا سفانيدزه تربية ياكوف.

ولد ياكوف في باكو في العام ١٩٠٨. درس في معهد مهندسي النقل واشتغل مهندساً في محطة توليد الكهرباء في أحد المصانع. وفي العام ١٩٣٧ التحق بأكاديمية المدفعية التابعة للجيش الأحمر. في أيار/مايو ١٩٤١ انخرط في صفوف الجيش، وبعد عدة أيام على اندلاع الحرب، كان قد بدأ في خوض المعارك. وفي الرابع من تموز/يوليو ١٩٤١، وقع قائد بطارية مدفعية الهوتزر التابعة للكتيبة الرابعة عشرة في فرقة المدرعات الرابعة عشرة في الحصار، ومن ثم تم أسره مع الآلاف غيره من القادة والجنود. وعلى غرار الملايين من الناس تحمّل بشجاعة فظائع الأسر. ولم تَكسر شوكته عمليات التعذيب أو محاولات الاسترضاء. فقد رفض ياكوف دجوغاشفيلي جميع عروض الإلمان وعملاء الجنرال فلاسوف[1]، وحافظ على شرف الجندية.

بعد الإفراج عنه كتب ملك بلجيكا ليوبولد (الذي كان أسيراً لدى الإلمان في نفس المعتقل مع ياكوف) إلى ستالين يخبره بأنه شهد مصرع ابنه البكر.

وكان تلمان[2] يوجد في نفس المعتقل إلى جانب ياكوف. وقد أُعدما معاً رمياً بالرصاص في باحة المعتقل قبل وصول جيوشنا بفترة قصيرة.

لم يتسنَّ لي أن أسمع بمحاولات لتحرير ياكوف من الأسر لدى الإلمان. وأعتقد بأنه لم يجرِ التخطيط لمثل هذه المحاولات بسبب عدم جدوى عملية

(١) قائد الجيش الثاني في جبهة لينينغراد. وقع هو وجيشه في الحصار عام ١٩٤٢. وانحاز إلى جانب الألمان بعد أن أحكم هؤلاء الحصار حوله. حُكم عليه بالإعدام في العام ١٩٤٦ كخائن لوطنه - المترجم.

(٢) زعيم الحزب الشيوعي الألماني آنئذٍ - المترجم.

كهذه. إلا أنني أعرف أنَّ المخابرات كانت تملك معلومات عن تنقلات ابن ستالين، إذ نقلوه أكثر من مرة من مكان الى آخر.

بالمقارنة مع ياكوف دجوغاشفيلي كان الملك ليوبولد يعيش في ظروف ممتازة. فقد أبقى عليه الألمان حياً. وقد كتب ليوبولد إلى ستالين فيما بعد، يقول إنه كان يشاهد ياشا (ياكوف) أثناء نزهات المعتقل، كما كان يستقي بعض المعلومات عنه من الحرس الألماني.

أما أنَّ ستالين قد رفض أن يستعيد ابنه مقابل تسليم الفيلد ماريشال باولوس فهذه حقيقة. وكان عدد كبير من الناس حاضرين هذا الحديث.

كما أن ستالين، وأنا أعرف ذلك بدقة، لم يصدر أية أوامر بإرسال مجموعات خاصة إلى ألمانيا. إلا أن ستالين كان على اطّلاع جيد على سلوك ياكوف في الأسر، إذ إن المخابرات، وكما سبق أن ذكرت، كانت تمتلك مثل هذه المعلومات.

لم يعرف الألمان أن ياكوف هو ابن ستالين إلاّ بمحض المصادفة. فقد وقع في الأسر جريحاً وتعرف إليه جريح مثله من كتيبته، ورمى بنفسه إليه وصادف أن كان على مقربة منهما مخبر ألماني أفشى سر الليتنانت دجوغاشفيلي.

حين أبلغوا ستالين أن أسرة ياكوف يتم إجلاؤها، قال إنه يتم إجلاء عشرات الآلاف من أسر العسكريين الذين وقعوا في الأسر، ولا يسعه أن يقدم على استثناء من أجل أسرة ابنه، فالقانون فوق الجميع. (صدر حكم بحقه لاحقاً ثم أُلغي هذا الحكم، لكن بعد فوات الأوان، كما هي العادة دائماً).

مقتطفات من قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ومجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي "حول إزالة آثار الانتهاكات الفظة للقانون بحق الأسرى العسكريين السابقين وأفراد أسرهم":

"إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ومجلس الوزراء في الاتحاد

السوفياتي يشيران إلى أنه قد ارتُكبت خلال الحرب الوطنية العظمى وفي مرحلة ما بعد الحرب، انتهاكات فاضحة للقانون السوفياتي بحق العسكريين من الجيش الأحمر والأسطول الذين وقعوا في الأسر أو في الحصار من قبل العدو. لقد خاض العسكريون السوفيات خلال الحرب الوطنية العظمى قتالاً بطولياً ضد المحتلين الفاشيين، وقاموا بواجبهم تجاه الوطن بإخلاص ونكران للذات. إلا أنه بسبب الوضع الصعب الذي نشأ في المرحلة الأولى من الحرب، وقع عدد كبير من العسكريين السوفيات في الأسر بيد العدو، وذلك بعد أن حوصروا واستنفدوا كل إمكانية للمقاومة. كثيرون من العسكريين وقعوا في الأسر جرحى ومصابين، أو إثر إسقاط طائراتهم خلال المعارك الجوية أو خلال تنفيذ مهمات قتالية في مؤخرة العدو. لقد حافظ العسكريون السوفيات في الأسر على وفائهم للوطن، وتحملوا برجولة وصلابة عذابات الأسر وإهانات الهتلريين... وعلى الرغم من ذلك أحيط الأسرى السابقون بتشكيك سياسي غير مبرر، واستُخدم القمع على نطاق واسع بحقهم، وجرى الافتئات على حقوقهم بصورة مخالفة للقانون. لقد كان العسكريون الذين خرجوا من الحصار، والذين فروا من الأسر، والذين حررتهم الوحدات السوفياتية يرسَلون، من أجل التحقق منهم، إلى معسكرات خاصة تابعة لمفوضية الشؤون الداخلية حيث كانوا يحتجزون في الظروف نفسها تقريباً، التي كان يُحتجز فيها الناس في معسكرات العمل التأديبية... منذ العام ١٩٤٥.

كان كل المحرّرين والعائدين إلى الوطن من العسكريين، وحتى حين لم تكن تتوافر أية معطيات تدعو للريبة بهم، يُجمعون في كتائب ويُرسَلون، عقاباً لهم، إلى العمل الدائم في منشآت صناعة الفحم وقطع الغابات في المناطق النائية. لقد واصلت الأجهزة الأمنية في الفترة التي أعقبت الحرب وعلى نحو غير مبرر، تقديم الأسرى السابقين من العسكريين إلى المحاكمات، وتعرض كثيرون منهم للتنكيل في مخالفة واضحة للقانون. وقد انتشرت على نطاق واسع أشكال مختلفة من القيود التي كانت تُفرض على الأسرى العسكريين السابقين وذويهم في مجال العمل والنشاط الاجتماعي والتعليم وفي حال تغيير مكان الإقامة، وسوى ذلك.

إن الانتهاكات الفظة للقانون السوفياتي التي ارتكبت بحق الأسرى العسكريين السابقين كانت، في المقام الأول، نتيجة للنشاط الإجرامي لكل من بيريا وأباكوموف وأعوانهما، الذين كانوا ينشرون الجور والاضطهاد*.

إنها كذبة أخرى. فالأجهزة الحزبية هي التي تولّت المبادرة في التنكيل بأسر مجنّدي الجيش الأحمر وضباطه الذي وقعوا أسرى بيد العدو. فالذين أصرّوا على إقرار هذا القانون هم شيرباكوف وخروتشوف ومالينكوف. وقد راعى ستالين مطالب القيادة الحزبية وأعطى موافقته.

لم تكن لوالدي، وأُعلن ذلك بصورة رسمية كليّاً، أية علاقة بمصير الأسرى العسكريين، لأنه كان يعتبر أنه لا يستحق العقاب إلا أولئك الذين ارتكبوا جرائم ما فقط. كما كان والدي يعتبر أيضاً أنه حتى أفراد الشرطة[1]، الذين لم يلطخوا أيديهم بالدم، يستحقون التسامح معهم. ولا يجوز معاقبة الناس الذين وقعوا في الحصار أو الأسر بفعل ظروف لا شأن لهم بها. بعد وفاة والدي، عمدت القيادة الحزبية العليا، بمن فيها خروتشوف ومالينكوف، إلى اتهامه، من دون خجل، بمأساة الأسرى العسكريين أيضاً. وتؤكد ذلك الوثيقة التي أوردنا مقتطفات منها أعلاه.

لست أدري إن كان سلوك ستالين، برفضه إنقاذ ابنه وأسرته، يحمل طابعاً مظهريّاً أم لا، إلا أن الواقع يبقى واقعاً. لقد تصرّف ستالين على هذا النحو، وليس على نحو آخر. وأعرف عبر سفتلانا، أنه حين أبلغوه أسر ابنه، أصابه غم شديد. وقد لاحظ ذلك المحيطون به أيضاً. وروت سفتلانا أنه أخذ يستدعيها إليه في الليالي ويتذكّر خلال ساعات طفولة ياكوف. وفي تلك الأيام العصيبة بالنسبة له، تغير حتى مظهره الخارجي.

كان ياشا (ياكوف) إنساناً مستقيماً، لم يداهن أحداً في حياته. هكذا رسخت شخصيته في ذاكرتي. ومن حيث المظهر الخارجي كان شخصاً متحفظاً ومتباطىء الحركة، أي بعكس فاسيلي. وقد يكون ورث ذلك عن والدته. يعيش في جبال جورجيا قوم يسمون "الراتين". ويُعتبر الرجال عند هؤلاء القوم فرساناً، إلا أنهم بطيئو الحركة قليلاً. حين كان ياشا يتباطىء في اتخاذ قرار ما، كان ستالين يمازحه أحياناً بتسميته راتينياً.

---

(١) المواطنون السوفيات الذين انخرطوا في صفوف الشرطة التي نظمها الألمان في الأراضي السوفياتية التي كانوا يحتلونها- المترجم.

لم ينتسب إلى الحزب إلا في وقت متأخرّ جداً، قبل اندلاع الحرب بوقت قصير. فقد كان يعتبر أن ليس بوسعه الانضمام إلى حزب ينتهج سياسة التنكيل الجماعي. ولم يكن على ما أعلم، يُخفي موقفه هذا. على كل، فقد كان ستالين والمحيطون به يعرفون جيداً قناعات باشا هذه، وأعتقد أنه في العام ١٩٤٠ جرى الحديث التالي بينه وبين ستالين الذي قال:

- ليس بوسعك أن تكون بين متخرجي الأكاديمية الشخص الوحيد الذي لم ينتسب إلى الحزب.

لا أدري عمّا تحدثوا أيضاً آنئذٍ، إلا أن ياكوف انتسب إلى الحزب بعد هذا الحديث.

لا أعرف سوى القليل عن حياته الشخصية. إلا أنه بلغ مسامعي أن ليست كل الأمور كانت تجري كما يرغب. غير أن زوجته، وبعكس الأقاويل الباطلة، كانت امرأة شريفة.

(وفقاً لمعطيات الصحافة الغربية، فإن ابنة ياكوف دجوغاشفيلي، غالينا تعيش في روسيا. وتبلغ من العمر ٥٢ عاماً، وهي متزوجة من شيوعي جزائري، وتعمل مترجمة للغة الفرنسية.

ولدت زوجة ياكوف، يوليا إيساكوفنا ميلتسر، في أوديسا ضمن أسرة موظف وربة بيت. وتؤكد الصحافة الإنكليزية أنها تزوجت أربع مرات، بما في ذلك من نائب وزير داخلية أوكرانيا بيسّاراب. لكن هذا كله كذب، تماماً كما هو كذب أيضاً أن يوليا ميلتسر، التي توفيت في العام ١٩٦٣ في موسكو، كانت عشيقة قائد حرس ستالين الشخصي الجنرال ليتانت فلاسيك. كما تجانب الحقيقة أيضاً رواية الصحافة الغربية عن استشهاد ياكوف دجوغاشفيلي، اذ يؤكد عدد من المصادر، استناداً إلى أقوال الأسرى العسكريين من الضباط الإنكليز، ان ابن ستالين البكر انتحر ملقياً بنفسه على الأسلاك الشائكة.)

لقد قرأت أن يوليا ميلتسر قد أُودعت المعتقل بعد إبلاغ الكونت برنادوت، رئيس الصليب الأحمر السويدي، رداً سلبياً بشأن مبادلة ياكوف بالفيلد ماريشال فريدريخ باولوس.... أعتقد أن الأمر لم يكن على هذا النحو، بل جرى،

ببساطة، إجلاؤها عن موسكو، وذلك على غرار ما كانوا يفعلون مع عائلات الأسرى الآخرين.

من المعروف أن الدعاية الألمانية نشطت في سنوات الحرب العالمية الثانية في استخدام حادثة وقوع ابن ستالين في الأسر. فبعد وقوع ياكوف دجوغاشفيلي في ١٦ تموز/يوليو ١٩٤١ قرب مدينة فيتبسك، أسيراً بيد فرقة الدبابات الرابعة التابعة لمجموعة جيوش "الوسط"، أصدر الهتلريون منشوراً جاء فيه : " بأمر من ستالين يلقنكم تيموشنكو[٩] والمفوضون السياسيون لديكم أن البلاشفة لا يقعون في الأسر. ولإثارة الخوف في نفوسكم يكذب عليكم المفوضون السياسيون بأن الألمان يسيئون معاملة الأسرى. وأثبت ابن ستالين نفسه، عبر المثال الذي قدّمه، أن هذا كذب. لقد استسلم ووقع في الأسر، لأن أية مقاومة للجيش الألماني لا جدوى منها؟ أحذوا حذو ابن ستالين. فهو حيّ، وبصحة جيدة وحالة ممتازة. أعبروا إلينا أنتم أيضاً!" كذلك نشرت الدعاية الألمانية آنئذٍ تضليلاً آخر. إذ وزعت صورة لياكوف وهو يقف قرب شخص، زعمت انه ابن مولوتوف. كان المنشور يهدف إلى إقناع مقاتلي الجيش الأحمر بخيانة أبناء كبار القياديين في الاتحاد السوفياتي. فلم يكن لمولوتوف ابن وكان من السهل دحض هذا الكذب. والأمر نفسه يمكن قوله حول الادعاء الآخر للدعاية الألمانية بأن روزا، شقيقة لازار كاغانوفيتش، كانت زوجة ستالين. ووفقاً للوثائق المتعلقة باعترافات الأسرى لدى الألمان، فإن ياكوف دجوغاشفيلي نفسه قد نفى هذا الأمر...

لقد قرر الألمان أن يستغلوا خلال هذه الرواية ورقة العداء للسامية. فشقيقة كاغانوفيتش أو ابنة شقيقه لم تكن في الحقيقة زوجة يوسف فيساريونوفيتش (ستالين) إلا أنه كان لها صبيّ من ستالين.

لقد كانت هي نفسها امرأة جميلة جداً وشديدة الذكاء، وكان ستالين، على

(٩) عضو مقر القيادة العامة العليا السوفياتية- المترجم.

ما أعرف معجباً بها. وقد أصبح تقاربهما السبب المباشر لانتحار ناديجدا أليلويفا، زوجة يوسف فيساريونوفيتش...

لقد عرفت جيداً هذا الصبي الذي ترعرع في أسرة كاغانوفيتش، وكان اسمه يوري. أذكر أنني سألت ابنة كاغانوفيتش:

- هل هذا شقيقك ؟

ارتبكت هي، ولم تعرف بما تجيب.

كانت الملامح الجورجية واضحة جداً في وجه الصبي. غادرت والدته إلى جهة ما، وبقي هو في أسرة كاغانوفيتش. ولا أعرف كيف سارت أمور حياته بعد العام ١٩٥٣. كما لم أسمع شيئاً عن ابنة شقيق كاغانوفيتش أيضاً...

لقد كانت العلاقة معقدة، ومعقدة جداً بين ستالين وبيريا، بين هاتين الشخصيتين التاريخيتين.

وأظن أن شهادتي قد قربتنا على نحو ما من الحقيقة. إنني على ثقة بأن الزمن، والزمن فقط، سوف يقول كلمته في الأمر ويلقي الضوء على العلاقة التي كانت بين قائد الدولة وبين أحد أعوانه المقرّبين منه.

الفصل الثالث

لوبيانكا:
سيف الحزب التأديبي

تشير إحصاءات وزارة الأمن الروسية إلى أن عدد الذين أدينوا بجرائم ضد الدولة على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق بين العامين ١٩١٧ و١٩٩٠ قد بلغ نحو ٤ ملايين شخصاً، حُكم على ٨٢٧ ٩٩٥ شخصاً منهم بالإعدام رمياً بالرصاص. لكن عدد الذين وقعوا تحت "المدحلة الحمراء" هو في الحقيقة أكبر من ذلك بما لا يقاس. فالملايين من أفراد أُسر "أعداء الشعب"، ومن الفلاحين الكولاك الذين انتُزعت ملكياتهم، أولئك الذين تم إجلاؤهم عن ديارهم...هم جميعهم من ضحايا الاستبداد الشيوعي. ويبدو أن أحداً لا يعرف الرقم الحقيقي اليوم، إلا أن ذكرى الذين قُتلوا يتردد صداها في قلوبنا...

حين بدأ القمع مجدداً بعد الحرب، أذكر أن والدي قال بمرارة :

- هذه هي الدورة الثالثة... السياسة شيء قذر.

سألته مرة :

- لكن حتى في أيامك جرى زج الناس الشرفاء بالسجن.

فأجاب:

- أتعرف؟ مهما كان الناس الذين في جهاز القمع، فهم يفتشون دوماً عن أعداء. سابقاً كانت التشي.ك ترى هؤلاء في التجار والإقطاعيين والنبلاء،

واليوم يبحثون عنهم وسط الناس العاملين لديهم. لقد بدلنا في مفوضية الشؤون الداخلية كثيراً من الأشخاص، لكن جرّبْ أن توقف عجلة القمع، بعد أن جعلوها تدور كل هذه السنوات...

للأسف، أصبح والدي مفوضاً للشؤون الداخلية في هذا الوقت الرهيب بالذات. فقد تسلّم مفوضية الشؤون الداخلية بعد كل من ياغودا ويجوف، وكان ذلك في نهاية العام ١٩٣٨، وحاول فوراً وقف عجلة القمع. وكان ستالين، على ما يبدو، بحاجة إلى مثل هذا الشخص في تلك الفترة. هذا مع العلم أن الميول في المكتب السياسي لم تكن كذلك. إذ أن جدانوف وفوروشيلوف ومولوتوف لم يكونوا موافقين على تغيير النهج...

مقتطفات من منكرات إيغور ابن فاليري بافلوفيتش تشكالوف[١]:

بعد الدورة الأولى لمجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٣٨، اتصل ستالين هاتفياً بتشكالوف في المنزل حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، ودعاه للمجيء إلى الكرملين. رحب به مصافحاً، وأجلسه في مقعد إلى جانبه وبدأ الحديث على الفور: يعتبر المكتب السياسي أن الاوان قد آن لكي ينتقل تشكالوف إلى عمل آخر، إلى عمل حزبي حكومي. إن الجميع يدركون أن الوقت قد حان منذ زمن بعيد لإزالة كل ما يتصل بيجوف. ويعتبر الحزب أن فاليري تشكالوف يجب أن يكون مفوض الشؤون الداخلية ومفوض النقل المائي معاً (كما كان يجوف في ذلك الحين). قال والدي مجيباً بحدة: قد تكون مفوضية النقل المائي ملائمة تماماً له، أما مفوضية الشؤون الداخلية! ورد ستالين مشيراً إلى أنه يحب في تشكالوف الإنصاف والقدرة على معرفة الناس على حقيقتهم. كان فاليري تشكالوف فتياً لا يتجاوز الرابعة والثلاثين من العمر. وكان عليه أن يعمل فترة سنتين أو ثلاث سنوات في مفوضية الشؤون الداخلية لكي يضع الأمور في نصابها. ومن ثَمَّ كان يجب الإعداد لإنشاء مفوضية موحدة للنقل وكان ستالين سيعيّن كلاً من بيريا وميركولوف مساعدين لتشكالوف.

---

(١) فاليري بافلوفيتش تشكالوف: طيار سوفياتي شهير، قام في الفترة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ برحلات جوية طويلة دون توقف، من بينها الرحلة الشهيرة موسكو ـ القطب الشمالي ـ مدينة فانكوفر في جنوب كندا - المترجم.

طلب والدي منح تشكالوف فرصة من أجل اختبار طائرة (المصمم) بوليكاربوف (I-18)، التي ستوفر لطيراننا سلاحاً رهيباً خلال السنوات الخمس أو الست القادمة. وبعدها سوف يكون مستعداً لأية مهمة حزبية. وقد وضع ستالين شرطاً واحداً: اعتباراً من اليوم يُحظّر عليه الطيران دون إذن شخصي من ستالين. وقد افترقا متفقين على أن القرار النهائي بشأن التعيين الجديد سوف يُتخذ في آخر كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٨.

هل كان ستالين يرغب في هذا التعيين فعلاً، أم أنها كانت لعبة ما غير مفهومة؟

ويتابع ابن الطيار الأسطوري ملمّحاً تلميحاً خفيفاً إلى ما يريد الوصول إليه:

"كان بيريا ويجوف يعلمان، طبعاً، بشأن البحث في المكتب السياسي في ترشيح والدي. كما كانا يعرفان جيداً كذلك موقف ستالين. وكان بيريا يدرك بالتأكيد، أن والدي سوف يكون خطراً عليه حتى بوصفه مفوضاً للنقل..."

في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه قُتل تشكالوف. وإذا تابعنا منطق ابنه إيغور، فإن الأمر لم يتم دون دسائس "المنافسين". لكن، وللأسف، لا يوجد أي إثبات للرواية التي يوردها إيغور تشكالوف. ولنبدأ من أن يجوف لم يُعفَ من منصبه كمفوض للشؤون الداخلية إلا في كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٨. وقبل اعتقاله، ترأس، بالفعل، مفوضية النقل المائي. وهو لم يعتقل إلا في ربيع العام ١٩٣٩. أما تشكالوف فقد عرض عليه ترؤس المفوضيتين معاً: مفوضية الشؤون الداخلية ومفوضية النقل المائي. "كما كان يجوف في ذلك الحين..."، ذلك هو الخطأ الأول.

كما تُثير شكوكاً جدية أيضاً كلمات ستالين إن الأوان قد آن لإزالة كل ما يتصل بيجوف. ويجوف لم يُدعَ مجرماً إلاّ بعد مرور وقت طويل، أما في ذلك الحين فلم يكن يحمّله أحد بعد مسؤولية حملات القمع. بل على العكس، فقد كان يجوف ما يزال على صهوة جواده. صحيح أن مصيره كان قد حُسم، وكان ستالين قد اتخذ، في الأغلب، قراره المأساوي بشأن المفوض، لكن ما علاقة الطيار تشكالوف بذلك؟ لقد كان يجوف ما يزال مفوضاً للشؤون الداخلية، حين

اقترحوا على تشكالوف شغل المنصب، الذي ينوون تعيين يجوف فيه. باختصار إنها جملة من السخافات، ولا يعدو أن يكون الأمر، كما يبدو، أسطورة جديدة.

لكن في كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٨ تم، بالفعل، اتخاذ قرار، بل قرار رسمي. وكان ستالين قد اتخذ هذا القرار، في الحقيقة، قبل ذلك بوقت طويل...

يبدو من الضروري أن نقوم باستطراد هنا، أو، الأصح، أن نقوم برحلة تاريخية قصيرة نتحدث خلالها عن أولئك الذين شغلوا هذا المنصب قبل والدي. ولم يكن موقفه واحداً من هؤلاء. وكان بيريا الجورجي نفسه مقتنعاً بأن تعيين أشخاص من غير الروس على رأس الأجهزة الأمنية أمر خاطىء من حيث المبدأ. لكن الأمر كان على هذا النحو بالذات منذ الأيام الأولى لقيام السلطة السوفياتية.

- كان والدي يقول: هذا خطأ سياسي جدي، كما أنه خطأ كبير أيضاً تعيين أشخاصٍ روس في المناصب المماثلة في الجمهوريات.

وقد برهن والدي غير مرة فيما بعد أنه ثابت على موقفه هذا.

لقد كان كل من دزيرجنسكي ومينجينسكي وياغودا من المشاركين في الثورة، وكانوا يحوزون ثقة قيادة الحزب والبلاد آنئذٍ. لكن لم يكن البولونيون وحدهم من يحوز هذه الثقة... فلماذا تم تنصيب هؤلاء الناس بالذات على رأس التشي.ك، والمديرية السياسية (GPU) ومفوضية الشؤون الداخلية (NKVD)؟ إن تفسير الأمر بسيط: تلك كانت سياسة السلطة البلشفية. فمنذ أيام لينين كان الحزب يسحق الجمهور الأساس من الناس بأيدٍ غريبة. كان يسحقهم سياسياً. وأنا على قناعة بأن هذا ليس مصادفة.

كنا نتحدث، أنا ووالدي مرة، وتطرقنا في حديثنا إلى فيلكس دزيرجنسكي. كان والدي يقدّر عالياً الرئيس الأول للتشي.ك، كمنظّم جيد. وشدّد والدي في حديثه بشكل خاص على أن دزيرجنسكي قد تمكن (كمفوّض للنقل أيضاً)، وهو مريض جداً، من تنظيم عمل النقل في بلد مترامي الأطراف وفي ظروف الدمار

الذي أعقب الحرب. وبكلام آخر، كان دزيرجنسكي شخصية قوية غير اعتيادية، دون أدنى شك، إلا أن والدي روى لي قصة أذهلته في سيرة حياة فيلكس ادموندوفيتش (دزيرجنسكي) لم تُنشر قط من قبل، كما لم تنشر لاحقاً. قال والدي:

- كان دزيرجنسكي شخصاً مستقيماً، إلا أن هذه الاستقامة الداخلية وحب نويه كانا يدفعانه أحياناً إلى القيام بتصرفات متهورة. كانت أسرته تعيش في المهجر، وقرر البحث عنها.

ومثل هذه الرغبة مفهومة تماماً في الظروف العادية، إلا أن دزيرجنسكي غادر حين كان مصير الدولة الفتية على المحك. ففي ظل الإرهاب الأبيض والمؤامرات المسلحة ترك كل شيء وغادر، دون أن يقول كلمة للينين أو لأعضاء اللجنة المركزية، وغاب مدة شهرين. حادثة لا مثيل لها تحتار في تفسيرها. فقد بقيت البلاد مدة شهرين دون رئيس للتشي.ك. لعموم روسيا (V.Sh.K) فهل يجرؤ أحد أن يُقدِم على مثل هذا العمل المتهور في هذه الأيام؟...

كما تحدث والدي عن فيتشسلاف مينجينسكي، الذي ترأس المديرية السياسية الموحدة (OGPU) منذ العام ١٩٢٦ وحتى العام ١٩٣٤، فذكر أنه كان شخصاً مريضاً جداً، ولم يكن يهتم إلا قليلاً بالأعمال المباشرة. وقد قرأت في مكان ما أن مينجينسكي كان يعرف ١٢ لغة قبل مجيئه إلى الأجهزة الأمنية، وأنه تعلّم بضع لغات أخرى أثناء خدمته فيها. لم أسمع بهذا الأمر، وأشكّ إجمالاً في أن ذلك كان ممكناً في تلك الظروف. على كل، القصة ليست هنا. إذ مهما كان مثقفاً الشخص الذي حلّ محلّ دزيرجنسكي في رئاسة الأجهزة الأمنية، إلا أن هذا لا يبرر تعيين شخص غريب مجدداً على رأس هذه الأجهزة.

في الأعوام ١٩٣٤ -١٩٣٦، كان غنريخ ياغودا مفوضاً للشؤون الداخلية.

معلومات مستقاة من الوثائق الرسمية:

"غنريخ ياغودا: مفوض الشعب للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي من العام ١٩٣٤ حتى العام ١٩٣٦.

ولد في العام ١٨٩١ في أسرة حرفي صغير هو غريغوري ياغودا. ووفقاً لبعض المعلومات، فإن والد السفاح المقبل لم يكن ساعاتياً، إنما صيدلي. ويشير عدد من المصادر الى أن الاسم الحقيقي لوالد المفوض هو غيرش فيليبوفيتش أياغودا أو ياغودا! انخرط في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي منذ العام ١٩٠٧. اعتُقل بسبب نشاطه الثوري وقضى فترة سنتين في المنفى. في العام ١٩١٥ تم استدعاؤه للخدمة في الجيش، حيث انضم إلى منظمة البلاشفة العسكرية. مساهم نشيط في ثورة أكتوبر في بتروغراد. عمل في المفتشية المركزية العليا للجيش الأحمر. شارك في الحرب الأهلية على الجبهتين الجنوبية والجنوبية الشرقية. في العام ١٩١٩، أصبح عضو اللجنة العليا لمفوضية التجارة الخارجية. في العام ١٩٢٠، أصبح عضو هيئة رئاسة التشي. ك لعموم روسيا (V.Ch.K) التقى لينين أكثر من مرة. وتحمل وثيقة تثبيت غنريخ ياغودا عضواً في اللجنة العليا لمفوضية التجارة الخارجية وفي اللجنة العليا لإدارة (V.Ch.K) توقيع فلاديمير أوليانوف لينين الشخصي.

في المؤتمر السادس للحزب تم انتخاب غنريخ ياغودا عضواً مرشحاً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي). وفي المؤتمر السابع عشر تم انتخابه عضواً في اللجنة المركزية. كما كان عضواً في اللجنة المركزية التنفيذية (SIK)[١].

اتهم بالتعاون مع البوليس القيصري، إلا أن ستالين اعتبر الوثائق التي تم إبرازها غير مقنعة. وبما أن كل الأرشيف قد أُتلف في حينه، لم يتسنَّ إثبات التهمة، وأمر ستالين بعدم العودة مطلقاً إلى هذه القضية.

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٧، وبمناسبة السنة العاشرة لإنشاء كلٍّ من التشي. ك. لعموم روسيا (V. Sh.K.)، والمديرية السياسية (GPU) والمديرية السياسية الموحدة (OGPU) مُنح ياغودا وسام الراية الحمراء. ومما جاء في وثيقة ترشيحه للوسام في هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية" (SIK): كان الرفيق غنريخ غنريخوفيتش ياغودا واحداً من العاملين النشيطين ومساعداً مقرباً من الرفيق دزيرجنسكي في إنشاء جهازي التشي. ك. لعموم روسيا (V.Sh.K.)

(١) الهيئة العليا لسلطة الدولة بين مؤتمرين للسوفياتات. أول لجنة تنفيذية مركزية تشكلت في العام ١٩١٧ برئاسة سفردلوف وكان اسمها الرسمي اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا (VSIK) ـ المترجم.

والمديرية السياسية الموحدة (OGPU). وفي أحرج أوقات البلاد، أظهر حيوية نادرة وحزماً وشجاعة في النضال ضد الثورة المضادة. وفي الوقت نفسه، قدّم الرفيق ياغودا، بوصفه رئيساً للقسم الخاص، خدمات جلّى في تنظيم الجيش الأحمر ورفع قدرته القتالية. ولهذا يلتمس المجلس الثوري العسكري منح الرفيق ياغودا وسام الراية الحمراء".

وقد منح ياغودا لاحقاً أكثر من وسام، بما في ذلك وسام لينين، لمساهمته في تنظيم بناء القنال التي تصل البحر الأبيض ببحر البلطيق، والتي تم بناؤها بعمل المساجين بشكل أساس.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، أصبح ياغودا أول مفوض شؤون داخلية يُمنح رتبة مفوض عام في الأمن. ولم يكن أي شخص آخر ممّن سبقوه، لا دزيرجنسكي ولا مينجنسكي ولا سواهما، يملك رتباً خاصة.

في عهد ياغودا وبإشرافه المباشر، جرت أكبر المحاكمات السياسية التي بدأت فوراً بعد مقتل كيروف.

في ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦، وحين كان ستالين يقضي فترة استجمام في سوتشي، أرسل تلغرافاً إلى كلٍّ من كاغانوفيتش ومولوتوف وسواهما من أعضاء المكتب السياسي يقول فيه: "نعتبر أن ثمة ضرورة مطلقة لتعيين الرفيق يجوف في منصب مفوض الشؤون الداخلية. فقد تبين بوضوح أن ياغودا لم يقم على أفضل وجه بمهمته في فضح تحالف تروتسكي - زينوفييف (كان مولوتوف يستجم أيضاً مع ستالين). لقد تأخرت الإدارة السياسية الموحدة أربع سنوات في هذه القضية، ويتحدث عن ذلك كل العاملين الحزبيين ومعظم ممثلي مفوضية الشؤون الداخلية في المناطق".

في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦ تم تعيين ياغودا مفوض الشعب للبريد والبرق. و في ٣ نيسان/إبريل ١٩٣٧ أقيل من منصبه، وأخرج من عداد اللجنة التنفيذية (SIK)، وشطب اسمه من المدرسة العليا لحرس الحدود ومن المؤسسات والمنظمات الأخرى، وبدأ التحقيق بقضيته.

أثناء المحاكمة أعترف ياغودا بأنه اشترك في اغتيال كلٌ من كيروف وغوركي ومينجينسكي وكويبيشيف ومكسيم بيشكوف[1](؟). كما اعترف أيضاً بالاشتراك في محاولة اغتيال مفوض الشعب الجديد للشؤون الداخلية يجوف، وقاد التحالف التروتسكي اليميني "بهدف إسقاط السلطة السوفياتية وإحياء الرأسمالية في الاتحاد السوفياتي". لكن، مهما بدا الأمر مستغرباً، إلا أن ياغودا رفض الاعتراف بأنه جاسوس أجنبي. ويبدو أن ستالين ويجوف لم يُصرّا على ذلك.

في ١٥ آذار/مارس ١٩٣٨ تم إعدام المتهمين السبعة عشر، بمن فيهم النائب الأول لمفوض الشؤون الداخلية في روسيا الاتحادية أ.ريكوف، رمياً بالرصاص.

وقد تعرض للاضطهاد والقمع في سنوات مختلفة جميع ذوي مفوض الشعب السابق الأقربين. ولم ينج من ذلك سوى ابن غنريخ الذي كان من مواليد العام ١٩٢٩. في العام ١٩٤٩، صدر بحقه حكم بالسجن من قبل "المجلس الخاص" في وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي (MGB) وأطلق سراحه بموجب عفو صادر في العام ١٩٥٣. وقد تابع دراسته لاحقاً وتخرج مهندساً وعاش مع أسرته في أوكرانيا باسم غير اسمه الحقيقي.

زوجة ياغودا، إيدا ليونيدوفنا، ابنة شقيق ياكوف سفردلوف[2]، تم اعتقالها وتوفيت في المعتقل.

أعتقد أن زوجة ياغودا لم تكن، كما هو شائع، ابنة شقيق سفردلوف. في كل الأحوال، لم أسمع أنا بذلك. ومن الواضح أن تقدم ياغودا في الوظيفة لا يعود الفضل فيه إلى سفردلوف، بل إلى دزيرجنسكي، ومينجينسكي[3]... إجمالاً، كانت الأجهزة الأمنية منذ تأسيسها تضم الكثير من الغرباء البولونيين، ولهذا فإن تقدم ياغودا أمر مفهوم إلى حد ما.

---

(١) ابن الكاتب الكبير مكسيم غوركي - المترجم.
(٢) أول رئيس للجنة التنفيذية المركزية (SIK) بعد ثورة أكتوبر. توفي في العام ١٩١٩ - المترجم.
(٣) وهما بولونيان ـ المترجم.

يكتبون كثيراً أن ياغودا كان يهودياً، قد يكون كذلك. إلا أنني لا أستطيع تأكيد ذلك أو نفيه، لم نتحدث عن هذا الموضوع في بيتنا قطّ.

لقد عرفت ياغودا. وكان، شأن يجوف، ودوداً للغاية تجاهنا، ويحاول بشتى السبل التودد لوالدي. حين انتقلنا من تبيليسي إلى موسكو كان ياغودا هو الود بعينه، وقدم إلينا الشقة والسيارة. كان ياغودا، شأن يجوف، يرغب كثيراً في اعتبار نفسه أحد أصدقاء والدي الكبار. وكانا يعرفان معاً أن والدي كان مقرباً جداً من كيروف وأوردجانكيدزه...

لم يكن سراً خافياً على تلك المستويات أن والدي كان يتمتع بدعم هائل من كيروف وأوردجانكيدزه. وكان الاثنان يعتبرانه تلميذهما، ولست أخفي أنّ كلّ التعيينات التي حصل عليها والدي في فترة العشرينيات والثلاثينيات كانت تتم بمبادرة منهما. كان والدي يعتبر، وليس عبثاً، خبيراً ضليعاً في المسائل الجورجية. وكانت أمور كثيرة تربط كلاً من أوردجانكيدزه وكيروف بالقفقاز وجورجيا. ولذا، ليس ما يدعو للعجب في أنهما كانا يتابعان صعوده سلم الوظيفة.

أعرف من والدي أنه قد تم في المؤتمر السابع عشر ضمه إلى اللجنة المركزية (لم يكن حتى عضواً مرشحاً في اللجنة المركزية) بمبادرة من سيرغي ميرونوفيتش كيروف وبدعم من سيرغو أوردجانكيدزه. وقد تمكّنا، كما يبدو، من إقناع ستالين آنئذٍ، لأن كلمته كانت الكلمة الفاصلة.

لم يكن ياغودا شخصاً غبياً، وكان، بحكم منصبه، يملك معلومات واسعة ويعرف جيداً من يقدّم الدعم لوالدي، فلم يكن من العسير عليه أن يتنبأ بمستقبله الوظيفي. في الحالات المشابهة، وكان هذا أسلوباً شائعاً، يتم إظهار المودة بمختلف السبل، بينما يجري في الواقع تجميع المعلومات عن هذا السياسي أو ذاك. ولم يكن ياغودا يشكل استثناءً في الحالة الراهنة. فقد كانوا يعتقلون الناس خصيصاً، وينتزعون منهم المعلومات عن أولئك الذين يمكن أن يكونوا منافسين. وفي حال العثور على "ما يدين" كان يُوضع ذلك على طاولة ستالين أو يبلغ إلى المكتب السياسي، وليس من الصعب التنبؤ بالعواقب.

قبل نقل والدي إلى موسكو بفترة طويلة، أخذوا يعتقلون الناس الأبرياء الذين كانت "اعترافاتهم ضد بيريا" توضع مؤقتاً في الجارور من قبل باغودا، على أمل التخلص منه حين تسنح الفرصة. وكانوا يأخذون الشهود و"المتورطين" من القياديين ذوي المستويات الرفيعة عادة. وقد حدثني والدي بأنهم هكذا بالذات فتكوا بالسكرتير الثاني للجنة المركزية في جورجيا كورداياتسيف، الذي كان صديقاً كبيراً لوالدي. بعد مجيئه إلى مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي، طلب والدي الوثائق المتعلقة بقضية كورداياتسيف. وقد وجد أن النقطة الرئيسية التي ركز عليها التحقيق هي : "أعطِ إفادة بأن بيريا يؤيد تروتسكي!" ومما يشرّف كورداياتسيف أن التعذيب لم يحطّمه، ولم يُعط أية إفادة ضد والدي.

كان نيقولاي يجوف، الذي خلفه والدي في منصب مفوض الشؤون الداخلية، يستخدم الوسائل نفسها، وهي وسائل حزبية.

معلومات مستقاة من الوثائق الرسمية:

نيقولاي يجوف: مفوض الشعب للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي من العام ١٩٣٦ حتى العام ١٩٣٨.

ولد في العام ١٨٩٥ في بتربورغ. وهو عامل. بعد شباط/فبراير ١٩١٧ انضم إلى الحزب البلشفي. في سنوات الحرب الأهلية أصبح مفوضاً عسكرياً. في العام ١٩٢٢ أصبح سكرتير اللجنة الحزبية لمنطقة سيميبلاتين في لجنة الحزب في إقليم كازاخستان. في العام ١٩٢٧ أصبح رئيس قسم التوزيع وقسم شؤون الكادر في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي.

عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) منذ العام ١٩٣٤ (انتخب في المؤتمر السابع عشر الذي دخل التاريخ كمؤتمر مَن أعدموا رمياً بالرصاص). وفي ذلك الحين أيضاً أصبح رئيس قسم الصناعة في اللجنة المركزية وعضو المكتب التنظيمي ونائب رئيس لجنة الرقابة الحزبية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي. وفي العام ١٩٣٦ أصبح سكرتيراً للجنة المركزية ورئيساً للجنة الرقابة الحزبية ونائباً لرئيس لجنة الاحتياط في مجلس الدفاع والعمل في الاتحاد

السوفياتي. في المؤتمر السابع للكومنترن انتخب عضواً في اللجنة التنفيذية للكومنترن.

بوصفه سكرتيراً للجنة المركزية كان يشرف مباشرة على عمل مفوضية الشؤون الداخلية. وشارك في إعداد المحاكمات السياسية.

في الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦ أصبح مفوض الشعب للشؤون الداخلية. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٣٧ مُنح رتبة مفوض عام في أمن الدولة. في تموز/يوليو ١٩٣٧ منح وسام لينين تقديراً "للنجاحات الباهرة في قيادة أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية في تنفيذ المهمات الرسمية ". في العام ١٩٣٧ وحده، قدم نيقولاي يجوف قائمة تضم ٣١٧٠ سجيناً سياسياً للمصادقة على إعدامهم رمياً بالرصاص. وقد صادق عليها آنئذٍ كل من ستالين ومولوتوف وكاغانوفيتش.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٨، أُعفي من منصبه كمفوض للشؤون الداخلية "بناء لرغبته"، كما كتبت الصحف آنئذٍ، وعين لاحقاً مفوض الشعب للنقل المائي. في ١٠ نيسان/إبريل ١٩٣٠ تم اعتقاله بتهمة تولي قيادة منظمة تآمرية في الجيش وفي أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية، والتجسس لحساب المخابرات الأجنبية، والإعداد لأعمال إرهابية ضد قادة الحزب والحكومة، ولانتفاضة مسلحة ضد السلطة السوفياتية.

في ٣ شباط/فبراير ١٩٤٠ أصدرت الفرقة العسكرية في المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي حكماً بإنزال العقوبة القصوى بحقه. في ٤ شباط/فبراير تم إعدامه رمياً بالرصاص.

ابنته بالتبني (لم يكن للمفوض أولاد) تعيش باسم غير اسمها الحقيقي.

أذكر أن يجوف جاء لزيارتنا مع زوجته وكان مخموراً؛ وقال، وهو جالس إلى المائدة:

- إنني أدرك أن دوري قد جاء.

تمكّن يجوف من تسميم زوجته في حينه. وقد تبدو الكلمات فظيعة، إلا أن ذلك كان من حسن حظها على نحو ما، إذ تفادت كل الأمور الرهيبة التي كانت تنتظرها.

لا يجوز تبرئة الناس المسؤولين عن حملات القمع. إلا أن المسؤول

الرئيس يبقى النظام الذي ولّد الطغيان. لقد سبق أن تحدثت عن العلاقات التي تربط بين الأجهزة الأمنية واللجنة المركزية، وعن الدور المعيب للقسم التنظيمي في اللجنة المركزية الذي كان يتولى توجيه القمع. فلم يكن يتم عمل واحد ذو طابع سياسي من دون القسم التنظيمي في اللجنة المركزية. ويجوف ليس أسوأ أو أفضل من الآخرين. إنه من هناك من اللجنة المركزية. ومالينكوف، الذي كان يشرف على عمل الأجهزة الأمنية، بوصفه عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية، هو أيضاً من هناك. وبالمناسبة، كانوا يودون تعيين مالينكوف مفوضاً للشؤون الداخلية، وكان هذا منطقيّاً للغاية. ففي جميع الأوقات، منذ لينين وحتى غورباتشوف، مروراً بستالين وخروتشوف وبريجنيف، كان منصب رئيس الأجهزة الأمنية يُعتبر منصباً سياسياً. من هنا جاء تعيين يجوف ومن ثم إيغناتييف والعاملين الحزبيين الآخرين. فالعاملون المحترفون في المخابرات ومكافحة الجاسوسية نادراً ما كانوا يصلون إلى هذا المنصب. فباستثناء والدي، بوسعي أن أُضيف أسماء قليلة جداً ممن وصلوا إليه. فالقادة المقبلون لهذا الجهاز كانوا، عادة، يبنون مستقبلهم الوظيفي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. لقد كان الجهاز الحزبي يتولى دائماً إدارة هذا الجهاز، ولم يتخلَّ ليوم واحد، بل لساعة واحدة عن الإشراف الدائم عليه. ولست أُغالي إن وصفت هذا الإشراف بالشمولي. فهل يمكن الموافقة على القول إن الأجهزة قد "وضعت نفسها فوق الحزب" في يوم من الأيام؟ إن هذا لم يحصل وما كان يمكن أن يحصل. إنها سيف الحزب التأديبي[1]. قول يفيض صراحة، برأيي. أجل! إنها سيف الحزب بالذات!.

كان والدي قاطعاً في عدم رغبته تسلّم منصب مفوض الشعب. وقد عاد المكتب السياسي لبحث هذه المسألة مرتين. إلا أنه كان مضطراً بشكل أو بآخر لقبول ذلك، بعد أن نال موافقة مسبقة على شروطه. وثمة حقيقة لا يغامر في دحضها حتى المؤرخون غير الأمينين الذين يرمونه بالقذارة. ففي ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ صدر قرار يدين الأساليب الإجرامية في التحقيق التي كان

(١) الوصف الحزبي الرسمي الذي كان شائعاً للأجهزة الأمنية - المترجم.

استخدامها منتشراً قبل وصول والدي الى مفوضية الشؤون الداخلية بوقت طويل. فقد أبصرتْ هذه الوثيقة النور بفضل مطالبته هو بالذات. ووافق ستالين والمكتب السياسي على ذلك.

إن "الترويكا" و "الدفويكا" الشهيرتين هما أيضاً من صنع أيدي البلشفية. وقد تم إقرارهما بموجب توجيه حزبي سري بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦. وكان يدخل في عدادهما، عادة، كلٌ من سكرتير اللجنة الإقليمية وسكرتير اللجنة المنطقية للحزب، ورئيس فرع مفوضية الشؤون الداخلية، والمدعي العام. وقد تم إلغاء "الترويكات" فوراً إثر تسلّم والدي منصب مفوض الشؤون الداخلية.

لقد حارب والدي طوال حياته الأجهزة غير القضائية التي تمارس سلطة القضاء، إلا أنني أشدد على أنَّ جميع هذه الأجهزة قد أنشئت قبل نقل والدي إلى موسكو بوقت طويل. مثلاً، ما يسمّى "المجلس الخاص" أو "الاجتماع الخاص" السيِّء الصيت، الذي كان تابعاً لمفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) [لاحقاً، أصبح تابعاً للجنة الشعبية لأمن الدولة (NKGB) ومن ثم لوزارة أمن الدولة (MGB)] في الاتحاد السوفياتي، ظهر إلى الوجود بموجب قرار اللجنة التنفيذية المركزية (SIK) والمجلس الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي (SNK) بتاريخ ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٤. ووفقاً لبعض المعطيات أصدر هذا "المجلس" أحكاماً بحق ٤٤٢ ٥٣١ شخصاً، وبينها أحكام بإنزال العقوبة القصوى[١] بحق أكثر من عشرة آلاف شخص. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٤، أصدرت اللجنة التنفيذية المركزية قراراً بالنظر في قضايا متعلقة بالإعداد لأعمال إرهابية، وذلك خلال فترة عشرة أيام ومن دون شهود. وقد جرى النظر في هذه القضايا من قبل "المجلس الخاص" ليس بغياب الشهود فحسب، بل بغياب المتهمين أيضاً. وقد خلق هذا الأمر تربة خصبة، بالطبع، لتحريف المعلومات التي تم الحصول عليها أثناء التحقيق الأولي، ولخرق القوانين على نحو فاضح.

(١) أي الإعدام ـ المترجم.

ألا يَعرف المؤرخون أن معسكرات الاعتقال في أوكرانيا، مثلاً، قد ظهرت ليس في العام ١٩٣٧ أو حتى في العام ١٩٣٤، بل في العام ١٩٢٠. وأنها ظهرت في أوكرانيا بعد ظهورها في روسيا بوقت طويل. ولا تزال موجودة في الأرشيف (وهذا أصبح معروفاً اليوم) توجيهات فلاديمير إيليتش: " زُجّوا بهم في معسكرات الاعتقال! ". وقد تم توقيع الأمر من قبل قائد الدولة السوفياتية الفتية ومؤسس الحزب البلشفي في صيف العام ١٩١٨، أي قبل مضي عام على انقلاب أكتوبر...

لقد تمكن والدي من إقناع قيادة البلاد آنئذٍ بأن ممارسة العنف الجسدي وسواه بحق الموقوفين يضع اعتراف هؤلاء الناس موضع الشك، ويشكّل خرقاً لكلِّ المواثيق الدولية. إنها أمور بديهية، ولا شك، إلا أن التوصل إلى إلغاء إجراء التحقيق على النحو المذكور في الأجهزة غير القضائية لم يكن أمراً سهلاً في تلك الظروف. ولم يكن الحزب أو بالأحرى، القيادة الحزبية العليا، شديدة السعادة بالإجراءات الجديدة. وقد وجد والدي نفسه مضطراً لتبرير وإثبات جدوى مقترحاته. ولم يكن الأمر ليتم دون دعم ستالين بالتأكيد، إلا أنه كان، كما يبدو، قد حسم الأمر لنفسه قبل ذلك. وهذا ما يفسّر أيضاً نقل والدي إلى موسكو.

يمكن أن نتحدّث اليوم عن السفلة من مفوضية الشؤون الداخلية، الذين كانت أيديهم غارقة في الدم حتى المرفق. فهم الذين كانوا ينتزعون الاعترافات من المعتقلين ويتسببون بقتل الأبرياء وزجهم في المعسكرات. وهكذا كان في ظل ياغودا وفي ظل يجوف. مع وصول والدي إلى مفوضية الشؤون الداخلية تم تسريح الكثير من الموظفين وكسر رتب كثيرين آخرين وإدانتهم. لكن من كان يسمح بالطغيان، أو بالأحرى، يدفع إليه؟ إنها القيادة الحزبية العليا، بالطبع، التي تعود لتحمّل هؤلاء الناس المسؤولية عن جميع الجرائم.

لعله يجدر بنا أن نتحدث أيضاً عن هؤلاء الذين كانوا في مثل هذا الوضع خلال الأعوام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٨. لا شك في أنه كان بين موظفي مفوضية الشؤون الداخلية، في تلك السنوات، السفلة والانتهازيون والأنذال، إلا أنني

ن أصدق أبداً أن حتى أولئك المحقّقين كانوا يرتكبون الآثام بفعل دوافع داخلية. إن المذنب الأساس هو النظام، وهم ليسوا سوى منفّذين للأوامر لمجرمة. إنني لا أقول ذلك لتبرئة جهاز مفوضية الشؤون الداخلية منها، فهو رتكب ما يكفي. إلا أن المذنب الرئيس قد أفلت من المسؤولية...

إن آلية العلاقات بين الأجهزة الحزبية ومفوضية الشؤون الداخلية كانت في جميع العهود على النحو التالي: كانت جميع الوثائق المتعلقة بإجراء التحقيق ترد من اللجنة المركزية، ودون ذلك لم يكن ليبدأ التحقيق، على الأقل رسمياً. لقد كان بوسع الأجهزة الأمنية أن تقوم ببعض التدابير الميدانية، بالطبع، لكن الأمر لم يكن ليتخطى ذلك دون موافقة اللجنة المركزية. والمقصود بالكلام هنا هو الجهاز المركزي في مفوضية الشؤون الداخلية. وكان يُعتمَد نظام مشابه في الجمهوريات والأقاليم والمناطق. فقد كان أمناء السرّ واللجان الحزبية في الأقاليم والمناطق هم الذين يصدرون، للإدارات المحلية وفروع مفوضية الشؤون الداخلية، الموافقة على الاعتقال وإجراء التحقيقات. وكان هؤلاء يدخلون بالضرورة في عداد ما يسمى "الترويكات".

كانت توجد في أجهزة أمن الدولة نفسها، شأن أي إدارة أخرى، منظمات حزبية، بالطبع، إنما كان وجودها يتسم بصرامة أكبر. هكذا كان حتى اليوم الأخير من وجود الكي.جي.بي. فقد كانت توجد الهيئة القيادية العليا ويوجد رئيس الكي.جي.بي. وإلى جانبهما توجد اللجنة الحزبية. وكان العاملون الحزبيون المحليون "يطلون" على اللجنة المركزية، دون المرور بمفوض الشعب. وكان هذا ضرب من ضروب الإشراف، وذلك كما في كل مكان، على أية حال. قام والدي بقطع دابر هذا "الفلتان"، وكان يعتبر أن مفوضية الشؤون الداخلية، ليست تلك الإدارة التي يُسمح فيها بمثل هذه الأمور. فهي تمتاز بخصوصيتها وبنظام السرية فيها، إضافة إلى النظام الخاص في شكل تحمل المسؤولية. قبل هذا، كانت اللجنة المركزية تتدخل في مسائل ما، لكن، وكما هي الحال دائماً، دون أن تتحمل المسؤولية عن أي أمر. وكان العاملون الذين يتلقون التوجيهات مباشرة من اللجنة المركزية يتصرفون حيال القضية المعنية بنفس القدر

من عدم المسؤولية. فقد كان الموظف يتساءل: ولماذا أنا؟ فلتعالج اللجنة المركزية نفسها القضية.

وكان هذا الأمر يثير استياء والدي. وكان يعتبر أنه لا يجوز السماح للعاملين في اللجنة المركزية بالتدخل في شؤون المخابرات أو مكافحة الجاسوسية، تماماً كما كان لا يسمح لهم بالتدخل، مثلاً، في شؤون الأركان العامة. وينبغي إعطاء الأجهزة الحزبية "حقها"؛ فقد كانت بتدخلها تنسف أيّ عمل وتخلق مشاكل جديدة. وقد يكون هذا هو الأمر الوحيد الذي تم تحقيق النجاح فيه...

ما هو المقصود من قيام الحزب الحاكم خلال سنوات طويلة، وعلى نحو هادف، بإبادة شعبه؟ لقد بدأوا بتصفية طبقة النبلاء وقدامى المثقفين، وتطوّر الأمر إلى تصفية مثقفيهم: المثقفين السوفيات.

لقد كان القمع هادفاً دوماً. فقد قضوا على شريحة الضباط وعلى طبقة التجار والنبلاء، ثم أتبعوها بالإكليروس. وجاء بعد ذلك دور الفلاحين، وما يسمى بالكولاك. وبعد الحرب عاد الضحايا يتساقطون من جديد. كان يتم اختيار الهدف، ثم يجري كل شيء بعد ذلك، بكل بساطة، وفقاً لترسيمة مجربة. لكن مما لا شك فيه أن الكثير كان يتوقف على أولئك الذين كانوا يقفون على رأس الأجهزة التأديبية في تلك المرحلة. فالبعض منهم، شأن ياغودا ويجوف،لم يكن يسارع إلى تنفيذ "الإرشادات" الحزبية الجديدة، فحسب، بل يُظهر هو نفسه روح المبادرة. والبعض الآخر، شأن والدي، كان يحاول بكل السبل منع خرق القانون. لم يتسنَّ للآخرين تحقيق كل ما كانوا يصبون اليه، إلا أنهم حققوا الكثير. فمهما كان الجهاز الحزبي يحاول المقاومة إلا أنه كان يجد نفسه أحياناً مضطراً إلى إلغاء قراراته.

من مذكرات نيكيتا سرغييفتش خروتشوف:

عندما تحدث ستالين عن ضرورة تغيير مفوض الشؤون الداخلية ياغودا، لانه

لم ينجح في مهمته، اقترح يجوف بدلاً منه. كان يجوف مسؤولاً في قسم الكادر في اللجنة المركزية للحزب. وكنت أعرفه جيداً. وقد ترك انطباعاً حسناً لديَّ. فقد كان شخصاً لطيفاً. وكنت أعرف أن يجوف هو عامل من بطرسبورغ وعضو في الحزب منذ العام ١٩١٧. وكونه عاملاً من بطرسبورغ، كان يُعتبر أمراً جيداً! وحين تم ترشيح يجوف لتولي مفوضية الشؤون الداخلية لم أكن أعرف بعد الدوافع العميقة لهذه الخطوة ومبرراتها الداخلية لدى ستالين. أنا شخصياً لم أكن على علاقة سيئة بياغودا ولم أر، بل لم أشعر قبلاً بمعاداة ما للحزب في تصرفاته. إلا أنه تم تعيين يجوف واشتد القمع أكثر من قبل. فبدأت عملية إبادة، بالمعنى الحرفي للكلمة، للعسكريين والمدنيين والحزبيين والاقتصاديين. كان كاغانوفيتش مفوض الشعب لطرق المواصلات. وكان أورجانكيدزه يترأس مفوضية الصناعة الثقيلة. وكانت الاعتقالات تجري بالجملة في هاتين المفوضيتين. وبالمناسبة، كانت تربط يجوف علاقة صداقة بمالينكوف، وكان يعمل معه، وبالتالي فإن هذا الأخير لم يكن بعيداً عمّا كان يقوم به يجوف.

إن خروتشوف على حق هنا، بالفعل. فقد كان مالينكوف، الموظف الحزبي الرفيع، ينتهج القمع بنشاط وإصرار بالغين. لكن خروتشوف نفسه، وإن كان لا يكتب عن ذلك، لم يكن ينتفض ضد الطغيان الذي يمارسه الحزب. وليس هذا فحسب، بل كان، شأنه شأن مالينكوف، منفِّذاً لأفكار الحزب، وهو الأمر الذي لم يفلح بالاعتراف به حتى آخر حياته. بالتأكيد، كان من الأسهل له ولمالينكوف والآخرين الاختباء وراء ياغودا ويجوف وتحميل خطاياهم لمفوضية الشؤون الداخلية.

خلافاً للغالبية من أعضاء قيادة الكرملين، فقد أثبت والدي، وليس بالكلمات بل بالفعل، أنه غير موافق على سياسة القمع التي ينتهجها الحزب البلشفي. للأسف لست أعرف الأرقام الدقيقة، إلا أن الأمر يتعلق بمئات الآلاف ممن تم الإفراج عنهم من المعسكرات. وقد كتب عن ذلك كونستانتين سيمونوف[1] أيضاً:

---

(١) كاتب سوفياتي شهير (١٩١٥-١٩٧٩) نال جائزة الدولة (جائزة ستالين في حينها) في الآداب ست مرات. اشتهر بثلاثيته "الأحياء والأموات". آخر أعماله كان "مذكرات إنسان". نشر بعد وفاته، ويقتطف منه المؤلّف هنا هذه الأسطر - المترجم.

كان تعيين بيريا يبدو وكأن ستالين يحث هذا الجورجي الذي كان يعرفه، والذي كان من الواضح أنه يثق به، على تنفيذ الالتزامات الصارمة المترتبة على هذا المنصب، والقيام، حيث لم يفت الآوان بعد، بإصلاح ما كان يجوف قد أفسده. ويجب أن يتذكر الناس أن أولئك الذين تم الإفراج عنهم بين أواخر العام ١٩٣٨ وبداية الحرب، قد أفرج عنهم في عهد بيريا. وكان هؤلاء الناس كثراً. لست أعرف ما هي النسبة التي يشكّلها هؤلاء في القطاعات الأخرى، لكن "تاريخ الحرب الوطنية العظمى" يذكر أنه قد تم، في تلك السنوات بالذات، الإفراج عن أكثر من ربع العسكريين الذين جرى اعتقالهم في عهد يجوف. ولهذا، فإن الشائعات بأن بيريا كان يسعى، من خلال إعادة الحق إلى نصابه، إلى تصحيح ما كان أفسده يجوف، شائعات تستند إلى أساس واقعي. لقد ارتبط نشاط بيريا في موسكو في مطلع عهده بالعديد من عمليات إعادة الاعتبار ووقف التحقيقات وعودة عشرات الآلاف، إن لم يكن مئات الآلاف من الناس، من معسكرات الاعتقال... وكان بمقدور قسم من الذين أفرج عنهم أن يشكّلوا شعبية إضافية هي تربة خصبة لمساندته، أي بيريا. فهو كان يرغب في الحصول على شعبية إضافية..."

لن أصدّق أبداً أن كونستانتين سيمونوف، الكاتب الذي تعمّد بالنار على جبهات القتال والإنسان المستقيم إجمالاً كان صادقاً هنا حتى النهاية. فقد كان يعرف جيداً ماذا حصل ومتى حصل. إن ما كتبه هو نصف الحقيقة. هذا مع العلم أن قلائل قبله تجرّأوا على ذلك. لقد أصبح بيريا بالذات رمزاً للحرية بالنسبة للملايين من معتقلي الغولاغ، ولا يزال الكثيرون يذكرون ذلك حتى يومنا هذا. أما القول بأن المفوض الجديد قد فعل ذلك من أجل زيادة شعبيته، فهو ليس بالقول الجديد. فبعد وفاة والدي، لجأ زملاؤه في الأمس إلى فرض هذه الصورة بالذات على الناس. فقد كان من المستحيل تشويه هذا العمل الجيد في نظر الملايين من معتقلي الأمس، ولذا اضطرت القيادة الحزبية العليا إلى استخدام دوافع مفبركة، وإلا لماذا سعى "المتآمر" المقبل إلى تحرير الناس الأبرياء. إذاً كان بالتأكيد، يعد العدة للقيام بانقلاب. هراء، بالطبع، إلا أنه هراء فعل فعله. فكلما كبرت الكذبة سهل تمريرها... هكذا، كما أعتقد، كان غوبلز يعلّم رفاقه في الحزب النازي! وهكذا نرى، أن أساليب البيروقراطية الحزبية عندنا لم تكن تختلف بشيء عن تلك التي كان يستخدمها الهتلريون.

وحتى لو افترضنا، أن والدي كان يعدّ مخططات ما، فإن تحرير الملايين من الناس (والعدد كان بالملايين، بالفعل) يبقى ليس خطوة، بل قفزة نحو إعادة الحق إلى نصابه. إلا أن هذه أكاذيب، بالطبع، ولايوجد هنا أي أساس لاتهامه بأي شيء. آنئذٍ، في الأعوام ١٩٣٩ و١٩٤٠ و١٩٤١، قام بالفعل، ولنكن صادقين هنا أيضاً، بما لم يعد أحد يأمل به في هذه البلاد الشاسعة التي أضناها القمع. وقد تم لاحقاً، في فترة ١٩٤٢ - ١٩٤٣، إفراج إضافي عن أكثر من ١٥٧ ألف شخص أرسلوا إلى الجيش. إجمالاً خلال سنوات الحرب الثلاث، تم الإفراج عن ٩٧٥ ألف شخص أرسلوا إلى الجيش. ولم يقتصر الأمر، بالطبع، على الذين تعرّضوا للقمع لأسباب سياسية فحسب، بل كان بين هؤلاء محكومون بدعاوى إجرامية. وعبر هذا الطريق، وصل إلى الجيش أبطال الاتحاد السوفياتي المقبلون: بريؤسوف وأتستانوف وسيرجانتوف ويفيموف وسواهم...

ثمة أرقام أخرى أيضاً. فقد كان ٧٥٠ ألف معتقل مرشّحون للإجلاء، لتفادي وقوعهم تحت الاحتلال الألماني. وقد تم إطلاق سراح ٤٢٠ ألفاً منهم، أرسلوا مباشرة إلى الجيش. لكن، من المؤكد، أنه لم يكن بمقدور أحد في تلك اللحظة التاريخية تحرير جميع معتقلي الغولاغ الذين تعرّضوا للقمع على نحو مخالف للقانون. الأرقام الدقيقة ليست متوفرة حتى يومنا هذا. لكن من المعروف أنه في الأول من آذار/مارس ١٩٤٠ كان قد تم الإفراج عن ٢٨,٧٪ من أصل ١٦٦٨ ألف معتقل من معسكرات مفوضية الشؤون الداخلية بتهمة ارتكاب جرائم معادية للثورة. وإذا أخذنا بالاعتبار أن الإفراج عن هؤلاء الناس قد استمر بعد هذا التاريخ أيضاً، يغدو من المحتمل جداً أن تكون هذه النسبة قد أصبحت أكبر من ذلك بكثير، لحظة اندلاع الحرب.

يمكن القول، وبعض المصادر تؤكد ذلك، إنه كان يستحيل في العام ١٩٣٩ إنقاذ أرواح مئات الآلاف من الناس. فالعالم لم يعرف ولم يرتجف لما تعنيه كلمات " يُحرم من حق المراسلة لمدة عشر سنوات" إلا بعد مرور عشرات السنين. فالمعتقلون في عهد ياغودا ويجوف لم يكونوا يصلون إلى المعسكرات، بل كان يتم إعدامهم رمياً بالرصاص على الفور تقريباً. لاحقاً،

في أواسط الخمسينيات، أخذت أسرهم تتلقى إبلاغات بوفاة ذويهم، الذين لاقوا حتفهم، كما زعم، في معسكرات الغولاغ في السنوات ١٩٤١ و١٩٤٢ و١٩٤٣ والسنوات الأخرى من الحرب. إن رفات هؤلاء ترقد في الحقيقة في مقابر فترة الثلاثينيات الجماعية.

أذكّر بأن جميع هذه الجرائم قد اقتُرفت قبل أن يصبح والدي مفوضاً للشؤون الداخلية. إلا أن القيادة الحزبية العليا أفلحت في ربط هذه الصفحات المأساوية من تاريخنا باسم الشخص، الذي كانت صادقة في كرهه. وفي الوقت نفسه، لم يتم العثور على مقبرة جماعية واحدة للناس السوفيات الذين تعرّضوا للقمع، يعود تاريخها إلى ما بعد الفترة المذكورة. أما تلك المقابر الشهيرة جداً في أوكرانيا وفي بيلوروسيا وفي روسيا، فيعود تاريخها، بشكل أساس، إلى عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨، أي إلى الفترة التي كان يجوف يترأس فيها أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية.

في قراءة مجددة لمذكرات جوكوف طالعتني الأسطر التالية : "إن الاعتقالات الجماعية التي جرت في الجيش عام ١٩٣٧ لم تكن طبيعية،وكانت تتعارض مع جوهر النظام والوضع الناشىء في البلاد حتى ذلك العام.. لقد كانت اعتقالات غير مبررة ومخالفة للقوانين الاشتراكية. لقد تم اعتقال عسكريين مرموقين، مما ترك تأثيره، بالطبع، على تطور قواتنا المسلحة وقدراتها القتالية". إنني، مع كل الاحترام الذي أكنّ للقائد الشهير، لا أستطيع أن أوافق معه هنا. فالمعسكرات، والإعدامات رمياً بالرصاص، والملايين من الناس الذين تعرّضوا للقمع، والجرائم الشنيعة الأخرى كانت "تنسجم" عضوياً مع النظام التوتاليتاري. لقد كان النظام السوفياتي مجبولاً بالدم منذ البداية.

من الصعب القول ما إذا كان غيورغي كونستانتينوفيتش (جوكوف) قد كتب هذا أم لا[١]. إلا أنه كان، بدون شك، إنساناً مستقيماً لم يكن ليبرر العنف

(١) في إشارة من الكاتب إلى ما شاع لاحقاً بأن الطبعة الأولى من مذكرات جوكوف التي ظهرت في الستينيات حُذفت منها صفحات (قيل إنها حوالى المئة) وأضيفت إليها أخرى بما فيها المقاطع المتعلقة بالجيش الثامن عشر، حيث كان يخدم ليونيد بريجنيف-المترجم.

محذ من الأحوال. وكان يعرف جيداً من المسؤول عن الفظائع بحق شعبه. لكن من كان ليسمح له باتهام القيادة الحزبية العليا بذلك...

أما أن معسكرات الاعتقال والرهائن والإعدامات الجماعية رمياً بالرصاص، هي من صنع أيدي النظام، فهو أمر لا جدال فيه. هل تذكرون ما كان يقوله غورباتشوف عن الاشتراكية ذات الوجه الإنساني؟ كيف تريدون أن نفهم ذلك؟ أَوليست الضحايا الذين يتحمل الحزب البلشفي المسؤولية عنهم هم وجه تلك الاشتراكية، التي عشناها؟ إن ما جنته الديكتاتورية على هذا الشعب تقشعرُّ له الأبدان. ثم يحاولون إقناعنا بأننا قد حدنا عن الطريق القويم في ظل ستالين. إن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث ! إذ لم يكن لينين وتروتسكي وكامينيف وزينوفيف وريكوف أفضل منه. لكن لا ينبغي شخصنة الامور بالقول هذا سيِّيء وذاك سيِّيء، والنظام والآخرون لا علاقة لهم بالأمر. فهذا مستحيل. أنا لست سياسياً ولم أطمح أن أكون في يوم من الأيام. لكن الأمر، ومن وجهة نظري، يتخذ شكل السلسلة: هم يقتلون، ثم يأتي من يقضي عليهم بأيدي آخرين... فأي وجه إنساني هذا لمثل هذه الاشتراكية؟

بعض المؤرخين يعترفون بأن قرار إدانة حملات القمع الجماعي قد اتُّخذ من قبل اللجنة المركزية (اتخذ بمبادرة من والدي)، إلا أنهم يؤكدون أن المحاكمات السياسية المغلقة استمرت في عهده. هذا كذب، فالأمر الوحيد الذي لم يتمكن من الوصول به حتى النهاية هو الإفراج الفوري عن الناس الذين صدرت بحقهم أحكام من قبل المحاكم العسكرية والمحكمة العليا. فإعادة النظر بهذه القضايا كانت تتطلب وقتاً وأدلة أكثر حسية على أن هؤلاء الناس أبرياء.

من المفهوم كلياً، أن عمليات الاعتقال قد تواصلت وإن كانت على نطاق أضيق، في العامين ١٩٣٩ و١٩٤٠، إنما ليس بمبادرة من مفوضية الشؤون الداخلية، بل بناء على طلب القسم التنظيمي في اللجنة المركزية وتوجيهات ستالين الشخصية وقرارات المكتب السياسي. كما أنه صحيح أيضاً أن من كان يتأخر عن العمل لمدة تزيد على عشرين دقيقة أو يتغيب عن العمل كان يُزج به في معسكرات الاعتقال. منهم من كان يعتقل لمدة أشهر ومنهم من كان يعتقل لسنوات. إنني أوافق على أنَّ ذلك ما كان ينبغي أن يحصل، لكن تعالوا نبحث

لماذا حصل ذلك على هذا النحو. في ١٠ آب/أغسطس ١٩٤٠ أقرت هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي مرسوماً يتعلق بالأشخاص الذين يقدمون على مخالفة نظام العمل. وبالتالي فإن السبب في ذلك لا يعود إلى أمر صادر عن مفوضية الشؤون الداخلية وموقّع من قبل المفوض أو من قبل نوابه، كما أنه لا يعود أيضاً إلى وثيقة أبصرت النور في أقبية الجهاز التأديبي، بل يعود إلى مرسوم صادر عن هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى. ماذا كان بوسع مفوض الشعب أن يغيّر في مثل هذا الوضع؟ أو ماذا كان بوسع أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية المعنية أن تفعل؟ على كلٍّ، ليس سراً أن هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى نفسها ليست إلا على علاقة جانبية بهذه الوثيقة الرهيبة، إذ إن الأمر كله كان بيد القيادة الحزبية العليا...

ومع ذلك فقد تمكّن المفوض الجديد، كما قلت سابقاً، من تحقيق شيء ما. فلماذا لم يتم، مثلاً، إعدام مصمم الطائرات توبليف، الذي كان محكوماً بالإعدام؟ وماذا عن بوريس لفوفيتش فانّيكوف[1] الذي كان ينتظر في زنزانة السجن تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص، الذي كان قد صدر الحكم بحقه! وأذكر أن والدي قد حدّثني كيف تذكّر ستالين فانيكوف بقوله: للأسف إنه ليس في عداد الأحياء، إنه هو من نفتقد إليه الآن... أما فانيكوف فكان ما يزال على قيد الحياة رغم كل شيء. وكان والدي يعرف ذلك جيداً، إذ كانت المماطلة في تنفيذ حكم الإعدام تتم بأمر مباشر منه. وأجاب والدي قائلاً: "كل شيء جائز..." وسرعان ما أصبح فانيكوف مفوضاً للشعب، ومنح لاحقاً لقب "بطل العمل الاشتراكي" ثلاث مرات.

كم من العلماء والعسكريين تم إنقاذهم آنئذ! كان تيموشينكو وجوكوف يقضيان الساعات في مكتب والدي يضعان قوائم بأسماء الضباط والجنرالات الذين ينبغي إطلاق سراحهم. فقد كان مئات الآلاف من الناس الأبرياء يرزحون في المعتقلات آنئذٍ!.

---

(١) كان مهندساً مرموقاً في حقل المدفعية. تولّى حقائب وزارية أكثر من مرة قبل وفاته في العام ١٩٦٢-المترجم.

وإليكم مثال آخر: قبل اندلاع الحرب مباشرة، جرى في شهر حزيران/ يونيو اعتقال كل من قائد سلاح الطيران والمفتش الرئيس في هذا السلاح وقائد قوات الدفاع الجوي: ريتشاغوف وشموشكايفتش وشتارن. لكن من قام بذلك؟ لقد قامت الأركان العامة ومفوض الشعب تيموشنكو بالتحقق من الاستعداد القتالي لدى وحدات الدفاع الجوي والطيران. وقام العسكريون أنفسهم بإبلاغ اللجنة المركزية بنتائج مهمتهم. وقد جرى تشكيل لجنة ترأسها، إن لم أخطىء، جدانوف. وكانت تضم فوروشيلوف الذي كان في الماضي غير البعيد مفوضاً للدفاع. لست أدري كم كانت جدية مسؤولية الجنرالات الذين اتُّهموا بعدم تنفيذ توجيهات مفوضية الدفاع واللجنة المركزية وتم إبعادهم عن مناصبهم وتوقيفهم. لكن من المفهوم تماماً، في كل حال، أنه لم يكن لمفوض الشؤون الداخلية أية علاقة بالأمر. وحين برزت فيما بعد إخفاقات المرحلة الأولى من الحرب، لم يشكك أحد في هذا الحكم مطلقاً، إذ إن الدفاع الجوي والطيران لم يكونا، للأسف،عند حسن الظن بعملهما. لكن أكرر، بأنني لا آخذ على عاتقي الحكم على هؤلاء الناس، ولم آتِ على ذكرهم إلا لأنهم كثيراً ما ينسبون عمليات اعتقال العسكريين إلى بيريا أيضاً، في حين أن العسكريين كانوا يحاكمون من قبل المحاكم العسكرية والغرفة العسكرية في المحكمة العليا فقط.

لقد تأتى لي، أنا شخصياً، أن أعمل مع أشخاص أصابهم أذى الاضطهاد، وكان موقفي منهم دائماً موقف والدي نفسه. فقد كان يعمل في مكتبنا للتصميم كثير من الناس الذين أعدم آباؤهم رمياً بالرصاص، شأن راسبلاتين، مثلاً. فقد كان والده تاجراً من مدينة ريبينسك، وتم إعدامه رمياً بالرصاص في العام ١٩١٨. وقد أصبح هذا العالِم الكبير أكاديمياً فيما بعد وترأس المؤسسة التي كنت أعمل فيها في ذلك الحين.

بين الكثيرين، ممن كانت سيرتهم الذاتية تثير أعصاب الموظفين الحزبيين، وفَّرت العمل لمهندس وأستاذ جامعي موهوب. كان والده من الكولاك الذين انتزعت ملكيتهم وتم إبعاده عن أوكرانيا، ثم أُعدم لاحقاً رمياً بالرصاص. إلا أن ذلك لم يمنع الابن من إنهاء دراسته في المعهد والحصول على الدكتوراه، ومن ثم ممارسة التعليم في الأكاديمية العسكرية.

فرغ صبر الأجهزة الحزبية في نهاية المطاف، وتم استدعائي إلى القسم التنظيمي في اللجنة المركزية، حيث قالوا صراحة إنني أخبىء أشخاصاً مريبين لا ينبغي أن يكونوا في مثل هذه المؤسسة السرية. وكان والدي في ذلك الحين عضواً في المكتب السياسي ونائباً أول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي. هكذا جرى أيضاً في عهد أباكوموف، وفي عهد إيغناتييف الذي ترأس الأجهزة الأمنية بعد اعتقال أباكوموف.

اصطدمت في ذلك الحين بمشكلة كادر حقيقية. كنت أجد الأشخاص المناسبين ممن يتمتعون بالذكاء والموهبة ويبشرون بمستقبل ناجح. إلا أن التعليمات كانت تمنعني من أخذهم للعمل. فسيرة حياة معظمهم لم تكن "السيرة الملائمة". وكان الجميع تقريباً قد خاضوا غمار الحرب، وهم من الضباط وخرّيجي الأكاديميات. فلو كنت، كرئيس لمجموعة العلماء والمصممين، طبّقتُ التوجيهات الحزبية، لما كان بوسعنا أخذ شخص واحد من أولئك الذين كنا بحاجة إليهم. كنت أخرق التعليمات. لكن ليس الكل، بالتأكيد، كانوا يقدمون على ذلك. فالمسؤول، الذي كان يخاف على مستقبله الوظيفي، لم يكن، بالطبع، يقدم على أمور مشابهة. إنني اليوم، وبعد مضيّ سنوات عديدة، ما زلت على قناعة عميقة بأنني كنت على صواب في تصرفي. أما في ذلك الحين فكنت بكل بساطة أفعل ما كان يفعله والدي دون الالتفات إلى العواقب.

أتذكر في هذا الصدد حديثاً جرى بيني وبين مالينكوف، الذي استدعاني وقال في حضور رئيس القسم التنظيمي للجنة المركزية وحضور عاملين حزبيين آخرين:

- إن الرفاق في قسمنا مصيبون كلياً حين ينبهونك إلى أنك تخرق الإرشادات المعمول بها، إلا أنني أعتبر أنك تتصرّف على نحو سليم.

لقد كانت هذه لعبة، بالطبع، فابن الجهاز الحزبي، الأباراتشيك (APPARATCHIC)[1] مالينكوف كان هو نفسه من بين أولئك الذين يضعون مثل هذه الإرشادات.

(١) وهي الكلمة التي أصبحت شائعة في جميع اللغات تقريباً. وتعني حرفياً الشخص العامل في جهاز ما. لكنها تستخدم عادة للإشارة إلى المواصفات السيئة للشخص الذي كان يعمل في الأجهزة الحزبية والحكومية في الاتحاد السوفياتي السابق - المترجم.

إن نفاق البارتوقراطية (Partocratie) لم يعرف حدوداً في يوم من الأيام. كان يعمل لديَّ شخص باسم كوشليكوف. كان عالِم رياضيات لامعاً وإنساناً رائعاً. يكفي أن أشير إلى أن اختلاطي به ساعدني لاحقاً على قراءة محاضرات في الفيزياء الرياضية لطلاب الدكتوراه في جامعة الأورال في سفردلوفسك، دون أن تتوافر لديَّ مثل هذه المحاضرات.

حين أصبح خطر احتلال لينينغراد خطراً واقعياً، طرحت على بساط البحث مسألة إنقاذ الثروات الثقافية والتاريخية في المدينة. وحين صدرت فيما بعد أحكام بالسجن لمدة طويلة بحق كوشليكوف وسواه من علماء لينينغراد البارزين بتهمة التعاون مع العدو، صوّروا القضية وكأنَّ بروفسوري لينينغراد أنشأوا في المدينة حكومة كانت ستقيم اتصالاً مع الألمان بعد دخولهم المدينة، أي أنهم باختصار خونة الوطن. أما في الحقيقة، فقد كان كل شيء يجري بمعرفة اللجنة المركزية. وأنا أعرف أنه تم تشكيل مثل هذه الحكومة في بيلوروسيا أيضاً من أجل التعاون مع الألمان. والمغزى من وراء ذلك يتلخّص في أن الألمان سوف يقومون، لا محالة، بتشكيل مثل هذه الأجهزة، ومن الأفضل، والحال كذلك، إدخال من يجب إدخاله فيها. وهذا ما حصل في لينينغراد. ومع ذلك أراد جدانوف تعليق هؤلاء الناس على أعواد المشانق. ومعجزة فقط هي التي أنقذت حياة كوشليكوف. كان جدانوف، كما هي الحال دائماً، يلعب لعبته الخاصة التي لا تقيم لحياة الناس أي وزن مطلقاً. فقد شكّلوا هذه الحكومة حين كان يجب تشكيلها. وحين رغبوا في تقديم أعداء للشعب، قدّموا أولئك الناس الذين أقنعوهم بالانخراط في هذه المغامرة.

بعد الحرب لم تكن تلك الإرشادات نفسها تسمح لي بإشراك الأشخاص الذين كانوا يعيشون في الأراضي المحتلة بالأعمال السرية. أستميحكم عذراً لأقول: من الذي ترك ملايين وملايين الناس في الأراضي المحتلة؟ هذا السؤال لا يمثّل أية أهمية بالنسبة للحزب. كيف وسعني الأمر؟ فها أنا قد خرقت هذا التوجيه أيضاً.

إجمالاً، لو نُبشت الآن جميع تلك الوثائق القديمة ونُشرت على الملأ

لأصبحت جميع الأمور جلية. وليس تلك الوثائق، فحسب. فمحضر اجتماع تموز/يوليو الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٥٣، على سبيل المثال، لم يُنشر إلا في العام ١٩٩١. ولماذا لا ينشر محضر الاجتماع الموسع الذي تم خلاله إخراج مولوتوف وميكويان من اللجنة المركزية. وقد أعيد هذان إلى اللجنة المركزية مجدّداً بعد موت ستالين وبناءً على اقتراح من مالينكوف ومن والدي. لكن الأسباب التي دفعت ستالين إلى عزلهما تبقى أحجية. ثمة من يؤكد أن محضر الاجتماع المذكور للجنة المركزية مفقود. أليس الأمر غريباً؟ إنني أتجرأ على التأكيد أن تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي لم يكتب بعد. ولم يَجر بعد الكشف عن كل ما يجب كشفه عن علاقة الحزب البلشفي بحملات القمع الجماعي.

بعد وفاة ستالين، أقنعوا والدي بترؤس الوزارة الموحدة للشؤون الداخلية. وكما هو معروف، فإن قيامه بأعباء هذا المنصب لم يدم طويلاً؛ إلا أن خطوات جدية قد اتُخذت لإعادة نشر العدالة. وكان قد سبق له أن اقترح قبل الحرب وضع كل السجون والمعسكرات في عهدة وزارة العدل. وردّ ستالين في حينها بأنه يمكن الإقدام على ذلك من حيث المبدأ، إلا أنه ينبغي تأجيل الأمر مؤقتاً لأن الحرب كانت قد اقتربت.

في عام ١٩٥٣، طرح والدي الموضوع مجدداً أمام هيئة رئاسة اللجنة المركزية. ويبدو أن حججه كانت مقنعة، فتم إقرار الاقتراح. لكن، للأسف، عادت الأمور إلى حيث كانت، كما هو معروف، إذ إن أجهزة تنفيذ العقوبات تتبع اليوم وزارة الداخلية في كل من روسيا وأوكرانيا وبيلوروسيا وفي كل الجمهوريات السوفياتية السابقة. وقد كان والدي يعتبر أن الأمر لا ينبغي أن يكون على هذا النحو، إذ إن مهمة أجهزة وزارة الداخلية تقوم بالكشف عن الجرائم وليس في سجن المحكومين.

وفي عام ١٩٥٣، وبعد وفاة ستالين مباشرة، تم بمبادرة من والدي إصدار عفو واسع النطاق. لكن حتى هذا العمل الإنساني قلبوه اليوم ضده. وقد أقرت هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في حينه المرسوم المتعلق بهذا العفو.

وكان والدي يعتبر أنه ينبغي إطلاق سراح جميع من تعرّضوا للقمع ومن صدرت بحقهم أحكام بسبب جرائم بسيطة، وكان يرى أنه يضع بذلك حدّاً نهائياً - وإلى الأبد!- لجميع التيارات المعادية للثورة وللجرائم والأعداء الوهميين وغير الوهميين. وكان ينبغي، برأي والدي، عدم الاكتفاء بإطلاق سراح الناس من معسكرات الاعتقال، بل أن يُعاد إلى ملايين الناس، الذين لم تكتب لهم الحياة إلى حين إحقاق الحق، ذكرهم الطيب.

كان والدي يرى أنه ينبغي تشكيل لجنة خاصة من اللجنة المركزية تقوم خلال ثلاثة أو أربعة أشهر بمعالجة هذه المسألة، وكان يفترض أن تتحمّل العبء الأساس في ذلك كل من وزارة العدل والأجهزة القضائية وأجهزة النيابة العامة في المناطق المعنية. فقد كان على هذه الأجهزة بالذات، أن تقوم خلال وقت قصير بالتدقيق في مصير كل سجين. وبالتالي لم تكن توجد أية ضرورة قط لانتظار المؤتمر العشرين، إذ كانت قد اقتُرحت آلية ملموسة لتنفيذ هذه المقترحات.

لقد تم تشكيل اللجنة، وعكفت مع وزارة العدل على معالجة هذه المسائل. ووقّع فوروشيلوف مرسوم العفو. وأخذوا يزرعون في أذهان الناس لاحقاً أن "بيريا أطلق سراح أصحاب السوابق". فقد كان الأمر يتعلق بإطلاق سراح ضحايا النظام الأبرياء وليس أصحاب السوابق. لكن ما علاقة بيريا بالأمر؟ فوزارة الشؤون الداخلية كانت تقوم، وكما يُفترض بها، بإطلاق سراح تلك الفئات من المساجين، بموجب قرارات الحكومة ووزارة العدل. ويتساءل المرء، لماذا تم العفو عن أولئك المحكومين بجرائم كبيرة ؟

إجمالاً يبدو الأمر طريفاً. فحين كان يتطرق الحديث إلى إطلاق سراح معتقلي الغولاغ، كانوا بالضرورة يشدّدون على أن الحزب هو الذي قام بذلك. وحين كان ينبغي "توريط" بيريا، كانوا يعبّرون عن الأسف بصدد "عفو بيريا". وهكذا، للأسف في جميع القضايا...

كان والدي يرى أن وظائف وزارة الداخلية ينبغي تقليصها إجمالاً. إذ ينبغي

أن تتولّى العمليات وحراسة المعسكرات بالطبع، لكن ليس التحقيقات. وكان يشرح رأيه هذا وأسباب هذا الطرح. وقد انطلق في الاتحاد السوفياتي منذ عدة سنوات نقاش حول هذا الموضوع. حتى أنني أذكر أنه تم اقتراح إنشاء لجنة خاصة بالتحقيقات. لكن الأمر تعطل لسبب ما. وكما أعرف، لا ينوي أحد تنفيذ هذا الاقتراح حتى بعد سقوط الاتحاد السوفياتي. وهذا أمر مؤسف. فالأمر مفهوم لماذا لم يكن هذا الاقتراح يناسب البنى الحزبية. فقد كان الحزب يدرك أن التحكم بمصائر الناس أسهل دون ذلك... لكن ما الذي يحول دون سلوك طريق حضارية الآن؟

وفي عام ١٩٥٣، أيضاً، تقدّم والدي بمقترحات مهمة تتعلق بإعادة بناء جهاز الدولة ومجلس الوزراء على وجه الخصوص. فمثلاً، كان كاختصاصيّ يرى أن وزارة الداخلية ينبغي أن تصبح جهازاً تحليلياً في المقام الأول، وتقدّم المعلومات للوزارات والإدارات، وتساعدها في معالجة هذه المسائل الملموسة أو تلك. فليس سراً أن مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) ووزارة أمن الدولة (MGB) ولجنة أمن الدولة (KGB) كانت تتميز دوماً بسعة معلوماتها...

في تلك الأشهر، لم يكن والدي يتواجد تقريباً في لوبيانكا، بل كان يقضي الوقت كله في مكتبه في مبنى مجلس الوزراء. ولم يكن يُخفي ارتياحه لردة فعل أعضاء القيادة العليا على مقترحاته المتعددة. إلا أنه لم يكن ليتنبأ كيف سينقلب ذلك كله. فالقيادة الحزبية العليا، وكما تبين لاحقاً، لم تكن راغبة في إحداث تغييرات جذرية.

لم يكن والدي يرغب في البقاء طويلاً في وزارة الداخلية، وكانوا يقولون له:

- ترأس وزارة الداخلية في مرحلة إعادة التنظيم الرئيسية فقط.

وكان يؤكد له كل من خروتشوف ومالينكوف بقولهما:

- بالطبع، تعيد الأمور إلى نصابها بعد ايغناتييف، ثم تتنحّى.

سيمون إيغناتييف، الذي تولّى وزارة أمن الدولة (MGB) بين العامين ١٩٥١

و١٩٥٣، أُقيل من منصبه باقتراح من والدي. فقد كان هذا الشخص متورطاً في القمع الذي جرى بعد الحرب، وفي فبركة " قضية لينينغراد" و"قضية الأطباء". وأعتقد أنهم كانوا ينوون اعتقاله ليحولوا دون تسرب المعلومات، الأمر الذي لم تكن ترغب فيه القيادة الحزبية العليا. لكن حين قتلوا والدي أوقفوا كلَّ التدابير...

لو قُدّر لوالدي أن يبقى على قيد الحياة، لكان من الممكن، حتى في ذلك الحين، تغيير الكثير من الأمور، على الأقلّ في وزارة الداخلية. فهذه المؤسسة، كما كان يرى هو، لا ينبغي أن تحمل طابعاً بوليسياً. فوزارات الداخلية في الجمهوريات كانت تتمتع بقدرات هائلة، وكان بوسعها أن تصبح أجهزة تحليلية تعمل لصالح الاقتصاد الوطني. فالجهاز الحزبي الذي كان دوماً يعرف كل شيء، لم يعمد في يوم من الأيام إلى تقديم صورة متكاملة عما يجري. وكان بمقدور وزارة الداخلية تقديم مثل هذا التحليل.

كان والدي يقول:

- يجدر بنا أن نُعمل فكرنا لا أن نتعقب الناس ونحن نشهر المسدس.

وقد ذكّروه بذلك في الاجتماع الموسع ذاك... فقد تم توجيه اللوم إليه بالادعاء بأنه قد أهمل العمل في مكافحة الجاسوسية.

لقد كان الحزب، كما في السابق، بحاجة إلى "أعداء الشعب"...هذا في حين أنه توجد وثائق تشير إلى الاستنتاجات التي توصّل إليها والدي أثناء تولّيه وزارة الداخلية، والتي تقول إنَّ المخابرات السياسية الداخلية متضخمة، في حين أن الخارجية تعمّها الفوضى. وقد اقترح آنئذٍ تخفيض عدد العاملين في جهاز أمن الدولة عشر مرات. إنني أذكر هذا الرقم جيداً. إضافة إلى ذلك، كان والدي يُصرّ على تخفيض عدد الحرس الشخصي لأعضاء القيادة العليا إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص. وكان يجب، برأيه، إحلال البوليس العادي محلّ حرس الكرملين ومجلس الوزراء واللجنة المركزية، وإعادة النظر بحراسة الوزارات والإدارات والمؤسسات المختلفة. وبقدر ما أذكر، فقد كان الحديث

يدور حول ٣٥٠ ألف شخص. فلم تكن توجد حتى في ذلك الحين أية ضرورة لاستخدام العسكريين على هذا النحو.

أعتقد أن منطق الأمور قد فرض اقتراحاً آخر تقدّم به والدي ويقضي بإلغاء مراكز أمن الدولة في المناطق. فقد كان يعتبر أن الأقسام والمديريات في الأقاليم تفي بالغرض كلياً. فمن المعروف أن أقسام الكي.جي.بي. كانت موجودة في كل منطقة من مناطق البلاد حتى اللحظة الأخيرة.

اقترح والدي توجيه الموارد، التي يتمُّ توفيرها بنتيجة هذه الإجراءات، لتعزيز قوات حرس الحدود وتجهيزها بالتقنيات الحديثة وتحسين ظروف الخدمة الصعبة لهؤلاء الناس. فقد كان الوضع في البلاد يسمح كلياً بالإقدام على تخفيض جدّي لعدد العاملين في الأجهزة الأمنية. إلا أن اللجنة المركزية، وكما كان متوقعاً، لم يكن يناسبها الأمر...

كان والدي يُصرّ، في تلك المرحلة، على إنشاء مديريات مخابرات في القوات الجوية وفي الأسطول البحري. فقد أثبتت مثل هذه المديريات، بالمناسبة، فاعلية لا بأس بها في الجيش الأميركي. وكان ينبغي أن تخضع هذه المديريات، بالإضافة إلى المديرية العامة للمخابرات، لإمرة الأركان العامة وأركان أسلحة القوات المسلحة، وذلك تماماً على غرار الأجهزة العسكرية لمكافحة الجاسوسية. وكان قد تم ذلك في حينه باقتراح من والدي. سوف يمرّ الزمن وتعود الأمور إلى نصابها، ونكتشف أنه، خلال العقود الأخيرة من الزمن، كانت الأقسام الخاصة في الكي.جي.بي. هي التي توفر أمن القوات المسلحة، وليس الأجهزة العسكرية لمكافحة الجاسوسية، الأمر الذي كان يعترض عليه والدي دوماً. ويمكن إيراد عدد غير قليل من الأمثلة على ذلك. ويتضح لي على نحو مطلق اليوم، أنهم قد منعوه، بكل بساطة، من إنجاز العمل الذي بدأ.

لا تعني للقارئ المعاصر شيئاً أسماء مثل ميركولوف وكروغلوف وسيروف، في حين أنه من المعروف أن هؤلاء الناس بالذات كانوا أقرب

مساعدين لوالدي، وترأسوا في أوقات مختلفة مفوضية أمن الدولة (NKGB) ووزارة الداخلية (MVD) والكي.جي.بي...

كنت أعرف ميركولوف. لقد تولّى مفوضية الشؤون الداخلية في فترة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٦. وبعض المصادر تؤكد أنه قد شغل هذا المنصب لمدة ستة أشهر عام ١٩٤١ أيضاً.

كان فسيفولود نيكولايفتش (ميركولوف) شخصاً صاحب علم وثقافة. فقد كانت مسرحياته تعرض على خشبات المسارح في البلاد، وحتى على خشبة "مالي تياتر" الشهير، لكن تحت اسم مستعار هو فسيفولود روك. إجمالاً كان يميل إلى الفنون، فقد كان يمارس التصوير الفوتوغرافي جيداً، وقد صوّر أفلاماً سينمائية.

عرف والدي ميركولوف سنوات طويلة خلال عملهما معاً في جورجيا. وحين نُقل والدي إلى موسكو اصطحب ميركولوف، وجعله النائب الأول في مفوضية الشؤون الداخلية. وقد ترأس ميركولوف لاحقاً أجهزة أمن الدولة. في العام ١٩٤٦، عزلوه من منصبه وكانت الحجة الشكلية لهذا القرار هي التالية : ضعف استخدام التقنيات في الاستخبارات. ويبدو أنهم لم يتمكنوا من ابتكار شيء آخر. ولم يكن ميركولوف يناسب اللجنة المركزية لأنه كان إنساناً مثقفاً، بالفعل. لقد كان ستالين وكانت القيادة الحزبية العليا بحاجة إلى قائد آخر للأجهزة الأمنية... أما ميركولوف، فقد جعلوه وزيراً للرقابة الحكومية؛ وتولّى أباكوموف وزارة أمن الدولة (MGB).

يمكن القول إن ميروكولوف قُتل لسبب وحيد هو أنه عمل لسنوات عدة مع والدي. إنني أحتفظ بأفضل الذكريات عن فسيفولود نيكولايفيتش. كما كان والدي يقدّره تقديراً عالياً جداً أيضاً.

بين المساعدين الذين كانوا لسنوات طويلة مقرّبين من والدي أيضاً، كان سيرغي نيكيفوروفيتش كروغلوف. بعد وفاة والدي تم تعيينه وزيراً للداخلية في الاتحاد السوفياتي. وأذكّر بأن وزارة الداخلية في تلك المرحلة كانت تضم أجهزة أمن الدولة أيضاً.

معلومات مستقاة من مصادر رسمية:

سيرغي كروغلوف: وزير داخلية الاتحاد السوفياتي في فترة ١٩٤٥-١٩٥٦. ولد في العام ١٩٠٧. عمل في الزراعة. خدم في الجيش وسرّح في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٠. وفي العام ١٩٣١، دخل معهد موسكو التربوي الصناعي الذي يحمل اسم ليبكنيخت. بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٥ كان طالباً في القسم الياباني في معهد موسكو للاستشراق. بعد التخرج أُرسل للدراسة في معهد البروفوسريين الحمر. في نهاية العام ١٩٣٧، أصبح مسؤولاً تنظيمياً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي. في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، تم تعيينه من قبل اللجنة المركزية مفوضاً خاصاً في مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي. في الثانية والثلاثين من العمر، أصبح نائباً لمفوض الشؤون الداخلية وعضواً مرشحاً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي. في المؤتمر التاسع عشر للحزب، انتُخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي.

في تموز/يوليو ١٩٤١، أصبح عضواً في المجلس الحربي لجبهة الاحتياط. وفي تشرين الأول/أكتوبر من العام نفسه، تم تعيينه رئيساً لمديرية التشييد الدفاعي، وقائداً لجيش الهندسة الرابع. في نيسان/إبريل - أيار/مايو من العام ١٩٤٥، تم إيفاده إلى الولايات المتحدة الأميركية للمشاركة في الإعداد لعقد مؤتمر سان فرنسيسكو لوضع ميثاق منظمة الأمم المتحدة. شارك في تنظيم حماية وفود حكومات كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا في مؤتمري القرم وبوتسدام. تقديراً لمشاركته هذه مُنح وسام الاستحقاق البريطاني ووسام جوقة الشرف الاميركي.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥، وبعد صدور مرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى بإعفاء ل.ب. بيريا من مهمات مفوض الشؤون الداخلية، تم تعيين س.ن. كروغلوف في هذا المنصب، ثم إعفاؤه منه في شباط/فبراير ١٩٥٦. وقد وجدت اللجنة الحكومية التي شُكّلت بمناسبة التسلّم والتسليم في الوزارة (الوزير الجديد أصبح نيكولاي دودوروف، الذي كان يتولى قبل ذلك رئاسة قسم البناء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي)، أن "وزارة داخلية الاتحاد السوفياتي تنفّذ على نحو غير مرض المهمات المطروحة أمامها من قبل الحزب والحكومة. إن الوزير السابق الرفيق كروغلوف وأعضاء القيادة العليا وسواهم من كبار العاملين في وزارة داخلية الاتحاد السوفياتي لم يقوموا بالاستنتاجات الضرورية من مقررات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٥٣... ويغلب على عمل وزارة داخلية الاتحاد السوفياتي الطابع المكتبي البيروقراطي في قيادة الأجهزة

المحلية للوزارة. كما أن النقد والنقد الذاتي غير متطوِّرَين في الوزارة. لقد دفعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، بقراراتها الصادرة في ١٢ آذار/مارس و١٠ تموز/يوليو ١٩٥٤، قيادة وزارة داخلية الاتحاد السوفياتي إلى تحسين العمل على نحو جذري في اعادة تربية المساجين عن طريق تشديد نظام اعتقالهم وتعويدهم العمل الاجتماعي المفيد. إن قيادة وزارة داخلية الاتحاد لسوفياتي اظهرت عدم المسؤولية في تطبيق هذه المقررات، فلم تفعل شيئاً بشأن نظام اعتقال المحكومين في امكنة اعتقالهم، ولم تنجح في مهمة التنظيم السليم لتربية حب العمل فيهم.

عملت اللجنة الحكومية برئاسة سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أ.ب. أريستوف عدة أيام دون أن تكشف عن أية هفوات شخصية جدية للوزير. إلا أن المسألة كانت قد حُسمت. فقبل المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي بعدة أيام، تمّ نقله إلى عمل آخر أدنى رتبة. ثمّ تم تعيينه نائباً لوزير بناء المحطات الكهربائية.

وفي آب/أغسطس ١٩٥٧، تم مجدداً نقل الوزير السابق إلى عمل أدنى رتبة مما في السابق، إذ تم تعيينه نائباً لرئيس منطقة كيروف الاقتصادية الإدارية. وفي تموز/يوليو ١٩٥٨ قاموا بتسريح كروغلوف من وظيفته، وألحقوه بفئة العاجزين عن العمل.

سيرة حياة غريبة... أُضيف فقط، أنه في كانون الثاني/يناير ١٩٦٠ قامت لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بفصل الجنرال - كولونيل المتقاعد (كروغلوف) من الحزب.

توفي س.ن. كروغلوف في حزيران/يونيو ١٩٧٧.

توجد روايتان متداولتان حول وفاته. يؤكد روي ميدفيديف أن وزير الداخلية السابق انتحر بإطلاق النار على نفسه، دون أن ينتظر انتهاء التحقيقات في الجرائم المرتكبة من قبل وحدات مفوضية الشؤون الداخلية خلال إجلاء سكان تشيتشينا-أنغوشيا في العام ١٩٤٤.

فقد زعم أنه تمّ آنئذٍ تدمير إحدى القرى التي رفض سكانها الانصياع لأمر

الإجلاء. وقد تم تحميل كروغلوف المسؤولية عن أعمال العسكريين التابعين لمفوضية الشؤون الداخلية. الرواية الأخرى، وهي رواية رسمية، تقول إن الجنرال -كولونيل قد صدمه قطار.

يرى المؤرخون الجديون أن الأمر كان على هذا النحو بالفعل. و يؤكد رُويْ ميدفيديف أنه قد تم إجراء تحقيق[1] في تلك السنة نفسها التي استُشهد فيها س.ن. كروغلوف. تحقيق أواخر السبعينيات؟ لم يتم إجراء أي تحقيق، بالطبع، ولم يكن في نية أحد، بعد مرور ثلاثة عقود على المأساة المنسية، أو بمعنى أدق المأساة التي شُطبت من التاريخ الرسمي، تقديم الوزير السابق للمحاكمة. تذكّروا: أنَّ أحد المتورطين في الجريمة ميخائيل أندرييفتش سوسلوف قد أنهى حياته متربعاً على عرش السلطة في الكرملين. فما جدوى الإعلان عن مسؤولية مُقعَد متقاعد منسيّ من الجميع. أغلب الظن أن روي ميدفيديف، وكما في أغلب الأحيان، قد جانب الحقيقة، بكل بساطة. وبالمناسبة، فإن حادثة إطلاق النار على سكان القرية، التي زعم أن مرؤوسي كروغلوف قد شاركوا فيها غير صحيحة. إن إجلاء شعوب بكاملها هو بذاته جريمة فظيعة من قبل النظام. فهل يستحق الأمر اللجوء إلى الكذب في التفاصيل؟

عرف والدي كروغلوف منذ كان يعمل في جورجيا. فقد كان كروغلوف يعمل في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي ويشرف على الأمور المتعلقة بجمهوريتنا. وكان يتردد إلى جورجيا كثيراً، بالطبع، وكان والدي يعتبره إنساناً موضوعياً وبعيداً كل البعد عن الشوفينية، وهي الخطيئة ـ وهذا ليس سراً ـ التي كان يرتكبها الأشخاص العاملون في الجهاز الحزبي المركزي. بعد الانتقال إلى موسكو، وحين كان ينبغي استبدال المساعدين المقربين من يجوف، وقع اختيار والدي على كروغلوف. ووافقت اللجنة المركزية على ذلك، وسرعان ما تم تعيين كروغلوف عضواً في لجنة أ.أ. أندرييف، التي تولت التحقيق في عمل مفوضية الشؤون الداخلية في ظل يجوف. وقد أصبح واضحاً حينئذٍ أن كروغلوف سوف يصبح المساعد الأقرب لوالدي. لكن سرغي نيكيفو روفيتش

(١) التحقيق حول تدمير القرية ـ المترجم.

نفسه لم يعط موافقته فوراً، متذرعاً بجهله خصوصية هذا العمل. وقد تمكّن والدي من إقناعه، وتم تعيينه. وحين تم في شباط/فبراير ١٩٤١ تقسيم مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي إلى مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) ومفوضية أمن الدولة (NKGB)، قرر والدي ترك الأجهزة، واقترح تعيين كروغلوف مفوضاً للشؤون الداخلية. لكن المكتب السياسي لم يوافق على الاقتراح. وبقي كروغلوف نائباً لوالدي. وقبل اندلاع الحرب بيومين، أُعيد من جديد توحيد مفوضية الشؤون الداخلية مع لجنة أمن الدولة في مفوضية واحدة.

كانت كل قيادة العمليات في المفوضية الموحدة تقع على عاتق كروغلوف. ولم تكن توجد على حد علمي أية ملاحظات على أدائه.

كان كروغلوف يتردد كثيراً إلى بيتنا. وكانت تربطنا علاقة صداقة مع أسرته أيضاً.

بقي في ذاكرتي إنساناً متواضعاً للغاية. أذكر أيضاً زوجته المدرّسة.

بعد وفاة ستالين مباشرة قمت، عدة مرات، بزيارة أحد الرفاق في بيت الاستجمام في بارفيخ. وكان كروغلوف يقضي فترة علاج هناك أيضاً. كنا نتحدث طوال ساعات حين نلتقي. كما كان يلتقي والدتي بعد وفاة والدي أيضاً.

كان يخاطب والدتي قائلاً:

- لا تلتفتي إلى ما يقولون عن لافرنتي بافلوفيتش، يا نينا. فهذا كله محض ثرثرة.

وكانت والدتي تجيبه:

- أعرف جيداً كل شيء.

وقد حدّثنا كروغلوف آنئذٍ كيف حاول، بعد ما يسمّى "بتوقيف بيريا"، مقابلته والتحدث إليه. إلا أنهم كانوا ينهرونه، وهو وزير داخلية الاتحاد السوفياتي، بقولهم: "ممنوع!".

قال سيرغي نيكيوغورفيتش (كروغلوف):

- كم حاولنا، أنا وسيروف، مع المكتب السياسي للإذن لنا بلقائه، إلا أننا لم نتمكن من رؤيته. ومفهوم ما يعني ذلك...

لسبب ما لا يعير المؤرخون اهتماماً للتفصيل التالي: "المتآمر" بيريا تم فضحه، لكن مساعده الأول، الذي عمل سنوات طوال معه، يصبح وزيراً للداخلية. هذا ليس من عادات اللجنة المركزية. أحكموا بأنفسكم. لماذا عهدت القيادة الحزبية العليا، وبراحة بال، بالأجهزة الأمنية إلى كروغلوف؟ لقد كانوا يعرفون جيداً أنه لم تكن توجد أية مؤامرة...

لقد عرفت جيداً إيفان الكسندروفيتش سيروف أيضاً، الذي ترأس جهاز الكي.جي.بي. في الاتحاد السوفياتي في الأعوام ١٩٥٤-١٩٥٨. إنني أدرك أنَّ من المخاطرة ذكر القادة السابقين لهذا الجهاز بكلمة طيبة. لكنني مقتنع بأن سيروف يستحق ذلك. لقد كان إنساناً نزيهاً لا غبار على نزاهته، عمل الكثير لتحصين العدالة.

لم يكن سيروف من رجال التشي.ك. وجاء إلى الأجهزة الأمنية باقتراح من والدي.

حين ترأس والدي مفوضية الشؤون الداخلية بدأ يُحِلّ محلّ الأشخاص الطارئين على هذا الحقل أشخاصاً محترفين. وقد جاء كثير من هؤلاء المحترفين إلى مفوضية الداخلية من أكاديمية فرونزه، حيث كانت للمخابرات العسكرية كليتها الخاصة. ففي هذه الكلية كانوا يعدّون الكوادر من أجل العمل المخابراتي في اليابان وأميركا وبلدان أوروبا الوسطى. كان هؤلاء الأشخاص يجيدون اللغات ويعرفون أصول مهنتهم. وكان مفوض الداخلية الجديد ينوي الاعتماد على هؤلاء بالذات. وبالمناسبة حين سيعود والدي لاحقاً إلى وزارة الداخلية في آذار/مارس ١٩٥٣، سوف تكون الصورة مختلفة، وسوف يتعيّن عليه اختيار الكوادر مرة أخرى. وقد اضطُر آنئذٍ الى استبدال ما يقرب من ٢٠٪، إذا لم أكن مخطئاً، من العاملين الذين لم يكونوا يعرفون حتى لغة البلد

الذي يعملون فيه. إجمالاً، كان المستوى العام لرجال المخابرات السوفياتية متدنياً للغاية. لكن مع ذلك أمكن تصحيح الأمور بسرعة قياسية إلى حد ما.

عرفت من سيروف نفسه أنه بدأ حياته العسكرية في الوحدات التي كانت بإمرة ماريشال المدفعية المقبل ياكوفليف. خدم سيروف في وحدة الاستطلاع مدة ١٢ عاماً، وكان برتبة كولونيل حين انتسب إلى كلية المخابرات في أكاديمية فرونزة العسكرية. أنهى الكلية على نحو ممتاز. ووُضع مع بضع عشرات من الضباط المماثلين (برتبة كولونيل وميجور بشكل أساس) في تصرف مفوض الداخلية الجديد.

كان والدي يقدّر دوماً الأشخاص المحترفين، وسرعان ما تم تعيين جميع هؤلاء الضباط في مناصب رفيعة جداً. وقد مُنح سيروف رتبة جنرال وأصبح رئيس مديرية.

كان والدي يرى في سيروف شخصاً مبدئياً و نجيباً. وقد أثبت إيفان ألكسندررروفيتش (سيروف) قدراته على أفضل وجه في أوكرانيا، حيث عُيّن مفوضاً للداخلية باقتراح من والدي. وكان خروتشوف السكرتير الأول للجنة المركزية في كييف آنئذٍ. وكان الوضع فظيعاً في الجمهورية: فقد قضت حملات القمع على المثقفين المحليين، واستهدفت الملايين من الناس الأبرياء. وكانت المهمة التي حددها والدي واضحة لا لبس فيها: نشر العدالة. وكان سيروف، برأي والدي، يناسب هذا الدور على أفضل وجه ممكن. فهو إنسان نزيه وصاحب إرادة وذو ثقافة عالية جداً (كان يجيد اليابانية). لكن الأهم من كل ذلك هو أنه كان من أولئك الناس الذي يمتلكون رأيهم الخاص ولا يخشون الدفاع عنه.

لم تنتظم علاقته بخروتشوف، فقد كان نيكيتا سيرغييفتش (خروتشوف) إنساناً مختلفاً كلياً. وقد روى سيروف أنه كان يرفض دعم خروتشوف في صراعه الذي لا ينتهي مع المعارضة. وكان المعارضون بالنسبة له هم كل الناس الذين يمتلكون رأيهم الخاص. وكان خروتشوف، على ما يبدو، يرغب في تنصيب

مفوض للشؤون الداخلية في أوكرانيا مطيع له. وبما أن سيروف لم يدعم سياسته في إبادة الكوادر الوطنية، بدأت الصراعات بينهما. وينبغي أن يكون المرء في غاية القوة للوقوف بوجه ضغوط السكرتير الأول للجنة المركزية. ولم يكن سيروف إلا كذلك بالنسبة لخروتشوف.

كان والدي، بالطبع، على علم بالصدام بين سيروف وخروتشوف، وكان يدعم المفوض الشاب. وأنا أعرف أنّ الاتفاق بين سيروف ووالدي كان كالتالي: لا تخشَ أحداً هناك، وتمسّك بخطك مهما ضغطت عليك اللجنة المركزية المحلية برئاسة خروتشوف، وابحث بهدوء عن شخص بديل لك لايرقص على أنغام اللجنة المركزية في أوكرانيا. وكان والدي قد قرر آنئذٍ إعادة سيروف لاحقاً إلى موسكو.

نشب صراع جدي بين سيروف وخروتشوف حين حدثت قصة مؤسفة مع ابن خروتشوف من زواجه الأول، ليونيد. فكما يحدث عادة، للأسف، وسط "الشباب الذهبي" أي أبناء كبار الموظفين، تبين أن ابن السكرتير الأول يعاشر مجموعة مريبة من الأشخاص. وتبين لاحقاً أن صحب ليونيد مجرمون يمارسون القتل والنهب. وحين أبلغوا سيروف بما جرى اتصل على الفور بوالدي الذي أصدر تعليماته قائلاً:

- أطلع خروتشوف على كل ذلك، وَلْنر كيف ستكون ردة فعله. إنه خرق فاضح للقوانين، ولا يجوز إخراج أحد من القصة، حتى لو كان ابن السكرتير الأول للجنة المركزية، إنما يمكن تخفيف المصير الذي يواجهه.

ردة فعل خروتشوف صدمت سيروف:

- أقفل هذا الملف؟

ردّ سيروف معترضاً:

- وكيف يمكن ذلك، يا نيكيتا سيرغييفتش. القضية خرجت إلى العلن. وقد ارتكبت جرائم شنيعة يعلم بها آلاف الناس. إن إخراج ابنك من هذه القضية هو، بكل بساطة، أمر مستحيل.

وعلى الرغم من أن خروتشوف بقي مصرّاً على موقفه، إلا أن التحقيق في القضية سار حتى النهاية وجرت محاكمة المجموعة. وقد حُكم على معظم أفراد المجموعة الإجرامية، أو بالأحرى، عصابة المجرمين، بالعقوبة القصوى وتم إعدامهم رمياً بالرصاص. أما ابن نيكيتا سيرغييفتش، فحكم عليه بالسجن عشر سنوات.

حين اندلعت الحرب، أوحوا إلى ليونيد بتقديم التماس للالتحاق بالجبهة، وهكذا فعل. وقد استجابوا لالتماس ابن خروتشوف، إلا أنهم لم يرسلوه إلى الجبهة مقاتلاً بسيطاً، بل أرسلوه إلى مدرسة الطيران. وبعد أن أصبح طياراً قاتل ليونيد العدو قتال الشجعان واستُشهد خلال المعارك. وقد حدث ذلك، على ما أعلم، في ربيع ١٩٤٣.

معلومات مستقاة من مصادر رسمية:

إن طيار كتيبة الحرس ١٨ للطيران المقاتل التابعة لجيش الحرس الأول للطيران المقاتل الليتنانت أول ليونيد خروتشوف لم يعد من المهمة القتالية بتاريخ ١١ آذار/مارس ١٩٤٣. وكما كتب عضو المجلس الحربي لجبهة فارونيج، قائد جيش الطيران الأول الجنرال - ليتنانت في الطيران خودكوف، إلى خروتشوف، فإن طائرة الليتنانت أول خروتشوف "هوت إلى الأرض..." إثرمعركة مع طائرتين من طراز "فوكيه-فولف-١٩٠". لم نفقد الأمل خلال شهر من الزمن بعودة ولدكم، إلا أن الظرف الذي أحاط بعدم رجعته، والمدة التي انقضت منذ تلك الحين، يضطرنا للقيام باستنتاج محزن بأن ولدكم الليتنانت أول حرس ليونيد نيكيتوفيتش خروتشوف استُشهد شهادة الشجعان في معركة جوية ضد المحتلين الألمان".

قبل الانتقال إلى الطيران المقاتل، خدم ابن خروتشوف في الكتيبة ١٣٤ للطيران السريع القاذف للقنابل، حيث نفذ ٣٣ طلعة متتالية وأصيب بجروح بليغة ومنح وسام "الراية الحمراء". بعد إعادة تدريبه تم إرساله إلى كتيبة الحرس ١٨ للطيران المقاتل.

لا شك أن خروتشوف بقي على استيائه من سيروف. وقد نفّذ والدي الوعد الذي قطعه لإيفان ألكسندروفيتش (سيروف) ونقله إلى موسكو. وأصبح

سيروف أحد نواب والدي وكان يُعنى بالعمل المخابراتي ويشرف على الشؤون المتعلقة بحرس الحدود. وحين طلب جوكوف من والدي أثناء الحرب نقل سيروف إليه في الجبهة وافق على الأمر.

في العام ١٩٥٤، أصبح إيفان الكسندروفيتش رئيساً للكي.جي.بي. في الاتحاد السوفياتي، لكن خروتشوف عزله من هذا المنصب بعد مضي أربع سنوات، وتم تعيينه رئيساً للمديرية العامة للمخابرات (GRU). وقد وجدوا فيما بعد حجة لإبعاده عن مديرية المخابرات أيضاً. وسوف أتحدث لاحقاً عن أسباب عزله. أما الحجة التي تذرعوا بها فكانت قضية الكولونيل في مديرية المخابرات أوليغ بنكوفسكي، الذي اتُّهم بالتجسس لصالح المخابرات الإنكليزية والأميركية.

أعتقد أن عزل هذا الإنسان المخلص لعمله قد ألحق أذى كبيراً بالمخابرات السوفياتية. لكن الأجهزة الحزبية التي كان سيروف يثير أعصابها دوماً لم يكن يعنيها الأمر كثيراً، كما يدرك القارىء. ومن أجل تشويه صورة أحد قادة المخابرات السوفياتية جرى فيما بعد نشر شائعات تقول إن سيروف أساء استخدام منصبه ونقل من ألمانيا "كمية كبيرة من المفروشات والأواني الثمينة والكريستال واللوحات الفنية والأطقم الفضية من أواني المائدة العائدة للبارونات والكثير من التحف الفنية الأخرى من قصور الأرستقراطيين الألمان في بوتسدام وبرلين". منذ بضع سنوات كتب أحد المؤرخين السوفيات المشهورين حالياً يؤكّد، وبجدية، أن الجنرال -كولونيل سيروف "سرق من ألمانيا ما يسمى قبعة مونوماخ"[1] ونقلها سراً مع تاج مرصع بالألماس ودفنها في الأرض قرب منزله الصيفي في آرخانغلسك". من الواضح أن مثل هذا الهراء، وليعذرني القارىء لهذه اللهجة الحادة، لا يستحق التعليق عليه.

لقد حاولوا تشويه صورة الجنرال سيروف بأساليب أخرى أيضاً. فقد زعموا أن والد سيروف عمل لمدة ١٢ عاماً في نهاية الخمسينيات ضابطاً في الدرك في أرشيف السجن الخاص في مدينة فولوغدا، الذي كان يُحتجز فيه المساجين

(١) غطاء للرأس مصنوع من الذهب المخرم، ذو أطراف مدببة وحاشية من فرو الفيزون، مرصّع بالأحجار الكريمة ويحمل صليباً. بدأت صناعته في آسيا الوسطى في القرن الرابع عشر. وكان يعتبر رمزاً لعظمة القيصر الروسي وأمراء العائلة المالكة-المترجم.

السياسيون بمن فيهم ستالين. كما زعموا أنه اختبأ في العام ١٩١٧، وأخفى ابنه إيفان الكسندروفيتش عن الحزب ماضي والده. وفيما بعد، حين أُبعد خروتشوف عن السلطة، أخذوا يكتبون بأن سيروف هو قريب خروتشوف وكان يستفيد من رعاية السكرتير الأول السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي له. كذب، بالطبع، لكن الشائعات هي الشائعات، والناس الذين لم يعرفوا سيروف جيداً قد صدّقوا، في الأغلب، كل هذه الأقوال. أما أولئك الذين خدموا بإمرة الجنرال - كولونيل سيروف، فقد بقي في ذاكرتهم قائداً موهوباً ورجلاً في غاية الشجاعة. لقد التقيته أنا، مثلاً، في مرحلة الدفاع عن القفقاز، ولن أصدق بعد هذا اللقاء كلمة واحدة مما يقال في حق هذا الرجل الذي كان في منتهى النزاهة.

وسط قادة الأجهزة الأمنية السوفياتية لم يكن الجميع على غرار بطل الاتحاد السوفياتي الجنرال -كولونيل سيروف. بعد الحرب تولّى قيادة أجهزة أمن الدولة مثلاً، الجنرال - كولونيل أباكوموف.

معلومات مستقاة من مصادر رسمية

فيكتور سيميونوفيتش أباكوموف، جنرال -كولونيل.

وُلد في العام ١٩٠٨ في موسكو. عضو الحزب الشيوعي البلشفي منذ العام ١٩٣٠. وهو من وسط عمالي. التعليم: عالٍ. في سنوات الحرب، شغل منصب رئيس المديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (SMERCH)، ونائب وزير الدفاع. وفي الأعوام ١٩٤٦-١٩٥١: كان وزير أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي.

في ٤ تموز/يوليو ١٩٥١ تمت تنحيته عن المنصب الذي يشغل، وبعد ثمانية أعوام تم توقيفه. في النيابة العامة للاتحاد السوفياتي، تم إطلاعه على الدعوى الجنائية المرفوعة ضده بموجب المادة ٥٨-١ "ب" من قانون العقوبات في روسيا الاتحادية (خيانة الوطن من قبل العسكريين)، وعلى التدبير الرادع المتخذ بحقه والقاضي بسجنه تحت الحراسة في سجن ساكولنيكي التابع لوزارة الداخلية (المعروف بسجن "صمت البحارة"). سجن فيما بعد في كل من السجون التالية التابعة لوزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي: ليفورتوف، بوتير، "السجن الداخلي". ونقل فيما بعد، بهدف التمويه، إلى زنزانة منفردة تحت اسم " السجين رقم ١٥".

إثر اعتقال أباكوموف تم اعتقال زوجته أنتونينا (وُضعت مع طفلها البالغ من العمر شهرين في سجن "صمت البحارة") ورئيس قسم التحقيقات في القضايا الاستثنائية في وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي الجنرال ميجور ليونوف ونوابه الكولونيلات كوماروف وليخاتشوف وشفارتسمان. كما اعتقل رئيس سكرتاريا وزارة أمن الدولة الكولونيل تشيرنوف ونائبه الكولونيل بروفرمان.

في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤، افتتحت الغرفة العسكرية في المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي، في مبنى بيت الضباط التابع لمنطقة لينينغراد العسكرية، جلساتها برئاسة الجنرال -ليتنانت في الحقوق إل. زايدين. وكان المدعي العام في الاتحاد السوفياتي، مستشار الدولة الفعلي في القانون، ر.أ.رودنكو يمثّل الادعاء العام في المحاكمة. بالإضافة إلى أباكوموف، جرت محاكمة كل من ليونوف، تشيرنوف، كوماروف، ليخاتشوف، وبروفرفمان. رفض أباكوموف الإقرار بكونه مذنباً وأعلن في الكلمة الأخيرة أنه يبقى إنساناً نزيهاً ومخلصاً للجنة المركزية. "لقد افتروا علي".

في الساعة ١٢ والدقيقة ١٥ من يوم ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤، وبعد لفظ الحكم مباشرة من قبل الغرفة العسكرية في المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي، تم في لينينغراد إعدام الرئيس السابق للأجهزة الأمنية السوفياتية رمياً بالرصاص. حضر تنفيذ الحكم المدعي العام في الاتحاد السوفياتي رومان رودينكو.

حين عيّنوا والدي مفوضاً للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي، كان فيكتور سيميونوفيتش (أباكوموف) يعمل في إدارة مفوضية الداخلية في إقليم روستوف. ولفت انتباه القيادة إليه في مرحلة العمليات الواسعة المتعلّقة بإعادة الاعتبار للناس الذين تم اعتقالهم في عهد كلٍّ من ياغودا ويجوف. فقد تم في الأقاليم والمناطق تشكيل لجان خاصة "لإعادة الاعتبار" دخل في عدادها، إلى جانب العاملين في النيابات العامة، العاملون في مفوضية الشؤون الداخلية. وعُيّن أباكوموف حينئذٍ في واحدة من هذه اللجان حيث، بدأ يتقدم. وقد تم بمساهمة مباشرة منه إطلاق سراح حوالي ٦٠٪ من السجناء المعتقلين في إقليم روستوف. وانتشرت فيما بعد رواية تقول إن أباكوف كان "يطلق سراح المساجين دون تمييز"، مما ساعده في اكتساب سمعة طيبة بين الناس. لا

يـعني أن أحكم إن كان الأمر على هذا النحو أم لا، ولا شك في أنه قام بعمل طيب. فمن الأفضل بناء المستقبل الوظيفي على أساس إطلاق سراح الناس، وليس على أساس اعتقالهم، كما كان يفعل زملاؤه من قبله.

بعد مضي سنتين أو أقلّ، كان أباكوموف قد أصبح يعمل في الجهاز المركزي لمفوضية الداخلية في موسكو. وقد تطوّر لاحقاً في سلّم الوظيفة على نحو لا بأس به. قبل نشوب الحرب، تم تعيينه رئيساً لمديرية الأقسام الخاصة في مفوضية الداخلية، وترأس منذ العام ١٩٤٣ أجهزة مكافحة الجاسوسية العسكرية التي كانت قد أصبحت تابعة لمفوضية الدفاع.

في العام ١٩٤٦، وباقتراح من ستالين، أعفى المكتب السياسي وزير أمن الدولة ميركولوف من منصبه. واقترح ستالين نفسه تعيين أباكوموف على رأس الوزارة المذكورة. لم يكن لوالدي أية علاقة بهذا التعيين. ففي تلك المرحلة بالذات، التي جاء فيها أباكوموف إلى وزارة أمن الدولة، بدأ التجسس على أسرتنا. فقد تم في ذلك الحين تركيب أجهزة تنصت في منزلنا. لكن يجدر بي أن أشير إلى أن المبادرة لم تصدر عن وزير أمن الدولة الجديد. فقد كان أباكوموف ينفّذ تعليمات اللجنة المركزية، فحسب.

خلافاً لسلفه ميركولوف، الذي كان برأي ستالين، شخصاً رقيقاً للغاية بالنسبة لمنصب مشابه، لم يزرنا أباكوموف في بيتنا قط. لست أدري ما هي الأسباب، إلا أنه لم يكن في يوم من الأيام شخصاً مقرّباً من والدي. يستشهدون أحياناً برسائله من السجن التي كان يرسلها إلى كل من والدي ومالينكوف. غير أن تفسير الأمر بسيط، فقد كان والدي يعمل في حينه في هذه الأجهزة بالذات. وكان أباكوموف يأمل بمشاركته كمحترف في تقرير مصيره. أما بالنسبة لمالينكوف(بالمناسبة، كان والدي يحيل إليه رسمياً جميع مراسلات، أباكوموف) فالأمر أكثر بساطة، إذ كان هذا الأخير يشرف على كل ما يتعلق بأجهزة أمن الدولة...

أجرُؤ على التأكيد أن تاريخ وزارة أمن الدولة (MGB) يرتبط ارتباطاً محكماً باسم الموظف الحزبي الرفيع مالينكوف. فقد برهن عن نفسه مشرفاً نشيطاً جداً على كل ما يتعلق بأجهزة أمن الدولة، وأعترف بأنه كان مثابراً

ومتطلباً في عمله. بعض المصادر تشير إلى أنه قدّم في نهاية حياته إثباتات على تورط زميله نيكيتا خروتشوف في حملات القمع في جرائم النظام الأخرى. إلا أنه التزم الصمت حيال دوره هو في تلك الفظائع. وتؤكد المصادر نفسها أن مالينكوف قدّم إلى يوري أندروبوف وثائق تدين خروتشوف. ومن المؤكد أن بوسع المرء أن يعثر اليوم في الأرشيف على وثائق لا تقلّ إدانة لمالينكوف نفسه. وبالمناسبة، إذا كان أباكوموف يدين بتعيينه، كما هو شائع، ليس لستالين، فحسب، بل لأندريه جدانوف أيضاً، فإن إيغناتييف ابن الجهاز الحزبي الذي حلّ محلّ أباكوموف، هو أيضاً صنيعة مالينكوف.

مقتطفات من رسالة فيكتور اباكوموف بتاريخ ١٨ نيسان/إبريل ١٩٥٢:

الرفيقان بيريا ومالينكوف. العزيزان ل.ب. وغ.م.! شهران وأنا في سجن ليفورتوف ألح في طلب ورقة من المحققين ومن رئيس السجن لكتابة رسائل لكما وللرفيق إيغناتييف... ما فعلوه بي أمر لا يُصدّق. الأيام الثمانية الأولى قضيتها في زنزانة باردة وشبه مظلمة. وخلال شهر فيما بعد، كانوا ينظمون التحقيق على نحو لا أتمكن معه من النوم سوى ساعة أو نصف ساعة في اليوم. وكانت التحقيقات تترافق مع السباب والشتائم والسخرُية والإهانات وسواها من التصرّفات المتوحشة. كانوا يرمون بي عن الكرسي إلى الأرض. في ليل ١٦ آذار/مارس قيدوني واقتادوني إلى ما يسمى زنزانة الانفراد وهي في الحقيقة، كما اتضح لاحقاً، غرفة تبريد تحتوي على شبكة للتبريد: لا نوافذ فيها، فارغة كلياً، لا يزيد قياسها على المترين. قضيت مدة ثمانية أيام في هذا المكان المرعب دون هواء، ودون طعام (كانوا يقدمون لي قطعة خبز وكأسين من الماء في اليوم). كانوا يشغلون شبكة التبريد، وكان البرد يتزايد باستمرار...لم أر مثل هذه الوحشية قط، ولم أعلم بوجود شبكات التبريد هذه في سجن ليفورتوف. أرجو منكما ل.ب. وغ.م:

١) إنهاء كل هذا وإعادتي إلى العمل...

٢) إذا كانت هذه القضية سوف تستمر لبعض الوقت، أنقلوني من ليفورتوف وخلصوني من (رومان) وأصدقائه. لعله يجب إعادتي إلى سجن البحارة واستجوابي من قبل المدعين العامين... لعله يمكن إعادة زوجتي وابني إلى البيت وأكون لكما من الشاكرين إلى الأبد مقابل ذلك...

تم إطلاق سراح زوجة أباكوموف في العام ١٩٥٤، بعد أن قضت مع طفلها في السجن ثلاث سنوات. وعلى الرغم من أن المحققين لم يعثروا على أي عنصر جرمي في نشاطها وألغوا القضية، إلا أنهم أبعدوها مع ابنها عن موسكو لعدة سنوات.

تشير بعض المذكرات إلى أن المحققين (دعك من المحققين، بل المدعي العام في الاتحاد السوفياتي رومان اندرييفتش رودنكو نفسه!) كانوا مصرّين على "انتزاع" "حجج" ضد بيريا من وزير أمن الدولة المعتقل. وقد أشار أباكوموف في إفادته إلى أن "العلاقات بيننا كانت علاقات رسمية في إطار الوظيفة ولا شيء سواها. لم أزر بيريا قط في شقته أو في منزله الصيفي". لكن هذا لم يمنع، مع ذلك، القيادة الحزبية العليا من القول للناس إن "من أعدموا هم أعوان بيريا"؟ ولم "تبرّأ ساحة" أباكوموف، وعلى نحو لا يخلو من الطرافة، إلا لبضع سنوات مضت على يد المدعي العام العسكري الرئيسي، نائب المدعي العام في الاتحاد السوفياتي، الجنرال - ليتنانت في الحقوق كاتوسيف حين قال: "إن اتهام أباكوموف بأنه كان مرشح بيريا لمنصب وزير أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي، وبأنه كان متورطاً في مجموعة بيريا التآمرية الإجرامية، اتهام تدحضه الإثباتات المتوافرة في ملف القضية". إذا حذفنا الأكاذيب حول "المجموعة التآمرية الإجرامية"، يبقى هذا الاعتراف قليل الأهمية.

أذكر أنني حين تحدثت مع والدي حول هذا الموضوع، علّق على اعتقال أباكوموف كالتالي: لقد نفّذ كل ما كان مطلوباً منه، وأصبح الآن غير ذي نفع لهم، اي اللجنة المركزية، وستالين، اللذين كان أباكوموف ينفّذ توجيهاتهما، حين كان وزيراً لأمن الدولة.

كان والدي يرى أن أباكوموف وكذلك ميركولوف قد سمحا، للأسف، بتحويل أنفسهما إلى منفّذين أعميين للأوامر، وهو ما دفعا ثمنه في نهاية المطاف. فقد كانت القيادة الحزبية العليا تسعى في هذه المرة أيضاً إلى تحميل خطاياها لأشخاص محددين. لقد دافع والدي في حينه عن ميركولوف. أما لماذا لم يرغب، أو لم يتمكن من مساعدة أباكوموف، فلست أدري. لقد قرر، على ما يبدو، عدم التدخل في هذه القضية. كان والدي قلقاً جداً من تحول الأجهزة

الأمنية على نحو متعاظم، بعد أن تركها، إلى سيف للعقاب بيد الحزب، أي السيف نفسه الذي كان قد حاول عام ١٩٣٩ إعادته إلى غمده، كما يقال. وكان والدي يعتبر أن أباكوموف هو أحد المسؤولين عن هذا الأمر.

كنت قد أصبحت في سجن ليفورتوف حين سمعت، بمحض المصادفة، على الرغم من العزلة التي كنت أوجد فيها، وحين كان المحققون يتحدثون فيما بينهم، أن أباكوموف لا يزال على قيد الحياة. لقد دُهشت جداً، لأن مثل هؤلاء الناس، الذين إن لم يعرفوا كل شيء، فهم يعرفون الكثير، لم يكونوا يُبقون على حياتهم. أغلب الظن، أن القيادة الحزبية العليا كانت تنتظر وتأمل في أن أباكوموف، في مطلق الأحوال، سوف يكون مضطراً لإعطاء الإفادات التي ستكون ضرورية للحزب في تلك اللحظة. وحين انتفت الحاجة إليه أعدموه، كما أعدموا كثيرين ممن كانوا شهوداً على الجرائم أو متورّطين فيها.

إنني لا أبرّىء ساحة أباكوموف. إلا أنهم أعدموه من أجل جرائم وهمية وليس من أجل تلك التي اقترفها بأمر من اللجنة المركزية ومن ستالين. لقد أصبح أمره في حكم المنتهي في اللحظة التي وافق فيها على ترؤس أجهزة أمن الدولة. ولست أشكك لحظة في أن القيادة الحزبية العليا، حين قضت على هذا الشاهد الخطير، قد حرمت التاريخ من اعترافات كثيرة كان بوسع أباكوموف أن يدلي بها. أعتقد أن أموراً كثيرة ما نزال حتى اليوم عاجزين عن تصور حدوثها....

مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي "سري للغاية"

٢١ أيار/مايو ١٩٤٧

الرفيق ستالين إ.ف

الرفيق مولوتوف ف.م

نرفع إليكم ما يلي:

في شهر نيسان/إبريل ١٩٤٢ تقدمت السفارة الأميركية في الاتحاد السوفياتي بمذكرة إلى وزارة الخارجية السوفياتية، تبلغ فيها أن المعلومات المتوافرة لدى السفارة تشير إلى وجود المواطن الاميركي إيساي أوغينس في السجن في معسكر في ناريلسك. وقد طلبت السفارة، بتكليف من وزارة الخارجية، الاطلاع على سبب اعتقاله، وعلى المدة التي حكم بها، وعلى وضعه الصحي.

ونظراً لإلحاح السفارة الاميركية، وبناء على طلب الرفيق مولوتوف، تم في ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٢ و٩ كانون الثاني/يناير ١٩٤٣ إجراء مقابلتين لممثلي السفارة الأميركية مع المحكوم عليه أوغينس. خلال هاتين المقابلتين أبلغ أوغينس ممثلي السفارة الأميركية بأنه قد اعتقل كشخص تروتسكي، دخل الاتحاد السوفياتي بصورة غير مشروعة، بجواز سفر تحت اسم مستعار، من أجل الاتصال بالمنظمات السرية التروتسكية في الاتحاد السوفياتي.

وعلى الرغم من هذا التصريح، أثارت السفارة الاميركية في موسكو غير مرة مع وزارة الخارجية السوفياتية مسألة إعادة النظر في القضية والإفراج عن أوغينس قبل انقضاء مهلة اعتقاله. وقامت السفارة بإرسال رسائل أوغينس وبرقياته إلى زوجته التي تعيش في الولايات المتحدة، كما أبلغت وزارة الخارجية السوفياتية بأنها تعترف بأوغينس مواطناً أميركياً ومستعدة لإجلائه إلى وطنه.

في ٩ أيار/مايو ١٩٤٣ تم إبلاغ السفارة الاميركية بأن "الأجهزة الامنية السوفياتية المختصة لا تعتبر إعادة النظر في قضية أوغينس أمراً ممكناً".

في ٢٠ شباط/فبراير ١٩٤٣ تم بالفعل توقيف أوغينس بتهمة التجسس والخيانة. لم يتم إثبات هذه التهم أثناء التحقيق ورفض أوغينس الإقرار بأنه مذنب. إلا أن "الاجتماع الخاص" في مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي حكم عليه بالسجن ٨ سنوات في معسكر للأشغال الشاقة، ابتداءً من ٢٠ شباط/فبراير ١٩٣٩...

إن ظهور أوغينس في الولايات المتحدة يمكن أن يُستخدم من قبل الأشخاص المعادين للاتحاد السوفياتي للدعاية النشيطة ضد الاتحاد السوفياتي.

استناداً إلى ما تقدم، ترى وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي أن من الضروري تصفية إيساي أوغينس، وإبلاغ الأميركيين بأن أوغينس، وبعد مقابلته مع ممثلي السفارة الأميركية، تمت إعادته في حزيران/يونيو ١٩٤٣ إلى مكان اعتقاله

في نوريلسك، وتوفي هناك في المستشفى عام ١٩٤٦، إثر تفاقم حالته الصحية بسبب إصابته بالسل الرئوي.

في أرشيف معسكر نوريلسك سوف نسجّل نحن عملية مرض أوغينس وما قدم له من مساعدات طبية وسواها من المساعدات. كما أن وفاة أوغينس سوف يتم تسجيلها في تاريخ المرضى وفي محضر لتشريح الجثة ومحضر للوفاة.

وبما أن زوجة أوغينس موجودة في نيويورك، وقامت غير مرة بمراجعة قنصليتنا للاستفسار عن زوجها، وهي تعرف أنه معتقل، نرى أن من المفيد استدعاءها إلى القنصلية وإبلاغها موت زوجها.

أرجو تزويدي بتوجيهاتكم.

أباكوموف

وتبلّغ التوجيهات المناسبة...

ونورد الآن وثيقة أخرى، لم يتم كشف النقاب عنها إلا منذ وقت قريب، وهي متعلقة بالوزير السابق لأمن الدولة فيكتور أباكوموف.

هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي

الرفيق غ.م. مالينكوف

أثناء عملية التدقيق في الوثائق المتعلقة بميخوإيلس، تبين أنه في شباط/فبراير ١٩٤٨ وفي مدينة مينسك، قام النائب السابق لوزير أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي أغالتسوف، بالتعاون مع الوزير السابق لأمن الدولة في بيلوروسيا السوفياتية تساناف، وبتكليف من وزير أمن الدولة أباكوموف، بعملية غير شرعية لتصفية ميخوإيلس الجسدية.

وفي هذا الصدد تم في وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي استجواب أباكوموف والحصول على شروح كلّ من أغالتسوف وتساناف. وحول ظروف تنفيذ هذه العملية الإجرامية، أفاد أباكوموف:" على ما أتكر، في العام ١٩٤٨، كلّفني رئيس الحكومة السوفياتية ي.ف. ستالين بمهمة عاجلة: قيام العاملين في وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي على نحو عاجل بتنظيم تصفية ميخوإيلس، وتكليف أشخاص خصوصيين بالأمر. وكان من المعلوم يومئذٍ أن ميخوإيلس كان قد وصل

إلى مينسك برفقة صديقه الذي لا أذكر عائلته. وحين أُبلغ ي.ف.ستالين بذلك، أعطى تعليماته على الفور بتنفيذ عملية التصفية في مينسك بالذات...

حين تمت تصفية ميخوإيلس وأبلغ ي.ف ستالين بذلك قدّر هذا التدبير تقديراً عالياً، وأمر بمنحنا الأوسمة. وهو ما تم فعله (بالطريق، صفّينا أيضاً عميل وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي ف.إي. غولوبوف، الذي كان يرافق ميخو إيلس).

كان يوجد أكثر من اقتراح لتصفية ميخوإيلس : أ) حادث سيارة. ب) بواسطة دهسه بشاحنة في أحد الشوارع شبه الخالية من المارة. ج) بما أن هذين الاقتراحين لم يكونا مضموني النتائج، فقد تم اتخاذ القرار التالي: القيام عبر العملاء بدعوة ميخوإيلس خلال الليل لزيارة أحد المعارف، وتقديم سيارة له إلى باب الفندق الذي يقيم فيه، ونقله إلى جوار منزل ل.ف.تساناف الصيفي، حيث تتم تصفيته، ثم نقل الجثة إلى شارع شبه خال من المارة (مقفل) في المدينة، ووضعها على الطريق المؤدية إلى الفندق ودهسها بشاحنة...وهكذا فعلنا. ومن أجل السرية، صفينا غولوبوف كذلك الذي رافق ميخوإيلس في الزيارة...(تم دهسهما بشاحنة في جوار المنزل الصيفي).

إن وزارة الداخلية ترى من الضروري:

أ) إلقاء القبض على كل من نائب وزير أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي س. إي. أغالتسوف والوزير السابق لأمن الدولة في بيلوروسيا السوفياتية ل.ف. تساناف وإحالتهما إلى المحاكمة.

ب) إلغاء مرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي المتعلق بمنح أوسمة للمشاركين في مقتل ميخوإيلس وغولوبوف.

ل.بيريا

١٩٥٣/٤/٢

نرجو أن تكون الوثيقة الواردة أعلاه قد خففت قليلاً من غلواء المؤرخين الذي سبق أن نسبوا مقتل الفنان اليهودي س.م ميخوإيلس[١] إلى الإنسان الذي طالب بمعاقبة المسؤولين الحقيقيين عن الجريمة. بوسعنا أن نتخيل فقط

---

(١) عائلته الحقيقية: فوفسي VOVSI، واسمه الكامل هو سمحون ميخايلوفيتش فوفسي - المترجم.

الاكتشافات المفاجئة التي تنتظرنا بعد كشف الغطاء عن سائر الملفات المتعلقة بوالدي.

قلّة هم الذين يعرفون أنّ والدي بالذات، هو الذي اقترح إجراء محاكمة حزبية لإيغناتييف الذي ترأس وزارة أمن الدولة في السنوات الأخيرة من حياة ستالين. ودعم أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الاقتراح، وتم تكليف لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية النظر في المسؤولية الحزبية للرئيس السابق للأجهزة الأمنية. وكان قد تم قبل ذلك، في ٥ نيسان/إبريل ١٩٥٣، اتخاذ قرار بإعفائه من مهماته كسكرتير للجنة المركزية "بسبب الأخطاء الجدية التي ارتكبها الرفيق س.د.ايغناتييف أثناء ترؤسه الوزارة السابقة لأمن الدولة في الاتحاد السوفياتي". وأقالوا إيغناتييف من عضوية اللجنة المركزية وأرسلوه للعمل كسكرتير أول للجنة إقليم بشكيريا الحزبية في الحزب الشيوعي السوفياتي. إنه لعقاب "صارم". في الحقيقة، لم تعمد القيادة الحزبية العليا إلى لفلفة القضية إلا بعد إن "أزاحت" والدي مسبقاً. إن الحادثة، كما نرى، شديدة الدلالة.

ليس عبثاً أن عدة أجيال من رجال التشي.ك السوفيات كانوا يزرعون في قناعتهم بأن الكي.جي.بي، شأن كل أسلافها، (SH.K-OGPY-MVD-MGB-NKGB - NKVD) هي الفصيل المسلّح للحزب. وحين كان هؤلاء أنفسهم ينتفضون ضد العسف، ويتمهّلون في تنفيذ الأوامر المخالفة للقوانين بوضوح، كانوا يعرفون كيف يذكرونهم من هم. البعض منهم كان يتم إخضاعه فوراً، والبعض الآخر، وهو القلّة، للأسف، كان يقاوم.

لكن حتى "الفصيل المسلّح للحزب" والسجون ومعسكرات الغولاغ، لم تعد كافية، كما اتضح، بالنسبة للبارتوقراطية السوفياتية. ولذلك قررت اللجنة المركزية إنشاء سجن آخر، سجن "حزبي". إن حقيقة وجود مثل هذا السجن في الاتحاد السوفياتي بقيت سراً دفيناً لعدة عقود من الزمن.

في ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٥٦، أبلغ وزير داخلية الاتحاد السوفياتي نيكولاي دودوروف هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، بواسطة كتاب خاص، أنه لدى القبض على د.ن. سوخانوف، الذي عمل لفترة طويلة رئيساً

لسكرتارية مالينكوف (تم اعتقال سوخانوف في ١٤ أيار/مايو ١٩٥٦)، تم فتح خزنته، ووجدوا فيها وثائق مكتوبة من قبل مالينكوف تتعلق بتنظيم "سجن خاص" في موسكو، وأوراقاً مكتوبة بخط اليد مؤرخة بتاريخ ٤ آذار/مارس ١٩٥٠ تتعلق بتشكيلة جديدة للحكومة السوفياتية، وإفادة عن وجود ملفات تجسس على قيادة الجيش السوفياتي. في ١٦ حزيران/يونيو ١٩٥٦، أفاد رئيس سكرتارية مالينكوف الموجود قيد الاعتقال بأنه كان من المزمع إنشاء "السجن الخاص" في موسكو، وفي مكان سجن "صمت البحارة" كما علمت لاحقاً. (من سخرية القدر أن قادة الانقلاب الفاشل ضد غورباتشوف قد سجنوا في المكان نفسه الذي كان يوجد فيه "السجن الخاص"، الذي أنشأته القيادة الحزبية العليا من أجل رفاق الأمس بالحزب).

مقتطفات مما أفاد به سوخانوف:

"قال لي غ.م مالينكوف أن أسَمي من بين العاملين في جهاز اللجنة المركزية ولجنة الرقابة الحزبية أشخاصاً يمكن أن يُعهد إليهم بأعمال التحقيق في "السجن الخاص". وبناءً على ذلك، سمَيت مفتشين اثنين مسؤولين في لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وهما زافاروف ونيكيفوروف. في مجرى عملية تنظيم "السجن الخاص"، علمت أنه تم اختيار كل من شيستاكوف، الذي كان يعمل آنئذٍ في القسم الإداري للجنة المركزية، وكلايموف، الذي كان يعمل في وزارة الداخلية السوفياتية. وكان كلايموف وشيستاكوف يرفعان تقاريرهما عن العمل في تنظيم "السجن الخاص" إلى غ.م. مالينكوف".

لا أملك أيَّ أساس لعدم تصديق مصدر آخر أيضاً، هو الدكتور في العلوم التاريخية الميجور ـ جنرال البروفسور ف.نيكراسوف. فقد كتب البروفسور عام ١٩٩٠، في العدد رقم ٦ من مجلة "الميليشيا السوفياتية"[١]، مستنداً إلى ما جاء على لسان وزير داخلية الاتحاد السوفياتي بين العامين ١٩٥٦ و١٩٦٠ نيكولاي دودوروف في مخطوطة له لم تنشر بعنوان "٥٠ عاماً من النضال والانتصارات"، كتب يقول :

(١) أي: البوليس السوفياتي ـ المترجم.

"في العام ١٩٥٠ عكف غ.م. مالينكوف شخصياً،بوصفه سكرتيراً للجنة المركزية للحزب، على تنظيم "السجن الخاص" في موسكو لإجراء التحقيقات في القضايا السياسية فيه. وقد استدعى العاملين في قسم الأجهزة الإدارية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي للعمل في تنظيم "السجن الخاص"، كما استدعى العاملين في لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب لتولّي أعمال التحقيق. وكان العاملون يقدمون تقاريرهم إلى مالينكوف مباشرة حول سير العمل في تنظيم "السجن الخاص" ونشاطه. وكان يوجد في السجن خط هاتف حكومي مباشر. وكان السجن معداً لاستيعاب ٣٠-٤٠ شخصاً، ويتميز بنظام اعتقال خاص ودورة عمل سريعة. كان يوجد في السجن ٣٥ مكتباً للمحققين، وكان له حرسه الخاص، ومحققوه الخاصون على رأسهم رئيس السجن كلايمنوف، الذي يتلقى التعليمات من مالينكوف شخصياً. وكان السجن تحت رقابة ا.سيروف نائب وزير الداخلية آنئذٍ.

ثمة حالات كان يُلقى القبض فيها على الاشخاص القياديين لدى خروجهم من مكتب مالينكوف في مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. ومن بين الذين ألقي القبض عليهم في الصالة التي كان يستقبل فيها مالينكوف، وتم اقتيادهم إلى "السجن الخاص"، حيث تعرّضوا للتعذيب والتنكيل بهم ومن ثم التصفية الجسدية: السكرتير السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أ.أ.كوزنتسوف، والرئيس السابق لمجلس وزراء روسيا الاتحادية م.إي. راديونوف، والسكرتير السابق للجنة الحزب الإقليمية في لينينغراد ب.س. بوبوف، وسواهم.

كان استجواب المعتقلين السياسيين لا يتم في السجن، فحسب، بل كان هؤلاء ينقلون بسيارات خاصة من "السجن الخاص" إلى مبنى اللجنة المركزية في الساعة ١٢ ليلاً، عادة، حيث كان مالينكوف يقوم باستجوابهم إفرادياً.

مقتطفات من رسالة وزير الداخلية السابق س.ن كروغلوف إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بتاريخ ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٦٠:

في العام ١٩٥٠، وبتوجيه من مالينكوف، الذي كان يعطي التوجيهات باسم اللجنة المركزية للحزب مستنداً في ذلك إلى الرفيق ستالين، اقترحوا على وزارة الداخلية إخلاء مبنى أحد السجون، وتسمية رئيس لهذا السجن، وتجهيزه بالسجّانين

والحرّاس، وعدم الاهتمام به لاحقاً، لانه سوف يكون تابعاً للجنة المركزية ولجنة الرقابة الحزبية. لم أزر هذا السجن قط، ولم أر أحداً من مساجينه أو استجوبه. بقي هذا السجن مدة قصيرة للغاية. وأتكر من خلال كلام رئيس السجن كلايمنوف، أنه قد نقل في وقت من الأوقات إلى هذا السجن أ.أ. كوزنتسوف الذي كان معتقلاً في سجن وزارة أمن الدولة. ثم عاد العاملون في الوزارة إلى نقله مجدداً الى سجن وزارة أمن الدولة بعد مضي فترة من الزمن. وقد سمح للوزارة باستخدام مبنى السجن وفق ما ترتئيه. ويمكن أن يؤكد هذا الكلام نائبا الوزير السابقان الرفيقان سيروف وابروتشنيكوف، وكذلك الرئيس السابق لمديرية السجون الرفيق كوزنتسوف وسواهم.

أليست كافية هذه الشهادة ؟ إن عشرات المصادر لا تزال كما في السابق تتهم والدي بإنشاء السجن الخاص. في كانون الثاني/يناير ١٩٦٠ تم توجيه هذا الاتهام نفسه إلى سيرغي كروغلوف. ومن قِبَل من؟ من قبل لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، أي اللجنة نفسها التي كان السجن الخاص بعهدتها. كما أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي لجأت هي أيضاً، كما هي الحال دائماً، إلى "محو" دورها المعيب.

إن س.كروغلوف قد أشار بوضوح لا لبس فيه إلى الشخص الذي كلّف وزارة الداخلية باسم اللجنة المركزية إعداد السجن الجديد، وهو مالينكوف.

إن البنود الأخرى في الاتهام، الذي تم توجيهه إلى وزير الداخلية السابق، لدى فصله من الحزب، مثيرة للفضول هي أيضاً. فقد اتهم، مثلاً، بتهجير سكان تشيتشينا - أنغوشيا في العام ١٩٤٤. وفي هذا أيضاً يظهر الحزب الشيوعي السوفياتي و"هيئة أركانه المقاتلة"[1] وكأن لا علاقة لهما بالأمر. فقد جاء الأشرار من وزارة الداخلية وأمروا الناس الأبرياء بإخلاء أماكنهم. لكن من أصدر الأمر بالتهجير؟ سؤال، ليس للاستئسار على كل حال...

يصعب القول ما إذا كان سكرتيرو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ل.بريجنيف وم. سوسلوف ون.إيغناتييف قد قرأوا رسالة س.كروغلوف

(١) المقصود بذلك اللجنة المركزية - المترجم.

الموجهة إليهم، إلا أنهم لم يُعيدوا الجنرال المتقاعد إلى صفوف الحزب. وقد كتب وزير الداخلية السابق: "إنني على استعداد لتقبل أية عقوبة يرتئيها الحزب". إلا أن الحزب كان قد أصبح بغنى عن مثل هذه الضحية، إذ إن جميع الجرائم التي ارتكبها النظام كانوا قد ألبسوها لكروغلوف وأمثاله منذ زمن بعيد.

ليس المقصود هنا، بالطبع، القول ما إذا كان هذا الإنسان الذي ترأس وزارة الداخلية سبع سنوات في ظل ستالين وثلاث سنوات بعد وفاة الديكتاتور، مذنباً أم لا. فهو مذنب، بالتأكيد، شأن جميع قادة الإدارات التي كان يتفشى الطغيان داخل جدرانها. وليس مهماً أين كان يتم ذلك: في الجهاز المركزي، أم في مركز المقاطعة، أم في آخر منطقة إدارية. لكن لنتأمل مجدداً ونتساءل عن الجهة التي كلّفت كروغلوف ذاك تنظيم السجن الحزبي الخاص وتهجير الشعوب التي تعرّضت للاضطهاد وسوى ذلك...

كثر الكلام في السنوات الأخيرة عن أن فيشينسكي قد أدّى الدور الأسوأ في سياسة القمع التي انتهجها الحزب الشيوعي (البلشفي).

مقتطفات من مصادر رسمية:

أندريه (اندجيه) فيشينسكي: المدّعي العام في الاتحاد السوفياتي منذ العام ١٩٣٥ وحتى العام١٩٣٩.

ولد في أوديسا في العام ١٨٨٣. درس في كلية الحقوق في جامعة كييف. انتدبته لجنة موسكو الحزبية للعمل رئيساً لنقابة المحامين، إلا أنه لم يبق في سلك المحاماة أكثر من بضعة أشهر. تدرّجه الوظيفي اللاحق : المدعي العام في المحكمة الجزائية في المحكمة العليا في روسيا الاتحادية، رئيس الهيئة القضائية الخاصة فيما سمّي محاكمة شاختينسك (المدعي العام كان نيكولاي كريلنكو)، عضو الهيئة القيادية في مفوضية التعليم. في حزيران/يونيو ١٩٢٣ أصبح نائباً للمدعي العام في الاتحاد السوفياتي. وفي العام ١٩٣٥ أصبح المدعي العام في الاتحاد السوفياتي.

شارك في جميع المحاكمات السياسية الشهيرة في الثلاثينيات. رئيس جامعة

موسكو بالإضافة إلى عمله الآخر. صاحب المؤلف الشهير "نظرية الإثباتات القضائية في القانون الجزائي".

من أقوال فيشينسكي أثناء المحاكمات:" أطالب بإعدام الكلاب المسعورة جميعها حتى آخر واحد منها". "لا حاجة إلى مراعاة الإجراءات القانونية والأذون المسبقة للتوقيف"،" القوانين، ينبغي أن تُوضع جانباً". وقد تمت مكافأة هذا العالِم القانوني المعروف بمنحه جائزة ستالين من الدرجة الأولى تقديراً لنشاطه العلمي.

في كانون الثاني/يناير ١٩٣٩، أصبح أكاديمياً[1]، وفي حزيران/يونيو من العام نفسه، أصبح نائباً لرئيس مجلس مفوضي الشعب، ومن ثم نائباً لوزير خارجية الاتحاد السوفياتي.

مُنح وسام لينين ست مرات.

توفي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤. دفن رفاته في جدار الكرملين.

لقد رأيت فيشينسكي، بالطبع، إلا أنني لم أكن على صلة تعارف معه. لم يكن والدي يعترف به مدعياً عاماً، وحين أصبح مفوضاً للداخلية قاموا بإبعاد فيشينسكي عن النيابة العامة في الاتحاد السوفياتي. قارنوا التواريخ. فقد أصبح فيشينسكي غير ضروري للمكتب السياسي ولستالين، شأنه شأن ياغودا ويجوف... فقد كانت لدى والدي تصورات مغايرة كلياً حول مهمة النيابة العامة في الرقابة. في ظل فيشينسكي، كانت أجهزة النيابة العامة سيفاً للعقاب، في الحقيقة، شأن الأجهزة الأمنية. وكان والدي قد اقترح قبل تعيينه في منصبه تشديد مهمة النيابة العامة في الرقابة. باختصار، لو كانوا أبقوا على فيشينسكي في منصبه السابق، لما تمكّنا (هو وأبي) من القيام بعملهما. وهذا أمر لا شك فيه. لقد كانا شخصين مختلفين كلياً. فقد طرح فيشينسكي في حينه نظرية رهيبة: "الاعتراف سيد البراهين". ومن المعروف جيداً كيف كانت هذه الاعترافات "تنتزع" من الموقوفين.

كما أن والدي لم يعترف قط بفيشينسكي دبلوماسياً أيضاً. فقد كان يدعوه هجيناً دبلوماسياً، وفي أغلب الأحيان كان يدعوه نذلاً، وبالتالي، لا يمكن

(١) عضو أكاديمية العلوم ـ المترجم.

الحديث بالطبع، عن أي استلطاف متبادل بينهما. وأعتقد أن فيشينسكي نفسه كان يرى كيف يتجاهله والدي. والحقيقة أن الشعور بالكراهية تجاه فيشينسكي بقي لديه منذ أيام جورجيا. فلم يكن بوسع والدي أن يسامحه لتسببه، مع أولريخ، في موت الناس الذين كان يحاول إنقاذهم.

أتذكر الحادثة التالية: كنت مرة مع والدي في البيت الصيفي، وكانت والدتي قد أرسلت من قبل الإدارة الصحية في الكرملين للعلاج في كارلوفي فاري في تشيكوسلوفاكيا. اتصلت والدتي هاتفياً وقالت إن أسرة فيشينسكي موجودة هناك أيضاً.

تغيّرت ملامح وجه والدي، ونادراً ما كنت أراه كذلك، وأجاب بحدّة ملحوظة:

- لا علاقات مع هؤلاء الأنذال!.

سألته بعد ذلك، ما القضية؟ أجاب:

- أنت لا يسعك أن تتصوّر كم من الناس الطيبين قضى عليهم هذا النذل.

كان من المعروف أن فيشينسكي المتقلّب كان منشفياً وتعاون مع البوليس القيصري، وكان ستالين على علم بذلك، بالطبع، إلا أنه كان من المفيد الاحتفاظ بمثل هذا الشخص لحين الحاجة إليه.

غير أنني لا أصدّق بأن فيشينسكي وقّع في حينه أمراً بإلقاء القبض على لينين. فلم يكونوا ليسامحوه على ذلك. أكاذيب كثيرة يتم تداولها حوله، حتى أنهم يؤكدون أنه كان له تأثير ما على ستالين. إن أحداً لم يكن يتمتع بتأثير خاص على ستالين... وخاصة فيشينسكي. هل كان حجر شطرنج في يد ستالين؟ حجر شطرنج، أجل، إلا أنه كان حجراً مبادراً، حجراً بوسعه أخذ القلعة في الشطرنج. لم يكن ينفّذ، فحسب، الخط المناسب لستالين، بل كان ينشط في تطوير هذا الخط أيضاً. لقد صُعقت حين شاهدت الأفلام الوثائقية القديمة التي تسجل كلماته في المحاكمات السياسية. لقد كان إنساناً رهيباً!.

ميشيك وميلشتاين... كثيراً ما يربطون اسمي هذين القياديين في وزارة داخلية أوكرانيا باسم والدي أيضاً.

لم أر ميشيك في حياتي، إلا أنني علمت بأنه تم تعيينه وزيراً للداخلية في أوكرانيا باقتراح من والدي. لم يأتِ ميشيك إلى أجهزة أمن الدولة بالمصادفة. بل كان قد خدم قبل ذلك سنوات طويلة في أجهزة التشي.ك ومفوضية الشؤون الداخلية ووزارة أمن الدولة. وكان برتبة جنرال -ليتنانت. لقد كان قيادياً من مستوى كروغلوف. وأعتقد أن والدي لم يكن يشكّ في نزاهته وخبرته ومؤهلاته الوظيفية، وإلا لما كان تم تعيينه. في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ أعدموه رمياً بالرصاص إلى جانب ميركولوف وديكانوزوف وكابولوف وسواهم.

أما ميلشتاين فقد عرفته، كما عرفت زوجته وابنه الذي كان في مثل سنّي. لقد عرفت ميلشتاين نفسه من خلال جمعية "دينامو" الرياضية. فقد كان رياضياً جيداً في زمانه. وسيرته الذاتية عادية إلى حدٍّ بعيد: منذ العشرينيات تقلّب في عدة وظائف في التشي.ك، وعمل في مفوضية الداخلية رئيساً لإحدى المديريات، وكان أحد قيادي جمعية "دينامو" الرياضية. لم يكن ميلشتاين على علاقة بالاستخبارات، إلا أنه تم إنشاء شبكة عملاء واسعة عبر شقيقه الذي كان يعيش في أميركا.

مع مجيء أباكوموف إلى وزارة أمن الدولة، نقلوا ميلشتاين وعيّنوه نائباً لوزير الصناعات الخشبية. وحين عاد والدي إلى وزارة الداخلية اقترح تعيينه نائباً لميشيك في أوكرانيا، ووافقت على هذا الاقتراح اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي واللجنة المركزية للحزب في أوكرانيا.

أعرف أنهم لم يُلقوا القبض عليه، مع العلم أنهم أعدموا الوزير رمياً بالرصاص. والحقيقة، بكل بساطة، أنهم لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه حياً. فحين رآهم ميلشتاين يهمّون بإلقاء القبض عليه، حذّرهم بأنه لن يسمح بذلك. وأثناء تبادل إطلاق النار قتل ثمانية أشخاص، كما روي لي. هكذا كانت نهايته...

في ربيع ١٩٥٣، وأثناء انعقاد الكونفرنس الحزبي للعاملين في أجهزة الأمن الداخلي في أوكرانيا، تحدّث مسؤول الوزارة الجديد س.أ. ميشيك مخاطباً المجتمعين، فقال:

"أود في البداية أن أهنئكم على أن قيادة وزارة الداخلية قد عهد بها الآن إلى الرفيق لافرنتي بافلوفيتش بيريا، وأنه قد ولّت أخيراً الفترة المظلمة، التي كانت فيها أجهزة أمن الدولة في أيدي مغامرين من أمثال أباكوموف وريومن، والمفلسين سياسياً من أمثال إيغناتييف. وأود أن أذكركم، أيها الرفاق، بالصفحة السوداء في تاريخ الأجهزة التي تعود إلى فترة ١٩٣٧-١٩٣٨، حين انطلق المتآمر يجوف في نشاطه الخياني، وقضى في سبيل أهدافه العدائية، على عدد هائل من الأشخاص المخلصين للوطن والحزب. إن مجيء الرفيق بيريا مرة ثانية إلى قيادة الأجهزة الأمنية يعني مجدداً فضح المجرمين، الذين يتولّون قيادة وزارة الداخلية ويعني تقويم الاعوجاجات في عمل الأجهزة...".

لقد أخطأ ميشيك. فلم يمر نصف عام حتى كان والذي قد أُعدم، وأُعدم ميشيك نفسه، إثر محاكمة صورية، مع جنرالين آخرين كانا قد صدّقا أن "الفترة المظلمة" قد ولّت بالفعل. فالحزب لم يكن بحاجة إلى أجهزة أمنية تعمل في إطار القانون. إن سيف البلشفية للعقاب لا ينبغي أن يفكّر.

إذا صدّقنا محاضر جلسات المحاكمة، فإن المتّهم ميشيك نفسه سوف يقول كلاماً مغايراً كلياً في العام ١٩٥٣ نفسه:

"إنني أعتبر أنّ جريمة بيريا الشنيعة والسافلة في هذا الصدد، هي إقناعه المحققين بأن ضرب الموقوفين أمر مسموح به، وتوافق عليه المراجع المختصة. كما أن جريمته تقوم أيضاً في أنه خلق حول الضرب والتعذيب جواً من الفلتان القانوني، الأمر الذي لم ينل من المحكمة والنيابة العامة الاهتمام الكافي به. لقد أفسد جهاز التحقيق في وزارة الداخلية. فقد كان المحققون، وأنا من بينهم، يلجأون إلى ضرب الموقوفين وتعذيبهم، معتبرين أن الأمر هكذا ينبغي أن يكون. إنني أتكلم عن ذلك بهدف التخفيف من ذنبي..."

متى كان وزير داخلية أوكرانيا السابق صادقاً؟ لنحاول، أيها القارىء، محاكمة الأمور وفق أبسط قواعد المنطق.

وهكذا، عاد والدي مجدداً يترأس المؤسسة ذات السمعة السيئة. وليس من الصعب أن نحزر أنه قد عاد ليترأسها نزولاً عند رغبة زملائه المقربين خروتشوف وماليتكوف والآخرين. فالبنسبة للنائب الأول لرئيس الحكومة وعضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية، لا يُمثّل منصب الوزير قط استمراراً منطقياً لتقدّمه الوظيفي. إلا أنه قَبِلَ ذلك على أمل أن يقوم، كما فعل قبل الحرب، بوقف القمع الذي كان يُمارَس في ظل أباكوموف وإيغناتييف.

من اللافت أن ميشيك تحدّث عن هذا بصراحة كلية، معتبراً أنه أمر معروف للجميع، وذلك أمام جمهور واسع من المشاركين في الكونفرنس الحزبي في كييف. لقد سمّى الوزير الأشياء بأسمائها، وذلك قبل المؤتمر العشرين بسنوات عديدة. فقد كان كلامه عن حملات القمع الجماعية في الثلاثينيات، والتي تم وقفها بمشاركة نشيطة من والدي، وعن "فضح المجرمين الذين كانوا يتولون قيادة وزارة الداخلية" في سنوات ما بعد الحرب، كلاماً معبّراً جداً. ويتّضح من ذلك أنه لم يحدث أي اختراق باتجاه الشفافية لا في المؤتمر العشرين، ولا في الاجتماع الموسّع للجنة المركزية بعد ذلك بزمن طويل، أي في نيسان/إبريل ١٩٨٥. فالحقيقة قيلت قبل ذلك بزمن طويل!.

أما لماذا قال ميشيك كلاماً مغايراً كلياً أثناء المحاكمة، فليس من الصعب أن نحزر. فقد كان الحزب يمتلك دوماً ما يكفي من أدوات تحطيم العظام...

لقد كان القدر قاسياً، بالفعل، تجاه والدي. فنصف سنة من الزمن كان أقلّ من كافٍ لتحقيق مخططاته في تحويل الجهاز القمعي إلى جهاز خاضع، بالفعل، لسلطة القانون. لكن حتى هذا الوقت القصير كان كافياً بالنسبة له، كسياسي نشيط ومجرب، لتحقيق الكثير. فها هو يوقّع في ١٧ آذار/مارس ١٩٥٣ مذكّرة موجّهة إلى رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي تتضمّن مشروع مرسوم يصدر عن مجلس الوزراء يتعلق بإعادة تنظيم وزارة الداخلية. وهو يقترح، على وجه الخصوص، الإبقاء على جهاز العمليات فقط في وزارة الداخلية، وإلحاق جميع أقسام التشييد والبناء التابعة لوزارة الداخلية بالوزارات المعنية، أما الغولاغ، فيقترح إلحاقه بوزارة العدل. وفي اليوم التالي، تم إلحاق

جميع معسكرات العمل التأديبي مع كلّ الخدمات والأجهزة والوحدات التابعة لها بوزارة العدل، أما مشروعات البناء التابعة لوزارة الداخلية، فتم إلحاقها بوزارات البناء والتشييد.

في ٢٤ آذار/مارس ١٩٥٣ رفع والدي مذكرة إلى نيكيتا خروتشوف في هيئة رئاسة اللجنة المركزية. وتم توزيع المذكّرة، في الوقت ذاته، على كل من أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية مالينكوف ومولوتوف وفروشيلوف وبولغانين وكاغانوفيتش وميكويان وسابوروف وبيرفوخين. وقد رأى والدي في هذه المذكرة أن ليس ثمة ما يدعو الدولة إلى الاحتفاظ بأعداد كبيرة من المعتقلين، الذين يوجد قسم كبير بينهم محكوم بجرائم لا تمثّل تهديداً جدياً للمجتمع. لقد كانت الوثيقة تعبّر في معناها عن ضرورة القيام بعفو عام واسع. وتقدّم وزير الداخلية الجديد بمشروع مرسوم اقترح فيه إطلاق سراح حوالى مليون شخص، أي كل ثاني معتقل تقريباً. في ٢٧ آذار/مارس أقرّ مجلس السوفيات الأعلى هذا المرسوم.

يتذكّر قدامى العاملين في أمن الدولة بأن الجو نفسه، الذي كان سائداً في مكاتب الأجهزة التأديبية، قد تغير إلا أن التغييرات، كما أصبحنا نعرف، كانت محكومة بالفشل، شأنها شأن الناس، الذين أطلقوها. فقد كان كلٌّ من خروتشوف ومالينكوف قد أصبح مندفعاً في الطريق نحو سلطة مطلقة...

يقال إن من المستحيل الغطس في النهر نفسه مرتين. لكن والدي حاول ذلك. لقد اعتقد، كما يبدو، أن الوضع في أواسط آذار/مارس١٩٥٣ قريب من الوضع الذي كان سائداً حين تسلّم هذه الوزارة للمرة الأولى. لكن الأمر أسهل الآن. فهو لم يعدّ جديداً على مواقع السلطة في الكرملين، كما كانت الحال في العام ١٩٣٨، ولا يخيم على البلاد خطر حرب كبرى، كما أن ستالين لم يعد موجوداً. هذا إضافة إلى أنه محاط بأشخاص يؤيدونه في آرائه. زملاء! هذا على الأقل ما كان يعتقده.

في المرة الأولى، قبل الحرب، بدأ بالأمر نفسه: بإعادة الاعتبار إلى سلطة القانون. ولحسن الحظ، فإن الوثائق التي تثبت مشاركة والدي النشطة في الصراع ضد الطغيان لا تزال موجودة.

مقتطفات من مصادر رسمية:

في شباط/فبراير ١٩٣٩، تم اعتقال مجموعة من العاملين في القسم الخاص التابع لأسطول البلطيق بسبب الاعتقالات الجماعية غير المبررة واستخدام الوسائل غير القانونية في إجراء التحقيقات، وأحيلوا إلى المحاكمة. ويحمل أمر إحالة المذنبين إلى القضاء الجزائي توقيع مفوض الشؤون الداخلية لافرنتي بيريا.

في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٩، أصدرت مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي أمراً "حول التقصيرات في عملية إجراء التحقيقات في أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية"، قضى بإطلاق سراح المعتقلين بصورة غير شرعية في أنحاء البلاد، وإقامة رقابة صارمة لمراعاة كل أحكام القضاء الجزائي. وكان المفوض الجديد ل.ب. بيريا قد وقّع قبل ذلك، في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، أمراً حول مقتضيات تنفيذ المرسوم "حول الاعتقالات ومراقبة النيابة العامة وإجراء التحقيقات". وقد أدانت هذه الوثيقة الاعتقالات الجماعية ونظام التحقيقات المبسّط الذي كان معشساً في أجهزة مفوضية الداخلية، والذي كان يكتفي المحقّق بمقتضاه بالحصول على الاعتراف من قبل المتّهم، دون أن يهتم بتدعيم هذا الاعتراف بشهادات الشهود والفحوص المخبرية والإثباتات المادية.

لقد تم حظر القيام بأية عمليات اعتقال جماعية وعمليات تهجير، ولم يسمح بإجراء الاعتقالات إلا بأمر من المحكمة أو بإذن من النيابة العامة، وتم إلغاء "الترويكا" القضائية، وبدأ التشدد في محاسبة الأشخاص الذين يخالفون القوانين. وسرعان ما تم تحويل العديد من العاملين في مفوضية الشؤون الداخلية إلى المحاكم ممن كانوا يحرّفون الوثائق المتعلقة بالتحقيقات، ويمارسون التزوير ويعتقلون الناس الأبرياء.

إلا أنهم لم يسمحوا للوزير الجديد بالمساس بأحد المتورطين الرئيسيين في هذا الأمر. وهكذا، وكما كانت الحال دائماً، أفلت فوروشيلوف من العقاب من جديد، غير أن "ماريشالنا الأول" احتفظ بكرهه لوالدي طويلاً. فحين

ستدعو القيادة الحزبية في العام ١٩٥٣ إلى الاجتماع الموسع للجنة المركزية لإدانة "المتآمر"، سوف يدعم فوروشيلوف، نجم الجيش الأحمر، والذي يتحمّل المسؤولية عن عشرات آلالاف من الضحايا، أكثر الأقوال سخافة وكذباً. ولم يتخلف عنه في ذلك مالينكوف وخروتشوف وكاغانوفيتش وجميع أولئك الذين تلطّخت أيديهم بدماء الملايين من الناس.

لا يزالون ينشرون الأكاذيب عن بيريا حتى يومنا هذا. في العام ١٩٩٣، نشرت عدة صحف أوكرانية دفعة واحدة "أمراً سرياً، عُثر عليه في أرشيف الدولة للمنظمات الاجتماعية" وأرفقته بالتعليق عليه، نورد فيما يلي هذا الأمر مع شيء من الاختصار:

"سرّي للغاية

الأمر رقم٠٠٠٧٨/٤٢

٢٢حزيران/يونيو ١٩٤٤

مدينة موسكو

مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ومفوضية الشعب للدفاع في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية.

الموضوع : القضاء على التخريب في أوكرانيا ومراقبة ضباط وجنود الجيش الأحمر الذين تم تجنيدهم من المناطق المحررة في أوكرانيا.

من خلال المعلومات المخابراتية تأكد التالي:

يُلاحظ خلال الفترة الأخيرة عداء واضح لدى السكان في أوكرانيا، ولا سيما في مناطق كييف وبولتافا وفينيتسا وروفين، تجاه الجيش الأحمر وهيئات السلطة السوفياتية المحلية. ويقاوم السكان في بعض مناطق وأقاليم أوكرانيا تنفيذ تدابير الحزب والحكومة لإعادة إحياء الكولخوزات وتسليم القمح من أجل احتياجات الجيش الأحمر... ولهذا، وبهدف القضاء على التخريب ومراقبة ضباط وجنود الجيش الأحمر الذين تم تجنيدهم من المناطق المحررة في أوكرانيا،

آمر بما يلي:

١) إبعاد جميع الأوكرانيين الذين كانوا يعيشون تحت سلطة المحتلين الألمان إلى المناطق النائية في الاتحاد السوفياتي.

ينفذ الإبعاد

أ) بحق الأوكرانيين الذين عملوا وخدموا لدى الألمان، بالدرجة الاولى.

ب) بحق جميع الأوكرانيين الباقين الذين انخرطوا في الحياة أثناء الاحتلال الألماني، بالدرجة الثانية.

ج) ينفّذ الإبعاد بعد جمع المحصول وتسليمه للدولة من أجل احتياجات الجيش للأحمر.

٢) ينفذ الإبعاد ليلاً فقط ومباغتة، حتى لا يتمكن الآخرون من الاختباء، وحتى لا يتمكن أفراد أُسَر المبعَدين من معرفة الذين يخدمون في الجيش الأحمر.

٣) تنظيم المراقبة على ضباط وجنود الجيش الأحمر من المناطق المحتلة على النحو التالي:

أ - فتح ملفات خاصة لكل منهم في الأقسام الخاصة.

ب - التدقيق في جميع الرسائل، ليس عبر الرقابة، بل عبر القسم الخاص.

ج - تعيين متعاون سري واحد لكل ٥ أشخاص من الضباط والجنود.

٤)- نقل الفرقة الثانية عشرة والفرقة الخامسة والعشرين التأديبية التابعتين لمفوضية الشؤون الداخلية إلى أوكرانيا من أجل النضال ضد العصابات المعادية للسوفيات.

وتبليغ الأمر حتى مستوى قائد الكتيبة.

مفوض الشعب للشؤون الداخلية في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية

بيريا

نائب مفوض الشعب للدفاع في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية

جوكوف

أصادق: رئيس القسم الرابع

الكولونيل فيودوروف

للتذكير: خروتشوف أيضاً تحدث في حينه عن ضرورة "سَوق" جميع الأوكرانيين إلى سيبيريا. إلا أنه في الحقيقة، لم يدخل، في التفاصيل. أليس هذا هو الأمر السري الذي كان يقصده السكرتير الأول السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي؟

إلا أن الخبر المثير، وخلافاً للكثير من الأخبار المماثلة، سرعان ما افتضح أمره. فلم يطل الوقت حتى نشرت تلك الصحف الأوكرانية المركزية نفسها، وكذلك وكالات الأنباء، أن الوثيقة مزيّفة. إن التزوير، الذي تم بتكليف من قدامى محاربي الحرب الوطنية العظمى، قد جرى فضحه على يد رئيس مجلس سوفيات مدينة كييف لقدامى المحاربين الجنرال- ليتنانت أ.شاريغين، ورئيس اللجنة الأوكرانية لأبطال الاتحاد السوفياتي ومواطن الشرف في مدينة كييف الجنرال - ليتنانت م. بيليبينكو :

"إن هذه "الوثيقة"، من حيث شكلها ومضمونها، قد اثارت فوراً لدى قراءتها شكوكاً جدية حول صحتها لدينا، نحن قدامى محاربي الحرب الوطنية العظمى (والعديد من بيننا كانوا يشغلون في الجيش مناصب قيادية). وبالفعل فإن التدقيق الذي جرى في أرشيف الإدارات المذكورة، قد بيّن ان مثل هذا الأمر لا وجود له اساساً. صحيح انه تحت أحد الارقام المذكورة يوجد امر صادر عن مفوضية الشؤون الداخلية، إلا انه ذو محتوى مختلف كلياً.

"لكن أشد ما أثار دهشتنا هو الاطّلاع على الوثائق المحفوظة في أرشيف الدولة للمنظمات الاجتماعية في اوكرانيا. فالوثيقة المذكورة في الصحيفة محفوظة بالفعل هناك. إلا أن هذه الوثيقة هي عبارة عن منشور الماني رمى به الإلمان في العام ١٩٤٤ على طول خط الجبهة. وقد تم إعداد هذا المنشور في إدارة غوبلز، وتشير إلى ذلك العلامة الفارقة الموجودة عليه.

"والمنشور محفوظ مع المناشير الاخرى المماثلة التي كانت تتضمن الاكاذيب والاستفزازات. ولدى التدقيق، اتضح كذلك أنه، في العام ١٩٩٢، اطّلع بالفعل على هذا المنشور ف. ماروتشكين، العامل في معهد الآثار التابع لاكاديمية العلوم في أوكرانيا. فهذا الشخص بالذات هو الذي نفخ في كذبة غوبلز "الحياة من جديد" وقدّمها كوثيقة حقيقية. وقد استخدم لاحقاً هذه الكذبة القذرة لاغراضه الخاصة

زعيم "روخ[1]" الشهير إيفان دراتش في إحدى مقالاته وأسماها "القنبلة التي انفجرت وسط القراء". إننا ندرك جيداً الهدف من وراء ذلك...".

إن الهدف واضح للعيان، الفعل: السياسة... إلا أننا نعتقد أن قصة هذه الوثيقة المزوَّرة هي قصة- نموذج. فكم من "الشهادات الموثقة" المثيلة لا تزال تجول في العالم!.

(١) منظمة المتعصبين القوميين الأوكرانيين ـ المترجم.

الفصل الرابع

في دهاليز المخابرات

ريخارد زورغي، ليف مانيفتش، كيم فيلبي، جورج بلايك، ليوبولد تريبير... هذه الأسماء الكبيرة لا تزال، حتى بعد مرور عشرات السنوات، تختزل معرفة المجتمع عن الناس الذين عملوا في المخابرات السوفياتية. ولا غرابة في الأمر فالمخابرات تجيد حفظ أسرارها، بالطبع. فلا تزال طي الكتمان حتى الآن، على سبيل المثال، حقيقة أن صديقة إيفا براون، الممثلة السينمائية أولغا تشيخوفا، كانت تعمل لصالح المخابرات السوفياتية. وهي بالمناسبة، قريبة أنطون بافلوفيتش (تشيخوف)... وكانت تقيم أياماً وليالي مع أسرة هتلر.

مقتطفات من مصادر رسمية:

أولغا تشيخوفا: ولدت في العام ١٨٩٦ في ضواحي بتروغراد في أسرة مهندس المواصلات كونستانتين ليوناردوفيتش كنيبر. في العام ١٩١٦، تزوجت من الممثل في مسرح موسكو الفني ميخائيل تشيخوف الذي هاجر في العشرينيات إلى خارج البلاد. بعد طلاقها من زوجها في العام ١٩٢٢ سكنت في موسكو لدى عمّتها، الممثلة في مسرح موسكو الفني والحائزة لقب فنانة الشعب في الاتحاد السوفياتي، اولغا ليوناردوفنا كيبر- تشيخوفا. في العام ١٩٢٢، غادرت إلى الخارج.

تجدر الإشارة إلى أنني سبق أن ذكرت اسم الجاسوسة السوفياتية في العام ١٩٩٢. بعد عام على ذلك، كشفت الصحافة الروسية عن بعض الوثائق المتعلقة

بحياة أولغا تشيخوفا، مشددة على أنها لم تكن في يوم من الأيام جاسوسة سوفياتية. هذا، على الأقل، ما أعلنته أجهزة أمن الدولة.

مقتطفات من إفادة موقعة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٥ من قبل رئيس القسم الرابع في المديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (سميرش) (SMERCH) الميجور ـ جنرال اوتيخين:

"في العام ١٩٢٢، غادرت أولغا تشيخوفا البلاد إلى الخارج بهدف التحصيل العلمي في حقل السينما. وكانت لا تزال حتى الفترة الأخيرة تعيش في منزلها الخاص في المانيا - برلين، غروس كلينك. اشتهرت في حياتها في الخارج كممثلة سينمائية وشاركت في افلام سينمائية في كل من المانيا وفرنسا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا، وفي البلقان وفي هوليوود (الولايات المتحدة الأميركية). الى جانب ذلك، أخذت تعمل، منذ استسلام المانيا، في مسارح برلين الخاصة. في العام ١٩٣٦، حصلت على لقب "فنانة الدولة في المانيا".

وفقاً للمعطيات الاستخبارية وللإفادات التي أدلى بها عميل المخابرات الألمانية ب.ف. غلازونوف الذي اعتقل من قبل مديرية مكافحة الجاسوسية (سميرش) في القوات السوفياتية التي احتلت ألمانيا، والذي كان على معرفة بتشيخوفا منذ الطفولة وحتى الفترة الأخيرة، فإن أولغا تشيخوفا، كممثلة مشهورة، حضرت غير مرة حفلات الاستقبال الرسمية التي كان يقيمها زعماء ألمانيا الفاشية، وكانت صديقة مقربة لكل من هتلر وغوبلز وكبار النازيين الآخرين.

بعد احتلال برلين من قبل الجيش الأحمر نُقلت تشيخوفا إلى موسكو وأُسكنت في شقة سرية تابعة للمديرية العامة (سميرش). وأثناء إقامتها في موسكو تم استجوابها على نحو مفصّل حول علاقاتها بقادة ألمانيا الفاشيين. وقد أكدت تشيخوفا في الإجابات التي أدلت بها أنها قد حضرت غير مرة، بصفة ضيف مدعو، حفلات استقبال في وزارة الدعاية في ألمانيا، وكانت تلتقي كلاً من هتلر وغوبلز وغيرنغ وروبنتروب وسواهم. إلا أن حفلات الاستقبال كانت

تحمل، كما أشارت تشيخوفا، طابعاً رسمياً فقط، وكان يحضرها دبلوماسيون وعلماء وأدباء وممثلون. وأوضحت تشيخوفا أن كثيرين في ألمانيا ممن يحسدونها لشهرتها أو ممن يرغبون في تشويه صورتها أمام الروس، يمكن أن يتحدثوا عن وجود علاقات حميمة لديها مع هتلر أو سواه من المحيطين به، لكن لم يكن لها مثل هذه العلاقات مع هؤلاء الأشخاص.

قالت تشيخوفا إنهم سوف يحاولون نشر الافتراءات عليها في ألمانيا كذلك. وقد صرحت بذلك للعاملة في المديرية العامة (سميرش) التي كانت تشاطر تشيخوفا السكن في الشقة كموظفة في مؤسسة أنتوريست[1] وكمثال على ذلك، روت تشيخوفا أنه في العام ١٩٤٥ بثت محطة إذاعة أتلانتيك خبراً مفاده أن تشيخوفا تزوجت من السفير الأفغاني في ألمانيا واعتنقت الاسلام. كما بثت المحطة نفسها لاحقاً خبراً يقول إن تشيخوفا فرت مع القادة الألمان من برلين إلى مدينة أخرى، وبدأت تزاول العمل السياسي. أثناء إقامتها في موسكو، كانت تشيخوفا تدوّن مذكراتها وتحرص على إخفائها عن الأعين. وقد أظهر الاطلاع السري على المذكرات أن تشيخوفا كانت تدوّن انطباعاتها عن إقامتها في موسكو. وقد سجّلت تشيخوفا الانطباعات التالية حول الأسئلة الموجهة إليها والمتعلقة بصلاتها مع القادة النازيين:

"إن الأخبار التي تنشر حولي تستحق كتابة قصة. ويبدو أنه قد تم الحصول على معلومات تفيد بأنني كنت على علاقة حميمة بهتلر. يا إلهي، لقد ضحكت كثيراً لهذا الأمر. كيف تُدبّر هذه الدسائس ولماذا؟ افتراء سافل لا يصدق ! حين يكون الضمير مرتاحاً فلا شيء يمس المرء. كم هو رائع أن تتمكن من قول الحقيقة. إن الزمن سوف يُظهر ما إن كانوا يرغبون في تصديق ما أقول..."

تتوفر كل الأسباب للقول إن الممثلة القديرة كانت تلعب حينذاك، في موسكو، مع المؤسسة العسكرية لمكافحة الجاسوسية (سميرش) ومع الأجهزة الأمنية. وما قصة المذكرات "والاطلاع السري" عليها إلا تأكيد إضافي لذلك. فكل ما كتبته أولغا تشيخوفا، كان من الواضح أنه موجّه إلى الأشخاص

(١) المؤسسة التي كانت تتولى كافة الشؤون المتعلقة بالسياحة على الأراضي السوفياتية - المترجم.

العاملين في إدارة أباكوموف. ويظهر أن العاملين في (سميرش) كانوا يصدّقون فعلاً أن، المرأة التي كانت تدوّن مذكراتها في شقة سرية تابعة للمؤسسة العسكرية لمكافحة الجاسوسية هي امرأة ساذجة، وأنها تصدّق أن ذلك سوف يبقى سراً... لم تكن أولغا كونستنتينوفا شخصاً ساذجاً وما كان بوسعها أن تكون كذلك.

لقد تصرّفت على نحو ممتاز خلال التحقيقات. إذ حتى أباكوموف، رئيس المديرية العامة لمكافحة التجسس ونائب مفوض الدفاع، لم يعرف أن المواطنة الألمانية أولغا تشيخوفا، التي اعتقلت في منطقة القوات السوفياتية المحتلة، هي جاسوسة سوفياتية فما بالك بالآخرين إذاً...

لا يدهشني إطلاقاً أن أجهزة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي السابق وروسيا حالياً لم تتمكن من تأكيد علاقة أولغا تشيخوفا بنشاط المخابرات السوفياتية. إن مثل هذه الوثائق غير متوفرة بالتأكيد، وتفسير ذلك بسيط: لم يقرّر والدي كشف أمرها لا آنذاك أي عام ١٩٤٥، ولا فيما بعد، وهي حادثة مميزة إلى حد بعيد. إنني أعرف معرفة دقيقة أنه توجد مئات الأسماء التي لم يرد لها أي ذكر في ملفات أجهزة أمن الدولة. فقد كان والدي يعتبر أن "العميل السري الحقيقي لا يجوز أن يمر عبر الجهاز".

لقد كان هذا الأمر ترتيباً متبعاً في الاستخبارات السوفياتية الاستراتيجية التي ترأسها والدي لمدة ١٥ عاماً. أما في الأجهزة الأخرى: (GRU) - (NKGB) (MGB) - (KGB)، فقد كان الأمر مختلفاً ويشبه "مكتب المحاسبة"، مما أدى في العديد من الحالات إلى فشل الكثيرين من العملاء الجيدين. فقد كان يكفي أن يوجد خائن في أحد المراكز العاملة في الخارج حتى تقع كل شبكة العملاء في أيدي العدو. والأمثلة على ذلك كثيرة، للأسف، في تاريخ المخابرات السوفياتية...

وبالمناسبة، فإن مثل هذا النظام كان موجوداً لدى الإنكليز أيضاً، فبعض العملاء كانوا يمرون عبر "مكتب المحاسبة"، والبعض الآخر لا يمر عبره. وليس من الصعب أن يحزر المرء أيّاً من العملاء كان أقرب إلى الفشل...

إنني أعرف أنه كان يوجد لدى والدي عدد من الأشخاص الذين كان يثق بهم ثقة مطلقة. مثل هؤلاء الأشخاص كانوا يشكّلون صلة الوصل مع المخبرين، شأن أولغا تشيخوفا. وكان تسرّب المعلومات، حتى في حال اختراق العدو للمديرية العامة للمخابرات (GRU)، أو مفوضية الشعب لأمن الدولة (NKGB) أو وزارة أمن الدولة (MGB)، أمراً مستحيلاً بالمطلق.

بعض الأشخاص، الذين كانوا يعملون لصالح المخابرات السوفياتية ويحتلون مواقع رفيعة جداً في ألمانيا وبريطانيا وسواهما من البلدان، كانوا "يرتبطون" بوالدي مباشرة، وأعرف أن هؤلاء كانوا كثراً. بعض هؤلاء، أعتقد بأن ستالين كان يعرفهم. أما أعضاء المكتب السياسي، فمن المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفونهم. ولم يكن يوجد أي استثناء. وستالين نفسه لم يكن يبدي، على حد علمي، اهتماماً خاصاً بمصادر المعلومات. فلم يكن يهتم بالتفاصيل، عادة، فقد كان يطرح المهمة، ولم يكن يهتم كثيراً بالطريقة التي ستتحقق بها هذه المهمة. كان ستالين يهتم عادة بالنتيجة النهائية وليس بالنتائج الوسطية. وكانت تقارير والدي حول هذه المعطيات الاستخباراتية أو تلك، كافية كلياً.

وتجدر الإشارة إلى أن ستالين لم يكن يثق بأحد ثقة مطلقة. فقد كان يتلقى المعلومات عبر قنوات الاستخبارات الاستراتيجية ومخابرات مفوضية الشعب لأمن الدولة (NKGB) ومديرية مخابرات الدولة (GRY) والمديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (SMERCH) سميرش. ولا آخذ على عاتقي الفصل فيما إذا كانت هذه الازدواجية جيدة أم سيئة، إلا أنها كانت موجودة. ويبدو أنها كانت تناسب قيادة البلاد جدّاً.

كان يوجد، بالطبع، تبادل للمعلومات بين أجهزة المخابرات. إلا أن المخابرات الاستراتيجية، وبإصرار من والدي، كانت تشكل استثناء. فقد كان ينطلق، كما أفهم، من نظام سرية خاصة، إذ لم يكن يسمح لأحد قط أن يتّصل بعملائه. هكذا كان على الأقل، بعد العام ١٩٤٢، حين خرجت أجهزة أمن الدولة ومعها مخابرات مفوضية الشؤون الداخلية من دائرة سلطته.

أتحدث في هذا الكتاب عمّن يسمّون بجواسيس "الذرّة" أيضاً. لقد كان النجاح هائلاً، لكن حدثت إخفاقات كان يمكن تفاديها، كما كان يفيد والدي. وسبب هذه الإخفاقات يعود إلى تدخل الأجهزة المختلفة، فما كانت لتتدخل حتى "يفسد الأمر". لقد كانت "المباراة الاشتراكية"[1] في المخابرات تنتهي دوماً على نحو محزن. فكل مجموعة وكل مركز كان يطمح لنيل قصب السباق، مما كان يؤدي إلى الفشل. وهذا ما حصل مع أولغا تشيخوفا. فقد تدخلت (سيمرش) بما لا يعنيها...

حين علم والدي بأن الممثلة الألمانية أولغا تشيخوفا قد جرى توقيفها، سأل أباكوموف عمّا ينوي القيام به تجاهها، وما هي المستمسكات لدى مديرية مكافحة الجاسوسية على هذه المرأة. لم تكن توجد لدى (سميرش) أية معطيات لتوقيف تشيخوفا...

قال والدي: في مثل هذه الحال ينبغي إطلاق سراحها، ولتغادر إلى ألمانيا...

وبالفعل غادرت تشيخوفا إلى ألمانيا. ولم تعانِ هي وابنتها، كما أعرف، من شظف العيش، ولم تعودا إلى الاتحاد السوفياتي.

لقد تعاونت أولغا تشيخوفا مع والدي سنوات طويلة. وأنا أعرف مَن جنّدها وعلى أي أساس تم ذلك، لكن لا أعتبر أن من حقي الحديث عن مثل هذه التفاصيل المتعلقة بسيرة حياة الجاسوسة. أستطيع القول فقط إنه لم تحدث أية استفزازات تجاه أولغا تشيخوفا، وكانت تعمل لصالح المخابرات الاستراتيجية السوفياتية ليس بدافع مادي إطلاقاً.

من العسير إيفاؤها حقها، من خلال تقدير مساهمتها في نجاح مخابراتنا. فقد كانت أولغا كونستانتينوفا بحق مصدراً لا يثمّن للمعلومات، وليس عبثاً كان يحرص عليه بيريا كل هذا الحرص. فهي لم تورد كلمة واحدة عن حياتها

---

(١) المباراة الاشتراكية: الشكل الرئيسي لتحفيز العاملين في كافة مجالات العمل لزيادة الإنتاجية، من الأشكال العملية التي اتخذتها هذه المباراة أيام "السبت الشيوعي" وسواها- المترجم.

الأخرى (الأساسية) في مذكّراتها التي نشرت في ألمانيا الفيدرالية. وفي المقابل، كانوا في خريف ١٩٤٥، لا يزالون يسمّونها في الصحافة الغربية "الجاسوسة الروسية التي استحوذت على هتلر" و"ملكة الرايخ النازي"، حتى أنهم كتبوا أن ستالين استقبلها في موسكو ومنحها وسام لينين. لكن الشكوك بأنها كانت تعمل لصالح الاتحاد السوفياتي، بقيت شكوكاً ليس إلا.

منذ فترة غير بعيدة، أصبح مصير حفيدة أرملة كلاسيكي الأدب الروسي[١] موضع اهتمام ابن خالتها فلاديمير كنيبر. وكان قد توجّه، في حينه، بطلب إلى ليونيد شيبارشين آخر رئيس للمديرية العامة الأولى في الكي.جي.بي. في الاتحاد السوفياتي، يلتمس فيه التدقيق في بعض التفاصيل المتعلقة بسيرة حياة قريبته. إلا أن المخابرات، كما أصبح يعرف القارىء، لا تملك سوى المعلومات المتعلقة بمجيء تشيخوفا إلى موسكو في عام النصر، عام ١٩٤٥، ومحاضر استجوابها، الذي جرى من أواخر شهر نيسان/إبريل حتى خريف العام ١٩٤٥ نفسه. إلا أن الحادثة التي يرويها ابن خالة أولغا تشيخوفا تبدو أكثر أهمية: "في يوم من أيام زمن ما بعد الحرب المضطرب اتصل عسكري مجهول بأولغا ليوناردوفنا[٢]، وأخبرها بأنه يحمل لها طرداً من برلين. طلبت كنيبر من صديقة العائلة الممثلة صوفيا ستانيسلافوفنا بيليافسكايا الذهاب لإحضار الطرد. وتبين أن الطرد كان يضم ملابس نسائية فاخرة وكل ما هو ضروري لحفلات الاستقبال المسائية. كما كان يحتوي على رسالة من أوليا تشيخوفا ابنة أولغا تشيخوفا، تطلب فيها اطلاعها على سير أمور والدتها في زيارتها الفنية إلى "المسرح الفني"، وما إذا كانت تمثّل في "الشقيقات الثلاث"[٣]؟ ذهلت أولغا ليوناردوفنا، وطلبت من كاتشالوف أن يتحقق من خبر زيارة أولغا تشيخوفا الفنية لبلادنا. اتصل هذا بجنرال يعرفه في الوحدات السوفياتية في برلين، وفوجىء بإجابة زادت في بلبلة الوضع: "لا أعرف شيئاً عن تشيخوفا، ولا تتصل لاحقاً. انسَ الأمر".

(١) المقصود: أنطون تشيخوف ـ المترجم.
(٢) زوجة كنيبر ـ المترجم.
(٣) المسرحية الشهيرة للكاتب الروسي الكبير أنطون تشيخوف-المترجم.

يتساءل قريب الممثلة المشهورة: "قد يكون المفترض بنا ألا نتحزر، بالفعل، وليبقَ السرّ سراً". ولكن يبدو أن الحجاب الذي يخفي وراءه السرّ الذي أقض مضاجع أقرباء أولغا كوسنستانتينوفا لسنوات طويلة، قد كشف. وثمة أمر جلي واحد اليوم: إن "ملكة الرايخ النازي" أولغا تشيخوفا كانت بين أولئك الذين ناضلوا بشجاعة ضد الفاشية على الجبهة غير المرئية.

لقد عملت لصالح الاتحاد السوفياتي ممثلة أخرى مشهورة أيضاً، هي المجرية ماريكا روك. فإذا كانت أولغا تشيخوفا شخصاً قريباً من أسرة هتلر، فإن ماريكا روك كانت شخصاً من "أهل البيت" في أسرة وزير الرايخ للدعاية غوبلز. لقد كانت ماغدا غوبلز امرأة خشنة في حياتها، إلا أنها كانت تستلطف الممثلة الشهيرة. وكان غوبلز نفسه يستلطف صديقة زوجته. غير أن ماريكا لم تكن حالة استثنائية خاصة، إذ كان وزير الرايخ يهوى النساء. وبقي هتلر لفترة طويلة لا يستقبله بسبب علاقته الغرامية مع نجمة سينمائية تشيكية. ومهما يكن من أمر، فإن ماريكا روك كانت تملك منفذاً إلى معلومات استخباراتية فائقة الأهمية، من دون مبالغة، وكانت تبلغ بها موسكو عبر قناة المخابرات الاستراتيجية السوفياتية. حين دخلت وحداتنا إلى ألمانيا انتقلت ماريكا إلى النمسا، حيث قدّموا لها المساعدة لإنشاء شركة إنتاج أفلام سينمائية. وقد انتقلت لاحقاً، كما أعرف، للعيش في المجر.

حين أقرأ أن المخابرات السوفياتية لم تتوصل إلى نتائج جدية في ألمانيا، فإن هذا، على الأقل، يدهشني. إن مثل هذه التأكيدات تعود، على الأغلب، إلى جهل الوقائع الفعلية. وفي الوقت نفسه، (ولست أدري ما هو المغزى من إخفاء ذلك لمدة نصف قرن تقريباً) كان للمخابرات السوفياتية عدة أشخاص في قيادة الأركان الألمانية يمدون المركز على نحو منتظم بوثائق بالغة الأهمية، وصولاً إلى خطط عمليات الجبهة.

لقد عمل لصالح المخابرات السوفياتية أشخاص كانوا يحتلون مناصب رفيعة جداً في الإدارة الحزبية وفي قيادة الغستابو وفي الإدارات الأخرى للدولة في ألمانيا. وكانوا يدخلون في عداد المحيطين بهتلر وسواه من الشخصيات

القيادية في الرايخ الفاشي. لقد ذكرت أولغا تشيخوفا فقط، إلا أن مثل هؤلاء الأشخاص، حتى ضمن المحيط الأقرب إلى هتلر، كانوا كثراً. أما لماذا أعتبر أن من غير الممكن ذكر أسمائهم، فلأنه لن يسعد أحد في الغرب اليوم حين يعرف أن جده ووالده عميلان بالغا الأهمية للمخابرات السوفياتية وللافرنتي بيريا شخصياً.

"كانت المخابرات السوفياتية، على امتداد الحرب كلها، تمتلك معلومات عن حلفاء الاتحاد السوفياتي أفضل من تلك التي تمتلكها عن ألمانيا الهتلرية..." "إن النصر في ستالينغراد لم يتم إحرازه بفضل نوعية المخابرات السوفياتية بل على العكس..." إن هذه "المصارحات" لبعض المؤرخين، أو على الأقل، للناس الذين يعتبرون أنفسهم كذلك، يقشعر لها البدن. ويتم كل ذلك في ظل وجود هذه الكمية الهائلة من المصادر ذات الأهمية البالغة في برلين! إنه أمر مثير للضحك... إنني أجرؤ على التأكيد أنه قبل الحرب وعلى امتداد الحرب كلها، كانت على الأراضي الألمانية، شبكة استخبارات متشعّبة تعمل بفاعلية عالية. لقد تكبّدت المخابرات العسكرية خسائر جدية (وهذا معروف على نطاق واسع). لكن إخفاق عدد من رجال المخابرات العسكريين لم يكن بسبب خيانة أحد ما، بل لسبب عادي للغاية، ذلك أن الألمان أخذوا يستخدمون الأجهزة الكاشفة للاسلكي. أما رجال مخابراتنا، فقد استمروا لفترة طويلة يعملون على ذبذبة واحدة. لقد تم اعتقال عدد من عاملي اللاسلكي، لكن لم تستتبع ذلك فجوات كبيرة في عمل المخابرات، حيث جرى مباشرة تشغيل شبكة الاتصالات اللاسلكية الخارجية في كل من هولندا ولوكسمبورغ وغيرهما من البلدان. ومن أجل نقل المعلومات التي كانت تحصل عليها المخابرات السوفياتية على أراضي ألمانيا النازية، كانت تستخدم على نحو نشيط المقرات الخارجية للمخابرات في كل من فرنسا والبلدان الاسكندنافية.

لقد عملت المخابرات السوفياتية على نحو ممتاز في بلدان أخرى أيضاً. فمدير المخابرات الفرنسية، والرجل الثاني في المخابرات البريطانية... ليسا الرجلين الوحيدين اللذين عملا لصالح الاتحاد السوفياتي...

لقد ترأس والدي المخابرات الاستراتيجية السوفياتية خلال سنوات عديدة، وهو الأمر الذي جرى التكتم عليه بشكل محكم في الاتحاد السوفياتي. في حين كانت تنشر على نطاق واسع الوثائق التي يطالب فيها والدي "بسحق" رجال المخابرات الذين أبلغوا المركز استعداد ألمانيا للحرب في "غبائر معسكرات الاعتقال"...

مقتطفات من قصة أوفيد غارتشاكوف الوثائقية "العتبة، أو مأساة كاساندرا":

من تقرير ل. ب. بيريا إلى ي. ف. ستالين: "في ٢١ حزيران/يونيو ١٩٤١.. إنني أصر مجدداً على استدعاء ومعاقبة سفيرنا في برلين ديكانوزوف، الذي يمطرني، كما في السابق، بالتقارير عن هجوم مزعوم يجري الإعداد له على الاتحاد السوفياتي. لقد أبلغ أن هذا "الهجوم" سيبدأ غداً... كما اتصل بالراديو الميجور جنرال ف.إي توبيكوف، الملحق العسكري في برلين. يؤكد هذا الجنرال الغبي أن ثلاث مجموعات جيوش من الفيرماخت[1] سوف تزحف على موسكو ولينينغراد وكييف، مستنداً في ذلك إلى عملائه في برلين... وهو يطلب بوقاحة أن نزوّد هؤلاء الكاذبين بأجهزة اللاسلكي... إن الجنرال ـ ليتينانت ف.اي.غوليكوف رئيس مديرية المخابرات، حيث كانت عصابة بيرزين حتى فترة وجيزة لا تزال تنشط، يشكو من ديكانوزوف ومن الليتنانت ـ كولونيل التابع له نوفوبرانتسوف، الذي يكذب هو الآخر أيضاً، زاعماً أن هتلر قد حشد ١٧٠ فرقة ضدنا على حدودنا الغربية... إلا أننا نؤمن، أنا والعاملون معي، بإرشادك الحكيم يا يوسف فيساريونوفيتش: في العام ١٩٤١ لن يهاجمنا هتلر".

إنني أملك كل الأسباب لأؤكد أن ما أورده غارتشاكوف من تقرير لوالدي إلى ستالين هو تزوير عادي. فمن كان يزمع بيريا أن "يسحق في غبائر معسكرات الاعتقال"؟ هل هي أولغا تشيخوفا أم عشرات الأشخاص الآخرين الذين أبلغوا عن بداية الحرب قبل اندلاعها بزمن طويل؟ إنني أفترض أنه، ببساطة، نزل عند رغبة اجتماعية في تلفيق الأكاذيب مرة أخرى على والدي.

(١) الجيش الألماني - المترجم.

من قصة أوفيد غارتشاكوف الوثائقية:

بحبر بنفسجي، بهت لونه على مر الزمن، يبرز على الإضبارة القديمة، التي تُحفظ في داخلها هذه الإبلاغات، رقم الخزانة والتوصيف واسم القضية. حين تفتح الإضبارة يقفز إلى ناظريك قرار كتبته بقلم الحبر يد واثقة: "كثيرون من العاملين يخضعون في الفترة الأخيرة للاستفزازات الوقحة ويزرعون البلبلة. إن العاملين السريين في كل من "يا سترب"[1] و "كارمن" و"الماس" و"فيرني[2]" وبسبب التضليل المنهجي، يجب أن يسحقوا في غبائر معسكرات الاعتقال كمتعاونين مع العملاء الدوليين الذين يرغبون في زرع الشقاق بيننا وبين ألمانيا. أما الباقون، فينبغي توجيه تحذير صارم لهم".

التوقيع: "ل. بيريا ٢١ حزيران/يونيو ١٩٤١"

إن في الأمر ما يبعث على الإثارة أليس كذلك؟ "إضبارة قديمة" من أرشيف سري وقرار "كتبته بقلم الحبر يد واثقة" وتهديد بالسحق في غبائر معسكرات الاعتقال"... إن هذه "التركيبة"، وليعذرني القارىء على هذه الحدة في التعبير، لم تُنشر قط في أي مكان من قبل الأجهزة السوفياتية الرسمية، مع العلم أنه يتم الاستشهاد بها منذ سنوات عدة، فما القضية؟ بالطبع لا وجود لهذا التقرير الغبي، كما لا وجود للقرار الذي لا يقلّ عنه غباء والذي ينسب للشخص الذي كان يعرف أكثر من أي إنسان آخر اليوم المحدد للهجوم الألماني وساعته. ولهذا السبب السخيف بالذات، لم يكن بوسع ستالين أن يكتب على تقرير مخابراتي، حتى بالقلم الأحمر، كما أكد غارتشاكوف، قراراً يقول: "هذه المعلومة هي استفزاز بريطاني. تحرّوا عن صاحب هذا الاستفزاز وعاقبوه". إن ستالين، برأي غارتشاكوف، لم يصدّق برقية الملحق العسكري السوفياتي من فرنسا التي كان قد احتلها الألمان منذ فترة بعيدة. إن "الوثيقة" كما يُزعم، مؤرخة بتاريخ ٢١ حزيران/يونيو. ومثل هذه "الوثائق" في هذه "القصة الوثائقية" أكثر من أن تحصى...

---

(١) ويعني الصقر - المترجم.

(٢) ويعني الوفي - المترجم.

أفضل ما يمكن عمله هو نشر كافة الوثائق المتعلقة بوالدي وبنشاط المخابرات السوفياتية عشية الحرب. لكن ينبغي نشر الوثائق وليس نماذج من التزوير الفاضح على غرار ما فعل غارتشاكوف. لكن هل غارتشاكوف هو الوحيد الذي فعل ذلك؟... إن مثل هؤلاء من دارسي تاريخ المخابرات السوفياتية العديمي الذمة كانوا كثراً في كل الأوقات. فهؤلاء هم بالذات الذين زرعوا في علم التاريخ الوطني المقولة الكاذبة عن هجوم هتلر المفاجيء على الاتحاد السوفياتي. وبالتالي، فإن مآسي المرحلة الأولى من الحرب وإخفاقاتها يتحمّل مسؤوليتها، وفق مزاعمهم، أولئك الذين لم يوفرون المعلومات الكافية لقيادة الاتحاد السوفياتي العسكرية السياسية. فلولا بيريا وديكانوزوف لما كان الانسحاب إلى الفولغا، ولما كانت الخسائر الفادحة. ومن جديد، كما نرى، فإن الحزب "لم يكن على علم"...

إنها وسيلة قديمة وفاشلة. فليس مصادفة ألا يورد غارتشاكوف إشارة واحدة إلى الخزائن المحددة التي تضم الوثائق "التي يستشهد بها. وكل المنشورات المشابهة تضم، كما هو معروف، مثل هذه الإشارات.

كان يمكن أن يشكّل حدثاً حقيقياً مبهراً، فيما لو تم الكشف عن الوثائق المتعلقة بنشاط المخابرات الاستراتيجية السوفياتية في سنوات ما قبل الحرب، حين كان والدي يترأس هذه الإدارة السرية. لقد كتب الكثير عن عمل المخابرات العسكرية ومخابرات الكي.جي.بي، أما عن المخابرات الاستراتيجية، فلم تكتب كلمة واحدة. إنني أفترض أن السبب الرئيسي في ذلك هو أن تاريخ هذه الإدارة برمّته مرتبط، بهذا الشكل أو ذاك، باسم والدي.

لم يعد سراً أن الاتحاد السوفياتي كان يمتلك منذ ما قبل الحرب خطة الهجوم الهتلري على الاتحاد السوفياتي مع كامل تفاصيل العمليات. وفي أثناء الحرب نفسها، لم تطالعنا، على ما أذكر، مفاجآت مميزة. وقد علمت المخابرات السوفياتية قبل متسع من الوقت بإعادة توجيه الجيش الألماني نحو أوكرانيا، وبالاختراق نحو ستالينغراد والقفقاز. لقد كنا نعرف ما يدور في مقر قيادة هتلر وفي الأركان العامة للجيش الألماني وفي أركان الأسلحة المختلفة.

يستحق الثناء نشاط المخابرات العسكرية ومخابرات الجبهة. فقد كان رجال المخابرات العسكرية يقومون بواجبهم حتى في أصعب مراحل انسحابنا العشوائي، ويوفرون المعلومات الضرورية للقيادة العسكرية. لكن المشكلة كانت تكمن في مكان آخر. فالأركان العامة وقادة الجبهات وتجمّعات الجيوش لم يكونوا، للأسف، يستخدمون المعلومات الاستخباراتية المتوفرة بشكل فعال. لكن هذا ليس ذنب المخابرات. إنني أعتبر أن دور المخابرات السوفياتية قد جرى التقليل منه بشكل مقصود، سواء عندنا أو في الغرب. وأقصد بذلك كل مخابراتنا، بغض النظر عن توزّعها الإداري. فليس عبثاً أن كافة القادة العسكريين قد قيّموا عالياً نشاط الأشخاص، الذين لم يكن يرد ذكرهم قط في تقارير الجبهات. ونذكر مثالاً فقط ورد في مقالة غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف التي نشرت منذ ربع قرن: "عظمة انتصار الاتحاد السوفياتي وعجز مزوّري التاريخ":

> لا شك أنه بفضل العمل الرائع للمخابرات السوفياتية في ربيع العام ١٩٤٣، توفرت لنا سلسلة معطيات هامة عن تجميع القوات الألمانية قبل الهجوم الصيفي. فبعد تحليل هذه المعطيات ومناقشتها مع قادة جبهتي فارونيج والمركز، ومع قائد الأركان العامة أ.م. فاسيليفسكي، تمكّنا من التوصل إلى استنتاجات حول الخطط المحتملة للعدو، تبين فيما بعد انها كانت صحيحة. فقد تم، وفقاً لهذه المعطيات، وضع تصورنا حول المعركة في ضواحي كورسك والذي ظهر أنه كان التصوّر الملائم كلياً. في البداية قامت القوات السوفياتية بإنهاك العدو في معركة دفاعية، ما لبثت أن انتقلت بعدها إلى الهجوم المضاد وسحق تجمعات العدو" .

لا شك أن مقالة الماريشال جوكوف ضرورية اليوم أيضاً، حيث يجري تزوير تاريخ الحرب العالمية الثانية باندفاع أكبر مما كان عليه الأمر في الستينيات والسبعينيات. لقد قرأت في أحد الكتب، الصادرة منذ فترة غير بعيدة في الغرب، ان هجوم تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١ في ضواحي موسكو شكّل مفاجأة كاملة لمقر القيادة العليا. إنها أسطورة أخرى. فقد كانت المخابرات مطّلعة، على نحو ممتاز، على الوثبات التي كان يزمع القيام بها غودريان. ولما لم تكن توجد لدينا وحدات مدرعة أو مضادة للدروع هناك، فقد تم إرسال وحدات مدرعة إلى تلك المنطقة مجهزة بمدافع وبنادق مضادة للدروع. وهل

يجدر بنا الحديث عن التقدير العالي للمعطيات المخابرتية من قبل مقر القيادة العليا...

بالطبع، لا يجوز الحديث بجدية أيضاً عن عرقلة ما أصابت المعطيات المخابراتية عشية الحرب. لقد قلت سابقاً، إن مخطط "بارباروسا" قد جرى إبلاغه لستالين قبل الحرب. وعلى الرغم من كل ما قيل ويقال من أباطيل، فإنني أرى لزاماً علي أن أعلن، أنه لم تكن توجد لدى ستالين أية شكوك حول هجوم الألمان المحتمل على الاتحاد السوفياتي. لقد كان موقفه دوماً من المخابرات موقفاً جدياً إلى حد كافٍ، وأكد غير مرة، بما في ذلك في الحلقات الضيقة، أن للمخابرات دوراً هائلاً في الصراع مع الفاشية. إنني أعرف أن بعض رجال المخابرات الكبار جداً قد تسلّموا أوسمة من يد القائد الأعلى. كما أعرف، بصورة أكيدة أيضاً، أنه قام مرتين أثناء الحرب باستقبال رجال المخابرات ممن كانوا متواجدين في الاتحاد السوفياتي في تلك الأيام، وليس لتلقّي التقارير منهم، بل للتعبير لهم عن شكره. إن عدداً ضئيلاً من المطّلعين يعرف أن ستالين قد التقى بعض أُسَر رجال المخابرات العاملين في الخارج. إنني أفترض أن هذه الوقائع يجب أن يكون قد اطّلع عليها أيضاً الأشخاص الذين كانوا في قيادة أجهزة المخابرات بعد الحرب أيضاً.

لقد كان ستالين، مع كل سيئاته، يدرك جيداً أهمية المخابرات. فهو الذي لم يكن يسمح حتى للعسكريين بتبذير النقود، لم يكن يبخل بالعملات الصعبة وبالموارد من أجل إعداد التقنيات الجديدة للمخابرات. وهذه حقيقة أعتبر أنها معبّرة للغاية. وبوسعي أن أحكم على ذلك من خلال انطباعاتي الشخصية. حين شاركت في تأمين التجهيزات السرية في مؤتمري طهران ويالطا في العامين ١٩٤٣ و١٩٤٥، لمست غير مرة كم كان التجهيز الفني لدى المخابرات السوفياتية رفيع المستوى. فقد كنا نتنصت في إيران ومن ثم في القرم، ليس على روزفلت وتشرشل فحسب، بل على كافة المحيطين المقربين منهما.

لقد كان رجال مخابراتنا، العاملين في عمق مؤخرة العدو، مجهزين أيضاً بتقنيات وطنية تتمتع كذلك بالمستوى نفسه من الأمان والحداثة. فحين بدأ

كاشفو أجهزة اللاسلكي الألمان، يكشفون رجالنا من العاملين على أجهزة اللاسلكي على الأراضي الألمانية، وهو ما أدى إلى سلسلة كاملة من الإخفاقات في شبكة العملاء السوفيات، تم في المختبرات الخاصة التابعة لمفوضية الشؤون الداخلية، خلال أشهر معدودة، إعداد جهاز يسمح ببث عدة آلاف من الإشارات في الأثير خلال نصف ثانية. لقد كان ذلك عبارة عن محطات متعددة الذبذبات كانت تبث المعلومات على ذبذبات مختلفة. ولم تتمكن من اكتشاف أمرها حتى نهاية الحرب لا محطات كشف اللاسلكي الألمانية ولا الإنكليزية ولا محطاتنا. لم يكن يوجد في العالم مثيل لأجهزة اللاسلكي تلك. وقد تم إعداد جهاز اللاسلكي هذا المخصّص لرجال المخابرات على نحو مثير للاهتمام. فقد كان يتم تسجيل كافة المعلومات على شريط معدني أو كانت تشفّر على قرص ثم توضع في الجهاز ليتم بثها في هنيهة في الأثير. وقد تم إعداد الأجهزة القارئة فيه على نحو كان يتم معه تحويل المعلومات إلى موجات عالية الذبذبات. فإذا كان عامل اللاسلكي يجد نفسه، في السابق، مضطراً للعمل ساعات متواصلة في الأثير، مما كان يخدم كاشفي أجهزة اللاسلكي، فقد أصبح بوسعه العمل الآن في برلين، مثلاً، دون أن يتمكّن الألمان من كشفه. لقد كانت هذه التقنية فريدة من نوعها تلك الأيام.

إضافة الى ذلك، فقد كانت هذه الأجهزة ضئيلة الحجم وتعمل، وهو أمر بالغ الأهمية، بواسطة بطاريات محمولة لا تتطلب ربط الجهاز بالشبكة الكهربائية. فالألمان، حين كانوا يفتشون منطقة يساورهم الشك بانطلاق البث منها، كانوا يعمدون الى قطع التيار الكهربائي وفق نظام خاص، مما كان يمكنهم من تحديد مكان عامل اللاسلكي بشكل دقيق إلى حد بعيد. لكن مع ظهور محطات البث السوفياتية الجديدة فقدت هذه التدابير أيضاً فاعليتها. وكثيراً ما كان رجال مخابراتنا يبثون أثناء تحركاتهم إذا توفرت لهم سيارة أو دراجة نارية.

لقد حصلت بعد ذلك، بالطبع، أخطاء مؤسفة يستحيل، بكل بساطة، تفاديها. كما حدثت إخفاقات كذلك، لكن لم يتم اكتشاف أمر محطة سوفياتية

جديدة واحدة من قبل العاملين في الكشف عن اللاسلكي. وهذا لم يحصل في ألمانيا، فحسب، بل في الدانمرك وهولندا وسواهما من البلدان أيضاً.

لكن مهما كانت التقنيات متطورة، فإن النجاح في عمل المخابرات يقرره الناس. منذ سنوات عديدة تطوف العالم أكذوبة مفادها أن رئيس المديرية العامة للمخابرات (GRU) الجنرال ف. غوليكوف قد أصدر عشية الحرب أمراً إلى العملاء العاملين في الخارج بتتبع تقلّب أسعار الصوف واللحوم في بلدان أوروبا الغربية. وقد انطلق في ذلك، كما يزعمون، من أن الألمان هم بحاجة لإعداد ما لا يقلّ عن ستة ملايين معطف من فرو الخراف من أجل خوض العمليات الحربية على أراضي الاتحاد السوفياتي ذي الطبيعة القاسية. وينبغي توقّع الهجوم الألماني ما إن تبدأ عمليات ذبح الخراف الكثيفة. كما يزعمون أيضاً أن ستالين وافق هو الآخر على هذه الاستنتاجات... هذا في حين أن القيادة السوفياتية لم تكن بحاجة إلى مثل هذه التأكيدات غير المباشرة لمخططات الجيش الألماني. وأكرّر القول إن المصادر التي كانت متوافرة لمخابراتنا كانت مختلفة كلياً وأكثر ثقة بما لا يقاس.

كان ريخارد زورغي[١] في عداد أولئك الذين كانوا على صلة بوالدي. وقد منح زورغي إثر انقضاء سنوات عديدة لقب بطل الاتحاد السوفياتي. بعد الحرب صدف أن كان شقيقه في عداد الأسرى الألمان في الاتحاد السوفياتي. وقد تم نقله، بأمر من والدي، إلى أحد المختبرات الخاصة، حيث عمل لاحقاً.

كثيراً ما يؤكدون أن الحكومة السوفياتية قد خانت رجل المخابرات الشهير، ولم تتمكن، بل لم ترغب، في إنقاذ زورغي من الإعدام. هل يذكر أحد حادثة واحدة في تاريخ المخابرات، حين كان يتم إلقاء القبض على رجل المخابرات السري وتعترف به حكومة ما؟ زورغي لم يعترف أصلاً أنه جاسوس سوفياتي...

(١) معروف بالعربية باسم سيرج، وهو رجل المخابرات السوفياتي الشهير، ألماني الجنسية. أعدم في اليابان يوم عيد ثورة أكتوبر في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر العام ١٩٤٤، وذلك بعد أن اكُتشف أمره - المترجم.

في ذلك الوقت، أثناء الحرب مع ألمانيا، كانت عملية التبادل مستحيلة لسبب آخر أيضاً. فالاتحاد السوفياتي كان عليه أن يعترف في مثل هذه الحال بحقيقة وجود شبكة مخابراتية واسعة في اليابان. وأية حكومة، مهما كان تقديرها لرجل مخابراتها، لا تُقدِم أبداً على مثل هذه الخطوة. والحكومة السوفياتية لا تشكّل استثناء لهذه القاعدة...

لاشك أن ريخارد زورغي هو رجل مخابرات فذ، إلا أنه واحد من مئات. وأنا على قناعة بأن ذلك لا ينتقص البتة من شجاعته ومن احترافه الرفيع للغاية.

إن شبكة الاستخبارات السوفياتية في اليابان لم تتأذّ عملياً من اعتقال زورغي ومساعديه المقربين، وهو الأمر الذي لم يكتب عنه في أي مكان قط. فقد كان زورغي متخصصاً بألمانيا بشكل أساسي. أما في اليابان، فكان يعمل لصالح الاتحاد السوفياتي أشخاص من الجالية الروسية، المهاجرة وعملاء آخرون. كما كان يتعاون معنا، وهو الأمر الأهم، موظفون يابانيون من أرفع المستويات. وأورد اسم شخص واحد فقط، لم يكن عميلاً سوفياتياً، بل لنقل كان شخصاً يتأثر بنا. وأقصد هنا رجل الدولة الياباني البارز وزير الخارجية ماتسووكي. لقد أعلن في محادثة شخصية مع ستالين أن ألمانيا تعدّ لهجوم على الاتحاد السوفياتي وأبلغ إليه التاريخ المحدّد لهذا الهجوم، مضيفاً أن بلاده لن تدخل الحرب إلى جانب الجيش الألماني. بالطبع، لم يكن بوسع الوزير تقديم ضمانة للقيادة السوفياتية بأن اليابان لن تدخل الحرب بعد سنة، مثلاً، إلا أن ما أبلغه الوزير كان كافياً للغاية. وإذا أخذنا بالاعتبار أنه كان يعمل لصالح المخابرات السوفياتية يابانيون يحتلون مناصب رفيعة، فليس من الصعب أن ندرك أن المعلومات المناسبة كانت ترد من اليابان إلى المركز طوال الحرب العالمية الثانية.

لقد كانت مواقع المخابرات السوفياتية بنفس القدر من القوة في فرنسا أيضاً. في صيف العام ١٩٩٣ نشرت الصحافة الغربية أن الوثائق التي تم رفع السرية عنها تشير إلى أن الولايات المتحدة كانت تراقب المراسلات الخاصة للزعيم الفرنسي الجنرال شارل ديغول، وتحل شيفرة الحليف الفرنسي، وتفتح

المراسلات الديبلوماسية السرية. أما لصالح الاتحاد السوفياتي، فقد كان يعمل الجنرال الفرنسي زينوفي بيشكوف. إن اسمه لا يعني الكثير الآن، إلا أنه كان شخصية مرموقة!.

من منكرات مساعد ستالين بوريس بلجانوف:

إنني بصدد التعرف إلى أسرة سفيردلوف. إنها أسرة ممتعة للغاية، العجوز سفيردلوف توفي. كان يسكن في نيجني نوفغورود وكان يعمل في حفر الخشب. كان ثورياً متحمساً، وعلى صلة بمختلف المنظمات الثورية، وكان عمله كحفار يقوم بشكل رئيسي على إعداد الأختام المزورة، التي كان الثوريون السريون يفبركون لأنفسهم بواسطتها الوثائق المزورة. كان جو البيت ثورياً، لكن الابن البكر، ونتيجة لعمليات نفسية معقدة، أصيب بأزمة داخلية عميقة، وقطع صلاته بالدوائر الثورية وبالأسرة وباليهودية. استنزل الأب اللعنة عليه وفقاً للطقس اليهودي. تبناه مكسيم غوركي وأصبح زينوفي بيشكوف. إلا أنه استمر في نمط حياته الخاص وابتعد عن محيط غوركي الثوري وغادر إلى فرنسا والتحق بالفيلق الأجنبي بهدف الطلاق الكلي مع حياته الماضية. وحين وصل بعد مدة خبر يفيد بأنه فقد يده في المعارك، اضطرب العجوز سفيردلوف اضطراباً شديداً: "اي يد؟"، وحين تبين انها اليمنى، أصيب بزهو بالغ، إذ وفقاً لمعادلة اللعنة الطقوسية اليهودية، حين يلعن الأب ابنه، يجب أن يفقد الأخير يده اليمنى بالذات. أصبح زينوفي بيشكوف مواطناً فرنسياً، واستمر في خدمته بالجيش وبلغ رتبة جنرال. تبرّأ من اسرته كلياً. وحين وصلت إلى فرنسا، أردت اطلاعه على أخبار شقيقيه وشقيقته الذين يعيشون في روسيا، أجابني أن هؤلاء ليسوا أسرته ولا يرغب في معرفة شيء عنهم".

يلفّ الضباب مصير شقيق ياكوف سفيردلوف في الحقيقة. لقد عمل لصالح المخابرات السوفياتية المئات من المهاجرين، وأعرف أن أوسمة القتال السوفياتية قد منحت لممثلي أشهر عائلات الأمراء وأهم عائلات النبلاء مقابل النشاط في هذا الميدان. وقد كان هؤلاء يتعاونون معنا ليس من أجل النقود، إطلاقاً، وكانوا يرفضون أية مكافأة مادية. لقد كانت تُحرّكهم دوافع مختلفة كلياً. أنا، على سبيل المثال، لا أعرف بلداً واحداً وشبكة مخابرات واحدة لم يكن يعمل فيها مواطنونا السابقون، الذين قذف بهم مصيرهم إلى خارج البلاد.

إنّ زينوفي بيشكوف أيضاً كان يتذكّر الوطن دوماً. لقد تكرّر اسمه مراراً على مسامعي. وكان والدي والأشخاص المقرّبون منه يتحدّثون عن بيشكوف كشخص موهوب وشديد الذكاء. وعلمت آنذاك أن زينوفي بيشكوف، شقيق ياكوف سفيردلوف، هو رئيس المخابرات الفرنسية...

لقد بلغ مسامعي في حينه أن زينوفي شارك بشكل ما في الحركة الثورية، وكان مرتبطاً بألكسي مكسيموفيتش غوركي الذي كان عرّابه في الأرثوذكسية. وهكذا فإن شقيق أول رئيس للجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا (VSIK) هو يهودي معمّد.

لقد قرأت مذكراته، ولا توجد فيها إيماءة واحدة، بالطبع، لعلاقة بيشكوف بالمخابرات السوفياتية. كما لا توجد كلمة واحدة أيضاً تشير إلى أن الجنرال الفرنسي قد ترأس في يوم من الأيام إدارة مخابراتية. وهذا أيضاً أمر مفهوم. لقد توفي دون أن يعترف بعلاقته بالمخابرات السوفياتية. لكن لا تساورني أية شكوك حول علاقة الجنرال بوطنه روسيا. فهي بالتأكيد علاقة تعاطف. وعلى الرغم من كل شيء، إلا أنني أعتقد بأنه لم يكن غير مبال كلياً بالأفكار الشيوعية.

إجمالاً كان الكثيرون من مواطني فرنسا من الروس والجورجيين واليهود وأبناء القوميات الأخرى، يعملون لصالح المخابرات السوفياتية. هكذا كان قبل تعيين والدي في منصب مفوض الشؤون الداخلية وبعد تعيينه، في سنوات الحرب وبعد الحرب. ومهما بلغ عدد الفرنسيين الذين لم يكونوا عملاء سوفيات، إلا أنهم كانوا يتعاطفون مع الاتحاد السوفياتي والأفكار الاشتراكية والشيوعية. ويمكن، إلى حد ما، تفسير هذه الحالة بأن الغرب لم يكن على علم تام بما يجري داخل الاتحاد السوفياتي. إلا أن هذا لا يبدل من حقيقة أنه كان للاتحاد السوفياتي مؤيدون كثيرون في فرنسا وفي البلدان الأوروبية الأخرى. إنني على ثقة مطلقة بأن جولي -كيري، مثلاً، لم يعرقل نقل المعلومات التي تتسم بالسرية المطلقة حول المشروع النووي إلى المخابرات السوفياتية، بل الأغلب أنه ساعد في ذلك إلى حد بعيد...

لقد كانت لوالدي منذ العشرينات علاقات وثيقة مع المثقفين الفرنسيين والمهاجرين الجورجيين في فرنسا. وقد بدأ ذلك، على ما أعرف، مع مجيئه إلى المخابرات السوفياتية، وبشكل أدق، مع مجيئه إلى إدارة مكافحة الجاسوسية التابعة للجيش الحادي عشر. وكان كيروف والبلاشفة الجورجيون البارزون، الإخوة ستروا ودجيباريدزه، بين الأشخاص الذين دفعوا والدي إلى هذا العمل. وقد بدأت في ذلك الوقت، على وجه التقريب، الاتصالات مع المناشفة الجورجيين الذين غادر الكثير منهم إلى فرنسا. وهكذا، فإن الجذور القوية للمخابرات السوفياتية في فرنسا قد ظهرت قبل الحرب مع ألمانيا بزمن طويل. وينبغي الأخذ بالاعتبار أن الشبكات التي كانت تعمل هناك كانت تزوّد المركز بالمعلومات ليس عن فرنسا، فحسب، بل عن ألمانيا النازية أيضاً، بوصفها العدو المحتمل. لقد كان جهاز المخابرات الفرنسي نفسه وكذلك الإنكليزي تحت رقابتنا كلياً خلال سنوات عديدة.

لقد كان على صلة مباشرة بوالدي أيضاً أحد قادة المخابرات الإنكليزية، وهو رجل المخابرات الإنكليزي الأسطوري كيم فيلبي. ولد فيلبي في العام ١٩١٢ في أسرة موظف في الإدارة الإنكليزية الاستعمارية في الهند. بعد تخرّجه من جامعة كمبردج عمل موظفاً في الجهاز الإداري للحكومة. انتسب إلى الجمعية البريطانية ـ الألمانية، مدعياً بأنه من أنصار التقارب بين بريطانيا وألمانيا، وسافر إلى برلين مرات عديدة بصفته مراسلاً لإحدى الصحف الإنكليزية الرئيسية. التحق بالمخابرات البريطانية قبل الحرب. وفي العام ١٩٤٤ ترأس القسم المركزي في مكافحة الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية العالمية. وقد عمل لاحقاً في واشنطن وفي الشرق الأوسط. ووفقاً لتقدير عدد من الاختصاصيين، كان بوسع فيلبي أن يصبح في المستقبل رئيساً للإنتليجنس سرفيس، إلا أنه اضطر للهرب إلى الاتحاد السوفياتي، تفاديا للسقوط. وبالمناسبة، إن كيم فيلبي بالذات هو الذي أطلع المركز قبل الحرب على تفاصيل محادثات ضباط المخابرات الإنكليزية مع رودولف هيس.

مقتطفات من مصادر رسمية:

رودولف هيس: ولد في العام ١٨٩٤. في سنوات الحرب الأولى كان طياراً. أدين لمشاركته في تمرّد العام ١٩٢٣ في ميونخ. قضى عقوبة السجن مع هتلر، وساعده في تأليف كتاب" كفاحي". أصبح منذ العام ١٩٢٥ السكرتير الشخصي لهتلر ومسؤول الإس إس. في أيلول/سبتمبر ١٩٣٩، عيّنه هتلر خليفة له (بعد غيرينغ).

عضو الحزب الفاشي منذ العام ١٩٢٠. شارك بنشاط في الإعداد للحرب العالمية الثانية وإشعالها.

في أيار/مايو ١٩٤١ قاد الطائرة بنفسه في رحلة إلى بريطانيا العظمى بهدف عقد معاهدة صلح واستمالة سياسيي البلاد للكفاح المشترك ضد الاتحاد السوفياتي. أخفق في مهمته وتم اعتقاله كأسير حرب. أصدرت بحقه محكمة نورمبرغ حكماً بالسجن مدى الحياة. أودع سجن شبانداو في آب/أغسطس ١٩٧٨. أقدم على الانتحار. ولم تتوضح حتى الآن عدة مسائل متعلقة بمهمة هيس. لن يتم الكشف عن الوثائق المتعلقة بهيس في الأرشيف البريطاني إلا في العام ٢٠٠٢.

مقتطفات من مذكرات ونستون تشرشل:

اعتبرت أن ذلك ضرب من الخيال. لكن تبين أن الخبر صحيح. أثناء الليل وصلت أخبار إضافية تؤكد هذا النبأ. فلا مجال للشك بأن هيس، نائب الفوهرر، وزير الرايخ دون حقيبة، عضو المجلس الوزاري للدفاع في الإمبراطورية الألمانية، عضو المجلس الألماني السري للحكومة وزعيم الحزب النازي، حط على الأرض منفرداً بالمظلة قرب عزبة الدوق هاملتونسكي في غرب اسكوتلاندا. لقد كان يقود طائرته بنفسه وهو في لباس كابتن في الطيران الألماني، وأقلع من أوغسبورغ وقفز بالمظلة. في البداية سمّى نفسه هورن. ولم يتم التحقق من شخصيته إلا في المستشفى العسكري بالقرب من غلاسكو، حيث تم نقله إلى هناك بسبب الجروح الطفيفة التي أصيب بها أثناء نزوله إلى الأرض. وسرعان ما تم نقله إلى تاور، ومن ثم الى أمكنة اعتقال أخرى في بريطانيا، حيث بقي حتى ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥، حين انضم في سجن نورنبرغ إلى زملائه الذين بقوا على قيد الحياة ومثلوا أمام محكمة المنتصرين.

لم أولِ قطّ اهتماماً جدياً ينكر لفعلة هيس هذه. كنت اعرف أن ليس لها أية علاقة بمجرى الأحداث... لقد أبدت الحكومة السوفياتية اهتماماً شديداً بقصة هيس، وبنت حولها افتراضات عديدة خاطئة. فبعد ثلاث سنوات، حين زرت موسكو للمرة الثانية، اقتنعت كم كان ستالين مهتماً بهذه القضية. فقد سألني أثناء الغداء عن الأهداف الكامنة وراء مهمة هيس. عرضت عليه باختصار ما ذكرته في هذه السطور. وتكوّن لدي انطباع بأن ستالين كان يعتقد انه كان ثمة محادثات سرية ما أو مؤامرة حول أعمال مشتركة بين بريطانيا وألمانيا لدى الهجوم على روسيا، وانتهت إلى الفشل. إنني، إذ كنت أعرف كم هو شخص ذكي، أذهلتني لا معقوليته حيال هذه المسألة. وحين أفهمني المترجم أن ستالين لا يصدّق شروحي، أجبت عبر مترجمي: "حين أعرض الوقائع التي أعرف، فإنني أتوقّع أن يصدقوني". رد ستالين على كلماتي التي اتسمت ببعض الحدّة بابتسامة لطيفة قائلاً: "حتى عندنا، في روسيا، يحدث الكثير مما لا تعتبر مخابراتنا أنها ملزمة باطلاعي عليه". توقفت عن متابعة هذا الحديث.

بفضل المخابرات، كانت القيادة السوفياتية تعلم على وجه الدقة أن هيس وصل إلى بريطانيا وهو يحمل اقتراحات مباشرة بعقد صلح بشروط مقبولة من قبل بريطانيا. ولو لم تتغلب الحسابات الطويلة الأجل لدى القيادة البريطانية العليا، لكانت هذه الأخيرة على استعداد كلي للتحالف مع ألمانيا. وبكلام آخر، فإن الرحلة الجوية هذه لم تكن بنت ساعتها، والباقي ليس إلا مسرحية لتضليل المجتمع الدولي.

إنني لا أشك لحظة بأن موت هيس نفسه لم يكن مصادفة. وبالنسبة لي من الواضح تماماً أن النازي البارز في السابق، ببساطة، قاموا بتصفيته. فقد بات في عمر لا يخشى معه على مستقبله، وبوسعه أن يتحدث عن أمور تلحق ضرراً جدياً بالغرب حتى في أيامنا هذه...

"سري للغاية"

إفادة

يفيد فاديم من لندن:

١) وفقاً لمعطيات "زينخين" اعلن هيس لدى وصوله إلى بريطانيا انه يزمع التحدث، بالدرجة الأولى، إلى هاملتون الذي يعرفه من خلال مشاركتهما سوياً في

مباريات الطيران في العام ١٩٣٤. ينتمي هاملتون إلى ما يسمّى بمجموعة كليفدن. حط هيس بطائرته قرب عزبة هاملتون.

٢) أعلن هيس لكيرك باتريك، الشخص الأول الذي تعرّف إليه، وهو موظف "زاكواولك"، أنه يحمل مقترحات للسلام. جوهر مقترحات السلام لا نعرفه حتى الآن (كيرك باتريك هو مستشار سابق في السفارة البريطانية في برلين)

N 376 ١٩٤١/٧/١٤

"زينخين" هو رجل المخابرات السوفياتي كيم فيلبي، الذي كان مرتبطاً مباشرة بوالدي، رئيس المخابرات الاستراتيجية السوفياتية. أما فاديم، فهو إيفان اندرييفتش تشيتشايف، عميل مفوضية الشؤون الداخلية في لندن خلال الأعوام ١٩٤١ -١٩٤٣.

من بلاغ كيم فيلبي إلى المركز بتاريخ ١٨ أيار/مايو ١٩٤١:

لم يكن هيس قد قدّم للإنكليز حتى مساء ١٤ أيار/مايو أية معلومات. وقد أكد خلال محادثاته مع ضباط المخابرات العسكرية البريطانية أنه وصل إلى بريطانيا لعقد صلح الحل الوسط، الذي ينبغي أن يوقف عملية الإضعاف المتمادي للبلدين المتحاربين، ويحول دون التدمير الكلي للإمبراطورية البريطانية كقوة استقرار.

لا يزال هيس، كما يصرّح هو نفسه متعاطفاً مع هتلر.

قام كل من بيفربوك وايدن بزيارة هيس، إلا أن الأنباء الرسمية نفت ذلك.

صرح هيس في حديثه مع كيرك باتريك بأن الحرب بين الشعبين الشماليين هي جريمة..."زينخين" يعتبر أن أوان مفاوضات السلام لم يئن حتى الآن. لكن، خلال عملية التطور اللاحق للحرب، من الممكن أن يصبح هيس نقطة الارتكاز في المناورات من أجل عقد صلح الحل الوسط، وسوف يكون مفيداً لفريق السلام في بريطانيا ولهتلر أيضاً".

نشير إلى أنه، خلال مفاوضات هيس مع الإنكليز، كانت المخابرات السوفياتية على اطلاع كامل على المعلومات ليس من خلال فيلبي، فحسب. ففي العام ١٩٩١ قدّمت الكي.جي.بي في الاتحاد السوفياتي إلى الناشر والمؤرخ

الأميركي المعروف جون كوستللو عدداً من الوثائق السرية سابقاً، والتي تم الحصول عليها ربيع العام ١٩٤١ من مقرّي المخابرات السوفياتية في كل من برلين وواشنطن. وكانت المعلومات التي تم الحصول عليها من ألمانيا والولايات المتحدة قد أكّدت كلياً أخبار فيلبي:

"(من واشنطن). وصل هيس إلى بريطانيا بموافقة كلية من هتلر بغية المباشرة بالمفاوضات، لأن هتلر لم يكن بوسعه التقدم علناً بعرض للسلام دون إلحاق الضرر بهيبة ألمانيا. ولهذا اختار هيس كمبعوث سرّي له.

(من برلين). إن عمل هيس ليس فراراً، بل هو عمل تم بمعرفة هتلر، وبهدف اقتراح الصلح على بريطانيا. إن رئيس القسم الأميركي في وزارة الدعاية الأجنبية ايتسندورف قد أبلغ أن هيس في أفضل حال صحية وطار إلى بريطانيا بمهمة محددة، ويحمل اقتراحات من الحكومة الألمانية".

من الطبيعي أن هذا ليس إلا جزءاً يسيراً جداً من ذلك الكم الهائل من المعلومات الذي وصل إلى المركز آنذاك. فقد كنا نتلقى الوثائق من بريطانيا ومن ألمانيا عن مضمون جميع المحادثات التي أجرتها المخابرات البريطانية مع هيس. وبوسعي أن أؤكد أن الجزء الأكبر منها لم يتم الكشف عنه قط في الاتحاد السوفياتي. أما في بريطانيا نفسها، فقد حُظّر كلياً نشر هذه المعلومات. إنني على ثقة بأن المجتمع الدولي سوف يعرف الكثير من الأمور المثيرة عن الأشخاص المرتبطين مباشرة بالرحلة الغامضة للمسؤول الألماني الرفيع إلى بريطانيا، وأعني بالدرجة الأولى، السير تشرشل والنائب الدائم لوزير خارجية بريطانيا العظمى كادوغان، الذي كان، بالمناسبة، يترأس كل مخابرات جلالتها الاستراتيجية...

من المشكوك فيه أن يقدم على الانتحار رجل في الثالثة والتسعين من العمر. إن وولف روديغر هيس، ابن الرجل الذي طار في أيار/مايو ١٩٤١ بطائرة "ميسر شميث-١١٠" إلى اسكوتلندا يعتبر، وليس من دون سبب، أن والده كان على استعداد للتخلّي عن صمته وقول الحقيقة كلها حول القصة التي

مر عليها نصف قرن. فهو يؤكد أن رودولف هيس قد قتل في ١٧ آب/أغسطس ١٩٨٧ بتكليف من وزارة الداخلية البريطانية على يد عسكريين اثنين تابعين لكتيبة مظليين٢٢ التابعة لوزارة الداخلية. وقد تولّى قيادة العملية أشخاص من إدارة مكافحة الجاسوسية البريطانية. وليس من المستبعد، كما يرون في الغرب، أن تكون العملية قد تمت آنذاك. وكانت القيادة السوفياتية مستعدة لإعطاء موافقتها على إطلاق سراح هيس في خريف العام ١٩٨٧ نفسه. ويذكر أن سرية من لقوات السوفياتية في ألمانيا كانت تتولى دورياً حراسة سجن شبانداو وتبدو هذه الرواية قريبة جداً من الحقيقة إذا أخذنا بالاعتبار عدم مصلحة الجانب البريطاني في إفشاء سر الدولة. على كل، أنا على قناعة بأنه يوجد لدى الإنكليز ما يخفون. ففي العام ١٩٤١، وعبر هذه المفاوضات المنفردة، كانت القيادة الإنكليزية تدفع ألمانيا على نحو لا لبس فيه للحرب مع الاتحاد السوفياتي.

المصادر الغربية تلك نفسها تصر، وليس من دون أساس على ما يبدو، على وجود خطة تحت الرقم ٢٧٤.ب (N 0274B) مقترحة من قبل هتلر:

١) ينبغي الإثبات وثائقياً للحكومة البريطانية أن لا طائل من مواصلة الحرب بعد سقوط فرنسا.

٢) التعهد لبريطانيا بأنها سوف تحتفظ باستقلالها الكامل وبكافة مستعمراتها. غير أنه ينبغي لها أن تتخلى عن اي تدخل في شؤون اي بلد في اوروبا.

٣) الاقتراح على بريطانيا عقد معاهدة مع المانيا مدتها ٢٥ سنة.

٤) ينبغي لبريطانيا أن تلتزم الحياد الودي تجاه المانيا خلال الحرب الروسية الالمانية.

ينبغي الافتراض أن توجيهات هتلر هذه كانت في أساس مفاوضات هيس مع الإنكليز.

وفي الختام نورد الوثيقة التالية الموجودة في أرشيف الكي.جي.بي. في الاتحاد السوفياتي سابقاً:

"يحظر تصوير النسخ دون إذن سكرتير مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي. نسخة. سري للغاية. رقم ٤، ٢ تشرين الأول/أكتوبر، لجنة الدولة للدفاع في الاتحاد السوفياتي.

الرفيق ستالين

الرفيق مولوتوف

أبلغ رئيس المخابرات العسكرية التشيكية الكولونيل مورافيتس إلى عميل مفوضية الشؤون الداخلية المقيم في لندن ما يلي:

إن الرأي الشائع بأن هيس وصل إلى لندن على حين غرّة، ليس صحيحاً، فقد كان هيس يراسل اللورد هاملتون حول هذه المسألة قبل القيام برحلته بوقت طويل. وقد تمت في هذه المراسلات مناقشة جميع المسائل المتعلقة بتنظيم الرحلة بالتفصيل. غير أن هاملتون نفسه لم يشارك في هذه المراسلات، فجميع رسائل هيس إلى هاملتون لم يكن يتسلمها هذا الأخير، بل كانت تتسلّمها الانتليجنس سرفيس، حيث كانت تُصاغ الإجابات على رسائل هيس باسم هاملتون. وبهذه الطريقة تمكن الإنكليز من استدراج هيس الى بريطانيا.

الكولونيل مورافيتس صرح كذلك بأنه رأى شخصياً الرسائل المتبادلة بين هيس وهاملتون. وقد عُرضت في الرسائل بوضوح كافٍ، بحسب قوله، مخططات الحكومة الألمانية المتعلقة بالهجوم على الاتحاد السوفياتي.

وتضمنت الرسائل مقترحات مدعمة بالحجج حول ضرورة وقف الحرب بين بريطانيا والمانيا.

وهكذا فإن الإنكليز يملكون، كما أعلن الكولونيل مورافيتس، في الختام، إثباتات مكتوبة حول مسؤولية هيس والزعماء النازيين الآخرين عن الإعداد للهجوم على الاتحاد السوفياتي.

مفوض الشعب للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي

(ل.بيريا) "

لا أخفي أنه بين رجال المخابرات السوفيات البارزين، كان يوجد إضافة إلى كيم فيلبي، عدد غير قليل من مواطني جلالتها. ويكفي، على سبيل المثال، أن نذكر أسماء مثل دونالد ماكلين، غي بيردجس... وحتى أنه كان يعمل لصالح

الاتحاد السوفياتي أشخاص مقرّبون إلى حد بعيد من الأسرة المالكة، وأقصد هنا ابن عم اليزابيث الثانية، الناقد الفني البريطاني الكبير أنطوني بلانت. ويقولون إنه كان يشكّل مع ماكلين وبيردجس وكيم فيلبي وجون كيرنكروس "خمسة كمبردج" الشهيرة.

إنني أعتبر أن المخابرات الروسية وحدها تمتلك الحق بقول الكلمة الفصل. فلا أنطوني بلانت ولا جون كيرنكروس أقرّا، على ما أعلم، بأنهما رجلا مخابرات سوفياتيان، والكتب المعروفة على نطاق واسع فعلاً في الغرب، لا تمنحني، أنا أيضاً، الحق بالتحدث في هذا الموضوع.

إن "خامس" "خمسة كمبردج" جون كيرنكروس، الذي خدم إبان سنوات الحرب في مقر فك الشيفرة، يعتبرونه في الغرب واحداً من أفضل العملاء الذين عملوا يوماً لصالح أجهزة المخابرات السوفياتية. وكثيراً ما يربطون باسمه حصول مخابراتنا على شيفرات "أنيغما"... وبعض المصادر تعتبر، ولديها المبرر الكافي كما يبدو لذلك، أنه سلّم موسكو أطناناً من الوثائق السرية كلياً. وكثيراً ما يقارنونه بهاري هوبكنز عميل المخابرات السوفياتية في الولايات المتحدة الأميركية، والذي لا يقلّ عنه نشاطاً.

لا يسعني أن أقول عن هوبكنز سوى التالي: لقد كان هذا الشخص ينتمي إلى أولئك الموظفين الرسميين الكبار في بلدان الغرب، الذين كانوا يعتبرون، أن من الأفضل التعامل مع الاتحاد السوفياتي الأكثر تقدمية، على الرغم من كل سلبياته، وليس مع ألمانيا النازية. أما قصة "انيغما"، فهي قصة مثيرة بالفعل. منذ عدة سنوات، نشرت الصحافة الغربية أن هذه الآلة الألمانية لفك الشيفرة قد تم بيعها في أحد المزادات العلنية في لندن. كان الإنكليز في سنوات الحرب يقرأون، بالفعل، بواسطة هذه الآلة المعلومات الشديدة السرية لقيادة القوات المسلحة الألمانية التي كانت تستخدم مثل هذا الجهاز للبث. وقد تم في بريطانيا إقامة نظام كامل لفك الشيفرة هو نظام "أولترا"، الذي كان يعالج كل المعلومات السرية الواردة من كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان. وكان هذا، بالفعل، نجاحاً هائلاً لحلفائنا. لكن الحلفاء لم يرغبوا في تبادل هذه الأسرار

مع الاتحاد السوفياتي. غير أنه بوسعي القول إن المخابرات السوفياتية كانت تحصل على جميع هذه الشيفرات عن طريق "غير رسمي"، كما يقال. فلم يكن لدى الإنكليز من أسرار تمكّنوا من إخفائها عن الاتحاد السوفياتي.

أتذكر قصة متعلقة بفك شيفرة أنباء ألمانية تم التقاطها من قبل الإنكليز أنفسهم. وكان الحديث يدور عن غارة جوية كثيفة للطيران الألماني على كوفنتري. وكان تشرشل يعرف أن مئات قاذفات القنابل لن تترك في المدينة حجراً على حجر، إلا أنه حظّر نقل هذه المعلومات إلى قوات الدفاع المضاد للطيران. فلم يتم نقل كتيبة واحدة من الدفاع المضاد أو بطارية واحدة إلى منطقة المأساة القادمة. فقد أدرك تشرشل أنه لو تصرّف على نحو مغاير لكان أصبح من الواضح أن الإنكليز يملكون الشيفرات الألمانية. وقد اعتبر رئيس الوزراء أنه ينبغي الاحتفاظ بالسر، عل الأقل، إلى حين إنزال الحلفاء في أوروبا...

لن أحكم ما إن كان تشرشل محقاً آنئذٍ أم لا، إلا أن قوانين المخابرات هى قوانين قاسية بالفعل.

وبالمناسبة، توجد إثباتات مباشرة أن السير ونستون تشرشل بالذات كان يقف على رأس المخابرات البريطانية خلال فترة طويلة من الزمن.

إنهم يفضّلون عدم الخوض في الحديث عن الموضوع الآن، إلا أن المخابرات البريطانية كانت تعمل على أراضي الاتحاد السوفياتي أثناء الحرب أيضاً. ولم يكن الأمر مقتصراً على المخابرات البريطانية فحسب، فالمخابرات الأميركية على أراضي الحليف كانت برئاسة هاريمان، الذي، بالمناسبة، لم يكن يخفي الأمر. إذ حين تم القبض على جاسوسة أميركية كبيرة وتقرّر مبادلتها بأحد جواسيسنا جاء هاريمان نفسه لتسلّمها.

لقد عمل لصالح مخابرات الولايات المتحدة أثناء الحرب وبعدها مواطنون سوفيات أيضاً، إلا أن الأجانب كانوا هم الأساس، بالطبع. وكان العملاء السريون من الأميركيين الذين كانوا يجيدون اللغة على نحو ممتاز ويعرفون عاداتنا جيداً.

لكن والدي كان يرى أن المخابرات الإنكليزية والمخابرات الأميركية على وجه الخصوص هي أقل كفاءة بكثير من أجهزة المخابرات الألمانية. لكن مع ذلك فإن العمليات الأساسية التي كانت تخطط لها أجهزة المخابرات الألمانية كانت، على حد قوله، معروفة جيداً من قبلنا، وذلك لأنه كان يقف على الرأس، تقريباً، من هذه الأجهزة أشخاص يعملون لصالح الاتحاد السوفياتي. والأجهزة المقصودة، على ما أعرف، هي المخابرات السياسية والمخابرات العسكرية وجهاز مكافحة الجاسوسية.

لقد كنت أهتم، بالطبع، بعمل المخابرات السوفياتية والأجنبية. وكما شرح لي والدي، فإن نجاح المخابرات السوفياتية يعود إلى حد بعيد إلى ما أبداه من تعاون نشيط معنا الطلبة والشباب والمثقفون التكنوقراط في الغرب الذين كانوا يرون في الاتحاد السوفياتي الوليد البكر للأفكار الاشتراكية الرومانسية. ولم يكن الأمر يقتصر على هؤلاء فحسب، بل كان يتعداهم إلى ممثلي الاستقراطية، الذين كانوا يرون في الاتحاد السوفياتي قوة حقيقية قادرة على سحق الفاشية. هذا هو، عملياً، الأساس الذي تم بناء المخابرات السوفياتية عليه.

لقد كانت مواقع أجهزة المخابرات السوفياتية في الولايات المتحدة الأميركية ضعيفة على هذا الصعيد بالمقارنة مع بلدان الغرب الأخرى. وكان السبب يعود، على ما يبدو، إلى البراغماتية الأميركية المعهودة. لكن حتى في أميركا كان يتزايد، سنة بعد أخرى، عدد مؤيدينا، الذين ساعدوا كثيراً مخابرات الاتحاد السوفياتي. ويعود الفضل في ذلك إلى الجهود التي كان يبذلها والدي والأشخاص الذين كانوا يعملون معه. وقد كان هؤلاء، وهو الأمر الذي أودّ تأكيده، أشخاصاً محترفين على أرفع المستويات.

إن المخابرات الأميركية نفسها، وأقصد المخابرات الاستراتيجية بالتحديد، كانت في طور الولادة عملياً. أما أجهزة المخابرات العسكرية الأميركية، فقد كانت (وأنا أعرف ذلك) تنشط بفاعلية كبيرة. لكن مما لا شك فيه أن المخابرات البريطانية كانت في طليعة مخابرات الحلفاء. كان والدي يحدّثني عن العملاء السريين العاملين على أراضي الاتحاد السوفياتي. وكان يقول إن البعض

قد زُرع في روسيا منذ ما قبل الثورة وهو لايزال يعمل. وقد أمكن الكشف عن قسم من هؤلاء بفضل أرشيف المخابرات الروسي، لكنهم، وكما هي القاعدة، لم يتعجّلوا في القبض عليهم...

حين سينزعون السرية عن أرشيف الكي.جي.بي. والمديرية العامة للمخابرات (GRU) السابقتين، سوف يطّلع الناس بالتأكيد على العملاء المزدوجين (مثل هؤلاء كانوا موجودين دائماً) وعلى عملائنا الذين كانوا يعملون في بلدان الغرب. فأنا، على سبيل المثال، أعرف أن المخابرات السوفياتية كانت منذ ما قبل الحرب على صلة وثيقة بالكنيسة البولونية، ولا سيما الكاثوليكية منها. في يوم من الأيام ظهر في بيتنا ضيف جديد. وكان والدي قد نبّهنا عشية زيارة الضيف إلى أنه ينتظر أسقفاً من بولونيا. وقال بعد ذلك إن الضيف الذي زارنا "يمسك بيديه كل المخابرات الأوروبية تقريباً".

لست على علم بالتفاصيل، إلا أن والدي كان يقول إننا، وبفضل الأوساط الإكليركية في بولونيا، نمد جسوراً للعلاقات مع الكاثوليك في ألمانيا، الذين كانوا يقفون في معارضة هتلر. وكانت أجهزة مخابراتنا تقدّم بدورها بعض الخدمات للكنيسة البولونية على غرار إطلاق سراح بعض الأشخاص، مثلاً...

هكذا حدث، بأن أصبحت المخابرات شغل والدي طوال حياته. فمهما كان عمله اللاحق (سواء كان المخطط النووي أو الصواريخ البالستية وأجهزة الدفاعات الجوية، أو كانت الفروع الاستراتيجية في الصناعة)، فإنه لم يكن يعفى من مهام منصبه كرئيس للمخابرات الاستراتيجية السوفياتية.

ماذا كانت تمثّل المخابرات الاستراتيجية؟ كانت المخابرات الاستراتيجية إدارة سرية، وذلك على عكس المخابرات العسكرية ومخابرات كل من مفوضية الشؤون الداخلية ومفوضية أمن الدولة ووزارة أمن الدولة، (NKGB, MGB NKVD). لقد باشرت الحكومة السوفياتية بعد الثورة، بإنشاء قسم مستقل في المخابرات يهتم بالتأثير على الخصم في أراضي ألمانيا وفرنسا والبلدان الأخرى. وحين جرى تقسيم مفوضية الشؤون الداخلية وإنشاء مفوضية أمن

لدولة، بقي والدي محتفظاً بالمخابرات الاستراتيجية والمخابرات التي تهتم بالتكنولوجيا. كما بقي يحتفظ أيضاً بمهمة التنسيق الشامل لعمل أجهزة المخابرات السوفياتية. لقد كان على ارتباط مباشر بوالدي أشخاص يبدو، حتى كيم فيلبي الأسطوري بإمكاناته الاستثنائية في المخابرات البريطانية، شخصاً من الصف الثاني لا أكثر بالمقارنة معهم... ويمكن أن يقال الشيء نفسه أيضاً حول ريخارد زورغي وحول الكثيرين غيره من مشاهير رجال المخابرات. وأعني بكلامي هذا بصورة أساسية، وكما قلت سابقاً، مواطني بلدان أخرى شغلوا أرفع المناصب في الجهاز الحكومي والإداري.

لم تكن القيادة السوفياتية، وللأسف، تستخدم دائماً على نحو فعّال المعلومات المخابراتية التي كان يرفعها إليها والدي. إنني أعرف بصورة أكيدة أن الحكومة السوفياتية كانت، حتى لحظة مماته، تطّلع على كل النشاطات التي كانت تخطط لها القيادتان البريطانية والأميركية. لكن مع ذلك لم تكن هذه الإمكانيات الهائلة تستخدم على النحو المطلوب.

من الأمثلة على ذلك ما قامت به مخابراتنا في مطلع الخمسينات في إيران، حين جرت تنحية الشاه عملياً عن السلطة، وتم تنصيب السياسي البارز الموالي للسوفيات محمد مصدق على رأس الحكومة. وقد قامت المخابرات بذلك نظراً للأهمية الكبرى، التي كانت تتمتع بها هذه الدولة المجاورة، بالنسبة للاتحاد السوفياتي. على أن أهمية إيران بالنسبة للأميركيين لم تكن أقلّ مما هي بالنسبة لنا. بعد موت ستالين، قدّم والدي في أحد اجتماعات هيئة رئاسة اللجنة المركزية تقريراً ذكر فيه أنه يملك معلومات مفصّلة عن الإعداد لانقلاب من قبل أجهزة المخابرات الأميركية يهدف إلى إعادة الشاه إلى السلطة.

وافقوا مع والدي أن المعلومات مثيرة للقلق وتتطلّب رد فعل سريعاً، إلا أنه لم يتم اتخاذ أية إجراءات. بعد استشهاد والدي بوقت قصير، حدث تماماً ما حذّرت منه المخابرات السوفياتية، إذ قامت أجهزة المخابرات الأميركية بتدبير انقلاب أعادت على إثره الشاه إلى العرش. ولم تكن الحكومة الأميركية، ولا وكالة المخابرات الأميركية، تكلفان أنفسهما عناء التستّر عمن كان يقف وراء الحدث.

إن هذا الحادث، وللأسف، إذا لم يكن نموذجاً، فهو، على الأقلّ، ليس نادراً في التاريخ السوفياتي... هكذا حدث غير مرة خلال الحرب. وأجدني ملزماً بأن أقر، ومع كل ما أكنّ من احترام لقادتنا العسكريين، بأن عدم معرفة استخدام المعلومات التي لا تقدّر بثمن (ولا أعتقد أن ثمة ضرورة للحديث عن أي ثمن كان هذا) والتي كانت تحصل عليها المخابرات، قد أدى غير مرة إلى أكثر النتائج مأساوية: من حصار تجمعات الجيوش إلى اختراق الوحدات الألمانية لدفاعاتنا وإلى غير ذلك.

غير أن كل عملية عسكرية ناجحة، خلال الحرب الوطنية العظمى، مرتبطة بالجهود الجبارة للمخابرات. والشاهد على ذلك آلاف الوثائق التي لا تزال محفوظة في الأرشيف السري.

ومع ذلك، فإن ثمة عدداً من الباحثين في الغرب يؤكد أنه "على الرغم من بطولة عملاء المديرية العامة للمخابرات (GRU) وحذاقتهم، إلا أن معلوماتهم لم تترك أثراً يذكر على العمليات العسكرية للقوات السوفياتية". إنها محاولة أخرى للتقليل من دور المخابرات السوفياتية في دحر الفاشية. والمقصود في الحالة الراهنة مخابرات الأركان العامة.

إن قصة المديرية العامة للمخابرات (GRU) في الأركان العامة ليست قصة بسيطة. فقد أظهرت الحرب مع فنلندا بوضوح تام ضرورة إعادة بناء كافة المديريات التي تؤمّن عمل الأركان العامة، بما فيها مديرية المخابرات. وكانت قد طرأت حتى ذلك الحين تغييرات عديدة على مخابرات مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD)، ولم تكن المخابرات العسكرية أقلّ حاجة للتغيير. وكان والدي، الذي كان يشرف على أجهزة المخابرات في الاتحاد السوفياتي، يعتبر بأنه لا ينبغي إحداث أي انعطاف جذري في المديرية العامة المخابرات (GRU)، بل على العكس، كان يقول إنه ينبغي المحافظة بأي ثمن على كافة التشعبات السليمة التي تعطي مردوداً. وكان لوالدي ظهير موثوق في هذه القضية هو جنرال الجيش غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف. وكان والدي يعالج معه ومع سواه من العسكريين كل هذه المسائل الملحّة.

لقد جرت بسرعة إعادة تنظيم المجموعات المخابراتية والأقسام، وتم ملء ملاكات مديرية المخابرات بكوادر نشيطة وفتية. وقد بدأت المخابرات العسكرية تعمل بعد ذلك على نحو فعّال إلى حد بعيد، وليست الاتهامات المسوقة ضدها إلا محض أكاذيب.

لكن تاريخ مديرية المخابرات عرف مراحل صعبة، بالطبع. ولنقرأ ما جاء في التقرير عن تسلّم س.ك. تيموشنكو لمفوضية الدفاع من الماريشال فوروشيلوف في أيار/مايو ١٩٤٠. هذه الوثيقة لم يكشف النقاب عنها إلا منذ فترة قريبة نسبياً:

"تبقى مسائل تنظيم المخابرات الحلقة الأضعف في عمل مفوضية الدفاع. ليس لدينا مخابرات منظمة ولا توجد قناة منتظمة للمعلومات عن الجيوش الأجنبية. لقد أدى فصل العمل المخابراتي عن الأركان العامة وإخضاعه لمفوضية الدفاع مباشرة إلى إضعاف قيادة جهاز المخابرات. لم تنجح مديرية المخابرات في أن تصبح، بالنسبة لمفوضية الدفاع، الجهاز الذي يوفّر للجيش الأحمر المعطيات عن أوضاع الجيوش الأجنبية وتسليحها وإعدادها وانتشارها. لم تكن مفوضية الدفاع، وحتى لحظة التسلم والتسليم، تملك مثل هذه المعلومات كما أن مسارح العمليات العسكرية لم يجرِ درسها...".

أضف إلى هذا كله السلبيات التي كانت موجودة في تنظيم الجيوش وفي إعدادها القتالي وفي الكوادر وفي الأسلحة المختلفة والدفاعات الجوية.

تحمل هذه الوثيقة توقيع كل من فوروشيلوف وتيموشينكو.

كان قد بقي عام واحد على الحرب، ولولا عمل المخابرات الاستراتيجية الفعَّال ومخابرات مفوضية الداخلية، لكان الوضع بلا أي أفق أمامنا. في ظل أوضاع مشابهة تقريباً، تسلّم والدي في العام ١٩٣٨ مخابرات مفوضية الشؤون الداخلية. إلا أن جهاز المخابرات هذا كان حتى بداية الحرب قد أصبح خصماً جدياً لبلدان الغرب، بما فيها، ألمانيا، بالطبع. وحين أصبحت مديرية المخابرات العامة خاضعة لإمرة والدي بدأت تغييرات جدية فيها أيضاً. إن وضع أجهزة المخابرات بإمرة شخص واحد قد سمح، وهذا رأيي الخاص

بالطبع، بإنجاز تلك القاعدة الجدية التي ضمنت نجاح عمل المخابرات السوفياتية خلال سنوات الحرب وبعدها.

يان بيرزين، بروسكوروف، غوليكوف، كوزنتسوف، سيروف، ايفاشوتين... جميع هؤلاء الناس توالوا على منصب رئاسة مديرية المخابرات (GRU) في فترات مختلفة، إلا أن اسم الجنرال غوليكوف يبقى الاسم الذي يرد ذكره أكثر من سواه ليس لتعداد حسناته. إحدى العاملات في المخابرات برتبة ليتنانت كولونيل، ماريا بوليكوفا، والتي بدأت خدمتها في المديرية الرابعة للجيش الأحمر في مطلع الثلاثينات، تحدثت عن رؤساء مديرية المخابرات، فقالت:

لقد فهمت حق الفهم من كان بيرزين بالنسبة لمخابراتنا العسكرية. إن إنشاء شبكة عملاء جيدة لا يمكن أن يتم بسرعة، بل يتطلب الأمر سنوات. إن روح المثابرة والإبداع والقدرة على العمل مع الناس ساعدت بيرزين أن يكون، ليس رئيساً، بل أن يكون مبدعاً حقيقياً. فقد كان يقوم بنفسه باختيار وتدريب الكوادر القادرة على تنفيذ مخططاته. وترك باهتمامه الفائق بصماته على أعمال القواعد المخابراتية التي أنشئت قبل العام ١٩٣٧ وعلى حياة كوادرها وعملهم. فالمنظمات، التي كانت تعمل بقيادة كل من ريخارد زورغي وشاندور رادو وإيلزا شتيبي وسواهم، تعتبر منظمات كلاسيكية في تاريخ أجهزة المخابرات. وقد بيّن نشاط المخابرات العسكرية خلال الحرب أن منظماتها الأساسية التي أنشئت بقيادة بيرزين هي المنظمات التي تميزت بالاستقرار في عملها. وقد صمد البعض منها طوال الحرب وحصل على معلومات قيمة.

بعد اعتقال بيرزين بقيت المديرية طويلاً من دون رئيس. ثم تم بعد ذلك تعيين بروسكوروف الذي كان ما يزال شخصاً فتياً، خاض الحرب الإسبانية ولا يملك أي تصور عن عملنا، إلا أنه كان يتميز بالذكاء والموهبة وعلاقته الجيدة بعمله. لكن بروسكوروف تم إبعاده فجاة قبل الحرب، وحلّ محلّه الجنرال غوليكوف. لم يكن غوليكوف على علم بخصوصية عملنا ولم يفهمها. فهو لم يدافع "يوماً عن مصالح المخابرات لا أمام ستالين ولا في الأركان العامة. لم يكن من السهل العمل معه...".

يتضمن هذا الكلام الكثير من الحقيقة. فقد عرفت غوليكوف شخصاً جيداً وطيباً؛ لكنه، كقائد للمخابرات، لم يحظ بالتقدير حتى في "قمة" السلطة

أيضاً. فلم يكن من قبيل المصادفات أنهم كانوا يرسلونه إما الى مفاوضات ما، وإما الى الجبهة عضواً في المجلس الحربي. ولم يفلح غوليكوف في أن يصبح محترفاً حقيقياً في المخابرات.

أما يان بيرزين فقد كان مصيره مأساوياً. كان بيرزين ليتوانياً، سجن قبل الثورة ونفي وحكم عليه من قبل المحكمة العسكرية بالإعدام، إلا أن هذا الحكم استبدل به فيما بعد الحكم عليه بالسجن.

جاء بيرزين إلى الجيش الأحمر من صفوف التشي.ك في العام ١٩١٩. وبعد مرور عدة سنوات أصبح رئيساً للمخابرات العسكرية. وقد تم اعتقاله وإعدامه رمياً بالرصاص حين كان يجوف (EJOV) مفوضاً للشؤون الداخلية، خلال حملات فورشيلوف "لتطهير" الجيش الأحمر.

ثمة مسألة أخرى مؤلمة بالنسبة إليّ أود الحديث عنها. يتهم عدد من المصادر والدي وأجهزة المخابرات السوفياتية بقتل كلٌ من رئيس الحكومة البولونية المؤقتة في لندن فلاديسلاف سيكورسكي ووزير الخارجية التشيكية يان ماساريك. ويزعم هؤلاء بأن عملاء بيريا قد استخدموا سمّاً جديداً ما لهذه الغاية...

لعلّ كان من المنطقي أكثر، أن يتَّهم والدي بأنه لم يسمم ماساريك، بل رمى به من النافذة. فقد انتحر ماساريك بأن رمى نفسه من النافذة، ولم يسمّمه أحد. هذا، إضافة الى أن المخابرات السوفياتية لم تكن مضطرة إلى "إزالة" ابن أول رئيس لتشيكوسلوفاكيا، على الأقل لسبب واحد، هو أن يان ماساريك كان يعمل لصالح الاتحاد السوفياتي...

أما سيكورسكي، فالمخابرات البريطانية هي التي "أزالته" وليس المخابرات السوفياتية. وأعرف ذلك معرفة أكيدة.

مقتطفات من مصادر رسمية:

فلاديسلاف سيكورسكي (١٨٨١/٥/٢٠ - ١٩٤٣/٧/٤): عسكري وسياسي

بولوني، جنرال. التحصيل العلمي: مهندس. في الأعوام ١٩١٤ -١٩١٧ كان كولونيلاً في الألوية البولونية، وهو خصم يوبيلسودسكي. تولّى أثناء الحرب البولونية السوفياتية في العام ١٩٢٠ قيادة الجيش الخامس ثم الجيش الثالث وأصبح في فترة ١٩٢١- ١٩٢٢ رئيساً للأركان العامة. تولّى في الأعوام ١٩٣٩ -١٩٤٣ رئاسة الحكومة البولونية في المنفى، وكان وزيراً للحرب وقائداً أعلى للقوات البولونية المسلحة. في ٣٠ تموز/يوليو ١٩٤١ وقّع اتفاقية مع الاتحاد السوفياتي حول إعادة العلاقات الدبلوماسية. قتل في كارثة طيران بالقرب من جبل طارق.

لقد كان اعتماد الجنرال سيكورسكي سياسة التقارب مع الاتحاد السوفياتي هو السبب في موته المأساوي. فقد كان سيكورسكي يقوم برحلة بالطائرة مع عدد من المحيطين به، وتحطمت الطائرة، إلا أن أفراد طاقم الطائرة قفزوا بالمظلات وحكم عليهم لاحقاً بالسجن لمدة عشرين سنة. لقد جرى الإعلان عن حادثة طيران مؤسفة. إلا أن المصادر الغربية نفسها تؤكد أن الرحلة السيئة تلك بدأت في جبل طارق، حيث كان الممثل الرئيسي للمخابرات البريطانية هو كيم فيلبي، الذي جنّده والدي في حينه... هل الأمر مصادفة؟

لا . حين قتل سيكورسكي لم يكن فيلبي في جبل طارق، بل كان ينفّذ مهمة للمخابرات السوفياتية في بريطانيا. أما بخصوص مقتل سيكورسكي نفسه، فتوجد مذكرات مثيرة للفضول، كتبها بعد الحرب ياور الجنرال أندرس، الذي يقول: "كان الخبر الذي ذكرته الحكومة عن موت سيكورسكي خبراً مبهماً ومشوّشاً وغير مقنع. لم يجر فعلياً تحقيق بالحادث. وللحفاظ على المظاهر، شكّلت لجنة لجلاء أسباب الكارثة، إلا أنها تبنّت الرواية التي تم إبلاغها لها... حتى أنها لم تكلّف نفسها عناء الكشف عن سبب تعطل مقود الطائرة، كما ذكر الخبر الرسمي. لم يصدق أحد أن الأمر كان مصادفة. فلم يتسنَّ انتشال جزء كامل واحد من الطائرة، كما لم يتسنَّ انتشال جثث الركاب، لأنها تشوهت لدى انفجار الطائرة في الهواء. لماذا عجّلوا في القضاء على سيكورسكي؟ لقد كان الإنكليز يخشون بشدة اتفاق سيكورسكي مع سلطات الاتحاد السوفياتي. فحين أعلن سيكورسكي عن سفره إلى القاهرة للقاء فيشينسكي، الذي كان

متوجهاً من لندن إلى موسكو، قام الإنكليز، الذين لم يكونوا راغبين في حدوث هذا اللقاء وفي المفاوضات، بإرسال برقية إلى سيكورسكي يستدعونه فيها إلى لندن. وكانوا قد استدعوه بعد أن هيأوا كل شيء لتكون تلك رحلته الأخيرة".

إن فرضية ياور الجنرال اندرس الروت ميستر كليمكوفسكي تتطابق كليّاً مع المعلومات التي حصلت عليها المخابرات السوفياتية. وكان استنتاج هذه المخابرات واضحاً لا لبس فيه : لقد كان الأمر عملاً تخريبياً نظّمته المخابرات البريطانية.

تبقى قصة راوول فالليبنرغ واحدة من القصص الغامضة أيضاً في تاريخ أجهزة المخابرات. منذ عدة سنوات مضت، صرّح أحد العملاء السابقين للكي.جي.بي. في الهند، والذي أصبح فيما بعد نائب مدير معهد الولايات المتحدة وكندا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ونائب رئيس اللجنة السوفياتية للدفاع عن السلام، صرح بأن فالليبنرغ كان وسيطاً في المحادثات السرية بين لافرنتي بيريا ورئيس جهاز الإس الإس هنريخ هملر في العام ١٩٤٤. مصادر أخرى تؤكد، خلافاً لما يقوله العميل السابق بوغدانوف، أن أجهزة الأمن السوفياتية حاولت تجنيد فالليبنرغ، وحين لم تنجح في ذلك قتلته. كما يزعمون أيضاً بأن الدبلوماسي السويدي قد قتل بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة....

مقتطفات من مصادر رسمية:

راوول فالليبنرغ: دبلوماسي سويدي. وهو الشخص الوحيد بعد ونستون تشرشل الذي مُنح في القرن العشرين لقب مواطن شرف في الولايات المتحدة الاميركية.

ولد في العام ١٩١٢ في استوكهولم. جدّه دبلوماسي عمل في اليابان والصين وتركيا. والده ضابط بحري، توفي قبل ولادة الابن. نشأ في أسرة الجد. التحصيل العلمي: مهندس معماري. عمل في حقل الأعمال وترأس مكتب استيراد وتصدير في ستوكهولم. وفي مطلع العام ١٩٤٤، غادر إلى بودابست في مهمة إنقاذ، وأصبح سكرتيراً لسفارة السويد الملكية في هنغاريا. أنقذ آلاف اليهود الهنغاريين من الموت.

تم اعتقاله من قبل مديرية مكافحة الجاسوسية (سميرش) في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٤٥. المصير اللاحق للدبلوماسي السويدي مجهول.

أعرف أن فاللينبرغ كان مرتبطاً بالأميركيين، وكانت جميع نشاطاته تجري بأمر من الولايات المتحدة وبعلم منها. وقد عمل الكثير بالفعل، لإنقاذ الناس. لكن لم تكن له في يوم من الأيام أية علاقة بالمخابرات السوفياتية، فضلاً عن أنه لم تجر في يوم من الأيام أية مفاوضات بين هملر ووالدي أو أي شخص آخر من ممثلي الاتحاد السوفياتي. إن هذا الزعم باطل بالمطلق، علماً أنني أعرف أنه قد كتب الكثير في السنوات الأخيرة في الصحافة السوفياتية عن مفاوضات وهمية.

اعتقل راوول فاللينبرغ من قبل المديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (سميرش) التي كان يترأسها آنذاك أباكوموف. ومن ثم تم تسليم الدبلوماسي المعتقل للأجهزة الأمنية. لم يكن لوالدي في يوم من الأيام أية علاقة بمصير فاللينبرغ. وأنا لا أعرف بالطبع، ما جرى لهذا الشخص على أراضي الاتحاد السوفياتي. لكن بوسعي أن أفترض أنه لم يُعدَم، بل بقي خلال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات يعيش في الاتحاد السوفياتي. فأنا أعرف أن مثل ذلك قد حدث...

لقد كان شخصاً شهيراً للغاية حتى نصف قرن مضى. كان والدي، شأنه شأن أعضاء القيادة السوفياتية العليا الآخرين، يحصل على نشرات خاصة تتضمن عرضاً للصحافة الأجنبية. وقد قرأت أكثر من مرة في تلك السنوات عن فاللينبرغ نفسه وعن الاهتمام الذي تثيره في الغرب عمليات البحث عنه. إلا أنني لم أعرف إلا بعد فترة متأخرة جداً أن راوول فاللينبرغ موجود في الاتحاد السوفياتي.

ما هو سبب موجة الاهتمام الحالية غير الاعتيادية بمصير الكولونيل في مديرية المخابرات (GRU) أوليغ بنكوفسكي، الذي أُعدم رمياً بالرصاص في أيار/مايو ١٩٦٣ بناء على الحكم الصادر بحقه من قبل الغرفة العسكرية في المحكمة العليا بالاتحاد السوفياتي بتهمة خيانة الوطن؟ تتعدد الروايات حول

هذا الموضوع، وتحل الواحدة محلّ الأخرى. وغالباً ما يقف وراءها الأشخاص الذين كانوا إلى فترة قريبة يعملون في الكي.جي.بي. ومديرية المخابرات. لكن، وكما في السابق، ليس من رواية ثابتة ونهائية في موضوع بنكوفسكي. من المعروف أن الكولونيل كان متفرغاً للشؤون الاسكندنافية في مقر مديرية المخابرات في تركيا، وأخذ يعمل في السنوات الأخيرة في مجال المخابرات العسكرية في حقل التكنولوجيا...

لا يجدر بنا أن ننتظر رواية ثابتة ونهائية ما دامت أجهزة الأمن الروسية لا تعترف بأن بنكوفسكي قد أقدم على إنشاء علاقات مع المخابرات البريطانية والأميركية قبل الفترة المتعارف على اعتمادها بوقت طويل. وهو لم يُقدِم على ذلك بمبادرة شخصية منه، بل بناءً على أمر مهمة من قيادته. فقد رسم له منذ البداية دور العميل المزدوج. إن مثل هذه الأمور معروفة في المخابرات.

أثناء الحرب كان، بنكوفسكي يعمل في تركيا. ولم تكن توجد أية ملاحظات عليه، على ما أعلم. إن الانزعاج الذي أثاره بنكوفسكي، المقرّب من قائد قوات الصواريخ الاستراتيجية م.نيديلين، الذي لقي مصرعه في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٠ أثناء التجارب في بايكانور، مردُّه المواصفات التي سمح لنفسه بتقديمها إلى الأميركيين والإنكليز عن الأشخاص الذين كانوا في السلطة آنذاك. ويبدو أن هذه المواصفات لم تكن مُرضية...

لقد شكّلت هذه القضية الغامضة حجة بالنسبة لخروتشوف والمحيطين به لإبعاد الجنرال إيفان سيروف من منصب رئيس المديرية العامة للمخابرات (GRU).

أعتقد بأن الاهتمام بمصير الكولونيل بنكوفسكي بعد مضي ثلاثين عاماً على إعدامه يعود إلى أن الاتهامات التي وجهت إلى رجل المخابرات لا تبدو اليوم مقنعة.

لقد تسنّى لي أن اخدم في سنوات الحرب في المخابرات، وأن أشارك في عدد من العمليات في الخارج. كما تيسّر لي فيما بعد، وغير مرة، أن أتعاطى

مع نتائج عمل المخابرات في حقل التكنولوجيا، بوصفي كبير المصممين للأجهزة الصاروخية. إن ملاحقة المخابرات السوفياتية للاكتشافات العلمية التقنية في الغرب لا تقتصر على سنوات ما بعد الحرب فحسب، فقد كانت هذه الأجهزة، شأنها شأن كافة أجهزة المخابرات في العالم، تهتم دائماً بهذه المسألة وتحرز نتائج ملموسة. كنت أتواجد كثيراً في المختبرات الخاصة بوزارة الداخلية. لقد تم، مثلاً، إعداد ما يسمّى بجهاز الرؤية الليلية خلال فترة ستة أشهر في أحد المختبرات الوطنية بقيادة بافل نيكولايفتش كوكسنكو، وذلك وفقاً للرسوم الهندسية التي حصلت عليها المخابرات.

لقد "استعرنا" أجهزة الراديو المخصصة للطائرات من الإنكليز. خلال معركة الدفاع عن موسكو، تم تجهيز سربين أو ثلاثة أسراب من الطائرات بهذا الجهاز. وهكذا كان الأمر أيضاً بالنسبة لأجهزة الراديو البحرية أيضاً. لقد قدّمت المخابرات السوفياتية مساعدة جليلة لمصمّمي التقنيات العسكرية.

مقتطفات من مصادر رسمية:

وفقاً لمعطيات الصحافة الاجنبية، فإن جميع أنظمة الأسلحة المتطورة إلى حد ما، التي صنعت في الاتحاد السوفياتي إبان الثمانينيات، بما فيها الطائرتان الشهيرتان ميغ٢٩ وسوخوي ٢٧ وبعض الصواريخ والدبابات والغواصات، يعود الفضل الأساسي في صنعها إلى أنظمة الكمبيوتر التي تم الحصول عليها من الخارج بصورة غير شرعية. فقد أتاحت العملية الكبرى، التي قامت بها الكي-جي-بي. ومديرية المخابرات العامة، والتي كلّفت مئات الملايين من الدولارات، كسر طوق الحظر الذي فرضته بلدان الناتو على مبيع هذه التقنيات والتكنولوجيات إلى البلدان الاشتراكية.

فقد وصلت الى الاتحاد السوفياتي خلال عدة سنوات عشرات آلاف أجهزة الكمبيوتر من مختلف الفئات ومئات آلاف الأجهزة التابعة لها ووسائل البرمجة وقطع الغيار. وبفضل هذه الأجهزة، تم صنع نماذج الأسلحة المتكاملة المواصفات. فقد تم على أساسها بناء مراكز المعلوماتية التي تتولّى احتساب تصاميم الطائرات المقبلة والصواريخ والدبابات وسواها من الأسلحة. فعلى أساس استخدام مثل هذه

التقنيات الإلكترونية فقط، كان يمكن احتساب صلابة (مريا)[1] (MRIA) العملاقة بفعل الاستخدام الأقصى لطاقة المواد والمعارف الحديثة في مجال الايروديناميك وسواه.

وتورد الصحافة الروسية أمثلة اخرى ذات دلالة كبيرة. فالدراجة النارية الإيطالية "VESPA" دخلت السوق الروسي تحت اسم "VIATKA". وبفضل أجهزة المخابرات ظهرت المكانس الكهربائية الجديدة والثلاجات وآلات الحلاقة الكهربائية وسواها من السلع الاستهلاكية. غير أن المهمة الرئيسية للمخابرات كانت في مجال التقنيات العسكرية.

لست على علم حتى الآن ما إذا كان الطيار الأميركي الذي حط بطائرته ب-٢٩ في الشرق الأقصى السوفياتي مجنّداً من قبل المخابرات السوفياتية. وقد جرت هذه القصة خلال الحرب العالمية الثانية. فبعد أن قام هذا الأميركي بإفراغ حمولته من القنابل لم يعد إلى قاعدته، بل حط في أراضينا. إن قاذفة القنابل السوفياتية تو-٤ هي نسخة طبق الأصل عن البوينغ المختطفة هذه... وقد أتاح لنا التعرف إلى أجهزة الطائرة الأميركية آنذاك رفع مستوى تقنياتنا الجوية بشكل ملحوظ.

لم يكن عدد مثل هذه الحوادث قليلاً في تلك السنوات. فحين كانت الطائرات الأميركية تقصف اليابان، وكانت الدفاعات الجوية تسقط هذه الطائرات، كان يسمح لأطقمها بوضع الطائرة على نظام الطيران الذاتي وتوجيهها صوب الأركتيك في القطب الشمالي. وكان الطيارون أنفسهم يحاولون ألا يسقطوا في الأراضي اليابانية، بل كانوا يقفزون بالمظلات على الأراضي السوفياتية أو الصينية. وكانت نسبة ٥٪، إن لم أكن مخطئاً، من الطائرات التي تسقط تذهب نحو الأركتيك. كان قسم من هذه الطائرات يتحطم، بالطبع، في السهوب الجليدية، غير أن البعض منها، وغالبيته من دون أطقمه يقع في الأراضي السوفياتية وهو بحالة طبيعية إلى حد ما. وأذكر أنه في إحدى المرات

(١) طائرة النقل العملاقة من طراز An-225. ظهرت في العام ١٩٦٤، وهي مزوّدة بستة محركات مروحية توربينية -المترجم.

سقطت الطائرة من دون طاقمها سليمة، وطار بها من الشرق الأقصى الطيار مارغونوف. وقد حصل مكتب مصمم الطيران توبوليف على هذه الطائرة، وقام العاملون فيه، وبمساعدة صناعتنا، على إعادة صنع كافة أجهزة الطائرة الأميركية. وقد ساعد هذا الأمر كثيراً اختصاصيينا الذين كانوا يعملون في حقل المحركات والراديو إلكترونيك وأجهزة الطيران والأنظمة الكهربائية وصناعة الأجهزة. وتم على الفور إدخال التكنولوجيا الأميركية في صناعتنا.

وكانت الرسوم الهندسية لمحركات الطائرات الأميركية وأجهزتها قد حصلت عليها مخابراتنا قبل بعض الوقت. وأميل أكثر فأكثر إلى الاعتقاد بأن طاقم الطائرة ب-٢٩، الذي حط بطائرته في المطار بالشرق الأقصى، لم يفعل ذلك مصادفة، ويبدو أن هذا الأمر أيضاً لم يتم من دون المخابرات...

ولنقرأ، على سبيل المثال، ما كتبه الميجور المتقاعد في القوات الجوية الأميركية روبرت بيسيت من كاليفورنيا: في ١٨ نيسان/إبريل ١٩٤٢، أقلعت ١٦ قاذفة قنابل ب-٢٥ من على ظهر حاملة الطائرات "هورنيت" في القوات البحرية الأميركية، وبدأت أول غارة جوية على اليابان بعد الهجوم على بيرل هاربور. وقد غرقت خمس عشرة طائرة من هذه الطائرات عند سواحل الصين أو سقطت على البر بعد أن قفز طياروها بالمظلات. طائرة واحدة فقط من هذه الطائرات حطت بحالة سليمة على الأرض قرب فلادي فاستوك، بعد أن كانت قد اضطرت للانحراف عن مسارها القتالي بسبب نفاد الوقود. وقد احتجزت السلطات السوفياتية أفراد الطاقم الخمسة، الذين تمكنوا من الفرار إلى إيران في العام ١٩٤٣. لا تبدو هذه القصة مقنعة، إلا أن روبرت بيسيت يؤكد أن شخصين من أفراد الطاقم ما زالا على قيد الحياة وشاهدا طائرتهما متوقفة على مدرج المطار في بريمورسك.

يرى المؤرخون الأميركيون أن قاذفة القنابل "انخرطت في القوات الجوية السوفياتية وضاعت في لجة الزمن". ويبدو من خلال ما نُشر في الصحافة أن سر اختفاء طائرة ب-٢٥ قد أثار اهتمام الكثيرين في روسيا أيضاً وفي أوكرانيا. ن.ماركوف من مدينة أنجلز في مقاطعة ساراتوف أفاد أنه في حزيران/يونيو

١٩٥٦ أرسل إلى الوحدة العسكرية رقم٤٠٩٧١ للدراسة في مدرسة صغار فنيي الملاحة الجوية باختصاص الرماة الجويين. وكانت المدرسة تقع في قرية مينزوفكا بمقاطعة بريمورسك. ويؤكد هذا الجندي السابق أن الطائرة ب-٢٥ كانت تقف في محيط المدرسة وتستخدم للدراسة التطبيقية. كما كانت تقف إلى جانبها وتؤدّي الدور نفسه طائرتنا تو-٢. وكانت الطائرتان قد نقلتا من وحدة عسكرية أخرى. وحين تم نقل المدرسة إلى مقاطعة آمور بقيت الطائرتان في مينزوفكا.

ولا تقل أهمية عن الشهادة السابقة، برأيي، شهادة ف.ميلنكوف من بولتافا. فقد كتب هذا في صحيفة الإزفستيا يقول: "في السنوات العشر التي أعقبت الحرب كنت أقود طائرة نقل في منطقة الشرق الأقصى على الخط الجوي بين أولين وبكين. وكنت أعرف جيداً كافة المطارات الساحلية للدول الثلاث (الاتحاد السوفياتي، كوريا والصين). ومع أنني كنت على علم بأن حوادث إسقاط "القلاع الطائرة" (كاتبو الرسائل مخطئون، فالحديث يدور عن الطائرة ب-٢٩) ليست كثيرة في هذه المنطقة، لكن بقيت في ذاكرتي حادثة مشابهة. في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٥ كان الحَجْرُ على الأسرى الأميركيين في موكدان بالصين (تم تحريرهم من قبل مظليين) قد شارف على نهايته. وكانت قاذفات القنابل الأميركية ب-٢٤ و ب-٢٩ التي كانت تستخدم للنقل كثيراً ما تطير الى هذه المنطقة. وكانت تقلع إما من اليابان وإما من كوريا. وكان مسار تحليقها يمر عبر كوريا الشمالية ويمر فوق مدينة كانكو (خامخيم حالياً). وكانت إحدى قواعدنا الجوية الكبيرة قد نقلت من منطقة بريموريه إلى القرب من هذه المدينة. وكان مشهد الطائرات الأميركية، وهي تحلق فوق كانكو، قد أصبح خلال شهرين من الزمن مشهداً مألوفاً للسكان المحليين، إنما ليس للوافدين من بريموريه للخدمة بالقرب من هذه المدينة. وإذا صدّقنا الكاتب المذكور، فإن أحد العسكريين من ذوي الرتب الرفيعة، حين رأى الطائرة ب-٢٩ تحلّق فوق رأسه، أمر الطائرات المقاتلة بإجبار الطائرة "المخالفة" على الهبوط. إلا أن الطائرة تجاهلت طلقات المدافع الرشاشة التحذيرية. وانتهى الأمر بأن قامت

إحدى طائرات "الكوبرا" التابعة لسلاحنا الجوي بإطلاق النار على محرك الطائرة الأميركية. كانت الطائرة الأميركية قد أصبحت فوق اليابسة، لكنها عادت فجأة باتجاه البحر وابتعدت عن الشاطىء مسافة قصيرة ورمت في البحر شيئاً ما، ثم عادت أدراجها وحطت في مطار سوفياتي. يؤكد ف. ميلنكوف أن طاقم الطائرة رمى في البحر جهاز تصويب سري. وقد تم وضع طائرة ب-٢٩ لاحقاً بتصرف مجموعة من الاختصاصيين. هل هذه رواية أخرى من روايات ظهور طائرتنا (تو-٤)؟من المحتمل أن يكون الأمر كذلك.

ويروي يو.بافلوف وم. فانكين من مدينة بيرما اللذان كانا بين العامين ١٩٤١ و١٩٤٧ يخدمان في الكتيبة ٣٣ من الفرقة العاشرة لقوات المحيط الهادىء الجوية، قصة أخرى من قصص الهبوط الاضطراري للطائرات الأميركية في الأراضي السوفياتية. يقول هذان الرجلان، وهما ميكانيكي طيران وفني في السلاح سابقاً، إن الوقت كان ربيعاً حين قامت مجموعة من الكتيبة ١٩ للطيران المطارد من فرقتهما بإجبار "قلعة طائرة" أميركية على الهبوط. ويؤكد أن الطائرة كانت من طراز ب-٢٥، وهي الطائرة التي يحاول الأميركيون العثور عليها منذ سنوات عديدة. وقد تمكّن طاقم الطائرة من تدمير الأجهزة السرية الحديثة لقذف القنابل ووسائل الاتصال قبل أن يصل الجنود إلى الطائرة. وقد نقلت الطائرة لاحقاً إلى أحد المطارات العسكرية في وسط روسيا.

في العام ١٩٩٣، ظهر في الصحافة الأوكرانية خبر عن قيام عسكريين سوفيات باختطاف طائرة حربية أميركية من مطار كوري جنوبي. وكان ذلك خلال الحرب الكورية. وحطت "كوبرا" المختطفة في فلادي فاستوك. وهكذا فإن الأمر كما رأينا يتعلق ببضعة حوادث وليس بحادثة واحدة.

لكن، وكما هو شائع، فإننا لسنا الوحيدين الذين كانوا يختطفون...فقصة خيانة الليتنانت فيكتور بيلينكو، الذي حط بطائرته في ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٧٦ في مطار بجزيرة خوكايدو، معروفة على نطاق واسع. وقد حصل اليابانيون آنذاك أو الأميركيون، بصورة أدق، على الميغ-٢٥، وهي أحدث طائرة سوفياتية مقاتلة معترضة.

أما قصة الميغ السوفياتية الأخرى، فلم تنتشر عندنا على نطاق واسع شأن سابقتها. في آب/أغسطس ١٩٦٦ حط الطيار العراقي، نائب قائد السرب نجوي، منير ردفة بطائرته في أحد مطارات إسرائيل. وما زالت هذه القصة حتى يومنا الحاضر تعتبر في إسرائيل شهادة على فاعلية عمل المخابرات الإسرائيلية. وكانت هذه المهمة قد طرحت أمام المخابرات العسكرية الإسرائيلية والموساد مباشرة بعد أن أخذ الاتحاد السوفياتي يزوّد كلاً من مصر والعراق وسوريا بالمقاتلات الجديدة.

باختصار، إن المخابرات السوفياتية، كما نرى، لا تشكّل استثناء بين أجهزة المخابرات.

لكننا نعود إلى مصير الإنسان الذي وقف خلال سنوات عديدة على رأس أفضل المخابرات الاستراتيجية في العالم. هكذا، على الأقل، يقيّم خبراء أجهزة المخابرات نشاط المخابرات السوفياتية في تلك المرحلة الأصعب من تاريخ الاتحاد السوفياتي.

كيف كان والدي، لافرنتي بافلوفيتش بيريا؟ لا يمكن أن تجد اليوم في أي مرجع رسمي تقييماً موضوعياً لعمل رئيس المخابرات الاستراتيجية السوفياتية خلال هذه السنوات الطويلة، وذلك لأسباب معروفة. وجميع المحفوظات الموجودة في أرشيف المخابرات السوفياتية السابقة والمرتبطة بشكل أو بآخر باسم "الجاسوس الإنكليزي"، لا تزال محاطة بتعليمات لا تقلّ سرّية عما كانت عليه منذ أربعين سنة. والأسباب هي نفسها...

ومع ذلك فقد تسرّب شيء ما إلى الصحافة. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢، مثلاً، اعترف علناً الرئيس السابق للقسم الرابع في المخابرات الخارجية في الكي.جي.بي. السوفياتية فيتالي تشرنيافسكي، بأن:

"بيريا كان وقّاد الذهن، دقيق الحساب، وكان يعرف جيداً فن الجاسوسية ومكافحة الجاسوسية. وقد انتقد بيريا بشدة، بعد مجيئه إلى وزارة الداخلية في العام ١٩٥٣، عمل المخابرات في سنوات ما بعد الحرب، وباشر بإعادة تنظيمها. فعمد إلى تجديد تركيبة المجموعات الاستشارية في بلدان الديمقراطيات الشعبية

ووضع على رأسها موظفين شباباً يتمتعون بالحيوية. وطلب أن يكون هؤلاء على معرفة ممتازة للغات البلدان التي يعملون فيها، وأن يكون بوسعهم التحدث إلى قادة الأجهزة السرية والدولة من دون مترجمين. وكان يرى أن العلاقات مع حلفائنا ينبغي أن تكون أكثر احتراماً وثقة، وألا يتدخل المستشارون بالشؤون الداخلية، وألا يقدموا نصائح في القضايا "الزلقة"، وبخاصة تلك التي كانت تبرز نتيجة الصراع الداخلي في القيادة الحاكمة، وذلك منعاً لبروز أية حجة للقول لاحقاً إن هذه النصائح قد قُدمت ونفّذت بناء لتوجيه "الرفاق السوفيات". لقد كانت تعليماته هذه وجيهة كلياً. إنني أكتب عن ذلك بالتفصيل في المذكرات التي أعمل عليها الآن: "في البلقان ووسط أوروبا ١٩٤٤-١٩٥٦".

لنقارن هذه الصورة مع تلك التي قدّمها منظمو اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٥٣ نفسه. ونسوق مقتطفات من محاضر الجلسات:

"**خروتشوف:** لقد كان العمل في المخابرات وفي مكافحة الجاسوسية عملاً ثانوياً مهملاً... من الضروري وضع جميع الأمور في نصابها وإلزام أجهزة وزارة الداخلية القيام بعملها بما يتفق كلياً مع قرار اللجنة المركزية حول العمل المخابراتي النشيط ضد أعدائنا الخارجيين. إنه لضرورة ملحّة، وكما قال الرفيق مالينكوف، وهو محقّ كلياً في ذلك، أن نقوم بتعزيز قيادة الحزب في كافة الحلقات والانتهاء وإلى الأبد من الإخلال بقواعد علاقة الحزب بوزارة الداخلية، وأن نرفع مستوى التربية الفكرية لدى كوادر التشي.ك، وأن نشدد مسؤولية الأجهزة الحزبية في ممارسة القيادة اليومية الملموسة للأجهزة والعمل دوماً على تشديد اليقظة الثورية.

أيها الرفاق، اعتقد بأن لا حاجة لتضخيم شخصية هذا النذل، فالجماهير الحزبية والشعب لا يعرفونه، فهو لم يكن في أي مكان، ولم يكن يعرف حياة المنظمات الحزبية. لقد كانت الكوادر القيادية تعرفه كشخص وقح وفظ. أما الآن فقد عرفته كعميل وخائن.

كروغلوف: لو لم يوقفه السجن عند حدّه لكان، بلا شك، ذهب في أهدافه العدائية بعيداً في الصراع ضد حزبنا، ولكان حاول، كما أصبح واضحاً كلياً الآن، استخدام جهاز وزارة الداخلية كذلك. غير أن هذا الوغد كان سيخطىء في حساباته هذه المرة أيضاً. إن العاملين في وزارة الداخلية هم بغالبيتهم العظمى، باستثناء قلة قليلة من الأشخاص المقربين جداً من بيريا، مخلصون لحزبنا ولجنته المركزية

اللينينية الستالينية، ولن يكون بوسعه (أي بيريا) استخدامهم لغاياته النتنة (تصفيق). لكن ينبغي في الوقت الراهن القيام بتقييم نقدي لمجمل سلوك بيريا خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة في وزارة الداخلية... إن أموراً كثيرة تظهر الآن على نحو مغاير، تظهر بمعناها الحقيقي، وتغدو مفهومة صورته العدائية المناهضة للحزب. كما يصبح من الواضح أيضاً أنه كان يرغب في استغلال جهاز وزارة الداخلية لمآربه الخاصة، وكان يلحظ ذلك في مخططاته النتنة. ومن أجل هذه الغاية، وتحت ستار الحفاظ على السرية التامة، كانت جميع المسائل المتعلقة بالمخابرات ومكافحة الجاسوسية تعالج من قبله ومن قبل كابولوف... إن مهمتنا الآن تتمثّل بالمساعدة في فضح هذا الخبيث المثلث الخيانة، النصّاب، العميل، الذي كان يقف مغروراً ومتزاهياً وسط قيادتنا، وإنجاز عملية فضحه هذه على نحو نهائي وكلي. أما قيادتنا فهي مفخرة الشعب ومفخرة الحزب. لقد جمع في شخصه مدبّر الدسائس هذا والواشي، والعميل بالفطرة، والسافل الخليع حتى العظم، سفالة ووقاحة لا حدود لهما. وسوف يظهر التحقيق كل النشاط المعادي الذي قام به بيريا. غير أن بعض التدابير التي اتخذها هي برأينا، تدابير تخريبية ومعادية للدولة، ولا سيما تلك منها المتعلقة بالمخابرات. إننا على علم الآن بأن بيريا قد قام خلال شهري نيسان/إبريل وأيار/مايو من هذه السنة باستدعاء حوالي نصف العاملين في مقرات مخابرات وزارة الداخلية إلى موسكو. إن القسم الأكبر من الذين تم استدعاؤهم موجودون في موسكو منذ شهرين أو ثلاثة أشهر.

مولوتوف: من أين تم استدعاؤهم؟

كروغلوف: من الخارج، من البلدان الرأسمالية، يا فيتشسلاف ميخايلوفيتش.

مالينكوف: لقد تم استدعاء عدة مئات من هؤلاء العاملين.

كروغلوف: يوجد في الوقت الراهن حوالي ٢٠٠ شخص يعيشون في موسكو منذ شهرين أو ثلاثة دون أن تجري معالجة قضيتهم. وقد ضعف عمل مقرات وزارة الداخلية المخابراتية خلال هذا الوقت. فقد فُقدت الاتصالات مع العديد من العملاء الهامين. وتعرّت مقرات المخابرات السوفياتية في البلدان الرأسمالية، وتركت بلا قيادة خلال فترة طويلة من الوقت.

صوت: لقد كان ذلك مقصوداً.

كروغلوف: هذا صحيح كلياً، لقد بقي مفوض وزارة الداخلية في الشؤون الأمنية ونوابه مدة ثلاثة أشهر في موسكو. وفي لحظة الإعداد للتمرد في ألمانيا،

اتخذ بيريا قراراً بتقليص الجهاز المفوض من قبل وزارة الداخلية العمل في ألمانيا بمقدار سبع مرات، كما قرّروا إلغاء الجهاز الإرشادي في المانيا مبقين على الوظائف الاستشارية فقط. وجرى خلال هذه الفترة أيضاً إضعاف الجهاز المخابراتي في ألمانيا على نحو شديد.

كما يبدو مثيراً للريبة كذلك انبهار بيريا الأعمى بكل ما هو موجود في المخابرات خارج الحزام. فقد أعلن غير مرة أن المخابرات ليست موجودة، وأنه ينبغي البدء بكل شيء من الصفر. وكان بيريا وكابولوف يعملان في الوقت نفسه على التخلي عن سلسلة كاملة من التدابير المتخذة في تجنيد العملاء. وثمة معلومات كثيرة تتعلق بالمخابرات الأجنبية لم يتم إبلاغها إلى اللجنة المركزية للحزب. إن عدداً من الأمور المتعلقة بتعيين الكوادر القيادية في وزارة الداخلية يقود إلى الاعتقاد بأن بيريا كان يسعى إلى تعيين أشخاص مخلصين له، دون مراعاة ولائهم السياسي للحزب. فتعيين أشخاص مثل رايخمان وسودابلاتوف وأيتنغون وميشيك وميلشتاين وسواهم، مِمَن لم يكونوا يتمتعون إطلاقاً بثقة العاملين السياسية، وكانوا قبل مجيئه، وهو ما أصبح معروفاً الآن، مطرودين من أجهزة وزارة الداخلية، إن هذا الأمر يجدر النظر إليه على أنه رغبة من قبله بتعيين أشخاص مخلصين له حتى النهاية.

تعرّضت مديرية المخابرات لعملية تطهير وتقليص شديدة على يد بيريا. فخلال فترة قصيرة من الزمن، تم تسريح عدد كبير من الأشخاص، الذين تم تجنيدهم في الأجهزة عبر الحزب.

ومما يُلفت الانتباه، على نحو خاص، القسم الجديد الذي أنشأه بيريا، متجاهلاً هيكلية الوزارة المقرّة من قبل اللجنة المركزية. يخضع هذا القسم له شخصياً ولسنا نعرف ماذا يعمل. حتى الكادر في هذا القسم تم اختياره دون علم قسم الموظفين في الوزارة. فقد جرى في هذا القسم تعيين كلٍ من ايتنغون المذكور نفسه، والذي خرج لتوه من السجن وشخص يدعى فاسيليفسكي، وهو ذو سمعة مريبة، وشخص آخر مقرّب من بيريا يدعى برافدين، وهو فرنسي، وغيرهم.

ابلغ مؤخراً الرفيق كوتوف الذي تم تعيينه حديثاً عميلاً مقيماً في فنلندا، أن بيريا اقترح عليه، حين كان يستقبله، بأن يقوم بزيارة وزير داخلية فنلندا السابق المرتد لاينو، الذي أبعده الشيوعيون في خطوة خاطئة، بحسب زعمه. وقد أفهم بيريا الرفيق كوتوف أنه ينبغي له مقابلة لاينو. إن هذا التوجيه الصادر عن بيريا يبدو مثيراً للريبة إلى أقصى الحدود، وذلك لأنه لا يجوز أن يعتبر أمراً طبيعياً لقاء موظفينا السوفيات في الخارج مع الأشخاص المرتدين وخونة الحركة العمالية.

أيها الرفاق لقد نشأ وضع صعب في الفترة الأخيرة في وزارة الداخلية، أو بالأحرى وزارة أمن الدولة السابقة (MGB). فخلال السنوات الثلاث الأخيرة، تستمر بلا توقّف عملية إعادة تنظيم لهذه الوزارة. لقد زعزعت هذه العملية الجهاز بشدة. إلا أن الشيوعيين العاملين في وزارة الداخلية، والذين انتدبهم الحزب إلى هناك، يدركون جيداً أنهم بقيادة حزبهم الحبيب ولجنته المركزية سوف يتّخذون كافة التدابير، مستفيدين من كافة الدروس، لتعزيز الأجهزة وتعزيز توجهها ضد أعدائنا الطبقيين، وسوف يرفعون من يقظتهم الثورية في عملهم ويبذلون كل جهدهم ليكونوا على قدر الثقة التي يمحضهم إياها الوطن وتمحضهم إياها اللجنة المركزية اللينينية الستالينية للحزب. (تصفيق).

رئيس الجلسة الرفيق خروتشوف: ايها الرفاق، ثمة اقتراح باستراحة لتناول الغداء حتى الساعة الثامنة مساء. هل من اعتراض؟

أصوات: كلا.

رئيس الجلسة الرفيق خروتشوف: استراحة حتى الساعة الثامنة مساء.

"ثمة اقتراح... لا اعتراض". بماذا كان يفكّر الرفيق خروتشوف وهو يتوجّه مع زملائه المقربين لتناول الغداء؟ هل كان يشعر بالإعجاب بالمسرحية التي دارت للتو وفقاً للسيناريو الذي أعدّه هو؟ هل كان يحلّل كلمات المشاركين بالاجتماع الموسع، الذين كانوا يقرأون بحيوية كل هذا الهراء المكتوب من قبل الموظفين الكتبة في الجهاز الحزبي؟ للأسف لم يعد بوسع أحد قط الإجابة عن كل ذلك. كما لم يعد بوسع أحد الإجابة عن التساؤل التالي: لماذا لم يخاطر أحد من المشاركين في الاجتماع الموسع للجنة المركزية في الإقدام ولو على مجرد التشكيك بخطايا والذي المزعومة؟ هل كان شبح محاكمات الثلاثينيات السياسية يخيّم على القاعة كما في السابق؟ أم أن الخوف على الكرسي كان يعقد الألسنة؟ ويبدو أن الأمر الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة. لم يذكر أحد بعد ولو جزءاً من الحقيقة، عن الضرر الهائل الذي تسببت به القيادة الحزبية العليا للمخابرات السوفياتية في فترة ما بعد الحرب. في العام ١٩٤٦، وُضِعت مخابرات أجهزة أمن الدولة بين يدي الوزير الجديد أباكوموف، وبعد اعتقاله

تولّى وزارة أمن الدولة (MGB) الاباراتشيك الحزبي إيغناتييف. ومن هنا جاء ما يسمّى بالأطقم الحزبية، ومن هنا جاء تسلّط غير المحترفين على مخابرات وزارة أمن الدولة (MGB). وحين جاء والدي إلى وزارة الداخلية (MVD) في آذار/ مارس ١٩٥٣، بعد انقطاع دام عشر سنوات، كان وضع المخابرات في الحضيض.

فقد تكررت بكثرة حالات الفشل وافتضاح أمر العملاء، وظهرت حوادث الفرار التي لم تكن تلاحظ سابقاً، إضافة الى الغياب الكلّي للمعلومات الجدية على غرار تلك التي كانت تملكها مخابرات البلاد الاستراتيجية. لقد أثار كل ذلك استياء والدي، بالطبع. هذا، مع العلم أن ملاك أجهزة المخابرات كان قد تخطّى منذ زمن بعيد كل الحدود المعقولة.

لقد قام والدي، بالطبع، بوضع هيئة رئاسة اللجنة المركزية ومجلس الوزراء في الصورة الحقيقية لواقع الأمور. واعتبر أن أحد الأسباب الرئيسية لما حدث يكمن في تدنّي مستوى الاحتراف لدى العاملين في مديرية المخابرات الخارجية.

كان والدي يقنع الجميع بقوله:

عليكم أن تدركوا أنه لا يجوز تعيين أشخاص في المخابرات لا يملكون أي تصور عن هذا العمل ولا يعرفون لغات أجنبية. في مجال آخر يمكن نقل الشخص من النادي إلى الحمام ومن لجنة الحزب المحلية إلى ورشة البناء. أما هنا، فللعمل خصوصيته المحددة التي تتطلب معطيات ملموسة أيضاً. إن البعض يعترض عليّ بقوله: لكن هؤلاء الناس هم أعضاء في الحزب. أنا لست ضد أن يعمل أعضاء الحزب في المخابرات. لكن كيف يمكن تسليم الناس مواقع قيادية في المخابرات إذا كانوا يجهلون بديهيات هذه المهنة؟

كانت قضية الكادر بالذات هي القضية التي باشر والدي بمعالجتها. فعمد إلى التخلص من الأشخاص الطارئين على هذا المجال، وبدأ على الفور بإحلال المحترفين محلّهم. إن قسماً من هؤلاء الأشخاص جاء إلى مديرية المخابرات

في وزارة الداخلية من المديرية العامة للمخابرات. وكان هؤلاء في معظمهم من الأشخاص الذين خاضوا غمار الحرب، وأثبتوا جدارتهم في المخابرات العسكرية. وكان عدد غير قليل ممّن تم اختيارهم هم من الأشخاص الذين كانوا يعرفون لغات أجنبية معرفة تامة، ويسعون إلى تعلّم أصول المهنة.

كانت الأمور قد بلغت حد السخرية، في الواقع. فقد كان يتم تعيين الشخص، عميلاً مقيماً في طوكيو مثلاً، دون أن يكون يعرف أية لغة أجنبية، إلا أنه مرشح من قبل الحزب. وكان هذا يكفي كلياً في عهد إيغناتييف لكي يشغل الشخص مثل هذا المنصب.

لم يتم أي استدعاء مكثف لرجال المخابرات السوفيات من الخارج، ولم يقم أحد بفضح أحد، كما يكتبون أحياناً. فالمؤرخون والناشرون يردّدون عادة الأباطيل التي أطلقت في الاجتماع الحزبي الموسع، ويطوّرون في أحيان كثيرة الحجج التي تحدثوا عنها في هذا الاجتماع... لقد كان يجري إحلال المحترفين محل الجهلة، وكانت تجري عملية إعادة تنظيم لم يلحظ ضرورة القيام بها في يوم من الأيام العاملون في المخابرات الخارجية أنفسهم. وكان كل ذلك يجري، طبعاً، بموافقة اللجنة المركزية التي كانت توافق على اقتراحات والدي.

فيما عدا الأباطيل، لم تقدّم آنذاك أية تهم فعلية ضد وزير الداخلية الجديد. فمنظّمو الاجتماع أنفسهم كانوا يدركون جيداً أن والدي كان يسعى لإصلاح ما أفسده الآخرون...

ولنتحدث الآن عن الأشخاص الذين كان تعيينهم سبباً في انتقاد والدي. لقد كان إيتنغون رجل مخابرات من الكادر، وكان قد تم بالفعل إطلاق سراحه بعد وفاة ستالين. وقبل إطلاق سراحه كان كل من أباكوموف وإيغناتييف يحاولان انتزاع اعترافات منه ضد والدي. ان إيتنغون، على ما أعلم، لا يزال يعتبر حتى اليوم أحد المحترفين وسط رجال المخابرات.

أما فاسيليفسكي، فقد كان طياراً قبل مجيئه إلى المخابرات. خاض الحرب الإسبانية وعمل طويلاً في فرنسا. تعرّفت إليه في إحدى حظائر اليخوت في

ضواحي موسكو قبل سفره بوقت قصير إلى إسبانيا. كان يجيد بناء يخوت ممتازة. وكان هو الآخر رجل مخابرات محترف. وقد جرى بموافقة الأجهزة الحزبية (أمر تقليدي في الاتحاد السوفياتي) تعيين ل.ف.رايخمان رئيساً لدائرة التفتيش في وزارة الداخلية، وب.أ.سودابلاتوف نائباً لرئيس المديرية الأولى في وزارة الداخلية، وكان في السابق نائباً لرئيس المديرية الثانية في وزارة أمن الدولة، وترأس أحد أقسام وزارة الداخلية. أما الآخرون ممن تم تعيينهم فقد كانوا من المحترفين أيضاً. لم يقم أحد في الاجتماع الموسع بأي تحليل لعملية إعادة تنظيم المخابرات الخارجية، إذ لم يكن هذا الأمر يعني شيئاً لمنظميه. إن محاضر جلسات هذا الاجتماع لم تنشر إلا بعد مرور أربعين عاماً على انعقاده. أما المشاركون فيه فقد فهموا بسرعة ما حصل على أولمب الكرملين وحاولوا البقاء بعيداً عن هذه القصة الغامضة. أما موضوع المخابرات، شأنه شأن الموضوعات الأخرى، فقد استخدم للغاية نفسها، وهي تشويه اسم والدي في هذا المجال أيضاً.

الفصل الخامس

الحرب

هل كان بالإمكان تفادي وقوع الحرب العالمية الثانية؟ هل أعدّ ستالين ضربة وقائية ضد ألمانيا؟ من قاد مفاوضات منفردة مع هتلر ومتى؟ لماذا وصل العدو إلى موسكو وستالينغراد؟ هل صحيح أن قيادة الكرملين لم تكن تثق بالمخابرات السوفياتية؟ لماذا لم تقم وحداتنا عام ١٩٤١، بمساعدة فرصوفيا المنتفضة؟

لقد مرت عقود عديدة من الزمن على انتصار أيار/مايو ١٩٤٥ ولا تزال الصفحات البيضاء في تاريخ الحرب العالمية الثانية كثيرة جداً. لماذا؟ ليس من الصعب أن نحزر لماذا. أحد المؤرخين المشهورين تحدث يوماً عن لقائه مع جنرال الجيش يبيشيف، الذي كان في حينه رئيساً لمديرية التوجيه السياسي في الجيش والأسطول. وحين تطرّق الحديث إلى الحقيقة في علم التاريخ لم يخجل الموظف الحزبي القديم، الذي خدم بكل ما أوتي عدة أمناء عامين للحزب، في أن يُفصح عن حقيقة ما يعتقده بقوله: "ومن بحاجة لحقيقتك هذه إن كانت تنغّص عيشنا؟".

لم يكن بحاجة إلى الحقيقة الكاملة عن تلك الحرب لا ستالين ولا خروتشوف ولا بريجنيف ولا من أتى بعدهم. ومن الصعب الاعتراض على القول إن تاريخ الحرب العالمية الثانية لم يكتب بعد. ومهما يكن في الأمر من مرارة، إلا أن شفافيتنا التي أوجدتها البريسترويكا، والتي يمتدحها العالم

أجمع، قد قربتنا من الحقيقة، إلا أنها لم تشرع أبواب الخزائن الثقيلة في الأرشيف السري على مصراعيها.

لا يوجد كتاب واحد عن الماضي قادر على وضع النقاط على الحروف، وتقديم الأجوبة عن جميع الأسئلة، بخاصة حين يتطرّق الحديث إلى موضوع مؤلم كهذا. إلا أنني أعتقد بأن هذا الفصل من الكتاب سوف يكشف أسرار كثيرة من أسرار الحرب العالمية الثانية. إن الأحجية الأخرى من أحجيات تاريخنا المشوش هي أن حقيقة الحرب قد أخفوها عن أولئك الذين انتصروا في هذه الحرب. وهكذا أصبح هناك حقيقتان عن أفظع الحروب في التاريخ، واحدة للشعب، وأخرى... إن الحقيقة الثانية ينبغي انتزاعها من براثن السرية المزيفة التي تسيطر منذ نصف قرن. لقد انتظرناها طويلاً للغاية، ولن نكتفي الآن، كما في السابق، بالأساطير عن الضربة المفاجئة وعن النقص الشديد في الطائرات والدبابات.

اتصل والدي في تلك الليلة هاتفياً من الكرملين وقال: "لقد بدأت... اسمعوا الراديو!" هذه الجملة لا تعني شيئاً لمن يجهل الأمر. إلا أنني ووالدتي كنا نعرف جيداً ماذا كان يريد أن يقول والدي. لقد بدأت الحرب...

لقد كُتب الكثير عن تلك الليلة في عشية الحرب. فقد دوّن جنود عاديون من جنود الجبهات مذكّراتهم كما دوّنها قادتنا العسكريون أيضاً. حتى خروتشوف، الذي كان آنذاك في كييف، كما هو معروف، لم يعدم سبيلاً للحديث عما جرى آنذاك في الكرملين. وتحدث عن ذلك مستشهداً بوالدي. فقد زعم أن ستالين حين أُبلغ آنذاك عن بداية الحرب بقي طويلاً لا يصدّق الأمر، ومن ثم غادر إلى منزله الصيفي. وكتب خروتشوف أن "ستالين بدا عجوزاً خائر القوى مرتبكاً، وأن أعضاء المكتب السياسي قضوا وقتاً طويلاً في إقناعه بأننا لم نخسر كل شيء بعد، وبأن بلادنا هي بلاد كبيرة، وبوسعنا حشد قوانا ودحر العدو. ومهما يكن فقد تمكّنوا من إقناع ستالين بالعودة إلى موسكو وتولّي قيادة الدفاع عن البلاد.

دعك من خروتشوف... فليس كل ما جاء، مثلاً، في مذكرات غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف، الذي يتمتع بأعمق الاحترام، يطابق الحقيقة لتاريخية. لم أشك يوماً بنزاهة واستقامة هذا الرجل، إلا أن الحقيقة تبقى هي الحقيقة. وللوهلة الأولى قد يبدو الأمر غريباً، إلا أنني على قناعة بأن الجنرال الشهير ليس مسؤولاً عن ذلك. فلم يكن غيورغي كونستانتينوفيتش ذلك الشخص الذي بوسعه أن يكذب. لقد كان الأمر أعقد من ذلك بكثير. وأنا على قناعة بأنه لو كتب جوكوف آنذاك كل الحقيقة التي كان يعرف لما كانت نشرت مذكراته.

لكن لنعد إلى موضوعنا الأساسي. لقد كتب غيورغي كونسنانتينوفيتش، وهو محق في ذلك تماماً، أنه قد ظهرت بعد موت ستالين روايات تزعم أنه في ليل ٢٢ حزيران/يونيو كان القادة العسكريون وأركانهم يغطون في النوم، أو يمرحون، دون أن تساورهم أية شكوك. لكن هذا كذب وقح، إذ إن الأمر كان خلاف ذلك تماماً. فقد كان من المعروف، مثلاً، أنه قبل ليلة من هجوم الألمان سوف تتم تلاوة أمر وزير الدفاع. أما القول إن الأمر قد تأخر، وإن توجيه الأركان العامة لم يصل إلى الوحدات العسكرية فهو عار عن الصحة تماماً. فقد جرى الأمر كما ينبغي له أن يجري، حيث وصل أمر بفتح المغلّفات. وهذا ما فعله العسكريون. لكن هل تمكّنت غالبية الوحدات من تنفيذ المهام المطروحة أمامها، فهذا أمر آخر. إنما لماذا الافتراء على الأركان العامة بمثل هذه الأكاذيب؟.

لعل القارىء يذكر كيف يبدو ستالين في رواية جوكوف(؟). أسمح لنفسي باستشهاد صغير من الكتاب:

"في الساعة ٣,٣٠ أبلغ قائد المنطقة العسكرية الغربية الجنرال ف.ي.كليموفسكيخ عن إغارة الطيران الألماني على مدن بيلوروسيا. بعد ثلاث دقائق أبلغ رئيس أركان منطقة كييف العسكرية الجنرال م.أ. بوركايف عن إغارة الطيران على مدن أوكرانيا. في الساعة ٣,٤٠ اتصل هاتفياً قائد منطقة البلطيق العسكرية الجنرال ف.إ.كوزنتسوف، وأبلغ عن غارات للطيران المعادي على كاونس والمدن الاخرى.

أمرني وزير الدفاع الاتصال بستالين هاتفياً. اتصلت. لا أحد يتناول الهاتف. بقيت انتظر إلى أن سمعت أخيراً صوتاً ناعساً صادراً عن جنرال مديرية الحراسة المداوم:

– من يتحدث؟

– رئيس الأركان العامة جوكوف. أرجو إيصالي على وجه السرعة بالرفيق ستالين.

قال رئيس الحرس مندهشاً:

– نعم؟ الآن؟ الرفيق ستالين نائم.

– أيقظه، حالاً، الألمان يغيرون على مدننا!.

دام الصمت بضع لحظات. وأخيراً أجابني صوت خفيض:

– انتظر.

بعد دقائق ثلاث تناول الهاتف ي.ف. ستالين.

أبلغته الوضع وطلبت الإذن ببدء العمليات العسكرية المضادة. كان ي.ف. ستالين صامتاً، ولا أسمع غير تنفسه.

– هل فهمتموني ؟

وكان الصمت لا يزال مخيماً.

وأخيراً سأل ي.ف.ستالين :

–أين مفوض الدفاع؟

– إنه يتحدث مع منطقة كييف العسكرية بالهاتف الخاص.

– تعال إلى الكرملين مع تيموشنكو. وقل لباسكروبيشيف أن يستدعي كافة أعضاء المكتب السياسي".

في الواقع لم يتعيّن على جوكوف إيقاظ ستالين، ولم يتعين على باسكروبيشيف الاتصال هاتفياً بأعضاء المكتب السياسي، إذ كان الجميع، بمن فيهم والدي، في الكرملين منذ وقت بعيد. وبالطبع، لم يخلد إلى النوم في تلك الليلة المصيرية ستالين أيضاً. ولا يذكر أي مصدر، ولسبب ما، اسم أول شخص أبلغ ستالين عن بداية الحرب. هذا مع العلم أن ستالين لم يكن يتلقّى المعلومات من رئيس الأركان العامة فحسب.

لكن، مع ذلك، فالقصة ليست هنا. فما زلت أعجب حتى الآن كيف تسنّى لجوكوف إصدار مذكّراته، حتى بالشكل الذي نشرت فيه. أما كل هذه الأمور غير الدقيقة (فلنسمِّها كذلك)... لقد كان غيورغي كونستانتينوفيتش شخصاً ذكياً، وكان يدرك جيداً أن القارىء سوف يفهم الأمور على حقيقتها دون عناء. فمن بربكم، صدّق أن جوكوف تذكّر الكولونيل المجهول بريجنيف ؟ لكن هذا ما ورد في الكتاب. . . إن مثل هذا الكتاب لم يكن ليرى النور دون ذكر اسم الأمين العام. ومن يجرؤ على وضع الملامة على الماريشال في حصول الأمر على هذا النحو؟ إنني لا أشك لحظة أن جوكوف قد أقدم على مثل هذه التنازلات، وهو يدرك أنه يربح الأمر الرئيسي، وهو إمكانية قول الحقيقة عن الحرب حتى لو كانت منقوصة.

لقد تيسّر لي أن أسمع غير مرة من والدي ومن جوكوف ومن فاسيلفسكي ومن كثيرين سواهم عن سلوك ستالين في المرحلة الأولى من الحرب. لم يكن بوسع غيورغي كونستانتينوفيتش أن يكتب في حينه عن كل ما جرى في الواقع. وحقيقة الأمر هي التالية: لقد كان ستالين منقبض النفس، بالفعل، بعد اطّلاعه على الوضع في الجبهات. لكن حين يتذكّرون ذلك يسارعون بالضرورة للتأكيد أن ستالين لم يكن يتوقع، هلى حد زعمهم، ضربة الألمان، وكان يصدّق هتلر، لكن هذا الأخير خدعه... إن هذا كله ليس سوى أسطورة من الأساطير التي زُرعت منذ سنوات عديدة في وعي الناس. أما ذهول ستالين، فلم يكن بسبب الهجوم المفاجىء الوهمي، وهو ما تحاول حتى الآن إقناعنا به كتب التاريخ، بل لأن الجيش لم يتمكّن من الصمود أمام الضربة الأولى. وهذا هو الذي لم يكن يتوقّعه ستالين قط. ويبدو مفهوماً للغاية أيضاً استياء ستالين من وزير الدفاع تيموشنكو ومن رئيس الأركان العامة جوكوف في الساعات وفي الأيام الأولى من الحرب. فقد أكّدا غير مرة، مع كبار العسكريين الآخرين، لستالين وللمكتب السياسي، أن الجيش الأحمر، في حال حدوث شيء ما، سوف يصمد أمام الضربة الأولى، ثم يقوم بتوجيه الضربات المضادة للعدو، وفقاً لما تم التخطيط له.

لاحظ أيها القارىء أن الحديث لم يكن يدور عن الروح القتالية للجيش، وهو أمر ليس قليل الأهمية بالطبع، إنما عن أمور محدّدة ملموسة. فقد كان ستالين يسأل قادة وزارة الدفاع عمَّا يحتاج إليه الجيش الأحمر، وكان العسكريون يطمئنونه بصوت واحد: "إن الجيش لديه كل ما هو بحاجة إليه". وحين أبلغوا ستالين أن الجيش يتقهقر نحو الشرق كان من الطبيعي أن يصاب بالصدمة. وفقاً للمعطيات الألمانية، تم في الأيام الأولى من الحرب تدمير حوالى سبعة آلاف طائرة من طائراتنا على الأرض. ويحاولون بعد ذلك إقناعنا بأننا لم نتفوّق على الألمان في إنتاج الطائرات إلا في منتصف الحرب. إننا نخجل من الاعتراف أيضاً بأنه كان لدينا من الدبابات ما يفوق مرتين ما كان لدى ألمانيا. فقد كنا نملك من دبابات (ت- ٣٤) فقط ما يفوق عدد كل الدبابات الثقيلة في الجيش الألماني. باختصار، لقد عملت الدعاية الرسمية كل ما بوسعها لإعادة كتابة التاريخ. وينبغي إيفاؤها حقها بأنها نجحت في ذلك نجاحاً كبيراً. لكن مع ذلك ثمة أسئلة لا تزال دون أجوبة. فماذا عن القول، مثلاً، إنه قد حدث خلل في قيادة الجيوش؟ وهذا صحيح. فقيادة البلاد لم تتمكن فعلاً في الساعات والأيام الأولى للحرب من الحصول على المعلومات من الجيوش. والسبب؟ السبب هو من جديد المفاجأة المزعومة تلك... جوكوف يتحدث عن ذلك باختصار ويمكن تفهّم موقفه هنا أيضاً، إذ لم يكن بوسعه قول الحقيقة كلها. لقد شُلّت الاتصالات التابعة للقوات المسلحة، في الوقت الذي بقيت تعمل فيه الاتصالات التابعة لحرس الحدود. فقد بقيت وحدات حرس الحدود حتى الرمق الأخير، وما دام جندي واحد على قيد الحياة، توفّر لموسكو معلومات موثوقة. ثمة هنا ما يستحق التأمّل به، أليس كذلك؟

كما يبقى السؤال معلّقاً حول الطيران الحربي أيضاً. فضربة الألمان المفاجئة، كما تقول الأسطورة تلك نفسها، منعت مقاتلاتنا من الإقلاع من مطاراتها. هذا ليس صحيحاً. أفظع ما في الأمر أن كثيرين، وكثيرين جداً من الطيارين الشباب لم يتمكّنوا من الإقلاع بطائراتهم. فلم يكن من السهل القيام

بذلك في ظل قصف المطارات بالقنابل. وقد تبين فيما بعد أن جميع الطيارين، الذين حاربوا في إسبانيا، أفلحوا في الإقلاع بطائراتهم والدخول في المعركة. غير أن الغالبية العظمى من الطيارين كانوا من الشباب الذين لم يخوضوا معمودية النار بعد... وهذا ليس في الطيران فحسب. فخلافاً للجيش الألماني، دخل جيشنا الحرب ولم يكن قد خاض المعارك بعد. وهذا العامل لم تضعه بالحسبان لا قيادة الجيش ولا قيادة البلاد.

من الصعب ألا يرتبك المرء (وبوسع من قاتل على الجبهات أن يؤكد ذلك) لدى إغارة الطيران المعادي، بخاصة إذا كان يرى هذه الطائرات للمرة الأولى. كما أن من الصعب أيضاً إطلاق النار للمرة الأولى على الإنسان. وماذا يشعر الشخص الذي يخوض القتال للمرة الأولى حين يرى الدبابة زاحفة صوبه؟.

لا ينبغي تبسيط الأمور، إذ يمكن التحدّث مطوّلاً عن الاستراتيجية وعن الخطأ في حسابات القادة العسكريين، لكن لا ينبغي نسيان أولئك المعنيين بتنفيذ مخططات القادة. فبعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر كانت الوحدات العسكرية قد أصبحت تقاتل على نحو ممتاز. وهذه حقيقة معروفة من الجميع ولا تثير استغراب أحد. فالجيش لم يعد ذاك الجيش الذي دخل المعركة في ٢٢ حزيران/يونيو دون تجربة في العمليات الحقيقية.

بالتأكيد إن انسحاب عام ١٩٤١ لا يمكن تفسيره من خلال هذا الأمر فقط، بل ثمة أسباب أخرى. وأنا لا أضع نصب عيني مهمة تقديم دراسة جديدة عن هذا الموضوع لكي يحكم عليها القارىء، بل لندع للمؤرخين كتابة تاريخ الحرب. لكنني على قناعة بأنه ينبغي إجلاء الغموض الذي يكتنف بعض المسائل، لا سيما حين يتعلق الأمر بتزوير مباشر لأحداث معروفة للكثيرين.

فلنبدأ من الخرافة الأولى: كيف أخذنا العدو على حين غرة؟ للمعلومات فقط نقول: إن العدو لم يأخذ على حين غرة فصيلاً واحداً أو تشكيلاً واحداً من قواتنا التي كانت معدّة لإنزال الضربة المضادة. فقد تمركزت وحدات من قواتنا عند منطقة كنيغسبرغ، مثلاً، ولم يحقق العدو اختراقاً باتجاه الجنوب، فلماذا؟

من المقولات الشائعة أيضاً أن الاتحاد السوفياتي لم يكن جاهزاً للحرب. هذه المقولة ليست صحيحة. إذ يكفي أن نحتسب كمية الأسلحة التي كنا نملكها في الخط الأول لقواتنا كي تنهار هذه المقولة مثل بيت من ورق.

كيف هذا؟ - يتساءل القارىء - كان لدينا ما يكفي من الطائرات وأكثر من ذلك من الدبابات، ومع ذلك وصل الألمان إلى الفولغا؟

أكرر القول إن الأسباب كانت متعددة. وقد يكمن أحد هذه الأسباب في نظرية الضربات المضادة نفسها. فقد كان يسود تفكير يقول : فليضربوا، وبعدها يأتي دورنا...

لا يمكن القول إن هذه النظرية خاطئة في المبدأ. فقد حاربنا على أساسها لاحقاً، وحاربنا على نحو لا بأس به، كما هو معروف. لكن إلى أي مدى كانت هذه النظرية مقبولة آنذاك؟ فذلك هو السؤال. بعد حصول ما حصل يمكن مناقشة الأمر على النحو التالي: لو كان لدينا دفاع عادي لا يعتمد على الضربات المضادة هذه، كان من المحتمل أن تكون الخسائر أقلّ، وأن يتقدم الألمان على نحو أبطأ. فمن يدري... على كل، بوسعنا التأكيد أن نظرية الضربات المضادة هذه لم يكن الجسم القيادي في الجيش يمتلك ناصيتها جيداً كما لم تكن أمراً يسلّم به.

للأسف لم يكن جيشنا مستعدّاً للحرب المتحرّكة مع تعاون واسع بين التشكيلات المدرعة والطيران، واختراقات الأجنحة وتطويق القوات، وما إلى ذلك؛ وكان كل هذا، بالمناسبة، قد سبق أن برز في الحرب الفنلندية. لقد تم عمل الكثير حتى حزيران/يونيو ١٩٤١، لكن مع ذلك لم يتسنَّ لنا إعداد القوات المسلحة إعداداً كلياً للحرب الحديثة. هذا مع العلم، وأكرر القول، أن قيادة الجيش ممثّلة بكل من تيموشنكو وجوكوف قد تمكّنت من إنجاز الكثير.

أعتقد أن الحرب مع فنلندا، والتي لا نكاد نعرف عنها شيئاً حتى يومنا الراهن، لها علاقة مباشرة بالموضوع. فبعد هذه الحرب بالذات بدأت بيرسترويكا جذرية في الجيش الأحمر.

مقتطفات من مصادر رسمية:

إن حصيلة تلك "الحرب غير الشهيرة" كانت ٢٢٧ ٥٢٥ جندياً وضابطاً سوفياتياً قتيلاً، و٧٧٢ ١٦٣ جريحاً، وأكثر من ١٢ ألفاً تجمّدوا في الصقيع، و٢٠٨ ١٦ مفقودين، وأكثر من خمسة آلاف أسير. وتؤكّد المصادر التاريخية السوفياتية أن القوات السوفياتية تكبّدت خسائر في الأسلحة لا تقلّ عن الخسائر البشرية، إذ فقد طيران الجبهة ٥٤٠ طائرة، وخسر الجيش السابع وحده ١٢٤٤ دبابة لدى اختراق المنطقة الرئيسية في خط مانيّرغايم.

تشير المصادر الغربية إلى أن خسائر الجانب الفنلندي كانت حوالي ٢٠ ألف قتيل وأكثر من ٤٠ ألف جريح و٣٢٧٣ شخصاً مفقوداً. كما أسرت القوات السوفياتية ما يزيد على ألف جندي وضابط فنلندي. وقد عاد هؤلاء جميعاً إلى وطنهم بعد توقيع معاهدة السلام.

وقد كشف، منذ وقت غير بعيد، عن وجود ما لا يقلّ عن ٧٦ مقبرة جماعية للأسرى السوفيات في فنلندا ماتوا في معسكرات الاعتقال الفنلندية منذ نهاية العام ١٩٣٩.

أعلن الاتحاد السوفياتي مطالبه بشأن الحدود مع فنلندا في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٩. فقد أقام جيراننا، كما هو معروف، على طول الحدود التي تمر عبر برزخ كاريليا، وعلى مسافة حوالى ثلاثين كيلومتراً من لينينغراد، نظام تحصينات قوية عرف باسم خط مانّيرغايم. طالبت الحكومة السوفياتية بتجريد المناطق المحاذية للحدود من السلاح، ونقل الحدود مسافة ٧٠ كيلومتراً عن لينينغراد، وإلغاء القواعد العسكرية البحرية قرب حدودنا، وذلك مقابل تنازلات كبيرة في الأراضي من جانبنا. فقد اقترحت الحكومة السوفياتية مبادلة ٢٧٠٠ كيلومتر مربع قرب لينينغراد بحوالى ٥٥٠٠ كيلومتر مربع في كاريليا، وجرت مفاوضات شاقة لم تؤدّ إلى النتيجة المرجوة.

في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر استغل الاتحاد السوفياتي حادثاً حدودياً ليعلن عن فسخ معاهدة عدم الاعتداء مع فنلندا. وفي اليوم التالي عبرت الحدود تشكيلات سوفياتية كبيرة. لقد حُشد ضد فنلندا جيش مكون من ٥٤٠ ألف شخص وألف دبابة و١٧٠٠ مدفع و٨٠٠ طائرة.

لم تتمكن القوات السوفياتية إلا في أواخر شباط/فبراير من اختراق دفاع الخصم والاستيلاء على فيبورغ. فقد دمرت القوات الفنلندية على مقربة من راتن بورتي فقط فرقتين للجيش الأحمر، كما لقيت نفس المصير الفرقة ٤٤ "الأوكرانية" التي نقلت إلى الجبهة من منطقة جيتومير. وبعد مرور سنوات عديدة وصف مؤرّخونا المعاهدة التي وقّعت في ١٢ آذار/مارس ١٩٤٠ بين الاتحاد السوفياتي وفنلندا بأنها "نصر بيرّوف". وقد أصبح خط الحدود شمالي لينينغراد يمر، وفق هذه المعاهدة، خلف فيبورغ.

منذ عدة سنوات مضت أوردت الصحافة السوفياتية استشهادات من إحدى الوثائق التي اعتبرها مثيرة للفضول. وإذا توخينا الدقة في الحديث، فلا يمكن أن نطلق عليها تسمية وثيقة إلا مجازاً، لاسيما إذا أخذنا بالاعتبار أن الحديث يدور عن "ملف ل.ب.بيريا" الذي لم يكشف النقاب عنه حتى الآن. بين الاتهامات المتعددة التي تساق ضد والدي، مفوض الشؤون الداخلية السابق، الاتهام التالي أيضاً: "دعا بيريا مساعديه المقربين إلى إعادة نظر جذرية، ليس بكل تاريخ الحرب الوطنية العظمى فحسب، بل وبكل أحداث ما قبل الحرب أيضاً. فقد سخر بوقاحة من وسائل إدارة الحرب مع فنلندا، زاعماً أنه لو استمع ستالين إلى تحذيراته ونصائحه لكان أمكن تفادي وقوع هذه الحرب الخاطئة. لكن ما دمنا قد بدأنا العمليات الحربية فكان ينبغي الاستماع إلى بيريا، مجدداً والعمل وفق خططه الموثوقة والمدروسة على نحو استثنائي، مما كان ساعد على تفادي وقوع الخسائر الفادحة".

لم يعتبر والدي نفسه اختصاصياً عسكرياً في يوم من الأيام، ولم يعمل على فرض وجهة نظره حيال هذه المسائل لا على ستالين ولا على العسكريين. اما فيما يتعلق بالقول إن هذه الحرب كان يمكن تفادي وقوعها، فهذا صحيح. لكن ما دامت القوات السوفياتية قد بدأت الحرب فقد كان بوسعها ألا تتحمّل مثل هذه الخسائر الفادحة. والمؤرخون يتجاهلون كلياً حقيقة عدم وجود أية ضرورة لاقتحام خط مانّيرغايم. فقد تقدم والدي بتقرير يشير فيه إلى أن سواحل فنلندا مكشوفة. وكان يكفي القيام بإنزال بحري... وكان يؤيده في ذلك،

بالمناسبة، الأدميرال كوزنتسوف. ومن المحتمل أن تكون هذه الفكرة هي فكرة مفوض الأسطول البحري الحربي. غير أنني لا آخذ على عاتقي الفصل في ذلك.

لم يكن يوجد لدى الخصم أسطول بمعنى الأسطول، وكذلك الأمر بالنسبة للطيران. وباختصار، لم تكن توجد، برأي والدي، أية عقبات للقيام بإنزال من البحر. لكن من الطبيعي أن العملية في مثل هذه الحالة ينبغي القيام بها على وجه السرعة. لكن الأحداث جرت، للأسف، على نحو مغاير. وتبيّن أن قواتنا لم تكن مستعدة للحرب الدفاعية المترافقة مع ما يسمّى "ضربات الخنجر" التي لجأت إليها فنلندا.

كان والدي يمتلك معلومات مخابراتية تشير إلى أن الفرنسيين والإنكليز، ردّاً على عدواننا، هم بصدد إعداد فيلقين لدعم فنلندا، يتكوّن كل منهما من مئة ألف شخص. وكان من المفترض أن يستخدم أحدهما على الجناح الشمالي، بينما يهاجم الآخر القفقاز من الشرق الأوسط. وحين تم إبلاغ ستالين بهذه المعلومات، قال إنه ينبغي إنهاء هذه الحرب بأية وسيلة، لكن على النحو المطلوب بالنسبة إلينا، أي المحافظة على أمن لينينغراد.

لقد كان الصراع السوفياتي ـ الفنلندي مفيداً لحلفائنا المقبلين وللألمان في آن معاً. فقد كانت المفاوضات الإنكليزية ـ الفرنسية ـ الألمانية تجري على قدم وساق، وهو الأمر الذي يفضّل المؤرخون اليوم، ولسبب ما، عدم تذكّره. . .

غير أن الحرب انتهت قبل أن يتسنّى للحكومتين البريطانية والفرنسية تنفيذ قرارهما بالتحرك المشترك ضد الاتحاد السوفياتي.

أذكر جيداً أن والدي وقف لاحقاً ضد إنشاء الجمهورية الكاريلية الفنلندية السوفياتية الاشتراكية. وكان يقول إننا سنفقد بهذه الطريقة الجار الطيب. فهذا لن يكون إلا بلداً مرعوباً لا يمكن المحافظة على اتحاده معنا إلا بالقوة. فالعلاقات مع فنلندا ومع سائر البلدان المجاورة، ينبغي بناؤها على نحو مغاير تماماً.

لكن الجمهورية الكاريلية الفنلندية الاشتراكية بقيت مع ذلك موجودة حتى صيف العام ١٩٥٦، الأمر الذي لم يساعد، بالطبع، في التفاهم مع فنلندا.

لقد تم منذ مدة قريبة رفع السرية عن المحضر الكامل لاجتماع للقيادة العليا للجيش الأحمر جرى في الأسبوع الأخير من العام ١٩٤٠. ففي هذا الاجتماع بالذات جرى تقييم تجربة الحرب مع فنلندا. لكن الاستنتاجات الرئيسية من هذه الحرب كانت قيادة البلاد قد بلورتها قبل ذلك بوقت طويل. فالحرب السوفياتية ـ الفنلندية شكّلت صدمة كبيرة لستالين. فقد أدرك، على سبيل المثال، من هو فوروشيلوف الذي كان آنذاك مفوضاً للدفاع. لم يقم بإقالته من منصبه فحسب، بل كان يرغب في إبعاده عن الساحة كلياً.

يتحدثون كثيراً عن القدرة المطلقة لستالين. غير أن الأمر ليس كذلك. فهو لم يكن مطلق القدرة، بل كان مجبراً على مراعاة الظروف.

كان الشعب يعتبر فوروشيلوف بطل الحرب الأهلية. فقد جرى العمل سنوات طويلة على هذه الصورة، ولم يكن ستالين راغباً في تهديمها. كان يعتبر أنه ينبغي أن يكون محاطاً بالروس. وكان فوروشيلوف، بسيرته الذاتية هذه، ملائماً تماماً لذلك.

قال ستالين غير مرة في محيطه الضيق:

- نحن نعرف أنه مغفل، لكن البلاد تجهل ذلك...

بدّلت الحرب الفنلندية أموراً كثيرة، وليس في قيادة الجيش الأحمر فحسب. فبناء على تجربة هذه الحرب صدر على الفور قرار بإنشاء فيالق مدرّعة، وإنتاج أنواع جديدة من الأسلحة. وبدأوا بإعداد الجيش إعداداً جدياً للحرب الحديثة. فقد اقتنع ستالين والعسكريون أنفسهم أن الاتحاد السوفياتي ليس مهيّئاً بالمطلق لخوض العمليات الحربية الفعلية.

لم يكن الوقت ينتظر، فحين حصل والدي على خطة "بارباروسا" تم على الفور استدعاء ممثّلي الأركان العامة للحضور إلى لوبيانكا. فالمعلومات، التي كُتب عنها الكثير فيما بعد عندنا وفي الغرب، كانت تتطلب معالجة جدية. لم يُضِع العسكريون الوقت سدى، بل باشروا العمل على الفور، فترجموا الوثائق وحدّدوا خطة الهجوم على خرائطنا. وكان يقوم بذلك فاسيليفسكي مع طاقمه

تحت إشراف جوكوف. كان ستالين على علم، بالطبع، بوجود الخطة نفسها وبمواعيد الهجوم.

كان والدي برفقة كل من جوكوف وفاسيليفسكي وشخصين من قيادة الأركان العامة للجيش الأحمر، حين وضع على طاولة ستالين خطة بارباروسا الصادرة كتوجيه من هتلر تحت الرقم ٢١. صحيح أن مواعيد هجوم الألمان قد تبدّلت لاحقاً، إلا أن الخطة نفسها لم تتغيّر، وبالتالي، لم يحدث أي شيء غير متوقّع، كما يكتبون. فالحرب كنا ننتظرها، وكنا نستعدّ لها.

قبل شهر تقريباً من اندلاع العمليات الحربية، سافرت مع والدي إلى قاعدة كرونشتات. لم أطلع على هدف الزيارة إلا لاحقاً. كنت مستعداً لرؤية أي شيء في هذه القاعدة العسكرية البحرية، لكن ليس غواصة ألمانية. لم أصعد إلى ظهر الغواصة، لكنني أذكر جيداً أنها كانت راسية عند الرصيف تحت الحراسة. وكانت كاسحات الألغام تحيط بها على نحو يحول دون رؤيتها من البحر ومن الشاطىء.

تحدّث إلى قائد الغواصة الألمانية في البدء كلّ من والدي ومفوض الأسطول البحري الحربي نيكولاي غيراسيموفيتش كوزنتسوف. كما حضر اللقاء أيضاً ليف ميخايلوفيتش غالليرِ الذي كان في سنوات ما قبل الحرب قائداً لأسطول البلطيق، أما في ذلك الوقت فكان قائداً للأركان العامة البحرية ونائباً لمفوض الأسطول البحري الحربي. أما اللقاء الثاني مع الضابط الألماني فقد أجراه والدي بمفرده. وقد أبلغ قائد الغواصة أنه يوجد بحوزته على ظهر الغواصة مغلّف عسكري (لست أدري إن كانوا قد فضّوه آنذاك أم لا) يفضّه بعد بدء العمليات الحربية. وقال إنه قد تم تحديد المربّع الذي ينبغي أن يخرج إليه في الساعات الأولى للحرب، كما تم تحديد العدو، وهو سفن الأسطول البحري الحربي السوفياتي، التي سوف يقصفها بالطوربيد لدى لقائها.

كما أبلغ قائد الغواصة والدي أيضاً أنه قبل يوم أو يومين من اندلاع الحرب سوف تغادر جميع السفن الألمانية الموانىء السوفياتية. أما السفن

السوفياتية فسوف تحتجز في موانيء ألمانيا. حين أبلغ والدي ستالين بالأمر، أمر الأخير بعدم اتخاذ اية إجراءات تحذيرية...

توجَّهنا في اليوم التالي إلى موسكو ولا زلت أجهل حتى الآن الخيوط الخفية لما جرى. فالأدميرال كوزنتسوف لم يكتب كلمة واحدة في مذكراته عن دخول الغواصة الألمانية قاعدتنا، ولم يتسنَّ لي أن أسمع شيئاً فيما بعد عن مصير قائد الغواصة وطاقمه. إنها قصة غريبة.

أما كيف دخل الأسطول الحرب، فهو أمر معروف. وكان، كما سبق أن ذكرت، بقيادة الأدميرال نيكولاي غيراسيموفيتش كوزنتسوف.

مقتطفات من مصادر رسمية:

اميرال أسطول الاتحاد السوفياتي، بطل الاتحاد السوفياتي: نيكولاي كوزنتسوف. ولد عام ١٩٠٤. دخل الخدمة في الأسطول عام ١٩١٩. في العشرينيات والثلاثينيات كان قائداً مناوباً للطراد "تشرفونا أوكرانيا" في القوات البحرية للبحر الأسود، ثم طالباً في الأكاديمية البحرية العسكرية، ثم مساعداً أول لقائد الطراد "كراسني قفقاز". في فترة ١٩٣٦-١٩٣٧، كان ملحقاً عسكرياً بحرياً ومستشاراً عسكرياً بحرياً أول في إسبانيا. في سنوات ما قبل الحرب، كان نائباً لقائد أسطول المحيط الهادىء، ثم قائداً لهذا الأسطول، ثم أصبح فيما بعد نائباً لمفوض الشعب، ثم مفوض الشعب للأسطول البحري الحربي.

في العامين ١٩٤٧ و١٩٤٨، كان قائداً للمؤسسات العسكرية البحرية التعليمية. وتولى حتى شباط/فبراير ١٩٥٠ مهمة نائب قائد قوات الشرق الأقصى في الشؤون المتعلقة بالقوات البحرية.

في العامين ١٩٥٠ و١٩٥١ كان قائداً لأسطول المحيط الهادىء. وأصبح في الأعوام ١٩٥١-١٩٥٥ وزيراً للقوات البحرية، ونائباً أول لوزير الدفاع في الاتحاد السوفياتي، وقائداً للقوات البحرية السوفياتية. أحيل إلى التقاعد في شباط/فبراير ١٩٥٦، توفي في العام ١٩٧٤.

كان نيكولاي غيراسيموفيتش رفيقاً لوالدي، وكان شخصاً لطيفاً جداً، أعجبت به إعجاباً شديداً. كان يزورنا كثيراً في منزلنا.

بدأ بحّاراً في أسطول "سيفيرا - دفينا" الصغير. وفي سن الخامسة والثلاثين ترأس مفوضية الشعب للأسطول البحري الحربي. كان شخصاً استثنائي الموهبة وقائداً حقيقياً للأسطول. أذكر أحاديثهما، هو ووالدي، حول مستقبل الأسطول. فقد كان الاثنان يدركان أن ليس بمقدورنا بناء أسطول حامل للطائرات، لكنهما كانا يعرفان أن بناء أسطول حقيقي قادر على القتال هو أمر ضروري. وقد وضعا معاً بعد الحرب برنامج بناء القوات البحرية السوفياتية الذي تسنّى تحقيق الكثير منه. لم يبق والدي على قيد الحياة ليشهد ذلك. أما كوزنتسوف فقد تسنّى له أن يشهد كيف حوّلوا السفن إلى حطام بأمر من خروتشوف والمحيطين به...

لقد كان شخصاً صريحاً للغاية. فإذا لم يحب شخصاً ما، لم يكن يخفي ذلك قط. فلم يكن، على سبيل المثال، يقيم وزناً لفورشيلوف كقائد عسكري.

لكن قيادة الكرملين كانت تعيش وفق معايير مختلفة تماماً. فلا يجوز اتخاذ الموقف هنا قبل "ترتيب الأمور وإعداد المؤيدين"، كما يقال. أما كوزنتسوف، فقد كان شخصاً صريحاً مندفعاً يستبق الحدث في أحيان كثيرة. ويبدو أن كل ما عرفه من نجاحات ومن إخفاقات في حياته لم يكن من فعل المصادفة وحدها.

كان يروق لستالين. فهو شخص موهوب وصاحب إرادة قوية. وقد حدّثني عنه كثيراً البحارة الذين عرفوه في إسبانيا. فلم يكن يفقد توازنه في أشد المواقف صعوبة، وهكذا بدأ هو الحرب. لقد كانت الخسائر في كل مكان، أما الأسطول فقد حافظ على جميع سفنه.

وكما كان يحدث غالباً، فقد قست الحياة على هذا الرجل. وإليكم ما حدث: نجح مصممونا في تلك الأيام بتصميم مدفع سفن سريع الطلقات، محرزين بذلك تقدّماً على حلفائنا لمدة عشر سنوات على الأقل. وفي أحد اللقاءات مع الإنكليز والأميركيين، قدّم كوزنتسوف هذا المدفع هدية للضيوف. فهؤلاء يقدّمون لنا سفناً بكاملها، فلا ضير في تقديم مدفع لهم !

لم يكن لوالدي في ذلك الحين أية علاقة بأجهزة أمن الدولة، وإلا لما

كان سمح بتمرير الملف ضد كوزنتسوف. غير أن "المحبين" سعوا جهدهم لعرض القصة على ستالين على النحو المناسب. فكان أن كسروا رتبة الأدميرال وأقالوه من منصبه.

وفي المرة الثانية أبعده خروتشوف. فلم يكن بوسع نيكولاي غيراسيموفيتش أن يستسلم وهو يرى كيف يتردى وضع الأسطول الذي يعتبره قضية حياته بأسرها. وكان يبلغ اللجنة المركزية كل ما كان يقوله الأدميرال المقدام عن القيادة العليا. وهكذا أبعد كوزنتسوف مرة أخرى.

اما مصير الأدميرال غالليير، قائد أسطول البلطيق، فقد كان أكثر مأساوية: في العام ١٩٤٨، رتّبوا له "ملفاً" اتّهموه فيه بنقل معلومات سرية إلى الخارج. وفي العام ١٩٥٠ توفي في السجن في قازان.

هؤلاء هم الأشخاص الذين كانوا يقفون على رأس الأسطول. قبل الحرب بعدة أيام أمر الأدميرال كوزنتسوف بوضع جميع الأساطيل في حالة الاستعداد رقم ٢. وفي ٢١ حزيران/يونيو صدر أمر بوضع جميع القواعد العسكرية البحرية في حالة الاستعداد رقم ١. وقد تم بنجاح صد الغارات الأولى للعدو على السفن والقواعد البحرية، ولم تُدمر سفينة حربية واحدة.

...سنوات عديدة مرت، لكنني، شأن جميع أبناء جيلي، أذكر جيداً صيف عام ١٩٤١. لم تستثنِ الحرب أسرتنا أيضاً. كنت أحلم قبل الحرب بدخول كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة موسكو. وكنت أتهيأ للدراسة. إلا أن الدراسة كانت قد أصبحت آخر ما يشغل بال متخرّجي المدارس في العام ١٩٤١. ودون أن أطلع على الأمر أحداً، توجهت مع أصدقائي إلى لجنة الكومسومول في المنطقة. "نرغب في الالتحاق بالجبهة!" رحّبوا بنا جيداً، لكن حين ورد ذكر عائلتي حدث ارتباك...

حين عدت إلى المنزل كان والدي قد أصبح على علم بالأمر:

– لقد اتخذت قراراً صائباً! كان هذا أول ما طالعني به والدي، وأبدت والدتي أيضاً موافقتها على الأمر. وهكذا، دخلت مدرسة المخابرات في

ضواحي موسكو. كنت أعرف الألمانية جيداً، كما كنت حائزاً اختصاص عامل لاسلكي من الفئة الأولى، وبالتالي لم أواجه مشاكل تذكر. أما الشبان الذين كانوا يجهلون اللاسلكي فكانوا يواجهون صعوبة في دراستهم.

تم إعدادنا وفقاً لبرنامج مكثف تضمّن الرماية والتدريب على السير مع تحديد الاتجاه باستخدام البوصلة، والإعداد البدني والقفز بالمظلة والتعامل مع الشيفرة...

لم يكن أحد منا ليفترض حتى افتراضاً أن عرضاً عسكرياً سيجري، كما هي العادة في الساحة الحمراء في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر[١]. في السادسة صباحاً، أيقظوا مدرسة المخابرات كلها ونقلونا إلى موسكو. كنت من المكلفين بالاصطفاف حول ضريح لينين. كان المشهد مثيراً للغاية بالنسبة لطلاب المدرسة. فالألمان على أبواب موسكو، وفي الساحة الحمراء يجري عرض عسكري.

في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، كنا نطير على علو منخفض فوق بحر البلطيق. فقد كان على مجموعتنا أن تهبط بالمظلات في الأراضي الألمانية، في منطقة بينيموند، حيث كان يوجد، كما أصبح معروفاً الآن، مركز فون براون للصواريخ. وكان كل من مرافقيّ "الألمان" مزوداً برواية عن هويته تراعي أدق التفاصيل. وكان عليّ، كعامل لاسلكي، أن أنقل إلى المركز المعلومات عن تجارب السلاح الجديد.

كنا قد تهيّأنا للقفز بالمظلة حين أعلن طاقم الطائرة: "علينا أن نعود أدراجنا، فالضباب كثيف".

المحاولة الثانية انتهت إلى الفشل أيضاً. فقد بلغت طائرتنا المنطقة المحددة، إلا أنها لم تتلقَّ إشارة من الأرض. حطت الطائرة، ولسبب ما، في قازان، وكان الهبوط سيئاً، إذ تعطلت العجلات. وتولّت طائرتان نقل مجموعتنا إلى موسكو.

---

(١) في ذكرى ثورة أكتوبر - المترجم.

عرفنا بُعَيد ذلك أنه سيتم نقل مجموعتنا إلى الجنوب. إلى أين؟ لماذا؟ لا جواب. فهذه الأمور لم تكن تناقش عادة.

كنا ندرك، طبعاً أننا لسنا في رحلة استجمام، لكن كان ثمة أسئلة كثيرة تشغلنا. لقد تم إعدادنا جميعاً للعمل في ألمانيا الشمالية، لكن يبدو أن القيادة كان لديها تصوراتها الخاصة بها. غير أنه لم يتبادر إلى أذهاننا قط أن من الممكن الوصول إلى عمق مؤخرة العدو عبر إيران.

كانت موسكو تستعد في هذا الحين للدفاع عن نفسها. فقد ظهرت في حديقة الحيوانات مدافع ثقيلة من عيار ١٠٠ ملم. وكانت شظايا القنابل المتفجرة تغطي ساحة "فاستاني" والخط الدائري وحَوْش منزلنا في محلة مالونيكيتوسكايا. حين كانت الغارات تبدأ كان والداي، إذا لم يكونا في هذا الوقت في الخدمة، يدخلان المنزل. وشأن غالبية سكان موسكو، لم يكن والدي ووالدتي يستخدمان الملجأ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لم يكن يوجد ملجأ على مقربة منا.

ودّعت أقاربي وغادرت موسكو التي كانت آنئذٍ مدينة على الجبهة. وكانت مفوضية الشؤون الداخلية والسفارات الأجنبية وبعض الإدارات قد جلت عن موسكو إلى كويبيشيف. وكان ستالين قد أمر بإجلاء كل من لا حاجة إليه، بحسب تعبيره، عن موسكو. لكن لم يتم إجلاء أي مصنع من المصانع التي كانت تعمل لصالح الدفاع. كما استمرت في عملها كافة المؤسسات الضرورية، بما فيها مفوضية الشؤون الداخلية. غير أن عدداً من العاملين في هذه المفوضية قد غادر مع ذلك، وهم، كما قد أدرك القارىء، من الذين "يخدمون" الدبلوماسيين الأجانب. . .

إن احتمال الانسحاب لم يخطر ببال أحد. وعلى الرغم من الرواية المتداولة، فقد قال ستالين للعسكريين على الفور:

- لن نسلّم موسكو تحت أي ظرف من الظروف.

صحيح أنه قد وجد في المحيط نفسه، الذي كان حول ستالين، أشخاص اقترحوا على ستالين "لطيبتهم" مغادرة العاصمة مؤقتاً:

- لا بُدّ أن تغادروا؛ هكذا نصحه شيرباكوف، بشكل خاص، وهو السكرتير الأول للجنة الحزبية في موسكو وسكرتير اللجنة المركزية، وقد أصبح لاحقاً قائد مديرية التوجيه السياسي في الجيش الأحمر. لكنه، بالمناسبة، لم يلحق من الضرر بقدر ما ألحق ليف ميخليس صاحب السمعة السيئة وسط العسكريين، لأنه رغم كل ذلك، كان شخصاً لطيفاً.

نظر ستالين إلى هذه الشلّة بإمعان وقال: "هل أعتبركم مخبولين أوغاداً أم من الأفضل، بكل ببساطة، أن أعتبركم أغبياء وأدعكم في المواقع التي أنتم فيها؟"

لم يكن ستالين يحمل شيرباكوف هذا على محمل الجد. فقد كان يعرف قدر كل شخص.

لدى عودتي إلى موسكو، علمت من والدتي أن ستالين زارنا في تلك الأيام في منزلنا، وكانت المدينة تتعرض للقصف في تلك اللحظة. طلب تقديم الشاي له، لكنه غادر دون أن ينتظر صفارة الإنذار لتعلن انتهاء القصف. لم يكن، على ما أعلم، يدخل أي ملجأ في الحالات المشابهة.

كان شخصاً ذا طبع خاص، فقد كان يعتبر أنه ما دام قد أصدر أمره بمنع طائرات العدو بلوغ موسكو، فالأمر يجب أن يكون كذلك وليس على نحو آخر.

قبل العام ١٩٥٣، لم يكتب الكثير، كما كتب فيما بعد، عن الحرب نفسها وعن نتائجها. لكن مع ذلك كانت تظهر في الصحافة بعض المقالات على غرار تلك التي تحدثت عن مشاركة ثماني فرق تابعة لمفوضية الداخلية (NKVD) في الدفاع عن موسكو. فقد أوقفت هذه التشكيلات، التي زُجّ بها في إحدى الثغرات، الهجوم الألماني على عدة محاور. لكن هذا الأمر، عادة، لا يتذكرونه الآن. والأسباب مفهومة، فقد كانت هذه الفرق تدخل في عداد المؤسسة التي يترأسها ذلك المتّهم بكل الخطايا المميتة...

لكن ما ذنب الناس الذين صمدوا حتى الشهادة في ضواحي موسكو؟ هل ذنبهم أنهم لم يقاتلوا في وحدات الجيش فقط؟

اطّلعتُ مرة على وثائق تتعلق باستشهاد مجموعة استطلاع من الكتيبة ١٥٠ في قوات مفوضية الداخلية المكلّفة حراسة المنشآت الحيوية في ضواحي موسكو. في ليل ٢٨ -٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١، وبجوار قرية تشوبريانوفو في منطقة موسكو، نجحت أربع مجموعات استطلاع في تخطّي حرس العدو وتوجهت لتنفيذ مهمة قتالية. كان على السرجنت أوفتشارينكو والملازمين زيما وناريتشيكن والسرجنت ستروكوفاتي ومرؤوسيهم أن ينفذوا عدة عمليات تخريب ضد شبكة اتصالات العدو والحصول على معلومات استطلاعية. عند الفجر وقعت المجموعة في كمين وخاضت معركة قاسية...

في أواسط السبعينيات، جرى نقل رفات الشهداء إلى مقبرة جماعية واحدة على طريق مينسك. لكن لم تُذكر أية أسماء على اللوحة، ولم يُقَم نصب تذكاري، بحجة أن أسماء الأبطال مجهولة. كلّا، أسماؤهم ليست مجهولة، بل معروف رفات من يرقد في تراب منطقة موسكو. إن غالبية رجال الاستطلاع العسكريين كانوا من مواليد موسكو ومنطقة موسكو. كما كان يوجد عدد غير قليل من أوكرانيا. فقد كان نيكولاي أفشارينكو، مثلاً، من منطقة دنيبروبتروفسك، وكان عسكريو الجيش الأحمر فيودور ليتوفتشنكو وديمتري سونشيف وفيودور الينيك من منطقة نيكولاييف، وكان ألكسي توتسكي من مقاطعة زاباروجييه... ويحدثونك بعد ذلك عن الموقف من الذاكرة التاريخية.

إنه مثال واحد لاغير من أمثلة عديدة. لقد شارك آلاف وآلاف من جنود وضباط قوات مفوضية الداخلية في الدفاع عن العاصمة. والمشاركون في القتال على الجبهات يعرفون كيف قاتل هؤلاء الناس، وليس في ضواحي موسكو فحسب. فلعلكم تذكرون كيف قاتلت وحدات مفوضية الداخلية في ضواحي ستالينغراد وفي الأماكن الأخرى. إن المرء ليشعر بالمرارة حين يرى كيف يجري التعتيم بشكل واع كلياً على مأثرة هؤلاء الأبطال.

لقد حاربت بشجاعة مماثلة، في ضواحي موسكو، فرق حرس الحدود أيضاً. وقلّة هم كذلك الذين يعرفون هذا الأمر اليوم، ويعرفون أن وحدات حرس الحدود كانت تتبع مفوضية الداخلية.

كانت هذه التشكيلات جيدة التجهيز ومزودة بمدافع مضادرة للدروع. وكانت قد نقلت من الشرق الأقصى وشكّلت الطوق الداخلي في الدفاع ولعبت دوراً هائلاً في عملية ضواحي موسكو. وحين خرق الألمان خط الدفاع الأول في أماكن عدة واتجهوا نحو موسكو قامت هذه التشكيلات بتغطية الاتجاهات الخطرة.

لقد قيّم كل من جوكوف وروكوسوفسكي تقييماً عالياً دور وحدات مفوضية الداخلية في الدفاع عن العاصمة. كما يمكن أن نجد كلاماً طيباً كثيراً بحق هذه الوحدات في مذكرات قادة عسكريين آخرين. أي بكلام آخر، لم تكن المساهمة الهائلة لهذه الوحدات في انتصارنا موضع شك في يوم من الأيام. ولست أفهم على الإطلاق ما هي الحاجة اليوم لإعادة كتابة التاريخ على هذا النحو الأخرق. لقد عرفت الكثير عن تلك الأيام من غيورغي كونستانتينوفيتش نفسه. فحين تم استدعاء جوكوف من لينينغراد كان يزورنا باستمرار في منزلنا، وبقي في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر يأتي هو ووالدي بشكل شبه يومي لتناول الغداء عندنا، وكثيراً ما كان غيورغي كونستانتينوفيتش يبقى لقضاء الليل أيضاً. في خريف وشتاء العام ١٩٤١، كانت أركان جوكوف موجودة شكلياً خارج موسكو، وقد كتب عن ذلك الكثير، حتى أن غيورغي كونستانتينوفيتش نفسه كتب في مذكراته يقول: "اتصلت هاتفياً بالقائد الأعلى..."، "اتصل بي ستالين هاتفياً..". في الحقيقة لم يكن الأمر كذلك، فقد كان جوكوف موجوداً في موسكو دون أن يغادرها تقريباً، وكانت تتم قيادة القوات من العاصمة. وبالتالي لم يكن ستالين بحاجة لأن يتصل هاتفياً بجوكوف، بل كان يتوجه اليه بالسؤال مباشرة...

حدثني غيورغي كونستانتينوفيتش بعد الحرب عن رحلاته إلى الجبهة. وكان كثيراً ما يسافر مع والدي إلى القطاعات التي يخترق العدو فيها دفاعاتنا. وكانت تنشأ مواقف صعبة. وكما كانا يتذكران لاحقاً، فقد كان الألمان يحدثون ثغرة في هذا القطاع أو ذاك من دفاعاتنا دون أن يعترضهم أحد، أو يعرقل تقدمهم شيء. لقد كانت تحدث مثل هذه الأمور أيضاً.

حين كان يتطرق الحديث إلى خريف وشتاء العام ١٩٤١، كان والدي

وكبار العسكريين يتذكرون بحرارة حرس الحدود وجنود وضباط قوى الأمن الداخلي التابعة لمفوضية الداخلية. كنت أفهم والدي جيداً، إذ كان يتحدث عنهم باعتزاز. وكان جوكوف وروكوسوفسكي يعرفان جيداً قيمة الفرق المجهزة تجهيزاً ممتازاً، فقد شهد الاثنان هذه الفرق في خضم المعركة.

وما دمت قد عرّجت بالحديث على ذكر قوات مفوضية الداخلية (أعتبر من واجبي أن أقول الحقيقة عنهم)، أود أن أذكّر بالواقعة التالية التي لا يتمعن بها أحد اليوم. لقد خرق الألمان دفاعاتنا في عدة قطاعات وتغلغلوا في العمق حتى مسافة خمسة عشر كيلومتراً، ومع ذلك لم يتمكن عملاؤهم من تنفيذ عملية تخريب واحدة في موسكو. كان يتم العثور على مرسلي إشارات، بالطبع، لكن كان يتم اصطيادهم بسرعة. فالمدينة كانت قد قسمت إلى مربعات، وفي حال حدوث أي طارىء كانت تتم محاصرة المكان فوراً.

كم كتب في السنوات الأخيرة عن الفرار المذعور لرجال التشي.ك من موسكو خريف العام ١٩٤١. كما كتب أيضاً أن مفوضية الشؤون الداخلية كانت في عداد أول من جلا عن موسكو. لقد ذكرت سابقاً أنه لم يجر حتى مجرد التخطيط للجلاء. أعرف شخصاً وحيداً لا غير غادر موسكو في تلك الأيام من دون إذن، فأقيل من منصبه فوراً، وكُسرت رتبته، وأرسل إلى الجبهة مقاتلاً عادياً. لم يغادر موسكو قائد مديرية واحد في مفوضية الداخلية، بل لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك. فلماذا توزَّع التهم الباطلة ضد هؤلاء الناس؟ إن أجهزة مفوضية الشؤون الداخلية قد بذلت كل ما بوسعها لشل نشاط أجهزة المخابرات الهتلرية في المؤخرة القريبة والبعيدة.

لم يحصل هذا في موسكو وحدها، وإن كان الأمر لم يخل، بالطبع، من عمليات التخريب خلف خطوط الجبهة عندنا. فقد جرى في لينينغراد، مثلاً، إحراق مستودعات بابايف، وهي حادثة مشهورة. لكن قلّة هم الذين يعرفون أن أجهزة مفوضية الداخلية قد حذّرت لجنة الحزب المنطقية مراراً، وقبل الحصار، بأنه لا يجوز الإبقاء على مثل هذه الاحتياطات من المواد الغذائية في مكان واحد. لكن، للأسف، لم يردّ جدانوف على التحذيرات الملحّة من جانب

رجال التشي.ك.، ولم توزع المواد الغذائية على أمكنة متعددة. ومن المعروف كيف انتهى الأمر لاحقاً في المدينة المحاصرة.

إن المعجزة وحدها قد أنقذت جدانوف من المحاكمة آنذاك. فقد عرف ستالين بالأمر، طبعاً، وكان بوسعه ألا يغفر لجدانوف هذا الخطأ. إلا أن غضبه على جدانوف لم يكن يوازي غضبه على فوروشيلوف. فقد ارتكب هذا الأخير، وكما هو معروف، أخطاء في لينينغراد أكبر من ذلك بكثير...

يجدر القول إن نشاطات الألمان في تلك الأشهر لم تكن سرية بالنسبة للقيادة السوفياتية. فقد كان من المعروف مسبقاً أن الألمان يخططون للقيام سوية مع الوحدات الفنلندية بمحاصرة لينينغراد. وكانوا يعرفون في كلٍّ من موسكو ولينينغراد على أي نحو ينوي العدو القيام بذلك. كما كانت المعلومات المخابراتية قد أبلغت، في الوقت المناسب، عن نشاطات الهتلريين في ضواحي موسكو أيضاً. إلا أننا، بكل بساطة، لم نتمكن من الإفادة من هذه المعلومات القيّمة. فحصار لينينغراد كان يمكن تفاديه كلياً، وهذه حقيقة أخرى مرة أيضاً من حقائق الحرب الماضية...

إنني أتفادى عمداً الحديث المفصّل عن مرحلة البداية في الحرب، علماً أنني أعرف شخصياً الكثير من قادة الدفاع عن موسكو ولينينغراد. لقد كتب الكثير حتى الآن، ولا أشك لحظة بأننا سنعرف أكثر في السنوات القليلة القادمة من خلال الوثائق التي يتم رفع السرية عنها الآن. لكنني أود دحض بعض "الروايات" التي تنتقل من كتاب لآخر. فلا أستطيع أن أصدق مثلاً، وعلى الرغم من كل الكراهية التي أكنها لجدانوف، أنهم كانوا يقيمون الولائم في قصر سمولني أيام الحصار. لم يحدث ذلك. ولا أقول ذلك لتبرئة جدانوف أو سواه من قادة لينينغراد المحاصرة. إننا غالباً ما ننطلق اليوم من المفاهيم الراهنة. لكن، صدّقوني أن الأمور في ذلك الحين كانت أشد صرامة. والقصة ليست قصة جدانوف. فهل كان بإمكان أي كان يومها أن يقوم بشيء مماثل؟...

من الطبيعي أن جراية الجندي لم تكن هي الجراية التي كانت توزع على الناس أثناء الحصار في لينينغراد، لكنها تبقى جراية لا أكثر. أما الفاكهة الاستوائية والنبيذ المعتق على أغطية بيضاء مهفهفة، فهو محض خيال. ولا حاجة لتحميل جدانوف خطايا أخرى، فخطاياه كثيرة جداً. أما بالنسبة للجيش، فقد كان يحدث الكثير في أركان الفيالق والجيوش، وهذا ليس سراً. فالناس كانوا أكثر تنعّماً هناك. إلا أن ذلك كان إلى حين. فما من شيء كان يبقى طي الكتمان...

الخرافة الأخرى هي حول ذعر ستالين بشأن الجبهة. ومع كل ما هو شائع عن ستالين، أرى لزاماً عليّ أن أعترض: لقد كان القائد الأعلى يزور الجبهة.

وصدف أن تسنّى لي أن أشارك في إحدى زيارات القائد الأعلى إلى الجبهة. لقد زار ستالين الجبهة مرتين إبان مرحلة الدفاع عن موسكو. وكان ترتيب الزيارات نفسه يدهشني. فلم يكن يخطط أحد لهذه الزيارات مسبقاً. فعلى سبيل المثال، حين زار منطقة فالاكولامسك، استدعى جوكوف ووالدي فجأة وأبلغهما بأنه ينوي القيام معهما هذا اليوم بزيارة أحد قطاعات الجبهة. وأكرر إن هذا كان دون أية استعدادات مسبقة. وأنا، بالمناسبة، قد اقتنعت غير مرة بأنه كان شخصاً طريفاً للغاية...

كان والدي وجوكوف يدركان، بالطبع، السبب الكامن وراء تصرّف ستالين على هذا النحو. فقد كان يتبع قاعدة حديدية: عدم إطلاع أحد على مخططاته إلى أن يحين الوقت. وأغلب الظن أنه كان يتصرف على هذا النحو لغايات أمنية، وهو لا شك أمر سليم بالمطلق.

لم يكن في الأمر دعاية ذاتية. فليس من شك أن زيارة القائد الأعلى إلى الجبهة كانت بالنسبة للمدافعين عن موسكو وللبلاد ككل حدث بذاته. ولو رغب ستالين لكانت الدعاية صوّرته كما ينبغي. لكن، كما فهمت، لم يكن ستالين بحاجة إلى ذلك مطلقاً، وكان ينطلق من تصورات مختلفة كلياً. ومهما يكن، لم تأتِ الصحافة على ذكر هذه الزيارات قط.

إضافة إلى الحرس الشخصي، رافقت القائد الأعلى في زيارته إلى منطقة فولوكولامسك سريتان من إحدى كتائب مفوضية الداخلية. كانت الأولى، كما أذكر، تتقدم الموكب، في حين تولت الثانية حراسته.

كنت أنا مع جهاز اللاسلكي في إحدى سيارات المواكبة، ولم أغادرها إلى مركز القيادة الذي توجّه إليه ستالين مع والدي وجوكوف.

قضى القائد الأعلى بعض الوقت في مركز القيادة المذكور، عاين منطقة الألمان الأمامية، ثم قفلنا عائدين إلى موسكو. ولم أعرف إلا هناك سبب هذه الزيارة إلى الجبهة. فقد تبين أنهم قد أبلغوه عشية الزيارة معلومات مخابراتية تشير إلى أن الألمان يعدّون للضربة الأخيرة على موسكو، وقد حشدوا قوات مدرعة كبيرة على هذا القطاع من الجبهة. وقد اتضح لاحقاً أن العدو لم يعد في وارد القيام بأي هجوم. فقد كانت قواهم قد أنهكت خلال المعارك السابقة، ولم تعد تتوفر أية احتياطات لديهم للقيام بعملية هجوم كبيرة. وبعد أن اقتنع بهذا الأمر، أمر ستالين بالعودة إلى موسكو.

قفلنا عائدين كما أتينا من دون أية مظاهر أبّهة. وكان ستالين يرتدي المعطف نفسه الذي لا يحمل أية إشارات، وغطاء رأس عاديّاً متدلّياً فوق الأذنين. صعد إلى السيارة وانطلقنا في طريق العودة. لم يتسنَّ لي لاحقاً أن أشارك في مواكبة القائد الأعلى في زيارات مماثلة، على الرغم من أنني سمعت غير مرة في أوساط العسكر عن زيارات أخرى، سواء كانت حقيقية أو من نسج الخيال.

لا تثير لدي، مثلاً، سوى الدهشة تأكيدات بعض المؤرخين، أن ستالين "قد زار مطلع آب/أغسطس ١٩٤٣ الجبهة الغربية، التي لم تكن ناشطة في ذلك الحين". ويؤكدون أيضاً أنه تم تجهيز موقع قيادة خاص للقائد الأعلى يبعد مئة كيلومتر عن خط القتال، وذلك لدوافع أمنية كما هو مفترض.

كنت موجوداً آنذاك، أي عام ١٩٤٣، في لينينغراد، إلا أنني أعرف أية زيارة يقصد المؤرخون بحديثهم. لقد قام ستالين، فعلاً، بزيارة إلى الجبهة رافقه خلالها والدي وعدد من العسكريين، وذلك حين كانت تجري عملية إعادة تجميع لقواتنا استعداداً لشن هجوم واسع النطاق. أما ما تبقى فهو محض خيال. فلم يتعين القيام بأي تمويه، بما في ذلك تجهيز موقع قيادة. فعلى غرار الزيارات السابقة، لم تكن هذه الزيارة دعائية. ولو كانت عكس ذلك لكانت بقيت في الأرشيف أفلام سينمائية وصور فوتوغرافية عن الزيارة. إلا أنها لم تكن كذلك، وبقيت زيارة القائد الأعلى هذه أيضاً زيارة سرية. لقد غادر ستالين، كما جاء على نحو مفاجىء. وكما هي الحال دائماً، لم يجر أي إعداد مسبق للزيارة. لقد كان ستالين منطقياً في ذلك مع نفسه.

من الصعب الإبقاء على حدث كهذا سرياً بالمطلق على الجبهة، لكن حين شاع الخبر بين الوحدات، وأصبح شائعاً بالنسبة للعدو أيضاً، كما أفترض، كان ستالين قد غادر موقع القيادة. وقد تصرّف ستالين، برأيي، تصرّفاً عقلانياً للغاية.

إن الأساطير عن الحرب ليست مخيفة بذاتها، وكانت تنسج على الجبهات أساطير وأساطير! وهذا أمر مفهوم كلياً. إذ إن "تلغراف الجندي" كان يضخّم بعض الأحداث ويفسّر أحداثاً أخرى على غير ما هي. لكن حين يقوم بمثل هذه الأمور، بعد مضي نصف قرن من الزمن، علماء مؤرّخون، فإن الأمر لا يبدو من الرصانة بشيء. وعلى سبيل المثال، مرت عشرات السنين ولا تزال أسماء الأشخاص الذين كانوا يشكّلون "لجنة الدولة للدفاع" طي الكتمان الشديد. فأي سر من أسرار الدولة هذا الذي يختبيء وراء ذلك؟

مقتطفات من موسوعة "الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١-١٩٤٥" (موسكو، دارنشر "سوفيتسكايا انسكلوبيديا، العام ١٩٨٥):

"لجنة الدولة للدفاع، الهيئة العليا لسلطة الدولة في الاتحاد السوفياتي، التي

كانت تمسك بكافة مقاليد السلطة خلال سنوات الحرب. تم تشكيلها في ٣٠ حزيران/يونيو العام ١٩٤١ بقرار من هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) ومجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي. وقد تشكّلت في البداية من كل من: إ.ف.ستالين (رئيساً)، ف.م. مولوتوف (نائباً للرئيس)، ك.ي. فوروشيلوف، غ.م مالينكوف. وقد أدخل لاحقاً في عداد "لجنة الدولة للدفاع" كل من ن.أ. بولغانين، ن.أ. فوزنيسنسكي، أ.إ.ميكويان.

كل عضو من أعضاء "لجنة الدولة للدفاع" كان مسؤولاً عن جملة قضايا محددة".

ولنلاحظ أن هذا ما تتضمنه جميع المصادر التاريخية، بما فيها أشهر كتب التدريس. لكن كيف نطابق بين هذا وبين الحقيقة التاريخية التي كنا نذافع عنها جميعاً وبصوت واحد على مدى سنوات غلاسنوست البيريسترويكا؟

"مرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)، ومجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي حول تشكيل "لجنة الدولة للدفاع":

نظراً للوضع الطارىء الراهن، ومن أجل الحشد الكامل لجميع قوى شعوب الاتحاد السوفياتي للقيام بصد العدو، الذي انقض على نحو غادر على وطننا، تعتبر هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)، ويعتبر مجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي، أن من الضروري:

١- تشكيل لجنة الدولة للدفاع على النحو التالي:

الرفيق إ.ف. ستالين (رئيساً)

الرفيق ف.م. مولوتوف (نائباً للرئيس)

الرفيق ك.ي. فوروشيلوف

الرفيق ز.م مالينكوف

الرفيق ل.ب. بيريا

٢ - حصر كافة مقاليد السلطة في الدولة بأيدي لجنة الدولة للدفاع.

٢ - إلزام كافة المواطنين والأجهزة الحزبية والسوفياتية والكومسومولية والعسكرية الانصياع المطلق لأوامر وتوجيهات لجنة الدولة للدفاع.

رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي

م.إ كالينين

رئيس مجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي وسكرتير اللجنة

المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)

إ.ف ستالين

الكرملين ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٤١"

لماذا لم يرد سطر واحد عن ل.ب. بيريا، عضو "لجنة الدولة للدفاع"، في تاريخ الحرب الوطنية العظمى؟

وفي الوقت نفسه، تتضمن الموسوعة نفسها تلك (التي هي عن الحرب) مقالة كبيرة عن ميخائيل غورباتشوف مع صورة ومقالات عن زملائه المقربين منه بالبيريسترويكا والذين لم يخوضوا الحرب. كما تتضمن مقالات عن عشرات آخرين من العاملين الحزبيين الذين لم يكونوا على أية علاقة بالدفاع عن البلاد.

بقيت معركة القفقاز النقطة الأكثر إشعاعاً في ذاكرتي، على الرغم من أنني قد شهدت خلال سنوات الحرب جبهات عدة. أرسل والدي إلى هناك بصفته ممثلاً للقيادة العليا. أما أنا فقد وصلت إلى القفقاز مع مجموعة من ضباط الأركان العامة، ووُضعت بأمرة سيرغي ماتفييفتش شتيمنكو المباشرة. وبوصفي قائداً لمحطة اللاسلكي شاركت معه لاحقاً في كافة العمليات التي جرت في تلك الأماكن. لقد كان منصبي ورتبتي متواضعين جداً، لكن تسنّى لي أن أشاهد الكثير آنذاك. كنت أتولى تأمين الاتصال بين جبهة ما وراء القفقاز والأركان العامة، وبفضل وظيفتي هذه تمكنت من التواجد في أكثر القطاعات حساسية، وذلك لأن شتيمنكو كان شخصاً مليئاً بالحيوية ويفضل أن يعاين كل شيء بنفسه.

كانت مخابراتنا، وبالتالي القيادة العليا، على علم بأن جيش (كلايست) المدرّع سوف يتّجه نحو القفقاز، ولن يزحف على ستالينغراد، كما كان مقرراً

في السابق. كما كنا على علم أيضاً بأن عملية الألمان سوف تتم باتجاهين. وكان من الطبيعي أن تخشى القيادة العليا تقدّم العدو على هذا الاتجاه، إذ ستصبح باكو ومنابع النفط مهددة بالسقوط بين يديه. لكن الألمان، كما أفادت المخابرات، لم يكن في نيتهم التوقف عند هذا الحد، إذ كانت القيادة العسكرية الهتلرية تخطط للخروج إلى إيران.

نفّذ العدو مخططاته بنجاح ملحوظ في بادىء الأمر. فقد أخذت العملية تتطور بسرعة لم تكن تتوقعها القيادة العليا. وبعد سلسلة من إخفاقات قواتنا على الجبهات (خاركوف، روستوف)، تمكّن العدو من التقدم نحو سفوح الجبال. لقد كان الوضع مقلقاً في هذا القطاع من الجبهة حين وصل والدي إلى هناك. فالألمان كانوا قد اخترقوا الجبهة الجنوبية، ولم تكن تواجههم أي مقاومة جدية عملياً.

غادرنا موسكو على طائرة والدي، وكان يرافقنا على متن الطائرة شتيمنكو، الذي كان برتبة كولونيل آنذاك، وعدد من الضباط الآخرين، ولتقادم الزمن لم أعد أذكر كل أسماء من كان معنا.

عشية رحلتنا، كنت قد حصلت على جهاز اتصال جديد. وقد تسنّى لي لاحقاً أن أرى محطات اللاسلكي الأميركية والإنكليزية، إلا أنها لم تكن تقارن بجهازنا. فقد كان جهازنا أفضل من أجهزة الحلفاء، بل ومن كل الأجهزة التي سبق أن صادفتها. فقد كانت محطة اللاسلكي هذه تتميز بصغر حجمها وبمتانتها الفائقة، وقيل لي إنها قد صمّمت في أحد مختبرات مفوضية الداخلية الخاصة. ويجدر بي أن أشير إلى أنني عملت طوال سنوات الحرب على أجهزة صمّمت من قبل المصممين السوفيات، ولم تكن، بكافة المعايير، أقل مستوى من مثيلاتها الغربية.

حين بلغنا المكان المقصود، كنت قد أصبحت على علم، بالطبع، أن أبي كان مكلّفاً تنظيم الدفاع والحؤول دون تقدّم الألمان نحو نفط بحر قزوين والقفقاز. وكان حجم الكارثة القادمة يفوق كل التوقعات. فقد كان الوضع قد خرج عن سيطرتنا، وكان أقلّ تباطىء يهدّد بكارثة أعظم.

كان والدي ما يزال في موسكو حين أمر، قبل إقلاعنا بعدة ساعات، بتجميع كافة العسكريين الجورجيين من مختلف الجبهات. ولم يكن يقصد الجنود وصغار الضباط بالطبع، بل الضباط من الرتب المتوسطة على مستوى قادة الكتائب. فقد اعتبر والدي، أنه لدى تشكيل الوحدات التي ستتولّى الدفاع عن القفقاز، لا غنى عن هؤلاء الناس الذين خاضوا غمار القتال وعلى معرفة ممتازة لظروف المكان. وقد كان معنا على الطائرة نفسها عدد من هؤلاء الضباط. نعم! قد يبدو الأمر مستغرباً، لكن هكذا كانت تنفّذ في ذلك الحين أوامر القيادة العليا...

طرنا عبر باكو. ولم يخلُ الأمر هنا أيضاً من الحوادث المزعجة، فقد اشتعلت النيران بالطائرة، ولم تنقذها من الاحتراق إلا حذاقة الكولونيل غراتشيف، طيار والدي الخاص. وصلنا بالطائرة إلى تبيليسي ليلاً. حين غادرت عاصمة جورجيا قبل الحرب، لم أعتقد، بالطبع، أنني سأعود إليها يوماً ما بالزي العسكري. لكن الوقت لم يكن آنئذٍ وقت ذكريات الطفولة. توجّهت مجموعتنا على عجل إلى مدينة موزدوك التي كانت تدور المعارك على أبوابها.

كان الجنرال كولونيل ماسلينكوف قائد حرس الحدود ونائب مفوض الداخلية بانتظار والدي هناك، وكان قد نقل مع عدد من وحدات حرس الحدود إلى هنا جواً قبل ذلك بوقت قصير، بناء على أمر صادر عن والدي. وكان على هذه الوحدات أن تعترض طريق جيش كلايست المدرّع دون أن تكون مجهزة بالمدرعات وبالمدفعية المضادة للدروع.

حضرت الاجتماعات التي جرت في مقر أركان مجموعة قوات شمال القفقاز، حيث كانت محطة اللاسلكي الخاصة بنا قد أقيمت في الغرف المجاورة. ولا زلت أذكر الجو العملي الذي ساد الاجتماعات، إذ تم اتخاذ القرارات بصورة شبه فورية ودون إطالة في الكلام. رمّزنا القرارات التي اتخذت في الاجتماعات وأبلغناها موسكو على الفور. فقد كانت بعض الأمور بحاجة إلى التنسيق بشأنها مع القيادة العليا والأركان العامة.

كان والدي قبل أن يغادر موسكو قد اتفق مع ستالين على أن تعود التشكيلات، التي أرسلت في حينه إلى إيران في مقابل الوحدات البريطانية، إلى الاتحاد السوفياتي وتستخدم في الدفاع عن القفقاز. (كان تشرشل قد اقترح بعد اندلاع الحرب فوراً إدخال قوات بريطانية من أجل حماية القفقاز. رفض ستالين الاقتراح، وشرح يومها موقفه للمكتب السياسي بقوله: "لن نستطيع إخراجهم فيما بعد..." وأمر آنئذٍ بإدخال جيشين إلى إيران المجاورة كانا متمركزين سابقاً في القفقاز). كانت بعض التشكيلات الآلية المضادة للدروع من الوحدات "الإيرانية" ينبغي أن تصل في غضون عشرة أيام، لكن كان ينبغي الصمود خلال هذا الوقت. فقد كان من الواضح، وأكرّر القول، أن القوات الموجودة ليست كافية لتنظيم دفاع حقيقي.

اعتبر والدي أن إقفال المعابر الجبلية يأتي في طليعة المهمات. فقامت وحدات حرس الحدود وفرقة المشاة الجبلية بإغلاقها على الفور. وقد تمت الاستعانة بطلاب المعهد الرياضي من متسلّقي الجبال. وهكذا، تمت إقامة حاجز ما بوجه العدو الذي لم يعد بوسعه أن يأمل في تحقيق تقدم دون مواجهة أية صعوبات.

لن أكرر ما بوسع القارىء معرفته عن تلك الأحداث من أدب المذكّرات، غير أن بعض التفاصيل، لا تزال، برأيي، تحتفظ بأهميتها حتى يومنا هذا.

لم تكن القوات المسلحة آنئذٍ قد سمعت بعد بالسلاح الصامت. إلا أن مثل هذا الجهاز كان قد تم تصميمه قبل الأحداث المذكورة بوقت قصير في مكاتب تصميم خاصة. فقد كانت تكتم الصوت مواسير خاصة تثبت في البندقية. وكان المشاركون في الدفاع عن القفقاز هم الأوائل في الجيش (كانت المخابرات قد حصلت قبل ذلك، بالطبع، على هذا الجهاز) الذين استخدموا هذا الجهاز السري في المعركة.

وكان الجيش قد حصل آنئذٍ على جهاز جديد آخر. فقد تم تزويد عدة مجموعات من رجال حرس الحدود والاستطلاع العسكري بأجهزة تصويب

مزوّدة بالأشعة ما تحت الحمراء. وأذكر أن هذه الأجهزة قد استخدمت مع السلاح الصامت على نحو فعال للغاية.

يذكر جيداً مقاتلو الجبهات أن الألمان كانوا يعملون وفق تقليد ثابت، يقضي بأن يسير الاستطلاع العسكري في مقدمة أي تشكيل يتقدّم إلى الأمام. وكان الاستطلاع يضم عدداً من الضباط الذين ينتمون إلى أسلحة المدفعية والهندسة والمدرعات والطيران. وكانت مجموعة الاستطلاع هذه تضم، إضافة إلى هؤلاء، عامل لاسلكي، بالطبع، وقوة حماية. وهكذا كان الأمر هنا أيضاً، إذ لم يكن يتحرك رتل دبابات واحد دون استطلاع دقيق يتلقى المساندة من الجو. فما إن تبدأ ملامح اشتباك مع العدو حتى تدخل قوة الحماية في المعركة، ثم تتقدم الدبابات بعد ذلك.

هذا التقليد الألماني في العمليات تقرّر استخدامه لصالحنا. فقد تم خلال يوم واحد إقامة حوالي ٥٠٠ مكمن في الأماكن المتوقعة لتقدم الهتلريين. وكانت هذه المكامن تعمل وفقاً للمبدأ التالي: على مسافة ١٠٠-١٥٠ متراً كان يتم التخلص من رجال الاستطلاع الضباط، الذين لم يكن الألمان يتقدمون من دونهم. وقد تمكّنا في تلك الأيام من أسر حوالي ٣٠ شخصاً من هذه المجموعات. وعلى ما أذكر بلغ مجموع ما فقده جيش كلايست بهذه الطريقة حوالى ألفين وخمسمئة ضابط. وقد كسبنا بذلك خمسة أو ستة أيام من الوقت.

لم تحرك القيادة الألمانية الدبابات إلا بعد أن استفاقت من ذهولها. لكن كان قد فات الأوان، إذ كانت قد بدأت تصل بعض الوحدات التي سُحبت من إيران. كما كانت قد نُقلت إلى المنطقة عدة عشرات من الدبابات التي حصلنا عليها من الإنكليز.

كان التفوق العددي لا يزال لصالح العدو، إلا أن وتيرة الهجوم كان قد تم إحباطها. فقد غرق الألمان في المعارك، وفقدوا مئة دبابة في ضواحي مدينة موزدوك وحدها.

بقي والدي هناك طوال هذين الأسبوعين إلى أن تم وقف تقدُّم الألمان

وضمان استقرار الوضع. ولم يغادر إلى نوفوروسيسك إلا بعد أن أصبح على قناعة بمتانة دفاعنا. وقد تمكن الألمان لاحقاً من إجبار مجموعة قوات شمال القفقاز على التراجع قليلاً، إلا أنهم لم يبلغوا فلاديقفقاز كما كانوا يخططون.

كان الوضع الذي نشأ على الجبهة الجنوبية أيضاً أكثر مدعاة للقلق. فقد فقدت أركان الجبهة قدرتها كلياً على قيادة القوات وكانت معنوياتها في الحضيض. قام والدي على الفور، وبالتنسيق مع القيادة العليا ولجنة الدولة، بإعفاء قائد الجبهة سيمون بوديوني وعضو المجلس الحربي فيها لازار كاغانوفيتش من منصبيهما، فضلاً عن عدد آخر من الأشخاص المسؤولين عن انهيار الدفاع. وافق ستالين على القرار لأنه كان قد اقتنع شخصياً بعدم قدرة قيادة الجبهة على تنظيم المجابهة الضرورية للعدو.

لقد رأيت بوديوني، وكان كما بدا لي خائر القوى. وحين وصل والدي إليه، بدأ بوديوني بإقناعه قائلاً: "ليس من سبب للدفاع عن بساتين البرتقال هذه، ينبغي أن نغادر!" مع أن والدي كان يعرف الماريشال بوديوني على حقيقته كقائد عسكري، إلا أنه صعق للأمر. فلم يكن بوسع قائد الجبهة تقديم شرح مفهوم عن موقع الوحدات ومن يقودها. وحين كان يقدم تقريره عن الوضع، أدرك والدي أن ليس ما يدعو لمواصلة الحديث. قطع والدي الحديث وباشر باستدعاء القياديين من كافة الرتب والاستفسار عن حقيقة ما يجري هناك على الأرض.

كنت شاهداً حين كانوا يضعون خريطة العمليات الحربية، وكان الماريشال بوديوني يجلس جانباً وفي عينيه نظرة تائهة. وتراءى لي أنه لا يفهم أصلاً ما يتحدثون عنه.

كان جوكوف قد واجه الوضع نفسه تقريباً في لينينغراد في أيلول/سبتمبر ١٩٤١. فقد أثبت فوروشيلوف إفلاسه الكامل كما أثبت بوديوني لاحقاً. لقد أظهر الواقع أن الشخصيات الكبيرة ليست سوى بالونات منفوخة. فالماريشالان لم يكونا بكل بساطة، مهيأين للحرب الحديثة.

بعد مناقشة الوضع، اتخذ والدي، بالتنسيق مع موسكو، قراراً بإنشاء جيشين منفصلين. فالجبهة الموحّدة لم تبرر نفسها بالشكل الذي كانت عليه.

عيّن والدي آنذاك قائدين شابين على رأس الجيشين، فقد ترك هذان القائدان، كما فهمت آنذاك، انطباعاً جيداً لديه لما أبديا من حزم ومعرفة. أحد هذين الضابطين كان كونستانتين نيكولايفتش ليسيليدزه الذي أصبح فيما بعد برتبة جنرال كولونيل ومنح لقب بطل الاتحاد السوفياتي. بدأ الحرب برتبة كولونيل، وكان يتولى قيادة المدفعية في فيلق للمشاة، وخاض المعارك على الجبهة الغربية وجبهة القفقاز، ثم تولّى قيادة الجيش السادس والأربعين والسابع والأربعين والثامن عشر. توفي عام ١٩٤٥.

أما القائد الثاني الذي دفع به والدي إلى الأمام، فهو أندريه أنطونوفيتش غريتشكو الذي أصبح فيما بعد قائداً لعدة جيوش، ومن ثم نائباً لقائد الجبهة الأوكرانية، وبعد الحرب أصبح قائد منطقة كييف العسكرية، ومن ثم قائد مجموعة القوات السوفياتية في ألمانيا، والقائد الأعلى للقوات البرية، والنائب الأول لوزير الدفاع والقائد الأعلى للقوات المسلحة الموحدة للدول الأعضاء في معاهدة فرصوفيا، وقضى السنوات الأخيرة من عمره وزيراً للدفاع في الاتحاد السوفياتي. وقد بدأ الماريشال المقبل وبطل الاتحاد السوفياتي مرتين طريقه إلى القمة في تلك اللحظة بالذات التي التفت إليه فيها والدي.

لن أوارب، وسبق أن قلت إن كثيرين وكثيرين جداً من مشاهير القوم مدينون بذلك لوالدي. وقد بقي طوال حياته يتابع تقدم البعض منهم، ولا أخفي أنه كان يقدم لهؤلاء يد العون عند الضرورة. ولا أقول إن أحداً من هؤلاء لم يطعن والدي لاحقاً في الظهر، فمثل هذا الأمر قد حدث. إلا أن غالبية هؤلاء، وأعرف ذلك جيداً، ظلّوا يذكرون والدي بالخير، وإن لم يتمكّنوا من الاعتراض علناً على كل هذا الكذب. وكثيرون من هؤلاء كانوا من العسكريين.

كان والدي يدرك جيداً، شأن القادة الواعين سواه، أن زمن القادة من أمثال بوديوني وفوروشيلوف قد ولّى إلى غير رجعة. فقد كانت القوات والأركان

بحاجة إلى أشخاص من طينة أخرى، وكان والدي يجيد اختيار الكوادر، الأمر الذي لا تنكره الدعاية الرسمية أيضاً. كثيراً ما يكتبون أنه كان يحيط نفسه دائماً بأشخاص مخلصين له شخصياً. إنه افتراء آخر. فقد كان نجاح العمل هو معياره الرئيسي دائماً. فإذا كان الشخص يجيد عمله ويحبّه، فهو إذاً الشخص المناسب. أما إذا كان ثرثاراً وغير كفؤ فلا حاجة إليه. وقد بقي وفياً لهذه المبادىء حتى آخر أيام حياته. وكما اقتنعت أكثر من مرة، فإن حدسه المدهش في معرفة الناس الموهوبين والممتلئين حماساً، لم يخنه قطّ. هكذا كان الأمر بالنسبة للعسكريين والعلماء ورجال المخابرات.

بقينا لمدة أسبوع في منطقة نوفوروسيسك، وكانت المعارك تدور في المدينة نفسها. وقد لا تبدو هذه المدة طويلة بالمقاييس المعهودة، إلا أن الساعة في زمن الحرب تعني الكثير. وقد استغل والدي هذا الوقت إلى الحد الأقصى. ولا زلت أذكر حديثاً جرى خلال لقاء عقده في مقر أركان الجبهة الجنوبية إثر وصوله مباشرة. سأل والدي عن ميزان القوى بين الطرفين المتحاربين، واتضح أن لدينا ما يكفي من المقاتلين إنما... في النسق الثاني. لقد "تسرّبوا" من النسق الأول إلى الثاني، كما أُبلغ والدي. كل شيء وارد في الحرب، لكن أين كان القادة؟ نال البعض ما يستحق من العقاب وأُعيدت الأمور إلى نصابها.

بقيت في ذهني رحلتي الأولى إلى المعابر الجبلية، وكانت قد وصلت مع والدي آنئذٍ مجموعة من ضباط المخابرات من ضمنها الجنرال كولونيل سيروف، القائد اللاحق للكي.جي.بي. في الاتحاد السوفياتي وقائد المديرية العامة للمخابرات التابعة للأركان العامة. وحين علمت أنه يستعد للانتقال إلى المعابر الجبلية، طلبت الإذن من رئيسي المباشر الكولونيل شتيمنكو بمرافقة سيروف ولو ليوم واحد. أذن لي تشيمنكو بالسفر وأقلّتنا الطائرة حتى سوخومي، ومن هناك أقلّتنا سيارة جيب "ويليس"، ثم ركبنا الخيل حتى وصلنا المعابر.

أتى جنرال الجيش سيرغي ماتفييفيتش شتيمنكو، الذي كان في ذلك الوقت رئيس مديرية العمليات في الأركان العامة، في مذكراته، على ذكر معبري

كلوخورسكي وماروخسكي اللذين كانا في مركز الأحداث في تلك الفترة. وكرّس عدة أسطر للسكان المحليين الذين قطعوا الطريق على العدو.

لن أنسى ما حييت أولئك الناس الذين ذكرهم بالخير سيرغي ماتفييفتش. فقد أدركت هناك، في القفقاز، وكنت لا أزال ضابطاً صغيراً، إلى أي مدى يتوقف الأمر على السكان المحليين. لقد كنت في الثامنة عشرة، وكنت قد حصلت على إعداد بدني جيد، ومع ذلك، فقد دهشت حين رأيت للمرة الأولى شيوخاً ينقلون على ظهورهم الذخائر والمواد الغذائية. لم يكن من السهل على الشاب أن يقوم بذلك، فكيف بهؤلاء الشيوخ؟ وتمر الأيام، ويجبر سكان هذه المناطق على ترك مسقط رأسهم بعد اتهامهم بالتعامل مع العدو؛ لقد كان التهجير حقيقة مُرّة أخرى من حقائق تلك الحرب...

لم يكن يوجد خط دفاع متواصل في هذه المناطق بسبب طبيعتها الجبلية، بل كانت توجد نقاط نيران من جانبنا ونقاط نيران من جانب الألمان تفصلها بعضها عن بعض منطقة إطلاق النار. كنا نقوم بعرقلة إمدادات العدو، الذي كان يقوم من جانبه بعرقلة إمداداتنا. ولهذا كان الكثير يتوقّف على سكان أعالي الجبال المحليين.

لقد تطلّب الأمر فترة أسبوعين تقريباً لتشكيل وحدات جديدة مؤهلة لخوض القتال. وتم خلال هذه المدة إعادة تنظيم المؤخرات وتحديد قطاعات جيش ليسيليدزه وغريتشكو، وتزويد القوات بالمعدّات القتالية.

كانت باكو هي المحطة التالية في رحلتنا. في هذا الوقت، كان الألمان يعتزمون التقدم عبر سهوب كالميكيا بهدف الخروج في النهاية إلى آسيا الوسطى. وقد تقرر إقامة حاجز، من جهة دربنت وماخاتشاكالا، بوجه أي وحدات ألمانية قد تتقدّم بهذا الاتجاه.

وقد تسنّى لي أن أرى هنا ليس فقط قائدي المباشر الكولونيل شتيمنكو والجنرال ليتنانت بافل إيفانوفيتش بودين وهما منهمكان في العمل، بل وجنرال الجيش إيفان فلاديميروفيتش تيولينيف، الشخص المقرّب إلى حد ما من والدي.

مقتطفات من مصادر رسمية:

إيفان تيولينيف: جنرال جيش، بطل الاتحاد السوفياتي. خاض غمار الحرب العالمية الأولى والحرب الاهلية. قبل الحرب، قاد قوات منطقة موسكو العسكرية. في العام ١٩٤١، أصبح قائد قوات الجبهة الجنوبية وجبهة ما وراء القفقاز. في سنوات ما بعد الحرب، أصبح قائد قوات منطقة خاركوف العسكرية، ومن ثم عاملاً في الجهاز المركزي لوزارة الدفاع السوفياتية. في العام ١٩٥٨، أصبح ضمن مجموعة المفتشين العامين لوزارة الدفاع السوفياتية.

توفي في العام ١٩٧٨ عن عمر ٨٥ عاماً.

بقي تيولينيف سنوات عديدة على رأس منطقة ما وراء القفقاز العسكرية، ولذلك كان يعرفه والدي منذ وقت طويل. وقد نقل هو الآخر إلى موسكو فيما بعد.

أذكر أن إحدى المهمات التي كان عليهما معالجتها سوية آنذاك كانت مهمة تنظيم الدفاع المضاد للطيران. حين وصل والدي إلى القفقاز لم يكن الطيران الألماني يُظهر نشاطاً ملحوظاً، لكن لم يكن من الصعب الافتراض أن الوضع يمكن أن يتبدل.

قال أبي آنذاك: حتى لو نجحنا في إيقاف الألمان بسرعة، إلا أنهم لن يتخلّوا عن محاولات قصف المناطق النفطية.

تولّى الجنرال ميخائيل ستيبانوفيتش غرومادين تنفيذ مهمة تنظيم الدفاع المضاد للطيران. وقد حصل غرومادين لاحقاً على رتبة جنرال كولونيل، وأصبح قائداً لقوات الدفاع المضاد للطيران في المنطقة، ثم ترأس لاحقاً كل الدفاع المضاد للطيران في البلاد. أما في ذلك الحين، فقد كان نائباً لوزير الدفاع لشؤون الدفاع المضاد للطيران وقائداً لقوات هذا السلاح.

حين حاول الألمان قصف حقول النفط، لم تتمكن قاذفة واحدة من بلوغ الهدف. فلم تكن تصل إلا طائرات الاستطلاع منفردة وعلى علو شاهق. لم يتسنَّ لي، على الأقلّ، أن أسمع عن غارات ناجحة للطيران الحربي الألماني. وأذكر أن المعدات التي تم نقلها من إيران قد أثبتت فاعليتها آنئذٍ.

لقد تبيّن أن الحظر الصارم على استخدام المدافع من العيار الثقيل، والمخصصة للدفاع الجوّي، في قطاعات الجبهة التي تشكّل الدبابات خطراً عليها، كان قراراً بعيد النظر. مثل هذه الاقتراحات كانت موجودة، لكن كان من الواضح أيضاً أنه لا يجوز بحال من الأحوال تعرية الدفاع المضاد للطيران في مناطق النفط. وقد أكد الواقع أن قادة الدفاع عن القفقاز كانوا على صواب.

لا زلت أذكر الخنادق الهائلة المضادة للدبابات التي حفرها السكان المحليون في منطقة المياه المعدنية. كم يكتبون الآن عن أن القوزاق كانوا يكرهون السلطة السوفياتية. لقد شاهدت بأم العين كيف كان هؤلاء القوزاق ينقضّون على الدبابات الألمانية. قد يكون هؤلاء القوزاق بغالبيتهم ضد هذه السلطة، وهو ما لا أؤكده، إلا أنهم كانوا يكرهون الألمان أكثر...

قد يعترض البعض عليّ بالقول وماذا في هذه الحالة، عن الكتائب القوزاقية التي قاتلت إلى جانب الألمان؟ إن الجبناء والخونة والناس العاديين الذين انضموا الى هذه التشكيلات بفعل هذه الظروف أو تلك، لم يكونوا وسط القوزاق فحسب. فالملايين من الناس وقعت بغير إرادتها في الأسر. البعض منهم بقي وفياً للواجب العسكري وللقَسَم، والبعض الآخر، وهو الأضعف، خاض الحرب ضد بني قومه. هذا ما كان بالنسبة للقوزاق أيضاً. ومن اللافت في هذا المجال أن الألمان حاولوا استخدام هذه التشكيلات حيثما اتفق، في فرنسا، في إيطاليا، في يوغوسلافيا، لكن ليس في روسيا. وأفترض أن الألمان أيضاً لم يثقوا كثيراً بمثل هؤلاء (المتطوعين)، أضف إلى أن هؤلاء أنفسهم كانوا يرفضون التوجّه إلى الجبهة الشرقية.

مقتطفات من مصادر رسمية:

حتى اواسط العام ١٩٤٣، كان الالمان قد شكّلوا ٩٠ كتيبة من مواليد القفقاز وآسيا الوسطى، وحوالى ٩٠ كتيبة "روسية" و "قوزاقية" يبلغ تعداد الواحدة منها ٤٠٠–٥٠٠ شخص. في نهاية الحرب جرى على اساس هذه التشكيلات إنشاء فيلق القوزاق التأديبي الخامس عشر الذي بلغ تعداده العام ١٨ الف شخص، كان

ثلثهم من العسكريين الألمان وحوالى ٥ آلاف شخص من المهاجرين البيض. كما تم أيضاً تشكيل فرقة "خانشار" الإسلامية الثالثة عشرة إس. إس. وفرقة "غاليتشيبنا" الرابعة عشرة إس.إس.والفرقتين الروسيتين التاسعة والعشرين والثلاثين، والفرقة العشرين الأستونية والفرقتين اللتوانيتين الخامسة عشرة والتاسعة إس.إس.

إن الأسر أمر فظيع من كافة الجوانب. وكان الأسر من نصيب ابن خالتي. في مطلع الحرب، كان تيموراز شافديا يدرس في مدرسة الرشاشات في بادولسك. في خريف ١٩٤١، وقع، وهو جريح، في الأسر، شأن معظم طلاب المدرسة. وحين بدأ الألمان بإنشاء التشكيلات الوطنية، ألحق هو بإحدى هذه الكتائب. البعض دخل هذه التشكيلات طوعاً، والبعض الآخر أكره على ذلك. لكن كان يوجد آخرون ممّن كانوا يأملون بالفرار بهذه الطريقة من معسكر الأسر، والالتحاق بقومهم.

كان الألمان يزمعون بادىء الأمر استخدام هؤلاء الناس في المؤخرة السوفياتية عن طريق نقلهم إلى الكوبان. أما الكتيبة التي كانت تضم شافديا، فقد أرسلت إلى فرنسا، حيث كان يتم حشد هذه التشكيلات. وهناك فرَّ تيموراز، شأن الكثيرين من رفاقه بالأسر، والتحق بالأنصار الفرنسيين. وقرر الألمان عدم استخدام "المتطوعين" الباقين لاحتلال القفقاز، وأرسلوهم إلى إيطاليا بعيداً عن الوطن. لكن بدأت هناك أيضاً عمليات فرار جماعية والتحاق بالأنصار.

لم تنقل كتيبة واحدة من هذه الكتائب إلى القفقاز. وقد قاتل أسرانا العسكريون العدو بشجاعة في إيطاليا وكذلك في فرنسا، وتزعّم كثيرون منهم مجموعات للأنصار. كما جرى الصمت، خلال سنوات طويلة، على نضال المهاجرين الجورجيين النشيط ضد المحتلين خلال سنوات الحرب. وكان هؤلاء على صلة رفيعة المستوى بحركة المقاومة الديغولية. وبادروا على الفور إلى مد يد العون للأسرى السوفيات. بعد تحرير فرنسا، أعيد شافديا في عداد آخرين إلى الاتحاد السوفياتي. لم تسعفه علاقات القربى. وشأنه شأن جميع أسرى الحرب السابقين، بقي عدة أشهر تحت المراقبة المناسبة قبل أن يغادر بعدها إلى تبليسي.

قرأت مرة أن تيموراز قد خان الوطن وعمل في الإس.د (S.D) وكان برتبة أونتر- شارفوهرر (صف ضابط)، ولم تنقذه "وصاية عمه الرفيعة المستوى من نيل القصاص الذي يستحق، إذ حكم عليه، تحت ضغط الرأي العام، بالأشغال الشاقة لمدة ٢٥ سنة". أما المصير الفعلي لابن خالتي، فكان التالي: لقد دخل شافديا السجن بالفعل. وكان موت أحد المشاركين في المائدة التي يجلس إليها شافديا هو السبب في اعتقاله. ومع أن الشهود أكدوا أن ليست له أية علاقة بما حدث، وأن شخصاً آخر هو الذي أطلق النار، إلا أنهم اعتقلوا شافديا وحكموا عليه بالسجن لمدة عشرة أعوام. وقال شافديا فيما بعد إنهم كانوا يضربونه باستمرار ضرباً مبرحاً، ويطلبون إليه أن يشهد ضد والدي. لقد كان يجري إعداد "الملف المينغريلي".

علم والدي أن تيموراز معتقل، إلا أنه لم يتمكن من مساعدته. وحين قتلوا والدي، عادوا مجدداً للعمل على انتزاع شهادات من شافديا ضده. فكانوا يطلبون إليه أن يعترف بأنه عميل شخصي له.

أطلقوا سراحه في العام ١٩٥٥، ثم عادوا لاعتقاله بعد مرور خمسة أعوام. فمصيبة تيموراز أنه كان شخصاً جياش العواطف، وكان أينما حل يتحدّث عن مغامراته المحزنة قائلاً: "هل ترون كيف شوّهوني؟ وهل تعرفون لماذا؟...".

وانتهى الأمر بأن حكم على شافديا بالسجن لمدة عشر سنوات أخرى، إلا أنهم لم يحاكموه، بالطبع، على "طول لسانه"، بل على سرقة مبالغ طائلة جداً... لقد كان تيموراز يدير متجراً لبيع الكتب...

شاءت الظروف أن يطرد من العمل في الكي.جي.بي. في جورجيا ذلك الموظف نفسه الذي شارك في تنظيم "ملف شافديا". وقرر هذا الموظف الثأر من رؤسائه، فعمد إلى فضح هذه القصة كلها، مدعّماً حديثه بالوثائق. أعادوا الاعتبار إلى تيموراز، وقضى السنوات العشر الأخيرة من عمره طليقاً.

لكن لنعد إلى القفقاز. يخيّل إليّ أن والدي اقتنع مرة أخرى هناك أن لا

فائدة ترجى من المرشدين السياسيين. وأذكر أنه حدّث جوكوف كيف عزل كاغانوفيتش من منصب عضو المجلس الحربي، ووافقه غيورغي كونستانتينوفيتش الرأي، قائلاً:

- إن أعضاء المجالس الحربية هؤلاء صفر إلى يسار العدد... فما حاجتي إليهم؟ هل ليعلّموا الجنود كيف يصرخون "هورا"؟ فهؤلاء يصرخون من دونهم. إنهم لا يأتون الجبهة بأية فائدة. فلو كانوا يساعدون في تنظيم مناطق المؤخرة لأتوا بفائدة ما.

لن تجدوا كلمة لوم واحدة في مذكرات الماريشال الشهير بحق المرشدين السياسين، وتفسير الأمر بسيط هنا أيضاً. فقد كان الحزب والدولة بقيادة ليونيد بريجنيف وقبله بقيادة خروتشوف، والاثنان كانا في الحرب، كما هو معروف، مرشدين سياسين...

لم يتمكّن لا جوكوف ولا فاسيليفسكي ولا شتيمنكو ولا غريتشكو من قول الحقيقة كاملة في مذكراتهم، وذلك لأن السلطة كانت بيد البارتوقراطية. فليس لدي ما ألوم عليه جنرال الجيش شتيمنكو الذي نسي، مثلاً، دور والدي في الدفاع عن البلاد، مع العلم أنه مدين له في ترقيته، وكان طوال الحرب مرتبطاً به بهذا الشكل أو ذاك. لم يكن بوسع غريتشكو أن يتصرف على نحو مغاير أيضاً. كما لم يتمكّن الآخرون كذلك من كتابة الحقيقة عن والدي بسبب الظروف المعروفة نفسها. لكن، ماذا بوسعنا أن نفعل ما دام قدّر لنا أن نعيش في بلاد لا يسايرون فيها الحقيقة التاريخية كثيراً.

حين قررت التحدث عن الحرب، فكرت فوراً بأنه لا بد أن أتحدث عن أولئك العسكريين الذين عملوا في أوقات مختلفة مع والدي، الذي كان يقدّرهم على نحو خاص ويساعدهم بكل ما أوتي. لقد سبق أن قلت إن والدي كان يدافع عن عدد من العسكريين، لن أذكر منهم إلا بعض الأسماء فقط: جوكوف، فاسيليفسكي، شتيمنكو، تولبوخين، ارتيوموف.

مقتطفات من مصادر رسمية:

فيودور تولبوخين: ماريشال الاتحاد السوفياتي، وبطل الاتحاد السوفياتي. كان قبل الحرب رئيساً لأركان منطقة ما وراء القفقاز العسكرية. في سنوات الحرب، تولّى رئاسة أركان عدة جبهات، ثم أصبح قائداً للجبهة الجنوبية، فالجبهة الأوكرانية الرابعة، ثم الأوكرانية الثالثة. بعد الحرب، أصبح القائد الأعلى لمجموعة قوات الجنوب، ثم قائد منطقة ما وراء القفقاز العسكرية.

بافل ارتيوموف: جنرال كولونيل. تولّى منذ العام ١٩٤١ وخلال سنوات الحرب رئاسة مديرية قوات الطوارىء في مفوضية الداخلية. ثم عيّن قائداً لقوات منطقة موسكو العسكرية ومنطقة الدفاع عن موسكو. بعد الحرب استمر في قيادة قوات منطقة موسكو العسكرية، ثم عيّن نائباً لقائد قوات منطقة الأورال العسكرية.

كان والدي على علاقة ودّ كبير بالماريشال سيميون كونستانتينوفيتش تيموشنكو أيضاً. وكانا يلتقيان كثيراً جداً قبل الحرب، لكن حين أُبعد تيموشنكو لم تعد تتكرر هذه اللقاءات كما في السابق، بالطبع.

كنت أنا شخصياً على علاقة جيدة مع بعض هؤلاء الناس. فقد تعرفت إلى شتيمنكو حين كان لا يزال برتبة كولونيل يعمل في جهاز الأركان العامة لدى الكسندر ميخالوفيتش فاسيليفسكي.

كما كنت على معرفة، بالطبع، بجوكوف أيضاً. وأتذكّره شخصاً صارماً لكن طيب الطوية. وكثيراً ما كنت ألتقيه في منزلنا. على أن علاقتنا لم تتخطّ هذه الحدود. أما فاسيليفسكي فكنت مقرباً منه وكان عادة ما يشاطرني ذكرياته عن الخدمة في الجيش القيصري، وروى لي كيف أصبح عسكرياً ولماذا. فقد كان ما يزال ضابط خيالة حين أصبح قائد تشكيل كان جميع أفراده خيالة مينغريليين من جورجيا. وكانت هذه الأحاديث مشوّقة جيداً بالنسبة لي. وكان فاسيليفسكي يتذكر والإبتسامة على فمه كم كان هؤلاء الضباط الجورجيون فقراء. فكانوا، مثلاً، حين يذهبون إلى حفل استقبال صغير يستعيرون ملابس بعضهم البعض. إلا أنه كان يشدد في حديثه على أنهم كانوا مقاتلين شجعاناً.

على أن فاسيلفيسكي نفسه لم يكن من أسرة غنية؛ فلم أعد أذكر على وجه

التحديد، ما إن كان هو الطفل الخامس أو السادس في أسرة كاهن قروي. وكان يتحدث عن والده دائماً بحب كبير. فقد قرأت في مكان ما أن الماريشال اللاحق لم يقبلوه في صفوف الحزب، ولهذا تخلّى عن والده. لم يتخلَّ عن أحد، بالطبع، ولم ينتسب إلى الحزب إلا في العام ١٩٣٩، إن لم أكن مخطئاً. وقد ذكر لي مرّة حديثاً جرى بينه وبين ستالين قبل الحرب. فقد سأله ستالين: لِمَ لم تنتسب إلى الحزب؟ أجاب الكسندر ميخايلوفيتش:

- لأنه لم يعرض عليَّ أحد ذلك. هذا إضافة إلى أنهم لن يقبلوني، فأنا ابن كاهن.

قال ستالين مبتسماً:

- هذه نصف مصيبة، فأنا درست في السيمنار.

قبلوا فاسيليفسكي في الحزب، بالطبع، إلا أنني أعتقد بأنه هو نفسه لم يكن شديد الحماس لذلك.

بعد الحرب، أصبح ألكسندر ميخايلوفيتش رئيساً للأركان العامة، ثم نائباً أول للوزير، ثم وزيراً للقوات المسلحة. كنا نلتقي معاً أثناء إجراء التجارب. غير أن لقاءاتنا لم تقتصر على هذه فقط، وكنت أستمع إلى أحاديثه دوماً بكل سرور.

كان فاسيليفسكي مقرّباً جدّاً من والدي أيضاً. من المحتمل أنه لم يكن مقرباً كما جوكوف، إذ كانت تربط جوكوف بوالدي صداقة قديمة، إلا أن والدي كان يكن وداً خاصاً لفاسيلفسكي. كما كان شتيمنكو كذلك شخصاً مقرّباً من والدي، إلا أن فاسيليفسكي كان من حيث المستوى ومن حيث العمر، أقرب إليه من شتيمنكو. بعد الحرب اضطر جوكوف، كما هو معروف، إلى مغادرة موسكو. ولهذا كان والدي على صلة بفاسيليفسكي، بشكل أساسي.

ليس من قبيل المصادفة أن أتذكر أيضاً شتيمنكو كثيراً على صفحات هذا الكتاب. إن والدي هو الذي ساعده ليصبح ما أصبح عليه. وأقولها صراحة إن قربه من والدي قد ساعده على التقدم. فقد كان برتبة كولونيل حين بدأ يعمل

معه عام ١٩٤١. وجميع الأوامر التي أعدّها والدي، بوصفه ممثلاً للقيادة العليا ولجنة الدولة للدفاع، هي من صياغة شتيمنكو.

لا يسعني إلا أن أتذكّر أيضاً جنرال الجيش أنطونوف، الذي دخل الحرب وهو نائب رئيس أركان منطقة كييف العسكرية الخاصة. وترأس لاحقاً أركان كلٍّ من الجبهة الجنوبية وجبهة ما وراء القفقاز. في نهاية عام ١٩٤١، اصبح رئيساً لمديرية العمليات في الأركان العامة، ومن ثم نائباً لرئيس الأركان العامة، ثم رئيساً للأركان العامة.

لقد كان أنطونوف شخصاً موزوناً ومتنوّراً. وكنت أعجب دوماً للرأي المتداول عن العسكريين بأنهم أشخاص على شيء من الفظاظة، ولا يمتازون بذكاء كبير. إن جميع العسكريين الذين صادفتهم في حياتي، وهؤلاء ليسوا قلّة كما يمكن للقارىء أن يخمن وحده، كانوا عميقي الثقافة وذوي مستويات علمية رفيعة. هكذا كان أنطونوف نفسه، ومثل هؤلاء الناس كنت أصادفهم في الجيش بعد الحرب أيضاً. كثيرون منهم أنهوا الأكاديميات العسكرية، ويعرفون لغات أجنبية.

بعد مرور سنوات عديدة، تسنّى لي أن أقتنع أن الجيل الراهن من العسكريين ليس أدنى مستوى من الأجيال التي سبقته. لنأخذ على سبيل المثال أكاديمية فاسيليفسكي للدفاع المضاد للطيران في كيف. فهي تضم أساتذة ذوي تأهيل رفيع، حيث يعمل هناك اختصاصيون ممتازون في الرياضيات والراديوتكنيك والراديوالكترونيك. كما أن المتخرجين من هذه الأكاديمية هم على مستوى رفيع من التأهيل أيضاً.

أو لنأخذ أكاديمية غوفورف في خاركوف. هذه الأكاديمية تخرّج أنتلجنسيا تقنية حقيقية. لكن ثمة أمراً مثيراً للقلق. فإذ أتذكر الحرب والسنوات التي تلت، لا بد أن أشير إلى أنه في السابق كان دائماً يرأس التشكيلات والاتجاهات العسكرية أشخاص من ذوي التأهيل التقني. لكن مع الوقت توقّفوا عن تعيين المهندسين العسكريين في المناصب القيادية الرفيعة، مفضّلين عليهم متخرّجي



لافرنتي بيريا طالب في مدرسة باكو المهنية العليا. العام ١٩١٦



لافرنتي بيريا (في الوسط) مع زملائه من متخرجي مدرسة سوخومي الثانوية. العام ١٩١٥



لافرنتي بيريا. العام ١٩٣٠

لافرنتي بيريا وزوجته يمضيان فترة استجمام

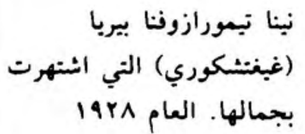
الأب والإبن، لافرنتي وسيرغو بيريا، تبيليسي. العام ١٩٣٦



من اليسار إلى اليمين: سيرغو، نينا، لافرنتي ومارفا. العام ١٩٥٠



لافرنتي بيريا مع والدته مارتا وزوجته نينا، تبيليسي. العام ١٩٣٤



نينا تيمورازوفنا بيريا (غيغتشكوري) التي اشتهرت بجمالها. العام ١٩٢٨





نينا تيمورازوفنا. العام ١٩٥٢



نينا تيمورازوفنا. العام ١٩٣٨



سيرغو بيريا في سن السادسة. العام ١٩٣٠



وفي الثالثة عشرة، تبليسي. العام ١٩٣٧



سيرغو بيريا. العام ١٩٣٨



سيرغو بيريا. العام ١٩٤١





لافرنتي بيريا في جورجيا في الثلاثينات، قبل الانتقال إلى موسكو



لافرنتي بيريا أثناء دفن والدة ستالين، تبليسي. العام ١٩٣٧



لافرنتي بيريا، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في جورجيا، أثناء إحدى التظاهرات



لافرنتي بيريا يعلن بدء حملة التطهير الكبرى في الحزب الشيوعي الجورجي خلال مؤتمر الحزب في جورجيا، تبيليسي. العام ١٩٣٧



"أيام الفن الجورجي" في موسكو. صورة من حفل استقبال بالمناسبة. يبدو في الوسط (جلوساً) ستالين وكالينين، وبينهما (وقوفاً) لافرنتي بيريا. العام ١٩٣٧



ستالين. العام ١٨٩٧



ستالين. العام ١٩٠٨



ستالين .العام ١٩٠٨



ستالين. العام ١٩١٥



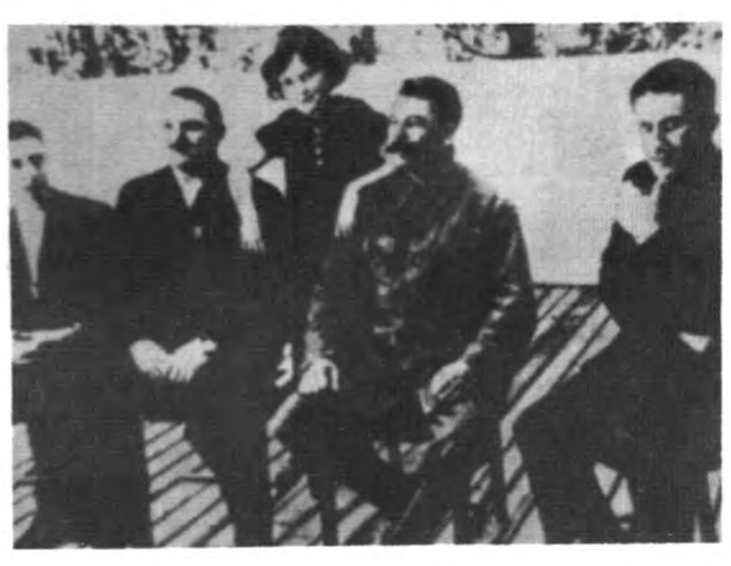
فاسيلي ستالين. العام ١٩٣٦



يكاتيرينا دجوغاشفيلي، والدة ستالين. العام ١٩٣٧



سفتلانا ستالين. العام ١٩٣٨



ستالين، جدانوف وأبناء ستالين: ياكوف، سفتلانا وفاسيلي. العام ١٩٣٥



الأسير ياكوف ستالين دجوغاشفيلي (ابن ستالين البكر) في مركز ألماني لتجميع الأسرى. العام ١٩٤١



الجنرال فاسيلي ستالين يشاهد مباراة رياضية في موسكو. العام ١٩٥٢



ستالين وفوروشيلوف. العام ١٩٢٠



ستالين وجدانوف. العام ١٩٣٥



ستالين وكاغانوفيتش



ستالين وأوردجانيكيدزه



جدانوف، شميدت، كويبيشيف، ستالين، ياغودا، كاغانوفيتش وأوردجانيكيدزه.



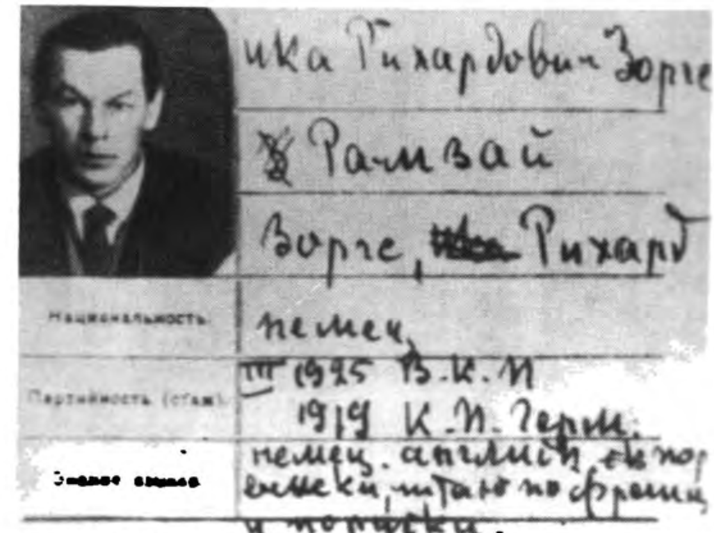
أندرييف، ستالين ومولوتوف في المؤتمر الأول لحركة ستاخانوف في موسكو. العام ١٩٣٥



يجوف (EJOV)، ستالين، فوروشيلوف ومولوتوف، على القناة التي تصل نهر موسكو بالفولغا



ولغا تشيخوفا (كنيبر) مع
زوجها ميخائيل تشيخوف



ика Рихардович Зорге
Рамзай
Зорге, Рихард

Национальность	немец
Партийность (стаж)	III 1925 В.К.П 1919 К.П. Герм.
Знание языков	немец. английск. [illegible]
Краткая биография	[illegible]

صورة من ملف رجل
المخابرات السوفياتي
ريـــخـــارد زورغـــي
(المعروف بالعربية سيرج)



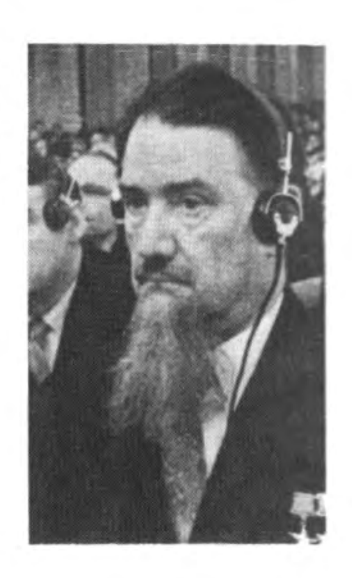
يان برزين، أحد قادة
المخابرات العسكرية السوفياتية



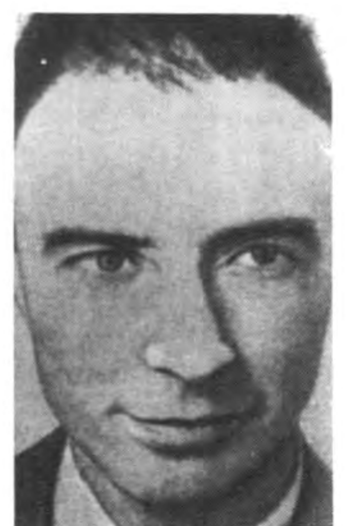
تشرشل، روزفلت وستالين. طهران العام ١٩٤٣



ستالين، روزفلت وتشرشل. يالطا العام ١٩٤٥



الأكاديمي إيغور
كورتشاتوف، المسؤول
عن صناعة القنبلة
الذرية السوفياتية



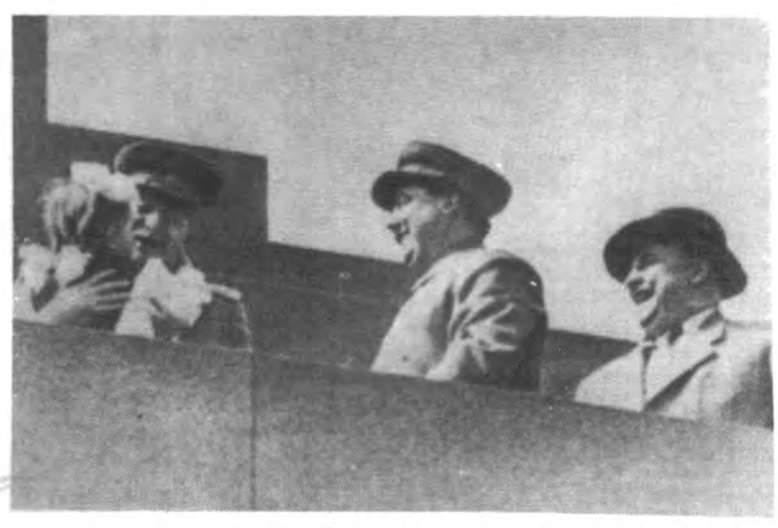
الفيزيائي روبرت
أوبنهايمر، أحد
صانعي القنبلة الذرية الأميركية



تفجير أول قنبلة
ذرية سوفياتية



صورة رسمية لستالين



بيريا، مالينكوف وستالين خلال مظاهرة الأول من أيار العام ١٩٥٢



سيرغو بيريا ووالدته نينا.
العام ١٩٤٦



مارفا، حفيدة غوركي وزوجة سيرغو بيريا، مع والدة سيرغو. العام ١٩٥٠



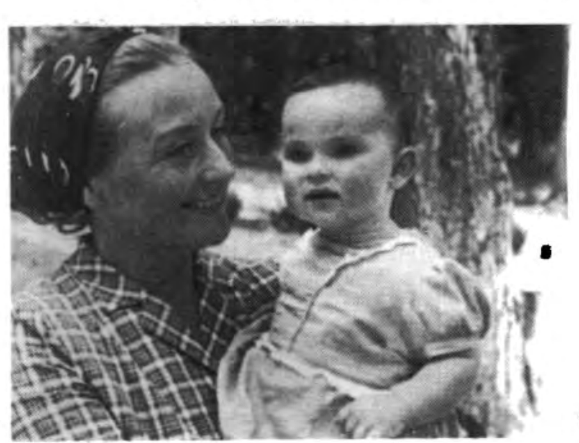
سيرغو بيريا مع زوجته وابنتيه. العام ١٩٥٠



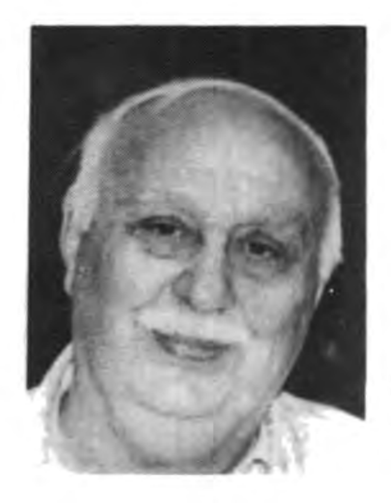
لافرنتي بيريا وحفيدته، والدة زوجة سيرغو يكاتيرينا بيشكوفا، نينا. العام ١٩٤٨



نينا بيريا مع حفيدتها نينا ومربية سيرغو الألمانية إيللا ألمنديفر. العام ١٩٤٨



نينا بيريا وحفيدتها. العام ١٩٤٩



سيرغو بيريا (سيرغي غيغتشكوري، كما كان لا يزال اسمه في ذلك الحين)، مدير مؤسسة " كوميتا" للبحث العلمي وكبير مصممي الأجهزة الصاروخية الفضائية فيها



واجهة المنزل الذي كان يقطنه لافرنتي بيريا مع أسرته في موسكو



مارفا بيشكوفا (زوجة سيرغو بيريا) مع أولادها: نينا، ناديا، سيرغي. العام ١٩٩٠



هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أمام جثمان ستالين. العام ١٩٥٣. من اليسار إلى اليمين: مولوتوف، كاغانوفيتش، بولغانين، فوروشيلوف، بيريا، مالينكوف. في الصف الثاني: خروتشوف (الأول من اليسار). ميكويان (الثاني من اليسار)



خروتشوف أثناء زيارته الرسمية للولايات المتحدة الأميركية

كليات القياديين وهذا خطأ كبير، كما تعلّمنا تجربة الحرب السابقة، لأن الجيش الحديث، ولا سيما جيش المستقبل، هو عبارة عن تقنيات شديدة التعقيد.

كان تلامذة الهندسة العسكرية والاختصاصيون ذوو التأهيل الرفيع يتلقون إعداداً جيداً أثناء الحرب أيضاً. أتذكر زملائي في الدراسة بالأكاديمية العسكرية بوسبيلوف، إيفانتشنكو، فولكوف... لم يكن لأحد من رفاقي ظهير أو والدان من علية القوم. وكل ما حققه هؤلاء كان بفضل مثابرتهم وفطنتهم وحبهم للعمل. لقد كان هؤلاء ضباطاً حقيقيين. وقد وصلوا جميعهم إلى رتبة جنرال وأنجزوا الكثير لتزويد جيشنا بالتقنيات الحديثة وتنشئة الكوادر العلمية.

لقد تسنّى لي أن أعمل في يوم من الأيام مع أحد هؤلاء الناس، وهو فيتالي ميخايلوفيتش شابانوف. وكان شابانوف، شأننا نحن، قد تخرّج من الأكاديمية العسكرية في لينينغراد، واشتغل مهندساً مدرّباً ثم نائباً لي فيما بعد. حاز فيتالي ميخايلوفيتش لاحقاً جائزة لينين وجائزة الدولة، وأصبح برتبة جنرال جيش ونائباً لوزير الدفاع في الاتحاد السوفياتي.

كانت كل واحدة من الأكاديميات العسكرية في تلك الأيام تقدّم الكثير للأشخاص الأذكياء. فقد كنا ندرس في مادتي الرياضيات والفيزياء منهاجاً جامعياً كاملاً، وكان يتم إيلاء اهتمام جدي لدراسة اللغات والتجهيزات العسكرية. وكان متخرّجو هذه المؤسسات التعليمية مهيّئين لتولّي قيادة الكتائب، وهو أمر بحد ذاته يشير إلى مستوى التعليم.

أما أنا فقد دخلت أكاديمية لينينغراد العسكرية بالطريق التالية: في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٢ وصل إلى القوات أمر صادر عن مفوض الدفاع بإرسال مئة ضابط من كل جبهة للدراسة في الأكاديميات العسكرية.

- وكان يقنعني كل من بودين وشتيمنكو وسيروف بقولهما: لا تتردّد في ذلك، التحق بكلية المخابرات.

كان يوجد مثل هذه الكلية في أكاديمية فرونزه العسكرية. بعد التخرّج منها كنت ملزماً بالعمل في المخابرات العسكرية، في جهاز المديرية العامة للمخابرات بالأركان العامة.

لكن التقنيات هي التي كانت تجتذبني. وما دام لم يتسنَّ لي أن أدرس في كلية الراديوفيزياء في الجامعة، فقد قررت أن أصبح مهندساً عسكرياً. إذ كان الراديوتكنيك يشدني إليه منذ الطفولة.

بادر والدي إلى مساندتي قائلاً:

- أنت تعرف لغات وتلقيت تدريباً خاصاً. فلن تتعلّم جديداً في كلية المخابرات، في حين أن التكنيك هو هوايتك.

لم يكن يوجد قسم للرادار في ذلك الحين، فبدأت الدراسة في كلية الاتصالات اللاسلكية. ولم نبدأ دراسة اللاسلكي إلا لاحقاً.

العسكريون يعرفون أن الدراسة في الأكاديمية أو المدرسة العسكرية تفترض بالضرورة تدريباً عملياً في صفوف الجيش. وفي ظروف الحرب كان ينتظرنا التدريب على الجبهة. في صيف ١٩٤٤، أرسلنا جميعنا، طلاب أكاديمية لينينغراد للإلكتروتكنيك، إلى الجبهة، ووُضعنا بتصرف التشكيلات العسكرية. وكان علينا أن نتدرب في وحدات الاتصال في الكتائب والأفواج والفرق والجيوش... لكن مشيئة القدر لم تكن كذلك، إذ قدّر للبعض منا أن يعبرخط الجبهة. فقد نشأ في سلوفاكيا آنئذٍ وضع استثنائي، إذ قام الإنكليز، كما في فرصوفيا، بتدبير انتفاضة هناك. وكان الهدف من وراء ذلك هو ذاته: وضع حركة التحرير الخاضعة جزئياً للنفوذ البريطاني في مواجهة وحدات الجيش الأحمر المتقدمة. وكان حلفاؤنا يحاولون بهذه الطريقة بلوغ الغاية التي لم يتمكن تشرشل من بلوغها في مؤتمر طهران، وهي فصلنا عن بلدان أوروبا الشرقية. فقد كان يأمل الحلفاء أن تساعد هذه الانتفاضات الوقائية في إضعاف تأثير وحدات الجنرال سوفوبودا المتقدمة مع قواتنا على السكان، ومن ثم إدخال الأشخاص المؤيدين لهم إلى الحكومة.

كان الفيرماخيت (الجيش الألماني) يضم وحدات سلوفاكية، إلا أنها كانت مفارز مساعدة للحراسة. ولم يكن الإلمان يسمحون له بالاقتراب من الطيران الحربي، وكان السلوفاك يستخدمون طائرات للنقل. وأذكر أنه حين تمركزت

مجموعتنا في لفوف، ولم يكن قد مر على تحرير المدينة سوى بضعة أيام، حطت في المطار المحلي، ومن دون سابق إنذار، فرقة جوية سلوفاكية كاملة. ولحسن الحظ لم تلحق دفاعاتنا الجوية الضرر بأية طائرة. وقد أدركنا آنذاك موقف السلوفاك الفعلي من الجيش الأحمر وازداد تعاطفنا معهم حين أصبحنا على أرضهم.

لم تكن وحداتنا قد بدأت هجومها على الممرات الجبلية في الكربات حين اندلعت الانتفاضة السلوفاكية. وقد أعدّ الألمان عدة فرق، بما فيها فرقتان مدرعتان، من أجل قمع الانتفاضة، وبدأوا تضييق الخناق عليها. كان ينبغي إنقاذ هؤلاء الناس. وُقدِّر لي، وأنا برتبة كابتن آنذاك، أن أكون ضمن إحدى المجموعات التي خصصت للإنزال وراء خطوط العدو.

كان جميع أفراد مجموعتنا يمتلكون خبرة كافية بالقفز بالمظلة، وسبق لهم أن تلقوا إعداداً خاصاً. وكان معظم هؤلاء قد عملوا حتى ذلك الحين في المناطق البعيدة خلف خطوط الألمان. وكان على هذه المجموعات التخريبية الخاصة، إضافة إلى إنقاذ الناس، الاستيلاء على المعابر الجبلية في الكاربات والاحتفاظ بها لمساعدة وحداتنا.

إضافة إلى الجنديين الاثنين اللذين كانا يتمتعان ببنية بدنية قوية، انضم الى مجموعتنا ضابطان برتبة ميجور من حرس الحدود. وكان هذان الضابطان يجيدان استخدام أي سلاح متوفر وأساليب القتال بالسلاح الأبيض.

أُوكلت إليّ رئاسة محطة الإرسال التي كان عليها أن تبقى على اتصال دائم بالأركان العامة ومع بقية المجموعات التي تم إنزالها في سلوفاكيا. وُضعنا بإمرة الأركان العامة، في حين أن مديرية المخابرات في مفوضية الداخلية هي التي قامت بترتيب عملية الإنزال. وقلّة هم اليوم الذين يعرفون أن مفوضية الشؤون الداخلية كانت تقوم بمثل هذه الأمور. كما أن حركة الأنصار أيضاً قد نشأت وتطورت بمساهمة نشيطة من قبل مفوضية الداخلية كذلك. فمنذ أن انطلق النضال الشامل في مؤخرة العدو تم إرسال آلاف الضباط من مفوضية الداخلية

إلى خلف خطوط الجبهة من أجل تنظيم فصائل الأنصار. وكان هؤلاء الضباط ممن تلقّوا إعداداً في كافة المجالات.

أقلعنا من مطار لفوف على متن طائرة "دوغلاس" المعروفة عندنا تحت اسم "لي-٢" (LI-2) والتي كانت طائرة النقل الأساسية إبان الحرب. وكانت هذه الطائرة تنتج عندنا بترخيص من الأميركيين. وهي معروفة في الغرب تحت اسم "سي-٢٤" (SI-24).

قفزنا بالمظلات من هذه الطائرة بالذات وعلى نحو موفق إلى حد بعيد، اذ لم نتشتت كثيراً حين بلغنا الأرض، ولم يلزمنا أكثر من أربعين دقيقة لكي نتجمع. وسرعان ما خرجنا إلى النقطة المحددة، والتقينا التشكيل العسكري السوفياتي. وكان هذا التشكيل، خلافاً لمجموعتنا، يعمل في سلوفاكيا كفصيل من الأنصار، ولم يكن مقاتلوه يرتدون الزي العسكريّ، بالطبع.

عمدنا على الفور إلى الاتصال بموسكو، فأمرتنا الأركان العامة بإقامة اتصال ميداني مع المجموعات الأخرى التي تم إنزالها في سلوفاكيا والإبلاغ عن الموقف بانتظام.

كانت لدينا محطة إرسال قوية جداً بالنسبة لتلك الأيام. وكانت تزن في حالتها المفكّكة مئة كيلو غرام من دون مصادر التغذية بالطاقة. وحين قفزنا بالمظلات كنا قد توزعنا هذا الوزن بيننا جميعاً. في الأفلام التي تتحدث عن رجال المخابرات العاملين في مؤخرة العدو يصورون عادة محطات إرسال نقالة. ولكن الأمر ليس كذلك في الواقع، بل هو مرهون بالمهمات الملقاة على عاتق المجموعة.

بقينا مدة أسبوعين نتحرك في جبال الكاربات، محتفظين باتصالنا مع موسكو خلال هذا الوقت. وكانت فصائلنا قد تمكنت خلال هذه المدة من الاستيلاء على عدة منبسطات من الأرض واستقبال ٣٠-٤٠ طائرة عليها.

اشتبكت فصائلنا المتقدمة مع العدو أكثر من مرة. لكن لم يتسنَّ لنا الاشتراك في هذه الاشتباكات. فقد كانت محطتنا هي المحطة المركزية وتحظى

بحماية جيدة. كان علينا أن نبقى في سلوفاكيا إلى حين وصول وحداتنا، إلا أن الموقف تبدل. فقد ضرب الألمان طوقاً مزدوجاً من الحصار حول المنطقة التي يشغلها المتمردون. وتلقت وحداتنا الأساسية أمراً بالاشتباك مع العدو، وهي تشق طريقها للخروج من الحصار، كما أُمرت بنقل قيادة السلوفاك بالطائرات. غادرت مجموعتنا على متن إحدى الطائرات الأخيرة. وكانت الوحدات الألمانية قد استولت حتى ذلك الحين على رأس الجسر بأكمله.

حطت بنا الطائرة إلى الجنوب من لفوف، وبلغنا المدينة متأخرين عن زملائنا الذين كانوا قد أُلحقوا مع محطة الإرسال بالفصيل السلوفاكي. وقد دمّر هؤلاء محطة الإرسال والسلاح الثقيل حين كانوا يشقون طريقهم للوصول إلى وحداتنا.

لم يضطر هؤلاء للاشتباك مع العدو إلا مرة واحدة، كما قالوا، وذلك حين كانوا في طريقهم للخروج من الحصار. وقد استغل الفصيل واقع أن الألمان لن يكونوا حتى ذلك الحين قد أطبقوا طوق الحصار بعد. ويدين زملاؤنا بنجاتهم للمخبرين الذين كانوا في الوحدات الألمانية.

حصلنا إثر عودتنا من وراء خطوط الجبهة على فترة نقاهة لمدة أسبوعين، مما أتاح لنا التجول في أرجاء أوكرانيا الغربية. وقد أدركت آنذاك، فحسب، ماذا تعني حركة العصيان خلف خطوط جبهتنا...

العنف يولّد العنف. أذكر أن أحد فصائل القوميين المتعصبين اقتحموا مركزاً حدودياً كان يُحتجز فيه أنصار لهم. وحين وصلت المفرزة السوفياتية لمد يد المساعدة، لم يكن قد بقي في المركز من يمكن إنقاذه. فقد ذُبح كل أفراد المركز. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها شيئاً مماثلاً.

إنه لأمر مفهوم حين يقتلون العدو في المعركة. لكن حين يقيّدون الجنود الأسرى إلى الأشجار ويحرقونهم... لقد صعقنا المشهد.

اصطدمت بالعنف في تلك الأيام من الطرف الآخر أيضاً. فقد حاصرت وحداتنا فصيلاً من المتمردين، أو كما كان يقال آنذاك، عصابة من القوميين.

عُرض عليهم الاستسلام، إلا أن المطوّقين رفضوا ذلك. تم عندئذٍ نقل ثلاث كتائب مدفعية إلى المنطقة وبدأت قصفها. وقد حدثني بعد ذلك زميل لي شارك في تمشيط المنطقة، فقال إنه لم يبق على قيد الحياة أحد بعد القصف. وكان ذلك في منطقة موستيسك. وقد علمت لاحقاً أن الجنرالين كونيف وبتروف خصّصا عشرة كتائب مدفعية لتطهير المؤخرة، كما قالا. وقد "طهّروا" المنطقة بهذه الطريقة بالذات. حتى حرس الحدود الذين كانوا موكلين بأمن المؤخرة، لم يخفوا امتعاضهم: "إنه عمل لا إنساني. كيف يمكن القيام بعملية توازي عمليات الجبهات تقريباً ضد شلّة من الناس".

وللإنصاف أقول إن وحداتنا كانت تتكبد خسائر كبيرة أيضاً. فقد كانت تتكرر بكثرة حوادث قتل الضباط وتخريب الاتصالات. وحين ابتعدت الجبهة نحو الغرب، أخذوا يستخدمون وسائل أخرى في مكافحة المتمردين. فكانوا، مثلاً، يستبدلون بثياب الجنود العسكرية ثياباً أخرى، وتقاتل مثل هذه التشكيلات على أنها فصائل تابعة للبندَريين[1]. وقد أصبحت هذه الطريقة شائعة على نطاق واسع اليوم.

كان من الصعب الاستكانة لكل ما كان يجري. فقد كنا ندين الضباط والجنرالات الألمان لقسوتهم في مكافحة الأنصار، في حين أن وحداتنا العسكرية كانت تستخدم نفس الأساليب، بل وأساليب أكثر وحشية أحياناً. فقد كانت تُحرق قرى بأكملها.

ترك المعتقلون من المتمردين انطباعاً شديداً في نفسي. كثيرون منهم كانوا في مثل عمري. وكانوا شباناً متعلمين مقتنعين بصوابية ما يقومون به. ولم يكن من النادر أن تصادف طلاب جامعات بينهم.

أذكر فتى ألقي القبض عليه وهو مصاب بجراح بليغة. كان على صلة بقادة الفصائل، لكنه تصرف بشجاعة أثناء التحقيق ولم يقل كلمة واحدة.

---

(١) نسبة إلى ستيان بنديرا، زعيم القوميين الأوكرانيين - المترجم.

حدّثت والدي عن كل ما رأيت في أوكرانيا الغربية، فعلّق قائلاً :

- وما الذي يدهشك؟ هؤلاء الناس يقاتلون من أجل أوكرانيا المستقلة. هذا ما حصل في جورجيا أيضاً، ويمكن أن يحصل في أي مكان آخر. لا يمكنك أن تجعلهم إلى جانبك بقوة السلاح...

كان والدي يعتبر أن الاتصال مع الألمان هو الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه قادة حركة التحرير. وأذكر أننا تحدثنا طويلاً عن "مازيبه"[1] وعن الحالات المشابهة في تاريخ جورجيا والعالم.

كانت تتوفر لدى مخابراتنا إمكانية التخلص من قادة حركة التحرر الوطني، إلا أن والدي، ولسبب ما، كان مقتنعاً أن هذه القوة يمكن استخدامها ضد الألمان. من هنا كان ينبع موقفه من هذه الحركة.

وأنا أعرف أنه كان يقف موقفاً حازماً ضد استخدام تشكيلات مفوضية الداخلية متنكرة بثياب المتمردين. ومثل هذه الاقتراحات كان يتقدم بها حتى أقرب الناس المحيطين به.

كان والدي يردّ بقوله:

- لا يجوز بحالٍ من الأحوال السماح بمثل هذه الأمور، فمن دون ذلك تساندهم أوكرانيا الغربية كلها.

لقد تعاملوا بعد الحرب، وللأسف، تعاملاً قاسياً للغاية مع المتمردين. فبعد أن أعلنوا أنه سيتم الصفح عن الجميع، استدرجوا الكثير من الغابات وساقوهم مع أُسَرهم إلى التعذيب.

أذكر أن والدتي تسلّمت رسالة من صديقتها أيام الشباب يلينا ستوروا، التي كانت تعيش آنذاك في أوكرانيا. كان زوجها، وهو شخص مبدع في حقل

---

(١) مازيبه إيفان ستيبانوفيتش ١٦٤٤ - ١٧٠٩. تولّى إدارة أوكرانيا التي كانت جزءاً من روسيا بين العامين ١٦٨٧ و١٧٠٨. كان ينادي بفصل أوكرانيا عن روسيا، وتحالف مع السويديين ضد روسيا - المترجم.

الفلسفة، قد اعتقل أثناء حملة القمع الجماعي. وكانت يلينا ستوروا تنشط من أجل الآخرين الذين كانوا في وضع مشابه. وكتبت لوالدتي عن عدد من طلبة الجامعات الذين شاركوا في حركة التحرر الوطني وصدّقوا أن السلطة السوفياتية قد غفرت لهم.

سألت والدتي: كيف ذلك؟ تقول يلينا إنهم قد خدعوا جميع هؤلاء الناس.

قال والدي إن الأجهزة الحزبية هي التي تولّت المبادرة في حملات القمع، والقرار نفسه أعدّه نيكيتا سرغييفيتش خروتشوف. وكما حدث أكثر من مرة في حياته، لم يلق والدي آنئذٍ آذاناً صاغية. وبين التهم العديدة التي سيقت ضده فيما بعد كانت التهمة التالية أيضاً: "تبرير سلوك القوميين الأوكرانيين".

لست أدري ما السبب، إلا أن والدي كان دوماً يبدي اهتماماً كبيراً بأوكرانيا. قرأت مرة أنه لم يكن من كتب في بيتنا سوى كتب ستالين. هذه الكتب بالذات لم تكن موجودة عندنا، في حين أنه كان لدينا مكتبة لا بأس بها. وكانت تضم أدبيات كثيرة حول تاريخ أوكرانيا. كان والدي يقول إن ثمة أموراً كثيرة تجمع بين أوكرانيا وجورجيا كما هي الحال، مثلاً، بالنسبة للشخصيات التاريخية العديدة التي أكرهت على الخيانة من أجل تحرير الوطن. وتذكّر غير مرة، كما أشرت سابقاً، غاتمان[1] أوكرانيا مازيبه.

دُهشت حين علمت منذ مدة غير بعيدة أن إحدى الصحف الأوكرانية الغربية أوردت خبراً مفاده أن والدي زار، في العام ١٩٤٥، تلك المناطق بهدف تنظيم التهجير الجماعي لسكانها. لن أغوص في الحديث لنفي التخطيط لمثل هذا العمل، فحسب، بل أعتقد أن صاحب العقل المريض فقط يمكن له أن يفكر بمثل هذا الأمر. ومهما يكن فإن والدي لم يقم في يوم من الأيام بزيارة أوكرانيا الغربية.

إن الخفة التي تميّز مثل هذه المقالات تثير الدهشة. لكن دعك من

(١) الحاكم الأعلى بالأوكرانية القديمة - المترجم.

الصحافيين، فرجال العلم كثيراً ما يخطئون على هذا النحو بحق الحقيقة التاريخية. فقد نُشر في السنوات الأخيرة الكثير مما يسمّى بالأبحاث حول "الصفحات البيضاء" في تاريخ الحرب الوطنية العظمى. وأكثر ما يدهش في الأمر أنهم يبحثون عن الأسرار حيث لا وجود لها. فالمؤرخون المعاصرون يتساءلون لماذا لم تقدّم القوات السوفياتية المساعدة لانتفاضة فرصوفيا؟ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ظهر من يؤكد أن ستالين منع "القلاع الطائرة" الأميركية التي كانت ترابط في بولتافا من مساعدة الانتفاضة من الجو.

لكن ما من سرّ في الأمر. فالقوات السوفياتية التي كانت تحرِّر بولونيا قطعت مسافة جعلتها، وفق الحسابات التحليلية العسكرية، عاجزة عن القيام بقفزة أثناء مسيرتها. كما أن تقدُّم قواتنا اللاحق، وهذه حقيقة أيضاً، كانت تحول دونه خطوط الاتصالات التي أصبحت مديدة للغاية، وكذلك الجسور المدمرة وما إلى ذلك. فلم يكن قد تبقّى لدى روكوسوفسكي، على سبيل المثال، الاحتياط اللازم من قذائف المدفعية، عداك عن سواها. كان الجيش قد نفدت قواه، وكان يستحيل عليه اجتياز حاجز مائي[1]. فقد قطعت قوات الجبهة الأوكرانية الأولى والجبهة البيلوروسية الأولى مسافة ٧٠ كيلومتراً خلال ٤٠ يوماً، وكانت تخوض معارك قاسية شمال فرصوفيا وجنوبها، ولم يكن بوسعها القيام بالمساعدة الفورية للانتفاضة. إن هذه الحقيقة التي يحاول مؤرخونا التشكيك فيها اليوم، قد أصبحت حقيقة معترفاً بها منذ فترة بعيدة من قبل زملائهم الإنكليز، مثلاً. لكن الأمر في حقيقته لا يتعدى كونه تزويراً للتاريخ لا أكثر.

إن الانتفاضة نفسها التي دفع الإنكليز البولونيين للقيام بها، لم تكن تمليها أية ضرورة عسكرية على الإطلاق. فهي لم تكن عملاً عسكرياً، إنما عمل سياسي بحت، دفعت إليه روح المغامرة لدى الحكومة البولونية في المنفى.

فكما كان الأمر في سلوفاكيا كذلك كان هنا. فقد كانوا يحاولون وضع

(١) نهر فيسلا - المترجم.

المتمردين في مواجهة الوحدات السوفياتية والبولونية المتقدمة، والتي كانت تستعد لتحرير فرصوفيا.

لقد كان الألمان يعلمون جيداً أن القوات السوفياتية كانت قد أُنهكت جداً خلال المعارك السابقة، إضافة الى أن التفوق كان إلى جانب المحتلين دون شك، وهو الأمر الذي كان منظّمو الانتفاضة يعرفونه أيضاً. إلا أن قادة جيش كرايفو استبقوا الأحداث وقاموا، دون أن ينسّقوا مع قيادة القوات السوفياتية، بدفع الناس للانتفاض ضد الألمان، عاملين على الاستيلاء على السلطة. فلو كانوا قد نسّقوا نشاطهم مع قيادة الجبهات السوفياتية لكان من الممكن كلياً إحراز نتيجة عسكرية ما. لكن ما حصل، في فرصوفيا كان عكس ذلك تماماً. فقد دُمّرت المدينة تدميراً شبه كامل، وقتل ٢٠٠ ألف نسمة من سكانها. ومهما يبدو الأمر مرّاً، إلا أنه يجب الاعتراف بأن هؤلاء الضحايا كان مخططاً لهم في الحقيقة.

كان الإنكليز يعتبرون أن الأمر لصالحهم في مطلق الأحوال. فإذا افترضنا أن وحدات الجيش الأحمر سوف تتقدّم عبر جهود استثنائية إلى فرصوفيا، فإن شرف تحرير المدينة لن يكون من نصيبها. وأما إذا لم تتقدم هذه الوحدات للمساعدة فذلك أفضل، لأن الأمر سيكون بمثابة وصمة في سجل الجيش الأحمر.

ما أعرفه أيضاً هو أن قيادة الوحدات السوفياتية كانت على استعداد لإقامة اتصال مع قادة الانتفاضة، وإن لم تكن مثل هذه الأمور قد جرى التخطيط لها آنذاك. إلا أن هؤلاء رفضوا مجرد إرسال مندوبين عنهم إلى مقر روكوسوفسكي.

من المعروف أن الطيارين السوفيات وطيران الوحدات البولونية[1] قد قاموا بآلاف الطلعات لرمي الأسلحة والذخائر والأدوية والغذاء للمنتفضين. لقد رموا آلاف الأطنان منها، إلا أن القيادة البولونية عملت ما بوسعها للحؤول دون

(١) الوحدات التي كانت إلى جانب السوفيات - المترجم.

وصول هذا كله إلى التشكيلات الموالية للسوفيات. وكثيراً ما كانت الأسلحة والذخائر ترسل إلى المستودعات فوراً ولا تصل الى أيدي المتمردين.

أما في ما يتعلق بالقول إن القيادة السوفياتية كانت تعرقل المساعدة من قبل الطيران الأميركي، فالحقيقة هي أن الحلفاء كانوا يرمون الحمولة من ارتفاع يراوح بين ستة وتسعة كيلومترات. ومن الواضح كلياً أن جميع الأسلحة كانت تقع في أيدي الألمان. اقترح الجانب السوفياتي أن يأخذ على عاتقه تنفيذ هذه المهمة وينقل المساعدة الأميركية بواسطة طائراتنا الصغيرة. فالطائرات الأميركية كانت طائرات بأربع محركات ولم يكن بوسعها التحليق على علو منخفض، لأن الألمان كانوا يملكون دفاعات قوية مضادة للطيران. فقد كانت مدافعهم الرشاشة المضادة للطيران تصيب الهدف على ارتفاع يصل إلى سبعة أو ثمانية كيلومترات.

كانت طائراتنا ترمي السلاح والذخيرة من علوٍّ منخفض جداً. ومع ذلك، كان الكثير منهما يقع في أيدي الألمان. فكيف إذا كانت تقوم بذلك الطائرات الأميركية.

تلك هي الحقائق. لكن ثمة حقائق أخرى أيضاً. إن البعض لا يرغب في أن يتذكر اليوم أن الجنرالات البولونيين أجروا مفاوضات مع الألمان واستسلموا للأسر. لكن يبدو أن كثيرين اليوم هم، بكل بساطة، ليسوا بحاجة إلى التاريخ الحقيقي للحرب العالمية الثانية.

لكن مع ذلك، سوف أحاول الإجابة عن بعض أسئلة المؤرخين، وأقصد بذلك تلك "الصفحات البيضاء" التي تثير قلق معاصرينا.

هل كان يزمع ستالين الانضمام الى الحلف الألماني الياباني الإيطالي الثلاثي خريف العام ١٩٤٠؟

كلا بالطبع. بل على العكس، فالوثائق المحفوظة ليس في أرشيفنا، فحسب، بل في الأرشيف الألماني والإنكليزي والأميركي تؤكد الموقف المبدئي للجانب السوفياتي في المفاوضات. فحين كان الألمان يحاولون توريط الجانب

السوفياتي أو توريط مولوتوف شخصياً في مناقشة مسائل مماثلة، كان يتم صدهم على نحو حازم. فقد كانت وجهة نظر القيادة السوفياتية هي التالية: لا يمكن الحديث عن أي تقسيم للعالم أو مناطق النفوذ خارج إطار مصالحنا المباشرة ومصالح البلدان المجاورة لنا. أما الألمان، وهذه حقيقة، فكانوا يحاولون بشتى السبل توريط الجانب السوفياتي في مناقشة مثل هذه المسائل. وكان هدفهم واضحاً للغاية آنذاك أيضاً، إذ كانوا يلعبون لعبة مزدوجة.

هل كان اتحاد الدول الغربية مع الاتحاد السوفياتي ممكناً؟ وهل كان بالوسع تفادي وقوع الحرب العالمية الثانية ؟

ثمة جواب واحد هنا أيضاً. فنظام الأمن الجماعي كان بوسعه أن يعمل حتى في ذلك الوضع الدولي المعقد، فيما لو كان موقف الدول الغربية مغايراً. فمعلومات المخابرات التي كان يتلقّاها والدي كانت تشير إلى سعي الغرب لزجّنا في مواجهة مع الألمان. ونسمع أكثر فأكثر اليوم أن الاتحاد السوفياتي هو المسؤول عن اندلاع الحرب. إنه كذب وقح، بالطبع. ولا يخفى الأمر أنه قد وقعت أخطاء، وأخطاء مباشرة في التقديرات من قبل القيادة السوفياتية، لكن ما حدث تتحمل مسؤوليته الدول الغربية بشكل أساسي. فهي لم تدفع هتلر للحرب فحسب، بل كانت تعرقل دائماً إنشاء نظام أمن جماعي.

فمن غَيرُ هذه الدول بذل ما بوسعه لكي تمنع بولونيا قواتنا من عبور أراضيها؟ مَن طلب من الاتحاد السوفياتي الدخول في الحرب دون تقديم أية ضمانات له ؟ مَن قطع المفاوضات معنا وواصل التفاوض مع ألمانيا النازية؟ أليس من اللافت، وهو ما يحدث للمرة الأولى، أن تؤجّل المرة تلو المرة مواعيد نشر الوثائق المتعلقة بهبوط هيس بالطائرة في بريطانيا والمفاوضات التي أجرتها الحكومة البريطانية مع الألمان؟

يضيع المؤرخون وسط التخمينات، مع العلم أنني سمعت، إبان الحرب، أن نصوص محاضر جلسات جميع المفاوضات التي أجراها حلفاؤنا اللاحقون مع الألمان قد وصلت إلى الاتحاد السوفياتي. وقد وصلت، على ما أعرف، من

مصدرين: ألمانيا وبريطانيا. وكانت تلك من الحوادث النادرة حين تتطابق المعلومات التي تحصل عليها المخابرات من بلدان مختلفة.

إنني أفهم لماذا لا يكشف البريطانيون عن مثل هذه الوثائق. لكن ما الذي يمنع المؤرّخون الروس، مثلاً، من إيضاح الأمور؟

هل كان وقع هجوم هتلر على بولونيا لو لم يعقد الاتحاد السوفياتي معاهدة عدم اعتداء؟

للأسف، لقد كان مصير بولونيا محسوماً في مختلف الأحوال. أما لماذا تم توقيع المعاهدة، فليس في الأمر سر. وأذكر حديثاً جرى مع والدي حول هذا الموضوع؛ قال والدي:

- وهل يعقل أنك لا تعرف؟ الحرب ستقع، بالطبع، إلا أننا بحاجة لكسب الوقت.

لقد كان الأمر سيان بالنسبة لمصير بولونيا، سواء كنا وقّعنا أم لم نوقّع هذه المعاهدة. فقد كان هتلر يعرف معرفة دقيقة للغاية أن الغرب، إذ يدفع ألمانيا للحرب مع الاتحاد السوفياتي، لا يريد هو نفسه أن يحارب.

لم تتح لنا المعاهدة تأجيل الصدام مع ألمانيا، فحسب، بل سمحت أيضاً بإنقاذ جزء من بولونيا كي لا يقع تحت أقدام المحتلين. إن أحداً لا يشكك اليوم بضرورة توحيد مناطق بيلوروسيا الغربية وأوكرانيا الغربية. ولو حدث غير ذلك لكانت وقعت هذه المناطق آنذاك بأيدي الهتلريين؛ الأمر الذي لم يكن موضع شك حتى لدى الإنكليز آنذاك.

أظن أن الأحداث كان يمكن أن تتطور على نحو مختلف إلى حد ما. فلو وقفت البلدان الغربية موقفاً حازماً، لكان من الممكن أن تجري مفاوضات ما، ولكانت الحرب قد بدأت في وقت لاحق. إلا أنه كان من غير الممكن تفادي وقوعها، فالنازيون كانوا يسعون إلى السيطرة على العالم. لقد كانت طبيعة الفاشية نفسها تتطلّب حرباً كبيرة. وإذا أخذنا بالاعتبار أن سياسة ألمانيا هذه قد تقبّلها الغرب من دون مقاومة، فإن الحرب كانت حتمية.

أسمح لنفسي بالإعراب عن الاعتقاد التالي: إنني على قناعة مطلقة (على الأقل لدي ما يكفي من الأسباب لأفكّر على هذا النحو) بأن الألمان لم يهاجموا الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٤١، لو لم يدفعهم الى ذلك الإنكليز. إنه رأيي الشخصي الخاص، لكنني أعتقد بأن القضية كلها تقوم على ما قطع من وعود بتنازلات جيوسياسية هائلة على الصعيد العالمي... لقد كان كل شيء معدّاً لغزو بريطانيا، ولم يكن في الأمر أي تمويه! لكن مخططات هتلر تبدّلت بعد ذلك فجأة... حين أبلغ تشرشل أن الألمان عبروا حدود الاتحاد السوفياتي، قال جملته الشهيرة: "لقد نجت بريطانيا؟". وكانت تلك الحقيقة بعينها. أعتقد أن المفاجآت الحقيقية لا تزال بانتظار مؤرّخينا والمؤرّخين الأجانب...

كم من الأساطير يجري التداول بها حول دخول قواتنا بولونيا. لقد عبر الجيش الأحمر الحدود في ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٣٩، وبسط سيطرته على الأراضي التي كان ينبغي أن يتسلّمها الاتحاد السوفياتي بموجب بروتوكول سرّي يعود تاريخه إلى ٢٣ آب/أغسطس، ويندرج بين الوثائق التي لم يتمكّن من العثور عليها آخر أمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي...

يتحدّثون ويكتبون كثيراً اليوم عن التعاون بين القوات الألمانية والسوفياتية، وعن العلاقات الوثيقة بين مفوضية الداخلية (NKVD) والغوستابو. ووصل بهم الأمر أن يكتبوا أن فورشيلوف تسلّم طائرة هدية من غيرمان غيرنغ. إن هذا كله محض كذب. فمع كل ما أشعر به من كراهية تجاه فورشيلوف منذ أيام الحرب، لكن لم تكن له أية صلات مع قيادة ألمانيا العسكرية (لا العسكرية ولا السياسية). فكما هو معروف، لم يكن بوسع أي عضو في المكتب السياسي أن يتّخذ مبادرة في قضايا السياسة الخارجية آنذاك. فقد كانت الأمور مقننة لدرجة كانت تناقش معها كل كلمة تقريباً، وصولاً إلى الطريقة التي تلفظ بها... كان الاتصال مع الألمان على مستوى قائد الفيلق إذا نشأت ضرورة لذلك، ومع هذا كان الأمر بحاجة لإذن من وزير الدفاع. كانت تنشأ لجان محلية غير حكومية للفصل بين الوحدات. وأفترض أنه في هذه الحالة فقط كانت تجري اتصالات ما، إلا أنها مع ذلك مقننة للغاية. وبالتالي يستحيل الحديث عن أي تعاون من

أي نوع كان بين الوحدات الألمانية ووحدات جيش العمال والفلاحين الأحمر(RKKA).

أعرف من الماريشال تيموشنكو أننا قمنا بتجهيز فيالق ضاربة كان بوسع قيادة الجيش الأحمر استخدامها (كان يوجد مثل هذا الأمر) في حال تخطّي الألمان خطوط التمركز المتفق عليها. كان على القيادة أن تبعد الألمان بواسطة الضربات (!) إلى خلف حدود الأراضي التي تعود للاتحاد السوفياتي بموجب البروتوكول السري. بل وأكثر من ذلك، كانت قد أُعدّت خطة لا أعرف تفاصيلها لتطوير مثل هذه الضربات إلى هجوم حتى بلوغ حدود المانيا.

لكن الأمور بقيت مرهونة ببلدان الغرب. فقد استمرت المفاوضات معها حتى بعد التوقيع على الحلف السوفياتي الألماني، ولو أن الاتحاد السوفياتي حصل على الضمانات اللازمة لكانت الأحداث تطورت على نحو مغاير...

لم أر مثل هذه الأوامر، غير أن الأحاديث التي تسنّى لي أن أسمعها كانت تؤكد وجود مثل هذه الخطة. إضافة إلى أن تمركز قواتنا على الحدود الغربية كان تأكيداً غير مباشر لوجودها. فقد كانت القوات تتمركز بأعداد تفوق، بكل المعايير، الأعداد التي يتطلبها الموقف. أضف إلى ذلك أن الجيش البولوني لم يقاوم جيش العمال والفلاحين (RKKA). وأقول ذلك خلافاً للرواية الشائعة عن معارك سوفياتية بولونية. وبالعكس فإن وحدات الجيش البولوني التي لم تفرّ إلى رومانيا من وجه الألمان لجأت إلينا.

إن الكثير من الوحدات المدرعة ووحدات الطيران التي كانت متمركزة عند الحدود لم تتمكن من المشاركة في المعركة. لكن التمركز الكثيف جداً للقوات كان يشير، كما قلت، إلى أن هذه الوحدات كانت مخصصة لغرض آخر تماماً.

لو قام مؤرّخو ما بعد الشيوعية بتحليل الوضع الذي نشأ آنئذٍ، لكانوا اقتنعوا بسهولة أنه، باستثناء المعاهدة الشكلية، لم يكن يربط الاتحاد السوفياتي بألمانيا أي شيء.

من الوقائع ذات الدلالة الكبيرة أن الجانب السوفياتي تنصّل من اقتراح

ألمانيا تبادل رجال المخابرات المعتقلين من قبل الأجهزة المختصة في البلدين. وهذا كان في ظل الحلف السوفياتي الألماني.

إن التأكيدات، التي تقول بأن الاتحاد السوفياني سلّم ألمانيا أخصامها السياسيين، هي تأكيدات باطلة كلياً. ففي صفّي وحده كان يدرس ثمانية أطفال ألمان. وكان يوجد في مدرستنا حوالي مئة طفل من أبناء المناهضين للفاشية. وأعتقد أنهم كانوا سيعلمون بحوادث من هذا النوع لو كانت صحيحة. وعلى العكس، فقد كانت أسر المعادين للفاشية تعيش على حساب الدولة كلياً. وحين بدأت الحرب انخرط معظم هؤلاء في قتال العدو خلف خطوطه. وقد غدا كثيرون منهم رجال مخابرات ورجال مظلات.

لم يصعد أحد من زملائي في المدرسة صعوداً سريعاً في سلّم الوظيفة في ألمانيا الديموقراطية. إلا أن البعض منهم وصل إلى مناصب مرموقة إلى حد ما، فقد أصبح بيتر فلوريان، مثلاً، نائباً لوزير الخارجية. البعض منهم استمر في الخدمة بالجيش ومخابرات الدولة الألمانية الفتية. لكن المناصب العليا لم يحتلها أولئك الذين خاضوا غمار الحرب، بل أولئك الذين كانوا يقيمون في المؤخرة السوفياتية منتظرين دحر الفاشية. وسرعان ما شغلت القيادة الحزبية العليا جميع المناصب القيادية الرفيعة تقريباً...

وفي العودة إلى مسألة الأمن الجماعي، أود أن ألفت نظر القارئ إلى تأكيد آخر كاذب: يستشهد المؤرخون أحياناً بوثائق عثر عليها في أرشيف السياسة الخارجية الروسية تشير إلى استعداد بريطانيا والولايات المتحدة لتقديم المساعدة الفعّالة إلى الاتحاد السوفياتي في حال الحرب مع ألمانيا. إن في الأمر مغالاة. فقد كان من الأفضل نشر هذه الوثائق وإعطاء الشروح المناسبة لها. لكن، ولسبب ما، لا أحد يقوم بذلك، ويجري تضليل الرأي العام عمداً.

أعلم عن أية وثائق يتحدثون. إنها مشاريع الاتفاقات التي أعدّها الاتحاد السوفياتي من أجل إنشاء نظام الأمن الجماعي ذاك، الذي لم ينشأ بسبب الدول الغربية. فقد أعلن الجانب السوفياتي بوضوح تام عن عدد التشكيلات المدرعة

والتشكيلات البحرية وتشكيلات الطيران والمشاة، المستعد لِزجّها في الصراع ضد العدو. بيد أن الحكومة البولونية رفضت الاقتراح، واكتفت بريطانيا وفرنسا بتصريحات ذات طابع عام. وكانتا على استعداد لِزجّ ثلث تشكيلاتهما ضد ألمانيا في حال تكللت المفاوضات بالنجاح. وهذا لا يعادل أكثر من عشر ما كان يقترحه الاتحاد السوفياتي. إضافة الى ذلك، أعلن المفاوضان الفرنسي والإنكليزي أنهما ليسا مخوّلين التوقيع على هذه الوثائق. بمعنى آخر، كانت اللعبة لا تزال مستمرة. أما ماذا كلفت هذه اللعبة شعوب أوروبا؟ فقد أصبحنا نعرف ذلك منذ زمن بعيد...

نشرت في بريطانيا مذكرات بعض الأشخاص الذين يؤكدون أن تشرشل كان يزمع، منذ ذلك الحين، الكشف عن الوثائق المتعلقة بالمحادثات التي أجراها الإنكليز مع هيس. كما كان تشرشل يزمع التحدث في مجلس العموم حول هذا الأمر. وقد تردد طويلاً، إذ كان يدرك أن مجلس العموم سوف يصوّت لصالح التحالف مع ألمانيا. ومهما يكن، لم يقدم تشرشل على هذه الخطوة، بل أقدم، هو والناس الذين يملكون تأثيراً عليه، على خيار آخر. غير أن الواقع يبقى هو الواقع، فالحلفاء اللاحقون كانوا حتى اللحظة الأخيرة لا يستعجلون دخول حلبة الصراع مع الفاشية.

وكما نرى، فإن الباحثين المستجدين في شؤون الحرب العالمية الثانية يتجنّبون الحقيقة حين يتحسرون عادة على غياب الأجوبة عن الأسئلة التي تقلقهم. فالأمر لا يتطلّب أكثر من البحث في الوثائق المحفوظة في الأرشيف. لكن بعض العلماء والكتاب يختارون، للأسف، طريقاً مغايرة. فلا تزال تدور شائعات مكثفة، مثلاً، حول تعاون وثيق بين مفوضية الداخلية(NKVD) والغوستابو في الصراع ضد الشعب البولوني. إن هذا كله ما هو إلا تلفيق، تماماً شأن المزاعم التي تقول إنه قد أنشئ في العام ١٩٤٠ في ذاكوبان مركز تدريب مشترك كان ضباط مفوضية الداخية يتلقون التدريب فيه سوية مع الضباط النازيين. ومع ذلك، فإن مثل هذه المزاعم تنتقل في السنوات الأخيرة من كتاب إلى آخر ومن مقالة إلى أخرى. ويتم الأمر، بالطبع، دون الاستناد إلى أية وثيقة. وهذا، للأسف، ليس المثال الوحيد على التزوير بأبسط أشكاله.

وفي الوقت نفسه، كانت هناك قضايا تحتاج، بالفعل، إلى إلقاء مزيد من الضوء عليها.

من المعروف أنه في ربيع العام ١٩٤٣ أرسل روزفلت إلى موسكو مبعوثاً خاصاً هو السفير السابق في الاتحاد السوفياتي ج. ديفيس. وحمَّله رسالة سرية إلى ستالين، واقترح عقد لقاء غير رسمي: "إما على جانبكم وإما على جانبنا من مضيق بيرنغ". ولم يكن ينبغي أن يشارك تشرشل في اللقاء، كما أن عدد الأشخاص المرافقين لزعيمي البلدين كان ينبغي أن يكون محدوداً للغاية. واقترح أن يركّز اللقاء على "مناقشة المسائل الحربية في البر والبحر". أعطى ستالين موافقته المبدئية، شرط أن يشارك تشرشل في اللقاء المقبل. بيد أن اللقاء لم يعقد. لكن ماذا كان يريد روزفلت أن يقول لستالين؟ سؤال يطرحه أحد المؤرخين الروس المعاصرين. هل كان من المحتمل أنه كان يريد اطلاع الاتحاد السوفياتي على سر "مشروع مانهاتن"[1]؟

لم يكن في نية أحد قطّ إطلاع الاتحاد السوفياتي على سرّ "مشروع مانهاتن"، وإلا لما كانت المخابرات السوفياتية مضطرة لبذل كل تلك الجهود الهائلة لبلوغ ذلك الهدف... أما الموضوع فكان التالي: لم يكن روزفلت يخفي أنه حليف بريطانيا في الصراع ضد الفاشية، لكن أبداً ليس حليفها في المحافظة على الإمبراطورية البريطانية. وكان هذا يبرز أحياناً في أبسط التفاصيل. فحين رُفع في أحد اللقاءات كأس ملك بريطانيا رفض روزفلت، مثلاً، رفع كأسه. وقد خرج ستالين من هذا الموقف بقوله:

- إنه ليس ملكنا بل ملكهم، فلنشرب نخبه...

لقد كانت لأميركا روزفلت نظرتها الواضحة المحدّدة إلى عالم ما بعد الحرب، والتي كانت تتطابق في جزء كبير منها مع نظرة الحكومة السوفياتية. لكن الأمر كان مختلفاً مع الإنكليز. فقد كان هؤلاء أقرب إلى موقع المواجهة، التي ما لبثت أن بدأت بعد النصر.

---

(١) مشروع القنبلة الذرية الأميركية الذي كان يترأسه العالم الفيزيائي الشهير أوبنهايمر - المترجم.

أما بالنسبة لسرية مثل هذه المفاوضات، فإنني أجرؤ على القول إنه كان يمكن إجراؤها حتى في ظل اللقاءات الثلاثية. وهذا فعلياً ما جرى في طهران عام ١٩٤٣. فقد عرض روزفلت هناك أمام ستالين وجهة نظره على نحو دقيق للغاية حول مستقبل ألمانيا ودورها في أوروبا ما بعد الحرب، وحول دور بريطانيا وأميركا أيضاً. وأغلب الظن أن تشرشل قد علم بأمر هذا الحديث بين ستالين وروزفلت. على كل، لم يكن روزفلت يخفي آراءه عن تشرشل أيضاً.

إن المؤرخ الروسي محقّ، فذلك اللقاء الذي يتحدّث عنه قد خطط روزفلت، بالفعل، لعقده. إلا أنه لم يعقد. فقد عرض ستالين (وينبغي أن تكون رسالته محفوظة في الأرشيف) موقفه بوضوح تام، وعرضه على النحو التالي تقريباً: "ليس من المرغوب فيه أن ينشأ سوء تفاهم بين الحلفاء، كما حدث غير مرة في تاريخنا غير البعيد..." تذكّروا مفاوضات بلدان الغرب تلك مع الألمان...

لماذا تمت تصفية الكومنترن بهذه العجلة في أيار/مايو ١٩٤٣؟ فقد بقي العاملون في هذه المنظمة الدولية حتى اللحظة الأخيرة لا يعلمون شيئاً عن حلها.

إن اهتمام المؤرخين أمر مفهوم. فلا شك أن ذلك كان خطوة مفاجئة للكثيرين. فلماذا حصل ما حصل؟ إن القيادة السوفياتية التي كانت في تحالف مع الديموقراطيين الغربيين، قد أظهرت عن طريق هذه الخطوة أن الاتحاد السوفياتي قد بدّل موقفه. فقد تخلّينا عن المركز الواحد الذي كان حتى ذلك الحين يقود نشاط الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى، أي أن نشاط هذه الأحزاب ينبغي أن يحمل في المستقبل طابعاً مستقلاً كلياً. فمن خلال هذه الخطوة تخلّى أحد أطراف التحالف المعادي لهتلر عن فكرة الثورة العالمية التي كانت تجري الدعوة لها خلال عشرات السنين.

إلى أي مدى كانت هذه الخطوة تضليلاً وإلى أي مدى كانت حقيقة؟ إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه، في الحالة الراهنة، لم يكن يوجد أي تلاعب من جانب

القيادة السوفياتية. لكن حين أخذ عدد من الأحزاب الشيوعية ينشط على نحو مستقل، بدأ هذا الأمر يثير غضب القيادة الحزبية العليا. فقد واجهت هذه القيادة بعض خطوات الشيوعيين اليوغسلاف، مثلاً، بعنف شديد. وفي النتيجة قامت مجموعة جدانوف- مالينكوف بإنشاء "كوم انفورم" الذي لم يكن سوى الكومنترن في الحقيقة.

كثيراً ما يطرحون السؤال التالي: هل التقى بيريا الجنرال أندريه فلاسوف، القائد السابق للجيش الثاني الضارب في جبهة فولخوف، بعد اعتقاله في أيار/ مايو ١٩٤٥؟ البعض يحاول التأكيد أنه قد تسنّى لماريشال الاتحاد السوفياتي ل. بيريا استجواب قائد "جيش التحرير الروسي" الذي انتقل إلى صف ألمانيا الفاشية...

لم يلتق والدي فلاسوف قط. وجميع الأقاويل حول استجواب هذا الخائن هي مجرد أوهام لا أكثر. كما لم تكن له أية علاقة باعتقال فلاسوف. فقد قامت بذلك المخابرات العسكرية، وقد يكون "بإيعاز" من المخابرات الاستراتيجية التي كان يترأسها والدي. إنني لست على علم بمثل هذه التفاصيل. وللحقيقة أقول، إنني لم أهتم بها قط. لقد قامت مديرية مكافحة الجاسوسية سميرش (SMERSH) بإلقاء القبض على قائد ما يسمّى "جيش التحرير الروسي"، وذلك لأن أجهزة مكافحة الجاسوسية العسكرية كانت تتبع آنذاك مفوضية الدفاع.

غير أن القضية ليست في من اعتقل فلاسوف واستجوبه، سواء كان والدي أو سواه. فقد كان والدي يعتبر الجنرال - ليتينانت السوفياتي السابق فلاسوف جباناً وخائناً ترك جيشه في اللحظة الحرجة. فهذا الخائن لم يستسلم بفعل قناعات فكرية ما، كما يحاولون أن يصوّروا أحياناً، إنما استسلم إنقاذاً لحياته لا أكثر.

لكن خيانة فلاسوف رمت بظلها على جيش بأسره قاتل بشرف وأبيد عن بكرة أبيه تقريباً. لم يكن الجيش الضارب الثاني يفكر بالاستسلام، وقد فرّ فلاسوف إلى الألمان بمفرده. ولست أدري ما إذا كان فلاسوف، قَبْل الأسر،

معادياً للسلطة السوفياتية أم لا، إلا أن قناعاته هذه إذا صح أنها كانت موجودة، لم تبرز، كما هو معروف، لا قبل الحرب ولا في المرحلة الأولى منها.

بعد مرور كل هذه السنين، كان يمكن للمرء على الأقل، أن يتفهّم فلاسوف، إن لم يصفح عنه، فيما لو كان قد أقدم على مثل هذه الخطوة من أجل إنقاذ جيشه. لكن هذا لم يحدث. وبالتالي، لا يستحق الأمر أن نجعل من الخائن مناضلاً فكرياً من أجل تحرير روسيا.

كيف حدث أن الجيش الأحمر، الذي أبعد الألمان عن موسكو، تراجع حتى الفولغا والقفقاز؟

لقد أدرك الألمان أنه لم يعد بوسعهم شن هجوم على طول الجبهة كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين. وبدَّل هتلر خططه، وكانت مخابراتنا على علم بأن العدو سوف يتجه نحو حقول النفط، ويحاول لاحقاً الخروج عبر إيران والعراق إلى الشرق الأوسط. وكان هذا كفيل بإشراك تركيا في الحرب، كما كان يفترض هتلر.

كان الألمان يخططون للخروج إلى الهند عبر حدود باكستان الجنوبية. وكان قد أُعدّ فيلق خاص سمّي بالفيلق الهندي. وكان هتلر والمحيطون به يعتبرون أن شعوب القفقاز والشعوب الأخرى سوف تستقبل الجيش الألماني استقبال الجيش المحرِّر. لكن كل شيء جرى على نحو مغاير، كما بيّن التطور اللاحق للأحداث.

لم يكن سرّاً أيضاً أن الألمان كانوا سيزحفون على ستالينغراد. وكان هدفهم معروفاً، وهو عزلنا عن مناطق النفط. وكان هتلر يعتبر أن وحداته سوف تشق طريقها بسرعة خاطفة إلى القفقاز، ولن تواجه مقاومة جدية. وهذا أيضاً كان خطأً واضحاً في الحساب.

كان الألمان يخططون لاستخدام جيش كلايست المدرّع، بعد العمليات في القفقاز، في ضرب طوق حصار كبير حول موسكو. وكانوا يعتبرون أن تقدم هذا

الجيش لاحقاً نحو إيران والعراق ليس أمراً ملائماً، اذ سوف تنشب انتفاضات هناك. وقد جرى التداول بهذه المعلومات في مؤتمر طهران عام ١٩٤٣. وكان الألمان يناقشون الأمر على النحو التالي آنذاك: الالتفاف نحو الشمال الغربي وعزل موسكو عن المؤخرات في حال تطورت الأحداث على نحو طبيعي. وبفضل المخابرات كان هذا معروفاً على نطاق واسع، سواء في الأركان العامة أو في الحكومة. وكانت مجموعة من العسكريين تعتبر أن الأمر ليس إلا مناورة من قبل هتلر لصرف انتباهنا، في حين أن الضربة الرئيسية سوف توجّه إلى الجبهة الغربية، أي إلى موسكو. أما جوكوف وفاسيليفسكي ووالدي فكانوا يصرّون على تعزيز مجموعة قواتنا شمالي القفقاز. غير أن ستالين ساند مجموعة ثالثة من العسكريين كانت تعتبر أنه ينبغي في هذه الفترة عرقلة فرض طوق حصار كبير حول موسكو. دافع جوكوف وفاسيليفسكي ووالدي عن اقتراحهم، إلا أن الكلمة الفاصلة كانت كلمة القائد العام الأعلى. وفي النتيجة لم نكن مستعدين كما ينبغي حين بدأ الألمان عملياتهم على الجناح الجنوبي. وبقيت في مكانها جميع الوحدات التي كانت ترابط للدفاع عن موسكو، وكانت تشكيلات كبيرة جداً. لم يكن قد أنجز تجميع القوات الجديدة بعد، إذ كانت موجودة وراء الفولغا، إلا أنها كانت قد بدأت بمد سكة حديدية إلى ستالينغراد دون أن تعرف أن خط الجبهة سيمرّ بهذا المكان. ولم يتم إعداد سوى بضع وحدات فقط لنقلها إلى القفقاز. وما جرى لاحقاً معروف جيداً من قبل مؤرخينا. وقد أجّل الألمان مواعيد العمليات لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر ثم بدأوا بالهجوم، فزحف جيش كلايست المدرع إلى القفقاز، أما جيش باولوس فاتجه نحو ستالينغراد.

لقد علمت منذ أواخر صيف ١٩٤٢، بأمر تركيز تشكيلات عسكرية ضخمة في ضواحي ستالينغراد. وقد تحدث بحضوري عن ذلك بودين مع شيمنكو، كما تحدث كل من تيولينيف ووالدي الذي قال آنئذٍ إن إبقاء جميع هذه التشكيلات في هذا المكان فقط أمر خاطىء. وقد اضُطر إلى نقل فرقة من قوات مفوضية الداخلية إلى ستالينغراد، كان يُزمع زجها في مواجهة جيش كلايست. وقد صمدت هذه الفرقة لاحقاً لمدة شهرين بمفردها في تلة ماماييف. وبقيت كلها تقريباً حتى النهاية هناك...

لقد سبق أن تحدثت عن الظلم الواقع على المحاربين القدماء الذين خاضوا القتال في وحدات مفوضية الداخلية (NKVD). إنها لعنة تلاحق هذه القوات، التي لم تقاتل قط أسوأ مما قاتلت وحدات الجيش. لكن الأحرف بذاتها (NKVD) تثير غضب المؤرخين الحاليين. لكن لماذا بوضع الجميع في نفس المستوى؟... فهؤلاء الجنود والضباط لم يشاركوا لا في حملات القمع الجماعي ولا في أي شيء آخر مشابه. وكانت هذه الوحدات بقيادة الجنرال ليتنانت ماسلينكوف، الذي كان قد أصبح قبل اندلاع الحرب نائباً لوالدي في حرس الحدود والقوات الداخلية. وقد علّل والدي اختياره هذا بأن ماسلينكوف عسكري نظامي وصاحب خبرة كبيرة. وحين اندلعت الحرب اقترح والدي تعيينه قائداً لمجموعة قوات شمال القفقاز، وهذا ما أصبح عليه ماسلينكوف. لكن غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف لم يكن يشعر بالود تجاهه. وطلب إلى والدي غير مرة قائلاً: "أبعده عني. فهو ليس قائداً عسكرياً، بل قائد أنصار..."

لعل جوكوف كان محقاً من وجهة نظره، إذ إن ماسلينكوف كان معتاداً في حينه مقاتلة العصابات التي كانت تجتاز حدودنا. لكن هذه الخبرة كانت مفيدة للغاية في ظروف القفقاز.

هل باع روزفلت نفسه لروسيا في يالطا ؟ لا تتعجب من هذا السؤال الغريب أيها القارئ. فبعض المؤرخين المعاصرين يطرحونه على هذا النحو بالذات. إجمالاً، ثمة الكثير من التحليلات الخاطئة تدور حول مؤتمر يالطا (أحياناً يسمّونه مؤتمر القرم)...

جاءت اتفاقية يالطا تتمة منطقية لمؤتمر طهران. وقد نشرت الوثائق منذ مدة بعيدة، وحظيت حتى اللحظة الأخيرة، على ما أعلم، بتفسير واحد لا غير. وحتى اليوم، إذ أقرأ هذه الوثائق من جديد لا أجد تعبيراً واحداً يحتمل تفسيرات مختلفة.

لقد استجاب روزفلت على نحو واع كلياً لمطالب محقة كلياً من جانب الاتحاد السوفياتي، فرضتها الالتزامات العسكرية التي أخذها على عاتقه حيال

اليابان. ولن يكون من المخاطرة بشيء اذا ما سمّيت هذه الخطوة تنازلاً للاتحاد السوفياتي.

لم يغدر روزفلت بأحد. فقد كان هذا سياسياً عظيماً. فلو قدّر له أن يعيش أكثر لكانت العلاقات السوفياتية الأميركية قد حملت طابعاً مغايراً كلياً. كان يمكن أن تجمعنا أمور كثيرة: فمن المؤازرة الاقتصادية إلى النضال المشترك ضد الاستعمار، كان روزفلت يرى في الاتحاد السوفياتي حليفاً له فيها.

لم يُقدِم الاتحاد السوفياتي برغبة كبيرة على تلك الالتزامات حيال اليابان (أعرف أن الجدل لا يزال قائماً بين المؤرخين حول هذه الالتزامات)، وكان لديه أسبابه الجدية لذلك. فاليابان، وإن يكن ليس بدافع الحب تجاه الاتحاد السوفياتي وإنما لأسباب أخرى، قد حافظت، كما هو معروف، على تعهداتها ولم تدخل الحرب. فمن حيث «الاتيكيت» لم يكن الأمر سهلاً. لكن المسار اللاحق للأحداث أثبت أن القرار الذي اتخذ في يالطا كان قراراً صائباً.

إثر زيارته إلى موسكو في آب/أغسطس ١٩٤٢ كتب تشرشل إلى روزفلت يقول إن ستالين قد أطلعه على خطط هجوم مضاد سوفياتي كبير. كان الألمان قد اقتربوا في تلك الأيام من ستالينغراد، لكن خطة الهجوم المضاد لم يبدأ إعدادها، كما هو معروف، إلا في أواسط أيلول/سبتمبر. فعن أي هجوم تحدث ستالين مع تشرشل؟.

أجد نفسي مضطراً لتخييب آمال المؤرخين. فليس من سرّ هنا أبداً. فالمقصود هنا هو الهجوم المضاد في ضواحي ستالينغراد، الذي كان من المعروف أنه يجري الإعداد له قبل ذلك بوقت طويل. فقد تُضلِّل الباحثين مذكرات بعض العسكريين الذين كانوا ينسبون لأنفسهم أمجاد هذه أو تلك من المعارك التي تم التخطيط لها على نحو موفق. هكذا كان الأمر هنا أيضاً، ومن هنا نتجت هذه البلبلة في التواريخ.

من المعروف أن تشرشل وصل إلى موسكو في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥، وفي حديثه مع ستالين اقترح تقسيم مناطق النفوذ في البلقان بين

الاتحاد السوفياتي وبريطانيا، وذلك بإبقاء اليونان مع بريطانيا وتحديد حصص النفوذ في بلدان البلقان الأخرى. ويؤكد المؤرخون أنه لم يتم توقيع اتفاقية بهذا الصدد، إلا أن الاتحاد السوفياتي، الذي كان يقدّم الدعم للشيوعيين في يوغوسلافيا وبلغاريا، لم يقدّم عملياً الدعم العسكري في فترة ١٩٤٤ - ١٩٤٥ لحركة التحرر الشعبي في اليونان خلال نضالها ضد القوى اليمينية والقوات الإنكليزية. هل يستند هذا الكلام بحق الاتحاد السوفياتي الى أي أساس؟

إنه اتهام لا يستند بتاتاً إلى أي أساس. فلم يكن تشرشل يخفي مخططاته قط، إلا أن الحكومة السوفياتية لم توافق على أي تقسيم مكتوب للنفوذ. أما ما الذي كانت القيادة السوفياتية تعتبره مناطق نفوذ وكيف كانت تنفّذ سياستها الفعلية في هذا المجال؟ فذلك أمر مختلف، غير أن الاتحاد السوفياتي لم يدخل مع بريطانيا في أية معاهدات لتقسيم النفوذ.

أما حركة الأنصار في اليونان، فقد كانت تلقى الدعم دوماً. وقد التقيت أنا شخصياً الكثيرين من قادة الأنصار اليونانيين في موسكو. وحين طردت القوات الإنكليزية الأنصار إلى الجبال، اضطر اليوغسلاف إلى إيجاد مأوى للوطنيين اليونانيين. وقد انتقل قسم (بضعة عشرات الألوف من الناس) من هؤلاء لاحقاً للعيش في الاتحاد السوفياتي. وقد بلغ عدد الذين طردوا آنذاك حوالي ١٥٠-٢٠٠ ألف شخص على ما أعتقد. وقد عاد بعد الحرب قسم من الأنصار اليونانيين إلى وطنه، وبقي قسم منهم يعيش عندنا في الجنوب.

كان الاتحاد السوفياتي يدعم أية حركة مناهضة للديكتاتورية. وهكذا كان الأمر في اليونان أيضاً.

من المعروف على نطاق واسع أن هتلر بقي حتى لحظة هزيمة ألمانيا الفاشية يأمل بما يسمّى "سلاح الثأر". ما هو حجم النجاح الذي حققه بالفعل الفكر العسكري التقني لدى العدو؟

زرت ألمانيا بعد النصر في صيف ١٩٤٥. وكانت قد بدأت عملها هناك مجموعات خاصة للقبض على العلماء الألمان الذين شاركوا بالخطط السرية،

بما فيها الخطة النووية، والاستيلاء على نماذج التقنيات العسكرية والرسوم والوثائق وسواها. وكانت هذه المجموعات تعمل على نحو نشيط للغاية، لأن حلفاءنا كانوا يبدون نفس الاهتمام بالاختصاصيين الألمان والاختراعات الألمانية. لم تحمل زيارتي إلى ألمانيا أي طابع رسمي، بل كانت بدافع الفضول في الأغلب. وكان أكثر ما يعنيني، كطالب في الأكاديمية العسكرية وكمهندس عسكري، هي تلك الاختراعات بالذات التي كان يلهث وراءها في جميع أنحاء ألمانيا اختصاصيونا وحلفاؤنا على السواء. أضف إلى ذلك، أنني بعد أن أنهيت مدرسة المخابرات في العام ١٩٤١ كان يجب أن يرسلوني إلى منطقة بنيميونده، حيث كان مركز فون براون للصواريخ. وكنت حتى ذلك الحين قد عرفت بعض الأمور عن هذا المركز، وكان من الطبيعي أن يدفعني الفضول لمعرفة ما كان يعمله الألمان هناك طوال الحرب وما الذي توصلوا إليه. وقمنا مع عدد من المهندسين والجنرال كولونيل سيروف، الذي كان يعمل آنذاك في أركان جوكوف، بزيارة مصانع الصواريخ في ساكسونيا الجنوبية وبعض المختبرات الذرّية التي شيّدت في حُفرٍ من الملح.

لقد تعرفت في بنيميونده، مثلاً، إلى سيرغي بافلوفيتش كوروليوف[(١)]. وكان يدخل رسمياً في عداد اللجنة التي كانت تهتم بالصواريخ البالستية .(FAU - 2) كما كانت توجد لجنة تهتم بالصواريخ المضادة للطائرات.

كانت تقنية الصواريخ متطورة جداً عند الألمان. وينبغي إيفاؤهم حقهم في ذلك. ففي مجال الصواريخ البالستية، مثلاً، وصلوا إلى الاستخدام العسكري لها، وفي مجال الصواريخ المضادة للطائرات بلغوا مستوى اختبارها. لكن لم يتح لهم الوقت لاستخدامها في ظروف القتال.

خلال الحرب (وهنا أيضاً يجب إيفاء الألمان حقهم) كانت ألمانيا هي الأولى التي أنشأت طيراناً نفاثاً من أجل الاستخدام العسكري، وإن كان

(١) عالم الفضاء السوفياتي الشهير (١٩٠٦ - ١٩٦٦). أول من انتقل بنظريات غزو الفضاء إلى التطبيق، وأول مصمم للمركبات الفضائية السوفياتية والصواريخ الحاملة لها - المترجم.

الإنكليز والأميركيون يعملون في الاتجاه نفسه أيضاً. وكان الطيران الألماني قد أصبح يملك حتى نهاية الحرب عدة مئات من الطائرات المزوّدة بمحركات نفاثة. وكانت هذه الطائرات تتفوق كثيراً في مجال السرعة، إلا أنها كانت تتراجع في قدرتها على المناورة. ولهذا كان طيارونا ينجحون في إسقاطها بيسر. فالألمان لم يتسنَّ لهم إنجاز العمل في هذا المجال أيضاً. فلو أنهم أفلحوا في جعل كل الطيران نفاثاً، بما فيه قاذفات القنابل (وهم كانوا قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً في هذا الاتجاه) لكانت الحرب في الجو، وغير الجو، قد حملت طابعاً مختلفاً كلياً. ولو أضفنا الى ذلك صواريخ (FAU-1) و(FAU- 2) لكانت عمليات الألمان قد أصبحت أكثر من جدية، فضلاً عن أن علماءهم كانوا يتقدمون في عملهم بالمخطط النووي. كان هتلر قد رفض هذا المشروع تماماً، كما فعلوا في حينه في الاتحاد السوفياتي. لكن تخيّلوا لو أن ألمانيا بدأت العمل في السلاح النووي قبل سنة أو سنتين، وأصبحت، بالتالي، تمتلك طيراناً نفاثًا، وصواريخ بالستية وقنبلة نووية. كانت ألمانيا ستشكل خصماً مسلحاً بسلاح رهيب. لكن لحسن الحظ لم يتسنّ لهم الوقت لذلك...

لم يكتب إلا القليل جداً عن منجزات الفكر العسكري - الهندسي في ألمانيا. وحين كان يدور الحديث عن (FAU - 2) او (FAU - 1) كانت المصادر السوفياتية تشير بالضرورة إلى أن هذه الصواريخ لم تكن كاملة. أما عن الطيران النفاث، فكانوا يصمتون صمتاً مطبقاً. وفي أحسن الأحوال كانوا يسوقون أمثلة منفردة على ظهور طائرات جديدة في سماء ألمانيا في نيسان/إبريل ١٩٤٥. لكن هل قول الحقيقة ينتقص من بطولة الجندي السوفياتي الذي انتصر على مثل هذا العدو؟ بالطبع، لا. لكن ثمة ما ينبغي التفكير به، على ما أعتقد.

لم يكن حلفاؤنا مستعجلين لفتح الجبهة الثانية، وهذه حقيقة يعرفها الجميع. لكن مع ذلك فتحوا هذه الجبهة... إن أحد الأسباب التي كانت تكمن وراء هذا القرار هو الخوف من أن يمتلك الألمان السلاح المخيف قبل سواهم. كما أنه أصبح من غير الممكن أيضاً تأجيل نزول الحلفاء أكثر من ذلك، لأننا كنا قد وصلنا نحن إلى حدود ألمانيا الدولية. وكانت خطة تشرشل

تقضي بعزلنا عبر اليونان عن أوروبا. غير أن الأميركيين تعمّدوا عدم تبنّي هذه الخطة، لأنهم لم يكونوا معنيين في تدعيم الإمبراطورية البريطانية. وفي النهاية تم تبنّي الخيار الأفضل للإنزال في أوروبا. وكان الأميركيون يعرفون جيداً (أبلغتهم المخابرات عن ذلك، كما أقنعتهم المفاوضات التي أجراها ألين دالاس عبر عملائه مع الألمان) أن وحدات الفيرماخت سوف تقاتل، كما في السابق، الجيش الأحمر وليس الأميركيين. وكانت القيادة السوفياتية على اطّلاع جيد على هذا الأمر أيضاً، وكان هذا بفضل العمل الناجح لمخابراتنا الاستراتيجية، إذ كان يشارك في جميع هذه المحادثات أشخاص مرتبطون مباشرة بأجهزة مخابراتنا.

في فترة ١٩٩٠ - ١٩٩٢، نشرت الصحافة السوفياتية أخباراً مثيرة تؤكد أن ستالين وجّه إلى هتلر "رسالة شخصية" في تموز/يوليو ١٩٤١ عبر الدوق شولنبرغ، سفير ألمانيا في موسكو في سنوات ما قبل الحرب. وكتبوا كثيراً آنذاك عن محادثات زعموا أن والدي أجراها مع هتلر، في المرحلة الأولى من الحرب، عبر سفير بلغاريا في الاتحاد السوفياتي إيفان ستامينوف. ووفقاً لواحدة من الروايات التي تم تداولها، فإن الجانب السوفياتي كان على استعداد تقريباً للتنازل لألمانيا عن أوكرانيا وبيسارابيا وبوكوفينا وبيلوروسيا والبلطيق وبرزخ كاريليا...

أجرؤ على التأكيد أنه لم تكن هناك أية مفاوضات لا آنذاك، أي عام ١٩٤١، ولا بعده. لقد جرى الحديث عن كسب الوقت، وحضر هذا الحديث مولوتوف. لكن أحداً لم يقم بإجراء مفاوضات. في الخمسينيات، سيقت مثل هذه الاتهامات ضد سودابلاتوف. فقد زعموا أنه قام، بأمر من والدي، بمحاولة الاتصال بهتلر، وذلك عبر السفير البلغاري في موسكو. لقد أجبره كل من مالينكوف وخروتشوف على الإدلاء بمثل هذه الإفادات. وكانوا آنذاك يعرضون مثل هذه الأمور على كثيرين. البعض كان يرفض والبعض الآخر كان يوافق، غير أن الجميع صدرت بحقهم أحكاماً بالسجن لفترات لا بأس بها.

مقتطفات من مصادر رسمية:

الجنرال ليتينانت بافل سودابلاتوف: كان عام ١٩٤١ نائباً لرئيس المديرية الأولى (المخابرات) في مفوضية الداخلية في الاتحاد السوفياتي. اعتقل في ٢١ تموز/يوليو ١٩٥٣. بعد مرور خمس سنوات حكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً. كان يقضي العقوبة في سجن فلاديمير. تم العفو عنه بعد مرور عامين على عزل خروتشوف من منصبه سكرتيراً أولاً للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي.

في العام ١٩٩٢، اتّهمه القوميون الأوكرانيون بقتل يفغيني كونوفالتس في هولندا قبل الحرب بتكليف من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي). ووفقاً لاعتراف الجنرال نفسه، فقد ناضل هو نفسه ضد "القومية البوروجوازية الأوكرانية" من أيار/مايو ١٩٢١ حتى صيف ١٩٥٣...

مقتطفات من مذكرات الجنرال ب. سودابلاتوف:

"كان عليّ ان أحدّث (باسمي الشخصي حصراً!) ستامينوف ان ثمة ميلاً في موسكو للاعتقاد بأن الوقت لم يفت لتسوية الصراع الذي بدأ بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي بالطرق السلمية، ويمكن القيام بذلك على أساس تنازلات تتعلق بالأرض. لم يتطرق الحديث إلى الاستسلام الفعلي. وكان المقصود تمرير معلومات مضللة للألمان من أجل عرقلة هجوم القوات الفاشية وتقدّمها اللاحق، وإتاحة الفرصة أمام الحكومة السوفياتية للمناورة وكسب الوقت. وقد بدأ بيريا حديثه بهذا الأمر بالذات: من الضروري بالنسبة لنا أن نكسب الوقت... وأمرني بيريا عدم تكليف ستامينوف إبلاغ كل هذا للألمان. فقد افترضنا انه سيقوم بذلك بمبادرة شخصية منه. إلا أنه لم يقم بذلك. وكان جهازنا لفك الشيفرة يتابع مراسلات السفارة، ولم يرسل إلى صوفيا أي شيء حول الموضوع. برأيي، كان ذلك جس نبض مخابراتياً نموذجياً".

لا يختلف تقييم الجنرال سودابلاتوف للاتهام الذي ظهر في ما يسمّى "ملف ل. ب. بيريا" بأن المفاوضات قد جرت خفية عن حكومة الاتحاد السوفياتي:

"لا بد أن يؤخذ بالاعتبار الموقف آنذاك، حين كانت تجري التحقيقات في

قضية بيريا. فقد جرت مناقشة مسألة الاتصالات عام ١٩٤١ في هيئة رئاسة اللجنة المركزية يوم ٦ آب/أغسطس ١٩٥٣. وقد تم استدعائي أنا أيضاً، حيث قدّمت تقريراً عن اللقاء مع ستامينوف. وقلت، بالمناسبة، إن اللقاء تم بمعرفة مولوتوف. وقد أكد لي كل من خروتشوف ومالينكوف أن هذا اللقاء لا يشكّل نقطة اتهام ضدي، إلا أنهما لم يلتزما كلمتهما. ويبدو أنهما لم يكونا راغبين أن يبقى طليقاً شاهد مزعج على علاقتهما ببيريا. لقد تعرضت للاضطهاد، وكان أحد الاتهامات التي سيقت ضدي هو المشاركة في مفاوضات منفردة. وقد ألغي هذا الاتهام عام ١٩٦٨ من قبل لجنة خاصة".

تؤكّد المصادر الغربية أن مولوتوف وديكانوزوف ونائب والدي فسيفولود ميركولوف شاركوا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٠ في المحادثات السوفياتية الألمانية. وثمة رواية تقول إن مفوضية الداخلية كانت تبذل قصاراها في تلك المرحلة من أجل استمالة ألمانيا لتوقيع المعاهدة. ويبدو للوهلة الأولى منطقياً للغاية من وجهة النظر هذه إقصاء ليتفينوف من منصب مفوض الشؤون الخارجية، وإحلال مولوتوف محلّه. والمؤرخون يفسّرون هذه المناقلات في كادر مفوضية الخارجية تفسيراً وحيداً لا غير: كان ليتفينوف من أنصار الأمن الجماعي وكان يعرقل المفاوضات مع ألمانيا.

إن أية وزارة خارجية يجب أن تعمل على جمع المعلومات الواقعية وتحليلها، ومن ثم تقديم المقترحات للحكومة في حقل السياسة الخارجية. لكن حين تكون معلومات وزارة الخارجية بعيدة عن الواقع، فإنها لا تعود وزارة خارجية. إنني أعرف أن ليتفينوف قد أبلغ الحكومة عن رغبة الدول الغربية بعقد تحالف معنا، في حين أن المخابرات كانت تؤكد عكس ذلك. فقد سبق أن أبلغت الحكومة بالمفاوضات التي تجريها البلدان الغربية مع ألمانيا. إنني أفترض أن ليتفينوف، ومن دون أن يدري، كان ضحية معلومات مضلّلة. فقد كان قد أصبح رجلاً متقدماً في السن، وهو على ثقافة عالية وتهذيب رفيع، ويعتبر أن كلمة الشخص تتطابق مع فعله. إنها لسذاجة، بالطبع. باختصار، قرروا أنه ليس الشخص المناسب لمثل لهذا العمل، وترأس مولوتوف مفوضية الشؤون الخارجية.

وبوصفه مفوضاً للخارجية، تولّى مولوتوف المفاوضات بتكليف من القيادة السوفياتية. أما ديكانوزوف، رجل المخابرات المحترف، فكان قد عيّن سفيراً للاتحاد السوفياتي في ألمانيا، وشارك في المفاوضات بصفته،على الأقل رسمياً، سفيراً وليس عاملاً في مفوضية الداخلية.

كان والدي، بوصفه رئيساً للمخابرات السوفياتية، على علم، بالطبع، بالمفاوضات وبالإعداد لها، إلا أنه لم يشارك شخصياً في أية مفاوضات، وكذلك ميركولوف. فقد كانت لديه ولدى نائبه مهمات محددة للغاية.

إذا صدّقنا بعض المراجع الغربية، فإن المفاوضات السوفياتية الألمانية كان يمكن أن تجري عام ١٩٤٣ أيضاً. على الأقل، ثمة رواية شائعة تقول إن رئيس المخابرات السياسية في ألمانيا فالتر شيللنبرغ قد حاول، عبر سويسرا والسويد، إقامة اتصال مع ممثلي الاتحاد السوفياتي الذين، وكما يؤكد بعض المؤرخين، كانوا "معنيين جداً بمثل هذا اللقاء من أجل الاتفاق على وقف الحرب. إلا أن الاتصالات توقّفت بسبب روبنتروب الذي طلب بألا يضم الوفد السوفياتي يهوداً".

لا يسعني أن أؤكد أن الألمان لم يحاولوا إجراء اتصالات ما، إلا أنني أعرف على وجه التأكيد أنه لم تجر مثل هذه المفاوضات. كما أعرف أيضاً أنه لم يكن لروبنتروب أية علاقة بالمفاوضات بين المخابرات، وبالتالي فإن الأحاديث في الحالة الراهنة عن اليهود هي مجرّد أكاذيب. وقد اطّلعت من ديكانوزوف كيف كان سلوك روبنتروب خلال لقائهما الأخير. فقد أعلن في اللقاء بداية الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، ثم أخذ على الفور يوشوش قائلاً: "لابد أن تبلغوا موسكو بأن لا علاقة لي بالأمر. وصدّقني أن كل هذا الذي يجري هو خلاف رأيي...". هكذا تماماً تصرّف أيضاً سفير ألمانيا في الاتحاد السوفياتي شولنبورغ. لقد اعتدنا أن نعتبر أنه لم يكن في ألمانيا من أذكياء... وحتى لو افترضنا أن الألمان كانوا يسعون في تلك المرحلة إلى المفاوضات، فلم يكن في وسع روبنتروب أن يضع مثل هذه الشروط. وأكرر أنني أشكك في صحة هذا كله.

رفات مَن انتشل في ٤ أيار/مايو ١٩٤٥ من حفرة قنبلة في حديقة مقر الرايخ؟ هل انتحر هتلر وإيفا براون فعلاً، ولم يختبئا في بلبلة الأيام الأخيرة من الحرب، كما فعل بعض النازيين الآخرين؟ لقد مر نصف قرن تقريباً، إلا أن المشاعر لم تهدأ بعد حول المجرم رقم واحد.

تقول واحدة من الروايات إنهم قاموا خلال مؤتمر بوتسدام بإبلاغ ستالين أنه تم التعرّف إلى جثة هتلر، واقترحوا عليه أن ينتقل إلى هناك ليشاهد ذلك. لكن ستالين لم يذهب، بل أرسل مولوتوف ووالدي. هذه أسطورة ليس إلا. لقد سافر والدي ومولوتوف، بالفعل، إلى هناك، خلال أحد الأيام التي كان يُعقد فيها مؤتمر بوتسدام، لكن بدافع الفضول وليس بتوجيه من ستالين. وقد شاهدا مقر الرايخ والبونكر[1] في إطار من الاهتمام الطبيعي لا غير. وقد زرت أنا ذلك المكان في صيف ١٩٤٥ مع سيروف، وبدافع فضولي محض أيضاً.

أما ستالين، فحين أبلغوه بانتحار هتلر، لم يسأل عن التفاصيل. فلم يكن بالحقيقة يبالي ما إن كان هتلر قد سمّم نفسه أم أطلق النار على نفسه. إلا أنه قال: هكذا يفارق الحياة قطاع الطرق والمغامرون الذين لا يملكون الشجاعة في تحمّل المسؤولية عما فعلوه. ولم يتطرّق بعد ذلك لهذه المسألة قط.

هل كان يبدي اهتماماً بشخصية هتلر في حياته؟ كان يمتلك ستالين معلومات عن جميع أعدائه وحلفائه. ولم يكن هتلر استثناء، بالطبع. كان لديه ملفات مفصلة ليس عن قادة ألمانيا فحسب، بل عن أعضاء حكومات بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها من البلدان أيضاً. كانت المخابرات تزوّد القيادة السوفياتية بالمعلومات عن جوانب الضعف والقوة وعن الصفات الحسنة والسيئة وعن أسلوب إدارة المفاوضات وغير ذلك. حين كان يزور الاتحاد السوفياتي وفد رسمي أجنبي كانت المخابرات ملزمة بتقديم ملف مفصّل عن كل فرد من أفراد الوفد.

حدثني فاسيليفسكي مرة كيف تحدث ستالين خلال الحرب عن هتلر: "إنه شخص جبري (fatale). لن يترك هتلر ستالينغراد لأن المدينة سمّيت باسمي..."

(١) المقر المحصن لهتلر - المترجم.

لم يبد ستالين اهتماماً لا بالرفات الذي تم العثور عليه ولا بالتحقيقات اللاحقة، كما أن أحداً لم يَدْعُه لزيارة المكان المذكور. أبلغوه بذلك وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وجدت رفات هتلر أجهزةُ "سميرش" (SMERCH). وتم التعرف بشكل موثوق إلى جثث ماغدة غوبلز وأطفالها. أما جثة وزير دعاية الرايخ، نفسه فبرز إشكال حولها. فقد كان من المعروف أنه كان أعرج. وحين استجوبوا طبيبه المعالج اختلط عليهم في الإفادات أي من الرِجْلين كانت الرِجْل العرجاء.

كانت جثة هتلر وكذلك جثة إيفا براون قد أصابتهما النيران بتشويه شديد. وقد دفنتا ومن ثم نُبشتا. لكن وفقاً للإفادات غير المباشرة من الأشخاص الذين أمكن القبض عليهم، توصلوا إلى استنتاج أن الجثة هي مع ذلك جثة هتلر. غير أن "سميرش" لم تكن واثقة تماماً بهذا الاستنتاج، بالطبع.

لم تصدر القيادة العليا في الاتحاد السوفياتي، على ما أعرف، أية توجيهات بتنظيم لجان جديدة. من الجائز أن يكون الأمر قد تقرر على مستويات أدنى. ولم يبدأوا الاهتمام بالأمر عندنا إلا حين أخذت تظهر في الصحافة الإنكليزية والألمانية أخبار تفيد أن هتلر لا يزال على قيد الحياة. كما سرت شائعات بأنه يختبئ إما في جنوبي أميركا، أو حتى في الاتحاد السوفياتي. وحين اشتد الضجيج كثيراً حول الأمر، جرى تشكيل مثل هذه اللجان. ولا أستبعد أن تكون واحدة من هذه اللجان قد تم تشكيلها بتوجيه من مفوض الداخلية كروغلوف، كما يكتبون اليوم. لكن لم يكن لستالين أو لأبي علاقة بالأمر.

ستالين وجوكوف: الأول هو القائد الأعلى ورئيس الدولة المنتصرة، والثاني هو قائد شهير من قادة الحرب التي انتهت لتوها، لكنه ليس الوحيد على أولمب الماريشالات. الأول على منصة ضريح لينين والثاني على حصان أبيض يستقبل عرض النصر. لماذا هو بالذات؟ هل السبب هو تقدم السنّ بستالين، كما يعتبرون؟ ولماذا لم يكن روكوسوفسكي أو فاسيليفسكي أو كونيف؟

بعض سيني الطوية يؤكدون أن القائد الأعلى كان ينوي في البداية أن يستقبل عرض النصر بنفسه. وأنه حاول ركوب الحصان دون أن تكون له تجربة في ذلك، فأوقعه الحصان أرضاً. وزعموا أن ستالين قال: "ليس في اليد حيلة، لقد تقدّمت في السن، فليستقبل جوكوف العرض..." أسطورة؟ يبدو أنها كذلك. وبحسب الشائعات، فإن الأمر نفسه جرى في حينه مع الوزير نيكولاي بولغانين. ورفض أن يجلس على السرج مرة أخرى.

حين كان بولغانين على رأس وزارة القوات المسلحة تبدّل شكل استقبال الاستعراضات نفسه. فقد تقرر إحلال السيارة محل الحصان. وبالتالي لم يقع بولغانين عن ظهر الحصان، ولم يتعين عليه أن يتدرب على ركوب الخيل في ساحة "مانيج"[1].

كان ابن ستالين فاسيلي يجيد ركوب الخيل. أما ستالين، فلم يحاول في يوم من الأيام امتطاء صهوة حصان. وحين تطرّق الحديث إلى استعراض النصر قال إن جوكوف ينبغي أن يستقبل العرض. ولم تبرز أية اعتراضات، بالطبع. وتمّ تكليف روكوسوفسكي بإمرة العرض. وقد استاء كونيف للغاية. كما أن قادة الجبهات الآخرين لم يتحمّسوا كثيراً للقرار. إلا أنهم لم يجادلوا في الأمر، طبعاً...

وكان الوضع نفسه، تقريباً، قد نشأ حين كان ينبغي اتخاذ القرار: من يستولي على برلين. وكان حتى ذلك الحين قد أصبح معروفاً أن روكوسوفسكي سوف يصبح بعد الحرب وزير دفاع بولونيا، وكانوا يودّون تقديمه كشخص من أصل بولوني.

اقترح والدي جوكوف. فقد كان يعتبر أن الشعب الروسي تحمّل العبء الأكبر في الحرب، وينبغي أن يقتحم برلين شخص روسي. وافق ستالين على الأمر. ومن المحتمل أن يكون روكوسوفسكي قد استاء في أعماق نفسه، إلا أنه

---

(١) ساحة ملاصقة للساحة الحمراء، حيث يمر العرض العسكري قبل بلوغ الساحة الحمراء - المترجم.

لم يظهر ذلك. فقد كان شخصاً أرفع من الإساءات الشخصية. ويمكن أن نحكم على ذلك من خلال سيرته الذاتية القتالية. فقد كان يقاتل ببطولة، علماً أنه تعرّض قبل ذلك للاعتقال والإهانات هو وزملاؤه.

أما كونيف، فكان يحسد جوكوف. ولا أستطيع الجزم ما إن كان ذلك حسداً إنسانياً عادياً أم حسد قائد عسكري. كان كونيف عسكرياً موهوباً، بلا شك، وليس بوسع أحد إنكار ذلك، علماً أن الأشخاص الذين خدموا بإمرته كانوا يؤكدون أنه لم يكن يرحم الناس، ولم يكن يتوانى عن تقديم أي تضحيات لدى تنفيذ المهمة. لم يكن من النادر أن يتحوّل إلى شخص قاسٍ بوسعه استخدام العصا لضرب مرؤوسيه المقرّبين إليه.

كان لديه عيب آخر أيضاً. فقد كان، سواء في عهد ستالين أو في عهد خروتشوف، يقدح بالناس ولاسيما بجوكوف، إذ كتب عنه واشياً إلى اللجنة المركزية وإلى ستالين. مع العلم بأنه لم يكن الوحيد بين العسكريين على هذه الشاكلة، للأسف. فقد كان الكثيرون منهم يحسدون جوكوف. وأعرف أن جوكوف طلب من والدي أثناء الحرب قائلاً: "أعطني رجلاً شريفاً، ومن الأفضل أن يكون سيروف، وسوف أكون واثقاً بأنه لا يضمر لي سوءاً، ويشد أزري في حال حدث شيء ما". ووصل سيروف مع جوكوف حتى برلين. واقترح غيورغي كونستانتينوفيتش اسمه لنيل وسام "البطولة".

كان ستالين ووالدي يعتبران أن جوكوف ينبغي أن يكون وزيراً للدفاع بعد الحرب. وهذا ما كان ليحصل في حياة والدي لولا خروتشوف وبولغانين وسواهما. وفي آذار/مارس ١٩٥٣، حين عُيّن غيورغي كونستانتينوفيتش (جوكوف) نائباً لوزير الدفاع، أتذكر حديثاً له مع والدي حول ضرورة مجيئه وزيراً. ورأى والدي أن الأمر لن يتم الآن، بل ينبغي الانتظار قليلاً، حين قال: "لا تقلق يا غيورغي، فأنا لا أرى سواك لهذا المنصب".

إن الأحاديث التي كانت تجري بحضوري كانت مفعمة بالثقة. فعلى سبيل المثال، كان غيورغي كونستانتينوفيتش يرغب فعلاً في إلغاء المرشدين السياسيين

من الجيش، فهم، برأيه، ما كانوا إلا ليخربوا القوات المسلحة. وكان جوكوف في الحلقات الضيّقة يسميهم جواسيس، وقال غير مرة في بيتنا: "كم يمكن تحمّلهم؟ أم أننا لا نثق بالضباط؟ "وكان والدي يطيّب خاطره: "تمهّل، لا يمكن حسم الأمر فوراً. وصدّقني: إننا لن نصمد نحن الاثنين، يجب الانتظار".

يجدر بي القول، ليس دفاعاً عن ستالين، بل لأكون موضوعياً، إنه على الرغم من إعطائه الموافقة على عزل غيورغي كونستانتينوفيتش، إلا أن المبادرة لم تصدر عنه. فقد بذل العسكريون "جهدهم"، والسبب هو الحسد ذاك نفسه، أو أن شخصاً ما قد تأذّت عزة نفسه بسببه. فقد كان جوكوف شخصاً متطلّباً، ومن المحتمل أنه كان خشناً في بعض الأحيان. لكنني في الحقيقة لا ألومه على ذلك، فالوقت كان يتطلّب ذلك أحياناً. فلا وقت في الحرب للمشاعر الرقيقة، ولا يحق للمرء أن يلين، سيما إذا كان يتولّى مثل هذه المسؤولية الرفيعة.

لست أعرف السبب، إلا أن القيادة الحزبية العليا لم تكن تحب جوكوف. فقد كان خروتشوف، على سبيل المثال، يكره غيورغي كونستانتينوفيتش كرهاً شديداً. ففي عهد نيكيتا سرغييفتش (خروتشوف) لم يكن المعادون لجوكوف يتسترون على عدائهم. ففي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٧ أعفي غيورغي كونستانتينوفيتش من منصبه كوزير للدفاع، وتم إقصاؤه عن اللجنة المركزية. وقد اتهم الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الماريشال بأنه "خرق المبادئ اللينينية الحزبية في قيادة القوات المسلحة، واعتمد نهجاً يهدف إلى تقليص عمل المنظمات الحزبية والأجهزة السياسية والمجالس الحربية، وإلى إلغاء قيادة الحزب وإشرافه مع اللجنة المركزية والحكومة على الجيش والأسطول". ونشرت "البرافدا" آنذاك مقالة بقلم الماريشال كونيف "قوة الجيش السوفياتي والأسطول في قيادة الحزب، في العلاقة العضوية مع الشعب". لم يبقَ اتهام إلا وجهه كونيف لجوكوف! فالإنجازات التي حققها القائد العسكري كانت مضخّمة، وأنه عمل على الدعاية لنفسه، وارتكب أخطاء في خططه. وهكذا كان على غيورغي كونستانتينوفيتش أن يتعرّض للظلم مرة أخرى. ففي عام ١٩٤٦، تم عزله بنفس الطريقة أيضاً من منصب القائد الأعلى

للقوات البرية ونائب وزير الدفاع. ونقلوه بداية إلى منطقة أوديسا العسكرية، ومن ثم إلى منطقة الأورال. كانوا يخشونه ويكرهونه، فكم كتبوا ضده أثناء الحرب وبعدها بإيعاز من بولغانين، هذا الأبارتشيك التقليدي الذي لا يفقه في الأمور العسكرية شيئاً، والذي أصبح وزيراً للدفاع! كانوا يبحثون عن أية حجة لتوجيه الضربة الأكثر إيلاماً له. كان والدي يعبّر عن امتعاضه ويردّد دوماً: لقد انتصر الرجل في حرب كهذه الحرب، ويحيكون حوله مثل هذه المكائد.

أعرف أن ثمّة رأياً شائعاً حتى الآن يقول إنه كان يتم الإعداد بعد الحرب لاعتقال غيورغي كونستانتينوفيتش، وإن والدي كان، كما يُزعم، على علاقة بالأمر. بل ويسمّون أباكوموف في بعض الأحيان أيضاً. ولم ينقذ الماريشال الشهير من الهلاك سوى تدخل ستالين. قال غيورغي كونستانتينوفيتش مرة: "لا تصدّق شيئاً. هل تعرف مدى الصداقة التي كانت تربطني بوالدك؟ إن كل ما ينسب إليّ ليست لي أية علاقة به". ينسبون لوالدي دسائس ضد جوكوف، وينسبون لجوكوف اعتقال والدي... ويستمر ذلك منذ أربعين عاماً. وبلغ بهم الأمر أن كتبوا قائلين إن والدي كان يجيد فن القتال الشرقي دجيو- دجيتسو، وإن هذا الأمر أثار مخاوف جدية لدى الناس الذين شاركوا في اعتقاله، وإن جوكوف انبرى حينئذٍ وقال بكل ثقة: "لا بأس، بوسعي التغلّب عليه". كان خروتشوف والقيادة الحزبية العليا شديدي الرغبة في تزيين الكذب باسم القائد العسكري الشهير...

لقد نشرت الآن وثائق عديدة تشير كيف كان أباكوموف وأزلامه يبحثون عمّا يوقع بجوكوف، وقاموا بعمليات دهم غير معلنة وحاولوا انتزاع إفادات. إلا أن الأساسي، كما يقال، يبقى "خارج الصورة". فالأجهزة الأمنية لم تقرر بنفسها تشويه سمعة الماريشال، والذين يقفون وراء ذلك كانوا يجلسون في اللجنة المركزية. كما أن العسكريين، كما ذكرت، ساهموا أيضاً في الأمر.

بقي غيورغي كونستانتينوفيتش في ذاكرتي صديقاً مقرّباً من والدي وشخصاً رائعاً. ومن المؤسف أنهم يحاولون استخدام اسم جوكوف اليوم لأهداف سياسية.

في معرض الحديث عن الحرب وعن مشاهير قادتها العسكريين، لا يجوز التغاضي عن موضوع بداية الحرب في ضوء كتاب فلاديمير رازون، الضابط السابق في مديرية المخابرات (GRU)، الذي أثار ضجة واسعة.

مقتطفات من مصادر رسمية:

ولد فلاديمير رازون عام ١٩٤٧ في مدينة تشيركاس. أنهى مدرسة كييف العسكرية القيادية العليا. كان ضابطاً في مديرية مخابرات المنطقة العسكرية، عمل أربع سنوات في مقر مديرية المخابرات (GRU) في جنيف. في العام ١٩٧٨ فرّ إلى بريطانيا. وحكم عليه آنذاك بالإعدام بتهمة خيانة الوطن.

كتب عدة كتب عن الجيش السوفياتي والمخابرات العسكرية. يكتب باسم مستعار: فيكتور سوفوروف.

على الرغم من أن كتاب "ليداكول" (كاسحة الجليد) هو كتاب يعرض فرضية محددة، إلا أنني قرأته باهتمام. وقد يكون رجل المخابرات السابق الفارّ كاتباً موهوباً، ولا أحكم أنا بذلك؛ إلا أنه ليس هو مؤلّف الكتاب، كما هو معروف، بل مجموعة من المستشارين ذوي الكفاءة العالية. إن العامل العادي في مقر للمخابرات ليس له من منفذ للوصول إلى مثل هذه المعلومات، إضافة إلى القدرة على القيام بمثل هذه الاستنتاجات. إنني لا أود في حال من الأحوال أن أنتقص من شأنه ككاتب، فالمسألة تتعدّاه شخصيّاً. إن الرتبة تحدّد حجم المعلومات الذي يمكن أن يصل إليه الشخص. فمن أين للكاتب مثل هذه المعلومات؟

تثير الفصول مقاربة الموضوع نفسها. فبهذه الطريقة يمكن أن نثبت اليوم أن روزفلت كان يعمل لصالح اليابانيين. ويمكن إيجاد الوقائع الملائمة أيضاً. فمن المعروف، مثلاً، أن روزفلت كان يمتلك معلومات عن الهجوم الذي كان يعده اليابانيون على بيرل هاربور، لكن الأميركيين أُخذوا، مع ذلك، على حين غرة. ووفقاً لمنطق سوفوروف، لماذا لا يُتهم روزفلت بالخيانة؟ كما يمكن النظر إلى

الأمر على نحو مغاير تماماً (وهو ليس مثبتاً أيضاً)، إذ كان ينبغي إيقاظ الرأي العام الأميركي. فأميركا لم تكن راغبة في خوض الحرب ضد ألمانيا واليابان...

لكن القضية ليست في الكاتب وليست في هذا الكتاب. ففي الغرب، وعندنا في الفترة الأخيرة أيضاً، يخلطون بين نظريتنا العسكرية والضربة الوقائية. فقد كان النازيون يؤكدون أن هتلر وقيادة الفيرماخت العليا كانوا مكرهين على بدء حرب وقائية ضد الاتحاد السوفياتي.

إنني على علم، من خلال تيموشنكو وتيولينيف وميريتسكوف وجوكوف، بأنه كان واضحاً منذ نهاية العام ١٩٣٩ وضوحاً مطلقاً أن الألمان سوف يهاجمون الاتحاد السوفياتي. ولا أريد أن أكرر ما قلته، إلا أن العدو كان معروفاً من هو قبل الحرب بزمن طويل.

"هام للغاية

سرّي كلياً

شخصي فقط

مفوض الشعب للدفاع في الاتحاد السوفياتي

١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٤٠

رقم ١٠٣٢٠٢/٠٦

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي)

الرفيق ستالين

الرفيق مولوتوف

أطرح أمامكم تصورات حول أسس الانتشار الاستراتيجي للقوات المسلحة في الاتحاد السوفياتي في الغرب وفي الشرق خلال العامين ١٩٤٠، ١٩٤١.

١- أعداؤنا المحتملون

ان الوضع السياسي الناشىء في أوروبا يخلق احتمال صدام مسلح على حدودنا الغربية.

هذا الصدام المسلح قد يقتصر على الحدود الغربية، لكن هذا لا ينفي إمكانية الهجوم أيضاً من جانب اليابان على حدودنا في الشرق الأقصى.

إن العدو الاكثر احتمالاً على حدودنا الغربية سوف يكون المانيا. أما إيطاليا فمن المحتمل أن تشارك بالحرب، بل بالاحرى، أن تتحرك في البلقان وتخلق لنا بذلك تهديداً جانبياً... وهكذا، ينبغي للاتحاد السوفياتي أن يكون مستعداً للصراع على جبهتين: في الغرب، ضد المانيا مدعومة من إيطاليا والمجر ورومانيا وفنلندا، وفي الشرق، ضد اليابان كعدوّ مكشوف، أو عدو يقف موقف الحياد المسلّح الذي يمكن أن يتحوّل دائماً إلى صدام مكشوف".

وقّع هذه الوثيقة مفوض الشعب للدفاع الماريشال تيموشنكو ورئيس الأركان العامة الجنرال ميريتسكوف. أما المنفّذ، فهو نائب رئيس مديرية العمليات الجنرال - كولونيل فاسيليفسكي.

أذكر بأن التوجيه رقم ٢١ (خطة "بارباروسا") لم يتم توقيعه إلا في ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٠، أي بعد ثلاثة أشهر تماماً. ويمكن تفسير هذا الوضع أيضاً، إذا ما توفرت الرغبة، لصالح مقولة الضربة الوقائية. لكن هل الأمر على هذا النحو فعلاً؟

كانت البلاد تتهيأ للحرب القادمة، إلا أنها لم تكن تزمع أن تكون البادئة. والقضية ليست قضية استقامة سياسية من الجانب السوفياتي، أو من جانب ستالين. كان ستالين يحسب حساباً كبيراً للرأي العام العالمي، ولم يصدر مثل هذا التوجيه، وهو ما أعرفه على وجه الدقة. كان يعتبر أنه ينبغي إبعاد هذه الحرب بأية وسيلة، لكن ينبغي مواصلة الاستعدادات لها وإعداد الضربات المضادة ردّاً على هجمات الألمان. وأعرف أنه كان ينطلق من التالي: إن خطط عمليات الفيرماخت معروفة، وكذلك أمكنة تركيز مجموعات قواته، وبالتالي، فإن المهمة واضحة: عرقلة الضربة الأولى وإنزال الضربة المضادة وفقاً للخطة العملانية التي تضعها أركاننا العامة. وأعرف أنه كان يفترض عزل كل مجموعة قوات البلطيق المتمركزة في منطقة كينيغسبرغ، والخروج في الجنوب إلى حقول النفط في رومانيا. ولهذا كانت ضرورية فيالق الدبابات والمظليين. وهذا هو

الجواب عن سؤال سوفوروف (رازون): لماذا كان ستالين بحاجة لعشرة فيالق مظليين جويين إذا كانت الحرب الدفاعية لا تحتاج إلى هذا الحجم من القوات. كما كانت ضرورية أيضاً الدبابات السريعة المخصصة للأوتوسترادات وكذلك الطائرات الهجومية التي تثير حيرة المؤلّف.

إن كل ما تتضمّنه الرواية المقترحة من قبل الكاتب مكرّس كلياً لأغراض العدوان. ومن الواضح أن جميع هذه المقولات تنهار أمام النقد الجدي. فلو كان الاتحاد السوفياتي يستعد للعدوان، فلمَ أقام تحصينات جديدة على الحدود؟ لقد أخطأت القيادة العسكرية بنزع الأسلحة عن الخطوط القديمة، وبيّنت الحرب أنه لم يكن ينبغي القيام بذلك. ولماذا كان علينا بناء خطوط جديدة إن لم تكن تتوفر النية في الدفاع؟ لماذا كان علينا إنفاق الأموال الطائلة وتبذيرها بلا جدوى؟

لا تبدو مقنعة أيضاً الاستشهادات التي وردت حول إعادة تنظيم هيكلية مفوضية الشؤون الداخلية. لقد جرى، بالفعل، إنشاء عدة مديريات عامة في مفوضية الداخلية: قوات حرس الحدود، قوات الحراسة، قوات السكك الحديد. ويبدو لي أن من الصعب أن نلاحظ في ذلك إشارة ما إلى الإعداد للعدوان. لكن هذا لا يشكّل أي إحراج بالنسبة إلى بعض المؤرخين. في حين أن الحرب قد أثبتت أن إعادة تنظيم قوات مفوضية الداخلية لم تكن بلا جدوى. فحرس الحدود كانوا أول من دخل المعركة ولم يتراجع تشكيل واحد منهم. وقد أوقفت هذه الوحدات على الحدود الغربية العدو بين ٨ ساعات و١٦ ساعة، وفي الجنوب أوقفته لمدة أسبوعين. ولم تكن القصة هنا قصة شجاعة وبطولة فحسب، بل لعب دوره مستوى التدريب القتالي أيضاً. ويسقط من تلقاء ذاته السؤال: ما حاجة حرس الحدود للمدافع في مراكزهم؟ لم تكن توجد مدافع هاوتزر هناك، كما يكتبون، لكن كانت توجد مدافع مضادة للدروع. لقد أصرّ والدي على هذا الأمر قبل الحرب، إذ كان يدرك أن البندقية وحدها لن تصمد بوجه الدبابة. أما كتائب مدفعية الهاوتزر فقد أُلحقت بفصائل حرس الحدود. وقد لعب هذا الأمر دوراً إيجابياً في المعارك الأولى. أما مدفعية الجيش، فلم تستخدم، للأسف.

أعرف تمام المعرفة أن الحديث لم يتطرق آنئذٍ إلى تشكيل فصائل اعتراض. فلم يكن أحد ليفكّر أن الجيش سوف يفر، لكنه فرَّ، والأسباب معروفة. ففي حزيران/يونيو ١٩٤١، وعلى الرغم من كل استعداداتنا للمعركة مع الفاشية، تبين أننا لم نكن مستعدين للحرب التي ربحنا لاحقاً. وأعتقد أن ذلك هو الدرس الرئيسي من دروس الحرب الوطنية العظمى.

الفصل السادس

طهران، ١٩٤٣ ــ الأشهر الصعبة

كان قد مضى عام على بدء دراستي في الأكاديمية حين أبلغت أمر مهمة بالتوجه الى موسكو. لم أكن لأخمّن ما الأمر. إنما كل ما كنت أعرفه، وأنا أغادر لينينغراد، هو أنني أصبحت بتصرف الأركان العامة، لأن الأمر وصل من هناك.

لم يجلُ الأمر أيضاً الحديث الذي جرى في موسكو: «إنك ذاهب في مهمة خاصة. الأجهزة التي سوف تتسلّم، ينبغي تركيزها في مكان ما».

كانت الأجهزة أجهزة تنصّت. ولم يتطرّق الحديث إلى ذكر أي مؤتمر. ولم أعرف أننا نطير إلى طهران، بل إنني لم أعرف أننا نزلنا في باكو إلا من خلال الحقل المحيط بالمدرج.

وصلت إلى طهران بالطائرة مع المجموعة نفسها من الضباط. انفصلنا في المطار، وما زلت حتى اليوم لا أعرف من طار إلى إيران ولأية غاية. ولم نر بعضنا بعضاً بعد ذلك.

استقبلنا بعض العسكريين وأشخاص باللباس المدني، وقد تعرّفت إلى أحدهم مباشرة. فقد كان اختصاصياً من المختبر الخاص بمفوضية الداخلية في حقل الراديو. وقد عرفت منه أنني سوف أعمل في حل شيفرة تسجيلات على الأشرطة.

في الطريق من المطار لم يتكلم أحد عن العمل، ولم يكن من المتعارف عليه أن يطرح المرء أسئلة. وصلنا إلى مبنى ما ودلفنا إلى الداخل.

لم أكن أفترض أن بوسعي أن ألتقي والدي هنا في طهران. وما إن أعلن الاختصاصيون أن الأجهزة بدأت تعمل حتى دخل ضابط لا أعرفه، وقال:

- إنهم يستدعونك.

عبرت عدة غرف حتى وصلت إلى والدي، ولم نكن قد رأى أحدنا الآخر منذ فترة طويلة.

- قال والدي: هل ترى أين التقينا؟ في طهران... هل أبلغوك بما ستقوم به؟ لقد طلب يوسف فيساريونوفيتش شخصياً ضمّك وعدداً من الأشخاص إلى هذا العمل. بالمناسبة، كيف لغتك الإنكليزية؟ ألم تنس اللغة ؟ لا؟ هذا حسن، سوف نمتحنك الآن.

استدعوا أحد المترجمين، فتبادلت معه التحية وبعض المزاح.

قال والدي:

- ليس هكذا... تحدّثا جيداً.

استمع إلينا والدي، ثم قال:

- لا بأس، إنك لم تنس اللغة.

حين خرج المترجم، أخذ والدي يتحدّث عن العمل:

- عليك أن تأخذ بالاعتبار أن العمل سوف يكون صعباً ورتيباً.

لم تبرز لدي أية أسئلة بالنسبة للأجهزة، لكن ما كان يثير فضولي هو على من سوف نتنصّت وما هدف هذا التنصّت. ولم نستطع التحدث طويلاً، اذ تم استدعائي من قبل يوسف فيساريونوفيتش...

سأل ستالين عن سير الدراسة في الأكاديمية، وانتقل فوراً إلى العمل:

- لقد انتقيتك شخصياً مع عدد من الأشخاص الذين لا يلتقون الأجانب رسمياً في أي مكان، لأن العمل الذي أوكله إليكم ليس منسجماً مع الأخلاقيات...

صمت قليلاً ثم قال مشدداً:

- أجل ياسيرغو إنه عمل لا ينسجم مع الأخلاقيات...

فكّر قليلاً ثم أضاف:

- لكنني مضطر إلى ذلك... إذ يجري عملياً الآن بحث المسألة الرئيسية : هل سيقدمون لنا المساعدة أم لا. عليّ أن أعرف كل شيء، كل التفاصيل... لقد انتقيتك أنت والآخرين من أجل هذا بالذات. لقد اخترت الأشخاص الذين أعرفهم وأثق بهم. وأعرف أنكم أوفياء للقضية. هذه هي المهمة المطروحة أمامك شخصياً...

أذكّر القارئ بأن الوضع في البلد المجاور تأزّم في صيف ١٩٤١ إلى الحد الأقصى. فقد كان الهتلريون يسعون لتحويل إيران إلى رأس جسر للهجوم على الاتحاد السوفياتي، وأقاموا مستودعات للأسلحة والذخيرة قرب الحدود السوفياتية. كما زادت من نشاطها شبكة المخابرات الألمانية. وحينذاك قام الحلفاء بإجراءات مضادة مستبقين الخطوات اللاحقة للعدو. فبعد أسبوعين من دخول قوات الحلفاء، قطعت الحكومة الإيرانية العلاقات مع دول المحور.

كان قادة التحالف المعادي لهتلر، رئيس مجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي إ.ف.ستالين، ورئيس الولايات المتحدة الأميركية ف.د.روزفلت، ورئيس وزراء بريطانيا و.تشرشل، قد قرروا عقد لقاء في طهران في أواخر خريف عام ١٩٤٣.

من منكرات ونستون تشرشل:

"لم أكن معجباً بتنظيم الاستقبال لدى وصولي بالطائرة الى طهران. وصل السفير الإنكليزي لاستقبالي بسيارته واتجهنا من المطار إلى مقر بعثتنا الدبلوماسية. وفي طريقنا إلى المدينة لمسافة ٣ أميال كانت شرطة الخيالة الإيرانية موزّعة على نحو لا يفصل بين الشرطي والآخر أكثر من ٣٠ ياردة. وهكذا كان بوسع أي مجرم معرفة من هي هذه الشخصية الهامة التي تصل إلى إيران وأي طريق تسلك. ولم يكن يوجد أي دفاع في حال وجود شخصين او ثلاثة مسلحين بمسدسات او قنبلة.

كان جهاز الأمن الاميركي قد وفر للرئيس حماية تتسم بذكاء أكبر. فقد انطلقت سيارة الرئاسة في ظل مواكبة مدرعة قوية. وفي الوقت نفسه كانت طائرة الرئيس تحط في مكان مجهول، ويتوجّه الرئيس من دون أية حماية إلى مقر البعثة الأميركية عبر شوارع وطرقات لا ينتظره أحد فيها.

كان مقر البعثة البريطانية والبساتين المحيطة به تكاد تلاصق السفارة السوفياتية. وبما أن الفيلق الإنكليزي الهندي المكلف حمايتنا، كان على اتصال مباشر بالقوات الروسية؛ التي كانت تفوقه عدداً وتضرب طوقاً حول المنطقة التي تملكها السفارة السوفياتية، فسرعان ما توحّدت هذه القوات ووجدنا أنفسنا في منطقة معزولة يتم فيها اتباع كافة تدابير الأمن الاحترازية المعروفة زمن الحرب. وكانت القوات الأميركية تتولى حماية مقر البعثة الأميركية الذي كان يبعد عنا أكثر من نصف ميل. وكان هذا يعني أنه خلال كل الفترة التي يستغرقها المؤتمر سوف يتعين إما على الرئيس وإما علينا، أنا وستالين، أن نذهب إلى هناك مرتين أو ثلاث مرات في اليوم عبر شوارع طهران الضيقة. إضافة إلى ذلك كان مولوتوف، الذي وصل إلى طهران قبل وصولنا بأربع وعشرين ساعة، قد تحدث عن أن المخابرات السوفياتية كشفت مؤامرة تهدف إلى قتل واحد أو أكثر من أعضاء "الترويكا الكبرى"، كما كانوا يلقبوننا. ولهذا كانت تثير قلقاً عميقاً لديه فكرة أن أحدنا سوف يتعيّن عليه أن يروح ويجيء باستمرار إلى هناك. وقال مولوتوف: "إذا حدث شيء مشابه فإن هذا سوف يخلق أسوأ انطباع ممكن". كان من المستحيل نفي ذلك، ودعمت بكل ما أوتيت طلب مولوتوف من الرئيس الانتقال الى مبنى السفارة السوفياتية، الذي كان يكبر المباني الأخرى بثلاث أو أربع مرات، ويحتل مساحة كبيرة تطوّقها قوات الجيش والبوليس السوفياتية. وقد أقنعنا روزفلت بقبول هذه النصيحة الجيدة. وفي اليوم التالي انتقل مع كل فريق عمله، بمن فيهم الطباخون

الفيليبيون المهرة العاملون على يخته، للإقامة في المنطقة الروسية، حيث خصص له سكن واسع ومريح...".

كان ستالين يستدعي كلاًّ منا بمفرده. ولست أعرف من منهم كان مثلي، ضابطاً في الجيش، أو من كان يخدم في المخابرات أو في مفوضية الشؤون الخارجية. فقد كانت تطبّق بحرفيتها القاعدة التي تقول بألا يستفسر أحدنا من الآخر عن شيء. وقد حفظت ذلك جيداً في المخابرات الفعلية. وهذا هو الصواب، بالطبع.

أذكر فقط أن جميع هؤلاء الناس كانوا أكبر مني سنّاً. ورسمياً لم يكن أي من هؤلاء، كما قال ستالين، يختلط مع أعضاء الوفدين الأميركي والبريطاني، أو مع أي شخص من الأجانب الوافدين إلى المؤتمر في طهران.

قد يكون يوسف فيساريونوفيتش كلّفَ رفاقي الجدد أيضاً المهمة ذاتها، وهي التنصّت على جميع أحاديث روزفلت وتشرشل وتشفيرها وإبلاغها يومياً لستالين شخصياً. لم يخبرني ستالين عن المكان الذي توجد فيه الميكروفونات بالضبط. إلا أنني عرفت لاحقاً أن التنصّت على الأحاديث كان يتم في ست أو سبع غرف من غرف السفارة السوفياتية التي يقيم فيها الرئيس روزفلت. وكانت جميع أحاديثه مع تشرشل تجري هناك بالذات. وكانا يتحدثان أحدهما إلى الآخر عادة قبل بدء اللقاءات أو بعد اختتامها. كما أن بعض الأحاديث بين أعضاء الوفدين كانت تجري أيضاً في أوقات الاستراحة.

أما بالنسبة للتكنولوجيا، فقد كان التسجيل عادياً، لكن آلات التسجيل آنذاك كانت، طبعاً، أكبر مما هي الآن. كان يتم تسجيل الأحاديث ومن ثم معالجتها. ومن الطبيعي أن ستالين لم يكن يفترض، ولم يكن بنيّته أن يفترض، أن عليه قراءة كل هذه الأوراق. وينبغي الأخذ بالحسبان أن روزفلت وحده كانت ترافقه حاشية كبيرة جداً. فهل بإمكانكم أن تتصوروا كم من ساعات التسجيل كان يتطلب الأمر؟ كان روزفلت هو الذي يعنينا، بالدرجة الأولى. وكان ينبغي التعرف إليه وإلى تشرشل من خلال نبرة الصوت والمناداة. كانت الميكروفونات توجد، كما ذكرت، في أماكن مختلفة.

إن بعض المسائل كانت تتم مناقشتها من قبل ممثلي هيئات الأركان العامة أيضاً. ومن بين هذه الأصوات المتعددة لم يكن من السهل انتقاء ما هو ضروري لستالين. لكن كان من الطبيعي أن تعالج، بالدرجة الأولى، حوارات روزفلت وتشرشل ورؤساء الأركان العامة. وفي الصباح كنت أتوجه إلى ستالين، قبل بدء الاجتماعات.

لم تكن المادة الأساسية التي أقوم بإبلاغها كبيرة من حيث الحجم، إذ لم تكن تتجاوز عدة صفحات. إلا أنها كانت المادة التي تعنيه بالذات. وكانت المواد تترجم إلى اللغة الروسية، لكن، مع ذلك، كان ستالين يلزمنا بأن تكون النسخة الإنكليزية بين أيدينا.

كان عمله معنا لا يستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة من الوقت يومياً. وكان ذلك نوعاً من التحضير للاجتماع المقبل مع روزفلت وتشرشل.

إجمالاً كان ستالين يستعد لأي حديث استعداداً دقيقاً. وكان يمتلك معلومات عن أي موضوع مطروح للبحث، ويتمكن من ناصية الحديث جيداً. وأذكر كيف كان يقرأ النص الروسي ويسأل بين الحين والآخر:

- هل قال ذلك عن قناعة أم أن الشك كان يساوره؟ ماذا تعتقد؟ وهنا؟ كيف تشعر؟ هل يُقدِم على تنازلات؟ وهذا الأمر، هل سيصرّ عليه؟

كان من المتعذّر الإجابة عن كل هذه الأسئلة دون الاستعانة بالنص الإنكليزي وبالملاحظات الذاتية الخاصة. ولهذا كنا نعمل بجدية آخذين بالاعتبار رنة الصوت وجرسه.

لم تكن هذه المشاركة في أعمال المؤتمر علنية، بالطبع. وقلّة، غير ستالين، من كان يعرف، كما أعتقد، ما كنا نقوم به في طهران. ولم نكن نحن، في الواقع، نلتقي أحداً. كنا نقوم بالتنصّت في النهار، وعند المساء، ثم نقوم بمعالجة المادة التي توفرت، ونذهب في الصباح إلى ستالين. وبقي الأمر على هذا المنوال طوال أيام المؤتمر. وأعتقد أن يوسف فيساريونوفيتش كان مرتاحاً لعملنا، لأننا لم نتلقّ أية ملاحظات حول ذلك. وحين انتهى المؤتمر غادرنا

طهران بهدوء كما وصلنا. أرسلت أنا إلى موسكو، وغادرت من هناك إلى لينينغراد لمواصلة دراستي في الأكاديمية.

لقد كتب الكثير، عندنا وفي الغرب بخاصة، عن المؤتمر نفسه. لكن لم يرد فيما كتب سطر واحد يشير إلى أن عضو لجنة الدولة للدفاع بيريا قد سافر أثناء الحرب إلى إيران... والأسباب هي نفسها... وذلك لأن أحداً لا يعرف الآن أنه كان عضواً في لجنة الدولة للدفاع. فكيف بالأحرى مؤتمر طهران. علماً أنه قد سافر مع ستالين إلى بوتسدام وشارك قبل ذلك في مؤتمر يالطا الدولي.

إن أولئك الذين كتبوا في حينه عن مؤتمر طهران أو عن سواه من المؤتمرات، لم يكن بوسعهم، بكل بساطة، ذكر اسم بيريا. هل تتذكرون؟ لقد تحدثنا عن رحلة والدي إلى شمال القفقاز. وكان الجنرال شتيمنكو صادقاً فيما كتبه عن الوضع هناك. فقد كتب كل شيء ما عدا أن تنظيم مجابهة العدو على الأرض قد قام به والدي.

مقتطفات من مصادر رسمية:

سيرغي شتيمنكو: جنرال جيش (العام ١٩٦٨)، عمل في الجيش السوفياتي منذ العام ١٩٢٦. أنهى الأكاديمية العسكرية لمكننة وتأليل جيش العمال والفلاحين الأحمر (RKKA)، والأكاديمية العسكرية للأركان العامة. منذ العام ١٩٤٠، عمل في الأركان العامة: مساعداً أول لرئيس قسم، نائب رئيس ورئيس مديرية. في أيار/مايو ١٩٤٣، أصبح رئيس مديرية العمليات في الأركان العامة. شارك في التخطيط لتحطيم القوات المسلحة في كل من المانيا واليابان. تنقّل في السنوات الأخيرة بين مناصب عدّة: رئيس المديرية العامة ثم نائب رئيس الأركان، ثم رئيس للأركان ونائب لوزير القوات المسلحة في الاتحاد السوفياتي والنائب الأول لرئيس الأركان العامة للقوات المسلحة الموحدة للدول المشاركة في معاهدة فرصوفيا، ثم رئيس لأركان هذه القوات.

توفي في العام ١٩٧٦ عن ٦٩ عاماً.

يتذكر جنرال الجيش سيرغي ماتفييفيتش شتيمنكو، الذي كان آنذاك رئيساً لمديرية العمليات في الأركان العامة، أن القيادة العليا لم تكن صريحة معه عشية مؤتمر طهران، إذ قالت له: "خذ خرائط جميع الجبهات ورجلاً لحل الشيفرة. وتعرف لاحقاً متى وإلى أين سوف تذهب".

ويقول شتيمنكو إنهم غادروا على طريق ماجايسك؛ وفي مكان ما بعد كونتسيفا[1] كان ينتظرهم قطار على رصيف عسكري في محطة قطارات. أوصله مرافقه إلى العربة المعنية وقال باقتضاب: "سوف تسافر من هنا".

اتجه القطار نحو ستالينغراد، ومن ثم نحو كيزليار، وبعدها ماخاتشكالا. أما المحطة النهائية، فلم يكن لدى سيرغي ماتفييفيتش أي تصوّر حولها. لكن في إحدى المرات، وبعد التقرير الدوري عن الوضع على الجبهات، دعا ستالين شتيمنكو إلى مائدة الغداء، حيث عرَّج في الحديث مع الذين كانوا يسافرون معه عن مؤتمر ما يشارك فيه روزفلت وتشرشل. استمر الغداء نحو ساعة ونصف الساعة لم يتطرق الحديث خلالها إلّا إلى اللقاء المقبل.

كان القطار يتوقف بين الحين والآخر، وكانت تضاف آنذاك، كما يتذكر شتيمنكو، ذبذبات عالية إلى خطوط الاتصالات،حيث كان القائد الأعلى يطلب الأخبار الأخيرة من الجبهات. كان رئيس مديرية العمليات يصوّر الوضع على الخرائط، ويقدّم تقاريره إلى ستالين عن جبهتي البلطيق الأولى والثانية والجبهة الأوكرانية الثالثة. وكان قد نشأ في تلك الأيام بالذات وضع مقلق على الجبهة الأوكرانية الأولى. فبعد أن استولت قواتنا على كييف وكورستن كانت تصد بصعوبة الهجوم الألماني المضاد في منطقة جيتومير وفاستوفا. لكن العدو استولى على جيتومير. وهنا في القطار أبلغ شتيمنكو القائد الأعلى عن حصار كوروستين، حيث كانت تخوض القتال البطولي فرقة المشاة ٢٢٦ من الجيش ٦٠، كما أبلغه أيضاً عن المعارك الهجومية على اتجاهي كيروفغراد وكريفوروغ.

كانوا على الجبهات ينتظرون منذ زمن بعيد فتح الجبهة الثانية، ولم يكن

---

(١) منطقة في موسكو الآن، آنذاك كانت من الضواحي ـ المترجم.

أحد على هذه الجبهات يعلم باللقاء المقبل "للترويكا الكبيرة"، وبأن هذا اللقاء بالذات سوف يقرّب موعد النصر.

يقول شتيمنكو إنهم وصلوا إلى باكو مساء. وكان يسافر مع ستالين كل من مولوتوف وفوروشيلوف. أما عن بيريا فلا كلمة...

في الصباح، كانت تقف على مدرج المطار عدة طائرات من طراز(Si-47). وكان يسير بالقرب من إحداها قائد القوات الجوية، الماريشال الأول اللاحق للطيران وبطل الاتحاد السوفياتي مرتين، الكسندر الكسندروفيتش نوفيكوف، الذي كان في الوقت نفسه نائب مفوض الدفاع لشؤون الطيران. كما كان يسير معه أيضاً قائد الطيران البعيد المدى، الماريشال الأول المقبل أيضاً للطيران، ألكسندر يفغينيفيتش غولوفانوف. ورأى شتيمنكو عند طائرة أخرى الطيار ف.غ.غراتشيف الذي كان يعرفه من قبل. حين وصل ستالين إلى المطار أبلغه نوفيكوف أن ثمة طائرتين جاهزتين للإقلاع: الأولى يقودها الجنرال- كولونيل غولوفانوف، والثانية يقودها الكولونيل غراتشيف. واقترحوا على القائد الأعلى أن يطير مع غولوفانوف. ابتسم ستالين وقال:

- الجنرال ـ كولونيل نادراً ما يقود الطائرات. سوف نطير مع الكولونيل...

إن الجنرال شتيمنكو، إذ يتذكر هذه الحادثة، قد فاته تفصيل واحد وهو أن الكولونيل ف.غ. غراتشيف كان يقود طائرة عضو لجنة الدولة للدفاع لافرنتي بافلوفيتش بيريا...

وصلوا إلى طهران معاً: ستالين، موتولوف، فوروشيلوف ووالدي. وطار على نفس الطائرة الجنرال شتيمنكو أيضاً، الذي كان يقدّم في الجو تقارير لقادة البلاد عن الأوضاع على الجبهات خلال الأيام الماضية. أما الطائرة التي كان يقودها الجنرال-كولونيل غولوفانوف فقد طار على متنها الموظفون المسؤولون في مفوضية الخارجية والحرس. وقد تبع هاتين الطائرتين إلى طهران عدد آخر من الطائرات.

يتذكّر الجنرال شتيمنكو أن الحديث في الجو كان حول أوكرانيا. وقد أبلغ

سيرغي ماتفيبفيتش كلاً من ستالين ومولوتوف وبيريا وفوروشيلوف أن العدو يندفع نحو كيف وأن وحداتنا على وشك إخلاء كوروستن.

بعد رحلة دامت ثلاث ساعات من الطيران اتجه غراتشيف بالطائرة نحو الهبوط. وفي المطار كانت تقف سيارة بانتظار أعضاء الحكومة. انطلقت السيارة بسرعة كبيرة نحو المدينة، وهي تقلّ ستالين ومولوتوف ووالدي وفوروشيلوف، وتبعتها سيارة أخرى كانت تقلّ الحرس.

لم تكن رحلتي آنذاك، أي في خريف ١٩٤٣، هي الأولى إلى هناك. فقد ذكرت سابقاً أنني، عام ١٩٤١، انتسبت الى مدرسة المخابرات، وفشلت محاولة نقل مجموعتنا إلى ألمانيا. وقد نُقلت هذه المجموعة بكاملها إلى منطقة باكو، على بعد ٣٠- ٤٠ كيلومتراً عن المدينة. ولست أدري لماذا هذه المنطقة بالذات، إلا أن هذه المسألة لم تناقش معنا. وهناك في مركز مخابرات المنطقة الجنوبية تسلّمنا إشارات نداء جديدة، ونقلنا مع مجموعتين تخريبيتين بالطائرات إلى كردستان الإيرانية. وكانت هاتان المجموعتان تتشكلان من أشخاص يجيدون تخريب الاتصالات. أما مجموعتنا، فكانت تقوم بدور الحماية القتالية.

تمركزنا في جبال كردستان الإيرانية. وتجدر الإشارة إلى أن شبكة مخابراتنا في إيران وتركيا كان لا بأس بها. وكانت خطوط اتصالاتنا تمرّ عبر القبائل الكردية في تركيا، ومن ثم إلى بلغاريا، ومن هناك كان رجال مخابراتنا ينتقلون رسمياً مزوّدين بالوثائق إلى ألمانيا مباشرة. فقد كان قسم من الناس يتسلّل إلى ألمانيا ليس بالمظلّات. وقد علمت بعد الحرب أن اثنين من الألمان كان ينبغي أن أهبط معهما في شمال ألمانيا، وصلا إلى الهدف بهذه الطريقة. وقد وصل أحدهما إلى مصانع ميسرشميدت (للطائرات) وعمل في حقل الطيران النفاث. وقد نقله الأميركيون لاحقاً مع غيره من الاختصاصيين الألمان إلى الولايات المتحدة... أما رجل المخابرات الآخر، فقد دخل في مجموعة فون براون في مركز "بنيميونده" للصواريخ.

كنت أعمل على اللاسلكي وأحافظ على الصلة مع المركز، إلا أن المعلومات لم أكن أنقلها إلى موسكو، بل إلى مجموعة الاتصال في القفقاز.

لقد استُثنيت، للأسف، من المجموعة التي غادرت عبر تركيا، وإن كنت أرغب بشدة في مرافقتها. وأفهمت بأنه يوجد عامل لاسلكي ألماني في مكان عمل المجموعة. بقيت بعد ذلك في إيران مدة أربعة أشهر. وقد فضحت مجموعتنا حينئذٍ بعض مقرات المخابرات الألمانية، التي تولّى أمرها لاحقاً أشخاص آخرون. أما نحن فقد تم نقلنا إلى باكو، ومن ثم قضينا شهر استجمام في تبليسي. كانت توجد آنذاك، بل وفيما بعد، مجموعات أخرى تعمل في إيران.

في صيف ١٩٤٢، التحقت بجبهة شمال القفقاز، وأرسلت بعدها، أي في الخريف، إلى الأكاديمية.

لقد عرفت حين عدت مرة أخرى إلى إيران ما جرى عشية مؤتمر طهران.

لقد ساعدتنا إقامة روزفلت في السفارة السوفياتية مساعدة كبيرة، بالطبع. لكن ليس من قبيل التخيّلات أن الخطر كان يهدّد كلاً من روزفلت وتشرشل وستالين. وقد تم عشية المؤتمر، بالفعل، اعتقال عملاء ألمان، قدّمهم ستالين مع الوثائق إلى تشرشل وروزفلت. وقد تمكّن هذان الأخيران من الاقتناع بأن المخابرات السوفياتية قد فضحت، بالفعل، مؤامرة كبيرة. وكان هدف الألمان القبض على "الترويكا الكبرى" أو القضاء عليهم جميعاً.

لقد وافق روزفلت بالانتقال إلى السفارة السوفياتية لأسباب أمنية، أما تشرشل فقد رفض ذلك. إلا أن الجانب الإنكليزي وافق على زيادة الحرس من جانبنا. إن جميع هذه الإجراءات الاحترازية لم تكن في مثل ذلك الوضع عملاً بلا جدوى.

لم تحصل بفضل المخابرات السوفياتية محاولات اغتيال. وأعتقد أن ليس مهماً بفضل أيٍّ من هذه المخابرات لم يحصل ذلك: الاستراتيجية أم العسكرية أم مخابرات الداخلية.

من مذكرات قائد فصيل الأنصار المخابراتي "المنتصرون"، الذي كان يعمل في الأعوام ١٩٤٢ - ١٩٤٤ على أراضي منطقتي روفين ولفوف، بطل الاتحاد السوفياتي الكولونيل ديمتري نيكولاييفتش ميدفيديف:

"التقى زيبرت وفون أورتيل في الكازينو في الشارع "الألماني". وأطلعه فون أورتيل آنذاك على المكان الذي يزمع أن يتوجه إليه. فهو سيتوجه إلى أكثر قطاعات الجبهة حساسية:

– وأين هو قطّاعك "الحساس" هذا؟

أجاب فون أورتيل مبتسماً:

– في طهران.

– في طهران؟ لكن هذه إيران، وهي دولة محايدة.

– هناك بالذات ستجتمع في شهر تشرين الثاني/نوفمبر "الترويكا الكبرى": ستالين روزفلت وتشرشل... وقال فون أورتيل إنه قد سافر إلى برلين منذ فترة قصيرة، واستقبله الجنرال ميوللر وحصل على عرض مغر للغاية، لا تُخفى حقيقته على زيبرت. على كلٍّ، بوسعه أن يخبره بالأمر مباشرة : من المزمع القضاء على "الترويكا الكبرى"، ويجري إعداد خاص لبعض الناس. فإذا كان زيبرت راغباً في ذلك، فبوسع فون أورتيل أن يساعده في ذلك. المدرسة توجد في كوبنهاغن. ويتم إعداد إرهابيين لإرسالهم إلى طهران. ولا ينبغي، بالطبع، الثرثرة حول الأمر.

...في هذا اليوم وأثناء الاجتماع السياسي، قرأ ستيخوف على الأنصار خبر فشل المؤامرة الهتلرية في طهران. ولم يذكر، بالطبع، اسم كوزنتسوف أثناء ذلك... ولم يكن من شك في أن العملاء الألمان الذين جرى ذكرهم في البرقية، بمن فيهم فون أورتيل، بالطبع، الذي لم يكن يحتل المركز الأخير بينهم، قد تم العثور عليهم والقضاء على ما يمثّلونه من خطر.

– أهنّئك يا نيكولا إيفانوفيتش!

أجاب كوزنتسوف:

– قد لا يكون الفضل لي هنا.

– يجدر القول إن عشرات الأشخاص قد ساهموا بعملهم في ذلك...".

هكذا كان الأمر بالضبط. فالمخابرات السوفياتية لم تُفشل، فحسب، المؤامرة التي كان يعوّل عليها الألمان بشدة، بل استخدمت كذلك وجود الرئيس الأميركي في السفارة السوفياتية استخداما كلياً.

لقد قرأنا باهتمام في كتاب كريستوفر أندريو والكولونيل في الكي جي بي أولغ غوردبفسكي، الذي فرّ إلى بريطانيا، عن تلك العملية التي مرّ عليها أربعون عاماً، ما يلي:

"لقد ابتدعت مفوضية الشعب لأمن الدولة (NKGB)، التي نجحت في زرع أحدث آلات التنصّت في السفارة الأميركية في موسكو، وسيلة لا تقلّ فاعلية في التنصت على روزفلت ومعاونيه في طهران. وأكد مولوتوف أن لديه معلومات عن مؤامرة يعدّها الألمان، وأعلن أن المقر الأميركي الذي يقع على بعد ميل من المقرّين السوفياتي والبريطاني المتجاورين ليس آمناً على نحو كاف. واقترح تشرشل على روزفلت أن يقيم في السفارة البريطانية. لكن الرئيس لم يكن يرغب في إعطاء الروس أية حجة للشك في وجود مؤامرة بريطانية أميركية، ولذلك رفض الاقتراح، وقبل بكل خفة اقتراح ستالين الذي كان يلح عليه بالإقامة في السفارة السوفياتية. وقد كتب مسؤول القسم العسكري في سكرتارية مجلس الوزراء الجنرال اسماي في منكراته، يقول: "كنت أود ان أعرف ما إذا كانت الميكروفونات قد ثبتت مسبقاً في مبنى منفرد".

يفترض الكاتبان أن "ليس من شك، بالطبع، في أن الميكروفونات كانت قد ثبتت هناك. وخلال اللقاء الأول على مستوى الرؤساء، كان الوفد الأميركي يعيش على أرض سوفياتية، ويقوم بخدمته عاملون في مفوضية الداخلية (NKVD). وكانت جميع أحاديث الوفد تصبح على الفور معروفة لدى الروس. وبالتالي، يمكن القول إن الأميركيين كانوا يمارسون خلال هذا اللقاء ما يشبه الدبلوماسية المكشوفة". من الصعب ألا يوافق المرء على التأكيد أن ستالين خلال اللقاء الأول "للترويكا الكبرى" كان يتلقى معلومات مخابراتية أكثر بكثير مما كان يتلقى تشرشل وروزفلت.

هل كان التصرّف مع الحلفاء على هذا النحو أمراً أخلاقياً؟ لقد أجاب

ستالين نفسه عن هذا السؤال بقوله: "إنه عمل لا ينسجم مع الأخلاقيات..." إلا أنه، وكما أشار، لم يكن لديه مخرج آخر. هل كان لدى ستالين أساس للشك في صفاء نيّات الحلفاء؟ يكفي أن نتذكّر سنوات ما قبل الحرب، على الأقل أن نتذكّر تشرشل مثلاً. فمن المعروف أنه كان ينتمي في حينه إلى مجموعة المحافظين التي كانت تضع نصب عينيها القضاء على الدولة السوفياتية. ولم يكن هو نفسه يتستّر على آرائه. فلم يعتبر أن من الممكن التحالف مع الاتحاد السوفياتي ولو لفترة وجيزة إلا بعد أن زحف الألمان عليه. وكان ينطلق حتى في موقفه هذا من مصلحة الإمبراطورية البريطانية.

لماذا كان على ستالين أن يصدّقه؟ لم يحرّك الحلفاء ساكناً طوال سنة ونصف السنة بعد إعلان الإنكليز عن دعم الاتحاد السوفياتي في هذه الحرب. ولم يتدخلوا إلا حين أدركوا أنه لا يمكن دحرنا. وحتى هذا التدخل لم يجر، على ما أعلم، إلّا بضغط من الأميركيين.

بل كيف كانوا يتصرفون في المؤتمرات الدولية؟ وليس مؤتمر طهران سوى نموذج لذلك. كان تشرشل وروزفلت يحاولان كلّ بمفرده، وبمعزل عن الآخر، نقل المعلومات إلى ستالين. فكان تشرشل يعلن أنه يتعاطف جداً مع أميركا وهو نصف أميركي، إلا أنه ليس بوسعه أن يوافق كلياً على موقف الرئيس. وكان روزفلت بدوره يقول أن ليس لديه أي شيء ضد البريطانيين، لكن ليس في نيته الدفاع عن مصالح الإمبراطورية البريطانية. وكانت أجهزة مخابرات الطرفين تتصرف على هذا النحو أيضاً.

يجدر بنا أن نتذكر هنا، كما أعتقد، عملية "الوثبة الطويلة"،التي عهد بها هتلر، كما تؤكد بعض المصادر، إلى الشخص المحبب إليه أوتو سكورتسني المسؤول في الإس الإس (SS). غير أن هذه المعلومة لم تتأكد، على ما أعرف. بيد أن الأمر الأكيد هو أن سكورتسني كان يقود كل شبكة المخابرات الألمانية في إيران. وكان يتواجد على فترات متقطعة في إيران، إلا أنه كان بالأساس يقيم في ألمانيا.

حين كنت في إيران كان عملاؤنا على الأرض الذين يهتمون بسكورتسني قد وجدوا الطريق إليه وتغلغلوا هناك كذلك. ومن المحتمل أن يكون الإنكليز قد أعطونا بعض المجموعات، ليس بشكل رسمي، بل عبر المخابرات. ولهذا كانت الصورة الكاملة عن شبكة العملاء الهتلريين قد أصبحت معروفة حتى بداية أعمال مؤتمر طهران.

لم يكن ينبغي أن يعقد هذا المؤتمر في طهران. فقد اقترح الإنكليز والأميركان عقده في كازابلانكا. إلا أن ستالين لم يوافق على ذلك، قائلاً إن المكان بعيد جداً عن الاتحاد السوفياتي، وبوصفه القائد الأعلى لا يسعه أن يبتعد لمسافات طويلة، إذ لا بد أن تبرز مشاكل حول الاتصال بالجبهات وغيرها من المشاكل. وقد اضطر الأميركيون والإنكليز للموافقة على ذلك.

كان ستالين يعرف جيداً، حتى قبل وصوله إلى إيران، أن الألمان يعدّون لعملية اغتيال. وكان من الصعب التنبؤ بما ينتظر وفود الحلفاء في كازابلانكا. كانت مخابراتنا تملك بعض المعلومات، بالطبع، إلا أنها أقلّ بما لا يقاس من المعلومات المتوفرة عن إيران. والسبب في ذلك هو أنه في الفترة التي كان يجري الإعداد فيها لذلك لم تكن منطقة شمال إفريقيا، بعكس إيران، تدخل في إطار اهتمام دولتنا. وهذا ما يفسّر نشاط مخابراتنا في البلد المجاور.

حين طرحت كازابلانكا كمكان لانعقاد مؤتمر القمة، أصبحت الجزائر فوراً في دائرة اهتمام مخابراتنا واهتمام الأركان العامة. فكان لابد، بالدرجة الأولى، من إنشاء شبكة اتصالات، فسافرت حينها إلى شمال إفريقيا. أقلعنا من إيران على متن طائرة بريطانية، لأن طائراتنا لم تكن تمضي إلى هناك، وعدنا كذلك على متن طائرة إنكليزية مع طاقم إنكليزي. كان هؤلاء مُتحفّظين جداً، أما الأميركيون، فيشبهوننا كثيراً.

مكثنا في كازابلانكا خمسة أو ستة أيام، ثم تلقّينا أمراً بالمغادرة، فأقفلنا عائدين. ولا زلت أذكر حتى الآن البيوت ذات الدور الداخلية المسوّرة بجدران عالية.

لقد غادرنا كما وصلنا دون أن نلفت الانتباه، فهذه الأمور هي أمور سرية، بالطبع. أما طهران، فقد أتت لاحقاً...

رأي من الشرق

من موسوعة "تاريخ الحرب الوطنية العظمى": "كانت المسائل الأساسية في مؤتمر طهران هي المسائل العسكرية، وبخاصة قضية الجبهة الثانية في أوروبا، التي كانت الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا قد أجّلتا موعد فتحها في العامين ١٩٤٢ و ١٩٤٣. وبقي الاتحاد السوفياتي يتحمّل العبء الأساسي في النضال ضد الحلف الفاشي في أوروبا. ونتيجة للوضع الجديد الناشىء، إثر الانتصارات الباهرة للجيش السوفياتي (معركة ستالينغراد، معركة كورسك، معركة الدانوب)، أخذ الحلفاء الأميركيون والإنكليز يتخوّفون من قيام القوات المسلّحة السوفياتية بتحرير أوروبا الغربية من دون مشاركة القوات المسلحة الأميركية والبريطانية... وقد أشار الوفد السوفياتي إلى أنه من الأفضل إنزال ضربة بالعدو في شمال فرنسا أو في الشمال الغربي منها، مع إنزال في الوقت نفسه في جنوبها. وبنتيجة المناقشات، أعلن الحلفاء في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٣ أن عملية "أوفرلورد" سوف تجري في أيار/مايو ١٩٤٤، وتترافق مع إنزال في جنوبي فرنسا. وقد أعلن الوفد السوفياتي من جانبه أن القوات السوفياتية سوف تقوم في هذا الوقت تقريباً بهجوم يهدف إلى الحؤول دون نقل قوات ألمانية من الجبهة الشرقية إلى الجبهة الغربية. وقد توصّل المشاركون في المؤتمر إلى اتفاق حول ضرورة إشراك تركيا في الحرب إلى جانب الحلفاء المناهضين للتحالف الهتلري، وتقديم المساعدة للأنصار اليوغوسلاف... لقد ساعد مؤتمر طهران على تدعيم التحالف المعادي لهتلر، وأكد إمكانية التعاون بين دول ذات أنظمة اجتماعية مختلفة في معالجة القضايا الدولية باسم المصالح الإنسانية العليا".

رأي من الغرب

نيكولاي فيرت، مؤرخ فرنسي مشهور يعمل في مركز فرنسا الوطني للأبحاث العلمية في باريس. دكتور في العلوم التاريخية، ابن الكسندر فيرت الشهير صاحب كتاب "روسيا في حرب ١٩٤١- ١٩٤٥":

جمع مؤتمر طهران، الذي عُقد بين ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر و١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣، لأول مرة كلاً من تشرشل وروزفلت وستالين، الذي وافق أخيراً على مغادرة نطاق الاتحاد السوفياتي لعدة أيام. لقد بَدَأَ في هذا اللقاء، الذي سبق مؤتمر يالطا الشهير بمدة خمسة عشر شهراً، تحديد مستقبل أوروبا. وقد أجاد ستالين اللعب على الشعور بالذنب من قبل الحلفاء الغربيين بسبب التأجيل المستمر لفتح الجبهة الثانية الحقيقية الموعودة، وكذلك على الخلافات بين الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا، وحصل على القرارات التي يحتاج إليها في المسائل الأساسية:

- وعد بإنزال إميركي- إنكليزي في فرنسا في موعد لا يجاوز شهر أيار/ مايو ١٩٤٤.

- نقل حدود بولونيا نحو الغرب حتى نهر الأودر، وبالتالي اعتراف الحلفاء الغربيين، حتى وإن لم يكن رسمياً في البداية، "بخط كيرزون" بوصفه الحدود الشرقية لبولونيا.

- الاعتراف بالمطامح السوفياتية في ضم كينيغسبرغ، التي لم تكن تابعة لروسيا في يوم من الأيام.

- الاعتراف بضم دول البلطيق كعمل جرى "وفقاً لإرادة سكانها".

مقابل هذه التنازلات، وافق الاتحاد السوفياتي على إعلان الحرب على اليابان في فترة لا تتعدّى ثلاثة أشهر بعد انتهاء الحرب في أوروبا. بعد هذا النجاح الدبلوماسي للاتحاد السوفياتي، الذي كانت قواته المسلحة قد أصبحت

متفوقة على الفيرماخت في كافة المجالات، بدأ في كانون الثاني/يناير ١٩٤٤ هجوماً جديداً...".

بعد مرور أربعة عقود من الزمن على ذلك اللقاء الشهير "للترويكا الكبرى"، من الصعب حتى في يومنا هذا، إعادة تقييم كل أهمية طهران بالنسبة إلى نصرنا المشترك. وإذا وافقنا أن ستالين تغلّب على الحلفاء في خريف العام ١٩٤٣، فلنذكر بكلمة طيبة أولئك الذين ساعدوه في ذلك. فمهما كان موقفنا من ديكتاتور الكرملين، فإن الحديث الآن ليس عنه، فالذي ربح آنئذٍ، أي عام ١٩٤٣، هو الجندي السوفياتي الذي كان ينتظر فتح الجبهة الثانية منذ صيف عام ١٩٤١ الحار...

الفصل السابع

يالطا، ١٩٤٥

عقد مؤتمر يالطا (ويسمّونه أحياناً مؤتمر القرم) بين ٤ و ١١ شباط/فبراير ١٩٤٥. وكان الجيش الأحمر قد انتقل إلى الهجوم مجدّداً قبل فترة وجيزة، واستولى في مطلع شباط/فبراير على سيليزيا بعد أن كان قد أنقذ الحلفاء الذين اصطدموا بهجوم ألماني مضاد مفاجئ في مناطق آردن. ولم يكن قد بقي سوى شهر على عبور نهر الأودر وشهران على اقتحام برلين. وكانت نهاية الحرب قد أصبحت واضحة بالنسبة لنا وبالنسبة للألمان والحلفاء أيضاً.

لقد جرى إلحاقي على نحو تلقائي بالمجموعة الخاصة لخدمة اللقاء الثاني لقادة الدول العظمى الثلاث: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا. فقد نبشوا في موسكو، عشية لقاء "الترويكا الكبرى"، الوثائق المتعلقة بتنظيم الإجراءات المخابراتية الخاصة في مؤتمر طهران، وقرروا الإفادة من خبرتنا. وهكذا وصلت إلى القرم آنذاك.

وصل الاستدعاء إلى الأكاديمية على نحو غير متوقع، كما في المرة السابقة تماماً. ولم يكن لدى القيادة العليا للأكاديمية أي علم، بالطبع، حول اللقاء المقبل "للترويكا الكبرى". وكان الأمر يشير إلى ضرورة حضوري إلى الأركان العامة. علمت في موسكو أن عليَّ أن أطير إلى القرم. وكان ثمة أمر جديد آخر، فقد كانت مختبراتنا الخاصة قد صمَّمت حتى ذلك الحين أجهزة أكثر حداثة، سوف يتعيّن علينا أن نستخدمها.

وكما في طهران، كذلك في يالطا، ثبّتنا أجهزة التنصّت في كافة الأبنية التي يشغلها المشاركون في المؤتمر. غير أن الأمر لم يقتصر على ذلك، فقد كانت الأجهزة الجديدة تسمح لنا بتسجيل مستمر للأحاديث ليس في الأبنية المخصصة للوفدين الأميركي والإنكليزي فحسب، بل وفي الحديقة أيضاً، بواسطة ميكروفونات موجّهة. فلم يكن هناك من مشكلة فيما لو كان الهدف الذي يعنينا يبعد عنّا مسافة تراوح بين ٥٠ و١٠٠ متر.

وصلنا إلى يالطا قبل بدء أعمال القمة، ولمسنا على الفور الفارق الكبير في تنظيم المؤتمر وتجهيزه التقني، وذلك في ما يتعلق بعملنا "الخاص" في خدمة المؤتمر... كان عدد العاملين هنا أكبر ممّا كان في طهران، وبالتالي كان من الطبيعي أن يكون العمل الملقى على عاتق كل منا أقلّ. فقد كنت أنا، مثلاً، مكلّفاً الاهتمام بالرئيس الأميركي فقط، أما تشرشل والآخرون، فكان يهتمّ بهم اختصاصيون آخرون.

كان العمل في يالطا يمتاز بخصوصية أخرى مختلفة عمّا كان في طهران. فقد كان عليّ في طهران أن أبلغ التقارير إلى ستالين شخصياً. أما في يالطا فلم يكن الأمر كذلك، بل كانت جميع المعلومات المتوفّرة تمرّ عبر أجهزة الأركان العامة. حتى أن ستالين لم يكن، كما فهمت، يرى هذه الوثائق. إجمالاً، لم يكن الوضع يشبه في شيء ما كان عليه الأمر في طهران، حيث لم يكن يتسنّى لنا أن نأخذ قسطاً من الراحة لمدة تزيد على أربع أو خمس ساعات في أحسن الأحوال. كما لم يكن يوجد في يالطا ذلك التوتّر النفسي،الذي لم يفارقنا طوال أيام مؤتمر طهران. لقد كان علينا في طهران، أن نقدم تقريراً يومياً للقائد الأعلى، ونعدّ له وثائق كل يوم، ممّا كان يخلق نوعاً من التوتر. فكل لقاء به لم يكن يمر، وأقولها بصراحة، دون توتر نفسي. ولم يكن ذلك خوف ضابط صغير أمام ماريشال وقائد دولة، بل هي الرغبة في إنجاز كل شيء على أفضل وجه. فقد كنا ندرك جيداً مدى أهمية ما كُلّفنا القيام به. وحين قرأت لاحقاً مذكرات لشخص ما عن مؤتمر طهران، لاحظت أنني لم أكن أعير اهتماماً آنذاك للكثير من الأمور. فالعمل الكثير والتوتر العصبي والجسدي لم يبقيا مجالاً للانطباعات الخارجية. ولم أدرك سوى في طهران، ومن ثم في يالطا لاحقاً،

أنه يوجد جانب ظاهر لمثل هذه اللقاءات وجانب خفي يبقى "خارج الصورة". فخلافاً للدبلوماسيين والمشاركين أنفسهم في اللقاءات، كنا نبقى نحن في الظل.

رأي من الغرب

من كتاب كريستوفر أندريو وأوليغ غورديفسكي: "الكي.جي.بي.، تاريخ العمليات السياسة الخارجية، من لينين حتى غورباتشوف"، الذي صدر في بريطانيا عام ١٩٩٠:

"كان المؤتمر التالي "للترويكا الكبرى" (المؤتمر الأخير الذي حضره روزفلت الذي توفي في نيسان/إبريل)، الذي جرى في شباط/فبراير ١٩٤٥ في يالطا على البحر الأسود، انتصاراً جديداً للاتحاد السوفياتي. فقد كان ستالين يمسك من جديد بكل الأوراق العسكرية الرابحة، إذ كان الجيش الأحمر يسيطر على بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والبلطيق وعلى جزء هام من ألمانيا. أما الحلفاء الغربيون، وعلى الرغم من انتصار "أوفرلورد"، فقد كان لا يزال عليهم أن يعبروا نهر "الراين". ولم يكن ستالين أقل تفوّقاً أيضاً في مجال المعطيات المخابراتية. فقد كان لمفوضية الداخلية (NKVD) عميلان موثوقان في وزارة الخارجية البريطانية، وهما دونالد ماكلين في السفارة بواشنطن، والذي كانت تتوفّر له إمكانية الإبلاغ عن المحادثات الأميركية البريطانية قبل المؤتمر، وغي بيردجيس الذي انتقل في العام ١٩٤٤ من الإذاعة البريطانية (BBC) إلى مديرية المعلومات في وزارة الخارجية. وكان مصدر المعلومات الأساسي لمفوضية أمن الدولة (NKGB) في وزارة الخارجية الأميركية الدجير هيس قد ضُمَّ في عداد الوفد المفاوض في يالطا. وكان، بوصفه نائب مدير قسم العمليات السياسية الخاصة منذ نهاية العام ١٩٤٤، قد اشتغل على نحو مباشر في الإعداد للمؤتمر... كان مقر الأميركيين في القصر الصيفي السابق للقيصر، أما مقر الإنكليز، فقد كان في قصر فورونتسوف الذي يبعد نحو عشرين دقيقة بالسيارة عن مقر الأميركيين. وكانت أجهزة التنصّت قد زرعت في كلا المقرّين. ويبدو أن الأميركيين لم يتّخذوا أية إجراءات احترازية...".

ألا يشبه ذلك ما قرأناه سابقاً؟ هل تذكرون: "يبدو أن الأميركيين كانوا يمارسون ما يشبه الدبلوماسية المكشوفة". كان الحديث يدور آنئذٍ عن مؤتمر طهران. أما الآن، فالمقصود هو مؤتمر يالطا. وهل يعقل أن الأميركيين كانوا سُذَّجاً لهذه الدرجة؟

لقد اتخذ الحلفاء، بالطبع، سواء الأميركيون أو الإنكليز، في طهران وفي يالطا التدابير الاحترازية الضرورية. وكانت تتوفّر لديهم أجهزة للبحث عن الميكروفونات، إلا أنها كانت من الطراز القديم. وقد كانت أجهزتنا للتنصّت أكثر إتقاناً في ذلك الوقت، ولم تكن تتأثر بأجهزتهم الكاشفة. ويكفي القول إنه لم يتم الكشف مرة واحدة عن أجهزتنا سواء في طهران أو في يالطا. لكن ليس بوسعي أن أتهم حلفاءنا بالسذاجة. فقد قام الأميركيون والإنكليز بفحص كافة الأمكنة فحصاً دقيقاً، وكانوا يعرفون جيداً من أجهزة مخابراتهم أن ليس من المستحسن أن تجري في هذه الأمكنة أحاديث لا ينبغي أن يسمعها آخرون. لكن الواقع يبين أن التوصية تبقى توصية لا أكثر. فمهما كان يبدي أعضاء الوفدين الأجنبيين من حرص أثناء أحاديثهم، إلا أن بعض الأمور كانت تمر، بهذا الشكل أو ذاك، رغماً عنهم. وهكذا كانت الحال أيضاً حين كانوا يبقون في غرفهم، أو حين كانوا يتنزهون.

كانت تتخذ التدابير الاحترازية نفسها من الجانب السوفياتي أيضاً. وليس في طهران ويالطا فحسب. فليس من سرٍّ أبداً في أن الأجانب يحملون معهم أجهزة للتنصت وللكشف عن أجهزة مماثلة. فبعد كل اجتماع يعقد في القاعات، كان يتم كشف دقيق عليها. وكانوا يبحثون عن تلك "البقّات" نفسها التي كتبوا عنها كثيراً في السنوات الأخيرة، والتي كنا، بالمناسبة، نطلق عليها نفس التسمية في تلك الأيام.

كانت أجهزتنا الكاشفة تسمح لنا بمكافحة هذه "البقات" على نحو فعّال جداً، وقد وجدنا منها الكثير. إلا أننا لم نعلن قط عن ذلك رسمياً. وكان الحلفاء أيضاً يتصرّفون على هذا النحو تماماً. فالقاعدة تقول: أنتم زرعتم فلا بأس، لكننا عثرنا نحن على ما زرعتم. لكن على الرغم من هذه القاعدة، فقد

خلق لنا الإنكليز، وكان ذلك في كوبيشيف، إشكالاً كبيراً في هذا المجال. فإما أننا لم نعمل على نحو دقيق آنئذٍ، أو أننا زرعنا أجهزة قديمة، إلّا أن الإنكليز اكتشفوا الأمر في السفارة البريطانية. وكان ذلك هو الإشكال الوحيد في هذا المجال الحساس.

وتجدر الإشارة إلى أن الحديث يدور عن فترة زمنية محددة تماماً. لقد أخذت هذه "الحوادث" تتكرر بكثرة منذ أواسط الخمسينيات. فبعد مضي عدة سنوات على تشييد مبنى السفارة الأميركية في موسكو، وجدت المخابرات الأميركية هناك بضع عشرات من أجهزة التنصّت. وفي عهد قيادة فاديم باكاتين المشينة للكي. جي. بي. حدثت فضيحة حقيقية في هذا المجال، إذ قام باكاتين نفسه بتسليم روبرت شتراوس خريطة أجهزة التنصّت في مبنى السفارة الأميركية. وإذ أمتنع عن أي تعليق، أذكّر فقط بأن هذا السكرتير السابق لإحدى اللجان المنطقية الحزبية في الريف لم يقم بخطوته المثيرة هذه، إلا استناداً إلى "قرار سياسي" مؤات من قبل القيادة السوفياتية. وقد أحدث هذا الأمر صدمة في أجهزة أمن الدولة نفسها، وفي كافة الأجهزة في العالم. فالأجهزة الأمنية السوفياتية، ووفقاً لبعض المعطيات، كانت تتنصّت على الأميركيين منذ مطلع الثلاثينات. وهكذا تماماً كان يتصرف حلفاؤنا حين كان يتيسّر لهم ذلك. وهذا لا يثير استغراب أحد، فهو في الحقيقة أمر متعارف عليه.

إن تصرّف باكاتين هو، برأيي، خيانة صريحة. أليس هذا تسليم سر من أسرار الدولة؟ قد لا يكون باكاتين أقدم على الخيانة من تلقاء ذاته، بل أفترض أنه ليس المبادر إلى ذلك، إنما تلقى أمراً من غورباتشوف أو من شخص آخر. وأقول صراحة إن هذا لا يهمّني بتاتاً. غير أن الموقف من التصرف نفسه واحد لا يتغير. فالمخابرات تعيش وفقاً لقواعدها، لكننا نستثني الاغتيالات السياسية، بالطبع. غير أن المعلومات ضرورية، وهذا ليس بسرّ، فكيف الحصول عليها؟ المجتمع الدولي لا يزال حتى الآن يعتبر أن الحصول على المعلومات مسموح به بمختلف الوسائل. ومن دون أن آخذ على عاتقي محاكمة سلوك أجهزة المخابرات أخلاقياً، فإنني أعتقد بأن التنّصت آنئذٍ، أي أيام الحرب، والآن، أمر مسلّم به في المخابرات.

إن مستوى أجهزة التنصّت هذه، وهي أجهزة وطنية، كان دائماً مستوى رفيعاً للغاية. وكان العثور عليها أمراً مستحيلاً من الناحية الفنية. فما بالك بأجهزة التنصّت الحديثة... لكن حتى في ذلك الحين لم تكن توجد لدى المخابرات السوفياتية أجهزة ميكروفونية يغذّيها سلك بالكهرباء، بل كانت توجد لديها أجهزة فريدة من نوعها، بالفعل. وعلى سبيل المثال، تلقّى في حينه أوريل غيرمان، سفير الولايات المتحدة في الاتحاد السوفياتي في الأعوام ١٩٤٣ - ١٩٤٦، واحداً من هذه الأجهزة... كهدية. فقد أهداه الجانب السوفياتي تمثالاً نصفياً لابراهام لينكولن، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأميركية. لم يكن الجهاز الذي وضع في التمثال يملك عناصر للتغذية، بل كان يعمل على أشعة الضوء من أسفل التمثال، وبالطاقة الخارجية في حالة إعادة البث.

لم تكن أجهزة التنصّت موجودة في السفارة الأميركية فقط، بل في جميع السفارات الأخرى. غادرت الأكاديمية مرة في زيارة إلى موسكو لعدة أيام، مررت أثناءها على مختبر الراديو الخاص في مفوضية الداخلية. ذلك أن زميلي كان قد دعاني قبل ذلك لمشاهدة الابتكارات الجديدة. وكان يوجد في هذا المبنى مركز معالجة المعلومات التي كان يتم التقاطها من السفارات الموجودة في موسكو.

قال زميلي بلهجة أثارت فضولي:

- سوف أطلعك على أمر مثير جداً للاهتمام، أعتقد أنه سينال إعجابك.

كان ذلك حديثاً سرّياً بين رئيس الوزراء تشرشل والنائب الدائم لوزير الخارجية كادوغان. لقد أصبت بالذهول. ليس بسبب عملية التسجيل، بالطبع، فقد كنت منذ زمن بعيد على علم بأنه يتم التنصّت على السفارات الأجنبية في موسكو. لكن ما أثار ذهولي أمر آخر. كان كادوغان يَشْتم رئيس وزراء بريطانيا بأقذع الشتائم. لم أكن سيّئاً في اللغة الإنكليزية، لكن الشتائم التي تلفّظ بها الوزير كانت خارج نطاق كتب التدريس المعروفة. وكما اتّضح، لم يكن يحق

لتشرشل مناقشة بعض الأمور دون موافقة مجلس الوزراء والتنسيق مع كادوغان نفسه.

في طريق عودتي إلى المنزل، كنت أتساءل: كم هي غريبة هذه العلاقات بينهم؟ فليجرّب أحد ما من نواب مفوضي الشعب، بل دعك من هؤلاء، فليجرب أحد من أعضاء الحكومة وأعضاء المكتب السياسي للجنة المركزية أن يتكلّم بهذه اللهجة مع ستالين.

وفي البيت رويت ما سمعته لوالدي، فكان ممتعضاً للغاية، إذ قال:

- ومن منحهم حق إطلاعك على مثل هذه الأمور؟

لم يبقَ لي إلا أن أطلب منه ألا يتدخل في الأمر، وأن يبقى الأمر بيننا. لكننا مع ذلك تحدّثنا آنذاك حول ما سمعته.

قال والدي:

- أجل، إن العلاقات بين أعضاء الحكومة هناك مختلفة كلياً. فكل واحد منهم يملك الحق بالدفاع عن وجهة نظره ومناقشة رأي رئيس الوزراء.

وعدت أنا إلى المقارنة من جديد، فجميع أعضاء القيادة عندنا، ما عدا بعض الاستثناءات، هم كالقطط الوديعة.

وحدث أن تعرّفت لاحقاً إلى كادوغان. وأذكر أنه كان مهتماً ليعرف كيف أجيد الإنكليزية. وقال: أعتقد بأنك تعدّ نفسك لمستقبل وظيفي محدد. أجبته: لا، إنني أجيد الإنكليزية والألمانية، وإذا لزم الأمر بوسعي دراسة لغات أخرى. إلا أنني أُعدّ نفسي لعملٍ في حقل التقنيات.

تهيّأ لي أنه لم يصدّق ذلك، فقال:

- نحن نُعدّ الناس منذ الكولدج... أنت تدرس اللغات وتطمح لعمل مختلف كلياً؟ هذا لا يعقل...

لكنني، بالفعل، لم أحلم في يوم من الأيام بشيء آخر غير التقنيات.

لم نختلط نحن مع الأجانب، ولأسباب مفهومة،لا في يالطا ولا في طهران من قبل. وفي وقت لاحق، وبمحض المصادفة، التقيتُ، في أحد البيوت الصيفية الحكومية في الجنوب، هاريمان وغاري هوبكنز، وكان هذا الأخير يشغل أثناء الحرب الثانية منصب مستشار ومساعد خاص للرئيس روزفلت. وكان الاثنان في زيارة لستالين، لكنني لم أكن على علم بذلك، وتوجهت إليه وأنا على ثقة بأن ما من أحد هناك، وهكذا تعرّفت إليهما.

جرى حديث ممتع بيننا. فقد تبين أن هاريمان كان يملك مناجم منغنيز في جورجيا قبل أن تصبح سوفياتية. كما عمل هناك بعد ذلك أيضاً. وحدّثني قائلاً:

- أنا أذكر والدتك في مطلع صباها. كانت تعمل في مصرف أليس كذلك؟ كانت تجري عندكم آنذاك حملة خيرية ما، وتبرّعت أنا بمبلغ يفوق ما طلب مني. كانت والدتك جميلة جداً. وقيل لي إنها زوجة تشيكيست.

- وقررت أنت التأثير على هذا النحو في رجال التشي.ك.

- لا، لا، كانت جميلة جداً، بالفعل، ولم أصمد أمام طلبها مساعدة الجائعين.

مثل هذه المصادفة حصلت أيضاً مع والدي أيام مؤتمر طهران. لم يكن يرى أحدنا الآخر في طهران وفي يالطا إلا نادراً. فكل منا كان لديه ما يكفي من العمل، ومع ذلك كنا نجد الوقت لنتبادل الآراء فيما بيننا. وقد حدّثني مرة بأنه تعرّف إلى شاب مثير جداً للاهتمام من المخابرات الأميركية، يبلغ من العمر ٢٢ عاماً، وهو جورجي. كان شاباً لطيفاً جداً وعلى اطّلاع جيد، ويحب جورجيا. وكان هذا كافياً لوالدي كي يجدا بسرعة موضوعاً للحديث. واعترف والدي بأنه دهش لمعرفة هذا الشاب الجيدة بالتاريخ. وقد تحدّثا بشكل خاص عن اللازين (الاسم الآخر للمنغريليين).

كان رجل المخابرات الأميركي يعرف جيداً مشاكل هذا الشعب. ومن الصعب القول ما إذا كانت معرفته هذه هي بدافع اهتمامه الشخصي أم مرتبطة بمهمته في المخابرات. لكن من الواضح أن والدي كان مرتاحاً جدّاً للقائه.

وأعتقد أن هذا الشاب كان مرتاحاً أيضاً للتعرف إلى والدي، إذ كان من المعروف أنه وصل إلى طهران مع ستالين.

بعد مرور سنوات عديدة، قرأت في إحدى الصحف الجورجية أن هذا الشخص كتب مذكّراته، وتحدّث فيها عن لقائه مع والدي. ولم تكن دهشتي أقلّ حين عرفت أن قائد قوات حلف الأطلسي في أوروبا يحمل اسم العائلة نفسه: شاليكاشفيلي. وأعتقد أن والدي، إذا ما أخذنا بالاعتبار بعض التفاصيل، قد التقى عام ١٩٤٣ أحد الأنسباء المقربين للجنرال الأميركي المعروف.

مقتطفات من مصادر رسمية:

جون شاليكاشفيلي: جنرال في الجيش. منذ خريف العام ١٩٩٣، رَأس الهيئة الموحدة للأركان. تدرّج في الجيش الأميركي من قائد فصيل إلى قائد فرقة. شارك في حرب فيتنام. وكان قائداً لقوات الحلف الأطلسي في أوروبا قبل تعيينه في أعلى منصب في الجيش الأميركي.

كان والد الجنرال شاليكاشفيلي ضابطاً في القوات المسلحة في جورجيا، وقد قاتل في العشرينات ضد وحدات الجيش الأحمر الزاحفة على جورجيا. فرّ من جورجيا بعد أن أصبحت سوفياتية، وخدم لاحقاً في الجيش التركي.

ولد جون شاليكاشفيلي في بولونيا، حيث كان والده يكمل خدمته بوصفه مستشاراً عسكرياً، وهو من أم بولونية.

في سنوات الحرب العالمية الثانية، كان والد الرئيس الحالي لهيئة الأركان الموحّدة يخدم في إيطاليا، حيث تم أسره من قبل القوات الأميركية بعد دخول الحلفاء إلى أوروبا. تقول بعض المعلومات إنه كان يعمل في إيطاليا لصالح الحكومة الأميركية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، انتقل إلى الولايات المتحدة الأميركية.

من الطبيعي أن مثل هذه اللقاءات كانت مستحيلة بالنسبة لي، سواء في يالطا أو في طهران. حتى الطعام كنا نتناوله في غرفة منفردة. كانت تقام في طهران، ومن ثم في يالطا، مآدب رسمية تحمل طابعاً شكلياً متقشفاً، وكان

يشارك فيها كبار القادة. وحتى على المستوى الأدنى لم يكن الأمر يخلو من مثل هذه الأمور. فقد وجد حرسنا، مثلاً، لغة مشتركة مع الحرس الأميركي. أما نحن، فلم نكن ننتمي إلى أي من الفئتين، ولذلك، على ما يبدو، كان طعامنا أكثر تواضعاً، وإن كان في طهران أفضل ممّا في يالطا. لكن طعامنا، نحن طلاب أكاديمية لينينغراد، كان أقلّ من متواضع. ولم نتقدّم من القيادة بأيّ اعتراض، وتفهّمنا إشارتها بأن تناول الكحول ممنوع.

لقد قرأت، شأن الجميع، كثيراً من المذكّرات عن تلك اللقاءات وعن الأطعمة الفاخرة التي كانت تعرض على الضيوف الكبار في يالطا، مثلاً. قد يكون ذلك صحيحاً، لست أدري. فقد كنا بعيدين جداً عن كل ذلك، ولم نر روزفلت وتشرشل في الاستقبالات الرسمية، بل كنا نراهما من بعيد.

إضافة إلى العمل الأساسي المرتبط بنص الأحاديث المسجّلة، تسنّى لي أن أقوم بالعمل الذي أحب وهو دوزنة وإصلاح أجهزة الاستقبال. فلم يكن لدينا وقت فراغ. وأعتقد أن القيادة كانت مرتاحة لعملنا.

في المرحلة التي عُقد فيها كل من مؤتمر طهران ومؤتمر يالطا ومؤتمر بوتسدام، لم تكن لوالدي أية علاقة بأجهزة أمن الدولة، لكنه بقي، كما في السابق، عضو لجنة الدولة للدفاع ورئيس المخابرات الاستراتيجية السوفياتية. وهذا ما يفسّر، على ما يبدو، وجوده في كل من طهران ويالطا وبوتسدام. لقد سكنت مع والدي في بوتسدام، لكن لم يُعهد إليّ بأي مهام. وبالتالي، لم يتسنّ لي التنصّت لا على ترومان ولا إلى تشرشل ولا على إتْلي الذي مثّل بريطانيا بعد سقوط تشرشل في الانتخابات. إلا أنني أعرف أن مثل هذه التدابير المخابراتية كان يقوم بها في بوتسدام الجانب السوفياتي وحلفاؤنا أيضاً. ويستحيل أن يكون الأمر على غير ذلك. فليس من جهاز مخابرات في العالم يُفوّت فرصة سانحة للحصول على المعلومات التي تعنيه. هكذا كان في طهران وهكذا كان في يالطا وبوتسدام، وأعتقد أن الأمر سيكون كذلك لزمن طويل في أي بلد في العالم. التقنيات تتطوّر، أما قوانين المخابرات، فهي أبدية، سواء أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا...

كتب آلان دالاس، أحد مؤسسي وكالة المخابرات الأميركية وأول رئيس لها، والمعترف به اختصاصياً في حقل النظرية والتطبيق في النشاط المخابراتي، يقول: إنه يلزم "للمراقبة السمعية جهاز إلكتروني ممتاز متناه في الصغر، وتمويه ذكي، وعميل بوسعه التسلّل إلى المكان المعني والقيام خفية بزرع هذا الجهاز".

ويشير بطريرك الأجهزة السرية الأميركية إلى أن السفير هنري كابوت لودج عرض في الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ ختماً رسمياً أميركياً كبيراً كان موجوداً في مكتب السفير الأميركي في موسكو. وأثبت الاختصاصيون أن جهازاً صغيراً جداً كان مخبأً في الختم يبث إلى مركز المراقبة السوفياتي كل ما كان يقال في قدس أقداس السفارة الأميركية، في مكتب السفير. ويؤكد آلان دالاس أن الحادث هو نموذج لما كان يحدث.

لكن لنلاحظ بأن آلان دالاس لم يضع ملامة على الزملاء. فالأمر، وأكرّر ذلك، عمل متعارف عليه عالمياً. فاستخدام الوسائل التقنية في عمل أجهزة المخابرات (وليس في الخارج فحسب) أصبح قاعدة منذ زمن بعيد. فالمخابرات السويسرية، على سبيل المثال، تستخدم حوالى ٤٠ ألف جهاز تسجيل للتنصّت على خطوط الهاتف فقط. ومن المعروف أيضاً أن أجهزة المخابرات الأميركية والبريطانية وسواهما من المخابرات تنشط في استخدام الوسائل التقنية، وتبقى بعض طرق استخدامها خارج نطاق القانون، دون أن يتكدّر الرأي العام كثيراً جرّاء ذلك. ومن المتعارف عليه أن هذا الأمر ليس خاضعاً للكشف عنه ومناقشته. ومن الأمثلة على ذلك، نصب أجهزة التنصّت في أماكن العمل والشقق السكنية ووسائل النقل الشخصية وسوى ذلك.

قد يستدرك البعض قائلاً: لكنّ ستالين الذي كنتم تضعون على طاولته نصوص الأحاديث السرية لقادة الولايات المتحدة وبريطانيا لم يكن أقلّ رغبة في سماع ما يقوله زملاؤه المقرّبون. إن "المراقبة السمعية"، كما يكتب باجانوف في مذكّراته، قد حصلت، قبل الحرب بزمن طويل، على حقّ الإقامة الدائمة في الكرملين...

مقتطفات من مصادر رسمية:

بوريس باجانوف: مساعد الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) ستالين سكرتير المكتب السياسي للجنة المركزية.

ولد في العام ١٩٠٠ في مدينة موغيليف – بودولسك بأوكرانيا. درس عدة أشهر في كلية الفيزياء والرياضيات في جامعة كييف. ترأس لمدة قصيرة أيضاً قسم التعليم في فينيتسيا، وأصبح، لاحقاً، عضواً وسكرتيراً للجنة يامبول الثورية، ومن ثم سكرتير اللجنة الحزبية في موغيليف – بودولسك.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٠ التحق بمدرسة موسكو الفنية العليا. وفي العام ١٩٢٢، أصبح في القسم التنظيمي للجنة المركزية. في آب/أغسطس ١٩٢٣ أصبح سكرتير المكتب السياسي ومساعد ستالين. في الأول من كانون الثاني/يناير ١٩٢٨ عبر الحدود السوفياتية الإيرانية بشكل غير مشروع. مؤلّف سلسلة من الكتب التي نشرت في الغرب حول آلية السلطة الشيوعية.

من مذكرات بوريس باجانوف:

"دخلت على ستالين بشأن قضية مستعجلة ودون إبلاغ مسبق، كما الحال دائماً. وجدت ستالين يتحدث بالهاتف. لم يكن يتحدث بل يستمع. فقد كان يمسك سماعة الهاتف ويتسمّع. كان ستالين ينصت ولا ينبس بكلمة. وأخيراً لاحظت مندهشاً أن أجهزة الهاتف الأربعة التي توجد على طاولة ستالين سماعاتها موجودة فوقها، بينما يمسك هو بسماعة هاتف غير معروف وغير مفهوم من قبلي، يتدلّى سلكه من جارور طاولته. نظرت مرة أخرى إلى جميع أجهزة الهاتف عند ستالين: هذا هاتف اللجنة المركزية للحديث داخل اللجنة المركزية، وهذا هاتف "الكرملين العلوي" وهو من أجل الحديث عبر سنترال "الكرملين الأعلى"، وهذا "الكرملين السفلي" وهو أيضاً من أجل الحديث عبر سنترال "الكرملين السفلي". ويمكن التحدث عبر هذين الهاتفين مع العاملين من أصحاب المسؤوليات الكبيرة أو مع أسرهم. وكان العلوي مخصصاً في الغالب للاتصال بالمكاتب، في حين أن السفلي مخصص للشقق السكنية. يمر الاتصال عبر السنترالات التي تقوم بخدمتها عاملات هاتف يتم اختيارهن من قبل المديرية السياسية العامة (GPU) ويخدمن فيها.

وأخيراً الهاتف الرابع وهو "الفرتوشكا"[١] وهو هاتف آلي بعدد محدد جداً من الخطوط (٦٠ ثم ٨٠، ثم أصبح أكثر من ذلك لاحقاً). وقد تم إدخاله في العمل بطلب من لينين الذي وجد من الخطورة ان تتم الأحاديث البالغة السرية والأهمية عبر الهاتف الذي يمكن أن تتنصت من خلاله عاملة الهاتف. ولهذا تم تركيب محطة هاتف آلي لا تحتاج عاملين لخدمتها، وذلك لخدمة الأحاديث التي تجري بين أعضاء الحكومة فقط. وتم بهذه الطريقة تأمين سرية الأحاديث المهمة.

... وهكذا، لم يكن ستالين يتحدث في أي من أجهزة الهاتف هذه. وكنت بحاجة إلى عدة ثوان فقط لألاحظ ذلك وأدرك أنه توجد لدى ستالين، في طاولة مكتبه، محطة مركزية يستطيع بواسطتها أن يتدخل ويتنصّت على أي حديث يجري عبر "الفرتوشكا". وكان أعضاء الحكومة، الذين يتحدثون عبر "الفرتوشكا" على ثقة أكيدة بأنه يستحيل التنصّت عليهم، إذ إن الهاتف أوتوماتيكي. ولهذا كانوا يتحدثون بشكل صريح كلياً، ويمكن بهذه الطريقة معرفة جميع أسرارهم.

رفع ستالين رأسه وحدّق في عيني مباشرة بنظرة ثاقبة متفحّصة. هل أدرك أنا ماذا اكتشفت لتوي؟ بالطبع، كنت أُدرك ذلك، وكان ستالين يرى هذا. لكن، من جهة أخرى، كنت أدخل عليه مرات كثيرة في اليوم من دون إذن مسبق، وكنت سأكتشف هذه الآلية... لقد كان هذا السر من بين أهم أسرار ستالين في صراعه من أجل السلطة. فقد كان يتيح لستالين فرصة التنصّت على أحاديث جميع التروتسكيين والزينوفييفيين والكامنيفيين[٢] فيما بينهم، ويبقى دائماً مطّلعاً على ما يخبّئونه وما يفكرون به. وهذا سلاح فائق الأهمية. فقد كان ستالين بينهم مبصراً بين عميان.

... إنني عضو في الحزب، وأعرف أن أحد أعضاء المكتب السياسي يملك إمكانية التجسس على الآخرين. هل كان عليّ أن أنبّه هؤلاء الآخرين من أعضاء المكتب السياسي؟ وأخيراً، إذا كان ستالين يتنصت على زينوفييف، فمن المحتمل أن يكون زينوفييف يتنصّت بشكل ما على ستالين؟ فما أدراك!".

أنني لا أثق كثيراً بما ورد في مذكرات باجانوف. لكنني لا أستطيع نفي أو تأكيد ما رآه في الكرملين في تلك السنوات التي يكتب عنها. إلا أنني على ثقة، وصدّقوني، بأن ستالين لم يكن بحاجة إلى كل ذلك، فقد كانت توجد إدارة

(١) الكلمة تعني حرفياً الدوامة - المترجم.

(٢) أتباع زينوفيف وكامينيف - المترجم.

خاصة للتنصّت، وكانت في البداية تحت إشراف اللجنة المركزية للحزب، وليس مفوضية الداخلية كما هو متعارف عليه. وكان التنصّت على أعضاء الحكومة معروفاً منذ أيام لينين. وهذا ليس بسرّ. فستالين وجميع قادة الدولة من بعده لم يبتدعوا شيئاً في هذا المجال. وحين كان باجانوف يتحدث عن وجود جهاز تنصّت في الكرملين أتى على ذكر حديث له مع ميخليس الذي كان "مطّلعاً على الأمر". وهذا إثبات جديد أن ليس رجال التشي.ك. هم الذين كانوا يقومون بذلك بل الأجهزة الحزبية. وأنا على ثقة بأن هذه الأجهزة كانت تقدّم إلى ستالين تقارير عن كل ما يثير اهتمامه وبالتالي من الواضح أن الأمين العام لم يكن بحاجة للقيام بأمور مماثلة...

وفي ما يتعلق بمشروعية هذه الأعمال، فمن المعروف أن نصب أجهزة تنصّت لم يكن يحتاج في ذلك الوقت إلى إذن من النيابة العامة. فكل شيء كان يتم بتوجيه من جهاز اللجنة المركزية. وكانت هذه المهمات توكل في بعض الأحيان الى الأجهزة الخاصة، لكن بتوجيه من اللجنة المركزية أيضاً.

كانت مثل هذه الأجهزة تتبع في يوم من الأيام مفوضية الداخلية، إنما ليس في الفترة التي كان فيها والدي مفوضاً للداخلية. ففي ذلك الوقت بالذات، كانت هذه الأجهزة خاضعة لإشراف اللجنة المركزية. وكان الجهاز الحزبي هو الذي يتولّى قيادتها. أما أجهزة التنصّت نفسها (وقد رأيت كل ذلك بالطبع) فكان يتم إعدادها في مختبرات مفوضية الداخلية ومفوضية الاتصالات وسواهما من الإدارات. ومن الواضح أنه كان يستخدمها رجال مكافحة الجاسوسية ورجال المخابرات. وكانت هذه الأجهزة، كما سبق أن ذكرت، كاملة المواصفات.

لم تكن أسرتنا تشكل استثناء. فقد كنا نعرف جيداً أنه يتم التنصّت علينا. وكان ذلك بعد الحرب، وقد علمنا نحن بذلك من رأس النبع، كما يقال (أحد المهندسين الذين نصبوا جهاز التنصت في بيتنا، وهو رجل نزيه ومستقيم، رأى من الضروري اطلاع والدي على الأمر)، وعرفنا من أعطى الأمر بذلك... وكما هي الحال دائماً لم يكن المايسترو في ساحة دزيرجنسكي[١]، بل في اللجنة المركزية. فالجهاز الحزبي لم تفتر همّته يوماً في مراقبة كبار المسؤولين.

---

(١) الساحة التي يوجد فيها مقر الأجهزة الأمنية السوفياتية في موسكو - المترجم.

الفصل الثامن

الدرع النووي

نشرت وكالة تاس في ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٤٩ خبراً جاء فيه: «أعلن رئيس الولايات المتحدة الأميركية ترومان في ٢٣ أيلول/سبتمبر أن معلومات الحكومة الأميركية تفيد أنه قد جرى في أحد الأسابيع الأخيرة تفجير نووي في الاتحاد السوفياتي. كما أصدرت في ذات الوقت كل من الحكومتين البريطانية والكندية تصريحات مماثلة.

إثر نشر هذه التصريحات ظهرت في الصحافة الأميركية والبريطانية والكندية وصحافة بلدان أخرى آراء متعددة تنشر القلق في أوسع الأوساط الاجتماعية.

إن تاس مخوّلة أن تعلن بهذا الصدد ما يلي:

«من المعروف أن ورشة بناء كبرى تجري في الاتحاد السوفياتي، كبناء المحطات المائية لتوليد الكهرباء والمناجم وأقنية المياه والطرق، التي تتطلب أعمال تفجير كبيرة تُستخدم فيها أحدث الوسائل التقنية. وبما أن أعمال التفجير هذه كانت، وما تزال، تجري بكثافة في مناطق مختلفة من البلاد، فمن المحتمل أن تكون قد لفتت الانتباه إليها خارج حدود الاتحاد السوفياتي.

أما فيما يتعلق بإنتاج الطاقة النووية، فتعتبر تاس من الضروري أن تذكر أن وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ف.م. مولوتوف سبق له أن أصدر بتاريخ ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ تصريحاً بصدد القنبلة الذرية قال فيه إن «هذا السر لم يعد سراً منذ زمن بعيد». هذا التصريح يعني أن الاتحاد السوفياتي قد اكتشف سر السلاح النووي وأصبح هذا السلاح بحوزته. لقد اعتبرت الدوائر العلمية في

الولايات المتحدة الأميركية أن تصريح ف.م. مولوتوف، عام ١٩٤٧، ليس إلا خدعة، مشيرة إلى أن الروس لن يتمكنوا من حيازة السلاح النووي قبل العام ١٩٥٢. إلا أنهم قد أخطأوا، لأن الاتحاد السوفياتي سبق أن امتلك سر السلاح النووي. أما القلق الذي تنشره بعض الدوائر الأجنبية، فلا يوجد أي أساس له..».

لكن البشرية سوف تتعرّف لاحقاً إلى تشيرنوبيل في أوكرانيا، وعلى ثري مايل آيلاند في أميركا، وعلى تجارب السلاح النووي بمشاركة العسكر في ضواحي تونسك وفي «الأرض الجديدة» وعلى بحيرة لادوجسك. كما ستتعرف أيضاً إلى آثار الإشعاعات الذرية جنوبي الأورال، وإلى كارثة مصانع البلوتون في هانفورد. لقد تعرّفت البشرية إلى كل ذلك ضمن قائمة تضم حوالى مئتين وخمسين حادثة وكارثة مرتبطة إما «بانتفاضة» الذرّة، وإما بقرار بشري إرادي تسبب في الموت الأليم لآلاف الجنود والرتباء والضباط.

إن الدرع النووي، كما كنا نسمّي السلاح الصاروخي النووي حتى فترة قريبة، قد تم بناؤه سابقاً. وعلى الرغم من أن هذا السلاح قد بُني بالدم لاحقاً، إلا أنه هو الذي وفّر الحماية للاتحاد السوفياتي منذ نهاية الأربعينيات. ونحن لم نكن الأوائل آنذاك، أي في ٢٩ آب/أغسطس ١٩٤٩ في حقل «سيميبالاتينسك»[1] للتجارب. ففي الساعة الخامسة والنصف من يوم ١٦ تموز/يوليو ١٩٤٥، كان قد غطى وميض ساطع حقل «الاموغوردو»[2] فيما وراء المحيط، هكذا بدأ سباق مرهق وطويل لم يكتب لنا أن نكون المنتصرين فيه...

لقد مرت سنوات كثيرة، لكن الغطاء لم يكشف كلياً بعد عن سر صنع السلاح النووي. وكل ما نشر في السنوات الأخيرة حول هذا الموضوع، وبعكس ما كان منتظراً منه، لم يأت بجديد بقدر ما أثار الفضول أكثر لمعرفة السر الذي لا يزال حتى الآن تحت عيون الرقابة الساهرة. فأين هي الحقيقة عن القنبلة التي كنا نسعى نحن وحلفاؤنا وأعداؤنا لحيازتها؟

---

(١) المكان الذي جرى فيه أول تفجير نووي سوفياتي - المترجم.
(٢) المكان الذي جرى فيه أول تفجير نووي أميركي - المترجم.

هذا الفصل من الكتاب مكرّس لصفحة غير معروفة تقريباً من حياة والدي، لكنه في الوقت نفسه هو بمثابة محاولة للحديث بصراحة عن العلماء البارزين من السوفيات ومن الأجانب، وعن مصير أولئك الناس (المأساوي في أغلب الأحيان) الذين قدّر لهم أن يدوروا في فلك المشروع النووي السوفياتي ومثيله مشروع «مانهاتن» في الولايات المتحدة. كما أود، أيها القارئ، أن أحدّثك عن أولئك الذين يدعونهم رجال المخابرات «النوويين». فدور المخابرات السوفياتية في صنع السلاح السري لم يكن دوراً ثانويا قط...

من مذكرات ونستون تشرشل:

«في ١٧ تموز/يوليو ورد نبأ هزّ العالم بأسره. مر عليّ ستيمسون نهاراً ووضع أمامي قصاصة ورق كتب عليها: «أبصر المواليد النور بسلامة». فهمت أن شيئاً غير اعتيادي قد حدث. قال ستيمسون: «هذا يعني أن التجربة في صحراء نيو مكسيكو قد نجحت. لقد تم صنع القنبلة النووية...». وكان السؤال الأصعب هو ماذا سنقول لستالين. وقد اعتبرنا أنا والرئيس أننا لم نعد بحاجة لمساعدته من أجل الانتصار على اليابان. فقد وعد في طهران وفي يالطا بأن روسيا السوفياتية سوف تهاجم اليابان ما إن تتم هزيمة الجيش الألماني. ولتنفيذ هذا الوعد بدأ منذ مطلع أيار/مايو بنقل القوات الروسية على نحو متواصل إلى الشرق الأقصى. وقد اعتبرنا أن هذه القوات لم تعد ضرورية، ولهذا لم يعد ستالين يملك تلك الورقة الرابحة ضد الأميركيين، والتي استخدمها بنجاح في المفاوضات في يالطا. لكنه مع ذلك كان حليفاً ممتازاً في الحرب ضد هتلر، وكنا، نحن الإثنين، نعتبر أنه ينبغي إطلاعه على الحدث الجديد العظيم الذي أصبح يلعب الدور الحاسم في الوضع، دون الغوص بالتفاصيل. لكن كيف نطلعه على النبأ؟ هل نقوم بذلك خطياً أم شفهياً؟ هل نقوم بذلك أثناء اجتماع رسمي أم أثناء اجتماع خاص، أم في مجرى اجتماعاتنا اليومية، أم بعد أحد تلك الاجتماعات؟ قرر الرئيس اختيار الشكل الأخير. وقال: «يجدر بي أن أقول له بعد أحد اجتماعاتنا إننا نمتلك قنبلة من نوع جديد، وهي شيء خارج عن إطار المألوف وقادر، برأينا، أن يترك تأثيراً حاسماً على إرادة اليابانيين في مواصلة الحرب». وافقت أنا على هذه الخطة.

... في اليوم التالي، أي ٢٤ تموز/يوليو، وبعد اختتام الجلسة العامة، حين نهضنا جميعنا من أماكننا ووقف كل اثنين أو ثلاثة معاً، شاهدت كيف اقترب

الرئيس من ستالين وبدأ يتحدثان منفردين بمشاركة مترجميهما فقط. كنت أقف على بعد حوالى خمس ياردات عنهما وأراقب جيداً هذا الحديث الهام. كنت على علم بما كان يزمع الرئيس قوله. لكن المهم كان الانطباع الذي سيتركه ذلك على ستالين. ولا زلت أتذكر المشهد بوضوح شديد حتى الآن كما لو أنه جرى البارحة. لقد بدا وكأنه كان مبتهجاً. قنبلة جديدة ذات قوة خارقة! وقد تترك تأثيراً حاسماً على مجمل الحرب مع اليابان! ياله من توفيق! ذلك هو الانطباع الذي نشأ لدي في تلك اللحظة، وكنت على ثقة بأنه لا يتصور مدى أهمية ما قيل له. فمن الواضح تماماً أنه لم يكن للقنبلة النووية مكان في اهتماماته وأعماله الشاقة. فلو كان يملك ولو أدنى تصور عن تلك الثورة التي حدثت في القضايا الدولية لكان بدا ذلك عليه فوراً. ولم يكن ثمة ما يمنعه من القول: «أشكركم على إطلاعي على النبأ حول قنبلتكم الجديدة. لكنني، بالطبع، لا أمتلك معارف تقنية خاصة. هل يسعني إرسال أحد خبرائي في مجال علم الذرّة هذه للقاء خبرائكم غداً صباحاً؟» لكن وجهه احتفظ بتعبير بشوش ومرح، وسرعان ما انتهى الحديث بين الرجلين الجبارين. حين كنا ننتظر سياراتنا اقتربت من ترومان وسألته: «كيف كان الأمر؟». أجاب الرئيس: «لم يطرح عليّ سؤالاً واحداً». وهكذا اقتنعت بأن ستالين لم يكن في تلك الفترة على اطّلاع كاف على الأبحاث العلمية الهائلة التي كانت تعمل عليها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا خلال مدة طويلة، وأنفقت عليها الولايات المتحدة، في خطوة بطولية، أكثر من ٤٠٠ مليون دولار... لم نبلغ الوفد السوفياتي بعد ذلك، أي شيء حول هذا الحدث، كما أنهم لم يعودوا هم إلى ذكره».

كان ستالين على علم بانفجار أول جهاز نووي أميركي في الصحراء قرب الاموغوردو قبل اللقاء مع ترومان. وهذا الأمر لم يعد سراً، فقد كان والدي شخصياً هو من أبلغ يوسف فيساريونوفيتش نتائج التجارب التي توصل إليها الأميركيون. وأبلغه ذلك هناك، في بوتسدام، أثناء انعقاد مؤتمر قادة الدول العظمى، بوجود الجنرال ـ كولونيل سيروف، الذي عرفت منه جميع هذه التفاصيل.

كان الجنرال ـ كولونيل سيروف، آنذاك بإمرة الماريشال جوكوف في قوات الاحتلال في ألمانيا. وبالمناسبة، فإن غيورغي كونستانتينوفيتش (جوكوف) هو الذي رشّح سيروف لنيل لقب بطل الاتحاد السوفياتي. وكان سيروف قد تميّز في المعارك من أجل برلين على تلال زيبل، وكان هو، كما أشرت، من أخبرني

بتفاصيل ما حدث. جاء أشخاص من المخابرات وهم يحملون معهم وثائق مرتبطة بتجارب أول قنبلة نووية. وتقدموا بتقريرهم لوالدي، فقام والدي بدوره بإبلاغ ستالين الأمر على الفور.

كان يوسف فيساريونوفيتش ممتعضاً جداً. وكان استياؤه أمراً مفهوماً، فقد سبقنا الأميركيون... وسأل بلهجة حادة عن سير الأمور عندنا، فأبلغه والدي أننا بحاجة إلى سنة، أو سنتين، لأننا لا نزال عند مستوى لا يسمح لنا قبل ذلك بالرد على تحدي الأميركيين.

وتجدر الإشارة إلى أن الحديث حول هذا الموضوع لم يكن الأول بينهما، بالطبع. فقد كان ستالين يسأل عن سير التجارب دائماً. وقد أطلعه والدي هذه المرة على آخر النتائج التي تم التوصل إليها، وأبلغه أن البلوتون نفسه قد تم الحصول عليه، ويجري العمل الآن على قدم وساق لتصميم القنبلة نفسها. ومع هذا، قال والدي، إننا لن نتوصل في أحسن الأحوال إلى أية نتيجة قبل «عامين على الأقل».

وعلى الرغم ممّا يكتبونه في كل مكان الآن، إلا أن كورتشاتوف لم يكن حاضراً هذا الحديث. كما لم يجرِ أيضاً ذلك المونولوج الطويل الذي ينسب إلى ستالين. ويكتبون اليوم أيضاً أن يوسف فيساريونوفيتش كلّف كورتشاتوف على الفور أن يسرعوا بالعمل. أما في الواقع، وكما حدثني سيروف، فقد استمع ستالين إلى حجج والدي بانتباه، وقال إنه ينوي العودة إلى هذه المسألة، وفي المستقبل القريب. وكان هذا كل ما جرى. أما الحديث مع الرئيس الأميركي الذي كتب عنه تشرشل في مذكراته فقد جرى لاحقاً، كما هو معروف...

لقد كانت دهشة تشرشل مفهومة جداً، لكن القارئ أصبح على علم بما جرى قبل هذا الحديث... فقد تقبّل يوسف فيساريونوفيتش نبأ الرئيس الأميركي بهدوء مطلق. وهو لم يكن، في الحقيقة، نبأ بل كان جس نبض، لما سيكون عليه رد فعل ستالين.

وحين عاد ستالين من الاجتماع، لم يوبخ أحداً، كما يتحدثون، إنما أعطى

توجيهاً لوالدي بإعداد اقتراح حول تسريع هذه الأعمال. وقد أسفر ذلك، بالنتيجة، عن إنشاء لجنة خاصة تتمتع بصلاحيات أوسع، ووُضِعت موارد البلاد بأسرها في خدمة العمل على بناء القنبلة النووية.

مقتطفات من مصادر رسمية:

تم إنشاء اللجنة الخاصة بناءً على قرار لجنة الدولة للدفاع بتاريخ ٢٠ آب/ اغسطس ١٩٤٥، وتشكّلت اللجنة الخاصة هذه التابعة للجنة الدولة للدفاع من كل من: ل.ب. بيريا (رئيساً)، غ.م. مالينكوف، ن.أ. فوزنيسنسكي، ب.ل. فانيكوف، أ.ب. زافينياغين، إي.ف. كورتشاتوف، ب.ل. كابيتسا، ف.أ. ماخنيف، م.غ. بيرفوخين. وألقيت على عاتق اللجنة مهمة «إدارة جميع الأعمال المتعلقة باستخدام الطاقة الداخلية للأورانيوم». وقد أعيد تنظيم اللجنة لاحقاً وأصبحت تابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي. وفي آذار/مارس ١٩٥٣ ألقيت على عاتق اللجنة أيضاً مهمة إدارة أعمال أخرى خاصة في حقل الدفاع. وبناءً على قرار رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بتاريخ ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٥٣ تم إلغاء اللجنة الخاصة ونُقل ملاكها إلى وزارة صناعة الآلات المتوسطة في الاتحاد السوفياتي التي انشئت حديثاً.

كان ستالين يحث على التعجيل بصنع القنبلة الهيدروجينية أيضاً. وينبغي إيفاء الرجل حقه، فلم يكن يجري أي شيء في هذا الحقل دون علمه. وكان يمتلك وسائل عديدة للحث على تسريع العمل، من التشجيع المادي للناس العاملين في المشروع وصولاً إلى الضغط عليهم. إلا أنه كان يوفّر المساعدة اللازمة دون شك. وقد حدَّثت في إحدى المرات زملائي الحاليين بأنه كان لديّ في المعهد آنذاك من الأجهزة الحاسبة (الكمبيوتر) أكثر مما يتوفر لي الآن. لقد كان لديَّ أحد عشر جهازاً. صحيح أنها كانت أجهزة ضخمة الحجم وهي من الجيل الأول، إلا أنها كانت موجودة. وكانت أجهزة وطنية، بالمناسبة. فجميع الحسابات في المشروع النووي وفي مشروع الصواريخ وفي جميع مشاريع البرامج الكبيرة كانت تتم بواسطة التقنيات الحاسبة المحلية. والغريب أن ذلك كله قد أصبح طي النسيان فيما بعد. فقد كان المصممون الأساسيون موجودين

في كييف وخاركوف. وقد صنعت هذه الآلات على يد البروفسور ليبيديف وعدد كبير آخر من العلماء بمساعدة من المشروع النووي. وهي كانت في الأصل مخصصة لتنفيذ هذا المشروع.

ومن المعلوم أن الحزب كان في هذا الوقت بالذات يضيّق الخناق على المعلوماتية في الإدارة بوصفها "علماً كاذباً". فقد كانت لجنته الحزبية وجهازها بعيدين عن واقع الأمور، كما كانت الحال دائماً.

في الوقت الذي كان فيه يوري جدانوف ورفاقه يشتمون المعلوماتية، كانت البلاد تنتج لأغراض الدفاع هذه الآلات التي كانت بأمسّ الحاجة إليها. فلم تكن ثرثرتهم تزعجنا، لأنه لم يكن يسمح للعاملين الحزبيين ولو بالاقتراب من الأمور الجدية شأن مشروع الصواريخ والمشروع النووي. لكن الفروع الأخرى التي كان بوسعهم التدخل بشؤونها كانوا يشكّلون إزعاجاً جدياً لها. أما ستالين فكانت تهمه المحصلة. وصدّقوني، أنه كان يعرف جهاز اللجنة المركزية على حقيقته... فقد كان يحتاج إليه للمراقبة فحسب. ومهما يكن من أمر، فإنني أعرف جيداً أن ستالين لم يكن ضد الأجهزة الحاسبة (الكمبيوتر). بل، على العكس، كانت تخصص الأموال لذلك، وكانت المصانع تتحوّل لإنتاج هذه السلع الجديدة.

لو نظرنا إلى الوضع آنذاك بعين الحاضر، لقلنا، دون شك، إنه كان ينبغي توظيف موارد أكبر في مثل هذا الفرع الواعد. لكن فلنتذكر الوقت العصيب الذي نتحدّث عنه. فلو افترضنا أن مثل هذه المهمة الهائلة قد طرحت ليس اليوم، إنما في الثمانينيات، حيث كانت الظروف أفضل ممّا عليه الآن، فإنني لست واثقاً بأنه كان قد أُنجز ما تم إنجازه آنئذٍ. مع العلم أننا كنا قد خرجنا لتونا من تلك الحرب الرهيبة، وبدأنا من الصفر وأنجزنا ما أنجزناه.

كان ميخائيل بيرفوخين في سنوات ما بعد الحرب وزيراً للصناعات الكيميائية ونائباً لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي. وقد كتب مذكّراته في أواخر الستينات، غير أنها لم تُنشر إلا منذ مدة قريبة. وقد كتب في مذكراته

هذه يقول: «كان علينا أن نتحمّل عقاباً صارماً في حال الفشل». ويردّد معه يفيم سلافسكي، الذي كان آنذاك أول مدير للمصنع النووي، ومن ثم بطل العمل الاشتراكي ثلاث مرات ووزير صناعة الآلات المتوسطة في الاتحاد السوفياتي، قائلاً: «بالطبع، كان الخوف يسيطر علينا في سلوكنا». وتقول مصادر أخرى بصراحة إن لافرنتي بافلوفيتش وصل إلى حقل التجارب وبحوزته لائحتان بأسماء العاملين: واحدة لمنح الجوائز والأخرى للاعتقال في حال الفشل... ويزعمون كذلك أن والدي لم يكن يصدّق حتى اللحظة الأخيرة أن القنبلة سوف تنفجر...

ثمة أقاويل كثيرة تدور حول هذا الأمر. وقد قرأت عن اللائحتين وعن سواهما. أما الحقيقة فهي التالية: في آب/أغسطس ١٩٤٩ كنت بنفسي موجوداً لدى انفجار القنبلة الذرية السوفياتية، ولهذا أعرف كل ذلك ليس بتوارد الأخبار. وبلغ بهم الأمر أن كتبوا أن والدي كان في مزاج سيىء بعد الانفجار لأنه لم يتسنَّ له أن يكون أول من أطلع ستالين على نجاح التجارب.

إنني أذكر ردة فعل والدي جيداً، وكل شيء جرى على عكس ما ذُكر تماماً، فإثر الانفجار مباشرة تعانق والدي وكورتشاتوف وقبّل أحدهما الآخر. وأذكر أن والدي قال: «الحمد لله على أن كل شيء قد جرى على نحو طبيعي». فمن المعروف أن كل مجموعة من العلماء تضم في صفوفها أخصاماً. ولم يكن الوضع مختلفاً في هذه الحالة أيضاً. فقد كانوا يكتبون لستالين باستمرار أن احتمال حصول الانفجار ضئيل جداً. فالأميركيون قاموا، على حد قول هؤلاء، بعدة محاولات قبل أن ينجح الأمر لديهم.

كان والدي والعلماء المشاركون في تنفيذ المشروع النووي على علم بذلك، بالطبع. كما كانوا على علم أيضاً بأنه من الناحية النظرية (لم أعد أذكر النسبة المحددة آنذاك) قد لا يحصل الانفجار من المحاولة الأولى. ومن المفهوم أن الجميع شعروا بارتياح هائل حين انفجرت القنبلة. نظرت إلى والدي وأدركتُ الثمن الباهظ الذي دفعه مع الناس الذين عملوا لسنوات معه مقابل النجاح الذي تحقق.

يكتبون الآن أن ذلك كان «نصراً مظفّراً لبيريا»... لا، لقد كان ذلك نصراً مظفراً للاتحاد السوفياتي وللعلم السوفياتي. فقد كانت المهمة التي تم تنفيذها مهمة هائلة.

للصراحة أقول إن الانفجار لم يترك لديّ شخصياً ذلك الانطباع الذي تركه لدى والدي ولدى كورتشاتوف والآخرين (كنا عشرة أشخاص في مركز المراقبة). لقد كان انطباعاً قوياً ولا شك، إلا أنه ليس هائلاً. فأين منه، مثلاً، الانطباع الذي تركته في أنفسنا التجارب على قذيفتنا التي اخترقت الطراد «كراسني قفقاز» من جانب لآخر. لقد كانت تلك القذيفة من تصميمنا نحن، أنا ورفاقي، حيث بذلنا الكثير من أجلها. أما بالنسبة للانفجار الذي نحن بصدده، فقد كنت أدرك، بالطبع، أنني في حضور حدث غير اعتيادي: لقد تم صنع قنبلة ذات قوة تدميرية خيالية، تعني أهمية بالغة بالنسبة لبلادنا. ومع ذلك فقد كان الشعور مختلفاً في كلٍّ من الحالتين. كنت أعرف جيداً أن تجارب مماثلة قد جرت عند الأميركيين، وأعرف كيف جرت أيضاً. ومع ذلك ابتعدت بهدوء عن التلسكوب، الذي كان يوجد عدد منه في مركز المراقبة.

كانت مرحلة كاملة من حياة كورتشاتوف وحياة والدي مرتبطة بهذا الانفجار، وكان من الطبيعي أن كل ما يجري كان عزيزاً عليهما.

حين يكتبون الآن عن كل هذه الأمور يبرز الكثير من عدم الدقة في كتاباتهم، بل ويكذبون بوقاحة. فلم يكن هناك من وجود لأية لوائح، وإذا كان البعض يؤكد أن العلماء كانوا يخشون والدي، فليحاسبه ضميره. فالعلاقات فيما بينهم كانت مختلفة عن ذلك كلية.

ليس صحيحاً أن والدي والعلماء كانوا قلقين، وكانوا يزعجون العسكريين. كنا نوجدُ في أحد المخابئ المخصّصة للمراقبة، كما ذكرت، وكانت توجد سلسلة متكاملة من مثل هذه المراكز، التي كانت تضم مختلف الهيئات المعنية. وكان كل شخص يقوم بالعمل المسؤول عنه فقط. فلم يتدخّل كورتشاتوف أو سواه في مسار التجربة. فحقل التجارب كان تابعاً للجيش، وكان يتولّى

العسكريون كافة الأعمال على أرضه. ولم يكن الأمر يحتاج إلى تدخل العلماء، الذين سبق أن قاموا بعملهم، وجاء الآن دور الآخرين. وقد أنشئت لاحقاً أسراب جوية خاصة ووحدات صاروخية تشارك في التجارب. أما في ذلك الحين فقد أُلقيت المهمة على عاتق أحد التشكيلات العسكرية.

لم يعد الأمر آنئذٍ مرتبطاً بكورتشاتوف، الذي كان قد أنجز صنع جهازه وسلّمه للعسكريين، وأصبح الجميع بانتظار النتيجة. وكان والدي يصرّ دائماً على إشراك العسكريين في أي تصميم منذ المراحل الأولى له. وكان يذكرني بذلك دائماً، حين كنا نجري تجارب على إحدى التقنيات الجديدة. وأقول بكل صدق، إنني أفدت من ذلك كثيراً في حياتي. فالعسكريون لا ينبغي أن يطّلعوا على هذه التقنية أو تلك حين تسلُّمها الوحدات، بل ينبغي أن يطّلعوا عليها منذ اللحظة الأولى للمباشرة في تصميمها. ففي هذه الحالة، يطّلعون عن كثب على كافة التفاصيل ويقدمون، بالتأكيد، ملاحظات عملية قيّمة. كنت أتّبع هذه النصيحة حين كان والدي لا يزال على قيد الحياة، وتمسّكت بها أكثر فيما بعد. فلا يمكن أن يخلو أي تصميم من الأخطاء مهما بُذل فيه من جهد. لقد أنهيت الأكاديمية العسكرية والدراسات العليا فيها، ولم أعتبر في يوم من الأيام أن من المعيب الإفادة من نصيحة أولئك الذين سوف يتعاملون مع التقنيات التي نصمم.

قد نستسهل، نحن المصمّمين، معالجة مسألة من المسائل على هذا النحو المبسَّط أو ذاك.

لكن السؤال هو: كيف سينعكس ذلك على التقنية المعنية في ساحة القتال؟ إنني أتحدث عن ذلك لأن الكثيرين من كبيري المصمّمين والمصمّمين الرئيسيين كانوا يعتبرون العسكريين أشخاصاً قليلي الكفاءة. غير أن والدي كانت له نظرة أخرى إلى هذه الأمور، وكان على صواب مطلق في ذلك، وهو الأمر الذي ما زالت تترسخ قناعتي به على مر هذه السنين الطويلة.

إن الأقاويل، التي تزعم أن والدي كان يعلو صراخه على الناس ويثير أعصاب العسكريين، لا تثير إلا الاستهجان. إن بعض أقوال سلافسكي،

المذكور، تتميز بالمصداقية. فقد اعترف، على سبيل المثال، وليكن بعد هذه السنوات الطويلة، أن لافرنتي بافلوفيتش كان يأخذ دائماً برأي الاختصاصيين، وينجح بمعالجة القضايا التنظيمية، ويساعد في تنفيذ القرارات المتخذة. لكن تعبير «لم يكن بيريا يزعجنا» تثير في الحقيقة، بعض الاستغراب...

شكراً، حتى على هذا، كما يقال. فحين حاولوا إلزام كورتشاتوف على الإدلاء بشهادة ضد والدي والإفادة كتابةً أن بيريا كان يعرقل بكافة السبل صنع أول قنبلة نووية سوفياتية، قال إيغور فاسيليفيتش (كورتشاتوف) بصراحة: «لولا بيريا لما كان هناك من قنبلة».

أما فيما يتعلق بمن أبلغ ستالين بالانفجار، فإن والدي شخصياً هو الذي قام بذلك. وبالتالي، فإن جميع الأحاديث التي تزعم بأن شخصاً ما قد سبقه إلى ذلك هي أحاديث لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة. فمن غيره كان بوسعه أن يقوم بذلك؟

أُبلغ النبأ إلى موسكو من حقل التجارب النووية مباشرة، وطلب ستالين من والدي دعوة إيغور فاسيليفتش كورتشاتوف ومساعديه المقربين، وكذلك جميع أعضاء لجنة الشؤون النووية لزيارته. وقد جرى أثناء هذا اللقاء حديث موسَّع، بالطبع، حول الأمر.

لقد كانت مثل هذه الدعوة في تلك الأيام أرفع من أي وسام يمكن أن يُمنح. وكان العلماء مرتاحين للاستقبال. فقد حصلوا على مكافآت مالية ضخمة وعلى سيارات، وتم تشييد منزل لكل منهم، أي أنه تم تقدير عمل الرجال الذين اشتغلوا في الحقل النووي حق قدره. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك كله جرى في ظل ذلك الفقر العام الذي كان بعد الحرب. وقال ستالين، آنئذٍ، إنه كان بودّه أن يمنح كل ذلك لجميع من عمل في المشروع النووي، لأنهم يستحقون ذلك، غير أن إمكانيات البلاد لا تسمح للأسف.

لقد منح العديد من العلماء آنذاك جوائز قيمة رفيعة. ومُنح والدي جائزة الدولة. لكن القضية ليست في الجوائز، بالطبع، فقد كانوا جميعاً سعداء لإنجاز

مثل هذا العمل الهائل. ومهما قلنا الآن، فإنه قد تم آنذاك صنع درع نووي للدولة. ففي ذلك الوقت بالذات انتهى، كما هو معروف، احتكار الولايات المتحدة الأميركية للسلاح النووي.

لقد بقيت لدي أطيب الذكريات عن إيغور فاسيليفيتش كورتشاتوف.

مقتطفات من مصادر رسمية:

إيغور كورتشاتوف: أكاديمي (عضو الأكاديمية) بطل العمل الاشتراكي ثلاث مرات. أول من تولى تنظيم وقيادة العمل في حقل العلم والتقنية النووية في الاتحاد السوفياتي. وتم بإشرافه في العام ١٩٣٩ تشييد أول سيكلوترون[١] سوفياتي، وفي العام ١٩٤٠ تم اكتشاف التجزئة الفورية لذرّات الأورانيوم.

مؤسس معهد الطاقة النووية وأول مدير له. وقد تم بإشراف إ.ف. كورتشاتوف بناء أول مفاعل نووي في أوروبا (العام ١٩٤٦)، وأول قنبلة نووية في الاتحاد السوفياتي (العام ١٩٤٩)، وأول قنبلة حرارية في العالم (العام ١٩٥٣)، وأول محطة نووية لتوليد الطاقة الكهربائية. حاز جائزة لينين، وحاز جائزة الدولة عدة مرات.

توفي في العام ١٩٦٠، وله من العمر ٥٨ عاماً.

كان شخصاً موهوباً للغاية وعالِماً لامعاً. درس في جامعة تافري التي أصبحت جامعة القرم الحكومية لاحقاً. ومن بين الأساتذة الذين كانوا يحاضرون في هذه الجامعة، بعد الثورة مباشرة، كان البروفسور ن.م. كريلوف وأ.إ. إيوفه، كما كان يعمل أستاذاً مساعداً هناك إ.إ. تام.

التحق إيغور فاسيليفيتش كورتشاتوف بكلية الرياضيات والفيزياء، وكان مجلّياً في دراسته، بالطبع. وقد سبق أن حصل على الميدالية الذهبية لدى إنهاء المدرسة الثانوية. في صيف ١٩٢٣ دافع عن رسالة الدبلوم، وكانت دراسته في الجامعة قد استغرقت ثلاث سنوات.

---

(١) جهاز يستخدم لتسريع الجزيئات (البروتون والإيون)، التي تتحرك فيه لولبياً في حقل مغنطيسي بسرعة تقلّ كثيراً عن سرعة الضوء - المترجم.

أصبح كورتشاتوف لاحقاً أحد العاملين البارزين في معهد لينينغراد الفيزيائي التقني، الذي كان يعتبر في تلك السنوات مركز الفيزياء في الاتحاد السوفياتي. وكان هذا المعهد قد أنشئ بعد الثورة مباشرة بإشراف أ.إ. إيوفه، الذي كان يترأس القسم الفيزيائي التقني فيه، في حين كان نيكولاي نيكولايتفتش سيميونوف يترأس قسم الفيزياء الكيميائية. وقد حصل سيميونوف لاحقاً على جائزة نوبل وعلى جائزة لينين، وأصبح بطل العمل الاشتراكي مرتين. لقد كان واحداً من مؤسسي الفيزياء الكيميائية ومؤسس مدرسة علمية متكاملة.

خلال سنوات الحرب، كُتب على كورتشاتوف أن يشتغل بأمور بعيدة عن الأبحاث النووية. ففي عام ١٩٤١، سافر إلى سيفاستوبول بمهمة خاصة من قيادة الأسطول البحري الحربي. ذلك أن الألمان كانوا قد قذفوا من الجو إلى البحر الكثير من الألغام المغنطيسية، التي كانت تنفجر تحت تأثير الحقل المغنطيسي للسفن التي تقترب من اللغم. ومن المعروف أنه، خلال سنوات الحرب كلها، لم تنفجر سفينة أو غواصة واحدة من تلك التي قام كورتشاتوف وزملاؤه بتوفير العازل المغنطيسي لها. وقد تم خلال الحرب تأمين العزل المغنطيسي للسفن في كل الأساطيل، إلا أن التجارب الأولى الناجحة جرت في البحر الأسود.

في نهاية العام ١٩٤٢، انتقل كورتشاتوف إلى موسكو بعد أن تم تعيينه مسؤولاً عن المهمة التي نتحدث عنها.

حين طُرحت مسألة تنفيذ المشروع النووي، أُلقيت على عاتق والدي مهمة في غاية الصعوبة، تقوم على تشكيل فريق عمل متضامن من أشخاص بوسعهم تنفيذ المشروع بأقصر مدة ممكنة. وقد بدأ والدي معالجة الأمر باستدعاء كلٍّ من إيوفه وسيميونوف وكابيتسا. لكن، ودون الانتقاص من قيمة هؤلاء العلماء الكبار، لم يرَ والدي في أي منهم من كان بوسعه تولّي مسؤولية هذا العمل. فقد كان إيوفه عالماً لامعاً، إلا أنه كان عالماً نظرياً. وقد استدعاه والدي لأنه كان يعرف بأن لديه الكثير من الطلاب الشباب، وبوسعه أن ينصح بأحدهم.

أما كابيتسا، فلم يكن نظرياً فحسب، بل كان مهندساً أيضاً. لكن العلة

تكمن في مكان آخر تماماً، فلم يكن بيوتر ليونيدوفيتش كابيتسا يرغب في العمل بالمشروع النووي.

مقتطفات من مصادر رسمية:

بيوتر كابيتسا: أكاديمي، بطل العمل الاشتراكي، أحد مؤسسي فيزياء الحرارات المنخفضة وفيزياء الحقول المغنطيسية ذات الطاقة القوية. مؤسس معهد القضايا الفيزيائية في أكاديمية العلوم السوفياتية وأول مدير له. في العام ١٩٣٩، اكتشف السيولة الفائقة لغاز الهاليوم السائل، وصمم وسيلة لتسييل الهواء بمساعدة نموذج جديد من مولد تقلبات الكترومغنطيسية ذي طاقة مرتفعة.

حائز جائزة نوبل وعدة جوائز حكومية.

لقد تحدّثنا أنا ووالدي حول الموضوع. لم يصرّح كابيتسا عن رفضه بشكل علني، بالطبع، إلا أن الأمر لم يكن سرّاً. ويبدو على الأرجح، أنه كان له ملف على غرار خاريتون. بل كان ثمة ما يمكن إبرازه ضده. وحين بدأت اللجنة المركزية ملاحقته، حاول والدي قدر الإمكان القيام بشيء ما من أجله. لكن والدي كان بوسعه الدفاع عن الناس العاملين في تنفيذ المشروع النووي وكان يدافع عنهم، لكن كابيتسا لم يكن يرغب في العمل بالقنبلة النووية، ممّا خلق له صعوبات معينة.

لقد تسبّبت له اللجنة المركزية بالكثير من الأذى، وذلك عبر أكاديمية العلوم. وأذكر أن والدي استدعى الأكاديمي سيميونوف، صديق كابيتسا، وطلب إليه مساعدة الأخير قدر المستطاع. قال والدي: أنا لا أستطيع مساعدة كابيتسا رسمياً، فلو كان يعمل لديّ لما كان من مشكلة. لكن، بما أن الأمور قد جرت على هذا النحو، فلا بد من مساعدة هذا الإنسان العبقري. كان العاملون في المشروع النووي آنذاك يحصلون على مبالغ طائلة من المال، ولذلك طلب والدي من سيميونوف، أن يخص كابيتسا بجزء من المكافآت التي يحصل عليها، إذ لا يجوز أن يتعذّب عالِم كهذا.

كان والدي يعرف، طبعاً، أن كابيتسا معادٍ للنظام. أذكر أنه حين عاد

كابيتسا من بريطانيا في العام ١٩٣٦ أو العام ١٩٣٧ ولم يتمكن من العودة إليها، قال لمولوتوف صراحة: «لا أريد العمل هنا». دهش مولوتوف وسأله: «لماذا؟». فشرح كابيتسا الأمر كالتالي: «ليس لدي ذلك المختبر الذي كان لدي في بريطانيا».

أجابه مولوتوف:

ـ سوف نشتري مثله.

واشتروا بالفعل، المعدّات نفسها، وشيّدوا مبنى مشابهاً تماماً، ومع ذلك ...

عمل كابيتسا في بريطانيا لمدة عشر سنوات تقريباً، وذلك منذ أواخر العشرينيات، وكان قد تزوج للمرة الثانية من ابنة صانع السفن الشهير، الأكاديمي كريلوف. وقد مرض كريلوف آنذاك، على ما أذكر، مرضاً شديداً، فجاء كابيتسا مع زوجته لعيادة المريض، ولم يسمحوا له بالعودة...

وأستبق الأحداث لأقول إنه أيّد بحزم إطلاق سراحي من السجن، وكان يعرف موقف والدي منه بالطبع... إنني أذكره بكل امتنان، كما أذكر فانيكوف وتوبوليف ولافونتشكين وكريلوف. لقد عمل هؤلاء كل ما بوسعهم لإطلاق سراحي من السجن، ووجهوا نداءين إلى خروتشوف، كما ذكرت، وحققوا ما كانوا يبتغون.

كان يسود اعتقاد بأن والدي هو الذي استبعد كابيتسا من المشروع النووي... وفي إحدى المرات قال كابيتسا لسيميونوف: «من المؤسف أن يعمل مثل هذا الإنسان الذكي (بيريا) لصالح البلاشفة». وقال سيميونوف، وهو يخبرني: «لقد ضحكت وقلت له: «لا يسعك أن تغيّر لافرنتي بافلوفيتش...».

كان والدي يبحث وسط هؤلاء الناس عن الشخص الوحيد الذي يسعه ترؤس الجانب العلمي من هذا المشروع الصعب. وقد تحدّث مع حوالى خمسين مرشحاً، ووقع اختياره على كورتشاتوف. ولا شك في أن الأكاديمي ايوفه وسواه قد ساعدوا والدي في هذا الأمر من خلال النصائح التي قدّموها.

قابل والدي ستالين وهو يحمل إليه هذا الاقتراح. وقال يوسف فيساريونوفيتش بعد أن استمع إلى الاقتراح:

ـ وماذا؟ فليكن كورتشاتوف مادمت تعتبر أنه الشخص الضروري لذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن ستالين حذّر والدي آنذاك بقوله:

ـ لكن عليك أن تعرف أن كورتشاتوف سوف يواجه مقاومة شديدة من جانب علماء كبار...

وأدرك والدي أن ستالين، وعبر قنواته الخاصة، قد جمع المعلومات اللازمة عن كبار العلماء.

ينبغي القول إن النظام السوفياتي أنشأه فلاديمير إيليتش، وطوّره لاحقاً يوسف فيساريونوفيتش وفقاً لمبدأ المراقبة الموازية. فالجهاز الحزبي كان منذ ذلك الحين يراقب كل شيء ويراقب الجميع. كانت إدارات الدولة تضم أجهزة مراقبة خاصة، وكانت السوفياتات تضم أجهزة مراقبة حكومية كانوا يراقبون بعضهم عبر بعض. فكل شيء كان مبنياً على عدم الثقة، ووضع الناس بمواجهة بعضهم بعضاً. وهكذا كان، كما يبدو، في الحالة التي نتحدث عنها...

وباختصار، هكذا أصبح إيغور فاسيليفيتش كورتشاتوف «أبا» القنبلة النووية.

بعد مرور بعض الوقت، تحدّث ستالين إلى والدي حول موضوع رئاسة أكاديمية العلوم ومَن المؤهل لذلك؟ وتساءل إن كان بالإمكان استخدام كورتشاتوف لهذا المنصب.

كان والدي ضد ذلك بصورة قاطعة، واستدعى كورتشاتوف وعرض عليه الحديث الذي جرى مع ستالين، وقال:

ـ القرار لك يا إيغور فاسيليفتش. فإذا قررت ترك المشروع لن أعترض، بالطبع، وإذا قررت البقاء فسوف أكون سعيداً.

كان كورتشاتوف شخصاً ذكياً، ولم يكن يكترث لأمر الشهرة. وقد أجاب

صراحة بأنه غير راغب في رئاسة أكاديمية العلوم، وأنه يودّ لو يبقى في المشروع، قال والدي: إذاً قل ذلك بنفسك لستالين. لم يكن من الصعب معرفة ردة فعل ستالين. فقد كانت ردة فعل يوسف فيساريونوفيتش شديدة الحدّة حين كان يرفض أحد ما اقتراحاته. وقد حدثني إيغور فاسيليفيتش بنفسه كيف غضب ستالين، واتهم كورتشاتوف ووالدي بالعناد: إن بيريا هو الذي دفعك للرفض، ولذلك لا تريد أن تتولّى رئاسة أكاديمية العلوم. وهدّد بأنه سيرغمه، في كل حال، على أن يصبح رئيساً.

القصّة نفسها تقريباً تكرّرت مع ساخاروف. وليس من ضرورة، كما أعتقد، أن أتحدث الآن عن عبقرية الرجل. فقد كان طالباً في السنة الثالثة أو الرابعة في الجامعة، حين لفت انتباه والدي إليه، إذ كانت لديه آنئذٍ اقتراحات مثيرة للاهتمام، يمكن استخدامها في المرحلة الثانية من تنفيذ المشروع.

كان والدي يمتلك معلومات كاملة عن جميع الشبان الذين يُبرِّزون بهذا الشكل أو ذاك في الحقول المرتبطة بتحصين الدفاع عن البلاد بشكل خاص. ومن الواضح، بالطبع، أن والدي لم يكن يجول على المعاهد والجامعات، بل كان يتولى الأمر أشخاص آخرون. وكان قد تم تشكيل مجموعات خاصة تهتم باختيار الكوادر العلمية، بما في ذلك اختيار الكوادر، من أجل المشروع النووي. ولم تكن هذه المجموعات تتكون من ممثّلي المدرسة العليا، وأكاديمية العلوم. وأذكر أن الأكاديمي تام والأكاديمي الفيزيائي النظري فوك وآخرين كانوا ينشطون في هذا المجال. إنني لا أذكر الجميع، إنما أذكر أنه قد دُعي علماء مشهورون من أمثال لانداو وغينزبورغ لاختيار الشباب الذين يبشرون بمستقبل علمي واعد. ولم أعد أذكر مَن بالضبط، إلا أنهم رفضوا ترشيح ساخاروف. وكان الاستنتاج الذي توصلوا إليه هو أن ساخاروف قد يكون شخصاً ذكياً وموهوباً، غير أنه شخص صعب المراس. فقد كان أندريه ديمتروفيتش في شبابه من الأشخاص الذين يملكون قناعة مطلقة بصحة ما يقولون. ولست أقصد هنا آراءه الفلسفية. ومهما يكن، فقد قرر أساطين العلم أنه، من الناحية العلمية، سوف يكون من الصعب التعامل معه. فقد كان يطرح آراء لم يكن كبار السن

هؤلاء يقبلونها، وهم الذين وهبوا العلم سنوات طويلة من حياتهم. وكان ساخاروف يدافع،عادة، عن أفكاره بصيغة حادة. ويبدو أن أساطين العلم قرروا أنهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذا الشاب الصعب المراس، حتى وإن كان على ذكاء حاد.

كم من الشباب الموهوبين تمّ العثور عليهم، آنذاك! وليس في مجال الفيزياء فحسب، بل في مجال الرياضيات أيضاً. وكانوا يُدعون فوراً لإجراء مقابلة معهم وإلى حضور حلقات الدراسة. لقد كان ذلك عملاً هائلاً. وينبغي إيفاء علمائنا حقهم، إذ قاموا بالمهمة على أفضل وجه، وتم في النتيجة إنشاء مجموعات موصوفة حقاً قادرة على تحقيق المشروع النووي.

بعد مرور سنوات عديدة، قرأت كيف يتذكّر أندريه ديميتروفتش (ساخاروف) لقاءه بوالدي. فقد كتب يقول: «لم أُصب بالخوف إلا لاحقاً، حين أدركت مَن التقيت». إنه لأمر مزعج، من الناحية الإنسانية، أن تقرأ مثل هذا الكلام. فوالدي بالذات، هذا الذي أثار خوفه، كما يقول، كان يقف موقفاً ودياً جداً منه. ويتذكر ساخاروف نفسه كيف اقترح عليه والدي أن يلجأ إليه عند الضرورة.

كان والدي يعرف جيداً موقف كبار العلماء من ساخاروف. فقد كانت لديه معلومات كاملة عن هذا الطالب الفتي الموهوب الذي يقترح نظريات مميزة خاصة به. وإذا كان يملك لوائح ومعلومات متفرّقة عن معظم الطلاب الموهوبين، فقد كان يملك، كما ذكرت، معلومات تفصيلية عن ساخاروف. وأعرف ذلك من فانّيكوف ومن الجنرال ماخنيوف، عضو اللجنة ومساعد والدي في حفظ الملفات. ويتذكر هؤلاء كيف تعرّف والدي إلى ساخاروف، فيشيرون إلى أنه استدعى الطالب «الصعب» لإجراء محادثة معه، جرى خلالها حديث صريح. سأله والدي:

ـ لماذا، برأيك، لا يتقبّل علماؤنا أفكارك؟

وتحدث ساخاروف بصراحة عما يعتقد بهذا الخصوص.

كانت استقلالية الشخصية والأسلوب غير التقليدي في التفكير أموراً تروق

لوالدي. فاستدعى إليه المحتسبين النظريين الشباب وطلب إليهم التعرّف إلى الأفكار التي يدافع عنها بحماس هذا الطالب الجامعي. وكان رأي الجميع واحداً:

ـ إنه لا يزال طالباً يا لافرنتي بافلوفيتش، لكنه مع ذلك هو عالم ناضج تقريباً.

قال والدي:

ـ إذاً، ساعدوه. وليُنهِ دراسته وحساباته ثم اعملوا على ضمّه إليكم. و دعوه يشتغل في موضوعكم.

بعد أن انضم ساخاروف إلى مجموعة المحتسبين النظريين الشباب، سرعان ما تولّى رئاستها. لم يكن ساخاروف الفيزيائي النظري على علاقة مباشرة بتصميم القنبلة والحصول على المواد الضرورية، غير أنه تم استخدام حساباته آنذاك، أو على الأقل استخدمت كأساس في العمل. لقد كان عالماً بارزاً، لكنه لم يحقّق بشكل كافٍ،للأسف، الطاقة الكامنة فيه...

كان ساخاروف في دائرة الضوء بالنسبة للأجهزة منذ زمن بعيد. كما أن الرغبة في التنكيل به كانت متوفرة كذلك. فقد كان أندريه ديمتروفيتش من الأشخاص الذين لا يخفون أفكارهم، أو أنهم لا يجيدون ذلك. ومن الطبيعي أنه لم يكن يعبّر عن آرائه بكل تلك الصراحة التي أصبح يعبّر بها فيما بعد. لكن ما كان يقوله آنذاك كان مؤشّراً كافياً للأجهزة. فوفقاً لمعايير ذلك الزمن، كان يوجد ما يكفي من الأسباب «الاستدعائه».ولم يحدث ذلك لأن والدي كان يعرقله، في الحقيقة، وهو الأمر الوحيد الذي كان يلجمهم. إن أسوأ ما في الأمر هو أن الرأي الآخر كان دائماً يُعتبر عندنا فعلاً جرمياً ضد الدولة. وما الفرق بعدئذٍ إن أُودعتَ زنزانة مفوضية الداخلية أو المصح العقلي، كما كان يجري حتى فترة قريبة؟

كان والدي، كما سبق أن قلت، يشجّع ميولي التقنية بكل ما أوتي. وبناء على نصيحة منه بدأت أمارس هواية اللاسلكي، التي بدأ معها تعرّفي إلى مختبر

اللاسلكي في مفوضية الداخلية. لكن اسم المختبر لم يكن يدل على حقيقته، إذ كانت تعمل فيه مجموعات من الخبراء في مختلف الاتجاهات. وقد عرّفني الخبير، الذي كان يساعدني في إتقان الراديوتكنيك، بمحطات الراديو المخصصة لرجال المخابرات، والتي أنشأها مصمّمونا والمصمّمون الألمان والإنكليز. وكم كان الأمر مثيراً بالنسبة إلي في تلك السن! وقد أثارت فضولي مجموعة من الناس تتواجد وفق نظام خاص في هذا المختبر المقفل، إذ لم يكن يسمح لأحد بالاتصال بها. وبقيت لفترة طويلة دون أن أتمكن من إشباع فضولي في معرفة هذه المجموعة. لكن كم كانت خيبة أملي كبيرة حين عرفت أخيراً أن أفرادها ليسوا إلا فيزيائيين سريين يتولّون تحليل بعض المعطيات التي تصل من الخارج. لم يدهشني الأمر بتاتاً، لأن المجموعات المشابهة كانت كثيرة، وكانت تعمل في مختلف الاتجاهات، وتقدّم تقييمها الفني لهذه المعطيات أو تلك.

كنت أجهل، بالطبع، الموضوع الذي يعمل عليه الفيزيائيون، إلا أنه كان يتسنّى لي أن أستمع إلى بعض أحاديثهم. ولا زلت أذكر كيف كان هؤلاء يناقشون فيما بينهم مسألة تتعلق بسلاح مختلف عن كل الأسلحة سوف يظهر في وقت قريب جداً. وكما فهمت آنذاك، كان الحديث يدور حول صنع قنبلة ذات قوة تدميرية رهيبة، لكن ليس عندنا بل في الخارج. وقد عبّر هؤلاء عن تخوّفهم من أن يحصل هتلر على هذا السلاح الرهيب.

لم يكن أحد ليشكّك بأن الحرب مع ألمانيا واقعة لا محالة. وكنت أسمع ذلك باستمرار. إلا أن الأحاديث عن القنبلة التي قد تُصنع لم تكن تثير لدي، بالطبع، أكثر من الفضول. غير أنني لا أنسى ما كان يُذكر من أن الألمان قد يمتلكون هذا السلاح الرهيب. ولم أكن أعرف آنئذٍ أية تفاصيل عن صنع القنبلة في الخارج.

أتذكّر اليوم، بعد مرور هذه السنوات الطويلة، جميع تلك الأحاديث في المختبر واللقاءات مع «الفنيين» الذين كانوا يعملون في مفوضية الداخلية، وأفكر بأن قلائل هم الذين يعرفون أن مفوضية الشؤون الداخلية لم تكن، حتى في ذلك الوقت، أي في الثلاثينيات، إدارة تأديبية فحسب، فقد كان يعمل فيها

اختصاصيون من أرفع الكفاءات في كافة القضايا المرتبطة، بهذا الشكل أو ذاك، بالتجهيزات العسكرية، بل وغير العسكرية أيضاً. كانت الهيئات المختصة في مفوضية الداخلية تهتم بالنقل والطيران والصناعة والاقتصاد وبكل ما هو ضروري لتقييم الإمكانيات الاستراتيجية للهجوم على الاتحاد السوفياتي من قبل هذه الدولة أو تلك. لقد كانت مخابراتنا تعمل بالمعنى الواسع للكلمة على هذا التقييم بالذات. كان يوجد أشخاص يعملون في الخارج سرّاً وعلناً للحصول على المعلومات المناسبة، لكن كان هناك جهاز كامل في مفوضية الداخلية يعالج المعلومات الواردة. لأن جميع تقارير المخابرات تبقى دون العمل التحليلي مجموعة من الأوراق ليس إلا. قد يبلّغ رجل المخابرات عن موعد الهجوم، لكن حين تتعلق معلوماته بالتقنيات أو الاقتصاد أو الاكتشافات العلمية، فإن الأمر يتطلب معالجة لاحقة هائلة من حيث الحجم. هكذا كان الأمر في أواخر الثلاثينات وفي الأربعينات وهكذا هو اليوم. فليس مصادفة أن يتزعّم بريماكوف جهاز المخابرات الروسي. وليس في نيتي إطلاقاً أن أقيّم عمله، إنما أسوق ذلك كمثال معبّر فقط، لأن بريماكوف هو عالم ومحلّل.

كانت التعيينات المشابهة تتم في ذلك الحين بهدوء أكثر، لكن المبدأ كان نفسه: في المخابرات ينبغي أن يعمل محلّلون. وفي تاريخ القنبلة الذرية، الذي آمل أن يُكتب في يوم من الأيام، ينبغي أن يُكتب عن هؤلاء المحللين أيضاً. وحين أقول تاريخ القنبلة الذرية أقصد التاريخ الحقيقي وليس التاريخ الذي نعرفه حتى الأمس، والذي لا يختلف عنه اليوم إلا قليلاً.

منذ فترة قريبة، قرّر الأكاديمي يولي خاريتون أن يتكلم. يقول خاريتون إن العَامِلَين في معهد الفيزياء الكيميائية ي. زيلدوفيتش وخاريتون نفسه كانا قد أجريا، قبل فترة طويلة من وصول أية معلومات من رجال مخابراتنا في الخارج، سلسلة حسابات تتعلّق بالمعادلة المتشعّبة المتسلسلة لتجزئة اليورانيوم في مفاعل، هو بمثابة نظام يمكن إدارته والتحكّم به. وقد اقترح هذان العالمان آنذاك استخدام المياه الثقيلة أو الكربون لإبطاء النيترونات. كما يشير الأكاديمي الجليل إلى أن العالمين غ. فليروف ول. روسينوف قد حصلا، اختبارياً، في

سنوات ما قبل الحرب، على نتائج هامة في تحديد البارامتر الرئيسي للمعادلة المتسلسلة، وهو عدد النيترونات الثانوية التي تظهر لدى تجزئة النيترونات لذرات الأورانيوم. وقد اكتشف حينذاك أيضاً غ. فليروف وك. بيتر جاك تجزئة الأورانيوم دون تعريضه لأشعة النيترونات.

كما يُذكّر الأكاديمي خاريتون أيضاً بإنجازات أخرى للعلماء السوفيات. فهو يشير إلى أنه قد اكتشف قبل الحرب مع ي. زيلدوفيتش شروط نشوء الانفجار النووي، وحصل على تقديرات قوته التدميرية الهائلة. وفي العام ١٩٤١، وبمشاركة إ. غوريفتش، تم تحديد وزن كتلة الأورانيوم-٢٣٥ اللازمة بدقة، وتم الحصول على ما يقاربها تماماً...

كما لا تخلو من الأهمية، على ما أعتقد، إشارة يولي باريسوفيتش إلى أن الحظر كان صارماً على إعلان النتائج التي تم التوصل إليها. وكان رجال مخابراتنا «النوويون» يدركون، بالتأكيد، لماذا لا يناقش الفيزيائيون السوفيات هذا الموضوع.

لا أودّ أن أدخل في جدال مع الأكاديمي خاريتون ولا مع سواه. لكن الموضوع يستحقّ الحديث عنه. فالحديث لم يتطرّق إلى الأمر الأساسي في الموضوع، وهو دور والدي في صنع السلاح النووي، إضافة إلى أن الأكاديمي لا يأتي على ذكر بعض التفاصيل في سيرته الذاتية.

مقتطفات من مصادر رسمية:

يولي خاريتون: أكاديمي، بطل العمل الاشتراكي ثلاث مرات، حاز جائزة لينين، ومُنح جائزة الدولة عدة مرات.

ولد عام ١٩٠٤ في بيتربورغ. تخرّج من معهد البوليتكنيك في لينينغراد، وبدأ في العام ١٩٢١ العمل في معهد لينينغراد الفيزيائي التقني بإدارة الأكاديمي ن.ن. سيميونوف. أُرسل في الأعوام ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ في بعثة إلى مختبر كافينديشسك بإدارة إ. ريزرفورد(بريطانيا)، حيث حصل على دكتوراه فلسفة في اختصاصه (Ph.D.). في العام ١٩٣١، بدأ العمل في معهد الفيزياء الكيميائية التابع لأكاديمية

العلوم السوفياتية وفي غيره من مؤسسات البحث العلمي. في الأعوام١٩٣٩ ـ ١٩٤١، حقق بالاشتراك مع ي.ب. زيلدوفيتش احتساب المعادلة المتسلسلة لتجزئة الأورانيوم. مؤسس وقائد مدرسة جديدة في نظرية العناصر المتفجرة.

بقي يولي خاريتون على مدى أكثر من ٤٥ عاماً على رأس المركز النووي الروسي الفيدرالي المشهور تحت اسم أرزاماس ـ ١٦. ترك منصبه الرسمي في الثامنة والثمانين وأصبح رئيس شرف لأهم مركز للبحث العلمي في روسيا.

إنه أحد «آباء» القنبلة الذرية السوفياتية. بقي حتى عهد قريب يعيش ويعمل في ظل سرية كاملة، ولم يظهر مرة في الصحافة علناً. في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢ أعلن لأول مرة عن مشاركته في تنفيذ المشروع النووي.

لقد حاولوا في حينه إبعاد يولي باريسوفيتش (خاريتون) مرتين عن الأعمال المتعلقة بإنتاج السلاح النووي، واتّهموه حتى بالتجسس. كان يوجد أشخاص غير راغبين منذ البداية أن يمارس خاريتون النشاط العلمي. وكانت حجتهم الرئيسية أن خاريتون سبق له أن عمل في بريطانيا، ولا يمكن، بالتالي، الوثوق بشخص مثله. وكان يولي باريسوفيتش قد اشتغل فعلاً، كما ذُكر أعلاه، في مختبر كافينديشمك عند إ. ريزرفورد. وكان هذا «الممسك» جدياً للغاية في حينه...

لم يُسمح لخاريتون بالمشاركة في هذه الأعمال إلا بإصرار من والدي. وأنفهم تماماً لماذا لا يتذكر ذلك يولي باريسوفيتش. وصدّقوني إن قلت أن ليس لي من مأخذٍ عليه. فالسبب الذي يدعوه لعدم التحدّث عن ذلك هو نفسه، السبب الذي يجعل الآخرين لا يقولون كل الحقيقة. وأنا أتفهّم ذلك...

لحسن الحظ أن الأمر مرّ بسلام آنئذٍ، وواصل الأكاديمي خاريتون عمله. بعد انقضاء عدة سنوات، وحين لم يعد لوالدي أية علاقة بالأجهزة الأمنية، استدعاه ستالين وقال له:

ـ هذه وثائق ضد خاريتون... يعملون على إقناعي بأنه جاسوس إنكليزي... ماذا تقول؟

لا أستطيع أن أؤكد من كان يترأس أمن الدولة، آنذاك، أباكوموف أو إيغناتييف، إلا أن «الملف» تم إعداده في هذه الإدارة بالذات، حيث تم جمع المعلومات ضد خاريتون وتقديمها إلى ستالين. ولم يستدعَ والدي من قبل ستالين، إلا لأنه كان يُشرف على المشروع النووي.

كان والدي يذكر جيداً المحاولات السابقة «لإبعاد» خاريتون، ولم يستغرب كثيراً عودة الحديث عن عمل الأكاديمي لصالح المخابرات البريطانية.

قال والدي: «إن جميع الذين يعملون في المشروع، تم اختيارهم من قِبَلي شخصياً، وأنا على استعداد لتحمّل المسؤولية عن عمل كل منهم. إني على استعداد لتحمل المسؤولية ليس عن معاداته أو موالاته للنظام السوفياتي، بل عن عمله. فهؤلاء الناس يعملون وسوف يستمرون في العمل بنزاهة في المشروع الذي عهدنا به إليهم».

كان الحديث يجري في مكتب ستالين، وكان ملف الأكاديمي خاريتون على طاولة يوسف فيساريونوفيتش، ولم يكن بوسع المرء إلا أن يخمِّن فقط ماذا كان يحتوي الملف.

وتابع والدي يقول:

«أما بالنسبة لخاريتون، فبوسعي أن أقول التالي: إنه شخص على نزاهة مطلقة وإخلاص مطلق للعمل الذي يقوم به، وأنا على ثقة بأنه لا يقدم على فعل الخساسة أبداً».

عرض والدي رأيه كتابة وقدّم الورقة إلى ستالين. أخذ يوسف فيساريونوفيتش الورقة ووضعها في الخزنة وقال:

ـ حسناً، سوف تكون مسؤولاً، فيما لو...

أجاب والدي:

ـ إنني مسؤول عن المشروع ككل وليس عن خاريتون فحسب.

بقيت الورقة التي كتبها والدي مع ستالين، وبقي خاريتون على قيد الحياة حتى أيامنا هذه، واشتغل عشرات السنين في حقل العلم.

لم تكن الأحداث المشابهة، حين كان يتعرّض العلماء لاتهامات سخيفة، أحداثاً نادرة. البعض كان يُتّهم بالتجسس والبعض الآخر بالتخريب. وكان على والدي أن يتعهّد خطياً بولائهم للنظام، كما حدث بالنسبة للأكاديمي يولي باريسوفيتش خاريتون.

على أن أحداثاً أكثر جدية من هذه بكثير حصلت في العامين ١٩٣٩، ١٩٤٠، حين كان والدي مفوضاً للشؤون الداخلية. فقد تمكّن آنذاك من «إنقاذ» الكثير من العسكريين والاختصاصيين. ولم يكن قد اقترف هؤلاء أي ذنب، بالطبع، إلا أن فوروشيلوف وجدانوف المسؤولَين عن القمع الجماعي كانا يعرقلان بكل السبل إطلاق سراحهم.

في الأعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨، فقدت البلاد نتيجة الاعتقالات الجماعية زهرة رجالاتها، عملياً، من الأنتلجنسيا الفنية: توبوليف، مياسيشيف، بتلياكوف، كوروليوف، توماسيفتش، أحد نواب بوليكاربوف... وعشرات وعشرات غيرهم من العلماء. كما كان يتم اعتقال مساعديهم المقرّبين منهم أيضاً. لقد كانت النخبة التقنية، التي تعمل في تصميم التقنيات العسكرية، مشلولة عملياً في تلك الفترة. فقد شملت الاعتقالات مصممي الطائرات والاختصاصيين في المحركات والعاملين في صناعة الدبابات. ولم ينجُ من العسف أيضاً، أولئك الذين اشتركوا لاحقاً في تنفيذ المشروع النووي ومشروع الصواريخ. أما مَن أرسل هؤلاء الناس إلى السجن والمعتقلات، فسبق أن تحدثت عن ذلك. أضف إلى أن هؤلاء أنفسهم كانوا يعرفون جيداً من السبب فيما أصابهم...

حين أصبح والدي مفوضاً للشؤون الداخلية، كان من الواضح أنه يحتاج إلى بعض الوقت لتغيير الوضع. ولعلّه من السخف القول إن والدي لم يكن على علم بما يجري في البلاد قبل مجيئه إلى مفوضية الداخلية. كان يعرف، بالطبع، ويدرك إلى أين تتجه الأمور. فقد بلغ الوضع حدّاً حُرمت معه من قياداتها فروعاً علمية بحالها.

من السهل القول، الآن، إنه كان ينبغي القيام على الفور بإطلاق سراح جميع المعتقلين تعسّفاً، ونشر العدالة ومعالجة القضايا الناشئة. لكن، للأسف، حتى مفوض الشعب لم يكن يملك مثل هذه السلطة. كان من الأفضل عدم اعتقال الناس، لكن ما دام الأمر قد حصل قبل تسلّم والدي منصب مفوض الشؤون الداخلية، فقد بدأ بإصلاح الأمور قدر المستطاع، واصطدم على الفور بمقاومة هائلة من البيروقراطية الحزبية.

فعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها، لم يتمكّن والدي، على سبيل المثال، من إطلاق سراح توبوليف على الفور. ولم ينجح في ذلك إلا حين أنهى توبوليف تصميم الطائرة تو -٢ (TU-2)، ولم ينجح الأمر إلا من خلال ستالين، لأن القيادة الحزبية العليا كانت تعرقل ذلك بما أوتيت. وقد حصل مصمم الطائرات ومساعدوه آنئذٍ على مكافآت عالية ورتب عسكرية. فقد حصل توبوليف، مثلاً، على رتبة جنرال، ومُنح لقب بطل العمل الاشتراكي بعد تصميم الطائرة الثانية.

وما دمنا بدأنا الحديث عن العلماء والمصمّمين السوفيات الذين كانوا يعملون في الحقول المتعلقة بالدفاع، يمكننا أن نتتبع مصير توبوليف الذي يمثّل بمأساويته مصير الكثيرين سواه من الأشخاص أصحاب الشهرة الواسعة اليوم.

إن ما يسمّى «قضية توبوليف» هي قضية ملفّقة من ألفها إلى يائها. وقد أدرك والدي ذلك. لكن الملف كان يضم اعترافاً من قبل المحكوم نفسه. ومن المعروف كيف كانت تُنتزع مثل هذه الاعترافات عام ١٩٣٧...

ذهل توبوليف حين استدعاه والدي للمرة الأولى للتحدّث إليه، وكان في حالة جسدية ونفسية مزرية. وقد حدثني عن ذلك لاحقاً، فقال:

ـ لقد صُعقت تماماً بما سمعته من لافرنتي بافلوفيتش. قال لي: أنكرِ اعترافك. لقد أجبروك على التوقيع...

وبالفعل، أنكر توبوليف اعترافه. هل الأمر بحاجة إلى تعليقات وشروح؟

قال توبوليف إنه لم يصدّق ما قاله المفوض الجديد، واعتبره مكيدة من

مكائد مفوضية الداخلية. وكان قد يئس، حتى ذلك الحين، من انتظار شخص ما يهتم بمصيره وقضيته. لقد بقي توبوليف ثلاثة أشهر يصرّ على القول إنه ينال القصاص الذي يستحق مقابل جرائمه. ولم يصدّق والدي، كما حدثني هو نفسه، إلا حين سمعه يقول:

ـ حسناً، حسناً، لا تعترف بأنك إنسان نزيه... سمِّ لي فقط أسماء الأشخاص الذين تحتاج إليهم من أجل العمل، وقل ما الذي تحتاج إليه غير ذلك.

وبأمر من والدي، تم جمع كل معاونيه الرئيسيين الذين أُدينوا بتهم ملفقة، شأن توبوليف، وخلقت لهم ظروف معقولة للعمل. كان هؤلاء يسكنون في مساكن مشتركة تحت الحراسة، ويعملون مع الاختصاصيين الذين لم يشملهم القمع، لحسن الحظ.

كثيراً ما يتّهمون والدي بإنشاء مثل هذه «المساكن»... كان بوسعه إطلاق سراح هؤلاء الناس، لكن لم يكن بوسعه إلغاء قرارات المحاكم. وكان يمضي بعض الوقت اللازم لبحث القضية واتخاذ القرار بإطلاق سراح الشخص. ولمساعدة العلماء الذين كانوا في المعسكرات، كان يتّم جمعهم في مثل هذه «المساكن».

ليس في نيتي إطلاقاً دحض ما ورد في مذكرات الأشخاص الذين عملوا في هذه «المساكن» بعد المعتقلات. وأظن أن العاملين العاديين لم يكونوا على اطّلاع كبير على الأمور. وهم، لا شك، صادقون في حديثهم عمّا عانوا منه. فهؤلاء الذين قضوا فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ في السجن ما كان بوسعهم أن يعرفوا سوى اسم مفوض الداخلية الجديد. ولاحقاً، أي في الخمسينيات، كان قد أنجز رسم صورة بيريا التي نتحدّث عنها...

لقد حدّثني كل من توبوليف وكوروليوف ومياسيشيف ومينتس وسواهم، ممن كانوا ضحايا القمع، عن دور والدي في إطلاق سراح العلماء السوفيات، من نوويين ومصمّمي طائرات وسواهم. وقد حدّثوني عن ذلك قبل اعتقالي

وبعده، حين كان والدي قد أصبح في عداد الأموات، فهل كان من سبب يدعو هؤلاء لتحريف الحقيقة؟

كانوا يعتبرون أن والدي أنقذهم، ولم يكن لدى هؤلاء سبب يدعوهم للتملق لي في تلك الظروف، بل، على العكس، كانوا يُجبرونهم على تقديم إفادات ضد والدي...

كانوا يشعرون بالامتنان تجاه والدي لأنه «انتشلهم» من السجون ومعسكرات الاعتقال، وعمل على توفير الظروف لهم من أجل العمل، ومن ثم إطلاق سراحهم نهائياً.

لقد سبق أن أشرت إلى أن الاعتقالات في الاتحاد السوفياتي لم تكن تتم بمبادرة من التشي. ك. أو المديرية السياسية الموحدة (OGPU)، أو مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD)، أو مفوضية أمن الدولة (NKGB)، أو وزارة أمن الدولة (MGB). والاعتقالات التي نتحدث عنها تستهدف شخصيات كبيرة من وزن توبوليف وكوروليف ومياسيشيف والعلماء الذرّيين وسواهم. لم يصبح هؤلاء ضحايا القمع إلا بمبادرة من القسم التنظيمي (ORGOTDEL) في اللجنة المركزية أو بموافقته. ولم يكن ليحدث خلاف ذلك. لقد تحدثنا سابقاً عن الاعتقالات الجماعية للعسكريين من أمثال توخاتشيفسكي وبلوخير وبكير... كان من المتعذر إعتقال هذا العسكري أو ذاك من دون مصادقة هؤلاء الناس (القسم التنظيمي) ومصادقة فوروشيلوف بالدرجة الأولى. إن الكثيرين ممّن تحولوا إلى شركاء في الجرائم ضد الناس الشرفاء تحوّلوا لاحقاً إلى ضحايا للقمع.

وهكذا كان بالنسبة للعلماء أيضاً. فلو أخذتم أي ملف من ملفات تلك السنوات، سوف تجدون بالضرورة في ذيل الملف تأشيرة مفوض الشعب أو أحد المسؤولين الآخرين. فإذا افترضنا أن العالِم كان تابعاً لمفوضية صناعة الطيران، فإن الملف يذيّل بقرار من مفوض صناعة الطيران. إن الشخص الوحيد، الذي أعرف أنه لم يضع توقيعه على وثيقة واحدة من مثل هذه الوثائق هو سيرغو أورجانيكيدزه، وهو ما لا أستطيع قوله عن كثيرين ممن نعتبرهم اليوم

ضحايا بريئين. فحتى سيرغي ميرونوفيتش كيروف[1] (ومهما كان في الأمر من مرارة، لكن لكي نكون موضوعيين حتى النهاية) كان يعطي موافقته على اعتقال هذا أو ذاك من العاملين. لم يكن هذا الشخص مؤيداً للقمع في يوم من الأيام، لكن ما كان قد كان...

أما لماذا كان يقوم بذلك أحياناً؟ فهذا حديث خاص. غير أن أورجانيكيدزه لم يخلّف وراءه وثيقة واحدة مشابهة، ولا بد أن الأرشيف لا يزال يضمّ وثائق مختلفة تشير إلى اعتراضه الحازم على الاعتقالات، فكان أورجانيكيدزه يقول إنه حتى لو كان هؤلاء الاختصاصيون لا يحبّون السلطة السوفياتية، لكنهم يعملون لصالحها، فلا ينبغي أن يتأذّوا من أجل آرائهم. لقد كانا، هو ووالدي، حليفين في هذا الرأي.

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر الحقيقة التالية: لم تجرِ أثناء الحرب عملية اعتقال واحدة أو عملية إقالة واحدة في القطاعات، التي كان يتولى بيريا مسؤوليتها. وهكذا كان الأمر في المرحلة التي كان يجري العمل فيها بالقنبلة. والسبب في ذلك ليس لأنهم لم يحاولوا القيام بمثل هذا الأمور، بل حاولوا. لكن والدي لم يكن يصادق على ذلك، وكان يطلب من الأجهزة أسباباً فعلية للاتهام. أما الآخرون، فكانوا يتصرفون على نحو مغاير. فحين كانوا يتقدّمون من فوروشيلوف بمثل هذه الاقتراحات كان يوقّع على الفور، وكان يجلس ويبدأ هو نفسه الكتابة... ولم يكن هو الوحيد للأسف.

كان والدي يقول:

ـ لا تقولوا لي إن هذا العالِم هو جاسوس إنكليزي، بل قدّموا لي وقائع بأنه يتعاون فعلياً مع المخابرات.

(۱) اغتيل في مكتبه في لينينغراد العام ١٩٣٤، حيث كان يشغل منصب السكرتير الأول لمنظمة لينينغراد الحزبية، وكان قائداً بارزاً في الحزب الشيوعي آنئذ، إذ رشّحه مؤتمر الحزب العام منافساً لستالين في موقع الأمين العام للحزب. وكان مقتله إيذاناً بحملات القمع الستاليني الرهيب في الثلاثينيات - المترجم.

لكن الوقائع لم تكن تتوفر، بالطبع. وكان الشخص يواصل عمله بهدوء، دون أن يعرف ما يتهدّده. لم يكن والدي يحب إذلال الناس. وبوسعكم أن تقرأوا وثائق الاجتماع الموسع للجنة المركزية، حيث يتهمونه بأنه كان يتستّر سياسياً على الناس غير المخلصين. كانت مثل هذه الاتهامات تساق ضده، من قَبل، أيضاً، إلا أنها لم تكن لتؤثر عليه، إذ كان يقول:

ـ أن يَعتبر هذا العالِم أننا سفلة، فهذا رأيه الشخصي، إلا أنه يعمل بإخلاص أليس كذلك؟

كان يتمسّك بهذه المبادئ طوال حياته، كما سبق أن قلت. وكانوا يقولون الحقيقة في ذلك الاجتماع الموسع للجنة المركزية، حين أشاروا إلى أن بيريا لم يكن ينطلق من الجوهر الحزبي للشخص، بل من مواصفاته العملية فقط. وكان هذ الأمر بالذات يمثل الانتهاك الأفظع للمبادئ البولشفية بالنسبة للقيادة الحزبية العليا.

مقتطفات من كلمة أ.ب. زافينياغين، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، نائب وزير صناعة الآلات المتوسطة، في اجتماع تموز/يوليو ١٩٥٣ الموسّع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي:

"...تحدّث الرفيق مالينكوف في تقريره عن عادة بيريا تجاهل اللجنة المركزية والحكومة في القضايا الهامة، بما في ذلك المسألة المتعلقة باستخدام الطاقة النووية. وقال الرفيق مالينكوف إن القرار بتجربة القنبلة الهيدروجينية لم تبلّغ به الحكومة واللجنة المركزية، بل اتخذ من قبل بيريا فردياً. لقد كنت شاهداً على ذلك.

أنجزنا إعداد مشروع قرار الحكومة، وبقي في أدراج بيريا بعض الوقت، ثم حمله معه لقراءته. تولّد لدينا اعتقاد بأنه يريد التحدث مع الرفيق مالينكوف. بعد مرور اسبوعين تقريباً، دعانا للاجتماع عنده وبدأ مناقشة مشروع القرار. وحين وصل إلى النهاية حيث توقيع رئيس مجلس الوزراء الرفيق مالينكوف، شطبه قائلاً: هذا ليس مطلوباً، ووضع توقيعه هو.

ما هي القنبلة الهيدروجينية أيها الرفاق؟ إنها الآن ليست المسألة الأهم في مجال التقنية، وليست مسألة عمل الهيئة العامة السابقة (وهي الآن الوزارة الجديدة لصناعة الآلات المتوسطة)، إنها مسألة ذات أهمية دولية. لقد صنع الأميركيون في حينه القنبلة الذرية وفجّروها. وبعد مرور بعض الوقت، وبمساعدة علمائنا وصناعتنا وبقيادة حكومتنا، ألغينا احتكار الولايات المتحدة للقنبلة الذرية. وحين أدرك الأميركيون أنهم فقدوا الأولوية، بدأوا بأمر من ترومان العمل على القنبلة الهيدروجينية. لكن شعبنا وبلدنا يعرفان ما الذي ينبغي فعله، وبدأنا العمل في هذا المجال، ونعتقد بأننا لم نتخلّف عن الأميركيين. إن القنبلة الهيدروجينية هي أشد قوة من القنبلة الذرية العادية بعشرات المرات، وتفجيرها سوف يعني القضاء على الاحتكار الثاني الذي يهيّئ له الأميركيون، أي أنه الحدث الأهم في السياسة الدولية. وقد سمح السافل بيريا لنفسه بمعالجة هذه القضية دون علم اللجنة المركزية.

... يُهيّا لي أن ثمة مغالاة في الصفات الإيجابية التي تنسب إلى بيريا. فالكل يعرف أنه شخص فظ يمارس الضغط على الآخرين، ولا يقيم وزناً لأحد، لكن بمقدوره دفع العمل إلى الأمام. أجل كان يتمتع بهذه الصفة... ودون تزلّف لأعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية بوسعي القول: إن أي عضو من أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية بوسعه استيعاب أية مسألة على نحو أسرع وأعمق مما يمكن أن يفعله بيريا. لقد ذاع صيت بيريا كمنظّم، لكنه في الحقيقة هو بيروقراطي رهيب. بعد وفاة الرفيق ستالين راح بيريا يلعب على نحو ديماغوجي لعبة الاقتصاد والتوفير. الأميركيون يشيدون مصانع كبيرة لإنتاج المواد الذرية المتفجرة، وينفقون مبالغ طائلة على ذلك، وحين طرحنا المسألة حول ضرورة بناء مصانع جديدة، أجابنا بيريا بقوله: «تباً، إنكم تنفقون الكثير من الموارد، عليكم أن تبقوا ضمن ما تلحظه الخطة الخمسية». لم يكن بوسعنا أن نُسلّم بذلك، ولم يكن بوسع الدولة أن تسلّم بذلك، لكن بيريا كان يكرر قوله لنا: تباً، عليكم أن تبقوا ضمن الأرقام المُقرَّة».

أيها الرفاق، مع إخراج بيريا من عضوية هيئة رئاسة اللجنة المركزية ومن قيادة حزبنا... فإن اللجنة المركزية وهيئة رئاستها سوف تقودان حزبنا والدولة إلى الأمام، نحو نجاحات جديدة.

وقادتنا اللجنة المركزية وهيئة رئاستها...

كان مالينكوف وبولغانين عضوين في الهيئة المسؤولة عن القضايا النووية.

كما كان والدي عضواً فيها، بالطبع. فما معنى الحديث بأن شخصاً ما كان يخفي أموراً عن الآخرين؟ إنه أمر مستحيل. ففي يوم الاعتقال المزعوم لوالدي، كان علينا أن نتقدّم مع الجنرال فانيكوف وكورتشاتوف وعدد آخر من الأشخاص بتقرير عن مشروع قرار الحكومة حول هذه المسألة. وقد شاركت أنا شخصياً في العمل على هذه الوثيقة. وقد جاء فيها على نحو صريح: «اعتماد اقتراح الهيئة... تكليف الهيئة...» وكان الحديث يدور عن القنبلة الهيدروجينية. لقد صنعناها قبل الأميركيين بسنة، وكان علينا أن نقرّر في ذلك اليوم كيف نفجّرها وأين.

لم يكن بوسع حتى والدي، الذي كان يمتلك كل تلك الصلاحيات، أن يتخذ مثل هذه القرارات دون علم اللجنة المركزية والحكومة. كان بولغانين وزيراً للدفاع، وكان العسكريون يخضعون له، بالطبع، وهؤلاء وحدهم كان بوسعهم تفجير القنبلة. ثم ما كانت حاجة والدي لتخطّي أحدٍ ما؟ لقد رأيت بنفسي تواقيع أعضاء المكتب السياسي على هذه الوثيقة، لكن شكلياً كان علينا أن نحصل كذلك على موافقة هيئة الرئاسة الموسّعة لمجلس الوزراء. هكذا كان يتطلّب القانون، الذي كان ساري المفعول في ظل ستالين أيضاً.

إن الأمر الوحيد الصحيح في كل ما ذُكر (جرى الحديث عن ذلك في الاجتماع الموسّع للجنة المركزية أيضاً) هو أن والدي كان يسخر من العاملين الحزبيين، ولم يسمح لهم بالمشاركة في المشروع النووي. وكان يطالب فعلاً بالاقتصاد في الموارد. وحين كان يقال له إن الولايات المتحدة الأميركية تخصّص للتسلّح من الموارد أكثر بمئة مرة ممّا نخصصه نحن، كان يجيب بأن الاقتصاد عندهم أقوى من اقتصادنا. فقد آن الأوان لجعل رغباتنا تتناسب مع قدرات البلاد. إن زيادة التوتر كانت تعني الانتحار، فقد كانت تلك السنوات هي الأصعب بعد الحرب ...

لقد اتّهموه في وقت من الأوقات بالتبذير أيضاً، تماماً كما سبق أن اتّهموه بالتقتير. كان والدي يشرف على الصناعة النفطية، وكانت المعدّات النفطية المنتجة في تلك السنوات تتفوق على مثيلتها الأميركية. من يتذكّر اليوم أن آلة

الحفر التوربينية قد صنعناها نحن وليس الأميركيون. أما الآن، فنشتري هذه الآلات من الولايات المتحدة... وبإصرار من والدي بدأ لأول مرة، في ذلك الوقت، حفر الآبار في البحر، وبمبادرة منه آنئذٍ، بدأ لأول مرة في أذربيجان استثمار حقول بكاملها. لكنه اتهم بأنه لا يقتصد في الموارد، وبأن الأمر بات مكلفاً، فلماذا الغوص في البحر، فالحفر على اليابسة أقل كلفة...

كان والدي يعرف ماذا سيكلّف تجاهل المركز، لكن العمل ينبغي أن يتقدم.

كان على صداقة متينة مع الأكاديمي إيفان ميخايلوفيتش غوبكين، مؤسس الجيولوجيا النفطية السوفياتية. وقال غوبكين لوالدي لا بد أن النفط موجود في تاتارستان. واقتنع والدي بذلك لاحقاً، وبدأ آنئذٍ تأسيس الحقول الأولى في تلك المنطقة. لقد كان والدي يشرف على الصناعة النفطية وصناعة الفحم وبعض الفروع الأخرى بوصفه عضواً في لجنة الدولة للدفاع.

وفي العودة إلى الاجتماع الموسّع ذاك نفسه، يمكنني أن أضيف أن اتهامات مالينكوف أيضاً كان يستحيل تصديقها. فقد قال آنذاك أن «بيريا اتّخذ قراراً بتفجير القنبلة الهيدروجينية من دون علم اللجنة المركزية».

مقتطفات من تقرير عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي غ.م. مالينكوف:

"من المعروف أن بيريا كان يرأس اللجنة الخاصة المسؤولة عن القضايا النووية. نحن ملزمون إبلاغ الاجتماع بأنه كان يتفرد بسلوكه هذا، وأصبح ينشط متجاهلاً اللجنة المركزية والحكومة في أهم المسائل المتعلقة بعمل اللجنة الخاصة".

وبالمناسبة يمكن للمرء أن يتساءل: لماذا عُهد إلى والدي بالذات الإشراف على العمل في إنتاج السلاح النووي؟

اللجنة الأولى، التي بحثت في واقعية المشروع النووي وضرورته، أنشئت بمبادرة من والدي، الذي كان، بحكم كونه رئيساً للمخابرات الاستراتيجية، يمتلك تلك المعلومات التي بدأ منها طرح الموضوع.

ترأس هذه اللجنة مولوتوف، ودخل في عدادها إيوفه وكابيتسا، وسواهما من أبرز العلماء السوفيات.

طرح والدي معلومات مخابراتية مقنعة تم الحصول عليها حتى ذلك الحين من كلٍّ من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا. لكن المشروع تم رفضه مع ذلك. فقد قرّرت اللجنة أن المسألة مطروحة على الصعيد النظري، لكن تنفيذ مثل هذا المشروع يتطلّب عشرات السنين عملياً. وفي ظل خطر اندلاع الحرب، ليس الوقت مناسباً، بالتالي، لإنفاق الموارد في أمر لا يبشّر بنتيجة إيجابية في المستقبل المنظور. لم يكن والدي موافقاً على مثل هذه الاستنتاجات، لأن المصادر الغربية كانت تقول عكس ذلك.

كانت تلك المحاولة الأولى لوالدي لإقناع اللجنة المركزية والحكومة، لكن الأمر لم يتخطّ تشكيل اللجنة التي أصرّ على إنشائها.

غير أن المخابرات كانت تقوم بعملها. فقد نظّم والدي جميع المعلومات المتعلقة بهذه المسألة والصادرة عن البلدان الغربية، وكان يقول آنذاك:

ـ لا يجوز أن ندع ألمانيا تحصل على هذا السلاح قبلنا.

في مطلع العام ١٩٤٠، تقدّم والدي للمرة الثانية، من اللجنة المركزية ومن ستالين، باقتراح بدء العمل بالسلاح النووي، وعلّل طلبه الجديد بوثائق جديدة حصلت عليها المخابرات. وكان علماؤنا والعلماء الغربيون قد أصبحوا مقتنعين، حتى ذلك الحين، بأن المشروع قابل للتحقيق.

لكن كانت لدى ستالين واللجنة المركزية حججهما المضادّة: الحرب تقترب وينبغي إعادة تسليح الجيش. فالبلاد بحاجة إلى طائرات ودبابات جديدة، أي بكلمة أخرى ليس الوقت مناسباً. أضف إلى ذلك أن مخابراتنا كانت قد حصلت، حتى ذلك الحين، على خطة «بارباروسا»، وبدأ العمل في وضع خطط الضربات المضادة للعدو المقبل. وهكذا تم تأجيل مسألة القنبلة إلى أوقات مناسبة أكثر.

بقيت تقارير المخابرات تثير قلق والدي، وقد أبلغ اللجنة المركزية وستالين

أن الأورانيوم لا يتم تصديره من تشيكوسلوفاكيا، بل يتم تخصيصه كلياً لأعمال البحث العلمي في ألمانيا. ويحاول الألمان مصادرة كافة احتياطيات المياه الثقيلة في أوروبا. لكن الفرنسيين وقفوا حجر عثرة في طريقهم، إذ حصل جوليو كوري على كل احتياطي المياه الثقيلة تقريباً. وأغلب الظن أن هذه المعلومات المخابراتية وصلت آنذاك من فرنسا.

كما أبلغت المخابرات آنئذٍ بأن احتياطي الأورانيوم المخصّب يجري نقله سرّاً إلى الولايات المتحدة.

لم يكن من الصعب على المحلّلين أن يستنتجوا من كل ذلك أن العمل في الخارج ينتقل إلى المرحلة الهندسية. وكان والدي في غاية القلق من أن يتمكن الغرب من الحصول على نتائج ملموسة.

اقترح والدي المباشرة بمثل هذه الأعمال، ولو على نطاق محدود في الاتحاد السوفياتي، لا سيما وأننا قد أصبحنا نملك التكنولوجيا اللازمة...

وبدأت الحرب بعد ذلك، وانشغل الجميع بأمور أخرى.

في العام ١٩٤٢، حين كان العمل في صنع القنبلة الذرية يجري على قدم وساق في أميركا، حيث تم جمع الكوادر العلمية من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا، توجّه والدي مجدّداً إلى ستالين: «لا يمكن الانتظار أكثر من ذلك». وكما في السابق، تم مجدّداً عرض الوثائق التي حصلت عليها المخابرات.

وأخيراً تحرّكت المسألة من نقطة الصفر، وانطلق العمل، وإن لم يكن على نطاق واسع. فقد تم تشكيل المديرية العامة لتنفيذ مشروع الأورانيوم. وكان ذلك يعني شيئاً ما. وقد ترأس المديرية الجديدة بوريس لفوفيتش فانّيكوف، الذي حصل على لقب بطل العمل الاشتراكي ثلاث مرات، وأصبح النائب الأول لوزير صناعة الآلات المتوسطة، وحصل على جائزة الدولة مرتين. أما في سنوات الحرب، فكان الجنرال فانّيكوف يهتم بالتسلح والذخيرة. وقد وضعت هذه المديرية تحت إشراف والدي. لماذا هو بالذات؟ لأنه كان الشخص الوحيد الذي كان يصرّ منذ العام ١٩٣٩ على ضرورة البدء بالعمل في هذا المشروع.

لقد أخذوا بالاعتبار أيضاً أنه، بصفته عضو لجنة الدولة للدفاع، قد تمكّن من تنظيم إنتاج الدبابات والأسلحة والذخائر. كما كانت الفروع الأخرى التي أشرف عليها والدي كالمتيالورجيا، تخدم قضية الدفاع عن البلاد أيضاً. والمشروع، الذي نحن بصدد الحديث عنه، كان يتطلّب إشراك الصناعة بأسرها. وكان الأمر يتطلب شخصاً مطّلعاً على الأمور ويجيد تنظيم العمل في ظروف الحرب. تلك هي الظروف التي كانت تكمن وراء اختياره، أضف إلى ذلك أن جميع المعلومات المخابراتية كانت تمر عبر جهازه، أي أنها كانت تصل إلى والدي.

من الطبيعي أن مشروعاً بهذا الحجم كان يتطلّب معارف خاصة. فلم يكن بوسع والدي إجراء الحسابات الضرورية لهذا الجهاز أو ذاك، لكن مثل هذه الحسابات كان بوسعه الحصول عليها بمساعدة العلماء. وكان هذا يكفي لتحديد التوجّه وطرح المسألة على بساط البحث.

أذكر منذ الطفولة أن والدي كان يشتغل كثيراً على القضايا التي يُعهد بها إليه. فحين كان لا يزال يعمل في جورجيا، عُهد إليه بالمناطق شبه الاستوائية، ولم يكن اختصاصياً في هذا الحقل. كان يدعو إليه المهندسين الزراعيين واختصاصيي التربة وسواهم من الاختصاصيين في حقل الزراعة، ويتشاور معهم. وكان ذلك أمراً طبيعياً بالنسبة له. كان يزور الكولخوزات ويشاهد ويحلّل، أي كان يعدّ نفسه لفهم المسألة. إلا أن ذلك لا يعني أنه بهذه الطريقة كان بوسعه أن يصبح اختصاصياً في التأصيل أو يصبح عالم تربة، إلا أنه كان يدرس المسائل المتعلقة بتنظيم هذه الأعمال دراسة جيدة. كان يسعى لفهم جوهر الأمور، وكان شخصاً يتميّز بعقل متفتّح. وكان علماء الذرّة، الذين عمل معهم، يُدهشون، كما علمت، لسرعة استيعابه لجوهر المسألة المطروحة.

لم يكن بحاجة أن يعمل في تصميم القنبلة، ويشتغل بالمسائل النظرية. بل كانوا ينتظرون منه أن يؤسّس المصانع والمنشآت التي من دونها لا يمكن صنع القنبلة.

كان يعمل كثيراً آنذاك، وكثيراً ما كانت تتم الأحاديث مع العلماء بوجودي، وكانت تجري في منزلنا وفي أماكن خارج المدينة. كان يستيقظ باكراً، كما هي الحال دائماً، ويشتغل لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات في الملفّات المطروحة قبل حلول الساعة التاسعة، ثم يبدأ بعد ذلك العمل اليومي التقليدي في الأعمال التنظيمية الكثيرة.

في العام ١٩٤٦، وباقتراح من والدي، تم تخصيص طاقات كبيرة لتنفيذ المهمات المطروحة. فقد أنشئت آنذاك اللجنة الخاصة التابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي والتي كانت برئاسته. لكن العمل، وكما ذكرت، كان يسير أثناء الحرب أيضاً. فكان قد تم إنشاء المختبرات الخاصة والمراجل الذرية والمصانع الضرورية. كانت الظروف بالغة الصعوبة، لكن العمل كان يسير. وكانت جميع هذه الأعمال قد بدأت فعلياً في العام ١٩٤٣.

لم يكن تفوّق العلم السوفياتي موضع شك طوال العقود الماضية. لكن حين نُشرت بعض وثائق المخابرات، بدأت تنتشر الأحاديث بأننا أخذنا السلاح النووي عن الأميركيين...

ليس هذا صحيحاً! إنه عامل الوقت لا غير! لقد سهّلت المخابرات إلى حد بعيد المهمة المطروحة أمام العلماء السوفيات، والتي نجحوا في معالجتها في فترة قصيرة نسبياً.

ليس سرّاً أي وقت كان ذلك الذي نتحدث عنه. فجميع فروع الصناعة التي كان ينبغي أن تشتغل لصالح القنبلة كانت في وضع مزرٍ بعد الحرب. فلو بدأنا العمل آنئذٍ دون أن تتوفر لنا أية معطيات، لكنّا حصلنا على النتيجة متأخرين عشر سنوات.

لقد صمّم علماؤنا تلك التكنولوجيا التي أدّت إلى نتيجة ملموسة. ولكن، وللموضوعية، يجدر بي أن أشير إلى أن علماءنا لم ينسخوا القنبلة الأميركية. ويعود الفضل في ذلك إلى الأكاديمي خاريتون. فقد صنعت القنبلة عندنا على أساس مختلف من حيث المبدأ. من الطبيعي أن الوقود النووية هي نفسها، أي البلوتون، لكن الشحنة عند الأميركيين كانت تطلق في السبطانة (الماسورة) وتبدأ

بواسطة الضغط المعادلة المتسلسلة، ويبدأ توليد الطاقة. أما نحن، فقد استخدمنا ضغط الكرة بدلاً من السبطانة، وهو تصميم أشد تعقيداً، إلا أنه أكثر فاعلية من حيث الضغط.

لقد اختطّ العلماء طريقهم الخاص، على الرغم من أنهم حصلوا على الكثير الكثير من المخابرات. وهكذا كان الأمر ليس بالنسبة للسلاح النووي فحسب...

وخلافاً للرأي السائد أن العلماء كانوا يجهلون مصدر الوثائق التي تتضمن المعلومات حول سير الأعمال المماثلة في الغرب، يجدر بي القول إن ذلك ليس صحيحاً. فقد كانوا يعرفون، بالطبع، أن هذه المعطيات قد حصلت عليها المخابرات، غير أنهم لم يكونوا على علم بمصدر المعلومات، وهذا أمر طبيعي.

إضافة إلى ذلك، فقد تم نقل كبار علماء الغرب سرّاً إلى الاتحاد السوفياتي. وبوسعي أن أذكر بعض الأسماء، فقد نُقل برونو بونتيكورفو، مثلاً، من بريطانيا إلى الاتحاد السوفياتي على متن غواصة.

مقتطفات من مصادر رسمية:

برونو ماكس بونتيكورفو: ولد العام ١٩١٣. وتؤكد المصادر السوفياتية أنه «عضو في الحزب الشيوعي السوفياتي» منذ العام ١٩٥٥، فيزيائي سوفياتي، عضو أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، حائز جائزة لينين وجائزة الدولة. صاحب مؤلفات حول إبطاء النيترونات والتقاطها من قبل النوويات الذرية، وحول الإيزومير النووي والتفاعلات الضعيفة والفيزياء الفلكية.

ولد في إيطاليا، وهو عضو الحزب الشيوعي الإيطالي منذ العام ١٩٣٩. بدأ منذ العام ١٩٤٠ العمل في الولايات المتحدة وفي كندا وبريطانيا. وفقاً للمصادر الرسمية، يعيش في الاتحاد السوفياتي منذ العام ١٩٥٠...

كان بونتيكورفو يعمل على مشروع مماثل في الغرب. وإضافة إلى بونتيكورفو، تمّ عبر تشيكوسلوفاكيا نقل اثنين آخرين من أكبر علماء الراديو إلكترونيك إلى الاتحاد السوفياتي. وكان هذان العالمان من أصل أميركي...

كان بوسعي أن أعدّد أسماء عشرات الأشخاص الآخرين، إلا أنني أعتبر بأنني لا أملك الحق بالتحدث عنهم. وليس لأن ذلك يشكّل سرّاً عظيماً ما، فأجهزة المخابرات لا بد وأنها تعرف هذه الأسماء منذ زمن بعيد. والحديث عن الناس الآخرين ليس من حسن التصرّف بشيء، فهؤلاء الناس لهم أولاد وأحفاد... وأنا على قناعة بأنه لا يجوز الحديث إلا عن مصادر المعلومات المكشوفة، لكن ما دامت هذه الأسماء لم ترد حتى الآن في صحافتنا، وفي الصحافة الأجنبية، فلا يجدر بي أن أذكرها.

تذكّروا محاكمة الزوجين روزنبرغ، التي جرت منذ أربعين عاماً بالضبط في الولايات المتحدة الأميركية. إنها قصة مأساوية، وقد اعترف خروتشوف في الولايات المتحدة أن إيتيل وليليان كان عميلين لنا. وقد كان اعترافه هذا بمثابة هفوة ارتكبها، ودليل حماقة. طرحوا عليه السؤال، فأجاب... لقد تم إعدامهما إلا أنهما لم يعترفا بأنهما يعملان لصالح الاتحاد السوفياتي. لقد كانت المخابرات تمتلك معلومات غير مباشرة عن نقل الأسرار النووية إلى الاتحاد السوفياتي، إلا أنها لم تكن تملك معلومات مباشرة. وإذا لم نأخذ اعتراف خروتشوف بالاعتبار، فإن الأميركيين، بالمناسبة، لا يملكون هذه المعلومات حتى يومنا الحاضر.

وقد فضح سرّ الزوجين روزنبرغ شقيق إيتيل، الذي قبض ملايين الدولارات ثمن فعلته.

لقد عمل أشخاص كثيرون لصالح الاتحاد السوفياتي، بمن فيهم أولئك الذين ساهموا قليلاً أو كثيراً في تنفيذ المشروع النووي. لكن يوجد قانون للمخابرات يقول إن البلد الذي يعمل رجل المخابرات لصالحه لا يفضح سرّه. فلا بد من وجود بعض القواعد الأخلاقية، لكن يبدو أننا أصبحنا ننسى وجود هذه القواعد ...

بدأ اهتمام والدي بمشروع الأورانيوم قبل فترة طويلة من قرار المكتب السياسي، الذي تم اتخاذه على أساس وثائق المخابرات التي تم الحصول عليها

من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ولاحقاً من أميركا. والوثائق الأولى، على ما أعرف، تم الحصول عليها من فرنسا في أواسط العام ١٩٣٩ أو في نهايته. وكانت تتحدث عن أعمال جوليو كوري. وبدأت تصل، في ذلك الحين، وثائق مثيرة للاهتمام من ألمانيا كذلك. لقد أصبح واضحاً أنه حدث اكتشاف هائل. فالأورانيوم يتجزّأ، ويفرز في تفاعله هذا كمية كبيرة من الطاقة، وتم الاكتشاف في أكثر من بلد في آن، في ألمانيا وفي فرنسا، وقد يكون في بريطانيا أيضاً. لقد أصبح واضحاً للعلماء أن معادلة التفاعل المتسلسل أو المتواصل أمر ممكن، ولذلك يمكن صنع جهاز قادر على إنتاج طاقة هائلة في وقت قصير للغاية. وبدأ الحديث آنذاك للمرة الأولى عن صنع سلاح جديد.

كانت المخابرات التقنية والاقتصادية تشغل حيّزاً هاماً في بنية مفوضية الشؤون الداخلية. فإلى جانب كبار الاختصاصيين في المجال المخابراتي المحض، كان يعمل محلّلون جديّون، وكانت المعلومات التي يتم الحصول عليها من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وأميركا تصل إلى هؤلاء بالذات. وأعتقد أن من المثير للاهتمام اليوم تحليل التقارير التي كان يضعها هؤلاء حول الاتجاهات الأكثر أهمية التي ينبغي العمل عليها. فإلى جانب ضباط مفوضية الداخلية، كان يعمل على هذه الوثائق خبراء ومستشارون من بين الاختصاصيين المكلّفين تحليل المعلومات المخابراتية. وكانت تتم الاستعانة، في مثل هذه الحالات، بعلماء سوفيات كبار من أمثال إيوفه وكابيتسا وسيميونوف وسواهم.

كانت الوثائق تتكدّس إلى أن حل أخيراً الوقت الذي خرج فيه المحللون باستنتاجهم: لقد توصل العلم عندنا، وفي عدد من البلدان الأخرى، إلى الاقتناع بأن هذه التقنية قد انتقلت من مجال الخيال العلمي إلى فرضية قابلة للتحقيق .

سوف أتحدّث لاحقاً عن مساهمة علمائنا في صنع السلاح الجديد، لكنني أتوقف قبل ذلك لأشير إلى الأمر التالي: لم يكن أحد ليطلعني قبل الحرب على هذه الأمور، إلا أنني، ومع الوقت، اطّلعت من مصادر مختلفة على التاريخ السابق لصنع القنبلة الذرية.

تقاطعت مع سر السلاح المقبل في أواخر العام ١٩٣٩، دون أن أتقصّد ذلك شخصياً. فقد ظهر في بيتنا آنذاك رجل شاب بقي عندنا حوالى الأسبوعين، كان يتكلم الإنكليزية ممّا جعلني أعتبره بريطانياً.

لم يقدّمه إلينا والدي، بل اكتفى بالقول إنه عالم شاب اسمه روبرت جاء للاطلاع على عدد من القضايا.

كان روبرت طويل القامة ضعيف البنية، يبلغ حوالى الثلاثين من العمر، وله وجه مميز. وكانت ملامحه توحي إلى حد بعيد بأنه من أصل يهودي، أما مَن هو ومِن أيْنَ، فقد بقي الأمر مغلقاً علي.

كنا، كالعادة، نتناول طعام الغداء سوية. ولم أكن أعرف إلى أين كان يذهب. ولم يكن مسموحاً أن أسأل عن مثل هذه الأمور، كما لم أكن لأسأل مطلقاً والدي في مثل هذه الحالات. إذ كنت أعرف أنه قضى سنوات عديدة من عمره في المخابرات، وهو يعرف متى يطلعني على الأمر إذا شاء ذلك.

كان روبرت يعرف الألمانية، إلا أنه كان من الأسهل عليه التحدث بالإنكليزية، التي كنت أجيدها، ولذلك لم تبرز أية مشكلة في الاختلاط فيما بيننا. أضف إلى أن والدي كان يطلب مني البقاء في البيت وعدم الذهاب إلى المدرسة في الأيام التي لم يكن روبرت يغادر فيها المنزل. وكان يقول والدي إنه سيكون أقل ضجراً بوجودي.

كان ضيفنا يقرأ كثيراً. وحين كان ينتهي من عمله، كان يسألني ماذا يدرّسون في المدارس السوفياتية، وماذا ندرس الآن في الفيزياء والرياضيات والكيمياء. وقد علّمني عدداً من الطرق السريعة في عمليات الحساب، وأدركت أنه على علاقة بالتقنيات.

كان والدي يوصيني بقوله:

ـ حدّثه عن كل ما يثير اهتمامه، لكن لا تطرح عليه أية أسئلة.

وهكذا كان: روبرت يسأل وأنا أجيب. إجمالاً، لم يكن والدي في تلك الأيام يتحدث عن الأشخاص الذين كانوا يحلّون ضيوفاً في منزلنا.

لم أعد أذكر بالضبط متى كان ذلك، في أواخر عام ١٩٤٢؛ أو أوائل عام ١٩٤٣، إنما أذكر أننا كنا نجلس إلى المائدة بحضور فانِّيكوف مفوض الذخيرة، وأوستينوف مفوض التسلّح؛ وتطرّق الحديث آنذاك إلى السلاح الجديد. وذُكر آنئذٍ أن الأميركيين يُسرِّعون العمل في مجالات تتعلق بصنع قنبلة ذات قوة تدميرية هائلة. وسمعت آنذاك أن هذه الأعمال تجري في أميركا بإشراف روبرت أوبنهايمر.

كنت قد وصلت لتوي من الأكاديمية، حيث أدرس، وكنت بعيداً عن موضوع الحديث، لكن حين غادر الضيوف، سألت والدي:

ـ هل تذكر أن روبرت، حلَّ ضيفاً علينا منذ عدة سنوات...

لم يكن والدي قد ذكر لي آنذاك عائلة أوبنهايمر، وأجاب باقتضاب:

ـ ألم تنسَ؟ لقد جاء إلينا آنذاك ليقترح علينا تنفيذ المشروع الذي سمعت عنه لتوّك، وهو يعمل في أميركا الآن.

ـ هل الشخص الذي استضفناه قبل الحرب قد زار الاتحاد السوفياتي سرّاً آنئذٍ؟

ـ أعتقد ذلك، وإلا لما كانوا سمحوا له لاحقاً بالإشراف على الأعمال التي تجري في مؤسسة رسمية.

سألت والدي ما إن كان أوبنهايمر يساعدنا الآن، فأجاب: إن مثل هذه الإمكانية غير متوفرة الآن، لكن ثمة أشخاصاً كثراً غيره يساعدوننا.

مقتطفات من مصادر رسمية:

روبرت أوبنهايمر: فيزيائي أميركي. تولى في الأعوام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥قيادة العمل في صنع القنبلة الذرية الأميركية. أصبح فيما بعد رئيس الهيئة الاستشارية العامة للجنة الطاقة الذرية في الولايات المتحدة الأميركية، ومدير معهد الأبحاث الرئيسية في برينستون. يقول عنه القاموس الموسوعي السوفياتي إنه كان مناهضاً لصنع القنبلة الهيدروجينية، واتّهم في العام ١٩٥٣ بعدم الموالاة، وحرم من الاطلاع على المعلومات السرية.

توفي سنة ١٩٦٧ عن ٦٣ عاماً.

لم تتمكّن مكافحة الجاسوسية الأميركية من إثبات تعاونه مع الاتحاد السوفياتي، علماً أن مثل هذه الاتهامات بحق أوبنهايمر وصلت حتى إلى الصحافة. وقد تم إبعاده عن الأعمال السرية، وحُرم إمكانية العمل في القنبلة الهيدروجينية. وكان اتهامه بالتجسس لحساب الروس، وبأن زوجته شيوعية، كافياً لحرمانه من ذلك.

لم نتحدث آنذاك معاً في موسكو عن سيرته الذاتية، ولم أعرف إلا بعد انقضاء سنوات عديدة أن يوليوس روبرت أوبنهايمر ولد في ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٠٤ في نيويورك. وصل والده إلى أميركا من ألمانيا وكان لا يزال في الرابعة عشرة، وعمل، كما أعتقد، في تجارة القماش. تزوج من إيللا فريدمان من بولتيمور، وهي رسامة ومُدرِّسة فن الرسم. وكانت الأسرة تملك مجموعة لا بأس بها من اللوحات بما فيها لوحة لفان غوغ.

تلك هي الأسرة التي نشأ فيها روبرت وشقيقه فرانك، الذي أصبح عالِماً أيضاً.

كان روبرت متعدد المواهب منذ طفولته. كتب الشعر، وكان يحلم في وقت من الأوقات أن يصبح شاعراً، ودرس الفيزياء والكيمياء واللغة الإغريقية واللاتينية والتاريخ...

تخرّج من جامعة هارفرد في العام ١٩٢٥، بعد ثلاث سنوات فقط على دخوله الجامعة. وعلى غرار الكثيرين من الطلاب الأميركيين في تلك السنوات، قرر مواصلة تعليمه في أوروبا. وهكذا وصل إلى كمبردج، وبدأ العمل في مختبر كافندش تحت إشراف ريزرفورد. وكان الطلاب يطلقون على العالِم الكبير لقب «التمساح» بسبب شكل عيونه. وكان بيوتر كابيتسا في عداد طلابه أيضاً، وقد زيّن لاحقاً واجهة المختبر، الذي تم تشييده له في كمبردج، بتمثال تمساح. وكان يشرح ذلك بقوله: إن التمساح يشبه التقدم العلمي، إذ يطحن بين فكيه كل ما يصادفه دون أن يلتفت إلى الوراء...

تنبأوا لأوبنهايمر بمستقبل علمي باهر حين كان لا يزال في بريطانيا. حصل

على درجة دكتوراه في العام ١٩٢٨ وعاد إلى أميركا. وكانت أعماله التي نشرت في بريطانيا وألمانيا، قد أصبحت حتى ذلك الحين معروفة على نطاق واسع في الجامعات الأميركية. وقد اختار أوبنهايمر جامعة كاليفورنيا في بيركلي قرب سان فرانسيسكو. ويؤكدون أنه علّل اختياره هذا بأن مكتبة الجامعة كانت تضم مجموعة رائعة من الشعر الفرنسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر...

وعلى غرار الكثيرين غيره من العلماء الغربيين، بقي أوبنهايمر فترة طويلة من الزمن غير مبالٍ بالأحداث السياسية. ولم تتغير علاقته بالسياسة تغيراً ملحوظاً إلا بعد أن وصل هتلر إلى السلطة في ألمانيا، وبدأ التضييق على المثقفين. وقد وقف بشكل علني، على سبيل المثال، إلى جانب الجمهورية الإسبانية. وبعد وفاة والده في العام ١٩٣٧، حصل روبرت على إرث كبير، مما سمح له بدعم المعادين للفاشية مادياً. ويمكن القول إن التعاطف مع الشيوعية كان سمة مميزة للكثيرين من مثقفي الغرب.

برز اهتمامه بمسألة صنع القنبلة منذ العام ١٩٣٩، وكان يدرك جيداً أهمية الاكتشافات العلمية التي تمت في مختبرات أوروبا. وفي العام ١٩٤١، وبدعوة من حامل جائزة نوبل كومبتون، بدأ أوبنهايمر يعمل في اللجنة الخاصة لأكاديمية العلوم الوطنية التي كانت تشتغل على قضايا استخدام الطاقة النووية للأغراض العسكرية. وفي هذا الوقت بالذات (المخابرات السوفياتية أبلغت موسكو في الوقت المناسب)، قرر البيت الأبيض تخصيص اعتمادات كبيرة من أجل صنع السلاح النووي.

في العام ١٩٤٢، ترأس أوبنهايمر مجموعة العلماء النظريين التي وضعت تصميم القنبلة القادمة. وقد بحثت هذه المجموعة، لأول مرة وبشكل جدي، إمكانية تحرير الطاقة النووية خلال عملية سنتز (Synthese) الذرّات الخفيفة في الهيدروجين، على وجه الخصوص. وأصبحت جميع الأبحاث في هذا الوقت تجري وفق مخطط واحد أطلق عليه اسم «مشروع مانهاتن». وكان قد تم قبل ذلك توقيع اتفاقية مع البريطانيين عُهد بموجبها إلى الجيش الأميركي رسمياً تولّي تنظيم العمل المشترك لعلماء الذرّة الأميركيين والإنكليز.

كان أوبنهايمر نفسه يصرّ على مثل هذا التركيز في الأبحاث، حيث كان يعمل على استباق النازيين. وكان قد سبق له أن اقترح قبل ذلك بفترة طويلة جمع علماء الفيزياء من مختلف البلدان في مختبر واحد. وفي خريف ١٩٤٢، اقترح رئيس «مشروع مانهاتن» الجنرال غروفس على أوبنهايمر ترؤس مثل هذا المختبر. كان روبرت يبلغ من العمر آنذاك ٣٨ عاماً...

وتم لاحقاً، باقتراح من أوبنهايمر، إيجاد مكان لمثل هذا المختبر هو هضبة لوس ألاموس في نيو ـ مكسيكو.

أخذ قادة الولايات المتحدة وبريطانيا منذ العام ١٩٤٢ بحشد طاقات علماء الذرّة وتركيز عملهم في مكان واحد في أميركا. وهكذا بدأ تنفيذ «مشروع مانهاتن»، وبدأ معه نشاط جهاز الأمن. ومن المعروف أن الصعوبات التي واجهها أوبنهايمر بدأت في ذلك الوقت بالذات. فانتماؤه إلى منظمات سياسية يسارية في السابق، الأمر الذي لم يتستر عليه روبرت على ما يبدو، خلق له صعوبات جدية في ما يتعلق بوجوده في المختبر السري. ورفعوا إلى الجنرال غروفس تقريراً يشير إلى أنه، من وجهة النظر الأمنية، لا يجوز استخدام أوبنهايمر رئيساً لمختبر لوس ألاموس. واكتفى غروفس بتأكيدات العالم بأنه قد ترك الشيوعيين منذ زمن بعيد ولا ينوي في المستقبل إقامة أية علاقة مع اليساريين. وخلافاً لما كانت ترغب به مؤسسة مكافحة الجاسوسية أبَقوا على أوبنهايمر في منصبه.

وكما هو معروف، استمر العمل في صنع القنبلة الذرية، وانتهى بتجربتها في منطقة ألاموغوردو. وفي جو من السرية المطلقة، رُفعت الأجزاء المكوّنة للقنبلة على برج معدني أقيم في الصحراء. وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح ١٦ تموز/يوليو ١٩٤٥، دوّى انفجار أول قنبلة ذرية في العالم. وفي آب/أغسطس، كما هو معروف أيضاً، قصف الأميركيون هيروشيما وناغازاكي...

في شهر تشرين الأول/أكتوبر ترك أوبنهايمر منصب مدير مختبر لوس ألاموس. أما القنبلة الهيدروجينية، فقد صنعها إدوارد تيللر الذي هاجر من

ألمانيا أيام الفاشية. ترأس أوبنهايمر في وقت من الأوقات معهد برنستون للدراسات المستقبلية، ثم أصبح لاحقاً رئيس اللجنة الاستشارية للجنة الطاقة النووية. في العام ١٩٤٩، كان في عداد اللجنة التي تولّت درس الصور الفوتوغرافية للطبقات العليا من الجو التي حصلت عليها قاذفات القنابل الأميركية. فقد كانت هذه الصور تحمل آثار أول انفجار نووي سوفياتي...

في أواخر العام ١٩٥٣، أصدر الرئيس أيزنهاور أمراً «بإنشاء جدار عازل بين أوبنهايمر والمعلومات السرية». وساقوا ضده آنذاك سلسلة كاملة من الاتهامات. فقد اتهم بأنه قدّم مساعدات مادية للشيوعيين، وكان على اتصال بهم، واتخذ عشيقة شيوعية له، وتزوج من شيوعية سابقة، واستقبل شيوعيين للعمل في مختبر لوس ألاموس. أي أن كل التهم كانت تدور حول هذا الأمر. وبعد مضي عدة أشهر بدأت التحقيقات الرسمية واستمرت ثلاثة أسابيع، وكان أوبنهايمر قد بلغ آنئذٍ الخمسين من العمر.

على الرغم من أن اللجنة لم تتمكن من إثبات التهمة الموجهة إلى أوبنهايمر بأنه كان عميلاً سوفياتياً، إلا أنها اتخذت القرار التالي: إن أوبنهايمر غير مرغوب به في أي منصب له علاقة بالأسرار العسكرية. وأقيل فوراً من عضوية لجنة الطاقة النووية؛ ورُفض استئنافه حين تقدم باستئناف ضد هذا القرار.

توصّلت لجنة الأمن آنذاك إلى استنتاج مفاده أن «أوبنهايمر لم يراعِ دائماً في نشاطه مبادئ أمن الولايات المتحدة الأميركية، وكان بوسعه أن يهدِّد هذا الأمن في المستقبل، وهو لم يكن صادقاً حتى النهاية. كما أن تصرفات أوبنهايمر في قضية صنع القنبلة الهيدروجينية تثير الشك فيما إذا كان سيتصرف في المستقبل وفقاً لما تمليه مصلحة أمن البلاد».

في العام ١٩٦٣، أي قبل أربع سنوات من وفاة العَالِم، أعادت لجنة الطاقة النووية النظر بهذا القرار. ومُنح أوبنهايمر جائزة انريكو فيرمي لمساهمته المميزة في السيطرة على الطاقة النووية واستخدامها. لكن ذلك لم يكن، في الحقيقة، إعادة اعتبار كامل للعالِم.

أما مصير إدوارد تيللير فكان مختلفاً.

مقتطفات من مصادر رسمية:

إدوارد تيللير: ولد العام ١٩٠٨ في بودابست في أسرة محام، درس في كارلسروه، وفي ميونيخ، وفي ليبزيغ. في العام ١٩٣٤ سافر إلى الدانمرك. وفي العام ١٩٣٥ سافر إلى الولايات المتحدة وبدأ العمل في جامعة جورج واشنطن.

في العام ١٩٤١ تلقّى دعوة للعمل في القنبلة الذرية. ترك لوس ألاموس نتيجة خلاف مع أوبنهايمر. وخلافاً لرأي أوبنهايمر، تمكّن بعد الحرب من إنشاء مختبر جديد خاص به لا يبعد كثيراً عن لوس الاموس.

شارك في صنع القنبلة الذرية الاميركية والقنبلة الهيدروجينية. وتقول المصادر السوفياتية إنه «كان يقف ضد نزع السلاح وتخفيف حدة التوتر الدولي».

بدأ خلاف العالِمين في لوس ألاموس. لكن أوبنهايمر لم يكن يعرقل عمل تيللير في القنبلة الحرارية، بل حرَّره من العمل في القنبلة الذرية. وقد افترقت آراؤهما نهائياً فيما بعد. كان أوبنهايمر يدافع عن موقفه، وكان تيللير يصرّ بكل ما أوتي على صنع القنبلة الهيدروجينية. وقد ترأس بنفسه هذه الأعمال في الولايات المتحدة، ووقفت الحكومة الأميركية إلى جانبه، بالطبع.

في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٩ بحثت اللجنة الاستشارية برئاسة أوبنهايمر مشروع إنتاج القنبلة الهيدروجينية، وخرجت باستنتاج مفاده أن إنتاج السلاح الحراري سوف يلحق، بالتأكيد، ضرراً معنوياً بالولايات المتحدة الأميركية.

لم يكن إدوارد تيللير مع علماء آخرين أعضاء في اللجنة، إلا أنهم دافعوا عن المشروع دفاعاً مستميتاً. في مطلع العام ١٩٥٠ أصدر الرئيس ترومان أمره بالمباشرة بالعمل في المشروع.

في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢ أجرى الأميركيون أول تفجير لهذه المعادلة النووية في جزيرة وسط المحيط الهادئ في الساعة السابعة والدقيقة الرابعة عشرة صباحاً. وقد بلغت قوة تفجير «مايك» (كما سمي الجهاز الذي تم تفجيره) ١٢ ميغاطن. إلا أن الجهاز الأميركي هذا لم يكن قد أصبح

سلاحاً قابلاً للنقل، لأن حجمه كان لا يزال ضخماً للغاية، وكان عليهم تخفيضه إلى حجم القنبلة.

في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٥٣، نشرت الصحافة السوفياتية بلاغاً حكومياً جاء فيه: «جرى في الاتحاد السوفياتي منذ عدة أيام، ولغايات اختبارية، تفجير نوع من أنواع القنبلة الهيدروجينية». وقد علمت بأمر هذا التفجير لاحقاً، بعد إطلاق سراحي من السجن.

كان ذلك في الواقع قنبلة حرارية. لقد سبقْنا الأميركيين.

وفي العام ١٩٥٤، تم بإشراف إيغور فاسيليفيتش كورتشاتوف افتتاح العمل في أول محطة ذرية لتوليد الطاقة الكهربائية في العالم، ولم يكن قد مضى بعد سوى بضعة أعوام على تفجير قنبلتنا الذرية الأولى...

قال أوبنهايمر يوماً: «لقد قمنا بعمل نيابة عن الشيطان». أجل، لقد تم صنع سلاح رهيب لم يحصل عليه النازيون لحسن الحظ. لكن الاتحاد السوفياتي لم يكن لديه خيار آخر، فلم نتمكن من الشعور بالاطمئنان حتى بعد الحرب العالمية الثانية. ولذلك لم تكن القنبلة الذرية أو الهيدروجينية نزوة من نزوات ستالين أو والدي أو أي شخص آخر. فلو لم نكن أول من أنتج السلاح الهيدروجيني، لكان علينا أن نقتفي أثر الأميركيين، كما حصل بالنسبة للقنبلة الذرية. ولهذا لم يبق لنا أي خيار آخر سوى أن نقبل التحدي...

في آب/أغسطس ١٩٨١، حُكم بالإعدام رمياً بالرصاص بتهمة خيانة الوطن على الميجور ستانيسلاف ليفتشنكو الذي كان يعمل في مقر الكي. جي. بي. في طوكيو ومن ثم فرّ إلى الغرب. وقد تحدث رجل المخابرات السابق هذا بكل طيبة خاطر عن ذكرياته حول الدراسة في مدرسة المخابرات في ضواحي موسكو. ويقول إنه «قد أصيب بالصدمة» حين سمع بقصة الوصول إلى أسرار «مشروع مانهاتن» لأول مرة من مدرّسيه. فقد تسنّى للأميركيين إخفاء أسرار مشروعهم النووي عن المخابرات الألمانية واليابانية، لكن المعلومات عن سير تنفيذ «مشروع مانهاتن» بقيت تصل تباعاً إلى الاتحاد السوفياتي.

كان المدرّسون في مدرسة المخابرات يشيرون إلى الكفاءة العالية في عمل المخابرات السوفياتية، من خلال إشارتهم إلى أن الاتحاد السوفياتي قد كسب بهذه الطريقة عدة سنوات كان سيبقى خلالها تحت رحمة الأميركيين، لولا عمل المخابرات هذا.

إن هذا المثال الكلاسيكي، فعلاً، سوف يبقى مادة نموذجية لتنشئة أجيال وأجيال من رجال المخابرات، وليس الروس فحسب. لقد كان ذلك نجاحاً هائلاً، بالفعل، للأجهزة الروسية.

كثيرون كانوا هم الناس الذين ساعدونا آنئذٍ. من بين هؤلاء كان كلاوس فوكس، على سبيل المثال. لقد اضطر هذا العالِم إلى الاعتراف لاحقاً بأنه كان يعمل لصالح الاتحاد السوفياتي. لكنني أكرر القول إن هذا العالِم لم يكن المصدر الوحيد للمعلومات، بل كان يوجد عشرات من أمثال فوكس.

مقتطفات من مصادر رسمية:

كلاوس فوكس: هو واحد من أهم العملاء السوفيات بتقدير أجهزة المخابرات الغربية.

ولد في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٢ في مدينة ريوسلهايم قرب دورشتات في أسرة رجل الدين البروتستانتي والدكتور في اللاهوت، ميل فوكس. وكان والده أحد أوائل رجال الدين الذين انتسبوا في شبابهم إلى صفوف الحزب الاشتراكي الألماني.

في العام ١٩٢٨، أنهى كلاوس فوكس المدرسة مع ميدالية تقديراً لتفوقه. ودخل جامعة ليبزيغ، حيث أصبح عضواً في الحزب الاشتراكي. بعد وصول النازيين إلى السلطة تحوّل إلى الوضع السري، وفي العام ١٩٣٣ أرسله الحزب الشيوعي الألماني إلى باريس، ومن ثم إلى بريطانيا.

قضى ثلاث سنوات في منزل الصناعي المعروف بتعاطفه مع الاتحاد السوفياتي رونالد غانّ. عمل في مختبر الفيزيائي نيفيل نوتّ في جامعة بريستول. في كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٦ دافع عن أطروحة الدكتوراه، وكان في الخامسة والعشرين من العمر. وبتوصية من الدكتور نيفيل نوتّ واصل العمل في مختبر البروفسور ماكس بورن. كتب بمشاركة بورن عدة أعمال علمية في جامعة أدنبره.

في أيار/مايو ١٩٤٠ تم إجلاؤه كألماني، ووُضِع في معسكر في جزيرة مان. ثم تم نقله مع الآخرين إلى كندا، حيث وُضعوا في معسكر للاعتقال في كويبك. تمت إعادته إلى بريطانيا في نهاية كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٠، بعد تدخّل الصناعي رونالد غانّ وعدد من العلماء البارزين.

في مطلع العام ١٩٤٢، حصل كلاوس فوكس على الجنسية البريطانية، وتم إشراكه في الأعمال السرية المتعلقة بإنتاج السلاح النووي. وقد عمل في مجموعة الفيزيائي الألماني المهاجر ر. بايرليس.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣ وصل إلى الولايات المتحدة الأميركية في عداد البعثة البريطانية للمشاركة في المشروع النووي الأميركي «مشروع مانهاتن». بين العامين ١٩٤٣ و١٩٤٦، عمل كلاوس فوكس مع مجموعة ر. بايرليس لدى هانس بيتّه في لوس - ألاموس، وفي حزيران/يونيو عاد إلى هارويل في بريطانيا، حيث أقيمت وحدة جديدة للطاقة.

اعتقل في كانون الثاني/يناير ١٩٥٠. وفي الأول من آذار/مارس من العام نفسه، أصدرت محكمة لندن حكماً عليه بالسجن لمدة ١٥ عاماً. تم إطلاق سراحه في ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٥٩، أي قبل انتهاء مدة العقوبة.

انتقل إلى برلين الشرقية في سن الثامنة والأربعين، وحصل بعد يومين على الجنسية في ألمانيا الديمقراطية، وعيِّن نائب مدير معهد الفيزياء النووية. في العام ١٩٧٢، أصبح عضواً في أكاديمية العلوم في ألمانيا الديمقراطية وعضواً في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد. في العام ١٩٧٥، مُنح جائزة الدولة من الدرجة الأولى ووسام كارل ماركس.

توفي في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٨٨.

اعترف الأكاديمي يولي باريسوفيتش خاريتون منذ وقت قريب فقط، بأن «الشعب السوفياتي بأسره ينبغي أن يكون عميق الامتنان لكلاوس فوكس على المعلومات الواسعة التي نقلها إلى الفيزيائيين السوفيات. لكن هذه المساعدة بقيت في الاتحاد السوفياتي طي الكتمان، شأن كل ما يتعلق بنشاط مفوضية الداخلية. بعد إطلاق سراح فوكس العام ١٩٥٩، طلبت من د. أوستينوف التدخّل لمكافأة فوكس على المساعدة التي قدمها للاتحاد السوفياتي، وكان ديمتري فيدوروفيتش أوستينوف يشغل مناصب رفيعة في جهاز الدولة والحزب،

وكان يتابع باهتمام الأعمال المتعلقة بصنع السلاح النووي. وقد وافق على أنه لا بد من القيام بذلك، ووعد ببذل ما بوسعه لتحقيق ذلك، إلا أن الأمر لم يسفر عن شيء إيجابي».

حين بدأوا منذ عدة سنوات يتحدثون لأول مرة في الاتحاد السوفياتي عن كلاوس فوكس، قيل إن رئيس أكاديمية العلوم السوفياتية آنذاك أناتولي الكسندروف تمتم قائلاً بتأفف واضح: «فوكس؟ أعتقد أنه كان شيئاً... غير ذي أهمية...». وكان الكسندروف قد تولّى بعد وفاة كورتشاتوف إدارة معهد الطاقة النووية، وبقي ما يقرب من ثلاثين عاماً يشرف على برامج تصميم وبناء المفاعلات النووية للأغراض المختلفة.

وتشير بعض المصادر أيضاً إلى أن مستيسلاف كيلديش، الذي تولّى رئاسة أكاديمية العلوم قبل الكسندروف، لم يكن يحب أن يتذكر كلاوس فوكس. وكانوا يؤكّدون في الكي. جي. بي السابقة أن كيلديش نفسه وقف ضد اقتراح الأجهزة مكافأة العميل السوفياتي، معللاً ذلك بقوله إن مثل هذه الجائزة «تلحق الأذى بسمعة العلماء السوفيات».

لكن الثابت هو أن الحكومة السوفياتية لم تكافئ كلاوس فوكس، الذي عمل الكثير من أجل تنفيذ المشروع النووي السوفياتي، بحسب الاعتراف المتأخر للأكاديمي يولي خاريتون. بل أكثر من ذلك، يقول شهود عيان إنه لم يحضر أي ممثل للاتحاد السوفياتي مراسم جنازة عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد الشقيق كلاوس فوكس.

على كلٍّ ليس ثمة ما يدعو للاستغراب، فالسلطات السوفياتية كانت في هذه الحالة منسجمة كلياً مع نفسها. ففي آذار/مارس ١٩٥٠، وبعد صدور الحكم مباشرة على رجل المخابرات السوفياتي، سارعت الحكومة السوفياتية إلى نفض يدها من فوكس.

مقتطفات من بلاغ لوكالة تاس بتاريخ ٨ آذار/مارس ١٩٥٠:

تحدثت وكالة رويتر منذ عدة أيام عن المحاكمة التي جرت في لندن لعالم الذرّة الإنكليزي فوكس، والذي حكم عليه بالسجن لمدة ١٤ عاماً لمخالفته قوانين السريّة في الدولة. وقد أعلن المدعي العام في بريطانيا شوكروس، الذي تولى صفة الادعاء في هذه القضية، بأن فوكس قام بنقل أسرار ذرّية إلى «عملاء الحكومة السوفياتية». إن تاس مخوّلة ان تعلن أن هذا التصريح هو كذب وقح، لأن فوكس غير معروف من قبل الحكومة السوفياتية وليس «لعملاء» الحكومة السوفياتية أية علاقة بفوكس.

في ذلك الحين، أي في الخمسينيات، كان هذا التصريح مبرراً، على الأقل، من وجهة نظر أجهزة المخابرات، وذلك بغض النظر عن موقفنا منه اليوم. فليس عبثاً أن يتوصل عميل المخابرات السوفياتية الخارجية السابق في الدانمرك الكولونيل ميخائيل لوبيموف، وبعد سنوات عديدة من العمل في المديرية الأولى للكي. جي. بي، إلى أن «مهنة رجل المخابرات هي مهنة النفاق». لكن ما هو تفسير نفاق الحكومة السوفياتية والأكاديمي الكسندروف وأمثاله في السبعينيات والثمانينيات؟

أعتقد أن هذا الموقف لم يكن يمليه فقط الخوف من «إلحاق الأذى بسمعة العلماء السوفيات» والاعتراف الرسمي بدور المخابرات السوفياتية في تنفيذ المشروع الذري السوفياتي. فالقيادة الحزبية العليا، ومهما كانت تأبى ذلك، فقد كان عليها في هذه الحالة أن تعترف بدور من نزلت عليه لعنة النظام السوفياتي: لافرنتي بيريا، الذي بقي لأكثر من خمس عشرة سنة ممسكاً بجميع خيوط المخابرات السوفياتية، وهو ما لم يكن ينسجم مطلقاً مع مخططات القيادة السوفياتية.

يعتبر الأميركيون أن كلاوس فوكس قد ساعد الاتحاد السوفياتي في تعجيل حل المسألة الذرية لفترة تراوح بين ثلاثة وعشرة أعوام. فهم يؤكدون أن المعلومات، التي أرسلها فوكس، سمحت ببدء العمل في صنع السلاح الحراري قبل الولايات المتحدة الأميركية. بوسعي القول إن هذا العالِم قد فعل الكثير.

لقد كتب الأكاديمي خاريتون يقول: «إن المعلومات التي نقلها فوكس وسواه من العملاء شملت دائرة واسعة من الفصول العلمية والتقنية الضرورية لصنع السلاح النووي. ومن ذلك، على سبيل المثال، المفاعل النووي الذي كان يتشكل فيه البلوتون تحت تأثير تيار قوي من النيوترونات، إضافة إلى حسابات مختلفة، والترسيمة (الخارطة) التفصيلية لأول حشوة نووية أميركية».

إضافة إلى ذلك نقل فوكس إلى المخابرات السوفياتية معلومات لا تقل أهمية أيضاً حول سير العمل في صنع القنبلة الهيدروجينية في مختبر الفيزيائي النظري إدوارد تيللير الذي تحدثنا عنه.

تشير المعلومات الرسمية إلى أن فوكس أقدم على التعاون مع الاتحاد السوفياتي لأن الأميركيين والإنكليز كانوا يعملون على صنع السلاح النووي خفية عن حليفهم في التحالف المعادي لهتلر. اتصل العالِم المناهض للفاشية بالمخابرات العسكرية السوفياتية (GRU)[1] في لندن، وبدأ بنقل المعلومات إليها. هذه الرواية يؤيدها الأكاديمي بولي خاريتون. وفي معلومات أخرى أن المخابرات السوفياتية أقامت علاقة مع فوكس في خريف العام ١٩٤١. ولا تختلف هذه المعلومات كثيراً عن المعلومات الرسمية. ومهما يكن، إلا أنه بوسعنا إلى حد بعيد أن نؤكد أن تجنيد العالم الألماني المناهض للفاشية تم في هذه الفترة تقريباً. وفي فترة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ كان كلاوس فوكس يتعاون بشكل نشط مع المديرية العامة للمخابرات (GRU)، ومن ثم مع المديرية الأولى (المخابرات الخارجية) في وزارة أمن الدولة (MGB-KGB).

أقامت المخابرات العسكرية السوفياتية، العلاقة مع فوكس عبر أورسولا كوسينسكايا الألمانية الأصل.

مقتطفات من مصادر رسمية:

أورسولا كوسينسكايا: عاملة مخابرات سوفياتية. الاسم المستعار «سونيا».

(١) وهي نفسها المديرية العامة للمخابرات التابعة للأركان العامة - المترجم.

كانت تنقل إلى موسكو، بواسطة جهاز الإرسال الذي كان مثبتاً في منزلها، غير البعيد عن أوكسفورد، المعلومات التي كانت ترد من الفيزيائي الذرّي كلاوس فوكس. قبل وقت قصير من محاكمة فوكس، فرّت مع أطفالها إلى الاتحاد السوفياتي. عاشت لاحقاً في المانيا الديمقراطية. بعد توحيد المانيا تعيش في المانيا الغربية. منذ فترة وجيزة، صرّحت روف فيرنر البالغة من العمر ٨٥ عاماً (اورسولا كوسينسكايا) بأنها لا تعتبر نفسها خائنة لالمانيا، وانها منذ سن السابعة عشرة، حين أصبحت شيوعية، تعمل دائماً بما تمليه عليها قناعاتها. وقد اعترفت قائلة: «إن مثل هذه الأمور لا تتم إلا بقناعات فكرية».

كانت علاقة كلاوس فوكس في الولايات المتحدة مع العميل «رايموند»، وهو المواطن الأميركي هاري غولد. وقد وصلت إلى المركز من خلاله المعلومات المتعلقة بتشييد مصنع "التشتت" (Deffusion) في أوكريدج في ولاية تينسي، وبأعمال البحث العلمي التي كان يقوم بها في سنوات الحرب علماء الذرّة الأميركيون والإنكليز.

وبعد عودته إلى بريطانيا، نقل فوكس المعلومات الأشد تفصيلاً عن المصنع الكيميائي لإنتاج البلوتون في ويندسكايل، وعن المفاعلات النووية، وعن خطط بناء المصانع المخصصة لتجزئة الإيزوتوب، وعن الخارطة المبدئية لتصميم القنبلة الهيدروجينية. وقد أفاد العلماء السوفيات أيضاً من المعلومات السرية للغاية التي نقلها إلى موسكو عن نتائج تجارب قنابل الأورانيوم البلوتونية الأميركية في منطقة جزيرة اينيفيتوك، وعن التحليل المقارن لعمل مراجل الأورانيوم التي يتم تبريدها بواسطة الهواء والماء. وبالمناسبة، في ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٥ حضر العميل السوفياتي فوكس تجربة أول قنبلة نووية أميركية...

استمر تعاون العالم النووي مع المخابرات السوفياتية حتى صيف العام ١٩٤٩ تقريباً. وكانت مؤسسة مكافحة الجاسوسية في أميركا قد دققت حتى ذلك الحين ملفات جميع الذين كانوا على صلة بهذا الشكل أو ذاك بتنفيذ «مشروع مانهاتن». ومن بين الذين لفتوا انتباه مكتب التحقيقات الفيدرالي، كان كلاوس فوكس أيضاً. فقد طفت على السطح وثائق حول مشاركته في المقاومة السرية الألمانية بعد وصول النازيين إلى السلطة، وأحاديثه في مديح الاتحاد السوفياتي.

واتضح، من وثائق أرشيف الغستابو التي استولى عليها الحلفاء، أن رقم كلاوس عند الغستابو كان ٢١٠، وكان ثمة تعميم يشير إلى أنه في حال العثور عليه في أراضي الاتحاد السوفياتي المحتلة ينبغي إعادته، هو الفيزيائي المعادي للنظام، إلى ألمانيا...

إن التفاصيل، التي سبقت اعتقال العميل السوفياتي فوكس، غير معروفة تقريباً في رابطة الدول المستقلة اليوم. فقد تبيّن أن افتضاح أمر هذا العالِم مرتبط مباشرة بعملية "فينونا"(venona)، وهوالاسم الرمزي لعملية فك شيفرة عدة آلاف من البرقيات المشفَّرة العائدة لأجهزة الأمن السوفياتية. فقد كان عامل الشيفرة في السفارة السوفياتية في أوتاوا إيغور غوزنكو قد فر في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٥، وكانت المعلومات التي نقلها إلى الغرب تتعلق بشكل أساسي بنشاط مديرية المخابرات (GRU) في أميركا الشمالية وما يسمّى بالتجسس النووي. وقد استطاع اللغوي الممتاز والخبير في الكتابة السرية ميرديت غاردنر من قسم أمن الجيش الأميركي، بعد مرور ثلاث سنوات، أن يغوص أكثر في أسرار الشيفرات السوفياتية. ووجد في أحد برامج الشيفرة، الذي سلّمه الفارّ غوزينكو إلى السلطات الكندية وحَلَّ رموزه الاختصاصيون الأميركيون، ممسكاً على كلاوس فوكس وشقيقته كريستيل، التي كانت تعيش في كمبردج. فقد تبين أن قيام «رايموند»، هاري غولد (الذي كان يتعاون مع مخابرات مفوضية الداخلية منذ العام ١٩٣٦) بزيارتها في شقتها لم يبقَ سرياً، إذ وشت به امرأة تدعى اليزابيت نيتلي، ووشى «رايموند» بدوره بفوكس...

كانت الولايات المتحدة تصرّ على نقل القضية إلى محكمة أميركية، إلا أن البريطانيين لم يوافقوا على ذلك. أما المصير اللاحق للعميل السوفياتي فقد أصبح القارئ على علم به.

كُثر هم الأشخاص الذين تولّوا نقل أسرار نووية إلى الاتحاد السوفياتي. ويكفي أن نتذكّر، على الأقل، موريس ولونا كوهين، المعروفين لدى الأجهزة السرية الأميركية خلال سنوات طويلة تحت اسمَيْ بيتر وهيلين كروغير. وكانا في وقت من الأوقات في عداد مجموعة الزوجين روزنبرغ. في السنوات الست

الأخيرة التي سبقت اعتقالهما في العام ١٩٦١، كانا يؤمّنان الصلة بين المركز ورجل المخابرات السوفياتي المعروف غوردون لونغ سدايل.

مقتطفات من مصادر رسمية:

غوردون لونغ سدايل، الاسم الحقيقي كونون تروفيموفيتش مولودي: رجل مخابرات سوفياتي. عمل خلال سنوات الحرب وبعدها في عدد من بلدان الغرب. انهى الحرب في برلين، حيث كان يؤمّن الصلة بين العميل السوفياتي المقيم في عاصمة الرايخ والمركز. أبلغ موسكو المعلومات المتعلقة بمحادثات الحلفاء المنفردة مع جنرال الإس الإس (SS) فولف، وتبين لاحقاً أنه من المشاركين في التجسس «النووي».

توفي عام ١٩٧٠ في موسكو، وهو في الثامنة والأربعين.

تشير المصادر الغربية إلى أن موريس كوهين قد تم تجنيده من قبل المخابرات السوفياتية في إسبانيا، حيث كان يقاتل إلى جانب الجمهوريين. وقد نقل إلى موسكو معلومات قيّمة للغاية من الولايات المتحدة، ومن ثم من بريطانيا.

كان الزوجان كوهين يتخفّيان في بريطانيا تحت ستار بائعَيْ كتب قديمة ناجحَين. ولدى تفتيش شقتهما في ضواحي لندن من قبل جهاز الأمن (Mi-5)، عُثر لدى العميلين السوفياتيين على جهاز إرسال قوي تم تثبيته في مصباح كهربائي للجيب، وجهاز استقبال يعمل على التردد العالي، وآلة حاسبة دقيقة الحجم، ومغنطيس يستخدم لدى نقل البرقيات على الشريط من أجل السرعة في إرسالها.

في العام ١٩٦١، صدر بحق غوردون لونغ سدايل (كونون مولودي) حكم بالسجن لمدة ٢٥ عاماً؛ وحكم على مساعدَيه المُقرّبَين الزوجين كوهين (بيتر وهيلين كروغر)، اللذين كانا مرتبطين في وقت من الأوقات بكلاوس فوكس والزوجين روزنبرغ، بالسجن لمدة ٢٠ عاماً.

في العام ١٩٦٩، جرت مبادلة موريس ولونا كوهين بالبريطاني جيرالد

بروك، الذي اعتقل في موسكو بتهمة نشر الدعاية المعادية للسوفيات. وهما يعيشان في موسكو. وقد قام التلفزيون البريطاني منذ عدة سوات، وبالتعاون مع الكي. جي. بي في الاتحاد السوفياتي، بتصوير فيلم عن هذين العميلين «الذرّيين» السوفياتيين تحت عنوان «جيران غريبو الأطوار».

لقد آن الأوان، على ما أعتقد، لذكر أسماء أشخاص آخرين نقلوا إلى الاتحاد السوفياتي أسرار البرامج النووية الأميركية والبريطانية، دون أي مقابل إطلاقاً. هذا ما كان عليه كلاوس فوكس وكثيرون سواه، ممن كانوا يرفضون أي مقابل مادي. وكانوا في كثير من الأحيان يضعون هذا الأمر شرطاً للتعاون مع الاتحاد السوفياتي.

لكن الأجهزة الأمنية كانت، مع ذلك، تدفع مقابل خدمات بعض العملاء. فالعسكري في الجيش الأميركي ديفيد غرين غلاس الذي كان يخدم في لوس ألاموس،حين كان يعمل فوكس هناك، كان يتقاضى مقابل خدماته. إلا أن المعلومات التي كان ينقلها هذا العميل كانت تستحق ذلك.

كان ديفيد غرين غلاس هو الشقيق الأكبر لإيثيل روزنبرغ. وقد لعب دوراً مأساوياً في مصير أسرة شقيقته. فقد اعترف هو نفسه لمؤسسة مكافحة الجاسوسية بتعاونه مع المخابرات السوفياتية، وأفاد، في الوقت نفسه، عن زوج شقيقته يوليوس روزنبرغ. لقد كان إيثيل ويوليوس العميلين السوفياتيين الوحيدين اللذين انتهت حياتهما على الكرسي الكهربائي، وذلك في ١٩ تموز/يوليو ١٩٥٣ في سجن سينغ سينغ في نيويورك.

لقد تبيّن أن الشخص الذي كان يعمل في حينه مع ديفيد غرين غلاس لا يزال على قيد الحياة، وهو موظف سابق في القنصلية السوفياتية في نيويورك، أو المقر العلني لمخابرات مفوضية الداخلية على نحو أدق. وكان معروفاً في الولايات المتحدة تحت اسم أناتولي ياكوفليف. أما الاسم الحقيقي لرجل المخابرات السوفياتي هذا، فهو أناتولي ياتسكوف، ولم يعترف، إلا منذ فترة قريبة، بأنه كان يتلقى معلومات من كلاوس فوكس ومن الزوجين روزنبرغ.

مقتطفات من مصادر رسمية:

أناتولي ياتسكوف: عمل منذ مطلع العام ١٩٤١ في نيويورك تحت «سقف» القنصلية السوفياتية. وصل إلى الولايات المتحدة على أنه الدبلوماسي أناتولي ياكوفليف.

في العام ١٩٤٣، تحول كلياً إلى العمل في «مشروع مانهاتن». ترأس لاحقاً كلية «مدرسة المخابرات» التابعة للكي. جي. بي، تقاعد في العام ١٩٨٥.

في اعتراف له لصحيفة «واشنطن بوست»، قال إن مكتب التحقيقات الفيدرالي لم يكن بوسعه أن يكشف من الشبكة العاملة في الولايات المتحدة «سوى النصف أو حتى أقل من ذلك».

تم اكتشاف القلائل لا غير، أما ضابط المخابرات نفسه، أناتولي ياتسكوف، فقد اضطر لمغادرة الولايات المتحدة إثر افتضاح أمر الزوجين روزنبرغ، إذ ورد ذكر اسمه، حتى وإن كان مستعاراً، في المحكمة.

ثمة اسم آخر معروف في الغرب هو أناتولي غورسكي الذي عمل في لندن، وكان مرتبطاً بدونالد ماكلين، من «بتيوركا[1] كمبرج» الشهيرة...

مقتطفات من مصادر رسمية:

دونالد ماكلين: عضو إحدى أكثر مجموعات المخابرات السوفياتية في الخارج فاعلية، بقي ينقل إلى الاتحاد السوفياتي خلال عدة سنوات معلومات عن سير الأبحاث النووية في مختبرات الغرب.

والده هو السير دونالد ماكلين: محام ليبرالي اسكوتلاندي الأصل، ترأس مجلس التعليم في حكومة رامسيل ماكدونالد في مطلع الثلاثينيات.

بدأ اهتمامه بالأفكار الشيوعية قبل انتسابه إلى ترينتي هول ـ كولدج. من المفترض أن تجنيده قد تم على يد العميل السوفياتي بيرنجيس في العام ١٩٣٣. بدأ عمله الدبلوماسي في وزارة الخارجية البريطانية. وفي أيلول/سبتمبر ١٩٣٨، تولّى منصب السكرتير الثالث في السفارة البريطانية في باريس. بعد عودته من فرنسا تم ترفيعه رتبة ومنصباً، فأصبح سكرتيراً ثانياً وموظفاً في المديرية العامة

(١) وتعني الخمسة، على وزن ترويكا، أي الثلاثة - المترجم.

لوزارة الخارجية البريطانية. في ربيع ١٩٤٤ تم تعيينه سكرتيراً أول في السفارة في واشنطن، وكان موكلاً بالاهتمام بمسائل التعاون بين العلماء البريطانيين والأميركيين في تنفيذ المشروع النووي. في شباط/فبراير ١٩٤٧ تم تعيينه في اللجنة السياسية المشتركة المكلفة تنسيق السياسة النووية بين كل من بريطانيا وأميركا وكندا.

في العام ١٩٥١، وبسبب التخوف من اعتقاله، فرّ مع غاي بيرنجيس إلى الاتحاد السوفياتي، ولم تعترف الحكومة السوفياتية رسمياً بأن ماكلين وبيرنجيس قد لجأ إلى الاتحاد السوفياتي إلا بعد مرور خمسة أعوام على ذلك.

في السنوات الأولى لإقامته في الاتحاد السوفياتي، عمل أستاذاً جامعياً في كوبيشيف، ومن ثم بقي حتى وفاته يعمل في معهد الاقتصاد الدولي والعلاقات الدولية في موسكو التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. أثناء وجوده في الاتحاد السوفياتي وضع كتاب «سياسة بريطانيا الخارجية بعد السويس».

ثمة بريطاني آخر بين رجال المخابرات «الذريين» هو دجون كيرنكروس. وقد كان، في حينه، السكرتير الشخصي للورد هانكي، الذي كان يترأس الهيئة البريطانية للعلوم. ناقشت هذه الهيئة أكثر من مرة في اجتماعاتها منذ خريف العام ١٩٤٠ القضايا المتعلقة بالأورانيوم ـ ٢٣٥ لصنع السلاح النووي. بعد عام، أصبح هانكي عضو اللجنة الاستشارية «تيب اللويز» التي أنشئت في بريطانيا، وتعاونت على نحو مثمر أثناء الحرب مع العلماء العاملين في تنفيذ المشروع النووي الأميركي. وكانت المعلومات المتعلقة بالأبحاث النووية تصل إلى المركز بلا انقطاع ...

لا يسعنا إلا أن نتذكر، بهذا الصدد، إنكليزياً آخر عمل في تلك السنوات لصالح الاتحاد السوفياتي، وهو العالم آلان نان ماي المتعاطف مع الاتحاد السوفياتي، والذي كان في العام ١٩٤٢ يشتغل بالأبحاث النووية في كندا. لقد تم تجنيده بمبادرة شخصية منه، وكان ذلك في نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً.

كانت مديرية المخابرات العامة (GRU) هي التي تعمل مع ماي. في أحد اللقاءات مع رجل مديرية المخابرات المقيم في كندا، حمل العميل معه تقريراً

سرياً عن الأبحاث النووية، ومعلومات عن القنبلة التي أُسقطت على هيروشيما، وعيِّنات من الأورانيوم المركّز، مما أصاب رجل مديرية المخابرات، وهو برتبة كولونيل، بالدهشة. ويقال إن الشعور بالدهشة هذا قد تكرّر أكثر من مرة خلال العمل مع ماي. وقد حصل رجل المخابرات على وسامين عسكريين الواحد تلو الآخر، مقابل العمل مع عميل كهذا.

نتذكّر كذلك العالم الفيزيائي البارز المهاجر من إيطاليا برونو بونتي كورفو. تشير معطيات المديرية الأولى في الكي. جي. بي إلى أن العالِم الذرّي بدأ العام ١٩٤٣ بنقل معلومات شديدة السرية عن أعمال زملائه الغربيين، حين كان يعمل في المجموعة البريطانية الكندية التي كانت تشتغل بالقضايا النووية. ويعتبر الاختصاصيون أن بونتي كورفو، شأنه شأن كلاوس فوكس، قد ساهم مساهمة مميزة في توفير أهم المعلومات المخابراتية للاتحاد السوفياتي.

لكن، هل هؤلاء هم الوحيدون؟ إنهم لا يزالون حتى يومنا هذا يتحرّزون، في رابطة الدول المستقلة وفي الغرب، حول الفيزيائي الذي كان يُدرج تحت اسم العميل «بيرسي». وتشير بعض المعطيات، التي يؤكّدها رجال المخابرات السابقون، أن هذا الرجل قد بدأ العمل في «مشروع مانهاتن» قبل وصول كلاوس فوكس إلى الولايات المتحدة بمدة شهر ونصف الشهر. أما من هو هذا الرجل، فلا يسعنا إلا أن نتحزر فقط. لقد أثار اهتماماً خاصاً تصريح أناتولي ياتسكوف أن رجل المخابرات السوفياتي لا يزال، لحسن الحظ، على قيد الحياة. وهذا، برأيه، ما يفسّر الأمر برمّته...

إن قصة وصول المخابرات السوفياتية إلى سر البرنامج النووي الأميركي، أو كما قال أحدهم «تجزئة الذرّة الأميركية، لا تزال مليئة بالأسرار والأحجيات. وعلى الرغم من أن «الحرب الباردة» قد انتهت، على ما أعتقد، ولم يبق إلا القلائل من أولئك الذين شاركوا في تلك الأحداث البعيدة، إلا أنه لا يبدو، سواء في الشرق أو في الغرب، أنهم على عجلة من أمرهم في كشف أوراقهم. كما يبدو أن أجهزة المخابرات لديها أسبابها الجدية للتصرّف على هذا النحو.

لا يكاد أحد الآن يذكر أنه كانت لدينا اتفاقية مع الحلفاء حول تبادل المعلومات السرية العسكرية والتقنية، تم التوقيع عليها في المرحلة الأولى من الحرب. لكن، في صيف ١٩٤٣، وقّع روزفلت وتشرشل، في لقاء لهما في كويبك، اتفاقية سرية حول الأعمال المشتركة في حقل الطاقة النووية. وكانت الاتفاقية تتضمّن بنداً يتعلق بالاتحاد السوفياتي مباشرة. فقد اتفق الحليفان على عدم إطلاع بلد ثالث على أسرارهما... لكن، وكما أصبحنا نعرف، لم ينجحوا في إبقاء الاتحاد السوفياتي خارج نطاق المسألة النووية، لأن المخابرات العلمية والسياسية والعسكرية قد عملت على نحو ممتاز. فبعد التجارب الناجحة للقنبلة الذرية السوفياتية الأولى، كتب إيغور فاسيليفتش كورتشاتوف رسالة خاصة يشكر فيها رجال المخابرات باسم العلماء...

علماء بارزون... رجال مخابرات بارزون... لدى كل من هؤلاء مكان خاص في تاريخ صنع الدرع النووي السوفياتي. ثمة شخص واحد لا غير شُطب اسمه من لائحة صانعي سلاح القرن العشرين. لكن هذا الشخص بالذات، وهو والدي، كان منذ نصف قرن مضى يحتل موقع الصدارة في المسألة النووية. ومهما كتبوا اليوم عن الرئيس السابق للجنة الخاصة، فقد كان هو بالذات المسؤول أمام البلاد عن هذا المشروع الهائل. فقد كان يركّز بين يديه طاقة علمية هائلة إلى جانب المخابرات. فلماذا تحوير وقائع الماضي؟

بعد إطلاق سراحي من السجن، لم أتمكّن، للأسف، من لقاء إيغور فاسيليفتش كورتشاتوف سوى مرتين فقط. تحدثنا كثيراً عن دور والدي في صنع السلاح النووي، وكيف تمكّن العلماء السوفيات بفضل جهودهم من معالجة هذه القضية الشاملة في أقصر مدة ممكنة، وفي ظل أصعب الظروف. وقد علمت حينها من إيغور فاسيليفتش كيف استُدعي مع بوريس لفوفيتش فانيكوف وكثيرين سواهما، ممن شاركوا أبي في تنفيذ المشروع النووي، استدعاهم مالينكوف وخروتشوف اللذان طلبا منهم قائلين: «تقدموا بشهادات ضد بيريا! فالحزب بحاجة لإثبات دوره الإجرامي».

وعلى غرار ما فعل كورتشاتوف، فإن معظم العلماء الذين عرفوا والدي خلال سنوات طويلة أثناء العمل معه، رفضوا المشاركة في هذه المسرحية، مما أقنعني، مرة أخرى، بنزاهة وشهامة هؤلاء الناس. فبوسعي أن أخمّن ماذا كلّف الأمر كلّاً منهم. لقد كانت تلك مأثرة...

الأمر الوحيد الذي اضطروا للتنازل عنه هو عدم نشر المذكرات. وكانوا مكرهين على مراعاة هذا الأمر.

سنوات كثيرة مضت إلا أنني أتذكّر بكل حرارة، كما قلت، العلماء الذين عملوا مع والدي. وما يهمّني: كيف يتذكّره هؤلاء، وهم الذين عرفوه جيداً واحتكّوا به في اللحظات الحرجة، وكيف كانوا يسعون إلى إطلاق سراحي من السجن ومساعدتي... لم يكن بوسعي قبول المساعدة المادية منهم، لأنني كنت أعتبر الأمر غير مقبول حتى في أصعب الأوقات، لكنّ الدعم المعنوي الذي كنت أشعر به دائماً، كان مهمّاً جدّاً لي. وأعتقد أن القارئ يفهمني...

الفصل التاسع

سر سمّو الأميرة

"الثلاثاء ٥ حزيران/يونيو، بلغت العزيزة أنستازيا السابعة عشرة... قمنا جميعاً بنزهة قبل تناول الشاي. منذ البارحة، وخاريتونوف هو الذي يعدّ لنا الطعام، يأتينا التموين مرة كل يومين. البنات يتعلّمن على يده فن الطبخ، ويصنعن العجين في الأمسيات، ويحضّرن الخبز في الصبحيّات! لا بأس بذلك!...

الخميس ١٤ حزيران/يونيو، بلغت عزيزتنا ماري التاسعة عشرة. قضينا ليلة مضطربة لم يغمض لنا جفن فيها ولم ننزع ثيابنا... وحدث ذلك لأننا تلقّينا منذ عدة أيام رسالتين، الواحدة تلو الأخرى، يبلغوننا فيهما أن نكون على استعداد لاختطافنا من قبل أشخاص مخلصين لنا. وقد مرّت الأيام ولم يحدث شيء، وكان الانتظار والشكّ مؤلمين جداً...

السبت ٣٠ حزيران/يونيو، ألكسي يغتسل لأول مرة بعد توبولسك. ركبته تتعافى، لكنه لا يستطيع طيّها بتاتاً. الطقس دافئ ولطيف. ليست لدينا أية أخبار من الخارج».

هنا تتوقف يوميات آخر قياصرة روسيا. فبعد عدة أيام، تم إعدام نقولا الثاني رمياً بالرصاص مع أفراد أسرته والمقرّبين إليه.

يكتبون ويتحدثون كثيراً اليوم عن المصير المأساوي لأسرة القيصر. وأود في هذا الصدد أن أروي قصة حدثت لي بعد الحرب بثلاث أو أربع سنوات...

لكنني قبل ذلك أودّ أن أذكّر القارئ، ببعض التفاصيل المتعلقة بالعثور على رفات نقولا الثاني وأسرته في جوار مدينة يكاتيرنبورغ.

في العام ١٩٩١، نشرت الصحافة العالمية خبراً حول العثور على لَقِيَّةٍ مثيرة بالقرب من يكاتيرنبورغ. ولا يزال العلماء في روسيا يعملون منذ حوالى السنة في دراسة رفات تسعة أشخاص قتلوا رمياً بالرصاص وطعناً بالحراب. ويُجري العلماء الروس التحاليل المخبرية لتحديد سن وجنس الأشخاص، الذين تعود إليهم الهياكل العظمية التي وُجدت وأُعيد جمعها، ويقومون بمقارنة صور الكمبيوتر للجماجم مع صور هؤلاء حين كانوا لا يزالون على قيد الحياة.

وقد أعلن كبير خبراء الطب الشرعي، في روسيا، فلاديسلاف بلاكسين، أن من بين الهياكل العظمية التسعة لأسرة القيصر والمقرّبين منها، تم التثبت من رفات نقولا الثاني وزوجته الكسندرا فيودوروفنا والطبيب بوتكين. ويقال إن الاختصاصيين الأميركيين من ولاية فلوريدا توصّلوا إلى النتيجة نفسها.

في العام ١٩٩٢، وُضع في يكاتيرنبورغ حجر الأساس لمعبد يُقام في المكان الذي تم فيه إعدام أسرة القيصر. لكن، وبعكس ما كان منتظراً، لم يصل إلى يكاتيرنبورغ في ذلك اليوم بطريرك موسكو وكل روسيا ألكسي الثاني، ولا أعضاء الأسرة المالكة من آل رومانوف. وأعلن البطريرك أنه لا يستطيع حضور الاحتفال بوضع حجر الأساس للمعبد، ما دامت الكنيسة لم توضح بعد موقفها من نقولا الثاني وجميع أفراد أسرته.

وكان حضور الاحتفال يعني، عملياً، رفع هؤلاء إلى مرتبة القديسين[1]. لقد كان موقف البطريرك واضحاً لا يتحمّل أي تأويل. أما تصريح أعضاء الأسرة المالكة، فكان يثير الحذر، فقد جاء فيه: «إننا لا نودّ أن نعطي الحجة للرأي العام، الذي سيربط بين حضورنا والاعتراف برفات الأشخاص،الذين وجدوا بجوار يكاتيرنبورغ، بأنه رفات أسرة القيصر. فهناك شكوك...».

لكن الصحافة لا تعير هذا التصريح أي انتباه، فلا أحد يرغب في التخلّي

(١) في العام ٢٠٠١، رفعت الكنيسة الروسية نقولا الثاني وأفراد أسرته إلى مرتبة القديسين، وكان رفاتهم قد دُفن في كاتدرائية في سانت بترسبورغ، كان الشيوعيون قد حوّلوها إلى متحف «الإلحاد العلمي» - المترجم.

عن هذا الخبر المثير. وقد أعلن الرئيس الروسي بوريس يلتسين أن الدولة قد وضعت يدها على مكان الرفات. وأعلنت الصحف في رابطة الدول المستقلّة أن أرملة الأمير فلاديمير كيريللوفيتش الأميرة الكبيرة ليونيدا غيورغييننا هي التي تقدمت بمثل هذا الطلب إلى الرئيس يلتسين.

وقد كتبت سُمو الأميرة تقول: «نحن نريد أمراً واحداً لا غير، وهو الكشف عن الحقيقة في قضية مقتل نقولا الثاني وكل أسرته، وذلك باسم العدالة وتطهير روسيا».

وتوالت الأحداث بعد ذلك.

فقد أشارت الصحافة البريطانية إلى «أن العلماء البريطانيين يساعدون في الكشف عن السرّ المحيط ببقايا الأشخاص التي تم العثور عليها في العام ۱۹۹۲ بجوار يكاتيرنبورغ. وثمة اعتقاد بأن هذه الهياكل العظمية تعود إلى القيصر نقولا الثاني وأسرته. وقد بدأت الأبحاث في مركز الطب الشرعي في أولدرماستون في جنوب بريطانيا والتحاليل المعقّدة لعيِّنات العظام التي حملها إلى بريطانيا الدكتور بافل إيفانوف من معهد البيولوجيا الجزيئية التابع لأكاديمية العلوم الروسية. وسوف يلعب دوراً بالغ الأهمية في التثبت من هوية أصحاب الرفات المنهجُ المتّبع في المعادلة المتسلسلة والمعروف أيضاً تحت اسم منهج، أو طريقة «تعزيز الحامض النووي» (DNA). ويمكن تطبيق هذا المنهج على عيّنات من الشعر أو العظام أو الدم أو أية أنسجة أخرى،حتى لو كان حجم هذه العيّنات غير كاف للأبحاث العادية للحامض النووي، أو أن نوعيتها ليست جيدة بما فيه الكفاية. المهمة الأولى لمجموعة العلماء تتلخّص في العثور على الحامض النووي في العظام التي تم العثور عليها، ومن ثم التأكد من أن الهياكل العظمية الخمسة تعود إلى أفراد أسرة واحدة. وسوف يتمكّن العلماء بعد ذلك من مقارنة الحامض النووي في العظام مع الحامض النووي في خصل الشعر العائدة للأحفاد المباشرين لآل رومانوف.

في العام ۱۹۹۳، انفجر بالون الإثارة. فقد نشرت الصحيفة الإنكليزية

«ساندي إكسبرس» أن المختبر في أولدرماستون كان «ضحية خداع متعمد من الجانب الروسي. فقد أعلن العلماء البريطانيون الذين يعملون على التثبت من بقايا أعضاء الأسرة القيصرية الروسية، بأن هذه البقايا هي بالتأكيد مزيفة». كما لا تستبعد الصحافة أن تكون البقايا قد «دُسّت» من قبل رجال أعمال كانوا يخططون للكسب المادي من الإمكانيات السياحية للمكان الذي دفنت فيه أسرة القيصر. وأبرزت الصحافة أسماء بعض كبار الموظفين الروس الذين كانوا يحلمون بإقامة نشاطات ضخمة بمناسبة دفن أسرة القيصر مع احتمال حضور ملكة بريطانيا.

لكن ذلك كله أصبح خارج موضوعنا...

لقد سبق أن ذكرت أن ما أتحدّث عنه قد حدث بعد الحرب بعدة سنوات. وكنت آنذاك قد أصبحت ضابطاً، وتخرّجت من الأكاديمية العسكرية، وكنت أخدم في موسكو. والعسكريون لا يتمتّعون بوقت فراغ كبير، لكن حين كان يتيسّر لي مثل هذا الوقت كنت أحب زيارة المسارح. وكانت والدتي تعرف شغفي هذا، فقالت لي في إحدى المرات: «سيرغو، سوف نذهب اليوم إلى المسرح، إلى البولشوي، حيث يعرضون «إيفان سوسانين»...».

قلت لها: «أمّي، أنا لست يوسف فيساريونوفيتش، حتى أسمع «سوسانين» أربعين مرة...»

وبالفعل، كان ستالين إذا أحب أوبرا محدّدة بوسعه سماعها مرات عديدة.

أخذت والدتي تقنعني: لنذهب يا سيرغو، سوف أريك شخصاً مثيراً للاهتمام.

كانت أمكنتنا في المسرح في الصف السادس أو السابع بالقرب من مقصورة كانت تجلس فيها امرأة مجهولة.

قالت والدتي:

ـ من أجلها كنت أقنعك بالمجيء إلى هنا.

كانت امرأة بيضاء الشعر، ترتدي ثياباً ذات ألوان قاتمة. وكان وجهها ذا ملامح شديدة التعبير. قضت الوقت كله وهي تبكي.

سألتني والدتي:

ـ هل تعرف من هي؟

ـ ليس لدي أي تصوّر عنها.

ـ إنها ابنة نقولا الثاني، الأميرة الكبيرة أنستازيا...

ذهلت، بالطبع؛ فقد كنت أعرف أن أسرة القيصر قد أعدمت كلُّها رمياً بالرصاص في العام ١٩١٨.

قالت والدتي واعدة: سأحدّثك عن كل شيء في البيت.

وهكذا، في موسكو ما بعد الحرب، وفي مسرح البولشوي بالذات، تخرج جلالة الأميرة الكبيرة أنستازيا نيكولايفنا من العدم. والكرملين، حيث يعمل ستالين في مثل هذا الوقت، لا يبعد سوى بضع دقائق سيراً على الأقدام. إنه ستالين نفسه الذي ما زال منذ عشرات السنين، يمثّل «النظام» الذي انتزع الحياة من ملايين وملايين الأشخاص من «الأعداء الطبقيين». فكم من النبلاء والموظفين القيصريين والضباط دفعوا حياتهم بسبب أصولهم لاغير... وها هي هنا ابنة الإمبراطور الروسي الأخير...

مقتطفات من مصادر رسمية:

ثمة شائعات متناقضة تدور منذ عدة سنوات حول إنقاذ حياة الأميرة الكبيرة باعجوبة. وهذه الشائعات تدور باستمرار عنها بالذات، وليس عن تاتيانا، أو أولغا أو ماريا.

في سنوات ما يسمّى بالغلاسنوست والبيروسترويكا، ظهرت في الصحافة السوفياتية رواية جديدة. فقد أوردت الصحافة، استناداً إلى أحد مساجين الغولاغ السابقين يفغيني بارخانوف، قصة غير معقولة. تزعم القصة انه في العام ١٩٥٢، وحين كان هذا السجين في مستشفى الأمراض العقلية الشهير في قازان، بلغه أنه

يتم في «هذا المستشفى السري المغلق اعتقال أولئك الذين، لسبب أو لآخر، لا يجوز إعدامهم رمياً بالرصاص، أو زجهم في المعسكرات. ويقال إن ملفات جميع هؤلاء تحمل توقيع بيريا شخصياً».

فلنبدأ من «توقيع بيريا شخصياً». لقد أصبح القارئ يعرف أن المفوض السابق لم تكن له قبل العام ١٩٥٢ بزمن طويل أية علاقة بمعسكرات الاعتقال والسجون والمستشفيات ـ السجون. ويبدو أنه لم يرد ذكر العائلة إلا لتعزيز الحجّة لا أكثر. ومما يثير الشك أيضاً الكلام الآخر الذي يذكره هذا المتقاعد في مذكّراته. فمن هم أولئك الذين لا يجوز إعدامهم أو اعتقالهم في المعسكرات؟ وحتى لو كان «السبب أو لآخر»؟ فالدولة التوتاليتارية، على ما هو معروف، لم تعرف مثل هذه المشكلة قط.

لكن، لنعد إلى ذكريات السيد بارخانوف: «حتى عاملات التنظيف اللواتي كن ينظّفن المراحيض كنّ برتبة ملازم في مفوضية الشؤون الداخلية. لقد كان جميع العاملين يحملون رتب ضباط».

ولنتجاوز أقواله هذه، فمفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) كان قد مضى على زوالها حتى ذلك الحين سبع سنوات تقريباً. كما لنتجاوز قوله أيضاً إن عاملات التنظيف كن يتبخترن برتب ضباط. فمن الصعب التكهّن بما يمكن أن يتحدّث به المقيمون في مستشفى للأمراض العقلية، خصوصاً، إذا كان الحديث عمَّن «هم في الخارج». لكن ما يثير الفضول هو أمر آخر. فقد تحدثت الصحف، ونقلاً عن شاهد حي، أنهم كانوا يحتجزون في المستشفى، المغلق منذ العام ١٩١٧ تقريباً، أشخاصاً ليسوا جميعاً من المجانين.

هل هي الملامسة الأولى للسرّ؟

"كنت أعيش في عنبر في الطابق السادس، وهو الأخير. أما هذان الاثنان فقد اكتسبا، خلال نضالهما لسنوات طويلة وإضرابهما عن الطعام، حقّ التحرك بحرية نسبياً داخل المستشفى، وكانا يعيشان في الطابق الأول، الذي كان يتمتّع اكثر من سواه بالامتيازات. وانكر حَديثَنا حرفياً:

ـ هل انت روسي وأرثونكسي؟

ـ أجل، ومُعَمَّد أيضاً.

ـ لنا طلب صغير إليك: غداً يصادف عيد روسي كبير، وهو الذكرى الثلاثمئة لآل رومانوف ومقتل قيصرنا نقولا الثاني وأسرته في منزل إيباتوف في يكاتيرنبورغ. وعلينا أن نتقدّم، في هذه المناسبة، بهدية لإحدى بنات قيصرنا التي نجت بحياتها، وهي الأميرة انستازيا نيكولاييفنا رومانوفا. هلا أعطيتنا قسماً من محتويات الطرد الذي تسلّمت. وقاما باقتطاع جزء من الكعكة ومن المرتديلا بواسطة ملعقة ألمنيوم تم شحذها، وأخذوا عدة حبات من الشوكولاتة، ولفّوا كل ذلك بورقة وغادرا الغرفة. وقبل أن يغادرا قالا: «غداً في الساعة العاشرة صباحاً سوف تحظى بفرصة سعيدة لمشاهدة الاحتفال في هذه المناسبة من نافذتك». وقد جرى الحديث كله على مسمع من السجّان الذي كان يقف في باب الغرفة ويصغي بانتباه».

يشير كاتب المذكرات إلى أن جميع هذه الأحداث جرت «بين ١٤ و٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢». ويقول المعتقل بارخانوف أنه شاهد في اليوم التالي كيف اقترب من بوابة القسم النسائي في مستشفى قازان أربعة رجال في ثياب سوداء، واصطفوا وفقاً لشكل المُعيَّن الهندسي وعلى رأسه ذاك العجوز الذي زاره البارحة في الغرفة:

"كان يقف وراءهم كابتن من مفوضية الداخلية. وفي العاشرة تماماً، نزلت أنستازيا الدرج تمسك بمرفقيها من الجانبين وصيفتان. كانت ترتدي ثياب الحزن مع خمار سميك وفستان ذي ذيل طويل تحمله فتاتان، في حين كانت الفتاة الثالثة تسير وراء الجميع. توقفن على مسافة خمسة أمتار من بوابة قسم الرجال، فتح الكابتن البوابة، وقبل أن يبلغا مسافة مترين من أنستازيا ركعوا جميعاً على ركبة واحدة، واقتربت منهم مع حاشيتها، فقدّموا لها التهاني مع الهدايا».

ويستطرد هذا المعتقل السابق قائلاً:

كل ما قالوه سجّله كابتن مفوضية الداخلية على آلة تسجيل. قدّمت انستازيا يدها للرجل فقبّلها، ومن ثم حضنته هي وقبّلته في وجنتيه ثلاث مرات. وانحنى بعد ذلك الرجال والنساء بلباقة لبعضهم البعض، ومن ثم تفرّقوا».

يؤكّد كاتب المذكرات أن الكثيرين من نزلاء المستشفى، كما يسمّي هو المعتقلين، قد شهدوا الاحتفال بأسره. هل لاحظت أيها القارئ؟ الاحتفال

بأسره قد جرى على مرأى من الإدارة وبإذن منها، كما يفترض. أضف إلى أن الاحتفال تم تسجيله على آلة تسجيل. لمن تم تسجيله؟ ولآذان مَن كان مخصّصاً هذا التسجيل؟ على كلّ ليس هذا السؤال الوحيد في الحالة الراهنة، بل وليس السؤال الأهم، بالتأكيد.

كيف جرى، بعد مرور عشرات السنين على مقتل الأسرة الإمبراطورية، أن وُضعت أنستازيا في مستشفى قازان للأمراض العقلية؟

استناداً إلى أقوال يفغيني بارفانوف، عرضت الصحافة الرواية التالية: يقال إنه قبل اعتقال أسرة القيصر، سافرت سمو الأميرة أنستازيا لقضاء عدة أيام في ضيافة عرّابها. وحين علم الأمير باعتقال نقولا الثاني وأقربائه، حاول مع أنستازيا عبور الحدود مع فنلندا، لكن تم اعتقاله. وقد أُعيد الفارّان إلى حيث أتيا، وتم إبلاغ لينين بالأمر. وقد سمع يفغيني بارخانوف من أحد المعتقلين، وهو طيار عسكري سابق، كما سمع من غيره من قدامى نزلاء مستشفى قازان للأمراض العقلية، أن لينين أصدر أمراً يقول إنه "لا يجوز بحال من الأحوال إعدام أنستازيا، وينبغي إيداعها أحد بيوت الأطفال الخاصة المغلقة". أما الأمير فتم إيداعه السجن، وهذا أمر أقرب إلى الحقيقة. أما "بيوت الأطفال الخاصة المغلقة"، فأسمح لنفسي بالتشكيك بوجود مثلها في روسيا، عام ١٩١٨.

ومهما يكن من أمر، فإن الأسطورة لا زالت تجول في العالم. فلا يزال لينين يبدو، كما في الأيام الخالية، مفعماً بالشعور الإنساني: «لا يجوز بحال من الأحوال إعدام أنستازيا!» ويطبّق خلفاؤه وصيته بحذافيرها، ويسمحون لابنة القيصر، الذي أُعدم، بالبقاء على قيد الحياة، حتى ولو في عزلة صارمة وسرّية شديدة. وليس هذا فحسب، بل مع الوصيفات والخدم وما إلى ذلك.

لعل القارئ يتفق معي على أن الأمر لا ينسجم كثيراً مع وصفه بأنه سر من أسرار الدولة. فأي سر هو هذا الذي يجري أمام هذا العدد من الشهود الذين سيغادرون اليوم أوغداً «مستشفى الأمراض العقلية»...

للأسف، لم يكن ذلك كله إلا أسطورة. فلم يتم العثور على أية آثار لإقامة الأميرة الكبيرة سنوات عديدة في قازان.

إن أي مؤرخ، بل أي إنسان عادي، يهتم ولو قليلاً بالتاريخ الروسي، على استعداد ليحدثك بأسطورتين أو ثلاث عن النجاة الأعجوبة لأنستازيا نيكولايفنا. لكن، وكما بالنسبة "لرواية قازان"، لم يتم التثبت وثائقياً من أي من هذه الروايات. ومع ذلك، فلا دخان من دون نار، كما يقال. فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا يدور الحديث في جميع الروايات عن الأميرة الكبيرة أنستازيا بالذات؟

إننا لا نقصد، بالطبع، كل «روايات الإثارة» تلك، التي طلعت بها الصحافة السوفياتية في سنواتها الأخيرة، وحاول مفبركوها إعطاءها الطابع التاريخي. فما قيمة الرواية التي تقول، مثلاً، «إن نقولا الثاني توفي العام ١٩٥٧»؟ وتزعم أن أحد الحقوقيين من ريغا توصل إلى مثل هذا الاستنتاج بعد سنين من البحث المتواصل. بل وأكثر من ذلك، تعرّف هذا الحقوقي مصادفة إلى شخص حدّثه عن وجود أسرة في مدينة سوخومي تحمل اسم عائلة بيريوزكين، وهي في الحقيقة وريثة الأسرة القيصرية. أما نقولا الثاني نفسه، فقد عاش في أبخازيا تحت اسم سيرغي دافيدوفيتش بيريوزكين، وقد اعترف بذلك هو نفسه قبل وفاته بفترة وجيزة. لكن "الباحث" المستجدّ هذا لم يلتق بيريوزكين قبل وفاته، إنما عثر على أشخاصٍ رأوا لدى بيريوزكين ـ رومانوف ساعة ذهبية حُفر عليها «نقولا الثاني»، وسمعوا غير مرة عن سر ما يرافق حياة هذه الأسرة. وإذا صدَّقنا الوثائق، فإن سيرغي دافيدوفيتش، ولسبب ما، دخل السجن، وبدأ منذ العشرينيات يعمل في خطوط السكك الحديدية، ومن ثم في مطعم لأمن الدولة(!)، وفي معهد للبحث العلمي حول الشاي والحمضيات. وبعد وفاته، تقول الشائعات إن قبره "نبش غير مرة وتم تصويره على شريط سينمائي". ومنذ عدة سنوات، أكدت الصحافة أنه كان يعيش في سوخومي عدد من الأشخاص من ذرية بيريوزكين ـ رومانوف. وكانت ابنته الصغرى قد جاوزت التسعين عاماً. إلا أن الأميرة الكبيرة لم تفصح عن اسمها...

يُزعم أن هذه القصة العجيبة مثبتة وثائقياً. فقد أكدت الصحافة السوفياتية أن أحد مختبرات الطب الشرعي في البلطيق أثبت التطابق بين صور آل بيريوزكين وصور آل رومانوف.

لكن، مهلاً، من أعدموا في يكاتيرنبورغ؟ هل أعدموا أشباه آل رومانوف؟ ان يورفسكي هو نفسه من نقل جثث أسرة القيصر من منزل ايباتيف في النهار الذي تم فيه الإعدام. ولنا رجوع إلى هذا الإنسان، يورفسكي، إن كان يجوز نعته بالإنسان. وفي العودة إلى نقولا الثاني وأسرته، فإن يورفسكي، طبقاً لهذه الرواية، قد نفّذ أمراً صادراً عن المركز. فقد أبقت الحكومة السوفياتية على حياة الإمبراطور تنفيذاً لبند سريٍّ من بنود معاهدة برست[1]. وبكلام آخر، فإن الحديث يدور عن أعظم أسرار البلاشفة.

سرٌّ؟ قد يكون كذلك. لكن ما أعرفه مختلف كلياً. فقد أعدم نقولا الثاني وأسرته رمياً بالرصاص، بمبادرة من فلاديمير ايليتش لينين. أما سفيردلوف فقد أصرّ هو الآخر على الإعدام، علماً أنه لم يكن يوجد أي خطر باختطاف أسرة القيصر من قبل التشيك البيض، وسواهم. فقصة الخطر جرى فبركتها لاحقاً... ولا أقول إلا ما سمعته من والدي فحسب. ووالدي بدوره حدّثني بذلك نقلاً عن ستالين.

إن إطلاق النار على الأطفال والنساء هي سفالة كبرى، بالطبع. وهذا ما كان يراه والدي أيضاً. كما أن ستالين، على ما سمعت، لم يؤيد هذا القرار. وكان الحديث، كما أذكر، هو التالي: لعل القيصر نفسه كان ينبغي إعدامه في ظل الموقف آنذاك. أما الباقون، بمن فيهم الأطفال، فلم يكن من ضرورة لإعدامهم إطلاقاً. على الأقل، هكذا كان يعتبر ستالين. أما لينين، فأكرر، بأنه أصر على الإعدام...

إنه تأكيد آخر لمشاركة لينين في المسؤولية عن موت أسرة القيصر! لكن، وعلى الرغم من ذلك، لا زالوا حتى يومنا هذا يحدثوننا عن مسؤولية مجلس

(١) عقدت في ٣-٣-١٩١٨ بين روسيا وألمانيا دفعت بوجبها روسيا ٦ مليارات مارك لألمانيا، وتنازلت عن أجزاء واسعة من الأراضي التي كانت تابعة لها. وقد سمحت لها المعاهدة بالخروج من الحرب العالمية الأولى، ولهذا يطلق عليها أيضاً "صلح برست" - المترجم.

سوفيات يكاتيرنبورغ عن هذه الجريمة. فهم يزعمون أن قرار الإعدام قد اتّخذ هناك، ووضع أهل الأورال الملاعين لينين وسفرولوف أمام الأمر الواقع. يا للسفلة!

"حضرة رئيس مجلس مفوضي الشعب الرفيق لينين. حضرة رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا (VTSIK) الرفيق سفردلوف. نتحدث إليكم في الجهاز (التلغراف) هيئة رئاسة مجلس السوفيات الإقليمي لحكومة العمال والفلاحين: نظراً لاقتراب الخصم من يكاتيرنبورغ واكتشاف التشي. ك. مؤامرة كبرى من قبل الحرس الأبيض تهدف لاختطاف القيصر السابق (الوثائق بين أيدينا)، تم ليل ١٦ تموز/يوليو (هكذا جاء في البرقية، لكن الحقيقة هي أن الليلة المشؤومة بالنسبة لآل رومانوف كانت الليلة الفاصلة بين ١٦ و١٧ تموز/يوليو) بقرار من هيئة رئاسة مجلس السوفيات الإقليمي إعدام نقولا رومانوف رمياً بالرصاص. أما أسرته فقد تم إجلاؤها إلى مكان آمن. ونُصدر بهذا الصدد الخبر التالي: «نظراً لاقتراب العصابات المعادية للثورة من عاصمة الأورال الحمراء، واحتمال إفلات الجزار المتوج من محكمة الشعب (تم اكتشاف مؤامرة للحرس الأبيض تهدف إلى اختطافه، وعثر على الوثائق التي تدينهم)، فقد قررت هيئة رئاسة مجلس السوفيات الإقليمي إعدام القيصر السابق ن. رومانوف رمياً بالرصاص، وهو المسؤول عن مجازر دموية لا تحصى بحق الشعب الروسي. في ليل ١٦ تموز/يوليو ١٩١٨ تم تنفيذ الحكم. أما أسرة رومانوف التي كانت تقيم معه تحت الحراسة، فقد تم إجلاؤها من مدينة يكاتيرنبورغ حفاظاً على الأمن والاستقرار. هيئة رئاسة مجلس السوفيات الإقليمي. الوثائق عن المؤامرة ترسل على عجل بواسطة ساعي مجلس مفوضي الشعب واللجنة المركزية التنفيذية. نأمل إجابتنا على وجه السرعة، ننتظر عند الجهاز".

هل الأمر بحاجة إلى تعليق؟ إن الوقاحة ليست على الإطلاق جسماً غريباً أتى به ستالين أثناء حكمه المطلق. كلا، الأمر ليس كذلك بتاتاً. فكل شيء قد بدأ، كما نرى، في عهد لينين.

وماذا كان رد موسكو؟

«سوف أطرح قراركم اليوم على هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية. وستتم الموافقة عليه دون شك».

كان هذا جواب ياكوف سفردلوف.

وفي محضر الجلسة المسائية التي عقدت آنذاك لهيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية جاء:

"استمعنا إلى: بلاغ عن إعدام نقولا رومانوف (برقية من يكاتيرنبورغ). قررنا: بنتيجة النقاش تم اتخاذ القرار التالي: الإقرار بصحة قرار مجلس سوفيات الأورال. تكليف الرفاق سفردلوف وسوسنوفسكي وأفانيسوف إعداد البيان الملائم للصحافة».

لا تخلو من الأهمية برأيي بعض الوثائق المرتبطة بمصير نقولا الثاني وأسرته. لنأخذ، مثلاً، صحيفة «الإزفستيا» بتاريخ ١٩ تموز/يوليو ١٩١٨.

"عقد في ١٨ تموز/يوليو الاجتماع الأول لهيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية في دورتها الخامسة. الرفيق سفردلوف يترأس الجلسة... إعدام نقولا رومانوف رمياً بالرصاص. الرئيس الرفيق سفردلوف يُذيع بلاغ مجلس سوفيات الأورال الإقليمي الذي وصل لتوه بالتلغراف عن إعدام القيصر السابق نقولا رومانوف رمياً بالرصاص. عاصمة الأورال الأحمر يكاتيرنبورغ كانت مهددة جدياً في الأيام الأخيرة بسبب اقتراب العصابات التشيكية منها. وقد تمّ في الوقت نفسه الكشف عن مؤامرة جديدة للمعادين للثورة يهدفون من ورائها إلى انتزاع الجزار المتوج من يد السلطة السوفياتية. ولهذا السبب... زوجة نقولا رومانوف وابنه تم نقلهما إلى مكان أمين...»

مهلاً! زوجته وابنه. لكن أين بناته؟ لم ترد كلمة واحدة عن أولئك الذين كانوا مع أسرة الإمبراطور الروسي حتى اللحظة الأخيرة في المنزل الذي صادره البلاشفة من المهندس ايباتييف (في الوثائق الرسمية يدعى المبنى منزل المهمات الخاصة). أليس الأمر غريباً؟ فأين تاتيانا وأولغا وماريا وأنستازيا؟ وأين الطبيب ي. س. بوتكين والوصيفة أ. س. ديميدوفا والطاهي إ. م. خاريتونوف والخادم أ. ي. تروب؟...

من خلال تحليل الوثائق التي أصبحت معروفة، ومن خلال المصادر الغربية المتعددة والوثائق التي كشفت عنها مؤخراً وزارة الأمن الروسية، سوف أحاول رسم الصورة الحقيقية للأحداث، ولو في بعض ملامحها.

بعد تنازله عن العرش لم يفقد نقولا الثاني الأمل بأن تسمح له حكومة أ. كيرينسكي بمغادرة البلاد مع أسرته إلى بريطانيا. وكانت الحكومة البريطانية (وهو

أمر شائع على نطاق واسع) على استعداد لاستقبال أسرة رأس الدولة الحليفة وابن خالة الملك جورج الخامس. وكان كيرينسكي نفسه قد وعد علناً بإيصال آل رومانوف إلى مورمان، حيث يفترض أن تنقلهم من هناك سفينة حربية إنكليزية إلى بريطانيا. إلا أن الحكومة المؤقتة لم تحافظ على تعهدها، بسبب المعارضة الشديدة من قبل مجلس سوفيات بتروغراد للعمال والجنود.

وُضع نقولا الثاني وأسرته تحت الإقامة الجبرية في قصر تسارسكوسيلو، ثم نقلوا بعدها إلى توبولوسك على بعد ٢٥٠ كيلومتراً من تيومان... وفي توبولسك تلقى نقولا الثاني وأسرته نبأ انقلاب أكتوبر. ومن المعروف أنه، وفقاً للاتفاق مع اللجنة التنفيذية لمجلس سوفيات الأورال الإقليمي، جرى نقل آل رومانوف من توبولسك إلى يكاتيرنبورغ، حيث أُبقي عليهم معتقلين في منزل إيباتييف.

ونعود إلى الوثائق من جديد.

مقتطفات من منكرات التشكيست أ. كابانوف، التي تم العثور عليها في الأرشيف الرسمي في خاباروفسك:

"في أواخر نيسان/إبريل أو مطلع أيار/مايو، قام سكرتير لجنة الأورال الإقليمية للتشي. ك. مع مجموعة مسلحة صغيرة بنقل القيصر السابق نقولا الثاني وزوجته الكسندرا وبناته أولغا وانستازيا وماريا وتاتيانا وابنه الكسي من توبولسك إلى يكاتيرنبورغ. (يعود تاريخ المنكرات إلى أواخر الخمسينات. ومن الواضح أن الذاكرة قد خانت هذا التشيكيست السابق. إذ إن نقولا الثاني والإمبراطورة الكسندرا فيودوروفنا والأميرة الكبيرة ماريا نيكولاييفنا والأمير ف. أ. دولغوروكوف والدكتور ي. س. بوتكين وفرّاش القيصر ت. إ. تشيمودوروف والخادم إي. د. سيدنيف والوصيفة أ. س. ديميدوفا وصلوا إلى يكاتيرنبورغ في ٣٠ نيسان/إبريل ١٩١٨. أما أنستازيا وتاتيانا وأولغا وولي العهد الكسي والأشخاص المرافقون لهم (كانوا في مجموعهم ٢٦ شخصاً) نقلوا إلى يكاتيرنبورغ في ٢٣ أيار/مايو).

كان يرافقهم طبيب البلاط البروفسور بوتكين ووصيفة (لا أتكر عائلتها) وصبي في الرابعة عشرة كان ينقل الكسي على عربة، لأنه لم يكن بوسعه السير على قدميه بسبب المرض. كانت حاشية القيصر السابق المكونة من الأمراء لفوف

وغولينيتسين ودولغوروكوف والكونت تاتيشيف وطاهيين اثنين، قد وضعت في مبنى سابق للتوقيف الاحترازي. وقد تم تعيين شقيقي الأكبر ميخائيل رئيساً لهذا المعتقل، أما شقيقي الأصغر وهو ميخائيل أيضاً فقد عُيِّن قوميساراً. وقد وضع كل من نقولا الثاني وزوجته وبناته أولغا، تاتيانا، ماريا، أنستازيا وابنه الكسي والبروفسور بوتكين والوصيفة والطهاة الإثنين والفتى في بيت ايباتييف... وأُحيط هذا المنزل بسور يرتفع مترين عن الأرض. وكُلفت أنا سراً بمراقبته. كان نقولا الثاني يقف عند النافذة ويراقب عبر السور ما يجري في المدينة. ولهذا أحيط المنزل بسور آخر أكثر ارتفاعاً من الأول... لقد شعرت بالإرهاق وأنا أنفّذ هذه المهمات، وكنت مستاءة جداً بسبب معاملتنا الإنسانية لأعدائنا... في ١٠ تموز/يوليو أبلغني الرفيق يوروفسكي أنه تم تعيين قائداً لطاقم الرشاشات في حرس بيت المهمات الخاصة هذا... وعُهد إلي بطاقم يتكون من أربعة أشخاص من لاتفيا، قصيري القامة عريضي المناكب، يبلغ عمر كلٍ منهم حوالى ٣٥ عاماً، وخدموا جميعهم في الجيش مدة ١٢ عاماً. وكان هؤلاء يشكّلون مع أربعة آخرين كل طاقم الرشاشات الذي ينبغي أن يتكون من ٢٨ شخصاً. وكان بحوزة الطاقم أربعة رشاشات. في ظل القومندان السابق، كان يسمح لنقولا الثاني وأسرته بالتنزه طوال النهار في الحديقة، أما الرفيق يوروفسكي فلم يسمح لهم بالتنزه سوى ساعتين في النهار تحت الحراسة. إضافة إلى طاقم الرشاشات هذا الذي كنت أتولى إمرته، كانت تتولى حراسة البيت أيضاً كتيبة مكوّنة من العمال بشكل رئيسي.

كان نقولا الثاني وزوجته وبناته قد وضعوا في غرفة كبيرة. وكانوا ينامون على أسرّة مخصصة لضباط الجيش. وكان الكسي ابن نقولا ينام في غرفة صغيرة، وكانت الوصيفة تتواجد معه باستمرار. وكان البروفسور بوتكين والطاهيان ينامون في غرفة الطعام.

... كانت بنات نقولا: أنستازيا وتاتيانيا وماريا أكثر جمالاً من اولغا بكثير. وكن جميعهن، بمن فيهن أولغا، مرحات، محبات للحياة. فكن يغنين الأغاني الشعبية أثناء نزهتهن في الحديقة... وكان الكسي وعمره ١٤ سنة معتل الصحة لا تتحرك رجلاه، ولهذا كانوا يحملونه إلى الحديقة للنزهة، ويجلسونه في عربة للأطفال يقودها فتى في الرابعة عشرة، وهو نسيب أحد طهاة نقولا الثاني. وقد تم إعدام هذا الطاهي رمياً بالرصاص في الأيام الأولى بعد الانتقال من توبولسك.

كانت خطة القضاء على العائلة المالكة الأخيرة في روسيا قد وضعت على النحو التالي: يتم الإعدام نفسه في السكن الداخلي لطاقمنا نحن. فقد كانت جدران

المبنى سميكة، وهي من الطوب، وكان سقفه مقبباً ونوافذه مزدوجة الإطار ومغطاة بشباك من الحديد. وكان المبنى محاطاً بسور مزدوج من الألواح الخشبية، مما كان يحول، برأينا، دون سماع أصوات الطلقات النارية في المدينة. إضافة إلى ذلك تقرر وضع سيارة فورد قديمة للغاية وذات عادم سيّىء تحت النافذة وإدارة محركها أثناء العملية للتغطية على أصوات الطلقات. في ١٧ تموز/يوليو ١٩١٨ قمت مع الطاقم الذي بإمرتي بإزالة الأسرّة والأغراض الأخرى من المسكن ولم أبقِ إلا على كرسي من أجل الكسيح... ذهب الرفيق يوروفسكي إلى المبنى الذي يشغله نقولا مع أُسرته وقال لهم: «الوضع في المدينة مضطرب، ولذلك أرجوكم النزول حالاً إلى الطابق السفلي لأسباب أمنية» ودون أن ينبس بكلمة واحدة حمل نقولا رومانوف ابنه على يديه ونزل السلم إلى أسفل وتبعه جميع أفراد أسرته. أجلس نقولا ابنه على الكرسي ووقف هو وسط الغرفة ووقف الجميع إلى يساره وإلى يمينه في مواجهة الباب. بدأ الرفاق، بمن فيهم أنا، بإطلاق النار. وعلى الرغم من ضجيج السيارة الشديد إلا أن أصوات الطلقات كانت مسموعة جداً، كما كان مسموعاً أيضاً العواء الشديد لكلاب نقولا رومانوف الأربعة الذين كانوا إلى جانبه. أُشعلت الأضواء في معهد التعدين المقابل للمبنى وكذلك في البيت الصغير المجاور للمعهد. توقف إطلاق النار بعد ذلك، وكان قد تم شنق ثلاثة من الكلاب، أما الرابع وهو جاك، فلم يمسه أحد بسوء لأنه بقي صامتاً. أولئك الذين بقوا أحياء مِمَن كان ينبغي أن يعدموا، تم الإجهاز عليهم بالسلاح الأبيض... نقلنا بالسيارة جثث ١١ شخصاً وثلاث جثث كلاب، وقد غطيت الجثث جميعها بشادر، وانطلقت السيارة مبتعدة عن منزل المهمات الخاصة يرافقها أربعة رفاق يجلسون في السيارة ورفيقان على ظهر الخيل...».

لا تزال موجودة شهادة سفّاح آخر هو ي. يوروفسكي.

مقتطفات من مصادر رسمية:

ياكوف يوروفسكي: ولد عام ١٨٧٦ في مدينة تومسك ضمن أسرة صانع زجاج وخَيّاطة. أنهى صفين في مدرسة عبرية روسية. درس عند خياط وعند ساعاتي. دخل السجن بسبب جريمة قتل. انتسب إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي في العام ١٩٠٥. اعتقل غير مرة بسبب نشاطه الثوري. بعد الثورة أصبح عضو إدارة التشي. كـ في الأورال، ومن ثم رئيس لجنة الاستقصاء في إقليم الأورال وعضو القسم العسكري في اللجنة التنفيذية للإقليم وقومندان منزل المهمات الخاصة. وقد أصبح لاحقاً رئيس التشي. كـ ورئيس قسم الخزينة في مفوضية المالية.

في العام ١٩٢٤، انتقل إلى العمل في حقل الاقتصاد. توفي في مستشفى الكرملين عام ١٩٣٨.

أطلق النار شخصياً على نقولا الثاني وابنه ألكسي.

لم يتعرض للقمع من جانب السلطة السوفياتية، وكان لينين يقدّره عالياً.

مقتطفات من منكرات ياكوف يوروفسكي:

"في ٧/١٦، وصلت برقية من مدينة بيرما بلغة مرمزة تتضمن أمراً بالقضاء على آل رومانوف. في الساعة السادسة من مساء ١٦، أمر فيليب غ. ن (غولوشكين عضو هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية لمجلس سوفيات الأورال، القوميسار العسكري للإقليم) بتنفيذ الأمر. في الساعة ١٢، كان ينبغي أن تصل سيارة لنقل الجثث. لكن الشاحنة لم تصل في الساعة ١٢، إنما وصلت في الساعة الواحدة والنصف. وقد أجّل هذا التاخير تنفيذ الأمر. وكانت قد تمت حتى تلك الحين كافة الاستعدادات، وتم اختيار ١٢ شخصاً مجهزين بمسدسات. اثنان من اللاتفيين رفضا إطلاق النار على البنات. حين وصلت السيارة كان الجميع نياماً. أيقظنا بوتكين وهو بدوره أيقظ الجميع. وكان قد تم اختيار غرفة في الأسفل فيها حاجز مغلف بالخشب (لتفادي الرصاصات المرتدة)، وكانت جميع قطع الأثاث قد نقلت منها. كان الطاقم على أهبة الاستعداد في الغرفة المجاورة. لم يكن آل رومانوف يحدسون بشيء. وكان كل فرد من أفراد الطاقم قد تلقّى أمراً يحدد له الشخص الذي ينبغي أن يطلق عليه النار، وكان الأمر بالتصويب إلى القلب مباشرة لتفادي الدماء الغزيرة وللانتهاء من الأمر بسرعة... بقي ألكسي وثلاث من شقيقاته والوصيفة وبوتكين أحياء، مما أوجب الإجهاز عليهم بالرصاص. حين حاولوا الإجهاز على إحدى الفتيات بالحربة، لم تتمكن الحربة من اختراق الصدرية. لقد استغرقت العملية مع التحقق (جس النبض والخ) حوالى عشرين دقيقة. اخذنا بعدها نُخرج الجثث ونضعها في السيارة التي فرشت أرضها بقماش سميك كي لا تسيل الدماء. وبدأ هنا النهب، مما حتّم تعيين ثلاثة رفاق موثوقين لحراسة الجثث، بينما كانت تتواصل عملية نقلها (كانت تنقل كل جثة بمفردها). وتحت التهديد بالإعدام رمياً بالرصاص، تمت إعادة المسروقات (ساعة ذهبية، علبة سجائر مرصّعة بالألماس وغير ذلك).

حوالى الساعة الثالثة وصلنا إلى المكان الذي كان على يرماكوف أن يعدّه وراء مصنع فيرختني - إيستسك. كان من المفترض أن تصل السيارة إلى مكان محدد،

ومن ثم يتم استعمال الخيل (لأن السيارة لم يكن بوسعها المضي في السير لوعورة الطريق، إذ إن المكان الذي تم اختياره كان عبارة عن منجم مهجور). بعد أن قطعنا المصنع بمسافة حوالى خمسة فرستات (الفرست وحدة قياس روسية تبلغ ١٠٦٠ م) اصطدمنا بمجموعة كبيرة من الناس، تضم حوالى ٢٥ شخصاً بين راكب خيل وراكب حنطور وغيره. كان هؤلاء العمال (أعضاء مجلس سوفيات اللجنة التنفيذية وغيرهم) الذين هيأهم يرماكوف للمساعدة. وكان أول ما هتفوا به: «لماذا لم تأتونا بهم أحياء؟!»، فقد كانوا يعتقدون أن إعدام آل رومانوف كان سيوكل إليهم. أخذوا ينقلون الجثث في الحناطير، وبدأت على الفور عملية تنظيف الجيوب، مما اضطرنا للتهديد مجدداً بالإعدام رمياً بالرصاص...».

وهكذا نرى أن يوروفسكي والسفّاح الآخر كابانوف أعلنا بشكل لا لُبس فيه أن أحداً لم يبق على قيد الحياة. الاختلاف كان فقط في عدد الذين أطلقت النار عليهم. وتؤكد المصادر أن يوروفسكي قد أخطأ، وعدد القتلى كان ١١ قتيلاً.

إن جميع المصادر بلا استثناء تؤكّد أن الأميرة الكبيرة أنستازيا نيكولايفنا كانت بين من تم إعدامهم. فقد كتب ب. جيليار ومربّي ولي العهد ألكسي، في مذكراته التي صدرت بفيينا في العشرينيات، يقول:

"حدثت الوفاة على الفور تقريباً بالنسبة لجميع المعتقلين، إلا أن الكسي نيكولاييفتش أصدر أنيناً خفيفاً. أجهز عليه يوروفسكي بطلقة من المسدس. أنستازيا نيكولاييفنا أصيبت بجروح فقط. ولدى اقتراب القتلة منها أخذت تصرخ، ثم وقعت تحت طعنات الحراب. آنّا دميدوفا نجت هي الأخرى بفضل الوسائد التي اختبأت وراءها، لكنها سقطت في النهاية تحت ضربات القتلة».

كما أن شهادة ي. أ. سوكولوف، المحقّق من الحرس الأبيض الذي اهتم بقضية مقتل أسرة القيصر بعد حدوث ذلك مباشرة، لا تدع أي مجال للشك أيضاً في وجود أية فرصة للنجاة أمام أنستازيا.

ومع ذلك...

بعد الحرب روى أحد الضباط (وكان برتبة كابتن أو ميجور) لوالدي رواية

تبدو غريبة للوهلة الأولى. كان هذا الضابط قد أصيب أثناء الحرب بجروح بليغة في بولونيا، وقامت راهبات أحد الأديرة الأرثوذكسية بالاعتناء به ومعالجته. وتعرّف الضابط في الدير إلى كبيرة الراهبات، ونشأت بينهما علاقة ثقة متبادلة. وكانت هذه الراهبة تهتم كثيراً بالتحدث إلى الروس. وقد أسرَّت إليه لاحقاً، بعد أن حصلت منه على تعهّد بعدم إفشاء السر: «أنا ابنة نقولا الثاني، أنستازيا...».

لست أدري ما الذي دفع هذا الضابط، الذي عاد إلى الوطن بعد الحرب، للتحدث إلى والدي، إلا أن هذا الحديث حقيقة ثابتة. وكان من الطبيعي، بعد أن استمع والدي إلى هذه القصة الغريبة، أن يبلغ ستالين بذلك. لكن الضابط كان قد حصل، في الحقيقة، من والدي على كلمة عهد بألا يَحدُثَ أي سوء لأنستازيا. شكك ستالين بالأمر قائلاً: «قد تكون مدّعية؟ تحققوا من ذلك». وبالتالي تم ترتيب مجيئها إلى الاتحاد السوفياتي بمعرفة ستالين، بالطبع.

قرّر يوسف فيساريونوفيتش أن يسافر هذا الضابط إلى بولونيا ويقترح على هذه المرأة زيارة الاتحاد السوفياتي، إذا كانت ترغب في ذلك، بالطبع.

ويبدو أن عامل الثقة قد نشأ بسبب التعهد الذي طلبته كبيرة الراهبات من الضابط الروسي بأن لا يُحدِّث أحداً بما أُسِرَّ إليه به.

أعرف أن أنستازيا نيكولاييفنا وافقت على المجيء إلى الاتحاد السوفياتي، وعاشت في موسكو أسبوعين في بيت منفرد خُصص لها. وكان هذا الضابط برفقتها. لم يعلم أحد، بالطبع، أنها ابنة القيصر الروسي الأخير. كانت تزور المتاحف والمسارح، بل وقامت بزيارة لينينغراد.

لست على علم بالتفاصيل المختلفة، لكنني سمعت من والدي أنه عُرض عليها أن تتكفل الدولة بكل احتياجاتها. لكن أنستازيا نيكولاييفنا تقدمت بالشكر لدعوتها على البقاء في الاتحاد السوفياتي، ورفضت العرض، وقالت إنها نذرت نفسها لله وعليها أن تعود إلى الدير.

هذا كل ما بوسعي أن أقوله. وأعرف أنها عادت آنذاك إلى بولونيا. ولم أسمع بعد ذلك شيئاً عن ابنة نقولا الثاني.

ضابط سوفياتي تنقذ حياته ابنة الامبراطور الروسي الأخير... الكلمة العهد التي يعطيها والذي لمحارب الأمس... ستالين الذي يدعو الأميرة الكبيرة لزيارة وطنها... ألا توافق أيها القارئ أن ثمة في كل ذلك ما يدعو إلى الذهول. هل يكمن هنا مفتاح السر القديم للأميرة أنستازيا؟ لقد استقبلوا في موسكو على أرفع مستوى كبيرة راهبات دير أرثوذكسي بولوني. كما أن دعوتها للبقاء في الاتحاد السوفياتي كان لها دلالاتها. ومهما أُحيطت زيارتها إلى موسكو ولينينغراد بالكتمان، إلا أن آثاراً ما لا بد وأنها قد بقيت. ثم إن ذكر الدير حيث كانت كبيرة الراهبات، ألا يشكّل أثراً يُقتفى؟

ثمة أمر آخر بوسع المؤرخين التمسّك به. فالأميرة الكبيرة توجهت إلى الحكومة السوفياتية بطلب وحيد لا غير: دفنها سرّاً في مدفن القياصرة في لينينغراد... إن الكلمة الأخيرة هي كلمة المؤرخين، بالطبع. لكن ألا توافقني أيها القارئ، على أن هذه القصة المدهشة لا تذكّر بشيء من القصص الأخرى لمن ادّعين بأنهن أنستازيا.

أما المدعيات بأنهن أنستازيا (وليس ماريا ولا أولغا ولا تاتيانا) فكنّ كثيرات. وآخرهن كانت تدعى آنا أندرسون التي توفيت العام ١٩٨٤. وقد تحدّث عنها في أيار/مايو ١٩٩١ كبير آل رومانوف الأمير الكبير فلاديمير كيريلوفيتش بقوله: «المدعيات كن دائماً كثيرات. كان من الواضح أن المحيطين بهذه المرأة كانوا يصدّقون أن الأسرة الإمبراطورية أودعت أموالاً في مصرف بريطاني، في حين أن الإمبراطور، كشخص يحب وطنه، كان أول من قام بتحويل هذه الأموال إلى روسيا في مطلع الحرب، معتبراً أن الآخرين ينبغي أن يتصرّفوا على هذا النحو تماماً. وليس صحيحاً ما يُشاع بأن هذه الأموال كانت أمواله الخاصة. لقد كانت تلك أموالاً حكومية لتغطية متطلبات الحرب تم الاحتفاظ بها لدى الحلفاء. سأل مرة ابن رئيس سابق لأحد بلدان أميركا اللاتينية شخصاً من معارفنا ما إن كان صحيحاً أن الأمير الكبير لم يحمل معه أموالاً من البلاد؟ وهل يعقل الأمر؟ قال هذا مستغرباً، فوالدي لم يبقَ رئيساً أكثر من ١٠ أو ١٢ سنة، ومع ذلك، غدا كل فرد في أسرتنا مليونيراً، في حين أن هؤلاء الأغبياء

بقوا ٣٠٠ سنة في الحكم وخرجوا صفر اليدين... لقد كان الأمر غريباً بالنسبة له. أما بالنسبة لنا، فالموقف الآخر من الأمور ليس مفهوماً... لقد كان على آنا أندرسون أن تقوم قبل كل شيء بزيارة جدتها الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا التي كانت تعيش في الدانمرك، والتي لم تصدّق في داخلها يوماً أن ابنها قد قتل مع جميع أفراد أسرته. فما كان عليها إلا أن تزورها وينتهي الأمر. إلا أنها لم تتجرّأ على ذلك، مع أنها كانت في برلين على مسافة ساعات من الدانمرك...».

ويسأل القارئ: "لكن كيف بقيت الأميرة الكبيرة على قيد الحياة؟ فجميع المصادر سواء عندنا أو في الغرب تدحض مثل هذا الاحتمال، وبشكل مقنع".

لكنني على ثقة بأنهم لم يطلقوا النار في منزل ايباتييف على أنستازيا. وهي مدينة بحياتها، بحسب أقوالها، للدكتور بوتكين الذي ضحّى مكانها بابنته. لقد قتلت هذه الفتاة في سبيل الإبقاء على آخر فرع حي من فروع البيت الإمبراطوري... وقد أقدم الدكتور بوتكين على هذه التضحية إنقاذاً لروسيا، أو في محاولة منه لإنقاذ روسيا.

تؤكّد أنستازيا نيكولايفنا، فيما تؤكّده، أن ولي العهد ألكسي، وريث أمبراطور روسيا الأخير، لم يُقتل في تلك الليلة الرهيبة من ليالي العام ١٩١٨ اللعين.

لا شك في أن سمو الأميرة أنستازيا نيكولايفنا قد كشفت آنذاك في موسكو عن أدق التفاصيل. ومما لاشك فيه أيضاً أنه تم آنئذٍ الرجوع إلى بعض الوثائق التي تثبت أقوالها، ولو بشكل غير مباشر. هل تذكر، أيها القارىء، بما اهتم ستالين بالدرجة الأولى؟ "أليست مدّعية؟ تحققوا من الأمر". ولم يكن بمقدورهم أن لا يتحققوا. وإذا كانت أنستازيا قد روت شيئاً عن تفاصيل نجاة ولي العهد ألكسي، فلا بد أنه تم التحقق من ذلك أيضاً. إجمالاً، ثمّة ما يدعو المؤرخين إلى الاشتغال به.

ومع ذلك، على من أطلق النار يوروفسكي؟ فالمشاركون في الجريمة، بمن فيهم يوروفسكي، كانوا واثقين بأنهم أطلقوا النار على ألكسي، أو أن هناك من يعرف الحقيقة، فمن هو؟

لنفترض أن أحد أتراب ألكسي هو الذي قُتل بدلاً منه. فهل كان يوجد بين المحيطين بألكسي مثل هؤلاء؟ أجل كان يوجد!

في المذكّرات التي تركها التشيكيست أ.كابانوف، كما يقول هو، "للأحفاد المعترفين بالجميل"، يؤكد، كما تذكر أيها القارىء، أن ابن نقولا الثاني البالغ من العمر ١٤ عاماً، كانوا يحملونه على الأيدي إلى الحديقة، ويجلسونه في عربة للأطفال "كان يقودها نسيب أحد الطهاة البالغ من العمر ١٤ عاماً (!)".

ولنعد إلى رواية ياكوف يوروفسكي، حيث يقول: "في الساعة السادسة أخذنا الصبي، مما أثار قلق آل رومانوف والناس المحيطين بهم. جاء الدكتور بوتكين يسأل عن السبب في ذلك، فشرحنا له أن عم الصبي كان معتقلاً وفرَّ من السجن، وقد عاد من جديد ويرغب في رؤية ابن أخيه. وقد أرسل الصبي إلى موطنه (وكانت مقاطعة تولا، على ما أعتقد) في اليوم التالي". لكنه شرح أقلّ ما يقال فيه إنه غريب: كان معتقلاً، ثم فرَّ، ثم يعود من جديد..." أما المشارك الآخر في الأحداث التي جرت في منزل المهمات الخاصة أ.كابانوف، فقد أكد أن عم الصبي البالغ من العمر ١٤ عاماً "أُعدم رمياً بالرصاص في الأيام الأولى بعد الوصول من توبولسك". كيف نفهم كل ذلك؟ هل هي أُحجية جديدة؟ يبدو أن الأمر كذلك.

"في الساعة السادسة أخذنا الصبي، ممّا أثار قلق آل رومانوف والناس المحيطين بهم...". ما سبب ردة الفعل هذه؟ هل أخذوا ولي العهد ألكسي؟ لكن كيف تم استبداله؟

وماذا لو افترضنا أن نقولا الثاني نفسه والمحيطين به، بمن فيهم الدكتور بوتكين، قد علموا بأمر الإعدام قبل حين؟ يبقى تفصيل مثير للاهتمام: في تلك الليلة توجهت الأسرة للنوم بعد الوقت المعتاد بثلاث ساعات(!) ممّا أثار دهشة منفّذي "العملية" أنفسهم.

إذا كان الوقت قد توفر للدكتور بوتكين لإنقاذ أنستازيا، فهل كان يعلم إذاً بما ينتظرهم جميعاً؟...

إن هذا كله من قبيل التخمين لا أكثر. فقد لا يكونون قد أجهزوا، في

نهاية الأمر، على ولي العهد. وإذا أخذنا بالاعتبار الفوضى التي سادت في تلك الليلة (يكفي النهب الذي ساد!) تصبح نجاته أمراً محتملاً جداً، إنما بمساعدة أحد ما، بالطبع.

إنني أخاطر بإثارة غضب المؤرّخين. لكن إذا أخذنا بالاعتبار طبيعة الأشخاص الذين كانوا يحتجزون الأسرة الإمبراطورية، فليس من الصعب أن نفترض أنه مقابل الحلي والمجوهرات، التي كانت، بحسب وثائق متعددة، متوفرة بكثرة لدى آل رومانوف، كان يمكن لأحد ما أن يسدي أية خدمة «للعدو الطبقي».

قد لا تكون المقارنة في مكانها، لكن حين كنت أقرأ الوثائق العديدة المتعلقة بالإعدام في يكاتيرنبورغ، تذكّرت غير مرة ميخائيل بولغاكوف[1]. فلو كان بطله الشهير شاريكوف[2] في عداد حرس منزل إيباتييف، لكان انسجم كلياً مع هذه المجموعة المنتقاة من السفلة والأنذال المستعدين، مقابل مجوهرات الأميرة، ليس لبيع ثورة البروليتاريا فحسب، بل أمهاتهم اللاتي ولدنهم... وبالتالي، لماذا لا نفترض، في هذه الحالة، أن الأسرة الإمبراطورية قد وجدت في هؤلاء حلفاء لها؟ وفي مثل هذه الحالة ينجلي الغموض عن بعض الأمور وتغدو واضحة. وكان بوسع الدكتور بوتكين، مثلاً، أن يتولّى العلاقة مع مثل هؤلاء البشر دون إثارة أية شبهات.

لكن هذا كله ليس إلا من قبيل الافتراضات التي لا تستند إلى أية وثائق تؤكدها، للأسف. والأمل الوحيد يبقى في العثور في الأرشيف الروسي على آثار إقامة سمو الأميرة أنستازيا في موسكو بعد الحرب، مما يتيح لنا أن نطّلع حينئذٍ على ما حدث لولي العهد ألكسي أيضاً.

ليس معروفاً، للأسف، مصير الضابط الذي أنقذت حياته ابنة حاكم روسيا

---

(1) كاتب روسي شهير (١٨٩١-١٩٤٠) اشتهر بروايته "المايسترو ومارغريتا" التي نشرت بعد وفاته في العام ١٩٦٦ - المترجم.

(2) بطل مسرحية "قلب الكلب" - المترجم.

المطلق. هل يعقل بأنه لم يحدّث أحداً إلى من تعرّف في الدير البولوني، وعن لقائه مع بيريا، وعن الأسابيع التي قضاها في موسكو مع سمو الأميرة؟ إنني أشك في ذلك. لكن إذا أخذنا بالاعتبار أن سر الدولة هذا عُهد به إلى ضابط مقاتل، يصبح من المحتمل أن تكون هذه القصة قد بقيت ضمن دائرة أقربائه المقرّبين لا غير. فهل سيتكلم أحد من هؤلاء؟ والأمل ضعيف في أن يكون الضابط نفسه قد بقي على قيد الحياة، فقد مرت سنين كثيرة منذ ذلك الحين. كما لا أمل بتاتاً في أن تكون الأميرة نفسها لا تزال على قيد الحياة. هل تذكرون يوليا باريسوفا في دور أنستازيا في فيلم «مقتل القيصر»؟ فإذا أضفنا سبعة عقود ونيّفاً من الزمن، لكانت أنستازيا نيكولايفنا قد تخطّت التسعين الآن. لكنها سوف تبقى في التاريخ أميرة في السابعة عشرة، وأحد فروع آل رومانوف الأخيرة. أم أن الأمر ليس كذلك؟

"لقد نذرتُ للرب أن أعود إلى الدير، ويجب أن أعود. لو ارتأت الحكومة السوفياتية أن تلبّي طلبي الوحيد، لَكُنت طلبت أن أُدفن سرّاً في المدافن القيصرية في لينينغراد".

حتى لو لم تكن تلك سوى أسطورة جميلة، فإنها تستحق أن نصدّقها.

الفصل العاشر

الخطايا القديمة وظلالها الطويلة

في الأول من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠، أصدرت الغرفة العسكرية في المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص على كلٍّ من عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)، نائب رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي ن. أ. فوزنيسنسكي، وعضو المكتب التنظيمي سكرتير اللجنة المركزية أ. أ. كوزنتسوف، وعضو المكتب التنظيمي للجنة المركزية رئيس مجلس الوزراء في روسيا الاتحادية م. إ. روديونوف، والمرشّح لعضوية اللجنة المركزية السكرتير الأول للجنة الحزبية في مدينة لينينغراد وإقليم لينينغراد ب. س. بوبوف، والسكرتير الثاني للجنة الحزبية في مدينة لينينغراد ي. ف. كابوستين، ورئيس اللجنة التنفيذية لمدينة لينينغراد ب. غ. لازوتين. كما صدر في ذلك الوقت أيضاً حكم بالسجن لمدة طويلة على عدد آخر من العاملين الحزبيين، الذين اتهموا، كما الآخرين، بإنشاء مجموعة مناهضة للحزب والقيام بنشاط يهدف إلى سلخ منظمة لينينغراد عن اللجنة المركزية ومناهضتها، وتحويل هذه المنظمة إلى قاعدة للنضال ضد الحزب ولجنته المركزية. إن ما يسمّى «قضية لينينغراد»، التي تشكّل أحد فصول القمع الجماعي بعد الحرب، لا يزال والذي منذ سنوات طويلة متهماً بتنظيمها. وقد وقع ضحية القمع آنئذٍ جميع قادة المنظمات الحزبية في مدينة لينينغراد نفسها وفي محيط المدينة وإقليمها، إضافة إلى جميع العاملين في الهيئات السوفياتية والحكومة الذين كانت منظمة لينينغراد قد رشّحتهم في حينه للعمل في الجهاز

الحزبي والسوفياتي المركزي وفي منظمات الأقاليم الحزبية في البلاد. وتشير المعطيات الرسمية إلى أن أكثر من ألفي شخص تعرضوا للملاحقات في إقليم لينينغراد وحده، كما تعرض للقمع أفراد أسر المحكومين أيضاً.

أود على الفور أن أدحض الاتهام الموجّه إلى والدي. فمصير كوزنتسوف وفوزنيسنسكي، بل ما يسمّى «ملف لينينغراد» برمّته كان بيد لجنة من اللجنة المركزية نفسها، وذلك بحكم المكانة التي يحتلها المتهمون. وكانت تضم اللجنة كلاً من مالينكوف وخروتشوف وشكيرياتوف. ويتحمل هؤلاء بالدرجة الأولى المسؤولية عن موت قادة لينينغراد. لكن ثمة تفصيلاً ما زال مؤرخونا المحليون من سنوات عديدة يفضّلون السكوت عنه، وهو أن استجواب المتهمين لم يقم به محققون من وزارة أمن الدولة (MGB)، بل أعضاء اللجنة الحزبية. ولم تكن لوالدي أية علاقة بهذه الأمور الدنيئة. وأذكر أن والدي قال على الفور إنها لعبة دورية للاستيلاء على المواقع القيادية في السلطة، من خلال تدمير منظمة لينينغراد الحزبية التي كانت تساند فوزنيسنسكي بقوة. لكن فوزنيسنسكي، الذي كان يحترمه والدي ويقدّره، كما كان معروفاً، لم يكن محبوباً من قبل أهل الكرملين. وكان ميل ستالين نحو هذا القائد الموهوب هو أحد الأسباب في ذلك. بمعنى آخر، كانوا يرون في فوزنيسنسكي منافساً لهم...

كان فوزنيسنسكي، كما والدي، يقف موقفاً سلبياً للغاية من التكتلات والصراعات الحزبية الداخلية. وكان من أصغر القادة سنّاً في ذلك الحين، وبالتالي، من أكثرهم وعداً بالمستقبل. كان صعوده أثناء فترة الحرب. وكان ستالين، على ما أعرف، يعتبره ضليعاً جداً في الاقتصاد، الأمر الذي كان لا يمكن إلا أن يستفز المحيطين بستالين، والذين كانوا لايرحمون أمثال فوزنيسنسكي.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الأحداث لم تجر فقط على خلفية الصراع على السلطة الذي تميزت به دائماً القيادة العليا للحزب البلشفي، بل على خلفية الصراع المرير حول شكل الحكم أيضاً. فقد كان خروتشوف ومالينكوف يعتبران أن الحزب ينبغي أن يتصدّر كل الأمور. أما الشأن الاقتصادي فكان بنظرهما

أمراً ثانوياً. ولم يكن فوزنيسنسكي ووالدي وجميع قادة الصناعة يخفون بأنهم لا يستطيعون الموافقة على ذلك، فالاقتصاد هو الذي ينبغي أن يهيمن وليس السياسة. بمعنى آخر، كان هؤلاء الناس، ودون أن يتخلوا عن الإيديولوجية البلشفية، بالطبع، يشككون في أشكال الحكم نفسها ويصرّون على إجراء الإصلاحات.

إن الجهاز الحزبي هو الذي أبعد فوزنيسنسكي كما أبعد والدي لاحقاً. وهو الذي أبعد في العام ١٩٦٤ الزعيم الحزبي (خروتشوف) نفسه، وبسهولة، وذلك لأنه مسّ مصالحه. والجهاز هذا هو الذي تصدى آنئذٍ لفوزنيسنسكي، وإلا لكانت حصلت البلاد على رئيس مجلس وزراء قوي في السنوات القليلة التالية. وبالتالي فإن منفّذي «قضية لينينغراد» وملهميها قد حلّلوا الموقف تحليلاً دقيقاً...

أعرف أن ثمة رواية تقول إن ستالين كان يكره لينينغراد كرهاً عميقاً، ونكّل بقادتها في آخر حياته. إنني على قناعة بأن الأمر ليس كذلك. فمن خلال الأحاديث التي كانت تجري بين والدي وجوكوف أعرف أن ستالين كان يحب لينينغراد كثيراً، لأن أفضل ذكرياته كانت ترتبط بهذه المدينة. فهو، بالمناسبة، لم يدعم اقتراح لينين بانتقال الحكومة السوفياتية من بتروغراد إلى موسكو، لكن لم يؤخذ برأيه، إذ لم يكن يتمتع بالسلطة التي أصبح يتمتع بها لاحقاً.

حتى أنه كان يعتبر أن عاصمة الدولة ينبغي أن تكون بالضرورة مدينة ساحلية. وقد يكون ذلك بتأثير من حبه لبتروغراد. كان يعرف تاريخ روسيا معرفة ممتازة، وكان يقطع الحديث إذا ما سمح أحد لنفسه أن يتحدث بسطحية عن ماضي البلاد.

يطرح البعض أحياناً حجة تقول إن معارضة لينينغراد كانت تزعج ستالين. هذا القول ليس صحيحاً تماماً. فقد كان هناك ما يكفيه من التكتلات المعارضة في موسكو أيضاً... كما أنه لا يتسم بالجدية القول كذلك إن كره ستالين القديم للينينغراد له علاقة بكيروف. إن موت كيروف، أو بالأحرى، مقتل أقرب أنصاره

إليه، قد آلمه كثيراً. وأعرف ذلك حق المعرفة. ولا أعرف ما إن كان ذلك يزيّن كيروف أم لا، إلا أن جميع خطب سيرغي ميرونوفيتش (كيروف) تشير إلى أنه كان من أكثر الناس إخلاصاً لستالين، ويكفي أن نقرأ خطابه في مؤتمر الحزب، وخطبه في كافة الاجتماعات الأخرى أيضاً.

كنت أعرف جيّداً الوضع في لينينغراد بعد الحرب، إذ وصلتُ إلى المدينة قبل رفع الحصار عنها. وقد زارنا كوزنتسوف في الأكاديمية غير مرة وتحدث أمامنا. وكنا، نحن طلبة الأكاديمية، نعتبره شخصاً واسع الاطلاع للغاية، ونشيطاً، ويحسن التعامل مع الناس. وأعرف أن نشاطاته كانت تلقى صدى جيداً لدى سكان المدينة. ولم تكن الاتهامات بحقه تملك أساساً من الصحة. من المحتمل أنه كان وسواه من الرفاق اللينينغراديين يرغبون في أن تحصل لينينغراد على الحقوق التي توازي القدرات التي تتمتع بها. وكان هذا أمراً طبيعياً للغاية. غير أن الهيئات الحزبية الاتحادية، على ما أعرف، كانت تعرقل تطور لينينغراد الاقتصادي، ولم تكن تأخذ بالاعتبار رأي اللجنة الحزبية في المدينة. فقد كانت النومانكلاتورا تسعى إلى تحويل هذا المركز الصناعي والعلمي والثقافي الكبير ذي الوزن العالمي إلى مدينة هامشية. وكان أي عمل يقوم به قادة لينينغراد يُقدم لستالين بغلاف سياسي معيَّن، وكأن لجنة لينينغراد الحزبية تسعى لتكون عاصمة أخرى. وأعتقد أن هذا الأمر قد أثار حذر ستالين.

لكنني أكرر القول إنه لم تكن هناك في الواقع أية مواجهة مع المركز، وكل ما في الأمر أن القيادة الحزبية العليا قامت، بكل بساطة، بإزاحة فوزنيسنسكي مع المنظمة الحزبية الكبرى التي كانت تدعمه.

في شباط/فبراير ١٩٤٩ تم في اجتماع المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) اتخاذ قرار «حول النشاطات المعادية للحزب من قبل عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) الرفيق أ.أ. كوزنتسوف والمُرشَّحينِ لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) الرفيقين إ. روديونوف وب.س. بوبكوف». وجاء في القرار أن «نشاطاتهم المعادية للدولة جاءت نتيجة ميلهم غير الصحي وغير البلشفي الذي كان يبرز في التملق

الديماغوجي لمنظمة لينينغراد، والتشهير باللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي)، وفي محاولات تصوير أنفسهم مدافعين مخلصين عن لينينغراد، ومحاولات إقامة جدار عازل بين اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) ومنظمة لينينغراد، وإبعاد المنظمة، بالتالي، عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي)».

عزل المكتب السياسي بموجب هذا القرار كلاً من كوزنتسوف وبوبكوف وروديونوف من جميع مناصبهم، وبعد عدة أيام توجه مالينكوف إلى لينينغراد برفقة مجموعة من العاملين في اللجنة المركزية. عقد مالينكوف لدى وصوله اجتماعاً مشتركاً لمكتب لجنة الإقليم ومكتب لجنة المدينة الحزبيين، وعمل على الحصول على اعتراف بوجود «تكتل معارض معاد للحزب» في المنظمة. وفي اليوم التالي عقد اجتماعاً موسعاً مشتركاً للهيئتين المذكورتين. وقد جرى كل شيء وفقاً «لأفضل تقاليد» القمع السياسي في الثلاثينيات: اتهامات منافية للعقل، تهديدات، إعلان التوبة. وألحقوا فيما بعد وزارة أمن الدولة (MGB) برئاسة أباكوموف بهذه القضية»...

لم تلعب مؤسسة أباكوموف إلا دوراً مساعداً فحسب، فقد قاموا باعتقال كابوستين للاشتباه بعلاقته بالمخابرات البريطانية و«انتزعوا» منه الاعتراف المناسب. لكن بعض الوثائق تشير إلى أن وزارة أمن الدولة (MGB) لم تكن مهتمة كثيراً بالتجسس لحساب بريطانيا. وكانت التحقيقات تدور بشكل أساسي حول موضوع «التكتل المعادي للحزب»، ولم تكن الشبهة بالتجسس سوى حجة للاعتقال، كما كانت الحال دائماً.

في ١٣ آب/أغسطس ١٩٤٩، ومن دون إذن النيابة العامة (لم يكلفوا أنفسهم عناء القيام بذلك!) تم في مكتب مالينكوف اعتقال كلٌ من كوزنتسوف وبوبكوف وروديونوف ولازوتين وسولوفيوف. وكان فوزنيسنسكي قد أُقيل قبل ذلك من منصب رئيس هيئة الدولة للتخطيط في الاتحاد السوفياتي (GOSPLAN).

في ٩ أيلول/سبتمبر قدّم شكرياتوف إلى المكتب السياسي قرار لجنة المراقبة الحزبية التالي: «نقترح فصل ن. أ. فوزنيسنسكي من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) وتقديمه للمحاكمة». وتبع ذلك اجتماع للمكتب السياسي، ثم اجتماع موسع للجنة المركزية... وفي ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر تنفّس خروتشوف ومالينكوف الصعداء. فقد تم اعتقال الطامح الأول لمنصب رئيس الحكومة.

بعد مرور عشرات السنين على إعدام فوزنيسنسكي ورفاقه، اعترفت لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بقولها:

"من أجل الحصول على اعترافات ملفقة عن وجود تكتل معادٍ للحزب في لينينغراد، تولّى مالينكوف شخصياً متابعة سير التحقيقات في القضية، وشارك مباشرة في الاستجوابات. وقد استُخدمت بحق المعتقلين جميعاً أساليب غير مشروعة في التحقيق، وتعرضوا للضرب المبرح والتعذيب. ولخلق تصور بوجود تكتل معادٍ للحزب في لينينغراد جرت اعتقالات جماعية بأمر من مالينكوف... وظلوا أكثر من سنة يهيئون الموقوفين للمحاكمة، فكان يخضع هؤلاء للتعذيب الوحشي والإهانات والتهديد بالاقتصاص من أسرهم، وكان يزج بهم في زنزانات انفراد مخصصة للتعذيب... الخ. وقد تم تشديد الضغط النفسي على المتهمين عشية المحاكمة وأثناء سيرها. فقد كان يُجبر هؤلاء على حفظ محاضر الاستجوابات عن ظهر قلب، وعدم الإخلال بالسيناريو الذي وضع مسبقاً للمحاكمة المهزلة. وكانوا يخادعون المتهمين بالتأكيد لهم أن الاعتراف «بالنشاط المعادي» مهم وضروري للحزب، الذي عليه أن يلقن الدرس الملائم من خلال فضح التكتل المعادي. وكانوا يقنعونهم بأنه مهما كان الحكم الصادر بحقهم فلن يتم تنفيذه... إن القضاء الجسدي على ن. أ. فوزنيسنسكي وأ. أ. كوزنتسوف وم. إ. روديونوف وب. س. بوبكوف وي. ف. كابوستين وب. غ. لازوتين كان مقرراً قبل المحاكمة بزمن طويل».

تم إعلان الحكم في الساعة الواحدة ليلاً، وفي الساعة الثانية، لم يكن قد بقي من المحكومين أحد على قيد الحياة...

جرت لاحقاً محاكمات مماثلة مرتبطة «بقضية لينينغراد» في عدة مدن أخرى. وكان بين من أُعدموا رمياً بالرصاص شقيقة فوزنيسنسكي وشقيقه ومجموعة كبيرة من العاملين في الهيئات الحزبية والسوفياتية.

لم تتم إعادة الاعتبار إلى جميع «اللينينغراديين» إلا في نيسان/إبريل ١٩٥٤. وفي تلك السنة نفسها، أعدموا رمياً بالرصاص أباكوموف و«أعوانه الذين انتهكوا الشرعية الاشتراكية». وبقي الرفيق مالينكوف، الذي كان يقف وراء الجريمة، سعيداً في منصبه رئيساً للحكومة.

في شباط/فبراير ١٩٥٦ سوف يقول خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي أن ل. ب. بيريا هو من رتَّب «قضية لينينغراد». ولم يسق عند هذا أية إثباتات على ذلك، بالطبع. غير أن ذلك لم يَحُل، حتى في أيامنا هذه، دون إلصاق هذه الجريمة بوالدي أيضاً. وفي أحسن الأحوال يلجأ المؤرخون إلى الاستشهاد بخطاب خروتشوف نفسه...

وماذا عن مالينكوف الذي خرج من الماء بلا بلل، كما يُقال؟

"طُرحت المسألة المتعلقة بدور غ. م. مالينكوف الإجرامي في تنظيم ما يسمى «قضية لينينغراد» في اجتماع حزيران/يونيو الموسع (العام ١٩٥٧) للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. غير أن غ. م. مالينكوف، في إخفائه لآثار الجريمة، قضى تقريباً على جميع الوثائق المتعلقة «بقضية لينينغراد». وقد أبلغ المديرالسابق لسكرتارية غ. م. مالينكوف أ. م. بتروكوفسكي لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أنه وضع في العام ١٩٥٧ جردة بالوثائق التي اختفت من خزنة مساعد غ. م. مالينكوف المعتقل د. ن. سوخانوف... أثناء جلسات الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في حزيران/يونيو (العام ١٩٥٧)، قام غ. م. مالينكوف بتفحص الوثائق المحفوظة في خزنة د. ن. سوخانوف عدة مرات، وأخذ الكثير منها. ولم يُعِد هذه الوثائق إلى إضبارة «قضية لينينغراد» بعد إبعاده عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وأعلن أنه أتلفها كوثائق شخصية. وقد أكد غ. م. مالينكوف في اجتماع لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أنه أتلف هذه الوثائق...

معهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي

لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي

لقد اتهموا والدي بتنظيم «قضية» أخرى كبيرة أيضاً هي ما سمّي بقضية

مينغريلي. وقد تعرض للأذى آنئذٍ عشرات الألوف من الجورجيين الذين لا ذنب لهم بتاتاً. فقد اتخذت اللجنة المركزية في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥١ قراراً بوجود منظمة متعصبة قومياً في مينغريلي في جورجيا تستعد للإطاحة بالسلطة السوفياتية في الجمهورية. هراء، بالطبع؟ فلم تكن توجد أية منظمة معادية للثورة في مينغريلي. إن «قضية مينغريلي»، وكما اعترف خروتشوف قبل وفاته بوقت قصير، كانت موجّهة ضد والدي. غير أن نيكيتا سرغييفيتش يتّهم شخصاً وحيداً هو ستالين بتنظيم هذا الملف. إلا أن الأمر ليس تماماً كما يصوره، فالقيادة الحزبية العليا، بمن فيها خروتشوف بالطبع، كانت تحاول بهذه الطريقة إزاحة بيريا بيد ستالين. وليس صحيحاً ما يقال من أن الديكتاتوريين لا يرضخون أحياناً للضغوط. فثمة العديد من الأمثلة حين كان ستالين يتراجع فيها أمام المقربين المحيطين به. وهكذا كان آنئذٍ، حيث كان من المفترض أن يسيء القمع الجماعي في جورجيا إلى صورة والدي، مما يُسّهل بعد ذلك أمر«إزاحته».

لقد تحدث خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، وفي مذكراته، التي نشرت في الغرب،عن استبداد ستالين، لكنه، ولأسباب مفهومة، لم ينبس بكلمة واحدة عن دوره في «قضية مينغريلي». كما تنصّل كذلك، وبالطريقة نفسها، من المسؤولية عن مشاركته النشيطة في ترتيب «قضية الأطباء».

مقتطفات من مذكرات ن. س. خروتشوف:

"دعانا ستالين مرة إلى الكرملين وتلا علينا رسالة من امرأة تدعى تيماشوك تقول فيها إنها تعمل في مختبر طبي، وكانت في فالداي حين توفي جدانوف. وكتبت أن جدانوف توفي لأن الأطباء عالجوه على نحو خاطئ، إذ وصفوا له إجراءات طبية تؤدي حتماً إلى الوفاة، وبأن ذلك كان عملاً متعمداً... لو أن ستالين كان طبيعياً في ذلك الحين لأتى رد فعله مختلفاً على هذه الرسالة. وباختصار تم اعتقال الأطباء... ويبدو أن كثيرين من أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي شعروا بأن هذه الاتهامات باطلة. إلا أنهم لم يناقشوها لأن ستالين تحدث بها... ولأنه يتولى بنفسه هذه المسألة، وبالتالي فلا طائل من الكلام.

وحين التقينا بعيداً عن طاولة هيئة الرئاسة وتبادلنا الرأي فيما بيننا، فإن أكثر ما أثار امتعاضنا هو الرسالة التي وردت من كونيف. ولم تكن هذه الرسالة تدين أولئك الذين تم «كشفهم» فحسب، بل كانت تدفع ستالين إلى توسيع دائرة المشكوك بأمرهم، وإلى عدم الثقة أصلاً بالأطباء. وكان من الواضح أن ذلك لم يكن إلا نتيجة للطبيعة المرضية للرجل و«لقرابة روحية» ما مع ستالين. وكانت توجد بالفعل قرابة روحية جزئية بين كونيف وستالين. فلا يزال كونيف حتى الساعة متأثراً، لأن المؤتمر العشرين للحزب أدان جرائم ستالين، ولأن المؤتمر الحادي والعشرين للحزب "وسع دائرة الإدانة".

بدأت استجوابات «المتهمين». وسمعت بنفسي كيف اتصل ستالين غير مرة بايغناتيف هاتفياً. كان ايغناتيف آنئذٍ وزيراً للأمن. وكنت أعرفه. فقد كان مريضاً جداً، دمث الأخلاق، دائم التأمل، يجذب الناس إليه. كنت أعامله معاملة جيدة للغاية... كان هو (ستالين) يطالب ايغناتيف بقوله: هؤلاء الأطباء التعساء يجب ضربهم ثم ضربهم، يجب ضربهم بلا رحمة وتكبيلهم بالأغلال...».

لاحظوا: خروتشوف لا يربط «قضية الأطباء المخرّبين» باسم والدي. ولنتصفح تقرير السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي نيكيتا خروتشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي. لقد توقف الزعيم الحزبي بالتفصيل، وهو يتحدث في ٢٥ شباط/فبراير ١٩٥٦، عند قضيتي «مينغريلي» و«لينينغراد» وأشار إلى أن «غالبية أعضاء المكتب السياسي في تلك الفترة لم يطّلعوا على كافة تفاصيل القضيتين». كما تذكّر الأطباء أيضاً، إلا أنه وصف ستالين بالمسؤول عن قمع هؤلاء الناس. أما عن والدي، فلا كلمة. غير أنه في نهاية كلمته قام، وعلى نحو حاذق، بإعادة لفت انتباه الجمهور إليه:

"إن عميل المخابرات الأجنبية بيريا، الذي جعل ستالين يثق به، وهو العدو الوقح لحزبنا قد لعب دوراً سافلاً في ترتيب مختلف القضايا الوسخة والمشينة. كيف تمكّن هذا العميل من بلوغ مثل هذه المكانة في الحزب والدولة، حتى أصبح النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي؟ لقد ثبت الآن أن هذا السافل قد تسلّق السلم الوظيفي في الدولة عبر الكثير من الجثث على كل درجة".

لم يعد من معنى بتاتاً لكل ما قاله لاحقاً السكرتير الأول للجنة المركزية، فقد علق في ذاكرة المستمعين أن يد بيريا كانت وراء «مختلف القضايا الوسخة

والمشينة». كما لم يعد من أهمية أيضاً إلى أنه، سوى السباب، لم يبق اتهاماً ملموساً واحداً ضد الرفيق السابق. فالهدف قد تم بلوغه. ومن يجرؤ على تكذيب رئيس الدولة؟

أول نبأ عن «الأطباء المخربين» أذاعته وكالة تاس في ١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٣:

"كشفت أجهزة أمن الدولة منذ بعض الوقت مجموعة إرهابية من الأطباء الذين وضعوا نصب أعينهم، وبواسطة العلاج المضر، تقصير حياة واحد من رجالات الاتحاد السوفياتي النشيطين. وتضم هذه المجموعة الإرهابية: البروفسور م. س. فوفسي طبيب أمراض داخلية؛ البروفسور ف. ن. فينوغرادوف طبيب أمراض داخلية؛ البروفسور م. ب. كوغان طبيب أمراض داخلية؛ البروفسور ب. ب. كوغان طبيب أمراض داخلية؛ البروفسور ب. إ. يغوروف طبيب أمراض داخلية؛ البروفسور أ. إ. فيلدمان طبيب أنف أذن حنجرة؛ البروفسور ي. غ. أتينغر طبيب أمراض داخلية؛ البروفسور أ. م. غرينشتاين طبيب أعصاب؛ غ. إي. مايوروف طبيب أمراض داخلية.

لقد ثبت بواسطة المعلومات الموثقة واستنتاجات الخبراء في الطب واعترافات المعتقلين أن المجرمين، وهم أعداء سريون للشعب، كانوا يقدمون علاجاً مضراً للمرضى ويقوّضون صحتهم...

لقد اعترف المجرمون بأنهم استغلوا مرض الرفيق أ. أ. جدانوف ووضعوا تشخيصاً خاطئاً للمرض، وتستروا على الذبحة القلبية التي كان يعاني منها، ووصفوا له نظام علاج مخالفاً لما ينبغي أن يوصف لهذا المرض الخطير، وتسببوا بذلك بموت الرفيق أ. أ. جدانوف. وأثبت التحقيق أن المجرمين قد قصروا أيضاً حياة الرفيق أ. س. شرباكوف، إذ استخدموا على نحو خاطئ في علاجه أدوية شديدة التأثير، ووصفوا له نظام علاج مضرّاً مما أدى إلى وفاته.

لقد حاول الأطباء المجرمون أن يقوضوا صحة الكوادر العسكرية السوفياتية القيادية، بالدرجة الأولى، وتعطيلهم وإضعاف دفاعات البلاد. فقد كانوا يحاولون شل نشاط الماريشال فاسيليفسكي والماريشال غوفوروف والماريشال كونيف وجنرال الجيش شتيمنكو والأدميرال ليفتشنكو وآخرين. لكن الاعتقال عطل مخططاتهم الشريرة ولم يتمكن المجرمون من بلوغ غايتهم.

لقد ثبت أن جميع هؤلاء الأطباء القتلة، الذين تحولوا إلى وحوش بشرية،

وداسوا بأقدامهم راية العلم المقدسة، ولوثوا شرف رجالات العلم، كانوا عملاء مأجورين للمخابرات الأجنبية. إن معظم المشاركين في الجماعة الإرهابية (فوفسي كوغان، فيلدمان، غرينشتاين، ايتنغر وغيرهم) كانوا مرتبطين بمنظمة «دجوينت» اليهودية العالمية البرجوازية المتعصبة قومياً، التي أنشأتها المخابرات الأميركية لتقديم المساعدة الدولية لليهود في البلدان الأخرى، كما يزعمون. لكن هذه المنظمة، في الحقيقة، تقوم بقيادة المخابرات الأميركية، بنشاط تجسسي تخريبي واسع في عدد من البلدان بما فيها الاتحاد السوفياتي. فقد صرح المعتقل فوفسي للمحققين بأنه تلقى أمراً "بالقضاء على الكوادر القيادية في الاتحاد السوفياتي" من منظمة «دجوينت» في الولايات المتحدة، عبر الطبيب شيميليوفيتش في موسكو، والبرجوازي اليهودي المتعصب المعروف ميخولِس. أما المشاركون الآخرون في الجماعة الإرهابية (فينوغرادوف، كوغان م. ب. يايغوروف) فتبين أنهم عملاء قديمون للمخابرات الإنكليزية.

التحقيقات سوف تنتهي في القريب العاجل (تاس)".

إن الكبار في السن يذكرون، ولا شك، الجو الهستيري الذي خلقته الصحافة في تلك الأيام. فقد كتبت مجلة «أوغونيوك» تقول:

"جرائم فظيعة لا توصف لعصابة أعداء الشعب! إن الغضب والاشمئزاز يتملكان جميع الناس الشرفاء الذين علموا بجرائم القتلة المأجورين، الذين كانوا يختبئون تحت قناع الألقاب العلمية في الطب".

لقد ناقشنا نحن، شأن كل أسرة، اعتقال هؤلاء الأطباء المعروفين. ومن نافل القول أنه لم تكن لوالدي أدنى علاقة بهذه السفالة. وكان لامتعاضنا نحن سبب إضافي، هو أنني كنت مديناً بحياتي لواحد من هؤلاء المعتقلين. فقبل عدة سنوات من الحرب (كنا لا نزال نعيش في تبليسي) بدأت تظهر لدي تعقيدات شديدة إثر إصابتي بالزكام، ولم يتمكن الأطباء المحليون، وهم اختصاصيون جيدون، من مساعدتي. ولسوء الحظ، اضطُرَّ والدي في تلك الأيام بالذات للمغادرة إلى موسكو بسبب الأعمال. كان يتصل بالهاتف يومياً، بالطبع، للسؤال عن صحتي، إلا أن والدتي لم تتمكن من طمأنته لأن المرض كان يتطور.

لا أدري أي حديث جرى آنذاك بين والدي وسيرغو أورجانيكيدزه، إلا أن هذا الأخير وعد بالمساعدة حين علم بما جرى. وبطلب منه وصل إلى تبليسي

طبيبان شهيران هما اتينغر ورابوبورت. مكث ياكوف غيلياريفيتش أتينغر وزميله أسبوعين عندنا، ثم تابع الأطباء المحليون علاجي بعد ذلك لمدة شهرين. لكنني مدين بحياتي، بلا شك، لرابوبورت ولأتينغر، البروفسور الشهير بأمراض القلب. ومن الطبيعي أن والدي ووالدتي بقيا طوال حياتهما يذكران بالخير هذين الطبيبين من موسكو.

كان يتردد كثيراً لزيارتنا في منزلنا البروفسور فينوغرادوف. وهو لم يكن طبيباً معالجاً، إلا أننا كنا نشعر بسرور كبير في التحدث إلى هذا الرجل المثير للاهتمام. وبعد أن أقفل والدي «ملف الأطباء» حدثنا فينوغرادوف والبروفسور يغوروف، الذي كان يترأس المديرية الرابعة[1] في وزارة الصحة، وهما إلى المائدة في بيتنا عما جرى فعلاً. قال البروفسور فينوغرادوف:

ـ إنني رجل مسنّ ولم يتبقّ لي من القوة ما يمكنني من احتمال كل هذا جسدياً. فتعيّن عليّ تقديم إفادات لهم، إلا أنني لم أُفِد إلا عن أولئك الذين توفوا قبل اعتقالي. ومع أنني كنت أدرك أن بوسعهم تعريض أسرهم للقمع، لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ أعزّي النفس بأنني تسببت بأقل ضرر ممكن بهذه الطريقة .

كما تحدثا، بالطبع،عن أتينغر وعن الأطباء الآخرين الذين تعرضوا للتنكيل.

وكانت «قضية الأطباء» قد بدأت، بالفعل، من رسائل كونيف وليديا تيماشوك .

مقتطفات من مصادر رسمية:

ليديا تيماشوك: ولدت العام ١٨٩٨ في برست ليتوفسك. في العام ١٩١٨ دخلت كلية الطب في جامعة سماره. في العام ١٩٢٦ تم تعيينها في مديرية العلاج

---

(١) المديرية التي كانت تتولى الاهتمام بالشؤون الصحية للقادة والمسؤولين السوفيات وأسرهم - المترجم.

والثقافة في الكرملين، حيث بقيت تعمل حتى تقاعدها في العام ١٩٦٤. في كانون الثاني/يناير ١٩٥٣ منحت وسام لينين بموجب مرسوم من هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي مقابل «المساعدة التي قدمتها للحكومة في قضية فضح الأطباء القتلة». وفي نيسان/إبريل من العام نفسه تم إلغاء مرسوم منح تيماشوك الوسام.

توفيت سنة ١٩٨٣ عن ٨٥ عاماً.

يقال إن ليديا فيوديوسفنا (تيماشوك) بقيت حتى آخر حياتها مستاءة لتصرفهم حيالها. لكن بدلاً من الوسام الذي تم انتزاعه منها، تم منحها وساماً آخر، هو وسام الراية الحمراء، الذي يُفترض أن رئيسة عيادة تخطيط القلب في مستشفى الكرملين قد استحقته بالفعل. لكن الشعور بالاستياء بقي مع ذلك، لأن اسمها ترسّخ في وعي الملايين من الناس كرمز للسفالة البشرية. لقد ظهرت في الفترة الأخيرة كتابات عديدة تصور الطبيب تيماشوك ضحية بريئة للظروف، إلا أن ذلك يبدو أنه نصف الحقيقة، لأن ليديا فيودوسفنا حين بعثت برسالتها إلى الجنرال ـ ليتنانت فلاسيك (ليس إلى ستالين!) ما كان بوسعها إلا أن تعرف كيف سينعكس الأمر على الأطباء المعروفين. ويكفي أن ننظر إلى الصورة التي تبدو فيها تيماشوك سعيدة وهي تتسلّم الوسام، حتى تزول كل الشكوك حول العذاب الداخلي الذي تعانيه. لقد كانت تلك لحظة سعيدة، بالفعل، بالنسبة لموظف في مستشفى الكرملين، كان مجهولاً حتى تلك اللحظة.

كما ابتسم الحظ كذلك لشخص آخر مجهول هو الليتنانت ـ كولونيل ميخائيل رومين، المحقق في قسم التحقيقات بالقضايا الاستثنائية في وزارة أمن الدولة (MGB) بالاتحاد السوفياتي. فقد نشط في المشاركة، شأن سيده أباكوموف، بالتحقيقات التي أُجريت مع البروفسور أتينغر، الذي تم اعتقاله في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠. ولم تمض سوى بضعة أشهر، حتى كان زعيم وزارة الأمن (MGB) نفسه قد اعتقل. وقد استُخدمت وشاية الكولونيل رومين حجة لاعتقاله. وكما هي العادة، لم يرفضوا في اللجنة المركزية الإشارة الواردة إليهم، وأبلغوا ستالين بأمر الرسالة.

من الصعب أن يصدّق المرء أن محققاً بسيطاً يُقدِمُ من تلقاء نفسه على مثل هذه الخطوة الجريئة. فمما لا شك فيه، أن فكرة «فضح» أباكوموف نفسها قد ولدت في ساحة «ستارايا بلوشاد». أما رومين هذا، فقد استخدموه، بكل بساطة. وما كان لهذا المحقق اليقظ أن يستاء، إذ سرعان ما تمت ترقيته إلى رتبة كولونيل، وأصبح رئيس قسم التحقيقات في القضايا الخاصة في وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي، ومن ثم نائباً للرفيق إيغناتيف نفسه، الزعيم الجديد لوزارة أمن الدولة. انتهى صعود رومين مع إقفال «ملف الأطباء» الذي كانت له يد فيه. فقد تم اعتقال رومين بعد وصول والدي إلى وزارة الشؤون الداخلية (MVD). وفي ٤ نيسان/إبريل ١٩٥٣ أذاع الراديو عدة مرات البلاغ التالي لوزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي:

«قامت وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي بمراجعة دقيقة لكافة الوثائق المتعلقة بالتحقيق الأولي وبالمعطيات الأخرى حول مجموعة الأطباء الذين اتهموا بالتخريب وبنشاطات أخرى تجاه رجالات الدولة السوفياتية الناشطين. وقد ثبت نتيجة المراجعة أن البروفسور فوفسي والبروفسور فينوغرادوف والبروفسور كوغان والبروفسور أتينغر والبروفسور يغوروف قد تم اعتقالهم من قبل وزارة أمن الدولة السابقة دون أي سند قانوني.

وقد أثبتت المراجعة أن الاتهامات، التي سيقت ضد الأشخاص المذكورين أعلاه كانت مزوّرة، والمعلومات الموثقة التي استند إليها المحققون لا أساس لها من الصحة. فقد حصل عليها العاملون في قسم التحقيقات، في الوزارة السابقة لأمن الدولة، باستخدام وسائل ممنوعة في التحقيق تحظّرها القوانين السوفياتية حظراً صارماً.

استناداً إلى قرار لجنة التحقيق التي شُكّلت خصيصاً من قبل وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي لمراجعة هذه القضية، فقد تمت إعادة الاعتبار كلياً إلى المتهمين والأشخاص الآخرين الذين استهدفتهم هذه القضية في التهم الموجهة إليهم حول التخريب والإرهاب والنشاط التجسسي، وتم إخلاء سبيلهم بموجب

البند الخامس من المادة الرابعة من قانون العقوبات في جمهورية روسيا الاتحادية السوفياتية. أما الأشخاص المسؤولون عن الإجراءات الخاطئة في التحقيق، فقد تم اعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة».

بعد مرور أربعين سنة، تحدث ياكوف أتينغر، الدكتور في العلوم التاريخية، ابن البروفسور أتينغر، الذي توفي في سجن ليفورتوف، عن لقاءاته عام ١٩٧٠ مع العضو السابق في المكتب السياسي نيكولاي بولغانين، قائلاً: «اعتبر بولغانين أن ستالين وماليكوف وسوسلوف هم الذين كانوا يقفون بشكل أساسي وراء تنظيم «قضية الأطباء»، ووراء العمليات التي كان يُزمع القيام بها ضد اليهود، وكانت «تساعدهم»، بحسب قوله، مجموعة من المسؤولين الحزبيين والحكوميين في ذلك الحين. وسألته، مَن بالتحديد، ابتسم وأجاب: «هل تريد أن أسمّي عدداً من قادة البلاد الحاليين؟ إن الكثيرين من أشخاص العام ١٩٥٣ لا يزالون يلعبون دوراً رئيسياً حتى الآن. أريد أن أموت بهدوء».

يبدو أن أولئك الناس الذين تحدث عنهم بولغانين قد بذلوا ما بوسعهم لكي تنسى البلاد مَن المسؤول عن اضطهاد العلماء الأطباء السوفيات المعروفين، ومَن وضع نهاية «لقضية الأطباء». وكما كانت الحال دائماً، فقد كان بيريا والقيادة الحزبية العليا آنئذٍ، في الخمسينيات، على طرفي نقيض، وهو الأمر الذي لن يغفروه أبداً لوزير الداخلية الجديد...

مقتطفات من كلمة عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي، وزير دفاع الاتحاد السوفياتي ن. أ. بولغانين في اجتماع تموز/يوليو (العام ١٩٥٣) الموسّع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي:

"أيها الرفاق، شاع كلام عن دور إيجابي مزعوم لبيريا في عمله على إطلاق سراح الأطباء، وفي تصفية قضية جورجيا، وتصفية قضية شاخورين ونوفيكوف وقضية الماريشال ياكوفلوف. ينبغي تعريته هنا أيضاً. فليس له من دور إيجابي أبداً في هذه القضايا. بل على العكس، فقد تم كل ذلك لخلق انطباع بأنه محبوب من قبل الناس".

منطق بلشفي لا يدحض...

وبالمناسبة، حول قضية شاخورين ونوفيكوف وياكوفليف، أقول:

في ربيع ١٩٤٦، قامت المديرية العامة لمكافحة الجاسوسية (SMERSH)، التي كان يترأسها أباكوموف، باعتقال وزير صناعة الطيران في الاتحاد السوفياتي أ. إ. شاخورين،وقائد القوات الجوية في الجيش السوفياتي أ. أ. نوفيكوف، وعدداً من العاملين القياديين في صناعة الطيران وممثلي القيادة العليا في القوات الجوية. ووجّهت إليهم جميعاً تهمة التخريب المتعمّد. فقد زُعم أن بعض هؤلاء كان يزوّد الطيران الحربي السوفياتي بطائرات لا تتمتع بالمواصفات المطلوبة، وبعضهم الآخر كان يقبل هذه الطائرات. وقد أصدرت الغرفة العسكرية في المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٦ نفسه أحكاماً على «المخربين» بالسجن لفترات طويلة. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١، أُحيل إلى المحاكمة كل من ماريشال المدفعية، نائب وزير الحربية ن. د. ياكوفليف، ورئيس المديرية العامة للمدفعية الجنرال- كولونيل إ. إ. فولكوت ـ روبنكو،ونائب وزير التسلح إ. أ. ميرزاخانوف. وفي شباط/فبراير ١٩٥٢ تم توقيفهم جميعاً.

في ٢٧ نيسان/إبريل ١٩٥٣، وجّه والدي مذكّرة إلى هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي تتضمّن اقتراحاً بإخلاء سبيل ماريشال المدفعية ن. د. ياكوفليف والأشخاص الآخرين الواردة أسماؤهم في ملف القضية بوصفهم موقوفين دون أي أساس لتوقيفهم. وفي أيار/مايو تم وقف الدعوى الجنائية على مفوض الشعب أ. إ. شاخورين وقائد القوات الجوية أ. أ. نوفيكوف والرفاق الآخرين لغياب عنصر الجناية. وبعد مضي سنوات عديدة، وجدت الأجهزة الحزبية نفسها مضطرة أخيراً للاعتراف رسمياً بدور بيريا في إطلاق سراح جميع هؤلاء الناس، ونُشرت الوثائق المتعلقة بهذا الأمر.

وفي ١٠ نيسان/إبريل ألغت هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، كما هو معروف، قرارها حول «قضية مينغريلي». وهكذا، تم مع مجيء والدي إلى الوزارة الموحدة للشؤون الداخلية في ربيع ١٩٥٣ عمل

الكثير، في الحقيقة. لكنهم لم يتيحوا الفرصة له لإنجاز إعادة الاعتبار الجماعية للناس الذين استهدفهم القمع قبل الحرب وبعدها.

قرأت غير مرة أن والدي قد تميز طوال حياته بتطرفه في معاداة السامية. لكن مع هذا، تؤكّد المصادر الغربية، أنه أنشأ مع ميخوإلس، أثناء الحرب، اللجنة اليهودية المعادية للفاشية لإقامة علاقات مع المنظمات اليهودية العالمية. ويعتبر المؤرخ الفرنسي المعروف نيكولاي هرت، مثلاً، أن:

"الفرضية حول المؤامرة اليهودية العالمية كان يمكن أن تستخدم كذلك ضد بيريا. وبالتالي، كان من المحتمل جداً في مثل هذه الحالة، ليس فقط ألا يشارك بيريا في الإعداد لحملة التطهير الدورية هذه، بل أن يصبح هو نفسه ضحيتها مع القادة الآخرين، الذين كانوا موضع اهتمام خاص من قبل ستالين، بمن فيهم مولوتوف (زوجته اليهودية كانت منفية) وفوروشيلوف وميكويان. لكن، في الوقت الذي كانت تنضج فيه الفكرة التي كانت تنكّر بأسوأ أيام يجوف (EJOV) حول المؤامرة الواسعة، التي يعدها المثقفون واليهود والعسكريون وكبار قادة الحزب والمسؤولين الاقتصاديين، وكذلك النخبة الحزبية الاقتصادية في الجمهوريات غير الروسية، أصيب ستالين ليل الأول من آذار/مارس ١٩٥٣ بنزف دموي في الدماغ...".

كانت معاداة السامية تثير لدى والدي، كما لدى أي شخص مستقيم، شعوراً بالتقزز. وهذا أمر مفهوم للغاية. وأعتقد أن تعاطفه، بل تعاطفه العميق مع اليهود يعود، وبالدرجة الأولى، إلى معرفته الجيدة لهم. فقد كان هؤلاء موجودين بكثرة في المخابرات وفي حقل التقنيات، أي في المجالات التي عمل فيها طوال حياته. ومن هنا ينبع احترامه العميق لليهود. وكان يشغل هؤلاء في ظل والدي مناصب رفيعة للغاية، وهو ما لم يسمحوا لهم به بعد وفاته... كان رايخمان وميلشتاين مثلاً، مسؤولَي مديريات كبرى. وأعرف أن عدداً من العمليات الكبرى التي قامت بها المخابرات السوفياتية في الخارج كان يقف وراءها يهود أيضاً. إنني لا أفضح أي سر، بل أتحدث عن أمور معروفة للجميع. واتهام والدي بمعاداة السامية ما هو إلا واحد من اتهامات عديدة. فلو كانت الظروف تطورت على نحو مغاير قليلاً، لكانوا اتهموه، وبنفس الحماسة،

بالعمالة للصهيونية العالمية. وكانت الأمور، بالمناسبة، تتجه فعلاً نحو ذلك... فقد كان والدي صاحب المبادرة بإنشاء اللجنة اليهودية المعادية للفاشية. ولست أنكر بأن عدداً من الشخصيات البارزة المرتبطة بالصهيونية كان مرتبطاً بوالدي أيضاً. وهذا لا يعني أن هؤلاء جميعاً كانوا يعملون للمخابرات السوفياتية، بل كانوا يقومون بمهام كانت مفيدة جداً للحركة الصهيونية وللاتحاد السوفياتي على السواء في تلك المرحلة. وكان والدي يعتبر أن مثل هذه المساومات أمر مقبول للغاية، سيما وأن كل شيء كان يتم علناً وبموافقة اللجنة المركزية. وكان هؤلاء مكرهين على الموافقة على هذه السياسة، سواء كان ذلك يعجب الجهاز الحزبي أم لا. لكن اللجنة المركزية هذه بدأت، وبمشاركة نشيطة من قبل ستالين، انتهاج سياسة أكثر مواءمة للقيادة الحزبية العليا، سياسة الاعتقالات والاستفزازات والاغتيالات السياسية، كما حدث لميخوإلس مثلاً. وقد سمّى والدي فيما بعد المسؤولين عن ذلك في مذكرته إلى اللجنة المركزية.

كان والدي من أوائل الذين دعموا إنشاء دولة إسرائيل. وكان يعلّل موقفه هذا بأن عدداً كبيراً من اليهود، بمن فيهم المثقفون التقنيون، منتشرون في جميع أنحاء العالم، ومن صالح الاتحاد السوفياتي جعل جميع هؤلاء حلفاءه. وكان والدي يعتبر أن إنشاء دولة إسرائيل، التي حلم بها الشعب اليهودي على مدى قرون، هو فعل استعادة للعدالة التاريخية، ومساندة الاتحاد السوفياتي سوف تُستقبل بامتنان. فكما ترون، كانت تتوفر الأسباب لإعلان والدي عميلاً للصهيونية العالمية...

لم يميّز والدي يوماً بين الناس تبعاً لانتمائهم القومي. فقد كان الأمر سيّان بالنسبة إليه سواء كان المرء روسياً أم يهودياً، أم أوكرانياً أم جورجياً. إلا أنه كان يوجد الكثير من اليهود وسط المقرّبين إليه، أمثال فانيكوف. فانتماؤه اليهودي لم يمنعه من أن يصبح في حينه جنرال ـ كولونيل ووزيراً وبطل العمل الاشتراكي ثلاث مرات. كما لم يمنع هذا الانتماء سلافسكي أيضاً من المساهمة النشيطة في المشروع النووي، إضافة إلى أنه كان وزيراً لصناعة الآلات المتوسطة في الاتحاد السوفياتي. لقد كانت الأممية حقيقية آنذاك، ولم تتحول إلا لاحقاً إلى مجرّد كلام لا غير...

لكن كان يوجد في قيادة الكرملين آنئذٍ أشخاص متطرّفون في عدائهم للسامية من أمثال اندريه جدانوف وابنه، رئيس قسم العلوم في اللجنة المركزية. ولم يكن هذان يخفيان قناعتهما قط.

كما كان خروتشوف راسخاً في معاداته للسامية أيضاً، ولم يكن يرى أن عليه هو الآخر أن يخفي ذلك. أما مالينكوف، فمن المحتمل أنه لم يكن كذلك، فهو على الأقلّ لم يصرح بذلك علناً. لكن ثمة حادثة أذكرها جيداً. فقد وقعت ابنة مالينكوف، وهي فتاة رائعة اسمها فوليا، في حب شاب طيب، أعتقد أن عائلته كانت شترنبرغ. وكان والده رئيس قسم في اللجنة المركزية. حين بدأت المعاداة الشرسة للسامية تشتد، أصرّ مالينكوف على طلاقهما...

وهكذا تماماً أجبر ستالين ابنته سفتلانا على الافتراق عن غريشا ماروزوف، الذي كان إنساناً رائعاً. وهو لا يزال حياً يرزق، بالمناسبة، وبصحة جيدة، حتى الآن.

كان قد تزوّج سفتلانا حين تخرج من معهد العلاقات الدولية وبدأ العمل في وزارة الخارجية. وكنا، أنا ووالدي، نتعامل معه تعاملاً جيداً للغاية. كنا نسانده ما وسعنا الأمر حتى بعد طلاقه من سفتلانا. فقد تم اعتقال أسرته بكاملها وحلّ وقت عصيب عليه. لقد كان شخصاً نزيهاً مستقيماً، لم يقدم على أي عمل سيّىء حتى يتحول من صهر رئيس الدولة إلى طريد. لكن بيتنا بقي، كما كان في السابق، مشرع الأبواب له. دخل علينا مرة وحدثنا أن يوري جدانوف، زوج سفتلانا الجديد، قد استدعاه إليه. قال غريشا ممتعضاً:

ـ اقترح عليّ هذا السافل، وبشكل وقح، أن أغادر موسكو، أجبته أنا: اسمع، أنا أفهم بأنك صاحب منصب كبير، لكن ماذا تريد مني؟ إنني لم أعد أقابل سفتلانا، أما أين أعيش فما علاقتك بالأمر؟

لم يكن بوسع ماروزوف أن يتحدث بهذه اللهجة مع جدانوف الأصغر، إلا لأنه لم يفقد الصلة بأسرتنا...

لم يكن ستالين معادياً للسامية، وإن كان قد سمح بحدوث أمور مماثلة،

بل وحث على بعضها. لقد كان ذلك أقرب إلى اللعبة السياسية من جانبه. فجميع القادة، سواء الذين أتوا قبله أو بعده، استخدموا الورقة اليهودية بمثابة صمّام لتنفيس الاحتقان، وليس في روسيا وحدها. فثمة شعب مسؤول عادة عن جميع المصائب، كما يقال... ولم يصمد ستالين في تلك الفترة أمام إغراء اتهام اليهود مرة أخرى بجميع المشاكل. أما القيادة الحزبية العليا، فقد أجادت، كما هي الحال دائماً، اللعب جيداً على الموضوع. وفي الوقت نفسه كان يوجد دائماً في سكرتارية ستالين وبين المحيطين به عدد غير قليل من اليهود، وهو أمر لم يكن يحرجه قط. فلنتذكر ميخوإلس وكاغانوفيتش...

بدأت اللجنة اليهودية المعادية للفاشية، التي أنشئت بمبادرة من والدي، نشاطها في مطلع العام ١٩٤٢. وكان يترأسها فنان الشعب في الاتحاد السوفياتي س. ميخوإلس. في نهاية العام ١٩٤٦، تقدمت اللجنة المركزية باقتراح لإلغاء اللجنة اليهودية. كما تولت وزارة أمن الدولة (MGB) أيضاً أمر اللجنة المعادية للفاشية. وقد تم استدعاء مجموعة كبيرة من الأشخاص في إطار قضية اللجنة اليهودية، وكان بين هؤلاء سكرتير اللجنة الشاعر إسحق فيفيرا، والأكاديمي لينو شتيرن، مدير معهد الفيزيولوجيا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية، والشاعر بيريز ماركيش، والطبيب الرئيسي في مستشفى بوتكين المركزي بوريس شيميليوفيتش، والصحافي ليونا تالمي، وكثيرون سواهم. وقد حكمت الغرفة العسكرية في المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي آنئذٍ على ١٣ شخصاً بالإعدام رمياً بالرصاص.

بعد مرور ما يقرب من أربعين سنة على ما جرى، قالت لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي جزءاً من الحقيقة وليس كلها: «إن الحجة المباشرة لإقامة دعوى على قادة اللجنة اليهودية المعادية للفاشية كانت إفادة كبير الباحثين العلميين في معهد الاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية إ. إ. غولدشتاين، الذي اعتقل في ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، وإفادة كبير الباحثين العلميين في معهد الأدب العالمي التابع لأكاديمية

العلوم السوفياتية ز. ن. غرينبرغ، الذي اعتقل في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧. وقد أشار هذان في إفادتيهما، اللتين ثبت أنهما مزوّرتان، وتم الحصول عليهما بوسائل غير مشروعة في التحقيق، إلى نشاط قومي متعصب مزعوم معاد للاتحاد السوفياتي كان يقوم به كل من س. أ. لوزوفسكي وإ. س. فيفر وسواهما من أعضاء اللجنة اليهودية المعادية للفاشية. وقد رفع وزير أمن الدولة ف. س. أباكوموف محاضر التحقيق مع إ. إ. غولدشتاين وز. ن. غرينبرغ، التي تدين الأشخاص المذكورين أعلاه، إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي).

... ثبت أن المسؤولية المباشرة عن القمع غير القانوني بحق الأشخاص المدّعى عليهم بموجب «قضية اللجنة اليهودية للفاشية» يتحمّلها غ. م. مالينكوف الذي كان على علاقة مباشرة بالتحقيقات والمحاكمة. فقد استدعى إليه في ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٤٩ س. أ. لوزوفسكي، وجَهدَ خلال محادثة طويلة حضرها رئيس لجنة الرقابة الحزبية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) م. ف. شكرياتوف أن ينتزع من س. أ. لوزوفسكي اعترافاً بالقيام بنشاط إجرامي. وقد استخدم غ. م. مالينكوف لهذه الغاية رسالة موجهة إلى ستالين منذ ٥ سنوات مضت (١٥ شباط/فبراير ١٩٤٤)، تحمل توقيع كل من س. م. ميخوإلس وش. إبشتاين وإ. س. فيفر (أعضاء اللجنة اليهودية المعادية للفاشية)،ومنقحة من قبل إ. س. لوزوفسكي، وتتضمّن اقتراحاً بإنشاء جمهورية اشتراكية يهودية على أرض القرم. بعد المحادثة قام غ. م. مالينكوف وم. ف. شكرياتوف بوضع مذكّرة موجّهة إلى ستالين تحمل اقتراحاً بإخراج لوزوفسكي من عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) مع الصياغة التالية: «العلاقاته غير الموثوقة سياسياً، وسلوكه غير الجدير بعضو اللجنة المركزية»... لقد ثبت أن التحقيق ترافق مع خرق فاضح للقانون واستخدام وسائل غير مشروعة للحصول على «اعترافات». ومع ذلك أنكر كل من س. أ. لوزوفسكي وإ. س. فيفر وغيرهما، خلال الجلسات الأولى للتحقيق، الاعتراف بالقيام بنشاط معادٍ. لكن الجميع، باستثناء ب. أ. شيميليوفيتش، أجبروا لاحقاً على «الاعتراف» بأنهم مذنبون، وعلى إعطاء إفادات حول النشاط التجسسي والمعادي للسوفيات من جانب أعضاء اللجنة اليهودية المعادية للفاشية...

... لقد كان اتهام الناس الأبرياء وإصدار حكم غير عادل بحقهم أمراً مقراً سلفاً من قبل القيادة العليا (في ٣ نيسان /إبريل ١٩٥٢، رفع س. د. ايغناتييف إلى ستالين القرار الاتهامي مرفقاً باقتراح العقوبة، التي تنصّ على إعدام جميع المتهمين رمياً بالرصاص باستثناء الأكاديمي لينو شتيرن). ويشير أ. أ. تشيتسوف (رئيس المحكمة العسكرية) لاحقاً إلى أنه عرض على غ. م. مالينكوف، الذي استقبله بحضور س. د. ايغناتييف وم. د. رومين، تصوّراً عن ضرورة إجراء تحقيق إضافي بالقضية. إلا أن مالينكوف أجاب: «لقد بُحثت هذه القضية ٣ مرات من قبل المكتب السياسي للجنة المركزية، عليك أن تنفّذ قرار المكتب السياسي» .

مقتطفات من مصادر رسمية:

في الأعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢، وفي إطار ما يسمّى «قضية اللجنة اليهودية المعادية للفاشية»، تم اعتقال أكثر من مئة كاتب وشاعر وعالم وفنان وموظف وحزبي من اليهود ومحاكمتهم بتهمة التجسس والنشاط القومي المتعصب المعادي للسوفيات. وقد حُكم على عشرة أشخاص منهم بالإعدام رمياً بالرصاص، وعلى عشرين بالاعتقال في معسكرات العمل التأديبي لمدة ٢٥ عاماً. أما الآخرون فقد حكم عليهم بالسجن لفترات تراوح بين ١٠ و١٥ عاماً. ويُذكر أن ليسوا كلّهم ظلّوا على قيد الحياة إلى حين ما يسمّى بالمحكمة في اقبية وزارة أمن الدولة (MGB).

لقد ارتكب الحزب البلشفي بحق شعبه قبل الحرب خطايا أكثر بكثير مما ارتكبه بعدها... ومن بين السفالات التي ارتكبها كانت «قضية الأكاديمي فافيلوف[1]». وأعرف أن مصرع هذا العالم البارز يلصقونه بوالدي أيضاً. أما ما حدث في الواقع، فأعتقد أن القارئ يهتم بمعرفته. لم يُحكم على نيكولاي إيفانوفيتش بالإعدام رمياً بالرصاص من قبل "الترويكا" الشهيرة، كما يكتبون أحياناً، بل من قبل المحكمة العليا. كانت والدتي تعمل في الأكاديمية الزراعية،

(١) نيكولاي إيفانوفيتش فافيلوف (١٨٨٧-١٩٤٣): عالم بيولوجي، عضو أكاديمية العلوم السوفياتية منذ العام ١٩٢٩، مؤسس العلم الحديث حول أسس التأصيل البيولوجي وحول مراكز نشوء النباتات المزروعة في العالم - المترجم.

وقد تألّمت بشدة لما حدث للأكاديمي فافيلوف. ومن الطبيعي أن هذا الموضوع كان يناقش في أوساط العلماء، وفي منزلنا كذلك. وفي إحدى المرات، وبعد حديثنا في هذا الموضوع، طلبت والدتي من والدي، ليس باسمها وحدها، بل باسم زملائها أيضاً، عمل شيء ما. وجرى إثر ذلك لقاء بين والدي وبين الأكاديمي برياتشنيكوف وبعض العلماء الآخرين القلقين على مصير نيكولاي إيفانوفيتش. وأعرف أن الحديث كان طويلاً، ووعد والدي العلماء بمساعدة الأكاديمي فافيلوف بشكل من الأشكال، علماً أن حكم المحكمة العليا كان قد تم توقيعه.

للأسف، لا يرغبون حتى اليوم في الاعتراف بأن الأمور لم تكن على وضوح تام في قضية فافيلوف. وقد اقتنع والدي بذلك بعد أن طلب إحضار الملف إليه. وأعرف مما حدّثني به والدي أنه لم يكن يشكّ في نزاهة نيكولاي إيفانوفيتش، لكن التحقيق كان يتضمن حججاً يستحيل دحضها. فمن المعروف أن الأكاديمي فافيلوف قد طاف حول العالم بأسره وهو يجمع مجموعته الشهيرة من الحبوب. لم يقم بأية نشاطات معادية للدولة، إلا أن التحقيق أثبت أنه كان يوجد أشخاص معادون علناً للسلطة السوفياتية وسط الناس الكثيرين الذين اختلط بهم الأكاديمي. لم يتمكن نيكولاي إيفانوفيتش من نفي ما كان وارداً في الوشايات المكتوبة. فقد تشابكت الظروف على نحو مشؤوم بالنسبة لهذا الرجل النزيه. ومع ذلك تمكّن والدي من تخفيف الحكم على الأكاديمي فافيلوف، إضافة إلى أنه كان الحكم الأول، على ما أعرف، الذي لم يتعجلوا في تنفيذه. وحين سنحت أول فرصة مناسبة تمكّن والدي من التوصل إلى تخفيفه، دون أن يتطرق الحديث، للأسف، إلى إلغائه كلياً. لكن والدي لم يفقد الأمل بإطلاق سراح فافيلوف. ولكي يتمكن نيكولاي إيفانوفيتش من البقاء على قيد الحياة حتى إطلاق سراحه، قرر والدي نقله إلى أحد المعاهد السرية. فالمهم كان هو انتزاعه من السجن. غير أن العَالِم أُصيب، للأسف، بمرض شديد وتوفي.

أصيبت والدتي بحزن شديد لما حدث، وكان لها مع والدي حديث قاس بالنسبة للطرفين. فقد كان العاملون مع والدتي يحبون فافيلوف جداً، ومع أن معظمهم كان يدرك جيداً، أن ليس والدي من اعتقل العالم وحاكمه، إلا أن

وضعها النفسي كان أكثر صعوبة من وضع الآخرين. وكان والدي هو الآخر متكدّراً، بالطبع، وتوجه إليها قائلاً:

ـ أنت تعرفين أنني أستطيع أن أؤثر على بعض الأمور، لكن حتى مفوض الشعب لا يستطيع أن يُلغي قرار المحكمة العليا. لقد فعلت ما بوسعي، وأنت تعرفين أن فافيلوف لم يُعدم. إن القصص المشابهة، يا نينا، هي، للأسف، كثيرة وكثيرة جداً...

أعرف من والدي أن تروفيم ليسنكو الشهير لعب دوراً مؤذياً في «قضية الأكاديمي فافيلوف».

مقتطفات من مصادر رسمية:

تروفيم ليسنكو: ولد في قرية كارلوفكا (أوكرانيا) في العام ١٨٩٨. درس في مدرسة البستنة وفي الكلية الزراعية في كييف.

عمل في محطة بيلوتسيركوفسكايا التجريبية وفي معهد القطن في أذربيجان. ظهر في الحقل العلمي في أواخر العشرينيات، حين راح يثبت أن التجارب التي قام بها تضمن زيادة محاصيل الحبوب بفضل الزراعة الربيعية. فقد كان ليسنكو يقترح نقع بذور الزراعات الشتوية التي تمتاز بعدم تأثرها بتقلبات الحرارة وبذرها كزراعات ربيعية.

سرعان ما أصبح اسم المهندس الزراعي من بولتافا (ليسنكو) معروفاً في طول البلاد وعرضها، علماً أن فكرة ليسنكو نفسها لم يجر التحقق منها في الواقع. وقد مُنح المهندس الزراعي المُجدِّد وسام الراية الحمراء للعمل، وأصبح في العام ١٩٣٤ عضواً في أكاديمية العلوم في أوكرانيا، وفي العام ١٩٣٥ عضواً في أكاديمية لينين للعلوم الزراعية في الاتحاد السوفياتي. ومهما بدا الأمر غريباً، فإن نيكولاي ايفانوفيتش فافيلوف كان بين الأشخاص الذين دعموا بحماس المهندس الزراعي المجدد.

مسؤول عن تدمير البيولوجيا السوفياتية وتدمير مصير علماء كثيرين في البلاد. بطل العمل الاشتراكي، حائز جائزة ستالين ثلاث مرات، مُنح وسام لينين ٨ مرات.

توفي الرئيس الأسبق لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية تروفيم ليسنكو العام ١٩٧٦ عن ٧٨ سنة.

لم أسمع من والدتي كلمة طيبة واحدة عن ليسنكو، وكانت عالِمة أغروكيمياء درست في مدرسة الأكاديميين فافيلوف وبريانشنيكوف. وكان علماء أكاديمية تيميريازيف[1] متفقين في الرأي حول ليسنكو: مغامر، وأفكاره علم كاذب. فهو لم يكن سوى واحد مما كانوا يُسمّون بالأكاديميين الشعبيين، الذين كانوا يضعونهم في مواجهة العلماء الحقيقيين. هكذا كان في ظل ستالين، وهكذا كان في ظل خروتشوف كذلك، وهو أمر طبيعي للغابة، حيث يسود المنطق اللاعلمي. إن مسؤولية ليسنكو عن المصير المأساوي للأكاديمي فافيلوف وللكثيرين سواه من العلماء السوفيات مسؤولية واضحة للعيان. ومع أن ستالين كان يدعم ليسنكو، إلا أن اللوم لا يقع عليه وحده، إذ ظل «الأكاديمي الشعبي» يحظى بالدعم من قبل خرونشوف.

إن ما حدث للأكاديمي فافيلوف حدث ما يشبهه تماماً بعد الحرب، إذ بفضل والدي لم يتم إعدام عالم الجينات الروسي البارز نيكولاي تيموفييف - ريسوفسكي، الذي يتذكره معظم القراء من خلال رواية دانييل غرانين[2] "الثور الوحشي".

كان تيموفييف ـ ريسوفسكي في ألمانيا خلال الحرب، وكان كعالم كبير يترأس مختبراً هناك. في العام ١٩٤٥ أحضِر إلى الاتحاد السوفياتي، وحُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. كان يقضي عقوبته في ظل ظروف مقبولة، قبل أن ينقل إلى مختبر خاص في جنوب الأورال في سونغو. وكان هذا المكان في يوم من الأيام منتجعاً لوزارة الداخلية، تم تحويله لاحقاً إلى مركز تابع للمشروع النووي. ويشير نيكولاي فلاديميروفيتش نفسه في مذكّراته إلى أن المكان كان رائعاً، ويقع على شاطئ بحيرة بديعة. وقد نشرت إحدى الصحف، منذ مدة قريبة، حديثاً شفهياً لتيموفييف ـ ريسوفسكي سجّله زملاؤه في وقت سابق، ويقول فيه، إن وضعه الرسمي كسجين لم يحل دون أن يكون لديه طباخ وخياط، وأن يخضع

(١) هي نفسها أكاديمية لينين للعلوم الزراعية التي كان يرأسها ليسنكو - المترجم.

(٢) كاتب روسي عائلته الحقيقية (غيرمان) اشتهر برواياته التي تتحدث بأسلوب شاعري عن رجالات العلم، نال جائزة الدولة في العام ١٩٧٨ - المترجم.

له حوالى خمسين اختصاصياً ليسوا سجناء وخمسة وعشرون شخصاً أجنبياً. وإذ أتحدث أنا عن ذلك، فليس لأزيّن بالطبع، وضعَ المرء سجيناً (أعرف من تجربتي الشخصية ماذا يعني ذلك)، بل لأقول إن مثل هذا «السجن»، الذي كُتب عنه الكثير، قد أنقذ في تلك الظروف حياة الكثيرين من الناس. وليست قصة تيموفييف ـ ريسوفسكي إلا واحداً من الأمثلة على ذلك.

تجدر الإشارة إلى أن تيموفييف - ريسوفسكي لم يكن الوحيد الذي قضى الحرب كلها في ألمانيا، بل ثمة علماء كثيرون تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الألمان وأحرزوا نتائج لا بأس بها. ومن المفهوم أنه في العام ١٩٤٥ كان بوسعهم تعليق هؤلاء جميعاً على أعواد المشانق، أو إعدامهم رمياً بالرصاص. وكانت الأسباب متوفرة: العلاقة مع العدو، وكان هذا وحده سبباً كافياً لذلك. كما أن الجهاز الحزبي كان على استعداد للتنكيل بكل واحد منهم، لو لم يكن يوجد أشخاص آخرون يفكّرون بالمستقبل. فهؤلاء العلماء بوسعهم أن يكونوا مفيدين للبلاد. هكذا على الأقل كان يعتبر والدي، حين كان يبرهن أن تيموفييف ـ ريسوفسكي وسواه ينبغي إفساح المجال أمامهم للعمل وليس معاقبتهم. وعلى ما أعرف، فإن «الثور الوحشي» (تيموفييف ـ ريسوفسكي) قد عمل بنزاهة وإخلاص وحقق الكثير في الحقل العلمي.

لم تتميز الهيئات الحزبية يوماً بالعقلانية، وقد تكون قصة العالم ليونيد كونستانتينوفيتش رامزين نموذجاً لذلك. ففي العام ١٩٤٣ مُنح هذا العالم جائزة ستالين، وكان يعمل في حقل صناعة القاطرات، ويسبق زملاءه بعشرات السنين، وكان أحد مؤسسي المعهد التقني الحراري وأول مدير له. في الثلاثينيات جرت محاكمة هذا العالِم في إطار «قضية الحزب الصناعي»، وتم الحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص. كم من القصص المشابهة لهذه القصة!

لقد كُتب الكثير عن تهجير شعوب الشيشان والأنغوش والكلميك وتتر القرم، لكن لم تُكتب كلمة واحدة عن مشاركة جدانوف وخروتشوف والجهاز الحزبي ككل في هذه السفالة. من خطَّط لكل ذلك ومن أعطى الأوامر؟ لقد بات معروفاً أن القرار تم اتخاذه في المكتب السياسي. وحين بدأت مناقشة

مسألة التهجير، لم يتمالك والدي نفسه، وهو الذي كان يتحفظ دائماً في كلامه في حضور جمع كثير من الناس، وقال لأحد المنفذين النشيطين لهذه السياسة السافلة، وهو شيرباكوف، كل ما يدور في خاطره عن تهجير شعوب القفقاز:

ـ إنك لأبله، ألا تفهم أنهم يستخدمونك كشخص أحمق؟!

لن أسرد هنا، بالطبع، كل الحديث الذي جرى، لكنني أعتقد بأن جوهره مفهوم. إن أشد ما أثار استياء والدي هو قرار القيادة الحزبية الإقدام على هذه السفالة بعد أن تم طرد الألمان من القفقاز. فقد انتفت الحاجة الآن إلى السكان المحليين الذين وقفوا مع وحدات الجيش ذوداً عن القفقاز. وقد وقف والدي رسمياً ضد إجلاء هؤلاء الناس. وزاره في تلك الأيام عدد من القادة من تلك المناطق ممن شاركوا، أيضاً، في الدفاع عن القفقاز. وكان والدي يعرفهم جيداً، فقد نظموا هذا الدفاع سوية في العام ١٩٤٢. قال والدي بصراحة:

ـ الأمر الوحيد الذي بوسعي القيام به هو إنقاذ أسركم على الأقل، فالمكتب السياسي لم يدعمني...

رفض هؤلاء الاقتراح وجلوا مع أبناء شعبهم...

إنها لمأساة رهيبة. لقد حدثني لاحقاً قادة بعض الوحدات، التي أجبرت على المشاركة في ذلك، كيف استقبل الضباط والجنود هذا الأمر. لكن ما باليد حيلة، فالأمر هو الأمر! إن مناقشة مثل هذه المواضيع أمر ممكن في أيامنا هذه، لكن هذه الوحدات كانت في تلك الأيام مجبرة على الانصياع لقرار القيادة الحزبية العليا. فإذا كان لا بُدّ من المساءلة فلن تكون لهذه الوحدات...

لكن لو قرأتم الوثائق التي نُشرت في السنوات الأخيرة والمتعلقة بالتهجير، لوجدتم أن جميع الأوامر الصادرة والبرقيات والمذكرات ليست موقعة إلا من قادة مفوضية الداخلية (NKVD) ومفوضية أمن الدولة (NKGB) ورؤساء مديريات هاتين المفوضيتين. ويدور الحديث فيها عن عدد القطارات التي تم تخصيصها لتنفيذ التهجير والوحدات العسكرية التي ترافقها. وقد وقّع هذه الوثائق والدي وكروغلوف وميركولوف وسواهم. وأكرر القول إنه يتم نشر هذا كله على

نطاق واسع، ولم أصادف سوى مرة واحدة مذكّرة والذي إلى كل من ستالين ومولوتوف بتاريخ ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٤٤: «بناء على المرسوم الصادر عن هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، وعلى القرار الصادر عن مجلس مفوضي الشعب بتاريخ ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر، قامت مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي بتنفيذ عملية إجلاء الأشخاص الذين ينتمون إلى القومية الكلميكية إلى مناطق البلاد الشرقية».

"بناء على المرسوم..." لكن المؤرخين، كقاعدة عامة، يحاولون أن يختاروا للنشر تلك البلاغات الواردة باسم مفوض الداخلية بيريا أومفوض أمن الدولة ميركولوف، فحسب. ولذلك يتولد الانطباع بأن الذين يقفون وراء هذا العمل السافل كانوا يجلسون في لوبيانكا وليس في اللجنة المركزية. وكما لاحظتم، فإن الحزب قد تستّر هنا أيضاً بمرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى وبالأمر الصادر عن مجلس مفوضي الشعب. أما قرار المكتب السياسي الذي أطلق عملية طرد شعوب بكاملها من مواطنها الأصلية، فلا تُقال فيه كلمة واحدة. وتم وضع الأجهزة التأديبية في الواجهة، كما هي الحال دائماً.

حين بدأت منذ عدة سنوات عملية تشنيع شاملة بالأجهزة الأمنية والبوليس، كان الحزب يصبّ الزيت على النار من خلال الكشف بين الحين والآخر عن هذه الوثائق أو تلك، على غرار تلك المرتبطة بالتهجير. وتشكّل الرأي العام على النحو الذي يتفق مع هذه الصورة. هذا في حين تم تكتّم شديد على علاقة الكي. جي. بي (KGB) بالحزب. ولم يتم الكشف عن الوثائق التي تبيّن أنهم ما كانوا في لوبيانكا يقومون إلا بما كانت تجبرهم ساحة ستارايابلوشاد على القيام به. فلم ترغب القيادة الحزبية العليا في التخلّي عن المقولة القديمة التي فُرضت على البلاد: لقد خرجت الأجهزة عن طوق المراقبة.

كم من الكلمات المحقّة قِيلت في استنكار الاغتيالات السياسية التي قام بها رجال التشي. ك(Sh.K).. فالاغتيالات السياسية لا يجوز تبريرها، لكن من أعطى الأمر باغتيال تروتسكي وستيبان بانديرا، مثلاً؟ في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٩ قام بوغدان ستاشينسكي العامل في الكي. جي. بي بقتل زعيم

المتعصبين القوميين الأوكران ستيبان بانديرا في ميونيخ. من أمر بذلك؟ يكتبون أن الكسندر شيليبين رئيس الكي. جي. بي آنئذٍ هو الذي أمر بالقيام بهذه العملية. هذا غير صحيح، إذ لا يمكن لأي قائد للأجهزة الأمنية أن يأخذ على عاتقه مثل هذا الأمر. لقد ظهر فيما نُشر مؤخراً أن قرار «التخلّص» من بانديرا اتّخذ من قبل السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي نيكيتا سيرغينتش خروتشوف. لكن هذا الأمر قد أثبت منذ ٣٠ سنة مضت، وذلك في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٢ خلال محاكمة ستاشينسكي في مدينة كارلسروه في ألمانيا الاتحادية. وقد نال عقوبة خفيفة نسبياً اقتصرت على عدة سنوات من السجن، وذلك لأن المحكمة ألقت المسؤولية الأساسية عما حدث على القيادة السوفياتية. ولم يكن في الأمر ما يمكن التكتم عليه، إذ مُنح قاتل بانديرا وسام الراية الحمراء بموجب مرسوم صادر عن هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى.

من منح الشيوعي الإسباني رامون ميركاديرا قاتل ليون تروتسكي وسام بطل الاتحاد السوفياتي؟ وقد تم تسليمه نجمة البطل الذهبية في العام ١٩٦١. أين المنطق في ذلك ؟ الحزب والدولة يدينان الاغتيالات السياسية التي حدثت في عهد عبادة الفرد، ويعمدان في الوقت نفسه إلى إرسال أحد القتلة إلى ميونيخ ويقلّدان الثاني، الذي قضى عقوبة السجن لجريمة ارتكبها، النجمة الذهبية. إنها لسياسة سافلة!

نُفي تروتسكي من الاتحاد السوفياتي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩. وقالت الصحف آنذاك أنه نُفي «بقرار من المجلس الخاص في المديرية السياسية الموحدة (OGPU) بسبب نشاطه المعادي للسوفيات». لكنهم كانوا يكذبون آنذاك أيضاً. فلم يكن بوسع أي «مجلس خاص» أن يتخذ منفرداً مثل هذا القرار، بل أُملي القرار من القيادة العليا، بمن فيها ستالين. ولم يكن ثمة ضرورة للاغتيال السياسي الذي نفّذ لاحقاً. فقد كان تروتسكي قد أصبح مجرّداً من أي تأثير، وإن بقي مثابراً على نضاله ضد زملائه السابقين. وقد تنامى تأثيره بشكل ملحوظ بعد مقتله بالذات. فلو مات تروتسكي ميتة طبيعية لكان قد طواه النسيان منذ زمن بعيد.

لـم يكـن تروتسكي جاسوساً، بالطبع، إلا أنه كان يعيش على نفقة المخابرات الأجنبية، سواء كان يرغب هو في ذلك أم لا. وثمة وثائق تثبت ذلك. ولعل مثل هذا الأمر شيء طبيعي في السياسة، فنحن لا نعتبر لينين جاسوساً ألمانياً، على الرغم من قبوله اقتراح المخابرات الألمانية نقله إلى روسيا.

كان والدي يعرف تروتسكي منذ مطلع العشرينات، حين زار هذا الأخير القفقاز قبل وفاة لينين، كما زاره مراراً فيما بعد. يقول والدي إن تروتسكي كان شخصاً قاسياً وذا طموحات لا حدود لها. ونسمّي هؤلاء أصوليين، كما هو متعارف عليه في أيامنا الراهنة. كان تروتسكي على قناعة مطلقة بصحة آرائه، فلم يكن ليقبل أقلّ من الثورة العالمية.

وقد وصفه والدي بأنه شخص متعجرف جداً، لم يهبط من برجه العاجي ليختلط مع «العامّة». لم يكن تروتسكي، شأن معظم القادة البلاشفة عموماً، يهتم كثيراً بأمر الناس، سوى في المهرجانات. كان يلزمه العالم بأسره، ولعلها كانت تلك غلطته. فلو كان أقرب إلى الجماهير، لما كان بوسع أحدٍ أن يتنبأ كيف كانت ستتطور الأمور في العشرينيات... لكنني أعتقد أن تروتسكي لو كان مكان ستالين، لكان من المؤكد أن فرائص العالم كانت ارتجفت في وقت مبكر أكثر، وعلى نحو أشد هولاً. فقد عرفت من والدي، للمرة الأولى، أن معسكرات الاعتقال أُنشئت بأمر من تروتسكي ومن لينين. ويتحمل تروتسكي المسؤولية عن إعدام عشرات الآلاف من الناس الأبرياء. كما أن مؤسسة القوميساريين هي أيضاً من بدع ليون دافيدوفيتش (تروتسكي)، وكانت تمثّل جهازه القمعي الخاص في الجيش الأحمر. والأمر الذي لا يُصدّق هو أن ستالين، وليس أي شخص آخر، قد ناضل ضد هذه المؤسسة في تلك المرحلة، وهو الأمر الذي يفضّلون عدم تذّكره اليوم. صحيح أن ستالين سار على الدرب نفسها فيما بعد، إلا أنه وقف بحزم ضد اقتراح تروتسكي آنذاك.

استمر الصراع بينهما سنوات وسنوات. وقد فاز ستالين في هذه المبارزة لأنه استند في الصراع إلى "العامة" التي كان تروتسكي ينظر بسخرية

إليها. وحين رأى لاحقاً أن تروتسكي لا يستطيع أن يركن إلى الهدوء، حتى وهو خارج البلاد، أصدر أمره المعروف إلى الأجهزة الأمنية.

يقول ليون تروتسكي في مقالته الأخيرة، التي كتبها عام ١٩٤٠ في "ليبرتي لايبرري كوربوريشن" : إن انتقام التاريخ لأشد هولاً من انتقام أي أمين عام مهما بلغ جبروته".

وإذا بها كلمات نبوءة...

جرت محاولات عديدة لاغتيال تروتسكي يراوح عددها بين ١٠ و١٢ محاولة. وأفترض أن والدي كان، بشكل ما، على علاقة بالأمر، بوصفه مفوضاً للشؤون الداخلية، وذلك لأن المخابرات السوفياتية هي التي كانت تهتم بالأمر. وقامت بواحدة من هذه المحاولات المجموعة التي كان يترأسها الرسام المكسيكي الشهير ديفيد ألفارو سيكيروس. فقد قام مع مجموعته في أيار/مايو ١٩٤٠ بالهجوم على الفيلا التي كان يقطنها تروتسكي، غير أنه تم صد الهجوم.

في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٤٠، تسلل الشيوعي الإسباني رامون ميركاديرا إلى الفيلا، التي كانت تحت الحراسة المشددة، وقدم نفسه واحداً من أنصار تروتسكي البلجيك. وأقدم رامون في مكتب تروتسكي على ضرب القائد المغضوب عليه بمعول لتحطيم الجليد وأصابه بجرح مميت. وقد فارق تروتسكي الحياة في اليوم التالي في المستشفى.

كان منظم هذه العملية هو رجل المخابرات المحنّك الجنرال نعوم أيتينغون. وقد تعرّف إلى ميركاديرا ووالدته أثناء الحرب الأهلية في إسبانيا.

تم اعتقال ميركاديرا وأودع سجن «ليكومتري» المركزي في مكسيكو. وصدر بحقه حكم قضى بموجبه مدة ٢٠ سنة في السجن. وعاش بعد خروجه من السجن في الاتحاد السوفياتي وفي كوبا. وقد دفن في مقبرة كونتسيفا في موسكو تحت اسم رامون لوبيز.

لقد اختلفت مصائر المشاركين في اغتيال تروتسكي وتعددت. فالجنرال أيتينغون تم اعتقاله قبل وفاة ستالين بفترة قصيرة، وأطلق سراحه في العام

١٩٥٣. وبعد مقتل والدي تم اعتقال أيتينغون مرة أخرى، وقضى في سجن فلاديمير مدة ١٢عاماً.

وبموجب مرسوم سرّي لهيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، مُنح يوسف غريغولوفيتش، الذي شارك في إحدى محاولات اغتيال تروتسكي (هاجم مع سيكيروس الفيلا في كويوكان) وسام الراية الحمراء. وفي السبعينيات، انتخب رجل المخابرات السابق عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم السوفياتية، واشتهر بوصفه عالِماً متخصصاً بشؤون أميركا اللاتينية، ومؤلف عدة كتب في سلسلة «حياة العظماء» عن تشي غيفارا وسلفادور ألندي وبوليفار. وقد سمعت بأنه حارب في إسبانيا في مجموعة أممية واحدة مع سيكيروس، وهناك تم تجنيده من قبل المخابرات السوفياتية. وتقول بعض المصادر إنه عمل عدة سنوات في الفاتيكان، وعاد من هناك إلى الاتحاد السوفياتي.

لا يسعني أن أوافق على القول إن جميع هؤلاء الناس (أرسلت إلى المكسيك مجموعة كبيرة من رجال المخابرات الذين كانوا يجيدون الإسبانية) «مجرمون نظّموا أشهر عملية اغتيال سياسي في هذا القرن»، كما كتبت إحدى الصحف المعروفة. لقد كان جميع هؤلاء يقدمون على التضحية بالذات طوعاً وليس مقابل النقود بكل تأكيد. فقد كان سيكيروس، على سبيل المثال، يعتبر أنه كان محقّاً فيما أقدم عليه. كما كان ميركاديرا وأيتينغون وسواهما أيضاً يعملون بما يتفق مع قناعاتهم. لكن الأمر الأهم، هو أمر مَنْ كانوا ينفّذون. فقد كان المشاركون في تلك العمليات يعتبرون، وليس من دون أساس كما تعرف، أنهم كانوا ينفّذون أمر الحزب البلشفي.

كان الحزب يجيد دوماً فعل الأشياء القذرة واغتنام أية فرصة سانحة لتحميل المسؤولية لأي كان، إنما ليس للقيادة الحزبية العليا. فلم يتم الكشف عن الحقيقة كاملة حول مأساة كاتين، حتى في ما يسمى بزمن البريسترويكا. فقد بقي قادة البلاد زمناً طويلاً يحاولون تحميل الألمان مسؤولية المقابر الجماعية. وبقي الأمر كذلك حتى نيسان/أبريل ١٩٩٠، حين أعلنت تاس أن «الجانب السوفياتي يعبّر عن عميق أسفه بالنسبة لمأساة كاتين، ويعلن أنها تمثّل إحدى

جرائم الستالينية البشعة». وذُكر أن العدد الإجمالي للضباط البولونيين، الذين لم ترد أسماؤهم في التقارير الإحصائية لمفوضية الداخلية، هو «حوالى ١٥ ألفاً». وقال الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي م. غورباتشوف في ذلك الحين:

"تم العثور في الفترة الأخيرة على وثائق تشير بشكل غير مباشر، إنما على نحو مُقنع، إلى أن آلاف المواطنين البولونيين، الذين لقوا مصرعهم في غابات سمولينسك منذ نصف قرن تماماً، كانوا ضحايا بيريا وأعوانه. إن قبور الضباط البولونيين هي على مقربة من قبور الناس السوفيات، الذين لقوا حتفهم على الأيدي نفسها. ليس من السهل التحدّث عن هذه المأساة، لكن من الضروري القيام بذلك، لأن الطريق نحو التجدد الحقيقي والتفاهم الحقيقي يمرعبر الحقيقة فقط».

لقد اقتطفت كلمات ميخايل سيرغييفتش هذه من كتاب صدر في العام ١٩٩١ عن «دار الآداب السياسية» بعنوان «دراما كاتين». وكان صدور الكتاب، الذي يضم مجموعة وثائق عن إحدى جرائم النظام الرهيبة، هو بذاته تقدّم نحو الغلاسنوست. غير أنه لم يتم الإفصاح آنذاك أيضاً إلا عن نصف الحقيقة لا غير. لقد انتبهت على الفور إلى النسخ المصوّرة للوثائق المنشورة. وكان قسم منها قد سلّمه غورباتشوف في نيسان/إبريل ١٩٩٠ لرئيس الجمهورية البولونية ف. ياروزيلسكي، وقُدّم البعض منها للقارئ على أنه وثائق جديدة. قرأت وفهمت أن الخداع لا يزال مستمراً، فلم تكن الوثيقة الرئيسية، التي كنت أعلم بوجودها، منشورة في الكتاب.

خلال زيارة ياروزيلسكي الرسمية لموسكو، لم يسلّمه غورباتشوف سوى نسخ عن اللوائح والوثائق العائدة للمديرية العامة السابقة لشؤون أسرى الحرب ومعتقلي مفوضية الداخلية في الاتحاد السوفياتي، التي عُثر عليها في الأرشيف السوفياتي. وقد ذُكرت في النسخ المصورة أسماء عائلات المواطنين البولونيين، الذين كانوا في فترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ في معتقلات مفوضية الداخلية في كوزيل وأستاشكوف وستاروبل. ولا تتحدث أية من هذه الوثائق عن مشاركة مفوضية الداخلية في إعدام الأسرى رمياً بالرصاص. كما لا تشير الوثائق إلا إلى إرسال قطارات تحمل مواطنين بولونيين إلى سمولنسك.

حين بدأنا نعرف الحقيقة عن كاتين، وعن وجود «إضبارة خاصة» تحتوي على قرار المكتب السياسي، لم يكن العالم يعرف بعد أن السر القديم معروف للأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي منذ زمن بعيد. كان غورباتشوف يكذب، بكل بساطة، حين تحجج بعدم وجود الوثائق المعنية في الأرشيف السوفياتي. لكن البولونيين الذين اعتادوا منذ زمن بعيد «ألاعيب» الجانب السوفياتي لم يصدّقوا كثيراً «أبا البيروسترويكا». وتبيّن أنهم محقون. لكن حين أمسكوا بالرئيس السابق المفلس للاتحاد السوفياتي غير الموجود، وهو يكذب مرة أخرى، لم يحمرّ غورباتشوف لأنه كان قد أصبح مستقيلاً...

مقتطفات من مقابلة مع الصحافة الأجنبية للمسؤول عن مكتب الرئيس السابق للاتحاد السوفياتي فاليري بولدين:

"حول مسألة المحاضر السرية والوثائق المتعلقة بكاتين، يؤكد غورباتشوف أنه لم يكن يعرف عنها شيئاً، وأنه فوجئ بها. وقد علم بها، كما يزعم، مع يلتسين في اليوم نفسه والساعة نفسها، حين كان يسلّمه مقاليد السلطة في الكرملين. «لقد أصبح هذا الحمل حملك الآن...». إن الحقيقة، والحال هذه، تقوم، أولاً، على أن غورباتشوف كان يحصل على كافة الوثائق... بخاصة حين برزت مسألة كاتين. وكانت اللجنة السوفياتية البولونية قد باشرت أعمالها حتى ذلك الحين. وبدأ البحث عن الوثائق. كان غورباتشوف يعرف أن مثل هذه الوثائق موجودة، وطلب مني حينئذٍ أن أحضرها ليراها. أصدرت أمراً بالبحث عن كل ما له علاقة بكاتين في الأرشيف. وسرعان ما أحضروا لي مغلّفاً مختوماً. ومع العلم أنه، وفقاً للقواعد المتبعة آنذاك، كان بوسعي فتح المغلّف، إلا أنني لم أفعل ذلك، تماماً كما لم أفض مغلفاً واحداً من الألف وخمسمئة مغلف التي بقيت تنام في الأرشيف. حملت المغلف إلى غورباتشوف وفضّه بنفسه، دون أن يطلعني على ما فيه، وقرأ ما في داخله ثم عاد وأقفله ولصق عليه شريطاً وقال: «هذا هو ما يبحثون عنه. إنه حول إعدام الضباط البولونيين رمياً بالرصاص من قبل مفوضية الداخلية (NKVD)». ولم أر هذه الوثيقة بعد ذلك. وتم إقفال الملف بحضوري. وحين سألت ما إن كان ينبغي أن نذيع معلومات عن كاتين، قال غورباتشوف إن المعلومات سيذيعها من ينبغي له أن يذيعها.

ـ هل تعتقد بأن غورباتشوف قد حدّث أحداً عن هذه الوثائق؟

ـ لا أعرف، لكنه سألني بعد ذلك مرتين إن كانت المحاضر السرية والوثائق المتعلقة بكاتين قد أُتلفت.

ـ هل كان يريد أن تُتلف؟

ـ طبعاً، بخاصة المحاضر السرية، لأنها كانت قنبلة موقوتة عملياً بالنسبة إليه؛ فالعثور عليها وافتضاح أمرها كان يهدده بالموت السياسي والمعنوي. فهو قد خدع عملياً مجلس السوفيات الأعلى ومؤتمر نواب الشعب والرأي العام في البلاد، بل وفي العالم أيضاً، لأنه كان على علم بوجود هذه الوثائق.

كان أول ما عرفت به حين تسلّمت منصب رئيس القسم العام هو وجود الوثائق ذات الطابع السري، التي من بينها محاضر مولوتوف- روبنتروب السرية والمعلومات عن كاتين. وبما أن الصحافة كانت قد بدأت تتعرّض بقوة للأحداث التي كانت تتعلق بها هذه الوثائق، أبلغت الأمين العام على الفور قائلاً إن الوثائق موجودة. أحضرت وثائق سرية وخريطة تم التأشير عليها وأطلعته عليها. فتح الخريطة وتفحّصها مطوّلاً. كان يدرس خط الحدود الذي تم التوافق عليه. وكان يوجد، على ما أذكر، توقيعان: ستالين وروبنتروب. تفحّص غورباتشوف الوثائق مطولاً ثم قال: «اخْفِها، وفي أبعد مكان ممكن!». وفي المؤتمر الأول لنواب الشعب في الاتحاد السوفياتي، أعلن أن «جميع المحاولات للعثور على النسخة الأصلية للمعاهدة السرية لم تتكلل بالنجاح». وطرح عليَّ بعد ذلك بوقت قصير سؤالاً، بدا وكأنه عَرَضِي، ما إن كنت قد أتلفت هذه الوثائق، فأجبته بأن الأمر يحتاج إلى قرار خاص. فقال: «هل تدرك ماذا تمثل هذه الوثيقة الآن؟». إنه مُضلِّل كبير، وليس في ذلك أي سر...".

إنه لمن السذاجة التنظير حول الأخلاقيات في مثل هذه المواقف، كالقول، مثلاً، إن من السفالة والدناءة أن يخدع المرء شعبه وشعب الدولة المجاورة التي فقدت الآلاف من خيرة أبنائها، بسبب الحزب البلشفي. فكل ما كان يجري في الكرملين كان له منطقه الطبيعي. فلا غرابة في أن يقوم اليوم خادم الأمس "بخيانة" السيد المفلس، وفي أن هذا الأخير لا يختلف عن الأول بشيء، فهو أيضاً أبارتشيك حزبي، وسلك في الأمس السلوك نفسه تماماً.

ثمة مذكرة لافتة للانتباه رفعت إلى غورباتشوف من أبارتشيك، آخر هو ف. فالين:

إن حجتنا (تمّ العثور في أرشيف الدولة في الاتحاد السوفياتي على الوثائق التي تكشف تفاصيل مأساة كاتين) سوف تصبح موضع شك. فالوثائق التي كَشف عنها العلماء (وهذه لا تشكّل سوى جزء من الخبايا المخفية)، إضافة إلى المعطيات التي يستند إليها الجانب البولوني في تقييمه للوضع، من الصعب أن تسمح لنا بالاستمرار في رواياتنا السابقة والتهرب من وضع حد للقصة... ويبدو أن الخيار التالي سوف يكون أقل كلفة: إبلاغ ف. ياروزلسكي أنه نتيجة المراجعة الدقيقة للمحفوظات في الأرشيف عثرنا على إثباتات مباشرة (أوامر، إبلاغات، الخ) تسمح بتحديد المسؤولين عن مأساة كاتين والوقت الذي حدثت فيه. إضافة إلى ذلك، فقد عثر في أرشيف المديرية العامة لمفوضية الداخلية التي كانت تهتم بأسرى الحرب والمبعدين، وكذلك في أرشيف مديرية قوات الحرس في مفوضية الداخلية للعام ١٩٤٠، على إشارات تضع تقرير ف. بورينكو موضع الشك. وعلى أساس الإشارات المذكورة، يمكن الاستخلاص أن مصرع الضباط البولونيين في منطقة كاتين هو من فعل مفوضية الداخلية (NKVD)، ومن فعل بيريا وميركولوف شخصياً.

ويبرز سؤال حول كيفية إعلام الرأي العام السوفياتي والبولوني بالأمر ومتى...؟».

هذه المذكرة مؤرخة في شباط/فبراير ١٩٩٠. وتلفت الانتباه نصيحة فالين لغورباتشوف: «يمكن الاستخلاص...». وهكذا فعلوا، لأن لا غورباتشوف ولا المحيطين به، كانوا ينوون «تعريض سمعة» الحزب الحاكم للسوء.

لاحقاً، حاول ميخايل سيرغيفتش، ودون أدنى ارتباك، أن يضع المسؤولية على يلتسين: لقد سلّمت باريس نيكولايفتش جميع الوثائق المتعلقة بكاتين، لكن لماذا لم يخبر الجانب البولوني فلست أعلم...

لقد بقي الأمين العام صادقاً مع نفسه حتى بعد استقالته. فقد بقي غورباتشوف، كما هي الحال دائماً، «لا علم له بالأمر».

رئيس روسيا بوريس يلتسين أجاب عن أسئلة الصحافيين بصراحة أكبر:

ـ لم يحضر غورباتشوف إلى المحكمة الدستورية، لأنه كان يخشى هذا السؤال ...

ومهما بدا الأمر غريباً، فإن قيادة روسيا ما بعد الشيوعية هي أيضاً لم تقل الحقيقة كلها. فقد أُعلن رسمياً أن مفوض الشؤون الداخلية آنذاك لافرنتي بيريا له يد في مأساة كاتين. تمسكت وسائل الإعلام بالرواية القديمة، إلا أنها لاحظت أن «اسم بيريا كان وارداً في البداية في الوثائق، غير أن يداً ما محته لاحقاً...». لكن هذه الملاحظة، ولسبب ما، لم تثر دهشة أحد. ففي الوثائق المتعلقة باجتماع المكتب السياسي، الذي عقد في ٥ آذار/مارس ١٩٤٠، وكذلك في الوثائق الأخرى، لا يوجد توقيع والدي. لقد تحايل منظمو المؤتمر الصحافي على الحقيقة بقولهم إنه لم يكن يوجد معترضون على العملية البشعة.

أما الحقيقة، فهي أن ستالين وفوروشيلوف ومولوتوف وميكويان وكاغانوفيتش وكالينين، أي باختصار القيادة الحزبية العليا بأجمعها، قد صوّتت بالإجماع على إعدام الضباط البولونيين، الذين، بالمناسبة، كان عددهم أكثر مما اعترف به غورباتشوف، (٢٠٨٥٧ شخصاً). وقد أصرّ على ذلك بشكل خاص كل من فوروشيلوف وجدانوف. أما الشخص الوحيد من قيادة الكرملين، الذي وقف صراحة ضد هذه السفالة، فكان والدي؛ وقد شرح موقفه في اجتماع المكتب السياسي بقوله:

- الحرب واقعة لا محالة، وفيلق الضباط البولوني هو حليف محتمل في الصراع ضد هتلر. نحن سوف ندخل بولونيا بشكل أو بآخر، والجيش البولوني سوف يكون في الحرب إلى جانبنا بالطبع.

ليس من الصعب معرفة ردة فعل القيادة الحزبية العليا، إذ كاد والدي أن يفقد منصبه بسبب عناده. وقد أعلن جدانوف بصراحة: «في هذه الحالة باستطاعتي أنا أن أترأس الأجهزة!». لكن حتى هذا لم يجبر والدي على توقيع حكم الإعدام على الضباط البولونيين. مع العلم بأن الجميع كانوا على بيّنة بأن الرأي المتميّز لشخص منفرد لن يغيّر من الأمر شيئاً، وأن الضباط البولونيين كان قد حُسم مصيرهم.

تلقى والدي أمراً بتسليم الضباط البولونيين الأسرى إلى الجيش الأحمر في مهلة أسبوع واحد. أما عملية الإعدام نفسها، فقد عُهد بتنفيذها لقيادة مفوضية الدفاع. قد يكونون أشركوا بعض التشكيلات من قوات الحرس، إلا أن الجيش الأحمر، ومهما كان الاعتراف بذلك صعباً، فهو الذي نفّذ الإعدام. تلك هي الحقيقة التي يتستّرون عليها بشكل محكم حتى أيامنا هذه...

وهكذا حدث (وهي سابقة لا مثيل لها في محيط ستالين!) أن والدي رفض بتحدٍّ دعم قرار الأغلبية الإجرامي، وسامحه ستالين على ذلك.

لم ينس ستالين الأمر... لكن الحقيقة تبقى هي الحقيقة، فقد رفض والدي المشاركة في الجريمة، علماً أنه كان يعرف أنه لم يعد بوسعه إنقاذ حياة هؤلاء الـ ٢٠٨٥٧ شخصاً. ويجدر بي أن ألفت انتباهكم إلى أنه لم يكن يتفق دوماً مع ستالين. هل كان ذلك يعجب يوسف فيساريونوفيتش أم لا؟ تلك مسألة أخرى، لكن كان يجيد الاستماع...

لقد انتظرت سنوات عديدة أن يعترف أحد الأمناء العامين بوجود إضبارة تتضمن وثائق حول «قضية كاتين»، علماً أنني في الحقيقة كنت أدرك أن الأمر مستحيل. فقد كنت أعرف جيداً ما هي هذه الوثائق، وتحت أي ختم يتم الاحتفاظ بها. كما أعرف على نحو دقيق أن والدي علّل كتابياً أيضاً عدم موافقته المبدئية على إعدام الضباط البولونيين. أين هي هذه الوثائق؟

في العام ١٩٩٣، زرت بولونيا، وتكوّنت قناعة راسخة لديّ بأنهم يدركون جيداً هناك أنه لم يتم الإفصاح الآن كذلك عن كل الحقيقة المتعلّقة بكاتين...

كانت لي في بولونيا لقاءات وأحاديث كثيرة ومهمّة على مختلف المستويات، وأعتقد بأن من حادثتهم، بمن فيهم الصحافيون البولونيون الذي يهتمون منذ زمن بعيد بقضية كاتين، كانوا غير مقتنعين بالرواية الجديدة أيضاً، التي طرحتها القيادة الروسية الجديدة. فهم يدركون جيداً في بولونيا، أن تلك نصف الحقيقة لا أكثر. فلماذا لا يقال حتى الآن، مثلاً، أنه حين رفض والدي

تنفيذ الأمر الإجرامي، اقترح فوروشيلوف على الفور تكليف الجيش بهذا العمل، وسانده المكتب السياسي في ذلك؟ هل لأن ذلك يلحق الأذى بسمعة الجيش؟ لكن لماذا على الجيش، الذي حرّر بولونيا من الفاشية، أن يتحمّل اليوم المسؤولية عن القرارات المجرمة للقيادة السياسية لتلك الفترة؟ ثمة، على ما يبدو، أسباب أخرى، فإذا ما قيلت الحقيقة في «قضية بيريا»، فإن ذلك يستتبع قول كل ما تبقى...

تمكّن والدي، مع ذلك، من إنقاذ عدة أشخاص من معسكر الاعتقال. فقد تمكّن، مثلاً، من إنقاذ فلاديسلاف أندرس، القائد اللاحق للجيش البولوني الذي تشكّل عام ١٩٤٢ على الأراضي السوفياتية. وقد أقام لبعض الوقت في بيتنا في محلة مالانيكيتسكايا، وما زلت أذكر حتى الآن الكثير من التفاصيل المتعلقة بإقامته عندنا.

مقتطفات من منكرات ياور قائد القوات المسلحة البولونية في الاتحاد السوفياتي ياجي كليمكوفسكي، التي كتبت في القدس وروما في الأعوام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧:

"كان أندرس يعلم ان مفوضية الداخلية (NKVD) اقترحت على بشيزدتسكي، قبل عقد معاهدة تموز/يوليو بعدة أشهر، تشكيل فيلق بولوني في الاتحاد السوفياتي... في ١٢ آب/أغسطس ١٩٤١ بثوا عبر الراديو أن رئاسة مجلس السوفيات الأعلى أعلنت العفو العام عن جميع المواطنين البولونيين الموجودين على أراضي الاتحاد السوفياتي، تنفيذاً للمعاهدة البولونية السوفياتية. وهكذا انتهت أيام القلق واليأس وليالي الأرق بالنسبة للجماهير البولونية الغفيرة المنتشرة في أرجاء الأراضي السوفياتية الشاسعة... كان البعض في معسكرات الاعتقال، والبعض الآخر يعمل في الكولخوزات وقطع الغابات، أو في بناء الطرق، أي أنهم كانوا في منفى اختياري. كما كان بعض البولونيين في ما يسمى بكتائب العمل وقسم آخر في صفوف الجيش الأحمر. كان يسود اعتقاد بأنه يوجد في الاتحاد السوفياتي حوالى ٣٠٠ ألف مواطن بولوني صالح للخدمة العسكرية، ولهذا فإن فرقتين ليستا بالعدد الكبير. لكن الكلام كان يدور همساً حول أن هذه ما هي إلا التشكيلات الأولى للجيش المقبل...".

إنها ليست سوى تخمينات من قِبَلي، لكنني أعتقد أن ستالين كان يعلم أن أندرس لم يعدم وهو موجود في بيتنا. فلو لم يكن والدي يتمتع آنئذٍ بدعم ستالين غير المباشر، لكانت الأمور جرت على نحو مغاير تماماً، ولما تمكّن والدي من تنفيذ خطته بإنشاء جيش بولوني حليف لنا على الأراضي السوفياتية.

سبق أن اقترح والدي البدء بتشكيل الوحدات البولونية منذ عام ١٩٣٩. إلا أنهم رفضوا اقتراحه آنذاك. ولكن حين وقع في يد والدي التوجيه رقم ٢١ الموقّع من قبل هتلر (خطة «باربا روسا») لم يعد بوسع أحد التنصّل من الاقتراحات المشابهة، واعتبرت المسألة بحكم المنتهية مبدئياً. لكنهم، ولاعتبارات السرية، قرروا آنذاك عدم البدء بتشكيل الوحدات البولونية، لأن ذلك سينبّه الألمان فوراً إلى أن الاتحاد السوفياتي على علم باستعدادات ألمانيا للحرب. ولتفادي ذلك، أبقوا على البولونيين في المعسكرات، وغيّروا نظام اعتقالهم، وبدأوا على أساس هذه المعسكرات تشكيل الوحدات العسكرية. ولهذا سرعان ما تمّ تشكيل الجيش البولوني لاحقاً، حين تم إعلان الأمر رسمياً. فالتشكيل الأول تم بناؤه رسمياً خلال شهرين أو ثلاثة على ما أعتقد...

بقي والدي، بالمناسبة، على اتصال بأندرس فيما بعد، حين نُقل جيشه إلى الشرق الأوسط ووضع بإمرة القيادة البريطانية.

كان منطق والدي مفهوماً للغاية. فالقصة ليست قصة شعور إنساني استثنائي، إنما قصة عقلانية. فاقتراب موعد اندلاع الحرب لم يكن موضع شك، فقد كان والدي يتلقّى يومياً عبر قنوات المخابرات ما يؤكد هذا الأمر. وبالتالي كان يعتبر أن جميع هؤلاء الناس، الذين يعيشون على أراضي الاتحاد السوفياتي، يمكن أن يشكّلوا نواة الجيش البولوني الذي سيدخل بولونيا معنا. فليس من طريق آخر إلى ألمانيا...

أما لماذا أصرّ فوروشيلوف وجدانوف والآخرون على الإعدام، فالأمر مفهوم كذلك، إذ لو سمح لهؤلاء بالتمادي، لأعدموا أيضاً نصف البلاد أو وضعوهم في المعتقلات... لكن لماذا أيّد ستالين الإعدام تأييداً حاسماً؟ لقد

انطلق، كما يقولون الآن، من مصالح إمبراطورية. وقد شرح هو نفسه موقفه على النحو التالي: سوف يصل إلى السلطة أشخاص من بين هؤلاء الضباط، ولن تكون تلك بولونيا التي نحن بحاجة إليها. لقد كان ستالين يرى بولونيا اشتراكية منذ ذلك الحين...

بناءً على قرار المكتب السياسي، أُرسل هؤلاء الناس بالقطارات من المعسكرات إلى سمولينسك، وكان في الطريق يستبدل بالحرس التابع لمفوضية الداخلية حرس تابع للجيش. وتوجد تواقيع والدي على الوثائق التي تفيد إلى أين بالضبط تم إرسال كل من هؤلاء الناس. لكن توقيعه لا يوجد على وثيقة واحدة من وثائق الإعدام. إلا أن هذا لا يمنع البعض من مواصلة التزوير حتى في يومنا هذا، حين أصبح الكثير من الأمور معروفاً.

أعد الاختصاصيون في الأفلام الوثائقية التلفزيونية في كل من بولونيا وألمانيا وروسيا فيلماً ليس سيئاً بعنوان «قضية كاتين»، لكن الكذب يطلّ برأسه من جديد.

"إن أمر الإعدام، الذي كان يعني الموت بالنسبة لعشرين ألفاً وثمانمئة وسبعة وخمسين شخصاً بريئاً، قد تم اقتراحه على ستالين من قبل لافرنتي بيريا... إن مفوضية الداخلية (NKVD) تعتبر أن من الضروري تطبيق العقوبة القصوى بحقهم، وهي الإعدام رمياً بالرصاص .

مفوض الشعب لوزارة الشؤون الداخلية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية لافرنتي بيريا".

لا شك أن بعض مشاهدي التلفزة قد اعتبروا هذا الكذب وثيقة يتم الاستشهاد بها، لكن في الحقيقة كان ذلك تزويراً. فلم يقترح والدي قط مثل هذا الاقتراح المريع. ويبدو الكذب هنا واضحاً بالعين المجرّدة، إذ لم يكن للوزارات من وجود في الاتحاد السوفياتي قبل العام ١٩٤٦ كما هو معروف، بل كانت توجد مفوضيات للشعب. وبالتالي، مهما كانت رغبة المزوّرين كبيرة، فلم يكن بوسع مفوض الشعب أن يوقّع كوزير. إن الأمثلة المشابهة على التزوير

الفاضح للوثائق والوقائع كثيرة جداً، غير أن الحديث ليس عنها الآن. فالفيلم نفسه، والذي للوهلة الأولى، يدين المكتب السياسي المسؤول عن الجريمة، يضلّل المشاهد حين يقول: «لقد اتخذ هذا القرار ضمن حلقة ضيّقة من الوجوه البارزة في المكتب السياسي. فقد ثبّت ستالين وفوروشيلوف ومولوتوف وميكويان بتواقيعهم حكم الإعدام الذي أصدره بيريا».

لم يقتلوا هؤلاء الناس، بل «ثبّتوا بتواقيعهم قرار الإعدام الذي أصدره بيريا». يُهيّأ لي أحياناً أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي لم يتم حلّها، وأن الحزب الذي كان حاكماً يوماً ما لا يزال يهيمن على الوعي الاجتماعي. وإلا كيف يمكن أن نفسّر ترداد وسائل الإعلام من دون كلل الكذب الذي ولد في ساحة ستارايا بلوشاد؟

إن القصة الطويلة المتعلقة بمأساة كاتين ليست سوى أكاذيب متراكمة. فحين أعلن الراديو الألماني في نيسان/إبريل ١٩٤٣ أن سلطات الاحتلال عثرت قرب كاتين على قبور عدة آلاف من الضباط البولونيين الذين أعدموا من قبل «القوميساريين اليهود»، سارع الاتحاد السوفياتي على الفور لنفي مشاركته في هذا العمل. وكانت ردة فعل الاتحاد السوفياتي هذه هي نفسها، حين أعلنت نتائج عمل اللجنة الدولية في كاتين أثناء الحرب. وبعد تحرير سمولنسك، أُرسلت إلى كاتين لجنة برئاسة الجراح الشهير الأكاديمي ن. بوردينكو. ومن الطبيعي أن استنتاجاتها لم تكن تختلف عن الرواية الرسمية من أن الضباط البولونيين لم يعدَموا العام ١٩٤٠، بل في خريف ١٩٤١ من قبل الألمان. وفي محاكمة نورنبرغ، أعلن رودينكو، قاضي الاتهام من قبل الاتحاد السوفياتي، أن البولونيين قد تم إعدامهم من قبل جنود كتيبة الهندسة ٥٣٧ في الجيش الألماني، لكن المحكمة الدولية لم تعترف بهذه الرواية.

لقد أصبح من الواضح الآن أن إخفاء سر كاتين قد ساهم فيه ليس المكتب السياسي الستاليني فحسب، بل وجميع الأمناء العامين للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، بمن فيه الأمين العام الأخير.

تؤكد مصادر بولونية موثوقة كلياً أن ميركولوف قال أثناء الحرب، حين عرّج الحديث على ذكر الضباط البولونيين الذين اختفوا، «لم يعودوا موجودين... لقد ارتكبنا خطأً فادحاً...».

أعتقد أن ميركولوف أراد بكلامه هذا إفهام البولونيين، الذين كانوا يشاركون في تشكيل الجيش البولوني، أن لا جدوى من متابعة البحث عن هؤلاء الناس. فالبولونيون كانوا حتى في ذلك الحين يبحثون بإصرار عن الحقيقة، وكان ميركولوف أحد الناس القلائل الذين كانوا يعرفون هذه الحقيقة، حيث كان النائب الأول لوالدي. لقد كنا نحن في البيت نعرف كل شيء، فما بالك به...

حين كان أندرس يعيش في بيتنا، كان ميركولوف يأتي دائماً لاصطحابه، مما كان يثير دهشتي للغاية. لقد عرفت لاحقاً من هو ضيفنا، أما في ذلك الحين، فكنت أفكر دوماً في من تكون هذه الشخصية التي يرافقها النائب الأول لمفوض الشعب؟...

مقتطفات من مصادر رسمية:

فلاديسلاف أندرس: واحد من العسكريين ورجالات الدولة البارزين في بولونيا.

ولد قرب فرصوفيا في أسرة سمسار أراضي في العام ١٨٩٢. درس في معهد البوليتكنيك في ريغا، واستدعي أثناء دراسته العام ١٩١٤ للخدمة العسكرية. أنهى الأكاديمية العسكرية في بتربورغ. شارك في المعارك في صفوف فيلق الخان ناخيتشفانسكي للخيالة. بعد شباط/فبراير ١٩١٧ خدم في كتيبة خيالة كريخوفيتش الأولى، وأصبح في تشرين الثاني/نوفمبر رئيس أركان فرقة المشاة السابعة في الفيلق البولوني الذي كان يعمل في بيلوروسيا.

في العام ١٩٢٠، شارك في المعارك ضد الجيش الأحمر. درس لاحقاً في مدرسة القيادة العليا في باريس، وتولّى قيادة الفيالق الخيالة في كل من روفنو وكريمننتسه، وبرودي وبارانوفتشي. حين اندلعت الحرب العالمية الثانية، كان قائداً لفيلق الخيالة في ليدزبارك. لعبت الوحدات البولونية التي كانت بإمرة الجنرال اندرس دوراً رئيسياً في تحرير سواحل إيطاليا على البحر الأدرياتيكي.

في العام ١٩٤٥، أصبح القائم باعمال القائد الأعلى للقوات المسلحة البولونية.

في العام ١٩٤٦، انتزعت حكومة جمهورية بولونيا الشعبية الجنسية منه. أصبح القائد الفعلي للمهاجرين البولونيين منذ العام ١٩٥٤. لم يعترف بالحكومة البولونية ولم يعد إلى وطنه.

لم يتضح سوى من مدة قريبة فقط أن القيادة السوفياتية لم تقدم على إعدام الضباط البولونيين فقط، بل أقدمت في الخمسينيات على إعدام عسكريي الجيش السوفياتي أيضاً. فالوثائق غير المعروفة سابقاً التي نشرت في ألمانيا الاتحادية من المحفوظات السرية للحزب الاشتراكي الموحد في ألمانيا تشير إلى أنه بعد قمع انتفاضة ١٧ حزيران/يونيو ١٩٥٣ تم إعدام أكثر من ٤٠ جندياً سوفياتياً رفضوا إطلاق النار على المنتفضين. وقد أطلق النار على مواطنينا في برلين وماغدبورغ أبناء جلدتهم...

وتكرّر الأمر نفسه عام ١٩٥٦ في هنغاريا. فالذين رفضوا إطلاق النار هناك قتلهم أبناء جلدتهم أيضاً. فمَن غير القيادة السياسية كان بوسعه إصدار مثل هذا الأمر؟

أذكر جيداً الوضع الذي نشأ في ألمانيا الديمقراطية عشية الانتفاضة. كان والدي يعتبر المسألة الألمانية القضية الأساسية في أوروبا. إضافة إلى ذلك، كان يقول إن تحالف ألمانيا مع الاتحاد السوفياتي هو أيضاً مسألة أساسية.

لقد أضعفت الحرب الاقتصاد في الاتحاد السوفياتي وأصبح مستوى المعيشة فيه متدنياً لدرجة أنه كان ينبغي، كما كان يعتبر والدي، توجيه كافة الطاقات الاقتصادية لرفع مستوى معيشة الناس. ولا يجدر القيام بذلك لدوافع إنسانية فحسب، كما كان يقول. فعشرات الملايين من الناس السوفيات رأوا كيف تعيش أوروبا المنهزمة. ومن الطبيعي أنهم كانوا يقارنون ذلك بما عندهم في وطنهم. لقد رجع المنتصرون إلى الفقر من ألمانيا، التي وإن دمّرتها الحرب، إلا أنها كانت تتمتع بالرفاهية مقارنة مع الاتحاد السوفياتي.

كان والدي يدافع عن وجهة نظره بضرورة توحيد ألمانيا حين كان لا يزال

ستالين على قيد الحياة. وكان يقول إنه لا يجدر بنا أن نفرض عليهم فكرة الاشتراكية. فالمهم بالنسبة لنا أن تصبح ألمانيا دولة ديموقراطية، مما يتيح لنا الحصول على حليف موثوق به ممثلاً بالشعب الألماني ودولته القوية. كان والدي مقتنعاً بأن ذلك سيتيح للاتحاد السوفياتي إمكانية الاستناد إلى طاقة ألمانيا الاقتصادية خلال ٢٥ عاماً، بل قد يكون بوسعه استخدام هذه الورقة لمدة أطول. أما مساعينا العكسية الرامية إلى شق ألمانيا وإنشاء دولة ألمانية اشتراكية سوف تدفع ألمانيا الغربية حتماً إلى حضن الأميركيين والبريطانيين. كان والدي يريد أن يرى في ألمانيا الحرة ثقلاً في كفة الميزان مقابل حلفائنا في الائتلاف المعادي لهتلر.

كان والدي يقنع أعضاء قيادة الكرملين بأن المبادرة إلى توحيد ألمانيا المحايدة يجب أن تصدر عنا. وسوف تقدّر ألمانيا ذلك بالضرورة. فأميركا وبريطانيا سوف يكون اهتمامهما منصباً على مشاكلهما بعد الحرب وعلى المستعمرات، وما إلى ذلك. وباستنادنا إلى قدرات ألمانيا، سوف نربح متسعاً كبيراً من الوقت، يسمح لنا بتجديد اقتصادنا، ورفع مستوى المعيشة في البلاد، ومعالجة المهمات الدفاعية، بالطبع.

أذكر أن والدي كان يضحك، وهو يقول:

ـ أي هراء يقترحون؟! جرّب أن تفصل منطقة ريزان عن منطقة سمولنسك، وأرغمْ هؤلاء الناس على القتال بعضهم ضد بعض. إنه أمر منافٍ للطبيعة، وإنشاء دولتين ألمانيتين هو حماقة أيضاً.

مقتطفات من محاضر اجتماع تموز/يوليو (العام ١٩٥٣) الموسّع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي:

"**مولوتوف:** لدى مناقشة المسألة الألمانية في هيئة رئاسة مجلس الوزراء اتضح أن بيريا يقف موقفاً غريباً كلياً عن مواقف حزبنا. فقد تحدث آنذاك بأنه لا ضرورة للعمل على بناء الاشتراكية في ألمانيا الشرقية، وبأنه يكفي أن تتوحّد ألمانيا الشرقية والغربية كدولة بورجوازية مسالمة. إن هذا الكلام ما كان يمكن إلا

أن يلفت انتباهنا... فبالنسبة لنا، كماركسيين، كان وسيبقى واضحاً أنه في ظل الوضع القائم، أي في ظروف المرحلة الإمبريالية الراهنة، لا يمكن القول بإمكانية تطور ألمانيا البرجوازية كدولة مسالمة ومحايدة تجاه الاتحاد السوفياتي. فهذا ليس من قبيل الأوهام فحسب، بل هو انتقال فعلي إلى مواقع غريبة عن الشيوعية... لقد اقترح بيريا في مشروع القرار، الذي تقدّم به إلى هيئة رئاسة مجلس الوزراء حول هذه المسألة، الاعتراف بأن «السياسة الرامية إلى بناء الاشتراكية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية هي سياسة خاطئة في الظروف الراهنة». كما اقترح في هذا الصدد «التخلّي في الوقت الراهن عن نهج بناء الاشتراكية في ألمانيا الديمقراطية». لم يكن بوسعنا، أن نقرّ بذلك، طبعاً... لقد غدا واضحاً أن بيريا هو في موقع مختلف عن المواقع الشيوعية. وقد شعرنا في ظل هذا الوضع أننا حيال شخص لا يربطه أي رابط مشترك بحزبنا، وبأنه شخص من المعسكر البرجوازي، وبأنه عدو الاتحاد السوفياتي.

إن الجوهر الاستسلامي لمقترحات بيريا حول المسألة الألمانية واضح للعيان. فهو عملياً كان يطالب بالاستسلام أمام ما يسمى بالدول البرجوازية «الغربية». لقد أصبح واضحاً بالنسبة لنا أنه شخص غريب، شخص ينتمي إلى المعسكر المعادي للسوفيات (أصوات: صحيح).

مالينكوف: يجدر القول إن بيريا لم يقترح، لدى مناقشة المسألة الألمانية، تصحيح نهج تعزيز بناء الاشتراكية، بل التخلّي عن كل نهج في بناء الاشتراكية في ألمانيا الديمقراطية، والسير في نهج بناء ألمانيا البرجوازية. وعلى ضوء كل ما عرفناه الآن عن بيريا، علينا أن نُقَيِّم من جديد وجهة نظره هذه. ومن الواضح أن هذه الحقيقة تدمغه بسمة المرتد البرجوازي... لقد قررت هيئة الرئاسة عزل بيريا من المناصب التي يشغل وفصله عن الحزب. وقد توصّلت الهيئة إلى الاستنتاج أنه لا يمكن التوقف في منتصف الطريق مع هذا المغامر، وقررت اعتقال بيريا كعدو للحزب والشعب. (أصوات: صحيح! تصفيق حار).

إن لجنتنا المركزية، إذ تفضح مثل هذا المرتد بيريا وتطرده، سوف تصبح اكثر تلاحماً ووحدة.

إن هيئة رئاسة اللجنة المركزية، إذ تتخذ مثل هذه التدابير الحازمة، تنطلق من القناعة بأنها التدابير الوحيدة الصحيحة في الحال الراهنة. إن هيئة رئاسة اللجنة المركزية هي على قناعة بأن لينين كان ليفعل الشيء نفسه، وبأن ستالين كان ليفعل الشيء نفسه، (تصفيق حار). إننا على ثقة بأن الاجتماع الموسع للجنة

المركزية سوف يوافق بالإجماع على خطواتنا (تصفيق حار). أما فيما يتعلق ببعض الأخطاء والهفوات التي ارتكبت من قبلنا خلال فترة الأشهر الثلاثة أو الاربعة التي انقضت بعد وفاة الرفيق ستالين، والتي كنا نفضح بيريا خلالها، فإننا سوف نقوم سوية بتصحيحها. وكنت لاقول حسناً أن الأمر لم يتطلب سوى ثلاثة أشهر (أصوات: صحيح!) للكشف عن الوجه الحقيقي لهذا المغامر. وعلى الرغم من موقعه وإمكاناته الكبيرة، تمكّنا بالإجماع من انتزاع هذه الشناعة، هذا الورم المريض من الجسم السليم. (تصفيق)».

مرت فترة كان ستالين متّفقاً فيها مع والدي، واتّخذا رسمياً عدداً من الخطوات (الوثائق لا تزال موجودة) لتوحيد المنطقتين المحتلتين. وقد اقترحت الحكومة السوفياتية على القيادة الفرنسية ـ البريطانية ـ الأميركية إجراء انتخابات عامة حرة في ألمانيا. ويجدر القول إن والدي كان في تلك المرحلة أحد المبادرين لتوحيد ألمانيا. وكان يوجد آخرون أيضاً يرون عقلانية هذا الأمر. لكن أنصار ألمانيا الديمقراطية الموحدة كانوا يحاولون عدم استفزاز القيادة الحزبية العليا، لأنهم كانوا يشعرون بمقاومتها الشديدة. أما والدي، فقد استمر يُثبت أن النهج الذي تعتمده القيادة السوفياتية سوف يؤدي إلى نتائج محزنة. فقد كان من المعروف أن مئات الآلاف من مواطني ألمانيا الديمقراطية قد فرّوا إلى ألمانيا الغربية، وكان امتعاض السكان في ألمانيا الديمقراطية نفسها يتصاعد يوماً بعد يوم. وهذا ما أدى إلى الانتفاضة...

كان موقف الأميركيين موقفاً مثيراً للاهتمام، فقد قام محلّلوهم في ذلك الحين بالتدقيق في الاحتمالات المختلفة لتطور الأحداث، وتوصلوا إلى الاستنتاج (حصل الاتحاد السوفياتي على الوثائق المعنية عن طريق المخابرات) بأنه لا يجوز السماح بأي حال بتوحيد ألمانيا وفقاً لما يقترحه الاتحاد السوفياتي. ولجعل هذا الاستنتاج مقبولاً في أوساطهم، طرحوا شعار: إذا حصلت انتخابات عامة في ألمانيا وفقاً للشروط التي يقترحها الروس، فإن العالم سوف يحصل على ألمانيا اشتراكية. وحتى لو لم تصبح اشتراكية في الشكل، فهي ستصبح عملياً حليفة للاتحاد السوفياتي، وهذا ما لم يكن بوسع الأميركيين السماح بحدوثه. ولهذا رفضوا الانتخابات العامة، وكانت ردة فعل

البريطانيين والفرنسيين على الاقتراح السوفياتي مشابهة تماماً للموقف الأميركي. وهكذا يكون الغرب قد دعم عملياً آنئذٍ القيادة السوفياتية العليا التي كانت تؤيد تقسيم ألمانيا.

اصطدمت جميع المحاولات اللاحقة لتوحيد الدولة الألمانية بالمقاومة من داخل الاتحاد السوفياتي والدول الغربية، ومن داخل ألمانيا الديمقراطية نفسها. فقد استساغت القيادة الحزبية الألمانية العليا طعم السلطة، ولم تعد راغبة في التخلي عنها...

كان ويلهالم بيك الرئيس الأول لألمانيا الديمقراطية رجلاً مسنّاً، يلعب دوراً مهدئاً، وكان موافقاً على توحيد ألمانيا على أية أسس. أما الآخرون، فكانوا يرون في التوحيد ضياعاً للسلطة الشخصية، وخاصة والتر أولبريخت الأمين العام للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، الذي أصبح بعد وفاة بيك رئيس مجلس الدولة أيضاً في ألمانيا الديمقراطية.

كان المستوى الثقافي لأولبريخت معروفاً جداً سواء في ألمانيا الديمقراطية نفسها أو في الاتحاد السوفياتي. لكن هذا،لم يحل، كما يبدو، دون بقاء هذا الشخص في السلطة عدة عقود من الزمن، ومنحه لقب بطل الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٦٣. قضى فترة الحرب بهدوء وسلام في الاتحاد السوفياتي، لكنه قُدّم إلى الشعب الألماني لاحقاً كمناضل نشيط ضد الفاشية. وقد تم نقله إلى ألمانيا في رتل عربات عسكرية سوفياتية. وكان الرفيق أولبريخت، بالمناسبة، قد وقف في حينه ضد أرنست تلمان المناهض الحقيقي للفاشية، والذي قتل في بوخنفالد. إلا أنهم تستروا على هذه الواقعة من سيرته الذاتية، ولم يتم نشرها، بالطبع، لا عندنا ولا في ألمانيا الديمقراطية.

حين بدأت الاضطرابات في ألمانيا، كان المتظاهرون يطالبون باستقالة أولبريخت وحكومته، وبإجراء انتخابات حرة، وانسحاب القوات السوفياتية. وقد استخدمت الدبابات في مواجهة المتظاهرين، ولقي مئات الأشخاص مصرعهم وزُجّ بالآلاف في المعتقلات.

في الاجتماع الموسع للجنة المركزية، اعترف قادة الحزب والدولة آنئذٍ أن الوضع في ألمانيا الديمقراطية يثير قلقهم الجدي، وتم اتخاذ قرار «بتنفيذ إجراءات من أجل تصحيح الوضع الاقتصادي والسياسي». وأُفهم أولبريخت بأنه لا يجوز، في مثل هذه الظروف، انتهاج سياسة ترمي إلى تعزيز بناء الاشتراكية. إلا أنهم أخفوا عن المشاركين في الاجتماع الموسع أن هذه الاقتراحات كانت اقتراحات بيريا، التي كانت قيادة الاتحاد السوفياتي مجبرة على الموافقة عليها. ولم يتم عملياً اتخاذ أية إجراءات سياسية، وليس بوليسية، للحؤول دون قيام الانتفاضة.

فقد كانت القيادة الحزبية العليا غارقة في التخمين ما إن كانت ألمانيا الموحدة سوف تكون اشتراكية أم لا.

كان يقول لهم أبي ممتعضاً:

ـ ما بالكم تلعبون لعبة الاختباء وراء بعضكم البعض. ولنفترض أن جميع سكان ألمانيا الديمقراطية سيصوّتون لصالح طريق التطور الاشتراكية، وهو أمر مستحيل عملياً، لكن حتى في مثل هذه الحالة، فإن هؤلاء ليسوا سوى ربع سكان ألمانيا الموحدة. ومهما يكن فإن خياركم لن يمر، حتى في ظل دعم معيَّن من قبل سكان ألمانيا الغربية. وما المخيف في الأمر؟ بل على العكس، فقد يكون الأمر مفيداً، لأنه لن يتطلب تدخلنا، ولن يكون علينا تبذير مواردنا كما يحصل الآن.

لقد تمت الموافقة على كل ذلك، إلا أن اقتراحات والدي وحججه لم يرد ذكرها في الاجتماع الموسع. لكن الأسوأ من كل ذلك هو أن المسألة الألمانية بقيت دون معالجة.

كان والدي يعرف ألمانيا وتاريخها ومشاكلها جيداً، إذ كان يهتم بألمانيا منذ ما قبل الحرب. فقد كانت لدينا شبكة مخابرات واسعة هناك، واستمرت أثناء الحرب أيضاً. وبالتالي لم يشكُ والدي في أي وقت، بوصفه رئيساً للمخابرات الاستراتيجية السوفيانية، من نقص في المعلومات الموثوقة.

كان يهتم على نحو خاص بابتكارات المصمّمين الألمان وإنجازات علماء ألمانيا. وقد حصلنا من الألمان، عقب دحر الفاشية، على الكثير مما هو مفيد لنا. هكذا تم، مثلاً، وضع حجر الأساس في صناعة الصواريخ عندنا وفي صناعة المحركات النووية. فقد كان الاطلاع على الطاقات العلمية التقنية الألمانية مفيداً جداً لمصممينا وعلمائنا. وكان يعمل في الاتحاد السوفياتي عشرات الاختصاصيين الألمان بكل طيبة خاطر وبإنتاجية مرتفعة. ويبقى أن يتأسّف المرء على أن حلم والدي بألمانيا الديمقراطية الموحدة المتعاونة مع الاتحاد السوفياتي في جميع الحقول لم يتحقق إلا بعد ٤٠ عاماً على وفاته. فلو كانت الظروف تطورت على نحو مغاير، لما كانت حدثت المواجهة الطويلة مع ألمانيا الاتحادية، ولما كان جدار برلين الشهير ولا الضحايا البشرية ولا الخسائر الفادحة الناجمة عن الإقامة الطويلة لكل هذه القوات السوفياتية في ألمانيا الديمقراطية. إن أحداً لم يحتسب حتى الآن كم كلفت البلاد خلال عدة عشرات من السنين رغبة القادة الحزبيين الطوباوية بالحصول على «قلعة غربية متقدمة للمعسكر الاشتراكي»...

مقتطفات من محاضر جلسات اجتماع تموز/يوليو (العام ١٩٥٣) الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي:

"مالينكوف: في الأسبوع الماضي، وعشية اليوم الذي قررنا في هيئة رئاسة اللجنة المركزية أن ندرس فيه ملف بيريا [تحدث عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي غ. م. مالينكوف والذي، بالمناسبة، تم اقتراحه بعد وفاة ستالين لهذا المنصب الرفيع من قِبَل لافرنتي بيريا، تحدث في تقريره عن اجتماع هيئة رئاسة اللجنة المركزية في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٥٣، الذي تم خلاله، كما زعم، اعتقال ل. ب. بيريا. إن محضر الجلسة (وهذا حدث فريد من نوعه) ليس موجوداً في أرشيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وفي تاريخ لاحق اتخذ قرار في اجتماع هيئة رئاسة اللجنة المركزية في ٢٩ حزيران/يونيو «بتنظيم التحقيق حول نشاطات بيريا الإجرامية المعادية للحزب والدولة»]، جاء إليّ باقتراح لاتخاذ خطوات عبر مفوضية

الداخلية لتطبيع العلاقات مع يوغوسلافيا. قلت له إن هذه المسألة يجب مناقشتها في اللجنة المركزية. ماذا كان هذا الاقتراح؟ بين الوثائق التي تمت مصادرتها من بيريا توجد الوثيقة التالية: «أغتنم الفرصة لأنقل لكم، أيها الرفيق رانكوفيتش، تحيات الرفيق بيريا، الذي يتذكركم جيداً.

لقد كلفني الرفيق بيريا أن أبلغكم شخصياً، وبشكل سري للغاية، أنه يؤيد هو وأصدقاؤه ضرورة القيام بإعادة نظر جذرية بالعلاقات بين البلدين وتحسينها .

وبهذا الصدد يطلب الرفيق بيريا منكم شخصياً، إطلاع الرفيق تيتو على الأمر. وإذا كنتم توافقون أنتم والرفيق تيتو على وجهة النظر هذه، فإنه سوف يكون من المفيد تنظيم لقاء سري لأشخاص يُنتدبون لذلك خصيصاً. يمكن عقد اللقاء في موسكو، لكن إذا كنتم تعتبرون، لسبب ما، أن هذا ليس مقبولاً، فيمكن عقده في بلغراد.

لقد عبّر الرفيق بيريا عن ثقته بأن هذا الحديث لن يعرف به أحد سواكم مع الرفيق تيتو».

لم يتمكن بيريا من تنفيذ هذا التدبير، لأننا قلبنا وجهة تطور الأحداث تجاهه شخصياً...

مولوتوف: لقد توصّلت هيئة رئاسة اللجنة المركزية إلى الاستنتاج بأنه لا يجوز الاستمرار لاحقاً بالنهج الذي كان متبعاً في الفترة الأخيرة تجاه يوغوسلافيا. لقد أصبح واضحاً أنه ينبغي الانتقال إلى وسائل أخرى، ما دمنا لم نتمكن من حل المهمة المطروحة بالمواجهة. فقد تقرر إقامة علاقات مع يوغوسلافيا على غرار العلاقات مع الدول البرجوازية الأخرى المرتبطة بحلف شمال الأطلسي العدواني (سفراء، برقيات رسمية، لقاءات عمل وسوى ذلك).

لكن بيريا أراد استخدام هذه اللحظة على نحو مغاير تماماً.

فوفقاً للخطة التي أعدها كان على ممثل وزارة الداخلية في يوغوسلافيا أن يُسلِّم في بلغراد رسالة إلى رانكوفيتش يشرح فيها باسم بيريا، وجهات نظر غريبة عن حزبنا وغريبة عن السلطة السوفياتية... وفقاً لمشروع بيريا كان على ممثل وزارة الداخلية أن يعلن خلال اللقاء مع رانكوفيتش: «أغتنم الفرصة لأنقل لكم أيها الرفيق رانكوفيتش، تحيات الرفيق بيريا...» إن الرسالة التي وضعها بيريا ترمي إلى إقامة علاقات وثيقة مع «الرفيق رانكوفيتش» ومع «الرفيق تيتو». لم يتسنّ لبيريا إرسال هذه الرسالة إلى يوغوسلافيا، إذ تم اعتقاله كخائن ومشروع هذه الرسالة في جيبه.

اليس من الواضح ما تعنيه محاولة بيريا هذه للاتفاق مع رانكوفيتش وتيتو اللذين يتصرفان كأعداء للاتحاد السوفياتي؟ اليس من الواضح أن هذه الرسالة، التي وضعها بيريا خفية عن حكومتنا، هي محاولة أخرى وقحة لطعن الدولة السوفياتية بالظهر، وإسداء خدمة مباشرة للمعسكر الامبريالي؟ إن هذه الواقعة وحدها تكفي للاستنتاج بان بيريا هو عميل المعسكر الغربي، هو عميل العدو الطبقي (اصوات: صحيح!)".

مقتطفات من قرار الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي «حول أعمال بيريا الإجرامية المعادية للحزب والدولة» (أُقر بالإجماع في جلسة الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في ٧ تموز/يوليو ١٩٥٣).

"تم الكشف في الايام الاخيرة عن مخططات إجرامية لبيريا لإقامة علاقة شخصية مع تيتو ورانكوفيتش عبر عملائه".

كان خروتشوف والمحيطون به يؤكّدون أنه لو لم يكن بيريا وأباكوموف "يقومان بتحريض ستالين، ولو كانا يطلعانه على المعلومات بشكل سليم، لكان درَسَ الوضع بصورة معمقة أكثر، ولكان وجد، بلا شك، السبيل لمعالجة هذه المسألة معالجة سليمة، دون أن يسمح بوصول الأمور إلى حد القطيعة مع يوغسلافيا".

إن القول بأن ستالين يتحمّل مسؤولية القطيعة مع يوغوسلافيا ليس قولاً دقيقاً للغاية. فوزارة أمن الدولة (MGB)، التي كان يترأسها أباكوموف في تلك المرحلة، أرسلت إلى ستالين معلومات تفيد أن اليوغسلاف لا يسلكون الطريق القويم، وهم يرفضون التجربة الحزبية والاقتصادية السوفياتية في بعض المجالات. أي باختصار، يبحثون عن طريقهم اليوغسلافي الخاص في بناء المجتمع. وليس في الأمر أي سر. فلم يكن تيتو وسواه من القادة اليوغسلاف يخفون شيئاً عنا، إنما كانوا يُفهِموننا أنهم يرفضون التدخل في شؤونهم الخاصة. لكن تجدر الإشارة إلى أنهم لم يكونوا يفكرون مجرد التفكير في القطيعة مع

الاتحاد السوفياتي ومع الحزب الشيوعي السوفياتي. فقد وضعت بتصرّف الاتحاد السوفياتي قواعد بحرية عسكرية من أجل سفننا وغواصاتنا ومطارات من أجل طيراننا.

كان والدي ينظر إلى الأمر بهدوء، ولم يكن يشارك القيادة الحزبية للبلاد قلقها من أن يوغسلافيا تحيد عن طريق بناء الشيوعية. فقد كان يعتبر أن بناء هذا النظام أو ذاك يتم في كل بلد انطلاقاً من ظروفه المحلية، ولا جدوى من النسخ الأعمى لتجارب الآخرين. فلم يكن بوسع يوغسلافيا، مثلاً، اعتماد نظام الكولخوزات لأنه كانت توجد فيها حيازات صغيرة كثيرة لا يمكن توحيدها، وكانت يوغسلافيا تذكّر بالقفقاز في هذا المجال. ففي المناطق الجبلية لم يكن من السهل إنشاء الكولخوزات، وكان والدي يعرف ذلك جيداً، وكان يقول:

ـ لا يجدر بنا فرض آرائنا عليهم، فليبنوا المجتمع الذي يرونه ضرورياً. المهم أن يوغسلافيا معنا، فهم لا يعترضون حتى على إنزال وحداتنا في أراضيهم إذا تطلب الأمر ذلك. وبالتالي لا ينبغي تعقيد علاقاتنا، إذ إن الموقف المتصلّب من قبلنا سوف يثير حساسيتهم.

كان ستالين في مرحلة ما متفقاً مع وجهة النظر هذه، حتى أنه كان يدعو مازحاً أعضاء المكتب السياسي الذين يؤيّدون تعزيز العلاقات مع يوغسلافيا بالتيتويين. وكان والدي يحسب على التيتويين، بالطبع. ومهما بدا الأمر غريباً، فإن فيتشسلاف ميخايلوفيتش مولوتوف الذي لام والدي في ذلك الاجتماع الموسّع على صلته برانكوفيتش وتيتو، كان «تيتوياً»، أيضاً في ظل ستالين، وكان يقول مؤيداً والدي:

ـ من وجهة نظر الأهداف البعيدة لسياستنا، فإن الخروج إلى البحر المتوسط أمر بالغ الأهمية. وهو مهم لدرجة أنه كان سيناسبنا، حتى لو كان في يوغسلافيا ملك وليس تيتو.

كانت هذه دعابة، بالطبع، إلا أن ستالين بقي يتذكر هذه الكلمات، وبحث لاحقاً بشكل جدي مسألة إعادة الملك إلى يوغسلافيا، حتى أنه سَألَ تيتو خلال إحدى زياراته لموسكو:

ـ كيف تنظرون، أيها الرفيق تيتو، إلى الملكية الدستورية في يوغوسلافيا... الملك على هيئة ملكة بريطانيا، والرفيق تيتو على هيئة رئيس وزراء دائم ...

بعد هذا الحديث الذي جرى عند ستالين، انتقلوا إلى منزلنا الصيفي، وأخذ تيتو ومالينكوف ووالدي يناقشون هذا الاقتراح ضاحكين. وقال تيتو آنذاك:

ـ كان ينبغي أن نناضل كل تلك السنوات من أجل إعادة الملك الآن...

أعرف أن القيادة السوفياتية، بل القيادة الحزبية العليا بشكل أدق، قامت لاحقاً بمحاولات لتغيير تيتو، بوصفه شخصاً لا يتأثر كثيراً بنفوذنا. ولا أدري لماذا لم يكتب دجيلاس عن ذلك في مذكراته، إذ على ما أذكر، عُرضت عليه هو أيضاً اقتراحات محددة، حين كانوا يسعون ليضعوا مكان تيتو زعيماً مريحاً أكثر... كما عرضوا على رانكوفيتش شيئاً مماثلاً أيضاً. إلا أن والدي، ومنذ ذلك الحين، كان يقول لستالين أن هذا التصرف لن يسفر عن أية نتيجة. فقد كان دجيلاس ورانكوفيتش وسواهما من المحيطين بتيتو أوفياء له لدرجة لا يمكنهم معها الموافقة على مثل هذا الاقتراح. فقد خاض هؤلاء الحرب إلى جانب تيتو، وهذا يعزز أواصر اللحمة بين الناس. لقد كانت القيادة اليوغسلافية تختلف اختلافاً شديداً عن القيادة السوفياتية. فالكثيرون من قيادتنا الحزبية لم يكونوا يعرفون ما هي الحرب، في حين أن أنصار تيتو كانوا طوال الحرب يخاطرون بحياتهم شأنه هو نفسه. وقد ترك هذا الأمر تأثيراً محدداً على العلاقات داخل القيادة اليوغسلافية، وهو الأمر الذي كان يدركه والدي جيداً.

بعد القطيعة مع يوغسلافيا، أعرف أنه عُهد إلى الأجهزة الأمنية إبعاد تيتو. لكنني لست على علم ما إذا كان الأمر قد بلغ حد محاولة الاغتيال أم لا، إلا أنني أذكر جيداً ردة فعل والدي على هذا القرار. فقد كان يقول إنه ينبغي عرقلة ذلك بأي ثمن: "إنهم يريدون التنكيل به تماماً كما فعلوا مع تروتسكي في حينه. لم أتمكن آنذاك من تغيير شيء، إذ كان الأمر قد بدأ عام ١٩٢٩ وتعقد كثيراً. لكن الوضع مختلف الآن، ولا يجوز بأي حال السماح بقتل تيتو".

مقتطفات من مصادر رسمية:

وفقاً لما يرويه ديمتري فولكوغونوف، فقد «ولدت حتى أواخر خريف ١٩٥٢ عدة بدائل لتصفية بروز تيتو، الحليف المقرّب لستالين خلال سنوات الحرب وبعدها. وكانت جميع هذه البدائل مرتبطة مباشرة باسم إ. ب. غريغوليفيتش - ماكس (هذا الاسم أصبح معروفاً لدى القارئ، فهو رجل المخابرات السري الذي شارك في محاولة اغتيال تروتسكي). وإليكم الوثيقة التي تم إعدادها آنئذٍ في وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي ووجّهت إلى ستالين شخصياً (بسبب السرية الشديدة كتبت مذكرة وزارة أمن الدولة بخط اليد من قبل أحد نواب إيغناتييف، وهي بنسخة واحدة):

"تلتمس وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي الإذن بإعداد وتنظيم عمل إرهابي ضد تيتو، مع استخدام العميل السري «ماكس»، وهو الرفيق إ. ر. غريغوليفيتش، مواطن الاتحاد السوفياتي وعضو الحزب الشيوعي السوفياتي منذ العام ١٩٥٠ (الإفادة مرفقة).

لقد نُقل «ماكس» من قبلنا إلى إيطاليا بجواز سفر كوستاريكي. ونجح هناك في كسب ثقة الدبلوماسيين من بلدان أميركا الجنوبية، والدخول إلى وسطهم وإلى أوساط رجالات كوستاريكا البارزين والتجار الذين يزورون إيطاليا.

وقد استخدم «ماكس» هذه العلاقات وحصل، بتكليف منا، على منصب سفير فوق العادة لكوستاريكا في ايطاليا ويوغوسلافيا معاً. خلال قيامه بواجباته الدبلوماسية، زار يوغسلافيا مرتين في النصف الثاني من العام ١٩٥٢، حيث استُقبل استقبالاً جيداً واقام علاقات مع أوساط مقربة من زمرة تيتو، وحصل على وعد بترتيب لقاء شخصي مع تيتو. إن المنصب، الذي يحتله «ماكس» في الوقت الراهن، يسمح باستخدام إمكانياته لتنفيذ عمليات فعّالة ضد تيتو.

في مطلع شباط/فبراير من السنة الجارية، تم استدعاء «ماكس» من قبلنا إلى فيينا، حيث تم ترتيب لقاء معه في ظروف سرية. وفي معرض الحديث عن الإمكانيات التي يتمتع بها «ماكس» طُرح عليه سؤال حول ما بوسعه أن يقوم به، مع أخذ وضعه بالاعتبار. فاقترح «ماكس» اعتماد إجراء فعّال ما ضد تيتو شخصياً. وجرى معه حديث بصدد هذا الاقتراح وكيف يتصوّر ذلك. وبالنتيجة تبلورت البدائل التالية الممكنة لتنفيذ عمل إرهابي ضد تيتو.

١ ـ تكليف «ماكس» ترتيب الحصول على لقاء منفرد مع تيتو يقوم خلاله، وبواسطة جهاز صامت في ثيابه، بإطلاق جرعة من بكتيريا الطاعون الرئوي، مما يضمن إصابة تيتو والمتواجدين في المكان ووفاتهم. لن يكون «ماكس» نفسه على علم بوجود هذا المستحضر، وللحفاظ على حياة «ماكس» يحقن سلفاً بمصل مضاد للطاعون.

٢ ـ بمناسبة زيارة تيتو المتوقعة إلى لندن، إرسال «ماكس» إلى هناك، ومن خلال موقعه الرسمي وعلاقاته الشخصية الجيدة مع السفير اليوغسلافي في بريطانيا فيليبيت، يتم تكليفه حضور حفل الاستقبال في السفارة اليوغسلافية، الذي يتوقع، أن يقيمه فيليبيت على شرف تيتو. القيام بالعمل الإرهابي بواسطة طلقة صامتة من ميكانيزم مخبأ تحت الثياب الداخلية، وإطلاق غازات مسيلة للدموع في الوقت عينه، بغية إحداث فوضى وسط الحاضرين، من أجل خلق جو مؤات لمغادرة «ماكس» وطمس الآثار.

٣ ـ الإفادة من أحد الاستقبالات الرسمية في بلغراد التي يحضرها أعضاء السلك الدبلوماسي، وتنفيذ العمل الإرهابي تماماً كما هو مقترح في البديل الثاني، على أن يُعهد بذلك «لماكس» نفسه، الذي سيدعى لحفل الاستقبال هذا بوصفه دبلوماسياً معتمداً لدى الحكومة اليوغسلافية.

إضافة إلى ذلك، تكليف «ماكس» وضع بديل، وإعداد الظروف لقيام أحد ممثلي كوستاريكا بتسليم تيتو هدية على شكل مجوهرات ما في علبة، يؤدي فتحها إلى تشغيل ميكانيزم يقنف في اللحظة عينها مادة سامة".

في معرض استشهاده بهذه الوثيقة من الأرشيف السري، كان فولكوغونوف يؤكد بين الحين والآخر أن «بيريا ووزير أمن الدولة (MGB) إيغناتييف كانا يشعران باستياء ستالين المتزايد وامتعاضه بسبب «التلكؤ» في تصفية تيتو، ولذلك كانا يبحثان بصورة محمومة عن سبل تنفيذ توجيهات القائد». «وقام بيريا، الذي عزّز نفوذه بشدة لوقت قصير قبل اعتقاله، باستدعاء غريغوليفيتش إلى موسكو. وكان من الواضح أن بيريا يخشى الفشل، إذ إن ستالين لم يعد موجوداً، وسوف يكون واضحاً للجميع إرادة من كانت تحرّك يد القاتل». إنها كذبة أخرى. فأنا أعرف جيداً أنه، عبر قنوات المخابرات الاستراتيجية، وعبر قنوات العلاقات التي كان يقيمها والدي مع عدد من القياديين في الدول الأخرى، لم

تنقطع صلة والدي مع تيتو حتى بعد قطع العلاقات رسمياً بين الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا. بل أكثر من ذلك، فقد تعززت هذه الصلة أكثر في تلك المرحلة، وذلك لصالح تلك المهمات الملقاة على عاتق والدي عبر المخابرات الاستراتيجية. ولعلي لم أعد أفضح سراً من أسرار الدولة، إذا أعلنت الحقيقة التالية: لقد كان يوسف بروز تيتو وأ. رانكوفيتش وعدد آخر من الأشخاص على علاقة مع والدي عبر المخابرات الاستراتيجية منذ ما قبل الحرب...

هل كان ستالين على علم بذلك؟ افترض كلياً أنه لم يكن على علم بالأمر. فقد كان يهتم بالمعلومة نفسها التي ترده من المخابرات الاستراتيجية وليس بمصادرها. على أن والدي لم يكشف قط أسماء عائلات الأشخاص الذين كانوا مرتبطين به أمام أعضاء المكتب السياسي أيضاً. إن مثل هذا الأمر، أي كشف الأسماء، غير مسموح به في أي جهاز مخابرات في العالم. وآمل أن تحمل هذه المعلومات المؤرخين على التمحيص بموضوعية أكبر في تاريخ العلاقات بين بلدينا...

حين أخذ خروتشوف يحاول بعد مقتل والدي تسوية العلاقات مع القيادة اليوغسلافية، راح يقنع تيتو بأن بيريا كان حجر العثرة في العلاقات بين بلدينا، ضحك تيتو وقال:

ـ إذا كان يناسبكم أن تصوروا الأمر لحزبكم على هذا النحو فافعلوا ما ترونه مناسباً. ذلك شأنكم، إلا أنني أعرف جيداً أن الأمر ليس كذلك...

ولم يُصدر تيتو تصريحاً يدين فيه والدي. وبالمناسبة، فإن خروتشوف نفسه، وبعد مضي سنوات عديدة، تحدث كيف كان والدي يدافع أيام ستالين عن إحياء العلاقات الطيبة بين بلدينا. أما في الاجتماع الموسع، فقد كان هو ومالينكوف ومولوتوف والآخرون يكذبون بشكل مفضوح، حين كانوا يؤكدون أنهم عثروا على «رسالة سرية من بيريا إلى رانكوفيتش». فقد كانوا جميعهم يعرفون أن مثل هذه الرسالة يقوم والدي بإعدادها بتكليف من القيادة السوفياتية، لأن هذه

المسألة قد نوقشت علناً. لقد كانوا يضللون الاجتماع الموسع في هذه المسألة أيضاً.

كانت مبادرة والدي تقوم على الطلب إلى المكتب السياسي تكليفه إعداد الوثائق اللازمة لتسوية العلاقات مع يوغسلافيا. وقد وافق الجميع بطيبة خاطر. وتقرر العمل بداية بشكل غير رسمي، وتهيئة الجو لمحادثات غير رسمية أيضاً لشرح الوضع الذي نشأ في الاتحاد السوفياتي بعد وفاة ستالين، والتأكد من موقف القيادة اليوغسلافية.

أعدّ والدي مشاريع الرسائل وعرضها في اجتماع موسع لهيئة رئاسة اللجنة المركزية، وكانت توجد في إضبارة، مع سواها من الوثائق المتعلقة بيوغسلافيا. أما كيف استخدموها لتشويه صورة والدي أمام الاجتماع الموسع للجنة المركزية، فقد أصبح الأمر معروفاً...

لقد أخذ هؤلاء الناس أنفسهم يصوّرون يوسف بروز تيتو لاحقاً شيوعياً مثالياً. فقد زار خروتشوف يوغسلافيا، وقام تيتو ورانكوفيتش بزيارة الاتحاد السوفياتي. حتى أنهم، وكما كتبت الصحف المركزية في العام ١٩٥٦، قاموا بصيد موفق للأيائل في غابات جبال القرم قرب يالطا، مع الرامي الماهر نيكيتا سرغييفتش.

لكن تيتو لم يكن في يوم من الأيام شيوعياً مثالياً. كان يبني دولة اشتراكية مع انحرافات محددة عما كان يجري في الاتحاد السوفياتي، إنما مقبولة أكثر من الناس. لكنها، بلا شك، كانت ديكتاتورية مع سلطة صارمة لقائد الدولة وقوانين متشددة. حين أكد تيتو لخروتشوف أنه لن يشارك في تشويه سمعة بيريا، قال له إنه يتصرف تماماً كما تصرف في حينه، حين رفض أن يكون "أحد المشاركين في أحداث العام ١٩١٧ عندكم". والقصة هي أن القيادة السوفياتية قد حاولت «تحسين» سيرة تيتو الذاتية وكادت أن تجعله أحد المشاركين في انقلاب أكتوبر في بتروغراد. لكن تيتو رفض هذا الشرف، وقال إنه كان عائداً آنذاك من الأسر إلى وطنه ومر مصادفة ببتروغراد. وقد أودع السجن في قلعة بتروبافلوفسك

لأنه لم يكن يحمل أية وثائق. غير أنهم أخذوا يكتبون عندنا فيما بعد أن قائد الشيوعيين اليوغسلاف رافق ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى منذ فجرها الأول. لقد كانوا دائماً يجيدون في الاتحاد السوفياتي إعادة كتابة سير القادة الذاتية...

ثمة واقعة أخرى ليست معروفة على نطاق واسع. بعد الحرب قال ستالين لوالدي لائماً:

ـ لقد أنقذناه عبثاً، ما كان عليك أن ترسل طائرة من أجله. فلو أن الألمان أبادوه مع أركانه آنئذٍ، لكانت مشاغلنا أقل اليوم...

جرى هذا الحديث بوجودي. وبقي والدي صامتاً آنذاك. وأذكر أنه كان يوجد أشخاص آخرون إلى المائدة، ومن المحتمل أن يكون الحديث قد قُطع حينها لهذا السبب.

أثناء الحرب، تلقّى والدي عبر المخابرات الاستراتيجية معلومات عن إنزال يعدُّ له الألمان. وكان من المزمع أسر الماريشال تيتو مع كل أركانه. وكان الألمان يأملون أن يغيروا بذلك سير الأحداث في يوغسلافيا المحتلة. وكان ابن تشرشل موجوداً آنذاك في أركان تيتو.

غير أنه تم إنقاذ تيتو مع الآخرين وتكللت العملية بالنجاح. فقد تمكن طاقم الطائرة،التي كان يستخدمها والدي، من إنقاذ الماريشال والمحيطين به، بمن فيهم ابن تشرشل المكلف بالخدمة لدى أركان الجيش اليوغسلافي الشعبي. فقد نجح قائد الطائرة وطاقمه في استباق الألمان. وتمكنوا بطريقة ما من الإقلاع من ساحة صغيرة للغاية، ونقلت طائرات أخرى الباقين.

كان الصراع من أجل التأثير على تيتو يجري منذ الحرب العالمية الثانية. فليس من قبيل المصادفة أن يرسل تشرشل ابنه إلى يوغسلافيا التي كانت تخوض غمار الحرب. لكنه كان لنا نحن أيضاً أشخاص في محيط الماريشال، من أمثال إيفانوفيتش، الذي أصبح لاحقاً رئيس الأركان العامة للجيش اليوغسلافي الشعبي. وقد قُتل لدى محاولته، الفرار إلى الاتحاد السوفياتي، كما زعم. لكنني للأسف، لست مطّلعاً على التفاصيل.

مقتطفات من مذكرات المساعد السابق لرئيس البعثة العسكرية السوفياتية في يوغسلافيا ب. غوروشكين:

"من خلال لقاءاتي الشخصية ومحادثاتي مع الانصار اليوغسلاف، خرجت بانطباع أن تيتو يتمتع شخصياً بنفوذ واحترام كبيرين كقائد للحركة الشعبية لمقاومة الفاشيين. لم يكن يجلس في الأركان، بل كان يتواجد في المواقع الأمامية وأصيب بجرح في يده. كانت الأجهزة الهتلرية تلاحقه في محاولة منها لحرمان قيادة حركة المقاومة اليوغسلافية من زعامتها. فالألمان لم يعمدوا إلى تخصيص جوائز بالماركات مقابل رأس تيتو، بل قاموا بعدة محاولات لاختطافه مع كل قيادة جيش التحرير الشعبي في يوغسلافيا. وقد جرت واحدة من هذه المحاولات أثناء وجودنا في يوغسلافيا العام ١٩٤٤. لم يتسنَ لي مقابلة تيتو بعد الحرب، إلا أنني علمت أن ابنه قد وصل من الاتحاد السوفياتي إلى بلغراد، وكان قد فقد يده في ضواحي موسكو في المعارك مع الهتلريين...".

إن جميع التهم التي سيقت ضد تيتو في ذلك الاجتماع الموسع للجنة المركزية لم يكن لها من أساس. فقيادته لم تخن التحالف مع بلادنا. كما أنهم لم يسمحوا للأميركيين بإقامة قواعد عسكرية على أراضيهم، ولم يخضعوا لنفوذ أحد، بل بدأوا يلعبون دور القوة الثالثة. كانت يوغسلافيا تملك جيشاً جيداً، وطيراناً وأسطولاً أنشئا بدعم نشيط من قبل الاتحاد السوفياتي. فقد كان لديهم، إذا لم أكن مخطئاً، حوالى ٤٥ فرقة مجهّزة تجهيزاً جيداً.

كان اليوغسلاف يعرضون على الاتحاد السوفياتي، قبل وفاة ستالين وبعدها، إقامة قواعد صاروخية على أراضيهم. وكانت تلك واحدة من الحجج التي كان يستند إليها العسكريون، ولا سيما فاسيليفسكي، في مساندتهم لوالدي. وكانوا يطرحون هذه الحجة بوجه القيادة الحزبية العليا، التي كانت تقف ضد إقامة علاقات طبيعية مع يوغسلافيا. كان العسكريون يدركون أن لا طائل من استفزاز القيادة الحزبية، ولذلك كانوا يقترحون إقامة صلات على المستوى العسكري على الأقل. وأعرف أن والدي كان يدعم هذه الاقتراحات أمام ستالين وأمام المكتب السياسي، ويعلّل ضرورة تعزيز العلاقات مع يوغسلافيا بعدم دفعها إلى التحالف مع أميركا، فتصبح حينئذٍ قوة جدية في تلك المنطقة...

لقد شوّهوا في ذلك الاجتماع الموسع للجنة المركزية موقف والدي من معالجة «المسألة الهنغارية» أيضاً. كان والدي يدين بشدة تدخل الحزب الهنغاري في القضايا الاقتصادية، والذي كان، شأنه شأن الحزب الشيوعي السوفياتي، لايتحمل المسؤولية عن أي شيء. وكان والدي يدافع عن وجهة نظره هذه منذ أن كان ستالين على قيد الحياة.

لم يكن ذلك، على كلٍّ، خطأ الهنغاريين وحدهم، بل خطأ كل الأنظمة المشابهة. فقد كان الحزب عندنا حتى وقت قريب يتخذ قراراً حول جمع محصول البطاطا. أليست هذه حماقة؟

كان والدي يقترح تغيير السياسة الخارجية جذرياً تجاه حلفائنا. فبعد الحرب كان نفوذ الاتحاد السوفياتي، الذي حقق مثل هذا النصر، نفوذاً كبيراً للغاية. ولم يكن الأمر بحاجة إلى جهد كبير لرفع هيبة بلادنا أكثر، لكنهم لم يكونوا يدركون ذلك في الكرملين على ما أعتقد. كان ينبغي العمل على انسحاب جميع القوات المحتلة، بما فيها قواتنا والقوات الأميركية من ألمانيا، وليس إدخال هذه القوات إلى بلدان أخرى كما جرى في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦ في هنغاريا.

مقتطفات من بلاغ عضوي هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي غ. مالينكوف وم. سوسلوف، وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أ. أرستوف المرسل من بودابست إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي:

"في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر، ووفقاً لمعطيات الرفيقين كونيف وسيروف، تم الاستيلاء من المتمردين، وكذلك صُودر من السكان، ٧٦٦ ١٨١ قطعة سلاح، بما فيها ١٧٢ ٣ رشاشاً من مختلف العيارات، و٤٠ مدفعاً وهاوناً، و٦٤ ألف بندقية وقنبلة يدوية... لقد تحدثنا مع الرفيق كادار حول ضرورة انتقاء خمسة أو ستة أشخاص من بين الموقوفين في قضية التمرد ضد الدولة، ومحاكمتهم وإعدامهم بتهمة المشاركة النشيطة في الجرائم والإرهاب من جانب الرجعية ايام سيطرتها في

هنغاريا، وذلك بهدف إرهاب الثورة المضادة، وإعادة النظام إلى البلاد بأسرع وقت.
وافق الرفيق كادار على اقتراحنا...".

إن عملية «الإعصار التي بدأت فجر ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦ قد أُنجزت بنجاح، برأي القيادة السوفياتية، حيث سيطرت وحداتنا على كافة أراضي هنغاريا المنتفضة. وفي سياق المنطق نفسه، أتى دور تشيكوسلوفاكيا لاحقاً، ومن ثم أفغانستان وكل ما عداها. وكان والدي يقنع خروتشوف ومالينكوف ومولوتوف والآخرين بأنه لا يجوز الاعتماد على الدبابات. لكن القيادة الحزبية الحاكمة لم تفد، للأسف، من درس ألمانيا الديمقراطية. فسياسة الكرملين الخارجية لم تكن تختلف بشيء عن سياسته الداخلية...

الفصل الحادي عشر

في قبضة «النظام»

"في ١٠ تموز/يوليو، نشرت الصحافة نبأ اعتقال بيريا المتهم بأنه كان جاسوساً إنكليزياً وعدواً لدوداً للشعب. وتقول المعلومات الرسمية إن المحاكمة التي صدر بنتيجتها حكم الإعدام جرت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣، كما أن الإعدام نفسه قد تم آنذاك أيضاً. ووفقاً لمعلومات أخرى صادرة عن خروتشوف، بشكل خاص، تم إعدام بيريا فوراً لدى اعتقاله. وللمجتمع كل الحق في التأمل في ما يحمل إسقاط بيريا من دلالات... إن أخصام بيريا، إذ أخفوا ظروف مقتله واختبأوا وراء المحافظة الوهمية على «الشرعية»، كانوا يهتمون بسلامتهم الشخصية، بالدرجة الأولى، ويثبّتون شرعيتهم في الوقت ذاته. ولتدمير سمعة بيريا الطيبة التي كانت بدأت تتكوّن، لجأوا إلى الوسيلة المجربة في العرائض الجماعية والمهرجانات الحاشدة ضد «الخائن» الخسيس".

هذه الكلمات هي لمؤرخ فرنسي معروف اختار، للأسف، كزملائه من الشرق والغرب السير على الطريق المعبدة. فما قيمة التأكيدات التي يسوقها نيكولا فيرت بأن ل. ب. بيريا «وسّع نفوذه ووزع صنائعه بعيداً وراء دائرة البوليس السياسي». وأن «إزاحة بيريا قد رفعت دور الجيش من جديد وخلّصته من التعقّب المرهق من جانب الأجهزة الأمنية»[1]...

أما الاستنتاج الذي يتوصل إليه المؤرخ الغربي، فلا يصمد أمام النقد الجدي:

---

(١) يفترض الكاتب أن القارئ على معرفة بالمؤرخ الفرنسي وما كتبه. فالكلمات التي يوردها هنا لم ترد في الاستشهادين المذكورين - المترجم.

"لقد جرى اعتقال سَلفيه ياغودا (Yagoda) ويجوف (Ejov) فجاة ايضاً، واعدما بالتهم نفسها. لكن مهما يكن، فإن العام ١٩٥٣ يختلف عن العام ١٩٣٨. الم تكن إزاحة بيريا تعني العودة إلى «الممارسات اللاشرعية»؟ أم، بالعكس، كانت خطوة إضافية على طريق الشرعية والتخفيف من وطأة النظام البوليسي؟ لقد بدا هذا الحدث وكانه يحمل، بالفعل، معنى مزدوجاً على غرار الدور الذي لعبه بيريا بعد وفاة ستالين، والذي تُرجم كصراع من أجل السلطة وكبداية لمرحلة «ذوبان الثلج»في آن معاً. إن ظروف إزاحة بيريا، من الإعدام الذي جاء بعد تحقيق وهمي ومن دون محاكمة جدية، إلى الاتهامات الخرافية التي كانت تتفق مع أفضل التقاليد الستالينية والتي سيقت ضده، كانت تشير إلى صعوبة الموقف السياسي صيف العام ١٩٥٣ وتعقيدات الانتقال إلى نظام تتقدم فيه الشرعية على اللاشرعية. لم تترك سطوة الأجهزة الأمنية أمام أعداء بيريا مخرجاً آخر سوى التآمر وإعدامه الفوري الذي أتاح الحؤول دون تمكُن أنصاره من تنظيم مؤامرة مضادة. لكن إذا أخذنا بالاعتبار توسع مرتكزات سلطة بيريا وتعزيز نفوذه الفعلي، وتاكيد النظام التزام الشرعية من الآن فصاعداً، لم يكن بوسع أخصام بيريا الاعتراف بأنهم قد قاموا، بكل بساطة، بتصفية رئيس البوليس السري الذي لبس، إلى ذلك، لبوس السياسي «الليبرالي» الموقر...».

إذا سلّمنا بمنطق هذا الباحث في التاريخ السوفياتي، فإنه لم يكن أمام خروتشوف ومالينكوف، بل أمام القيادة الحزبية العليا آنذاك، من مخرج آخر سوى التنكيل بطريقة إجرامية (وأخيراً، سوف نسمّي الأشياء بأسمائها) برفيقهم في المكتب السياسي. ولنسامح نيكولا فيرت على هذا الاستنتاج السخيف. فهو على الأقلّ يحاول، وخلافاً لمؤرخينا، فهم ما حدث،لا أن يردد رواية المكتب السياسي الخروتشوفي الملفقة علناً. فمن تجرّأ قبله على القول إنه لم يجر تحقيق ولم تجر محاكمة لواحد من قادة الدولة؟ فالمصادر السوفياتية تؤول على نحو مختلف ما يسمى بإزاحة والدي، التي كانت،على نحو أدق، اغتيالاً سياسياً عادياً.

منذ عدة سنوات، نُشرت في الصحافة السوفياتية مقالة تتحدث عن اعتقال ل. ب. بيريا استناداً إلى رواية ماريشال الاتحاد السوفياتي غ. ك. جوكوف. وزعم كاتب المقالة أنه لا يورد في مقالته سوى ما سمعه من غيورغي

كونستانتينوفيتش نفسه. ولعل من المشروع أن نسأل لماذا صمت هذا الشخص كل هذه السنين ولم يقرر الكلام إلا تحت «ستارة البيرويسترويكا»؟ فالرقابة لم تعد تضع أية عقبات أمام مثل هذه (!) المقالات... لكنني لن أكون متعنّتاً أكثر من اللزوم، وأرفض على الفور مقولات الكاتب التي تتطابق في أدق التفاصيل مع الرواية الرسمية التي أصبحت ممجوجة، والتي نُشرت في الاجتماعات الحزبية خلال صيف وخريف العام ١٩٥٣.

باختصار، تقول هذه الرواية، التي رويت مرات عديدة، إن بولغانين، وزير الدفاع آنذاك، استدعى جوكوف وقال له إن عليه أن يذهب إلى الكرملين، حيث كان ينبغي أن ينعقد مجلس الوزراء السوفياتي في جلسة له ذلك اليوم. يقول كاتب المذكرات إن غيورغي كونستانتينوفيتش أكد أن بولغانين كان منفعلاً، حتى أنه لم يردّ التحية على الفور، وقال إن عملاً مستعجلاً ينتظرهما في الكرملين.

"تلفّت حولي، كان في القاعة كلٌّ من مالينكوف ومولوتوف وميكويان وأعضاء هيئة الرئاسة الآخرون. لم يكن بيريا موجوداً. كان مالينكوف أول المتحدثين، وقال إن بيريا يريد الاستيلاء على السلطة وإنني مكلّف مع رفاقي إلقاء القبض عليه. ثم أخذ خروتشوف يتحدث بعد ذلك، وكان ميكويان يبدي بعض الملاحظات. لقد تحدثوا عن الخطر الذي يشكّله بيريا في محاولته للاستيلاء على السلطة.

ـ هل تستطيع تنفيذ هذه العملية على ما تنطوي عليه من مخاطرة؟

أجبت:

ـ باستطاعتي ذلك.

كانوا يعرفون انني أكنّ لبيريا منذ زمن بعيد كراهية تحوّلت إلى عداوة. وقد حصلت بيننا مشادّات منذ أيام ستالين. ويكفي القول إن بيريا وأباكوموف كانا يريدان اعتقالي في حينه، وكانا قد بدآ باختيار المفاتيح... وبالمناسبة، قال لي ستالين مباشرة في إحدى المرات إنهما كانا يريدان اعتقالي. وكان بيريا قد وشوش في أذن ستالين، إلا أن هذا الأخير أجابه: «لا أصدق، قائد عسكري وطني، شجاع، وخائن! لا أصدق، توقفوا عن هذه اللعبة القذرة». ولعلكم تتفهّمون انني أقدمت بكل طيبة خاطر بعد ذلك على إلقاء القبض عليه. وكان ثمة ما يوجب ذلك.

وتقرر تنفيذ العملية على النحو التالي: كان أفراد الحرس الشخصي لأعضاء هيئة الرئاسة موجودين في الكرملين، غير بعيد عن المكتب الذي يجتمع فيه أعضاء

هيئة الرئاسة، وقد عُهد إلى سيروف اعتقال حرس بيريا الشخصي، أما أنا فكان علي أن أعتقل بيريا.

تحدث مالينكوف عن العملية وكيف ستتم، فقال إنه سوف يتم إلغاء جلسة مجلس الوزراء، ويغادر الوزراء إلى منازلهم، وبدلاً من ذلك سوف يفتتح هو جلسة لهيئة الرئاسة.

كان عليَّ أن أجلس في غرفة منفردة مع كلٍّ من موسكالينكو ونيديلين وباتينسكي، إضافة إلى ياور موسكالينكو، وانتظر في هذه الغرفة كي يدق الجرس مرتين.

لقد حذّروني من أن بيريا قوي جسدياً، ويجيد رياضة «جيو ـ جيتسو» (العراك بالأيدي).

ـ لا بأس، سوف أتدبر الأمر، فأنا أيضاً لا تنقصني القوة...

... توجّهنا إلى الصالة. كان بيريا يجلس إلى الطاولة في الوسط. دار الجنرالات الذين برفقتي حول الطاولة، وكأنهم يزمعون الجلوس قرب الجدار. اقتربت من بيريا من جهة الخلف وأمرته:

ـ انهض! أنت موقوف.

لم يكن بيريا قد نهض بعد حتى كنت قد لويت ذراعيه..."

يكفي على ما أعتقد. فكم ينبغي أن يحتقر المرء شعبه كي يجبرَه على تصديق أساطير حول عراك بين قائد عسكري مجيد وأحد أفراد المكتب السياسي... إن غيورغي كونستانتينوفيتش لم يذكر في مذكراته شيئاً حول هذا الأمر، ولم يعترف علناً بمشاركته في الاعتقال الموهوم. لكن هذا لم يعد مهماً بالنسبة للقيادة الحزبية العليا، ما دامت الأسطورة راحت تجول في العالم...

لكن ما الذي حدث في ذلك اليوم في موسكو؟ الرواية الرسمية تقول، إنه بعد اعتقال النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي وعضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ل. ب. بيريا، أبقوا عليه عدة ساعات في الكرملين، ثم نقلوه مع حلول الظلام إلى معتقل منطقة موسكو العسكرية للدفاع الجوي. وزعموا أنه بقي قيد الاعتقال هناك طوال الأشهر التي

استمر فيها التحقيق. وتقول الرواية الرسمية نفسها إنه تم إعدام والدي هناك أيضاً.

نُذكّر بأن الاعتقال، كما تؤكد المصادر الرسمية، قد جرى في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٥٣، واستمر التحقيق حوالى نصف سنة تقريباً. وفي ١٧ كانون الأول/ديسمبر، ظهر في الصحافة خبر تحت عنوان «في النيابة العامة للاتحاد السوفياتي» جاء فيه:

"لقد انتهى التحقيق في قضية بيريا والمتآمرين الآخرين. وفي ٢٣ كانون الأول/ديسمبر انتهت المحاكمة التي كانت قد بدأت في اليوم التالي[١]. ويتهم الحكم الصادر بيريا " بتشكيل مجموعة خائنة معادية للدولة السوفياتية، تتشكل من متآمرين وضعوا نصب أعينهم استخدام أجهزة وزارة الداخلية ضد الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية، ووضع وزارة الداخلية فوق الحزب والحكومة بهدف الاستيلاء على السلطة، والقضاء على النظام السوفياتي، وإعادة بناء الرأسمالية، وإحياء سيطرة البرجوازية». ونكر القرار الاتهامي صراحة أن ل. ب. بيريا وأعوانه قد بنوا مخططاتهم الإجرامية على أساس دعم القوى الرجعية الخارجية للمؤامرة، وإقامة صلات مع المخابرات الأجنبية".

من كان «أعوان» والدي؟ ف. ن. ميركولوف، الوزير السابق لأمن الدولة ووزير الرقابة الحكومية في الاتحاد السوفياتي خلال الفترة الأخيرة؛ ف. غ. ديكانوزوف، وزير داخلية جورجيا السوفياتية؛ ب. ز. كابولوف، نائب وزير الداخلية في الاتحاد السوفياتي؛ ب. ي. ميشيك، وزير داخلية أوكرانيا السوفياتية؛ س. أ. غوليدزه، رئيس المديرية الثالثة في وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي؛ ل. ي. فلودزيميرسكي، رئيس قسم التحقيقات في القضايا الاستثنائية في وزارة الداخلية في الاتحاد السوفياتي. وقد أعدم الأشخاص الستة هؤلاء جميعاً في اليوم الأخير من المحاكمة. إنها لحيوية مدهشة أليس كذلك.

ثمة تفصيل آخر مهم: إن جميع جلسات المحاكمة التي جرت في موسكو

(١) يبدو أن في الأمر خطأ، قد يكون مطبعياً، فلا يُعقل أن تكتب الصحافة في ١٧ كانون الأول/ديسمبر عن محاكمة انتهت في ٢٣ منه - المترجم.

بين ١٨ و٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ كانت مغلقة، الأمر الذي يستثير بذاته خواطر محددة تماماً.

ولننظر الآن في تركيبة الهيئة القضائية الخاصة. فقد كان ماريشال الاتحاد السوفياتي إ. أ. كونيف رئيساً للهيئة، وكل من ن. م. شفرنيك، رئيس الاتحاد المركزي للنقابات السوفياتية؛ وي. ل. زايدين، النائب الأول لرئيس المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي؛ ون. أ. ميخايلوف، سكرتير لجنة موسكو الحزبية؛ وم. إ. كوتشافا، رئيس مجلس النقابات في جورجيا السوفياتية؛ ول. أ. غروموف، رئيس محكمة مدينة موسكو؛ وك. ف. لونوف النائب الأول لوزير داخلية الاتحاد السوفياتي؛ وجنرال الجيش ك. س. موسكالينكو أعضاء فيها.

يرى بعض المؤرخين أن هذه كانت «أكبر محاكمة للعاملين في وزارة الداخلية وأمن الدولة خلال كل تاريخهما». لكن لماذا كانت «محاكمة العصر»، كما كانوا يرغبون في تصويرها في نهاية العام ١٩٥٣، مغلقة ؟ يبدو أن هذا السؤال الهام لا يشغل بال الباحثين. وهذا ما يؤسف له. ألا تكمن هنا الإجابة عن بعض أحاجي التاريخ السوفياتي ما بعد الحرب، بل أكثر مما بعدها؟...

لنفترض أن كل شيء قد جرى تماماً وفقاً لما هو متعارف عليه، وأن المحاكمة في موسكو قد جرت فعلاً. لكن أين هو «ملف ل. ب. بيريا» نفسه الذي أثار كل هذه الضجة؟ فمنذ عدة سنوات والمؤرخون والكتاب يستشهدون بين الحين والآخر بهذه الوثائق، إلا أن المحضر نفسه للجلسة المغلقة للمحكمة الخاصة لم يُنشر حتى يومنا هذا. كما لم تنشر أيضاً الوثائق المتعلقة بالتحقيق، الذي، كما قلت، جرى خلال نصف سنة تقريباً بإشراف مباشر من النائب العام في الاتحاد السوفياتي رومان رودنكو، لماذا؟ ومن جديد سؤال بلا جواب.

ووفقاً لأفضل تقاليد «الغلاسنوست في ظل البيرويسترويكا» فإن من أسهل الأمور تحميل الكي. جي. بي و«مكائدها» المسؤولية عن ذلك أيضاً. لكن الأمر لم ينجح. فقد اعترف مسؤول الأرشيف المركزي لوزارة الأمن في روسيا الكولونيل الكسندر زوبتشنكو في خريف ١٩٩٢، قائلاً:

ـ أرغب كثيراً أن أقرأ يوماً ما ملف لافرنتي بيريا. المشكلة هي أن هذه

المجلّدات لم تكن في يوم من الأيام موجودة لدينا، حتى أنني لا أدري كم عددها. إن كل مجموعة الملفات المتعلقة ببيريا ليست محفوظة لدينا. وبوسعي أن أفترض أنهم لا يزالون يخفونها، لأن التقييم القضائي لهؤلاء الأشخاص يحمل غير تأويل.

لكن، مع ذلك، تم تنفيذ حكم الهيئة القضائية الخاصة. وقد نشرت، على كل حال، المحاضر المتعلقة بالأمر.

محضر

٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ في الساعة ١٩ والدقيقة ٥٠ من هذا اليوم، وبناءً على أمر رئيس الهيئة القضائية الخاصة في المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي رقم ٠٠٣ بتاريخ ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ قمت أنا، قومندان الهيئة القضائية الخاصة الجنرال ـ كولونيل ب. ف. باتيتسكي، بحضور النائب العام في الاتحاد السوفياتي ر. أ. رودنكو، وجنرال الجيش ك. س. موسكالينكو بتنفيذ حكم الهيئة القضائية الخاصة بحق المحكوم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص بيريا لافرنتي بافلوفيتش.

الجنرال كولونيل باتيتسكي

النائب العام في الاتحاد السوفياتي رودنكو

جنرال الجيش موسكالينكو

محضر

في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ قام كل من نائب وزير الداخلية في الاتحاد السوفياتي الرفيق لونيف، ونائب المدعي العام العسكري الرفيق كيتايف، بحضور الجنرال ـ كولونيل الرفيق غيتمان، والجنرال ليتنانت باكييف، والجنرال ـ ميجور الرفيق سوبيلنيك، بتنفيذ حكم الهيئة القضائية الخاصة في المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي المؤرخ في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ بالإعدام رمياً بالرصاص بحق المحكوم عليهم[1]:

---

(١) في ٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٠ رفضت المحكمة العليا في روسيا الاتحادية إعادة الاعتبار إلى بيريا، وإلى أيٍّ من الذين أعدموا آنذاك. إلا أنها نقضت الحكم الصادر العام ١٩٥٣ القاضي بمصادرة أملاك كلٍّ من ديكانوزوف وميشيك وميركولوف - المترجم.

١) كابولوف بوغدان زاخاروفيتش، مواليد العام ١٩٠٤،

٢) ميركولوف فسيفولود نيكولايفيتش، مواليد العام ١٨٩٥،

٣) ديكانوزوف فلاديمير غيورغوفيتش، مواليد العام ١٨٩٨،

٤) ميشيك بافل ياكوفلوفيتش، مواليد العام ١٩١٠،

٥) فلودزيميرسكي ليف ايميليانوفيتش، مواليد العام ١٩٠٢،

٦) غوغليدزه سيرغي ارسنتيفيتش، مواليد العام ١٩٠١،

في ٢٣ كانون الأول العام ١٩٥٣، في الساعة ٢١ والدقيقة ٢٠، تم اعدام المحكوم عليهم المذكورين أعلاه رمياً بالرصاص.

تم التثبت من الوفاة ـ طبيب (توقيع)

مقتطفات من مذكرات الكسي أدجوبي، صهر ن. س. خروتشوف:

"بعد أن أحرز الغلبة على بيريا، انطلق خروتشوف فوراً إلى الأمام، وضمن لنفسه موقعاً متقدماً في التراتبية الحزبية. وتغيّر كثيراً حتى مظهر خروتشوف الخارجي بعد إعدام بيريا. فقد أصبح أكثر ديناميكية وأكثر ثقة بالنفس. وقد لاحظت من خلال جملة من التفاصيل الصغيرة كيف يتجلّى «تبدل المواقع» هذا في الواقع العملي. فالحرس الشخصي لخروتشوف أصبح يتصرف على نحو مغاير، بوقاحة أكثر (من خلال تصرف الخدم يمكن دوماً معرفة مكانة السيد ودوره). كانت سيارة خروتشوف الأولى التي تُقدم عند مدخل القاعة، وكان يخرج لمرافقته حتى الباب أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية الآخرون، وسوى ذلك من التفاصيل.

تذكّر خروتشوف أكثر من مرة تلك الأيام الفاصلة بالنسبة لـه. كانت تبرز في أحاديثه مفارقات وتناقضات وكليشهات وتعابير ممجوجة، إلا أن مسار الأحداث كان ينعكس بدقة في هذه الأحاديث.

وافق الجميع على اعتقال بيريا... وفي أحد اجتماعات هيئة رئاسة اللجنة المركزية، وبعد أن واجهوا بيريا بكل ما يظنونه به، كان على مالينكوف أن يضغط زر الجرس. لكن الأمور تعثرت، كما يقول خروتشوف، إذ لم يتمكن مالينكوف، لشدة قلقه، من العثور تحت الطاولة على علبة الجرس، وقام نيكيتا سرغييفتش بضغط الزر الاحتياطي تحت طاولته. دخلت مجموعة من العسكريين، وأبلغ الماريشال

جوكوف والجنرال موسكالينكو بيريا بأنه موقوف. مد بيريا يده بسرعة نحو الحقيبة التي كانت عند النافذة، إلا أن خروتشوف أوقع الحقيبة أرضاً، لاعتقاده أنها تحتوي على سلاح، لكن تبيّن أنها فارغة.

أخرج الاجتماع الموسع للجنة المركزية، الذي عُقد آنئذٍ، بيريا من بين صفوفه، وفصله من الحزب، كما جرّدوه من كافة الأوسمة والألقاب، وأصبح متهماً خاضعاً للتحقيق. لم يرَ حرس بيريا حتى كيف نقلوه إلى مقر أركان منطقة موسكو العسكرية، حيث كان عليه أن ينتظر المحكمة والحكم. وعادت الدبابات التي كانت متوقفة في شوارع موسكو إلى وحداتها.

كم من الروايات المختلقة نشرتها الصحافة في العالم أجمع! حتى أنه قيل إن بيريا قد قُتِل في السيارة مباشرة دون محاكمة. وفي تلك الأيام، نشرت صحفنا خبراً حول تشكيل هيئة قضائية خاصة في المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي ترأسها الماريشال إ. س. كونيف المعروف في أوساط الناس. كانت تركيبة المحكمة توحي بالثقة والاحترام. وقد استمرت التحقيقات عدة أشهر، وجرت المحاكمة وراء أبواب مغلقة.

... بعد أن درست الهيئة القضائية الخاصة في المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي الوثائق المقدّمة من النيابة العامة في الاتحاد السوفياتي، واستمعت إلى المتهمين حكمت على بيريا كعدو للشعب والحزب، وعلى أعوانه الرئيسيين الستة بالعقوبة القصوى وهي الإعدام رمياً بالرصاص. وفي ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣ تم تنفيذ الحكم.

وإليكم كيف تذكر ما حدث منظّم «الحدث الفاصل في تاريخنا» والشخص الرئيسي في «تعطيل بيريا»، بحسب قول صهر السكرتير الأول السابق للجنة المركزية.

مقتطفات من مذكرات ن.س. خروتشوف:

"اقترحتُ أن نطرح على الاجتماع الموسع، كما كنا قد اتفقنا، المسألة المتعلقة بإعفاء بيريا (هيئة رئاسة اللجنة المركزية هي التي تقوم بذلك) من جميع المناصب التي يشغل. كان مالينكوف لا يزال في حالة ذهول، حتى أنه لم يطرح اقتراحي على التصويت، إنما ضغط فوراً على الزر السري مستدعياً العسكريين. كان جوكوف أول من دخل، ثم تبعه موسكالينكو والآخرون. وكان جوكوف آنذاك نائباً

لوزير الدفاع في الاتحاد السوفياتي، وكان موقفنا جيداً تجاهه... لماذا أشركنا العسكريين؟ برزت آراء تقول إنه إذا كنا نحن قد قررنا اعتقال بيريا، ألن يعمد هو إلى استدعاء رجال الأجهزة والحرس الذين كانوا خاضعين له ويأمر بعزلنا نحن؟ في هذه الحال سنكون نحن في موقف عاجز، لأنه كان يوجد في الكرملين عدد كبير من الأشخاص المسلحين والمدرّبين التابعين لبيريا... عهدنا في البداية باعتقال بيريا إلى موسكالينكو مع خمسة جنرالات. وكان عليه أن يحضر ورفاقه مع أسلحتهم، وكان على بولغانين أن يدخلهم مع أسلحتهم إلى الكرملين. فقد كان على العسكريين آنذاك أن يسلّموا الحرس أسلحتهم لدى دخولهم الكرملين. وعشية الاجتماع انضم إلى مجموعة موسكالينكو الماريشال جوكوف وبعض الأشخاص الآخرين. دخل المكتب عشرة أشخاص أو أكثر، قال مالينكوف بصوت رقيق ملتفتاً إلى جوكوف: «أقترح عليكم كرئيس لمجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي إلقاء القبض على بيريا». أمر جوكوف بيريا: «إرفع يديك!». شَهَرَ موسكالينكو والآخرون أسلحتهم ظناً منهم أن بيريا قد يلجأ إلى استفزاز ما. اندفع بيريا نحو حقيبته التي كانت عند النافذة خلف ظهره. التقطت أنا يد بيريا كي لا يتمكن من استخدام السلاح إذا كان في الحقيبة، وتحققنا فيما بعد من أنه لم يكن لديه سلاح لا في الحقيبة ولا في جيوبه. فقد كانت حركته ردة فعل انفعالية لا أكثر.

نُقل بيريا تحت الحراسة إلى مبنى مجلس الوزراء قرب مكتب مالينكوف. وقررنا على الفور الدعوة غداً أو بعد غدٍ، أي في أسرع وقت ممكن، إلى عقد اجتماع موسع للجنة المركزية للحزب وطرح موضوع بيريا. وفي الوقت نفسه أعفينا النائب العام للاتحاد السوفياتي من منصبه لأنه لم يكن يوحي لنا بالثقة، وكنا نشك، فيما إذا كان سيتمكن من إجراء التحقيق بشكل موضوعي. وثبّتنا رودنكو نائباً عاماً جديداً وعهدنا إليه إجراء التحقيق في قضية بيريا. وهكذا تم إلقاء القبض على بيريا. لكن أين يمكن الإبقاء عليه؟ لم يكن بوسعنا أن نعهد إلى وزارة الداخلية بحراسته لأنها كانت إدارته والناس فيها ناسه.

كان كروغلوف، وعلى ما أعتقد سيروف، نائبين له. لم اكن أعرف كروغلوف جيداً، بينما كنت أعرف سيروف معرفة أفضل وكنت اثق به. أجل لقد كنت وما زلت أعتبر سيروف شخصاً نزيهاً. وإذا كان من مأخذ عليه، كما على سائر رجال الأجهزة، فلأنه كان ضحية للسياسة العامة التي كان يتبعها ستالين. ولهذا اقترحت تكليف سيروف نفسه حراسة بيريا، غير أن الرفاق الآخرين قالوا بضرورة التزام الحذر أكثر. أما كروغلوف فلم نكن نثق به، واتفقنا أن من الأفضل إيكال هذه المسألة إلى قائد قوات منطقة موسكو المضادة للطيران موسكالينكو. أخذ

موسكالينكو بيريا ووضع في حراسته أشخاصاً يثق بهم، ونقله إلى مقر قيادته في ملجأ تحت الأرض. لقد رأيت أنه كان ينفذ المهمة على خير وجه. واختتم الاجتماع عند هذا... قدموا لنا لاحقاً لائحة تضم اسم أكثر من مئة امرأة أتى بهن إلى بيريا الأشخاص التابعون له. وكان الاستقبال لديه واحداً بالنسبة للجميع. فكل من كان يزوره للمرة الأولى في بيته، كان يقدّم له طعام الغداء ويقترح عليه شرب نخب ستالين، وكان يمزج النبيذ مع عقار منوم...».

لم يغب «الموضوع النسائي» عن بال الكسي أدجوبي أيضاً، إلا أنه، خلافاً لوالد زوجته يحدّد رقماً آخر. فهو يقول ان اللائحة التي تحدثوا عنها كثيراً، والتي، كما اتضح فيما بعد، لم يرها أحد في يوم من الأيام، كانت تضم اسم ٢٠٠ امرأة. ثمة مصادر أخرى لا تلتفت إلى الأرقام الصغيرة، بل تحدد أرقاماً أعلى بكثير. فالبعض يقول ٧٠٠ والبعض الآخر ٨٠٠ امرأة. وما كنت لأتوقف عند هذا الكذب المفضوح في مذكرات صهر خروتشوف، لو أنه لم يتحدّث أيضاً بعد عشرات السنين عن مغامرات بولغانين وأباكوموف الغرامية... فحتى لو كانت مثل هذه المغامرات قد حصلت في الواقع، لما كان بوسع ألكسي أدجوبي أن يعلم بها في ذلك الحين. فصعوده الجامح بدأ لاحقاً... إننا مرة أخرى في الأغلب أمام تكرار للرواية لا أكثر...

إن مؤلف «البست سيللر» الجديد هذا في أزمنة البيروسترويكا يرتكب، للأسف، خطايا أخرى بشأن الوقائع الفعلية. فلم أتمختر أنا يوماً، على سبيل المثال، بلباس الجنرال لا في عرسي ولا لاحقاً. كما أنه يكذب صراحة أيضاً حين يقول إنني غادرت مع مارفا إلى سفردلوفسك بعد إعدام والدي. وكتب أدجوبي يقول:

"حين قتلوا بيريا بعث سيرغو ونينا تيمورازوفنا برسالة إلى خروتشوف أثارت مشاعره، وصنّفهما نيكيتا سيرغييفتش. فقد كتبا له أن ما حدث أمر طبيعي، وأنهما لا يعرفان الكثير من الأمور، بالطبع، إلا أنهما كانا يريان أن هذا الشخص كان ينزلق إلى الهاوية، وأنهما كانا مضطرين للانزلاق معه إلى هذه الهاوية".

تذكر أيها القارئ هذه الأسطورة أيضاً، والتي وزّعت بعشرات الآلاف من النسخ، حين تقرأ عن المصير المأساوي لأسرة «عدو الشعب والحزب»...

وبالمناسبة، إذا صدّقنا أدجوبي، فإن «بيريا قد بعث قبل إعدامه برسالة إلى خروتشوف في اللجنة المركزية التمس فيها الرحمة، ومنحه فرصة للتكفير عن ذنبه في أية ظروف، حتى لو كانت الأشغال الشاقة»... ونعتقد هنا أن التعليق لا لزوم له البتة. فوالدي، لافرنتي بافلوفيتش بيريا، لم يكن بوسعه أن يكتب رسائل «توبة» إلى الرفيق خروتشوف المندفع نحو السلطة، ولا أن يدلي بالشهادات الملائمة لا في شهر كانون الأول/ديسمبر ولا تشرين الثاني/نوفمبر ولا تشرين الأول/أكتوبر ولا أيلول/سبتمبر ولا في تموز/يوليو، لأنه قُتل في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٣ في مدينة موسكو دون محاكمة. وكان ذلك على النحو التالي:

لسبب ما تم تأجيل الاجتماع في الكرملين وغادر والدي إلى البيت. فقد كان يتناول طعام الغداء عادة في البيت. وفي منتصف النهار تقريباً، رنّ جرس الهاتف في مكتب الجنرال كولونيل وبطل العمل الاشتراكي ثلاث مرات بوريس لفوفيتش فانّيكوف، المساعد المقرّب إلى والدي آنذاك في الشؤون النووية. كنت في مكتب بوريس لفوفيتش، حيث كنا نعد تقريراً، تمهيداً لرفعه إلى الحكومة حول الاستعداد لإجراء التجارب.

كان المتّصل هو الطيار المدرِّب آمت ـ خان سلطان، بطل الاتحاد السوفياتي مرتين. وكنا، نحن الإثنين وسيرغي آنوخين، بطل الاتحاد السوفياتي أيضاً والطيار المدرِّب الرائع، نعمل معاً في تلك السنوات، وكنّا مقرّبين بعضنا من بعض. كان آمت ـ خان يصيح في السمّاعة:

ـ سيرغو، لقد جرى تبادل لإطلاق النار عندكم في البيت، هل فهمت كل شيء؟ عليك بالفرار يا سيرغو؟ سوف نساعدك نحن...

كان لدينا سرب طيران، بالفعل، ولم يكن الاختباء في فنلندا، مثلاً، أو السويد يشكل أية صعوبة. وقد اقتنعت غير مرة لاحقاً أن هذين الطيارين هما صديقان 'حقيقيان.

أدركت فوراً، أن ثمة مؤامرة ضد والدي، وإلا ماذا يعني تبادل إطلاق النار في بيتنا؟ أما ما تبقى، فكان للمرء أن يبني تخمينات حوله لا أكثر. فماذا

يعني الفرار في مثل هذا الوضع؟ إذا كان والدي موقوفاً، فالفرار يعني دليلاً إضافياً ضده، ولماذا عليّ أن أفر، وممن عليّ أن أفر، إذا كنت لست على علم بأنني قد ارتكبت أنا، أو ارتكب والدي أي ذنب؟ باختصار، رفضت الاقتراح، وحدثت فانِّيكوف على الفور بكل ما جرى.

غادرنا الكرملين معاً إلى بيتنا، الكائن في شارع مالانيكيتسكايا القريب من ساحة فاستاني. كنا نعيش في بيت منفرد مؤلّف من طابق واحد شُيّد قبل الثورة. كان والدي يشغل ثلاث غرف مع والدتي، وكنا أنا وأسرتي نشغل غرفتين.

حين وصلنا، لم نلاحظ من جهة الشارع أي شيء غير اعتيادي. أما من جهة الدار، فقد كانت تقف في الداخل ناقلتا جند مدرّعتان. وقد سمعت لاحقاً عن دبابات كانت تقف قرب بيتنا، إلا أنني شخصياً لم أشاهد سوى ناقلتي الجند وجنود. ولمحت على الفور الزجاج المحطم في نوافذ مكتب والدي... هذا يعني أنهم قد أطلقوا النار فعلاً... كان عدد حرس والدي الشخصي لا يتعدّى عدد أصابع اليد. لم تجر معركة حقيقية، بالطبع. فقد حصل كل شيء، على ما أفهم، على حين غرّة وبسرعة فائقة.

كان علينا، أنا وفانِّيكوف، أن نلتقي والدي في الساعة الرابعة. لم نلتقِ ...

لم يسمح لنا الحرس في الداخل بدخول المنزل. طلب فانِّيكوف إيضاح الأمر، وحاول التدقيق في وثائق العسكريين، لكنني كنت قد أدركت كل شيء. لم يكن والدي في المنزل. هل اعتقل؟ هل قتل؟ حين كنت عائداً إلى السيارة سمعت أحد الحراس يقول: «سيرغو لقد رأيت كيف نقلوا أحداً ما على الحمّالة وهو مغطّى بشادر...».

عدنا إلى الكرملين صامتَين. كنت أفكر بما سمعته للتو. من كان على الحمّالة المغطاة بشادر؟ هل سارعوا إلى نقل أحد أفراد الحرس؟ من المشكوك فيه أن يكون الأمر كذلك.

عثرت مع الوقت على شهود آخرين أكّدوا أنهم رأوا تلك الحمّالة...

كان كورتشاتوف ينتظرنا في مكتب فانّيكوف. أخذ الإثنان يتّصلان هاتفياً بخروتشوف. فقد كانا يخمّنان، كما يبدو، من يقف وراء كل ذلك. وكان يتواجد حوالى ستة أشخاص أثناء ذلك الحديث.

قال فانّيكوف، إن ابن لافرنتي بافلوفيتش موجود في مكتبه، وأنه يأمل كثيراً، هو وكورتشاتوف، بألا يصيبه أي أذى. طمأنهما خروتشوف على الفور، وأشار بأن يذهب سيرغو إلى ذويه في البيت الصيفي، وبألّا يقلق.

ودّعت هؤلاء الناس، وأنا على قناعة راسخة بأننا لن نلتقي أبداً من جديد، وغادرت بعد أن تعانقنا أنا وفانّيكوف.

كان ينتظرني عند بوابة الخروج حرس مسلحّ. صعد عدة أشخاص معي في السيارة، وتبعتنا سيارة أخرى تحمل جنوداً مسلحين. حين وصلنا إلى البيت الصيفي، رأيت أنه مطوّق من قبل عسكريين، وكانت آليات مصفّحة متوقفة في صحن الدار.

عبرت إلى المنزل دون أن أتوقف. كان الجميع، والدتي ومارفا والأولاد والمربية، مجتمعين في غرفة واحدة. كما كان في الغرفة أيضاً أشخاص مسلحون.

كانت والدتي وزوجتي متماسكتين، وكان جلياً أنهما بانتظاري.

- هل رأيت والدك؟ كان هذا هو السؤال الأوّل الذي بادرتني به والدتي.

أجبت بأنه لم يعد على قيد الحياة في الأغلب، ورويت بحضور الحرس ما شاهدت في المنزل منذ وقت قريب.

لم تبكِ والدتي إنما غمرتني بقوة أكثر، وأخذت على الفور تهدّئ من روع مارفا التي كانت تنتظر المولود الثالث.

لم يمر نصف ساعة من الوقت حتى دخل الغرفة شخص يرتدي الزي العسكري وقال:

ـ ثمة أمر بنقلك أنت وزوجتك والأطفال إلى منزل صيفي آخر.

وبقيت والدتي هنا.

قالت والدتي بصوت منخفض جداً وهادئ، وقد يكون تراءى لي أنها تكلمت بصوت منخفض، إذ إن مارفا سمعتها أيضاً: ـ لا تخشَ شيئاً، يموت المرء مرة واحدة، ومهما حدث ينبغي مواجهة ذلك بكرامة. لن نتحزَّر حول ما جرى، فلا حيلة لنا إذا كانت تلك مشيئة القدر. لكن عليك أن تعلم بأن أحداً لن يجرؤ على مس زوجتك وأولادك، فالانتلجنسيا الروسية لن تسمح لهم بذلك...

كانت والدتي على ثقة، شأني أنا، بأننا لن يرى أحدنا الآخر بعد هذا. تعانقنا من جديد وتبادلنا القبل، فلا أحد يعرف ماذا سيحمل الغد لنا.

سمحوا لوالدتي بمرافقتنا حتى السيارة، وحين جرى الوداع لم يكن بوسعي أن أفترض أن بانتظاري فراقاً آخر مع زوجتي والأولاد.

غادرنا في سيارتين، كانت إحداهن تُقلّ ابنتي البكر التي ولدت العام ١٩٤٧ والصغرى التي ولدت العام ١٩٥٠، والسيّارة الثانية تُقلّنا أنا وزوجتي.

كان بوسعي أن أخمّن فقط إلى أين كانوا ينقلوننا، مررنا بجانب منزل ستالين الصيفي في كونتسيفا، وهو ما يسمّى «بليجنايا» ولم نتوقّف عنده. بعد حوالى عشرين دقيقة، انعطفنا في طريق زراعية وتوقفنا عند واحد من البيوت الصيفية الحكومية، كان ستالين يزوره أيضاً في بعض الأحيان. لم يصدف أن زرت هذا البيت سابقاً، كان بيتاً خشبياً صغيراً شأن سائر البيوت الحكومية الصيفية في تلك المرحلة، وكان علينا أن نُمضي هنا في المجهول مدة شهر ونصف الشهر.

كان يؤمّن الحراسة الخارجية للمنزل، حيث كنت أتواجد وأسرتي، تشكيل عسكري ما مزوّد برشاشات وبندقيات. كما كان يوجد أشخاص مسلّحون داخل المنزل أيضاً، إلا أنهم كانوا يرتدون الزي المدني. وكانت ناقلات جند مدرعة تقف في صحن الدار كما في منزلنا الريفي.

وما كان سوى هذا الأمر، وتعطيل أجهزة الهاتف، يذكرنا بأننا معتقلون.

نظام تغذية عادي، نزهات في الأرض المحيطة بالمنزل، سلوك مهذب من قبل الحرس...

كان قائد الحرس يردُّ في مواجهة أسئلتي حين كنت أستفهم عن وضعنا الحالي وما إذا كان بوسع زوجتي أن تغادر مع الأولاد، قائلاً: ـ أنت رسمياً مُعتقل يا سيرغو لافرنتيفتش. إذا احتاجت زوجتك إلى مساعدة طبية فسوف نستدعي الطبيب للحضور إلى هنا. وما عدا ذلك، فليست لدي تعليمات أخرى.

ماذا جرى لوالدي؟ ماذا جرى لوالدتي؟ ماذا جرى في البلاد في نهاية المطاف؟ كان هذا فقط ما يشغل كل تفكيري.

كان المحيطون بنا يتحاشون الاتصال بنا، وإذا ما استفسرنا نحن عن شيء، كانوا يستدعون رئيسهم الذي كان لديه جواب واحد عن كل الأسئلة: «ليست لدي تعليمات أخرى».

طلبت منهم صحفاً عدة مرات، وكان الجواب دائماً هو نفسه :«ليس مسموحاً». لقد أصبح واضحاً أنهم يرغبون في إبقائنا في عزلة تامة عن العالم الخارجي، إذ لا هاتف ولا راديو ولا صحف.

حين كنت في أحد المرات أتنزه مع الأطفال في الحديقة، رأيت صحيفة متروكة على المقعد. لست أدري ما إذا كان الأمر متعمّداً أم لا، إلا أن ما عثرت عليه جاء في وقته تماماً، فقد نشرت الصحيفة الاتهامات الموجّهة إلى والدي. وإذا كنت ما زلت أُشكك في الأمر قبل ذلك، فقد أصبح واضحاً لديّ الآن بصورة نهائية، أن ما جرى في البلاد هو انقلاب ضد مجموعة محدّدة من الناس. وكنت أعتقد في الحقيقة أن والدي ليس الوحيد الذي وقع ضحية المؤامرة، بل ثمة أشخاص آخرون من القيادة العليا للبلاد. لكن الأمور اتضحت بصورة نهائية الآن.

لم أصدق، بالطبع، الخبر عن اعتقال والدي، وذلك من خلال المقارنة بين ما قرأته وما شاهدته شخصياً في شارع مالانيكيتسكايا.

بعد مرور شهر ونصف الشهر، دخل رجال مسلّحون غرفتنا في الساعة الثالثة ليلاً وأبلغوني أنني معتقل. فقلت لنفسي، وأخيراً انتهى، على الأقل، ذلك الغموض الذي يحيط بي.

نظرت إلى الساعة وابتسمت: وهل كان عليهم أن ينتظروا الليل العميق كي يبلغوني بأمر الاعتقال.

هدّأتُ ما وسعني من خاطر زوجتي، قائلاً لها إن الأمور ستكون على ما يرام، علماً أنني أنا نفسي لم أكن أصدّق ذلك.

نُقلت تحت الحراسة إلى سجن ما، عرفت من خلال الطريق إليه أنه سجن ليفورتوفو، وهو ما تأكد لاحقاً.

ما إن عبرت عتبة السجن حتى حاولوا تفتيشي. إلا أنني لم أتمالك نفسي وأطلقت العنان لكل ما يجول في داخلي.

قيّدوني ووضعوا الأغلال في يدي، حاولوا إلباسي ثياب السجن، إلا أن القياس لم يناسبني، هكذا كانت البداية.

لقد سمعت في حينه أحاديث فانّيكوف وميننتس وتوبوليف وغيرهم من الأشخاص المشهورين والأقلّ شهرة الذين مرّوا، بحسب قولهم، في «الجامعات الشيوعية»، ولم أكن لأفكر مجرد التفكير بأنني سأكون يوماً ما في الوضع نفسه. إلا أن «ألاعيب» السجن هذه كانت جميعها معروفة لدي، فالأساليب التقليدية للسجّانين تتمثل في ممارسة أقصى الإذلال للسجين لتحطيم إرادة المقاومة لديه.

من وجهة نظر الهندسة المعمارية للسجون (كان لدي الوقت لتقييم ذلك) كان السجن الذي نقلت إليه سجناً من الدرجة الممتازة... وكانوا قد شيّدوه في عهد يجوف. ومثل هذه السجون تظهر كثيراً في الأفلام الأميركية، وهي تتكوّن عادة من ستة أو سبعة طوابق مع بهو مشترك.

بعد مضي سنوات عديدة، كتب سجين آخر من نزلاء ليفورتوفو وهو ألكسندر سولجنتسين يقول: « يضم الجناح الشهير في ليفورتوفو، وهو على

شكل الحرف (K)، بهواً مشتركاً بين جميع الطبقات، وممرات مسيّجة بشباك معدنية، وشخصاً ينظّم الحركة، ويحمل أعلاماً صغيرة، ومعبراً إلى جناح التحقيق. يحققون بالدور في مكاتب مختلفة...».

كم من المصائر تحطّمت بين جدرانك يا سجن ليفورتوفو!؟... في زنزانتي الأولى كانت تنتظرني مفاجأة، فقد كان يوجد حارسان. وقررت أن الأمر جديد، إذ لم أسمع عن شيء كهذا في أحاديث أصدقائي ومعارفي. كما كان يوجد مركز حراسة عند الباب أيضاً. كانت الزنزانة عبارة عن قفص لا يتعدّى طوله ست خطوات وعرضه متربن. وكانت النافذة، ذات الشبّاك المعدنية، مرتفعة جداً، يستحيل رؤية ما يجري خلفها. كان السرير مثبتاً بالأرض، وكانت توجد مغسلة وما يسمّى بمرحاض. إنه «سكن» عادي لسجين.

كان «جاراي» يجلسان بقربي على كرسيّين بلا مسند للظهر، وكانا باللباس المدني، ويتم تبديلهما كل أربع ساعات. إنني لا أفهم حتى الآن ما الداعي كان لكل ذلك: مركز حراسة مزدوج في الزنزانة وآخر مزدوج عند الباب...

ومع كل ذلك لم يُبرزوا أمراً بإلقاء القبض علي، كما لم أكن أستدعى للتحقيق. حاولت غير مرة أن أتحدث إلى الحرّاس، لكن بلا جدوى. وفي إحدى المرات، نفد صبر أحدهم وقال:

ـ ولماذا تتحرّش بنا؟ نحن حرس، قالوا لنا أن نجلس هنا، وها نحن نجلس، إننا لا نضايقك.

فهمت أن لاطائل من الحديث، وأغلب الظن أنهم، فعلاً، ليسوا على علم بشيء. بعد أسبوعين سئمت كل ذلك، وعمدت إلى إثارة الشغب: «لماذا أنا هنا؟ لماذا لم يُبرز حتى الآن أمر بإلقاء القبض علي؟».

بعد مضي بعض الوقت، فُتح الباب ودخل الزنزانة كابتن، وقال:

ـ ما الذي تحاول الوصول إليه؟

أجبت:

- إذا لم يتم إبراز أمر بإلقاء القبض علي، سوف أبدأ بالتصرف على غير ما كان حتى الآن.

قال مهدداً بصوت خفيض:

- جرّب...

لم أتمالك نفسي، إذ ظهر، على ما يبدو أثر التوتر العصبي في الأشهر الأخيرة، وسدّدت له ضربة قبل أن يبتعد عني.

أشبعوني ضرباً على الفور، وشدوا وثاقي. بعد ساعة، دخل أشخاص باللباس الأبيض وفكوا وثاقي وهددوا بنقلي إلى غرفة مظلمة.

قررت ألا أتحدث إلى أحد واستدرت نحو الحائط.

في هذا الوقت، دخل الزنزانة عدد من الأشخاص المدنيين وعسكريان برتبة كولونيل:

- إليك الأمر بإلقاء القبض عليك.

أخذت الورقة وقرأت فيها: «نظراً للمشاركة في مؤامرة ضد الدولة...». أعدت قراءتها مرة أخرى، وكانت لا تحمل أي توقيع أو خاتم... كنت أعرف من خلال الأحاديث المتعددة تلك أن الوثائق المشابهة يجب أن تحمل بالضرورة توقيع النائب العام، وقلت:

- هذه إفادة مزورة وليست وثيقة.

احمرّ وجه الكابتن، وقال:

- إذا كنت ستثير الضجة، فسوف يتكرر كل شيء من جديد.

قررت في نفسي أنه لم يعد ثمة ما أفقده، وقلت:

- إن كنتم تريدون ضربي فاضربوني، ولأسهّل الأمر عليكم سوف أبدأ أنا بالضرب.

وبالفعل، قمت أنا أولاً بتسديد ضربة، لم يتبعها أي جواب.

غادر الكولونيلان مع الأشخاص المرافقين.

كانوا قد انتزعوا مني الساعة قبل ذلك، ولهذا لست أدري كم كان الوقت حين اقتادوني إلى الاستجواب الأول. كان يسير بجانبي أربعة من الحرس، وعبرنا ممرات ما، وأدركت أننا قد أصبحنا في مبنى آخر. كان يسير في المقدّمة شخص يحمل أعلاماً صغيرة ويقوم دورياً بإعطاء إشارات ما، يفترض أن تعني بألا يلتقينا أحد، وكنت أعرف أن هذا أيضاً هو شأن عادي من شؤون السجن.

مررنا بجانب أبواب عديدة ودخلنا مكتباً كبيراً. كان فيه طاولة وكرسي وبالقرب منها طاولة صغيرة. كان يجلس جانباً عدد من الأشخاص، بمن فيهم جنرالات وأشخاص مدنيون.

اقترحوا عليّ أن أجلس. فلم أجب، بل بقيت صامتاً.

ـ يتم استجوابك في قضية مؤامرة معادية للثورة، تهدف إلى قلب النظام السوفياتي وإحياء الرأسمالية...

لقد بدأت تتوضح لي الصورة الكاملة لكل ما جرى. «تنظيم إرهابي»، «تجسس لصالح المخابرات الإنكليزية»، « حيازة أجهزة اتصال »، «صلات سرية»، «لقد افتضح أمرك»...

إذاً أنا متآمر وجاسوس إنكليزي، هل هم يصدّقون فعلاً ما يقولونه الآن؟ لكن من هو ذلك الشخص، الذي بحاجة إلى كل هذا؟

لقد علمت لاحقاً أنه تمت مصادرة جهاز للتمرين، وليس للإرسال، من منزلي. إن هواة اللاسلكي يعرفون أنه حين يمر وقت طويل دون تمرين يفقد المرء خبرته، لهذا كنت أحاول دائماً أن أجد الوقت للتمرين. وقد صنعت هذا الجهاز أنا شخصياً، دون أن أفترض أنه سيصبح يوماً ما "دليلاً حسياً" في "قضيتي".

لقد خيَّب الخبراء، بالطبع، ظن المحققين اللاحقين معي بتأكيدهم أن "هذا ليس جهاز إرسال... بل جهاز تمرين عادي". إلا أنني لم أعرف ذلك إلا لاحقاً.

أما في ذلك الحين، فقد استمعت إلى هذا الهراء حتى النهاية وقلت:

ـ ومع هذا أريد أن أرى الوثيقة...

أثارت كلماتي ردة فعل عنيفة، فقال أحد الحاضرين بصوت جاف:

ـ لسنا ملزمين بإطلاعك على أية وثائق.

أجبت:

ـ في هذه الحال لست ملزماً بالإجابة عن أسئلتكم، ولن أخوض معكم في أي حديث إلى أن أُبلَّغ الاتهام رسمياً، وأعرف أخيراً لماذا أنا هنا.

سمعت فوراً بعد ذلك:

ـ إلى الزنزانة!

استدرت وخرجت.

ومهما بدا الأمر غريباً، فإنني لم أعد إلى زنزانتي، ولسبب ما أُعِدتُ إلى زنزانة أخرى، ونقلت بعد يومين إلى زنزانة ثالثة ثم إلى رابعة... وكانوا دائماً ينقلونني إلى الزنزانة الجديدة بعد الاستراحة، فما أن تتمدد حتى يعمدون إلى إنهاضك. استمرّت الحال على هذا المنوال فترة طويلة مع فترات تقطُّع تدوم يومين أو ثلاثة.

قررت بيني وبين نفسي أنها لعبة أخرى من ألاعيب السجن.

استُدعيتُ إلى التحقيق مجدداً بعد مرور عشرة أيام، ولفت انتباهي فوراً أن عدد الأشخاص في المكتب أقلّ مما في السابق، وكان ثمة أشخاص جدد إضافة إلى الوجوه التي كنت أعرف.

قدّم أحد العسكريين نفسه، قائلاً:

أنا الجنرال ـ ليتنانت كيتاييف، نائب المدعي العام. ثم قدّم إليّ ورقة على الفور. كانت الورقة تحمل الاتهامات السخيفة نفسها، إلا أنها تحمل توقيع الجنرال ـ ليتنانت كيتاييف.

ـ وقّع!

رفضت التوقيع.

ـ ومع ذلك عليك أن توقّع بأنك قد تعرّفت إلى مضمونها.

تناولت قلماً وكتبت: «اطّلعت على الوثيقة السخيفة، بيريا».

ابتسم كيتاييف وقال:

ـ لا يسعك حتى أن تتصور أية إثباتات يمتلك التحقيق... إذا كنت ترغب في المحافظة على حياتك، فعليك أن تحدثنا بنفسك عن نشاطك المعادي للدولة، وسوف يقنعنا ذلك بأنك قد ندمت فعلاً...

إذاً، بدأ الحديث يتطرّق إلى حياتي.

لكن صمتي يبدو أنهم قد فهموه على هواهم، فانضمّ الآخرون على الفور إلى الحديث:

ـ إنك لا تزال فتياً... نحن ميّالون إلى مساعدتك، ومهمتك يا سيرغو لافرنتيفيتش هي أن تفهم ذلك على الوجه الصحيح، فعليك أن تسهّل لنا مهمتنا وتساعد بذلك نفسك، بالدرجة الأولى...

قررت أنه لا يجدر بي أن أتصرّف بعد على نحو عدواني، إذ لا يجوز الانجرار إلى أية استفزازات. وقد أدركت مع مرور الوقت، بالطبع، أنني كنت أتصرّف تصرفاً أحمق في الأيام الأولى لوجودي في السجن، إذ لم يكن علي أن أنزلق إلى العراك. فمن المحتمل أن هذا بالذات ما كانوا ينتظرونه مني.

قلت لهم بعد أن استمعت إليهم:

ـ لي طلب وحيد منكم: علّلوا هذه الاتهامات، فما تتحدثون به لا يمتّ إليّ بصلة.

ـ قد لا يمتُّ إليك أنت بصلة. أنت، بالفعل، لست مدبّر المؤامرة... المدبّر هو والدك. وهو نفسه أعطى، على كلٍّ، الإفادات المناسبة، ووالدتك اعترفت هي أيضاً بكل شيء. والدور الآن هو دورك يا سيرغو لافرنتيفيتش...

حسناً، إذاً أطلب مواجهة شخصية، أعتقد أن هذا مسموح في مثل هذه الحال؟

وبدأت الاستجوابات اليومية، لم يستخدموا العنف الجسدي ضدي، إلا أنهم حين أدركوا بأنني لا أنوي الحديث عن أية موضوعات أخرى سوى عن عملي، بدأوا ممارسة الضغط النفسي علي.

حين كان يتطرّق الحديث إلى ما يسمى بالنشاط المعادي للدولة من قبل والديّ، كنت أطلب مجدداً إطلاعي على محاضر التحقيق التي تحمل اعترافاتهم وإجراء مواجهة شخصية.

كان المحققون يقاطعوني قائلين:

ـ اعتنِ بنفسك!

استمر هذا أسابيع عدة.

لا أريد أن أثقل على القارئ بالتفاصيل، بل أقول فقط إن جميع الاتّهامات التي ذُكرت في التحقيقات لم تكن تستند إلى أية وقائع، وكانت تتركز حول اشتراكي في مؤامرة وهمية.

ـ كنت أقول للمحققين: من الصعب علي أن أدحض اتهاماتكم، فلننتقل إلى الوقائع الملموسة.

كان كيتاييف هو الأكثر وقاحة، إذ كان غالباً ما يوجه الإهانات لي ولوالدي. وفي إحدى المرات، حين كان يحاول أن ينطق ببذاءة تجاه والدتي، قاطعته قائلاً:

ـ خذ بالاعتبار أنني لست مقيّداً إلى الكرسي... أحذّرك: كلمة أخرى بحق والدتي وأشوّهك...

انفجر غضباً وصرخ:

ـ أيها السافل، سوف أجعل حياتك جحيماً وسوف تذكرني ما دمت حياً، لكن صدّقني أن ذلك لن يطول...

وبقيت أذكره...

لزمنا الصمت نحن الاثنين. ثم أخذ يقنعني، بعد أن هدأ، بأن بعض الأشخاص من ذوي المناصب الرفيعة قد أعطوه توجيهاً بانتشالي من السجن إذا وافقت على التعاون مع التحقيق.

لكن، بعد أن رأى أنه لا يستطيع الحصول على شيء، أخذ «يضغط»:

ـ سوف يولد لك طفل عمّا قريب... لكن يمكن ترتيب الأمر كي لا يولد...

بقي حوالى الشهر تقريباً وهو يحاول هزيمتي. كان يعدني بأنه إذا أعطيت إفادة ضد والدي يتم إطلاق سراحي على الفور، وأعود إلى أسرتي وعملي، وبأن أحداً لن يلاحقني وأسرتي بعد ذلك.

بدأوا حرماني من النوم، آنذاك، واقتنعت بمقدار قساوة هذا التعذيب. إنه لأمر فظيع ألا تنام طوال خمسة أو ستة أيام، فما إن تبدأ تغفو حتى يوقظوك دون التحدث إليك.

حين يضربونك تبقى على بدنك بقع زرقاء، أما هنا فلا يبقى أي أثر. بعد الأسبوع الأول من التعذيب كنت أستغرق في النوم مهما هزّوني. وإذ رأوا أنني أصبحت دوماً شبه غائب عن الوعي، أدركوا أنني وصلت إلى الحافة، وظهر أطباء السجن...

لم أر كيتاييف بعد ذلك، فقد تم نقلي إلى محقق آخر، وكان نائب المدعي العام كاماتشكين.

لم يكن يركّز هذا المحقق كثيراً على «نشاطي المعادي للدولة»، وكان يقول:

ـ سوف تحدثني أنت عن ذلك لاحقاً، أما ما يهمني أكثر، فهو كيف أصبحت عالِماً ودكتوراً في العلوم، فوالدك رجل أمّي وأنت كذلك...

استمرت هذه الأحاديث بيننا حوالى الشهر تقريباً. وكان هو مَن يتكلم بشكل عام، إلا أنه يبدو أنني أثرت استياءه بشدة في إحدى المرات؛ حين قلت له:

بوسعك، بالطبع، أن تكتب ما تشاء، إلا أنني لن أوقّع على شيء، وقد سنحت لكم الفرصة أن تقتنعوا بذلك، لكن ما دمت تكتب حاول، على الأقل، أن تكتب من دون أخطاء قواعدية، كما أن جملتك، دون مؤاخذة، ليست جملة أدبية.

ذُهل كاماتشكين لهذه الوقاحة. وتعيَّن علي أن أبيِّن له أخطاءه.

كان يحقّق في الوقت نفسه، على ما يبدو، مع الأشخاص الذين كانوا يعملون معي مثل ميكويان، توبوليف، لافوتشكين، كوروليوف... وكان يستفزّني بين الحين والآخر، بقوله:

ـ إنك تكيل لهم المديح دائماً، في حين أنهم لا يتحدثون عنك إلا بما يسيء إليك. ماذا يعني ذلك يا سيرغو لافرنتيفيتش؟

كان ذلك محض كذب، فجميع هؤلاء الناس زاروني، تحت هذه الحجّة أو تلك، حين كنت أعمل في الأورال وحدثوني كيف كانوا يجبرونهم على إعطاء إفادات ضدي وضد والدي، لكن شخصاً واحداً منهم لم يقل ما كانوا يتوقعونه منه.

بدأوا أولاً باستدعائهم إلى اللجنة المركزية، ومن ثم إلى النيابة العامة. لكن ذلك كان دون جدوى أيضاً.

بعد إطلاق سراحي، حدثني أصدقائي كيف نظّموا اجتماعاً حزبياً في المؤسسة التي كنت أشغل موقع كبير المصممين فيها، وتبيّن أن «ضيفاً رفيع المستوى» هو رئيس قسم الدفاع في اللجنة المركزية قد وصل خصيصاً لحضور هذا الاجتماع بتكليف مباشر من خروتشوف ومالينكوف. واقترحوا على رفاقي وصمي بالعار وطردي من الحزب.

استمر الاجتماع ثلاثة أيام. وعلى الرغم من "الضغط" الذي مارسوه على رفاقي ومرؤوسيّ السابقين، إلا أن أحداً منهم لم يقل إنني وصلت إلى منصبي بفضل الوساطات، وهو ما كان يحاول الجهاز الحزبي الوصول إليه.

رفض الاجتماع الحزبي التصويت على طردي من الحزب. وتعيَّن على اللجنة المركزية أن تقوم هي بنفسها بذلك، وهي سابقة لا مثيل لها. بل أكثر من ذلك، فقد أصدر مجلس الوزراء السوفياتي قراراً خاصاً، تم بموجبه إعادة اختبار جميع الأجهزة التي كنت مصمماً رئيسياً فيها. وشارك في إعادة الاختبار هذه، إلى جانب العسكريين، أعضاء لجنة خاصة شكّلتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. وكان الهدف من ذلك التأكد من عدم وجود تخريب محتمل. فلو كان يوجد أشخاص يرغبون في تعريضي للأذى لكان الأمر سهلاً جداً بالنسبة لهم في ذلك الظرف. إذ ليس من الصعب تقنياً تعطيل الإطلاق مرتين أو ثلاث مرات. لكن حتى هنا لم يوجد سافل واحد. وجرت جميع التجارب بنجاح وتأكدت صلاحية الأسلحة التي صمّمنا والحاجة إليها.

أناتولي ايفانوفيتش سافين، وهو حالياً كبير مصممين وأكاديمي، الأكاديمي راسبليتين الذي أصبح بعدي كبير المصممين في مؤسستنا، بونكين، وهو أكاديمي حالياً وعضو هيئة رئاسة أكاديمية العلوم، شابانوف، وكان نائباً لي وأصبح لاحقاً برتبة جنرال جيش ونائباً لوزير الدفاع في الاتحاد السوفياتي، هؤلاء وسواهم من الرفاق... لا زالت تربطني بغالبيتهم حتى الآن علاقات صداقة وعمل. ولا يزال هؤلاء جميعاً يعملون ويشغلون مواقع قيادية في التقنيات العسكرية. ولا زلت أشعر تجاههم بالامتنان حتى الآن مقابل كل ما فعلوه من أجلي. فقد أثبت هؤلاء الناس الشرفاء من خلال عملهم، وعلى الرغم من الاتهامات السخيفة الموجهة إلي، بأنني إنسان نزيه عمل لصالح وطنه. فهؤلاء هم الذين أعلنوا في تلك الأيام الصعبة بالنسبة إلي، ودون خوف على مناصبهم: «إننا نثق به. وإذا كان، بالفعل، مذنباً في شيء ما، فليقل ذلك بنفسه. دعوه يتكلم في هذا الاجتماع الحزبي».

لم أعرف آنئذٍ شيئاً من ذلك، بالطبع، فلم يكن لدي في الزنزانة لا صحف ولا راديو. ولم يكن الحرّاس يحدّثونني عما يجري وراء جدران السجن.

ما الذي كان يمكن عمله في وضع مثل وضعي؟ قرّرت أن أعلن الإضراب عن الطعام. لكن يبدو أنهم قد واجهوا ذلك غير مرة في سجن ليفورتوفو. فقد

اقتحم الزنزانة عدة رجال أوثقوا قيدي ووضعوا قيوداً في أرجلي وراحوا يصبون حساء الدجاج بالقمع عبر المعي الغليظ. تكرر ذلك عدة مرات، وأدركت أنه ينبغي عليّ أن أقاوم.

كانوا يكرّرون على مسامعي الكلمات نفسها يوماً بعد يوم، متذكّرين جهاز التدريب على اللاسلكي العائد لي:

ـ كنتَ على علاقة مع لندن...

حين أكد الاختصاصيون أن جهاز إرسال الإشارات هذا يمكن استخدامه للبث على مسافة مئة متر في أحسن الأحوال، غيّروا وجهة الحديث. وأدركت أنه لو كان المحقّقون يرغبون في استيضاح أمر ما لكانت أسئلتهم مختلفة كلياً.

حين كانوا يقتادونني في أحد الأيام إلى التحقيق، رأيت غيورغي ماكسيميليانوفيتش مالينكوف في مكتب المحقق. عضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ورئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي في سجن ليفورتوفو، لماذا...؟

تحدثنا معاً على انفراد، علماً أنني على ثقة بأنه كان يجري تسجيل الحديث، فكل زنزانات السجن مجهّزة على هذا النحو.

قال مالينكوف على الفور إنه جاء هنا لأجلي فقط.

باختصار، كان الحديث بيننا هو التالي: قال مالينكوف إنه يعتبر هو وزملاؤه أنني ملزم بالإدلاء بالإفادات المطلوبة مني، بوصفي عضواً في الحزب وعضواً مفيداً في المجتمع. «إن هذا ضروري». وقال إن مثل هذه الأمور سبق أن عرفها تاريخ دولتنا. وسوف يسمح ذلك بالإبقاء على حياتي ولقاء أسرتي.

شكرته على اهتمامه، إلا أنني قلت له إنه لا يسعني أن أخترع ما لم يكن موجوداً، ولا يمكنني أن أشتري حياتي بخيانة والدي ووالدتي. وأعتقد، يا غيورغي ماكسيميليانوفيتش، أن ذلك سيكون سفالة.

لم يكمل مالينكوف الحديث، وقال:

فكر... سأعود إليك مجدداً بعد أسبوعين أو ثلاثة، ونتحدث.

كان «جيراني» في الغرفة قد اختفوا، تمدّدت وأخذت أفكّر في ما يخفي وراءه كل ذلك. لماذا جاء مالينكوف لزيارتي؟ هل لإقناعي بتوقيع هذه الأوراق السخيفة؟ رئيس الحكومة يحتاج إلى اعترافي؟

كان حدسي قد أخذ ينبئني أن مالينكوف (صديق الأسرة!) قد خان والدي منذ زمن بعيد.

أخذت التحقيقات، التي كنت أُستدعى إليها يومياً، تحمل طابعاً غريباً. فكان المحقق يسأل ما إن كنت سمعت بهذا الاسم أو ذاك. هل سمعت؟ في أية مناسبة؟ حسناً، وهذا الاسم؟ ألم تسمع به؟ حسناً. وهذا هل كان يتردد إليكم في البيت؟ كان يتردد... كان من الواضح عدم وجود أي نظام في ذلك.

عاد مالينكوف مرة أخرى، بالفعل.

ـ ماذا؟

حسناً. قد يكون بوسعك المساعدة في أمر آخر! قال ذلك بصوت مليء بالإنسانية... هل سمعت شيئاً عن محفوظات يوسف فيساريونوفيتش الشخصية؟

أجبت قائلاً:

ـ ليس لدي أيّ تصور... فلم نتحدث عن ذلك في البيت قطّ.

ـ كيف... فقد كانت توجد محفوظات لدى والدك أيضاً، أليس كذلك؟

ـ لا أعرف أيضاً، لم أسمع بذلك قط.

ـ كيف لم تسمع؟! وهنا لم يتمالك مالينكوف نفسه فقال: ـ يجب أن تكون لديه محفوظات، يجب أن تكون!

كان من الواضح أنه قد تكدر جداً.

لم أكن، بالفعل، قد سمعت شيئاً عن محفوظات شخصية لوالدي، لكن الأمر لم يكن ليتغير، بالطبع، حتى لو كنت أعرف شيئاً ما عن الأمر. وكان كل شيء أصبح واضحاً تمام الوضوح، فهم بحاجة للمحفوظات التي قد تتضمن وثائق تسيء إلى سمعتهم.

كنت أعرف من خلال والدي أن ستالين يحتفظ في خزنته بأوراق ما، إلا أنه لم يعد على قيد الحياة، ولم أكن لأعرف أين أصبح أرشيفه الخاص. باختصار، كنت أنتظر ما سيقوله مالينكوف بعد ذلك.

نهض وقال:

ـ إذا كنت أنت لا تريد مساعدة نفسك...

استدار وخرج دون أن يكمل قوله.

كان ذلك هو لقاءنا الأخير، ولم أر مالينكوف بعدها، قط.

في الشتاء، وإثرما يسمّى بمحاكمة والدي (لم أعرف، بالطبع، أن التحقيقات قد انتهت وأن مجموعة من العاملين في وزارة الداخلية قد أعدمت رمياً بالرصاص، لأنني لم أكن أتلقى أية معلومات من الخارج)، نُقلت من سجن ليفورتوفو إلى سجن بوتيرسكايا. كانت الزنزانة هنا أكبر، وكان في جانب منها ثلاثة أسرّة مثبتة في الأرض، وثلاثة أسرّة أخرى في الجانب الآخر. وقد وضعوا فراشاً ما على السرير الأقرب إلى الباب وجعلوا الإضاءة قوية. بقيت في الزنزانة بمفردي.

لم يكن يسمح لي بالتنزه في سجن ليفورتوفو، وما كنت أخرج إلّا إلى التحقيق أو الحمام. أما هنا فقد سُمح لي بنزهة يومية لمدة نصف ساعة في باحة السجن .

كنت في سجن بوتيرسكايا أحمل رقماً كما في سجن ليفورتوفو. لم يطلعوني على ذلك، بل سمعت الحرس كيف كانوا يتحدثون عني: «الرقم اثنين رفض الخروج إلى النزهة»، لماذا الرقم اثنان بالذات لا أعلم حتى الآن.

لقد رفضت آنذاك، بالفعل، الخروج إلى النزهة، لأنني كنت متوعكاً صحياً. غير أن إدارة السجن فسّرت ذلك، على ما يبدو، بأنه نوع من الاحتجاج، إذ لم يلبث أن جاءني أحد كبار قادة السجن وهو بلباس كولونيل، وقال:

ـ لماذا ترفض الخروج إلى النزهة؟ هل أنت مريض؟ إنك بذلك تسيء إلى نفسك، حتى لو كنت متوعكاً، من الأفضل أن تخرج إلى الهواء الطلق.

شرحت له أن ليس للأمر علاقة بأي احتجاج، غير أنني أشعر بأني متوعك.

ـ في هذه الحال سوف أستدعي الطبيب، قالها الكولونيل وخرج.

ما لبث أن جاء الطبيب:

ـ إنك مصاب بالزكام، سوف ننقلك إلى المستشفى.

رفضت ذلك قائلاً:

ـ سوف أبقى هنا، وأعطني دواء إذا كان ذلك ممكناً.

وجاءوني بالدواء.

لم يكن الحرّاس في سجن ليفورتوفو يعرفون اسمي. أما هنا فكانوا يعرفونه، على ما يبدو. ففي أحد المرات وشوشني أحد الحراس قائلاً:

ـ كل شيء سيكون على ما يرام، سوف تبقى على قيد الحياة! لقد نزعوا الرقم عنك.

كان موقف هؤلاء الناس طبيعياً تجاهي. فهم أشخاص مجرّبون ويعرفون مع من يتعاطون.

لم أكن أوجّه الكلام البذيء والشتائم، على الأقل، إلى من لا يستحقّهما... كنت أتصرف بوقار. فكنت أنهض صباحاً وأقوم بالتمارين الرياضية وأغتسل بالمياه الباردة، ولعل ذلك كان يعجب الناس. كان السجّانون يرون أنني إنسان طبيعي، وكانوا يتعاطون معي على هذا الأساس.

كانت الشائعات تدور حولي، كما يبدو. إلا أن الأمر يختلف بين أن تسمع شائعات وروايات، وبين أن ترى بأم العين «عدو الشعب» هذا.

سمحوا لي باستخدام المكتبة، الأمر الذي لم يكن متوفراً في السابق. وأخجل من الاعتراف بأنني في السابق لم أتمكّن من قراءة عمل واحد من أعمال لينين حتى النهاية. أما في السجن، حيث كان الوقت متوفراً، فقد طالعتها جميعها بتمعنٍ.

لكن الأهم من كل ذلك أنهم زوّدوني بمجموعة كبيرة من الأدبيات التقنية ومسطرة لوغاريتمات وقواميس ضرورية للعمل.

قبل اعتقالي كنت أشتغل في تصميم جهاز لإطلاق الصواريخ البالستية من تحت سطح الماء. والعسكريون البحارة يعرفون أن تقلّبات الموج لا ينبغي أن تغيّر من بارامترات تحليق الصاروخ. وعدت أشتغل هنا في تصميم هذا الجهاز، وما زلت أحتفظ حتى الآن ببعض الصفحات من الحسابات التي قمت بها في سجن بوتيرسكايا، والتي أعادوها إليّ لاحقاً. أما الرسوم الهندسية نفسها، فكانوا يرسلونها إلى سفردلوفسك ليبدأ العمل بموجبها فوراً، وما زلت أحتفظ ببعض مسوّدات هذه الرسوم.

مرَّ وقت كثير قبل أن يسمحوا لي بممارسة عملي المحبب إلي. وكانت تتكرر الصورة نفسها: تحقيقات رتيبة وحراس... في الربيع اقتادوني مرة إلى الإعدام رمياً بالرصاص. كانوا ستة أو سبعة من حملة الرشاشات بإمرة ضابط. وضعوني عند الحائط وصدر الأمر. لم يتبق في داخلي سوى الغيظ، وقلت لهم: أيها الحمقى إنكم شهود وسوف يقضون عليكم بالطريقة نفسها.

لم أعرف إلا لاحقاً بأن كل هذه المسرحية لم تجر إلا لتراها والدتي، فقد كانت تقف عند النافذة في السجن (كل هذا الوقت كانوا يحتجزونها في سجن بوتيرسكايا) وترى المشهد من فوق، قالوا لها:

ـ إن حياته بين يديك، وقّعي على الإفادة فيبقَ على قيد الحياة.

كانت والدتي شخصاً ذكياً، وكانت تدرك ما الذي يمكن أن يحصل بعد مثل هذا الاعتراف.

حين أبعدت الورقة عنها أصيب الحرس بالذهول.

انتهى هذا المشهد بأن فقدت والدتي وعيها وغطّى الشيب رأسي. حين رآني الحرس، فهمت من تعابير وجوههم أن شيئاً قد تغير في مظهري. نظرت في المرآة ورأيت أنني قد أصبحت أشيب.

بعد حادثة الإعدام الوهمي هذا، نزعوا السرية عني وخفّفوا من وطأة نظام الاعتقال، ولاح في الأفق بريق من الأمل.

وعلى الرغم من أنني بقيت، كما في السابق، في الانفراد ودون أية صلة مع العالم الخارجي، إلا أنني كنت أشعر بأن شيئاً لا بد سيتغيّر.

اتّخذت التحقيقات طابع المحادثة، وقال لي نائب المدعي العام تسارغرادسكي إنه يتولى التحقيق في قضية والدتي. واعترف لاحقاً بأنه نظم محاضر استجوابات والدي التي قيل إنها جرت.

أثناء لقائنا الأخير في السجن، قال لي تسارغرادسكي:

ـ أنجز شيئاً جيداً، من الضروري أن تفعل شيئاً ما، بَرْهِن أن هذا كله ...

وبقيت هذه الكلمات في ذاكرتي.

ماذا يمكن لسجين أن يرى من أمرٍ حسنٍ في مدّعٍ عام؟ لقد بقيت أتذكّره رجلاً نزيهاً لهذه الجملة التي قال «إفعل... بَرْهِن». لقد ذكّرني كثيراً بالموظف الروسي القديم في المحاكم. وشعرت بأنه يدرك أن الأمر كله ليس سوى خدعة، ولم يكن يضمر أي سوء تجاهي، بالطبع. وأعرف من خلال أحاديثي مع والدتي أنه كان يتصرف معها أثناء التحقيقات تصرّفاً لائقاً للغاية. قال لها في إحدى المرات:

ـ إنني مضطر، يا نينا تيموريازوفنا، أن أطرح عليك أسئلة تتعلق بالنساء اللواتي كن عشيقات زوجك.

كانت والدتي قد اعتادت مثل هذه الأسئلة من قبل المحقّقين الآخرين. فقد كانوا يقنعونها بأن بيريا كان رجلاً فاسداً، ويطلبون منها ألا تدافع عنه!

أجابت والدتي تسارغرادسكي كما كانت تجيب الآخرين:

ـ لقد عشت حياتي كلها معه وأعرفه جيداً من هذا الجانب، وأنت تحاول إقناعي عكس ذلك، إنني لا أصدق ما تقول، كما لا أصدق كل ما تبقى.

خلال سنة ونصف السنة من السجن الانفرادي، لم يتمكنوا أن يقدّموا لها، وكذلك لي، وثيقة واحدة تسيء إلى والدي في مجال ما.

خلال الأشهر الأخيرة من إقامتي في سجن بوتيرسكايا، واصلت العمل في مشروعي، وفُوجِئتُ بأن لجنة خاصة قامت بالتحقّق منه، وأقرّت صلاحيته وضرورة تنفيذه.

وقد تم لاحقاً تزويد جميع الغواصات السوفياتية النووية الحاملة للصواريخ بهذا الجهاز الذي صمّمته في سجن موسكو.

وانتهت إقامتي غير المحددة في السجن. كان قد مر سنة ونصف السنة على اعتقالي، حين نقلوني في أحد الايام إلى لوبيانكا، دون أن أعرف سبب ذلك.

عبرت ممرات المبنى الرمادي العالي على ساحة دزيرجنسكي، كما كانت تسمّى الساحة آنذاك، ووصلت إلى مكتب رئيس الكي. جي. بي سيروف. كان في المكتب، إضافة إلى سيروف، المدّعي العام في الاتحاد السوفياتي رودينكو. وقد عرفته لأنه حضر التحقيق معي مرتين أو ثلاث مرات، وكان يجلس جانباً دون أن يطرح بنفسه أية أسئلة.

مقتطفات من مصادر رسمية:

رومان رودنكو: المدعي العام في الاتحاد السوفياتي منذ العام ١٩٥٣، ومرشّح لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي منذ العام ١٩٥٦ بطل العمل الاشتراكي.

ولد العام ١٩٠٧ في منطقة تشيرنيغوف. بدأ العمل في أجهزة النيابة العامة العام ١٩٢٥. وفي الثلاثين من العمر أصبح المدّعي العام في منطقة دونتسك. بعد تحرير أوكرانيا، أصبح المدعي العام في الجمهورية. كان قاضي الاتهام الرئيسي باسم الاتحاد السوفياتي في محاكمة نورنبرغ.

أعلن لي رودنكو في مكتب سيروف أن السلطة السوفياتية قد صفحت عني.

قلت:

ـ عفواً، لكنني لم أحاكم، ولم يكن يوجد أساس لمحاكمتي، فعن أي عفوٍ يدور الحديث.

ثار غضب رودنكو، وبدأ الحديث عن المؤامرة. إلا أن سيروف قاطعه على الفور، قائلاً

ـ أية مؤامرة! لا تدوّخه! يكفي كذباً. هاتوا لنتحدث في صلب الموضوع عمّا قررته الحكومة.

قرأ علي سيروف قرار المكتب السياسي الذي على أساسه اتّخذت النيابة العامة والكي. جي. بي. قرارهما. وقد عرفت أنه قد سُمح لي من الآن فصاعداً بالمشاركة، كما في السابق، في جميع الأعمال السرية، كما سُمح لي بالعودة إلى عملي.

لقد أبلغاني أيضاً أن اختيار مكان العمل يعود إلي. لكنهما لم يأتيا على ذكر موسكو، إذ كان من المفترض أنني لن أسمّيها.

سألتهما:

ـ هل تعنيان المدن التي تُنتج فيها تقنياتي؟

أجاب سيروف:

ـ أجل، إليك لائحة بأسماء المعاهد والمصانع.

وكما سبق أن افترضت لم تكن موسكو على اللائحة، كما لم تكن لدي شخصياً أية رغبة بالبقاء فيها.

اخترت سفردلوفسك. فقد سبق أن زرتها مرات عدة وكنت أعرف جيداً البنية التحتية للمصانع الحربية فيها، إضافة إلى أننا كنا قد بدأنا قبل اعتقالي بإنشاء فرع لمؤسستنا هناك.

قال سيروف:

ـ ولتكن سفردلوف.

لم يسلّموني القرار نفسه، إلا أنهم، وكما عرفت لاحقاً، أطلعوا عليه مديري المقبل الذي تم استدعاؤه إلى موسكو، إضافة إلى أن السلطات المحلية كان عليها هي الأخرى أن تهتم بمتابعة تنفيذ هذا القرار. فبالإضافة إلى العمل، كان يجب أن أحصل، بقرار من الحكومة، على شقة في سفردلوفسك.

أُحضرت والدتي أيضاً إلى مكتب سيروف. ونُقلت إلى هناك إثر استدعائي أنا، وأُبلغت أن بوسعها البقاء في موسكو أو المغادرة إلى تبليسي. لكن والدتي أجابت أنها سوف تذهب أينما أذهب أنا.

قضينا أسبوعاً آخر في سجن بوتيرسكايا. وقد سمحوا لي بلقاء زوجتي خلال هذا الوقت، وكان ذلك اللقاء الأول الذي سمحوا به خلال سنة ونصف السنة. وكانوا قبل شهر من ذلك تقريباً قد أعطوني لأول مرة صورة لابني... هكذا علمت أنه قد ولد لي صبي.

حينذاك علمت أيضاً أن الصحف سبق أن نشرت في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٣ الخبر عن إعدام والدي رمياً بالرصاص.

سافرنا إلى سفردلوفسك تحت الحراسة، وقد سلّموني تذكرة هوية باسم سيرغو الكسييفتش غيغيتشكوري، وكنت أتلقى جواباً واحداً عن كل أسئلتي الحائرة: «لن تكون لديك هوية أخرى...».

لقد جُرّدت من لقب المهندس ـ الكولونيل والدكتور في العلوم التقنية، ومن جائزة الدولة في الاتحاد السوفياتي، كما لم يعيدوا إليّ وسام لينين الذي

حصلت عليه، وجائزة الدولة، التي مُنحتها في حينه لقيامي بصنع سلاح جديد.

أثناء الحرب، مُنحت وسام الراية الحمراء وميدالية «من أجل الدفاع عن القفقاز» وميداليات أخرى، لم يعيدوها إليّ كلها.

كتب في بطاقتي العسكرية: الرتبة: جندي، الاختصاص العسكري: رامي، التعليم: الأكاديمية العسكرية، غير أنهم ذكروا الأوسمة والميداليات...

كنت في الثامنة والعشرين من العمر حين تم اعتقالي، وكان علي أن أبدأ الآن من جديد. في سفردلوفسك كانت تنتظرني وظيفة مهندس عادي، إنما مع صفة «أول».

قبل ثلاث سنوات من الاعتقال

حدث ذلك صيف العام ١٩٥٠، حين كانت الحرب تدور على شبه الجزيرة الكورية.

مقتطفات من مصادر رسمية:

بدأت هذه الحرب غير المعلنة في الرابعة صباحاً يوم الأحد في ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٥٠، تماماً مثل الحرب الوطنية العظمى. وبعد ساعتين من القصف المدفعي التمهيدي وقصف الهاونات وبمساندة دبابات (K-34) الشهيرة تقدمت نحو الجنوب وحدات الجيش الكوري الشمالي الذي يبلغ تعداده المليون شخص. وبعد ثلاثة أيام فقط تم الاستيلاء على سيؤول. وفي أواسط أيلول/سبتمبر وصل جيش كوريا الديمقراطية إلى تيغ وبوسان. وكاد أن يُرمى بالعدو في البحر. لكن الأميركيين المسلّحين بدعم الأمم المتحدة (كان قد اتخذ قرار في ٧ تموز/يوليو يدين العدوان ويسمح بتشكيل قوات دولية لتنفيذه) تمكّنوا خلال أيام معدودة من نقل قوات كبيرة من قوات الاحتلال الموجودة في اليابان إلى الجنوب. وفي ١٥ أيلول/سبتمبر قام الجنرال ماك آرثور بإنزال بحري ضخم في مؤخرة الوحدات الكورية الشمالية في نيتشون، وبدأ هجوم مضاد قوي من رأس جسر بوسان. وفي أواخر تشرين الأول/أكتوبر، كان قد تم احتلال الجزء الأكبر من كوريا الديمقراطية.

في هذا الوقت بالذات، أي في شهر تشرين الأول/أكتوبر أيضاً، عبر الحدود فيلق مؤلف من ٨٠٠ ألف جندي (أكثر من ٣٠ فرقة) من جمهورية الصين الشعبية بقيادة الماريشال بين دخوا، وجرى صدام مباشر بين القوات الصينية والأميركية.

لقد أبقت كل من كوريا الديمقراطية وجمهورية الصين الشعبية في السر، خلال سنوات طويلة، أسباب العمليات الحربية ومسارها، بل على نحو أدق، العدوان الذي أُدين من قبل الرأي العام العالمي. كما لم يعلن عن مشاركته النشيطة في الحرب الكورية الاتحاد السوفياتي أيضاً. ولم تظهر في الصحافة، حتى وقت متأخر، كلمة واحدة عن طياري فيلق الطيران المستقل ٦٤ الذي بدأ يخوض العمليات الحربية منذ شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠، واستمر حتى نهاية الحرب الكورية. وكانت فرقة بطل الاتحاد السوفياتي ثلاث مرات ايفان كوجيدوب وحدها قد أسقطت آنئذٍ ٢٥٨ طائرة للعدو. إجمالاً، لقد أسقط الطيارون السوفيات أكثر من ١٣٠٠ طائرة، وفقدوا ٣٤٥ طائرة.

تشير بعض المعطيات إلى أن ٢٢ طياراً سوفياتياً أصبحوا أبطال الاتحاد السوفياتي، وأن حكومة الصين الشعبية منحت جوائز للكثير من الطيارين.

لم يعد الجميع من الطلعات «التدريبية» تلك. فقد استشهد في السنوات ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ مليون صيني وتسعة ملايين كوري و٥٤ ألف أميركي. أما عدد العسكريين السوفيات الذين استشهدوا فما زال مجهولاً حتى الآن... إجمالاً، ان صفحات كثيرة من تاريخ تلك الحرب لا تزال تلفّها السرية حتى يومنا هذا.

تم التوقيع على اتفاقية الهدنة في بخانموندجون في تموز/يوليو ١٩٥٣. كان ستالين قد فارق الحياة ذلك الحين، واقتنع الديكتاتور الصيني والديكتاتور الكوري الشمالي أن الأميركيين لن يتخلّوا عن الجنوب. وأقدمت الولايات المتحدة من جانبها على تنازلات أيضاً. وانتهت الحرب حيث بدأت قبل ثلاث سنوات على طول خط العرض ٣٨ الشهير منذ ذلك الحين.

من الغريب أن مصادر كثيرة لا تزال تؤكد حتى الآن أن كوريا الشمالية كانت ضحية للعدوان. إن ذلك غير صحيح، والعالم كلّه أصبح يعرف ذلك منذ زمن بعيد. فالاتحاد السوفياتي هو الذي بدأ الحرب. وكانت تلك مبادرة ستالين. كان طيارونا يقاتلون في سماء كوريا، ولم يكن هذا سرّاً بالنسبة للعسكريين، بالطبع .

الحديث، الذي أود أن أورده الآن، جرى في الكرملين عشية الإنزال الأميركي في كوريا. وكنا، حتى ذلك الحين، قد أنجزنا العمل على الصواريخ المضادة للسفن، وتكللت التجارب عليها بالنجاح. كان ستالين على علم بالأمر، بالطبع، إذ كنت قد قدمت تقريري حول نجاح التجارب لهيئة رئاسة اللجنة المركزية.

كانت هذه الصواريخ قد وُضعت على سكة الإنتاج، غير أنه لم يكن قد أُنتج منها سوى ٥٠ صاروخاً فقط.

كانت المخابرات الاستراتيجية السوفياتية على علم بالإنزال الذي يتم الإعداد له قرب سيؤول. فقد حشد الأميركيون هناك قوات بحرية كبيرة تضم بوارج وسفن إنزال وعدة حاملات طائرات وسفن مساعدة...

بدأ ستالين حديثه من هذه النقطة بالذات، إذ أشار إلى أن المخابرات تقول إنه يجري الإعداد لإنزال ضخم جداً. فالأميركيون يرغبون في دحر القوات الكورية الشمالية، وهو هدف مفهوم من قبلنا. لكن ما الذي يقوله عسكريونا ومصممونا حول هذا الأمر؟ هل نستطيع منع الأميركيين من بلوغ هدفهم هذا، آخذين بالحسبان أننا نملك سلاحاً جديداً؟

لقد أبلغنا نحن أن بوسعنا إصابة الهدف على مسافة تزيد على مئة كيلومتر. وقد أثبتت الاختبارات أنه تكفي أربعة أو ستة صواريخ لتعطيل حاملة طائرات، كما يكفي صاروخ واحد لتعطيل سفينة نقل كبيرة.

قدّم القائد الأعلى للقوات الجوية بافل فيودوروفيتش جيغاريف التقرير حول جهوزية كتائب الطيران ونتائج التجارب في إطلاق الصواريخ. وقد أصبح جيغاريف لاحقاً الماريشال الأول في الطيران والنائب الأول لوزير الدفاع. ثم أخذ يقدم التقارير بعد ذلك ديمتري فيودوروفيتش أوستينوف وزير التسلح.

شعرنا، أنا ورفاقي، في تلك اللحظات بأننا نحن المحتفى بهم. فليس مزحة أن يبدأ إنتاج صاروخنا «كوميتا»، وهي الشيفرة التي أعطيت لصاروخنا في الإنتاج.

جاءت مداخلة والدي بمثابة حمام مياه باردة بالنسبة للمجتمعين، فقد قال:

ـ تقول معطيات المخابرات هذه إنه إذا تورطنا في حرب كبيرة، فإن الأميركيين يخططون لتوجيه ضربات نووية إلى جميع مراكزنا الصناعية الرئيسية، بما في ذلك موسكو. ولهذا، أفترض أن أية اجراءات يمكن أن تتخذ ينبغي أن تأخذ بالاعتبار الحقيقة الراهنة.

خيّم الصمت على الجميع. ولاذ بالصمت كلٌ من خروتشوف ومالينكوف وبولغانين وفاسيليفسكي والعسكريون الآخرون. وسأل ستالين:

ـ ألا نملك نحن سلاحاً للدفاع الجوي؟ فنحن لدينا طيران مقاتل واعتراضي...

اقترح والدي على الحضور:

ـ فلنسمع ما يقوله العسكريون، هل بوسعهم حماية موسكو ولينينغراد والمراكز الاقتصادية والعسكرية الأخرى؟ معلوماتنا تشير إلى أن الأميركيين يخططون لقصف بين سبع وعشر مدن.

يحتل هذا الاجتماع في الكرملين مكانة خاصة في ذاكرتي، وذلك لأن ستالين... طردنا منه. فحين تطرّق الحديث إلى استخدام الصواريخ المضادة للسفن، لم أنتظر ما سيقوله الآخرون، بل دفعني سن الشباب للوقوف والقول إن ذلك لا يجوز فعله.

نظر ستالين متفحصاً وقال:

ـ ألستم على استعداد لذلك؟

أجبت:

ـ بل نحن على أتم استعداد، وقد انتهت الاختبارات، لكن ...

قاطعني ستالين قائلاً:

ـ في هذه الحال لا أحد يسألك رأيك، بوسعك التحدث عن الجهوزية،

أي ما إذا كان بوسع صاروخكم تدمير الهدف أم لا، أما مسألة استخدامه، أو عدم استخدامه فتلك مسألة ليست من مستواكم، وعلى كلٍّ، مكانكم ليس هنا، غادروا القاعة. ..

نهضنا نحن وغادرنا الاجتماع. ولم يكن مزاجنا على أفضل حال، في الحقيقة ...

وعرفت من فاسيليفسكي ومن والدي ما دار لاحقاً في الاجتماع حول هذا الأمر. فقد اقترح ستالين تحريك كتيبتي طائرات (TU-4) بوسع كل طائرة منها حمل قذيفتين على متنها. وسبق أن تمركزت في الصين عدة كتائب طائرات (IL-28)، وبالتالي لم يكن من صعوبات في هذا الشأن.

قال ستالين مقترحاً:

ـ فلنتخذ قراراً.

وافق المكتب السياسي على الفور. وكان بولغانين، كما تذكّر والدي، أكثر المدافعين عن القرار بقوله : إنه قرار صائب، ولن نتمكن، خلاف ذلك، من إفشال إنزال الأميركيين.

كان كل شيء يسير باتجاه أن تتحول الحرب المحلية إلى نزاع عسكري جدي. ولم يكن ذلك يثير خشية ستالين في البداية، بل كان يجاهر بقوله: «وماذا فليضربوا هم، ونحن سنرد».

اقترح والدي عندئذٍ، قائلاً:

ـ دعونا نسمع رئيس الأركان العامة، فهو غير موافق مع وزير الدفاع.

أعلن شتيمنكو وفاسيليفسكي، بصوت واحد، أنه إذا ضربنا السفن الأميركية فليس من الصعب معرفة العواقب. ووقف والدي إلى جانب العسكريين.

أبلغ العسكريون ستالين أن الوسائل التي بحوزة الدفاع الجوي لا تسمح بالتأكد حتى بنسبة ٦٠٪ من إمكانية إسقاط الطائرات الأميركية. وشرحوا لستالين أن طيراننا المقاتل يمكن أن يعترض قاذفات القنابل على علو يصل إلى ١٢

كيلومتراً، في حين أن سقف الطائرات الأميركية يصل، وفقاً للمعلومات المتوفرة، إلى ١٨ كيلومتراً. وليس من المستبعد أن يلجأ الأميركيون إلى الإغارة على علو شاهق بطائرات منفردة، وليس بطيران كثيف.

استمع ستالين بانتباه إلى حجج العسكريين، وألغى القرار بتحريك كتيبتي الطيران المذكورتين، وقال:

ـ لن ينجح العمل على هذا النحو! أعيدوا هؤلاء الصبية الذين طردناهم...

حين عثروا علينا بعد ساعة من الوقت، أدركنا أن الأمور سيئة، ما دام ستالين يستدعينا.

كان السؤال الأول الذي وجّهه إلينا ستالين هو:

ـ لقد أبلغوني أنكم تشتغلون على صاروخ للدفاع الجوي؟

قلت إننا نشتغل على ذلك، وأبلغنا العسكريين بنتائج عملنا، إلا أنهم لم يبدوا كبير اهتمام بذلك.

سأل ستالين:

ـ من أصبح يملك مثل هذه الصواريخ؟

ـ شركة «اورليكون» في سويسرا، لكن لمسافة أقصر.

ـ لقد برز لدينا السؤال التالي: إذا قام الأميركيون بغارة على موسكو، هل تبلغ صواريخكم الأهداف على ارتفاع يراوح بين اثني عشر وستة عشر كيلومتراً، بل قد يكون ثمانية عشر كيلومتراً؟

أجبت:

ـ المسافة الممكنة تصل إلى خمسة وعشرين كيلومتراً.

التفت ستالين إلى والدي، قائلاً:

ـ حسناً، تولَّ أيها الرفيق بيريا تنظيم هذه الأعمال على أساس المجموعات العاملة، مع إشراك وزارة التسليح وأية مؤسسات أخرى إذا كان ذلك ضرورياً. ينبغي أن نحصل على صاروخ لنظام الدفاع الجوي في مهلة سنة.

وهنا ارتكبت الخطأ الثاني، حين أشرت إلى أنه سيكون من الصعب جداً تصميم الصاروخ خلال سنة من الوقت. وكان ذلك بحضور أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية وكبار العسكريين.

قلت ذلك وندمت على الفور على ما قلته. غضب ستالين وقال:

ـ عليكم أن تأخذوا بالاعتبار أننا لا نهتم بصغائر الأمور في المكتب السياسي. فكل الأمور التي نبحثها هنا هي أمور معقدة. وليس من مهمتكم أن تناقشوا بل أن تنفّذوا، ولهذا إنّي آمركم، إلا أنه استدرك على الفور قائلاً: يقرّر المكتب السياسي إعداد نظام لحماية موسكو في غضون سنة من الوقت.

عُهد إلى مالينكوف ووالدي بإعداد القرار المناسب باسم الحكومة واللجنة المركزية حول المباشرة بهذه الأعمال.

تم الإنزال الأميركي كما كان مخططاً له، لكن أحداً لم يوجّه ضربة إلى سفنهم،كما هو معروف. واستمرت الحرب في كوريا، وواصلنا نحن العمل بما عُهِدَ إلينا به.

نفّذنا هذه المهمة في غضون سنة، ولم يقتصر الأمر على تصميم النماذج، فحسب. وقد أقدمت الحكومة السوفياتية على المخاطرة، وأجبرتنا أن نخاطر نحن أيضاً، حين أخذت تنتج القطع المصممة، التي لن تتعرض إلى أي تغيير على الأغلب، قبل اختبار الصاروخ «أرض ـ جو». وحين أجرينا أول تجربة على تدمير أهداف حقيقية كان حوالى خمسين مصنعاً قد أصبح يعمل في صناعة المحركات والهياكل للصاروخ. ولم يكن من تأخير إلا في صنع أجهزة التوجيه فحسب، لأنها كانت آخر الأجهزة التي أُجريت التجارب عليها.

وبدأ بموازاة ذلك العملُ في بناء الحزام حول موسكو.

جرت الاختبارات بنجاح كبير. فكان يتم تدمير طائرات الميغ ـ ١٥ وهي تطير بأقصى سرعة على علو ١٢ ـ ١٤ كيلومتراً، بالصاروخ الأول الذي يُطلق عليها. وكانت القاذفات النفاثة (IL-28) أقلّ سرعة، ولذلك لم تكن تمثل أي اهتمام بالنسبة لنا.

لكن قيادة القوات الجوية أصرّت على إطلاق قاذفات كبيرة من تصميم توبوليف مزوّدة بأجهزة تشويش، فكانت نتيجة التجارب هي نفسها. كان الطاقم يرتفع بالطائرة في الجو، ويضعها تحت القيادة الأوتوماتيكية ثم يقفز بالمظلات قبل دخول الطائرة ـ الهدف منطقة التجارب.

كان مكتب تصميم لافوتشكين قد كُلِّف تصميم أهداف طائرة من دون طيّار، لكن لم يتم إنجازها في الموعد المحدد. بيد أنها حين ظهرت إلى الوجود لاحقاً تم إسقاطها هي الأخرى بواسطة الصاروخ الأول أيضاً.

كان ستالين مرتاحاً للنتائج، وأطرى علينا ووعد بمكافأة الجميع، إلا أنه لاحظ فوراً بقوله:

ـ إن هذا قليل، جهّزوا حزاماً دفاعياً حول موسكو.

يمكن القول دون مغالاة إن العالم لم يعرف وتائر عمل كهذه، فقد كانت الصناعة بأسرها مشغولة عملياً في هذه المسألة. وقد شارك عشرات الألوف من الناس في بناء الحزام الأمني. كنا نحن المصممين، وأعمارنا لا تجاوز الثلاثين بشكل عام، نغيب أسابيع في حقول التجارب ومواقع البناء. وكان يوم العمل يستمر على مدار الساعة عملياً.

حين أبلغ العسكريون ستالين أن الحزام غدا جاهزاً، كان قد أصبح على علم بنتائج الاختبارات في حقول التجارب. غير أنه لم يكتف بذلك، بل استدعى قائد القوات الجوية وأمره بإعداد مجموعات من الطائرات تضم المجموعة الواحدة خمس طائرات على الأقل للإقلاع من ثلاثة اتجاهات: "أقول لكم لاحقاً من أية اتجاهات بالتحديد ينبغي أن تطير نحو موسكو، ولنَرَ مقدار نجاح أصدقائنا الشباب في معالجة المهمة التي عهدنا بها إليهم".

لم يكن بوسعنا نحن أن نفترض، إلا أن العسكريين، وخلافاً لنا، أعلنوا أن ليس بوسعهم ضمان نجاح التجربة، لأن الطائرات التي لا يتم إسقاطها يمكن أن تهوي على موسكو.

بعد مغادرتنا دار، كما تحدّث والدي لاحقاً، نقاش جدي في الكرملين حول هذه المسألة. وشرحوا لستالين أنه حتى لو تم إسقاط جميع الأهداف، فسقوط حطام الطائرات على ضواحي موسكو يمكن أن يسفر عن وقوع ضحايا بشرية. وافق ستالين على هذه الحجج، إلا أنه أمر بتحديد منطقة الدفاع في حقل التجارب تحديداً دقيقاً وجعل الطائرات من أنواع مختلفة تقلع من اتجاهات مختلفة وتطير على ارتفاعات متفاوتة. وجرت التجارب بنجاح. وبوصفي كبير المصممين، كان ينبغي أن أحصل مع الآخرين على لقب بطل العمل الاشتراكي. إلا أن اسمي لم يدرج في اللائحة، لأنني كنت قد حصلت قبل ذلك على وسام لينين وجائزة ستالين مقابل تصميم الصاروخ المضاد للسفن.

كان يوجد تقليد راسخ في المكافآت آنئذٍ، فالاختصاصيون الذين كانوا يشاركون في تنفيذ المهمة المطروحة، أو في تنفيذ هذا المشروع أو ذاك، كان يتم اقتراحهم للمكافأة، وحصل عدد من زملائي آنذاك على ألقاب البطولة.

حين صنعنا الصاروخ المضاد للسفن تمكّنت حينها من الإصرار على منح الطيارين أنوخين وبافلوف لقب بطل الاتحاد السوفياتي. وكان أمت ـ خان سلطان، وهو طيار مدرِّب ممتاز أيضاً، قد أصبح بطل الاتحاد السوفياتي مرتين أثناء الحرب. فقد خاض أثناء الحرب حوالى مئة وخمسين معركة جوية وأسقط شخصياً ٣٠ طائرة ألمانية، إضافة إلى إسقاط ٢٠ طائرة ضمن مجموعات مقاتلة. كما أثبت عن جدارته أيضاً كطيار اختبار، حيث شارك في تجربة أكثر من مئة طائرة.

كنت أعتبر أنا ورفاقي أن أمت ـ خان ينبغي أن يصبح بطل الاتحاد السوفياتي مرة ثالثة. فقد كان يستحق ذلك بلا شك. لكنهم لم يكافئوه، للأسف، فقد كان امت ـ خان سلطان من تتار القرم. وشطب اسمه من اللائحة.

حين يقولون إن فلاناً قد ولد طياراً، فهذا القول ينطبق على سلطان. أنهى مدرسة الطيران قبل الحرب، وكان طياراً مقاتلاً تدرّج من قائد مجموعة إلى قائد سرب إلى مساعد قائد كتيبة. كان شخصاً لطيفاً للغاية، ونموذجاً للطيار المقاتل

في تلك السنوات. كان مربوع القامة عريض المنكبين يتمتع بصحة حديدية وبأعصاب حديدية أيضاً. وأعتقد بأن انتماءه القومي فقط حال دون إنهائه الحرب بطلاً للاتحاد السوفياتي ثلاث مرات. لكن على الرغم من الموقف من تتار القرم قبلوه بعد الحرب في الأكاديمية العسكرية، غير أنه لم يتابع دراسته في الأكاديمية لأسباب عديدة، قد يكون من بينها الامتعاض الداخلي أو سواه من الأسباب. لم أكن أعرفه آنئذٍ، بل تعرفت إليه لاحقاً. بعد تسريحه من الجيش، التحق سلطان بمعهد الطيران التدريبي في وزارة صناعة الطيران، حيث التقينا معاً.

كان علينا أن نختار عدة أشخاص يقبلون المشاركة بالتجارب. كان تصميم الصاروخ المضاد للسفن قد أصبح جاهزاً لدينا، إنما كنا بحاجة لشبيه لهذا الصاروخ يتم توجيهه من قبل الإنسان، أي أن تستبدل الحشوة التفجيرية بطيار ـ مُدرّب. كان يتم تعليق الصاروخ بطائرة (TU-4) وتقلع الطائرة.

كان في القرم مطار يضم حقل تدريب للطيران الذري. وقرّرنا استخدام هذا المطار، بعد زيادة طول مدرج الإقلاع والهبوط مسافة خمسة كيلومترات.

انتقينا أربعة طيارين من بين عدة عشرات تم اقتراحهم علينا. إضافة إلى سلطان كان بين هؤلاء سيرغي أنوخين، الذي عمل سنوات عديدة في مكتب التصميم العائد لمصمم الطيران ألكسندر سيرغييفتش ياكوفليف. كان يتمتع سيرغي بإحساس استثنائي بالطيران. فقد كان عليه، في إحدى الطلعات التجريبية، أن يدمّر الطائرة في ذروة طيرانها، ثم يقفز بالمظلة. لقد فقد عينه حينذاك، إلا أنه حلّق على نحو مذهل.

لقد تميّز سلطان أيضاً أثناء الاختبارات. فقد قام غير مرة، وخلافاً للإرشادات بالقفز بالمظلة، بتعريض حياته للخطر والاستمرار بالطيران، لإنقاذ الطائرات من تصميم لافوشكين أو من تصميم ميكويان، والعودة بها إلى الأرض سالمة.

كان بافلوف وبورتسيف طيارَين ممتازَين أيضاً، وقام كل منهما بحوالى ٣٠ ـ ٣٥ طلعة بصاروخنا. كانت المخاطرة هائلة، إذ كانت سرعة الهبوط لدى الصاروخ تبلغ ٤٠٠ كيلومتر في الساعة.

بعد إقلاع الطائرة، كانت صواريخنا تنفصل عنها، ويقوم الطيارون المختبرون بتوجيه الصواريخ نحو السفينة ثم ينعطفون ويحطّون بها على الأرض. كان احتمال حدوث كارثة احتمالاً عالياً للغاية، إلا أن آمت ـ خان وأنوخين وبافلوف وبورتسيف كانوا يقدمون على هذه المخاطرة طوعاً. وقدّموا لنا، نحن المصممين، مساعدة هائلة آنذاك، فقد وفرنا الوقت ومئات الصواريخ.

منح آمت ـ خان وسام لينين وجائزة الدولة مقابل اختبار "كوميتا". كما مُنح الطيارون الآخرون جائزة الدولة وأوسمة البطولة. كان أنوخين قد جرى ترشيحه سابقاً لنيل وسام البطولة، إلا أنهم، ولسبب ما، لم يمنحوه إياه. لكن الجميع في هذه المرة كانوا يستحقون ما منحوا من مكافآة، وكنت سعيداً جداً لذلك.

أتذكر بحرارة كذلك الكولونيلين المهندسين ستيبانيتس وتروخيموف. كنا نحن جميعاً، مصمّمين وطيارين ومسؤولين عن التحليق، نتقاسم النجاح والفشل. ولا أخفيكم القول إننا صادفنا في طريقنا كل شيء. وقد بقي جميع هؤلاء الناس فيما بعد أيضاً رفاقاً أوفياء لي.

تشغل المشاركة في صنع الصاروخ المضاد للسفن (وكان ذلك أول عمل كبير لي) مكانة خاصة في ذاكرتي. فقد شاركت في هذا العمل بحماس مُميِّز لسن الشباب، وذلك شأن الشباب الآخرين الذين كانوا يشاركون فيه، ولا يخشون القرارات التقنية الجريئة والابتعاد عن الحلول الجاهزة. وبوسعي القول إن القوات المسلحة قد حصلت آنذاك على صاروخ قادر على تدمير أي هدف بحري على مسافة مئة كيلومتر أو أكثر. وكان يمكن استخدام حشوة عادية أو حشوة نووية. وكانت تلك المرة الأولى في الاتحاد السوفياتي التي نحدّد فيها، نحن العاملين في حقل الراديو الكترونيك، وليس العاملين في تصميم الطائرات أو الصواريخ، مواصفات السلاح. لقد كان ذلك جهازاً معقّداً مزوّداً برؤوس للتصويب الذاتي وبأجهزة آلية لحفظ التوازن.

اشتغلنا لاحقاً على تصميم صاروخ «جو ـ جو». أول قذائف من هذا الطراز دمّرت الهدف على مسافة ١٥ كيلومتراً، ومن ثم ٣٠ كيلومتراً. وقد تم تحسين هذه الصواريخ مع الوقت، وأخذت تُنتج على نحو مكثف، لكن ذلك تم على أيدي آخرين.

كان العمل مثيراً للغاية في تصميم الجهاز الآلي الذي كان ضرورياً، سواء للصاروخ المضاد للسفن، أوللصواريخ من طراز «جو ـ جو» و«أرض ـ جو». وشاركت لاحقاً في تصميم صواريخ يبلغ مداها ٣٠ كيلومتراً، وتصل إلى ارتفاع يراوح بين ٥ كيلومترات و٢٥ كيلومتراً، ومن ثم لارتفاع كيلومتر واحد. فالطائرات الحربية لم يكن بوسعها التحليق آنذاك على علوٍّ يقل عن ذلك. أما أجهزة القيادة الحالية فبوسعها متابعة التضاريس الطبيعية في مسار الطائرة على علو يراوح بين ٢٥ و١٥ متراً.

لقد كنت المصمم الرئيسي لجميع هذه الأجهزة وترأست العمل فيها، لكنني أود أن أؤكد أن العمل هذا كان جماعياً. ففي تقنيات الطيران الحديثة لا يتم صنع جهاز واحد على يد إنسان منفرد.

على الرغم من أنني كنت أعمل في سفردلوفسك بعد إطلاق سراحي من السجن بصفة مهندس عادي، إلا أنني كنت أقوم عملياً بدور الاختصاصي الرئيسي... لقد صنعنا آنئذٍ صواريخ للإطلاق من تحت سطح الماء ومن فوق سطح الماء، مع سلسلة كاملة من مثيلاتها المعدّلة. كما توليت الإشراف على العمل في وضع أنظمة احتسابية (حواسيب) للسفن.

في ١ أيار/مايو ١٩٦٠ كانت «معمودية» النار الأولى للصواريخ المضادة للطائرات، التي صنعت في مكتب التصميم العائد لنا، على الحدود الإيرانية، ومن ثم في البلطيق. كانت الحرب مع طائرات التجسس الأميركية حرباً طويلة. في ١ أيار/مايو ١٩٦٠ اخترقت المجال الجوي السوفياتي طائرة مجهولة حلقت فوق الأهداف العسكرية السوفياتية السرية ثم اتجهت نحو الأورال.

كان الطاقم الأول الذي يتولى الخدمة في ذلك اليوم في محطة الاستطلاع وتحديد الأهداف في كتيبة الميجور م. فورونوف مكوّناً من الليتنانت ف. ياكوشكين وكلّ من الجندي الأول ف. نيكراسوف وأ. فابارغين. وحين اقتربت الطائرة من سفردلوفسك أصدر قائد الدفاع المضاد للطيران في البلاد أمراً بتدميرها. وهكذا أسطقت الطائرة (U-2).

مقتطفات من تقرير الميجور فورونوف:

أُفيدُ أن أمركم بتدمير الطائرة، التي اخترقت حدود الاتحاد السوفياتي وتوغلت داخل وطننا في ١ أيار/مايو ١٩٦٠، قد تم تنفيذه في الساعة ٨,٥٣ بتوقيت موسكو.

لدى دخول الطائرة منطقة نيراننا على ارتفاع أكثر من ٢٠ ألف متر، تم إطلاق صاروخ واحد، أدّى انفجاره إلى تدمير الهدف، وتمت معاينة إصابة الهدف بواسطة الأجهزة. وبعد مرور فترة وجيزة من الوقت، تمت المعاينة من قبل مواقع المراقبة البصرية، وسُجّل سقوط حطام الطائرة وهبوط الطيار بالمظلة، بعد أن قفز من الطائرة المحطمة. وقد تم الإبلاغ عن نتائج المعركة واتخاذ التدابير اللازمة لاعتقال الطيار الذي قفز بالمظلة.

في ١٠ شباط/فبراير ١٩٦٢، تمت على جسر غلينكه[1] مبادلة الطيار الأميركي فرنسيس هاري باورس برجل المخابرات السوفياتي ويليام هنريخوفيتش فيشر المعروف أكثر باسم رودولف إيفانوفيتش آبل. وبدأ العالم ينسى تدريجياً الطيار السّيىء الحظ وما حدث في أيار/مايو ١٩٦٠ في سماء سفردلوفسك، دون أن يعرف حقيقة ما جرى في الواقع.

لقد تم إسقاط باورس لاحقاً. أما الصاروخ الأول فقد دمّر طائرتنا، واستشهد طيار ممتاز...

وكان الطيار الذي استشهد هو الليتانت س. سافرونوف. ولم تكن هذه المأساة تمثّل سرّاً بالنسبة لجميع قوات الدفاع المضاد للطيران في الأورال. غير أن الصحافة ظلّت حتى التسعينيات دون أن تكتب كلمة واحدة عما جرى.

---

(١) جسر في ألمانيا، اشتهر كموقع لتبادل رجال المخابرات بين الشرق والغرب - المترجم.

في مرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي حول مكافأة رجال الصواريخ الذين تميزوا في المعركة، والذي نشر في الصحف المركزية في ٧ أيار/مايو ١٩٦٠، كان اسم الليتانت سيرغي إيفانوفيتش سافرونوف الأول في اللائحة. لكن السر بقي سرّاً لزمن طويل.

الكولونيل في الاحتياط ميخائيل فورمونوف يتذكر:

"حصلت كتيبتنا على النظام الصاروخي الجديد المضاد للطائرات في خريف ١٩٥٩. وها هو الهدف في منطقة كتيبتنا، أصدرت الأمر: «إطلاق!». تلكأ ضابط التصويب الليتانت ادوارد فيلدبلوم، إذ يبدو أن عائقاً نفسياً ما قد برز. كررت الأمر ثانية: «إطلاق، يا...!»، مع شتيمة من العيار الثقيل. وانطلق الصاروخ نحو الهدف».

يرى الاختصاصيون أن تحليق سيرغي سافرونوف لم يكن ضرورياً، كما لم يكن ضرورياً أيضاً إقلاع طائرة الميغ ـ ١٩ لاعتراض الهدف. لكن الحظ حالف الكابتن بوريس آيفازيان أكثر مما حالف سافرونوف. فقد لاحظ آيفازيان سحابة غريبة، وتمكن من الالتفاف بسرعة.

لم يكن باورس الطيار الوحيد الذي تم إسقاطه. فقد سبقه ولحق به طيارون آخرون. وتشير بعض المعطيات إلى أن ١٧ طائرة تجسس أميركية اخترقت حدود الاتحاد السوفياتي حتى تاريخ ١ أيار/مايو ١٩٦٠. ويكفي أن نتذكر خسائر الولايات المتحدة الأميركية فوق البلطيق وبحر بارنس وفي الجنوب، وكذلك في كوبا، وفي الشرق الأوسط، وفي مناطق أخرى من العالم...

كُشف الغطاء منذ مدة قريبة (وهو ما كان يحافظ عليه بسرية شديدة، سواء في الاتحاد السوفياتي أو في الغرب) عن أن الصواريخ المضادة للطائرات، الموجّهة من قبل العسكريين السوفيات، قد ألحقت في حينه الخسائر بالأسطول السادس الأميركي، الذي كان منتشراً قبالة الشاطئ اللبناني. فقد تم آنئذٍ إسقاط ٨ طائرات مقاتلة وقاذفة قنابل من طائرات الأسطول، وطائرة «فانتوم ـ ٢»،وأربع طائرات حربية إسرائيلية، وطائرتين هجوميتين فرنسيتين من طراز «سوبر اتندار» تابعتين للأسطول الفرنسي.

لا يزال تاريخ قوات الصواريخ التابعة للدفاع الجوي (PVO) ينتظر الباحثين. فقد نعرف حينئذٍ الحقيقة عن أولئك الذين أنشأوا بجهودهم الجبارة، وبعملهم وموهبتهم، أول أنظمة مضادة للطيران، بقيت خلال سنوات طويلة تحمي سماء الوطن. وقد يكون من المستحسن أن نُعلن أخيراً على الملأ أسماء أولئك الطليعيين الذين أخذوا زمام المبادرة في صنع الأسلحة الجديدة. ولا شك في أن اسم والدي، كمنظّم رائع وحاذق للصناعة الدفاعية، سوف يكون في هذه القائمة.

كم من الصفحات في تاريخ بناء الصواريخ البالستية الأولى، التي تُطلق من البحر، لا تزال مجهولة أيضاً! فماذا نعرف عن أول عملية إطلاق للصواريخ البالستية البحرية في العالم الذي جرى من الغواصة (ب ـ ٦٩) التابعة لأسطول الشمال بقيادة الميجور البحري فيودورو كازلوف، وعن مشاركة طاقم الغواصة (ب ـ ٦٢) في الاختبارات التي جرت في المحيط الهادئ ؟ حتى المقالات الأولى التي نُشرت كانت فقيرة بالمعطيات، ولا تخلو من عدم الدقة. ألم يحن الوقت بعد لذكر أسماء مصممي الصواريخ البالستية البحرية؟

كان الأكاديميون ماكييف وسيميخاتوف وإيسايف يقفون وراء إطلاق الصواريخ البالستية الأولى من تحت سطح الماء. وقد شاركت مع زملائي من سفردلوفسك في هذه الأعمال منذ بدايتها. فقد صمّمنا كافة أجهزة التوجيه والإطلاق للصاروخ البالستي البحري. وحصل الأسطول لاحقاً على صواريخ ذات محركات تعمل بالوقود الصلبة، وليس السائلة، وتدمر الهدف على مسافة تصل إلى عشرة آلاف كيلومتر. وقد تم تزويد البحرية السوفياتية بهذه الصواريخ منذ أواسط الستينات.

لقد نجحت في إنجاز الكثير، بالفعل، خلال أربعة عقود ونصف من النشاط العلمي. وليس بوسعنا، حتى في يومنا هذا، أن نتحدث عن سلسلة كاملة من الأعمال التي نفّذها العاملون في معهد «كوميتا» في حقل الاستطلاع الفضائي والاتصالات وفي حقول أخرى عديدة.

بدأنا في الأورال من الصفر. فالبنية الأساسية المتوفرة لم تكن جدية، وكان علينا أن نبنيها من جديد. لكنني كنت محاطاً بأشخاص يرغبون فعلاً بالعمل، وكان ذلك أشد أهمية من أي أمر آخر. وعلى غرار ما كان عليه الأمر في موسكو، كان الذين يشتغلون معي هم من الشباب بشكل أساسي. وكان معظمهم قد جاء إلى سفردلوفسك من موسكو. وقد تمكّنت لاحقاً من أن أنتقي للقسم الذي أترأسه شباباً موهوبين من متخرجي كلية الرياضيات والميكانيك وكلية الفيزياء في جامعة الأورال، ومن كلية الراديو وكلية الأتمتة في معهد الأورال للبولتكنيك، ومن متخرّجي معاهد أخرى.

منذ اليوم الأول لوصولنا إلى سفردلوفسك، كان الجيران (وكنا نعيش في حيّ عمالي) والزملاء يعرفون من أنا وماذا جرى لي. وكانوا على العلاقة الطيبة نفسها مع والدتي أيضاً.

لقد بقينا في الأورال عشر سنوات، لم نصطدم مرة واحدة خلالها بما كانوا قد أثاروا خوفنا منه، وهم ينقلوننا تحت الحراسة إلى سفردلوفسك. وكانوا يشرحون لنا تغيير اسم عائلتنا بقولهم: «إنكم تعرفون موقف الناس من بيريا...».

لكن تبين أن ذلك ليس صحيحاً. فقد كان يعيش في تلك النواحي الكثير من الناس الذين تأذُّوا من السلطة السوفياتية، وكانوا، كما يبدو، يُخمّنون ويدركون أن الأمور ليست على النحو الذي تنشره الدعاية الرسمية.

حين كانت تعود والدتي من العمل (كانت تعمل في مختبر أحد المصانع) كانت تصادف أحياناً عراكاً في الشارع، الأمر الذي غالباً ما كان يحدث في الحي العمالي. وكان يقترب أحد منها على الفور ويقول:

ـ إننا نعرفكِ، فلا تضطربي... سوف نرافقك إلى المنزل. وكانوا يرافقونها .

فهل يسعك أن تنسى هذا ؟

ولم نغادر نحن سفردلوفسك، إلا لأن الأطباء حذروني بأن والدتي بحاجة إلى تغيير المناخ.

يطوي النسيان مع الوقت الأمور السيئة، ويبقى في الذاكرة ما هو طيب فحسب.

وهكذا بقيت في ذاكرتي مدينة سفردلوفسك.

لم تكن الإدارة التكنيكية للمعهد بشخص سيميخاتوف، ولم يكن معظم الزملاء في العمل، مثل ميرونيوك وكوبريانوف وتاباتشنيك ونازاروف وبايكوف وتريفونوف وزامياتين وكثيرون سواهم، رفاقاً في العمل فحسب، بل كانوا رفاقاً في الحياة أيضاً، ساعدوني في التغلب على جميع المصاعب..

كنت أشعر بضغط النظام دائماً. لكنني، في المقابل، كنت ألقى العون الدائم من أشخاص مختلفين. وقد سبق، غير مرة، أن ذكرت بالخير أسماء العلماء والمصممين السوفيات الذين مدّوا يد المساعدة لي. لم يقلّ شأناً عن تلك المساعدة ما قدّمه لي ديمتري فيودوروفيتش أوستينوف، ووزير صناعات الراديو كالميكوف، وسواهما من كبار المسؤولين في الصناعة. وتجدر الإشارة إلى أنني كنت أشعر، أحياناً، أن الأمور بالنسبة لي أصبحت أكثر يسراً مما كانت أيام والدي. فلم أعد أخجل من أن أكون ملحاحاً، وأصبح بوسعي أن أتشدد في طلب كل ما هو ضروري. فقد كنت سابقاً، حين كان والدي لا يزال على قيد الحياة، شخصاً أكثر حساسية حيال العديد من الأمور المتعلقة بالعمل.

بدأت صداقتي مع أوستينوف منذ أواخر الأربعينات، فقد ساعد ديمتري فيودوروفيتش كثيراً في إنشاء مؤسستنا. كان مهندساً ومنظماً رائعاً للغاية. وكانت تجمعنا أمور كثيرة على الرغم من فارق السن، ومن منصبه الرفيع.

كان الشباب يقصدونه وكان يساعدهم بما أوتي. ولم تكن تحدث قط بينه وبينهم «المشادّات» التي كانت تحدث مع علماء كبار، من أمثال كوروليوف وتشيرتوك. كان يرى في الشباب العاملين في حقل العلم سنداً له. وكان هذا الأمر يفسّر، على ما يبدو، مجمل علاقته بالشباب.

التقيته غير مرة حين كان قد أصبح عضواً في المكتب السياسي ووزيراً للدفاع، وقبل ذلك، حين كان سكرتيراً للجنة المركزية. كنا نزور مصانع

الصواريخ معاً وكان يستدعيني إليه في موسكو، وناقشنا معاً سلسلة من المشاريع. وحين أبلغت مخابراتنا أن الأميركيين يتقدمون علينا كثيراً في صناعة أجهزة اللايزر المضادة للصواريخ، استُدعيت مع عدد من العلماء إلى موسكو، وبقيت مدة شهرين أشتغل في هذه المسألة. كنا نتحدث طويلاً، أنا وديمتري فيودوروفيتش، عن مختلف الموضوعات، إلا أننا لم نتطرق يوماً في حديثنا إلى ما جرى لوالدي. وكان يتهيّأ لي أحياناً، أنه خلافاً لرغبته، يتعمّد عدم التطرّق إلى هذا الموضوع.

تحدّثنا في أحد لقاءاتنا الأخيرة عن ابنه. وقد اشتكى ديميتري فيدوروفيتش، قائلاً:

ـ كيف يمكن إثارة اهتمامه بالتقنيات؟ لو تجد له عملاً مهماً.

كان ابن أوستينوف يدير مؤسسة تفرّعت في حينها عن مكتب التصميم الذي أعمل فيه. وكان ديمتري فيودوروفيتش مستاء جداً، لأن ابنه كان متأثراً بنمط العمل، الذي تكرس في البلاد خلال العقود الأخيرة من الزمن. وكان يقول:

ـ ليس من المفيد قتل الوقت في مجلس الوزراء واللجنة المركزية، ينبغي إثارة اهتمامه بالتقنيات وبالعمل.

اقترحتُ عليه، قائلاً:

ـ يوجد عمل له، فلينخرط به؛ إنه مدفع ليزر للدبابة .

كانت مخاوف ديمتري فيودوروفيتش في مكانها، للأسف. فقد ترك ابنه حقل التقنيات بعد وفاة والده. وليس نادراً ما يحصل مثل هذا أيضاً.

لم يكن بوسع ارتيوم إيفانوفيتش ميكويان أن يلتقيني بسبب شقيقه أنستاس ميكويان، لكنه كان يسعى، عبر الآخرين، لمساعدتي.

حين علم الأكاديمي ألكسندر لفوفيتش مينتس أنني مضطر للدفاع عن أطروحة «مرشح علوم» سعى لكي يكون في اللجنة الفاحصة، دون أن يخبرني بالأمر. وقد طالب بإصرار فيما بعد بمنحي مجدداً درجة دكتور في العلوم. وقد

دهشت حين علمت أن عدداً من العلماء، بمن فيهم مينتس وراسبليتين وبيرغ قد توجّهوا إلى «اللجنة العليا الفاحصة»[1] (VAK) بطلب لإعادة لقبي العلمي إلي، لأنه انتزع مني على نحو غير شرعي. وقد قاموا بذلك دون أن يطلعوني على الأمر. لكن، وكما كان متوقعاً، لم تتم الاستجابة للطلب.

حين كنت في سفردلوفسك وقررت أن أتقدّم إلى الامتحانات بصورة مستعجلة لأحصل على دبلوم مهندس، (لم يعيدوه إليّ هو أيضاً بعد إطلاق سراحي) فُهِم الأمر بأنه تحدٍّ، لكنهم مع ذلك أعطوني نسخة عن الدبلوم بإنهاء الأكاديمية.

إن أسماء مثل فانّيكوف، ماخنيف، كورتشاتوف، شولكين، توبوليف، كوروليوف، ماكييف وغيرهم من الأكاديميين وكبار المصممين، الذين، منحوا أوسمة البطولة مرتين وثلاث مرات، تعني الكثير بالنسبة لأي شخص على علاقة بالتقنيات. أما أنا، فتربطني بهؤلاء الناس ذكريات اللقاءات بعد (سُجنَيْ) ليفورتوفو وبوتيرسكايا. فقد دعمني هؤلاء وسواهم من العلماء والمصممين بكل قواهم.

حين كنت أعمل في سفردلوفسك، لاحظت غير مرة، أن كثيرين من الناس لم يكشفوا حقيقة مشاعرهم نحوي، إلا حين اعترضتني صعوبات جدية، في حين أنهم كان يتجنبونني حين كان والدي لا يزال على قيد الحياة، مخافة أن يظهروا في مظهر المداهنين.

كان هناك آخرون، بالطبع، ممن كانوا يتجنبونني، في حين أنهم كانوا يتصرفون على نحو مغاير في حينه. وكنت أحاول من جانبي ألا أضع الناس في وضع حرج. فحين كنت أعمل في أوكرانيا، كنت ألاحظ كيف كانت ممارسة الضغط عليّ تجعل الناس يبتعدون عني. ليس باليد حيلة... تلك هي الحال.

إن شخصاً واحداً، إذا لم أكن مخطئاً، من زملائي السابقين، الذين كانوا

---

(١) الهيئة المركزية في الاتحاد السوفياتي التي كانت تتولى حصراً منح الشهادات لمتخرجي الجامعات والمعاهد ولطلبة الدراسات العليا - المترجم.

يعملون معي قبل اعتقالي، قد نشر مذكّراته. لكنني بعد هذه المذكّرات لن أمدّ يدي لمصافحته قط. لقد دعوته في حينه للعمل في مكتبنا للتصميم، وعملنا معاً على نحو مثمر مدة طويلة. فقد كان شخصاً موهوباً، بالفعل، ومحبّاً للعمل. لكن حين وصل خروتشوف إلى السلطة، وقام فعلياً بتدمير مؤسستنا، من خلال تقسيمها إلى خمسة فروع، وضع زميلنا نفسه بمواجهة جميع العاملين في المؤسسة. لم يكن معروفاً عن هذا الشخص انخراطه سابقاً في الدسائس والألاعيب، لكن يبدو أن أحداً ما من فوق كان يهمس له في أذنه. وقد كسب هذا المصمّم رضى القيادة الجديدة وأصبح من أصحاب الحظوة لديها. لكن الأيام تتبدل، للأسف. فمع وصول القائد الجديد للبلاد، كان عليه أن يترك منصبه الرفيع.

لقد كان هذا الرجل جنرالاً وعضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم، وحائزاً وسام بطل العمل الاشتراكي، وشخصاً غني الخبرة دعكته الحياة. ومع ذلك، قرأت في مذكراته الأكاذيب عني وعن زملائي، وكنت أتساءل: ما الذي دعاه لذلك؟

لم أطق صبراً، رفعت سماعة الهاتف وطلبت رقم المدينة التي يسكن:

ـ حين كتبت عنا جميعاً كنت تجانب الحقيقة، هلّا شرحت لي لماذا؟

ـ أتعرف؟ لقد كتبت هذا سابقاً، لقد أجبروني...

ـ أنت تعلم أنهم حاولوا إجباري على الإفادة بأنكم مخرّبون، غير أنني لم أفعل. لقد حمّلت نفسك خطيئة، واعذرني على هذه الصراحة.

خلال السنوات التي قضيتها في العمل، ومن بينها سنوات عديدة في حقول التجارب فقط، التقيت أشخاصاً رائعين، أتذكر منهم، على سبيل المثال، ماريشال سلاح المدفعية بافل نيكولاييفتش كوليشوف، الذي استبدل، في وقت من الأوقات، اسم عائلته لتصبح سرغييف، بسبب ظروف فرضتها سرية العمل.

مقتطفات من مصادر رسمية:

بافل كوليشوف: ماريشال سلاح مدفعية.

كان في سنوات الحرب قائد كتيبة الحرس لمدفعية الهاون «كاتيوشا» الشهيرة، وقائداً لمجموعة الحرس العملياتية لوحدات مدفعية الهاون في الجبهة الشمالية الغربية وفي جبهة فولوخوف. في العام ١٩٤٣، أصبح قائد وحدات الحرس لمدفعية الهاون في الجيش الأحمر.

بعد الحرب، أصبح رئيس كلية الصواريخ في أكاديمية المدفعية، ومن ثم قائد حقل التجارب للدفاع المضاد للطيران، ونائباً لقائد الدفاع المضاد للطيران في شؤون التسلح، ورئيساً للمديرية العامة للصواريخ والمدفعية في وزارة الدفاع. بطل العمل الاشتراكي، حائز جائزة لينين.

تعارفنا في حقل التجارب، حين كنا نحن نختبر صواريخ مضادة للطيران، ونختبر، بالاشتراك مع العاملين في مكتب كوروليوف للتصميم، صواريخ بالستية. وأذكر أن جوكوف حدّثنا، وهو يضحك، كيف أراد نيكيتا سرغييفتش خلال الحرب تسريح وحدات الحرس لمدفعية الهاون، وكتب إلى ستالين عن ذلك. وعرفت تفاصيل هذه القصة من كوليشوف. في العام ١٩٤٣، كان خروتشوف عضو مجلس حربي في الجبهة، وقام، بالفعل، برفع اقتراحه هذا إلى ستالين، معتبراً أن مدفعية هاون الحرس وسيلة غير فعّالة. لكنهم سرعان ما خفّفوا آنئذٍ من حماس الجنرال خروتشوف. وهو ما لم يتوفر لاحقاً حين أصبح خروتشوف السكرتير الأول، إذ لم يتبقَّ مَن يوقفه عند حده، حين بدأ بإغلاق مكاتب تصميم الطائرات والمدافع، وحوَّل كل ذلك إلى سلاح الصواريخ. محارب هاوٍ! وحين يحاول أمثال هؤلاء الأشخاص التدخل في الشؤون العسكرية يصبح الأمر خطيراً للغاية.

أستبق الكلام لأقول إن قادة الدولة الذين أتوا بعده لم يتميزوا كذلك ببعد النظر في سلوكهم. فقد بقي معهدنا، على سبيل المثال، سنوات طويلة يشتغل على أنظمة راديوالكترونية مخصصة للدفاع المضاد للطيران(PVO)، وتستخدم لتنفيذ مهمات تتعلق بالفضاء والطيران والأسطول الحربي البحري. وفجأة انطلق من أعلى المنابر أمر بتحويل الصناعات الحربية. فماذا حصدنا بالنتيجة؟

تذكّروا ما حصل منذ عدة سنوات. فالمصانع، التي كانت تنتج الصواريخ على مدى عشرات السنين، تحوّلت لإنتاج التراكتورات، ومصانع الطيران تحولت لإنتاج الطناجر، وهكذا دواليك. فلم يؤخذ بالاعتبار لا تخصص المصنع ولا إنجازاته. وتحوّل الأمر كله إلى همروجة جديدة.

وليس سرّاً أن ذلك كله قد انطلق من الهيئات الحزبية التي لا تجيد إنجاز أمر بدأته. فلم تتم دراسة المسائل المتعلقة بتحويل الصناعات الحربية دراسة وافية، واقتصر الأمر على الشعارات والمشاريع الفارغة، التي ألحقت الضرر بالأمر كله.

بدأنا في المعهد عندنا بتحليل دقيق للإمكانات الذاتية والتعرّف إلى المشاكل الفعلية التي تعترض الاقتصاد الوطني. وعثرنا، بالطبع، على المجالات التي بوسعنا العمل فيها.

كم تجمع أوكرانيا من الحبوب؟ عشرات ملايين الأطنان. وكم يبلغ الهدر لدى معالجة الحبوب وتخزينها؟ المعطيات الرسمية تقول إن الهدر يصل إلى ٣٠٪، أي أننا نخسر بمقدار ما نشتري من الخارج مقابل العملات الصعبة. إذاً نحن بحاجة إلى ماكينات لمعالجة الحبوب. ومن الواضح أن المسألة جديدة بالنسبة إلى اختصاصيين قضوا حياتهم في العمل بالأجهزة الفضائية، على سبيل المثال. ومع ذلك نجحنا في معالجة المسألة. فلم يكن يتعين علينا أن نخترع البارود؛ فمثل هذه التكنولوجيا معروفة جيداً في أميركا وفي أوروبا الغربية، في حين أن تصاميمنا وُضعت على أساس الأجهزة الحربية.

تفترض التكنولوجيات الجديدة، بالمقارنة مع القديمة، استخدام مبادئ الاقتصاد في الطاقة، ومستوى أرفع من الأتمتة والإنتاجية والأمن الإيكولوجي، واختصار المساحات المخصصة للإنتاج، ورفع مستوى نوعية الإنتاج مع استخدام أقلّ للعمل. إننا نعتبر أن استخدام الحقل الكهرومغنطيسي العالي التردد هو أحد الاتجاهات المستقبلية الواعدة في الزراعة وفي الصناعة؛ فهذا الحقل يتمتع بقدرة عالية على التغلغل، ممّا يؤمّن التأثير الحراري المطلوب.

لا أودّ أن أثقل عليكم بالتفاصيل التقنية، لكن بوسعكم أن تحكموا بأنفسكم على فاعلية هذه الطريقة. فهي تخفض استخدام الطاقة بمقدار مرة ونصف المرة، وترفع إنتاجية العمل ثلاث مرات، وكما ذكرت، تتيح إمكانية تخفيض المساحات المخصصة للإنتاج.

وتجدر الإشارة إلى أن مصادر الطاقة المذكورة، وعلى الرغم من كل ما تتمتع به من إمكانيات وأفضليات لا شك فيها، فإنها لا تستخدم في الاقتصاد الوطني. وقد قرّر العاملون في معهد البحث العلمي «كوميتا»، بالتعاون مع منشآت الصناعات الالكترونية، التعويض عن هذا النقص؛ وتم تصميم النماذج الأساسية لمصادر الطاقة المذكورة، التي توفّر طاقة من عشرة واط حتى مئة كيلوواط. وبوسعنا إنشاء مستوعبات تراوح سعتها بين متر مكعب واحد ومئة متر مكعب. وقد انتهت اختبارات أجهزة تجفيف الحبوب، سواء كانت هذه الحبوب قمحاً أو أرزاً أو ذرة أو حنطة سوداء. وتجدر الإشارة إلى أن قابلية التفريغ لدى هذه الحبوب ترتفع بمقدار ٢٠٪ ـ ٣٠٪ بعد معالجتها. كما تسمح أجهزتنا بمعالجة الخضر والفاكهة أيضاً. وتبلغ خسائر الخضر لدى حفظها حوالى ٣٠٪ عادة. أما التكنولوجيا الجديدة، فتسمح بالمحافظة عليها دون خسائر. فالبصل، مثلاً، يمكن حفظه بعد هذه المعالجة مدة سنتين دون أن يفقد شيئاً من مواصفاته. وينبغي أن أذكر بأن الحديث يدور عن منتجات قادرة على المنافسة، فالأجهزة المماثلة يبلغ ثمنها ١٠٠ ألف دولار تقريباً في الولايات المتحدة، أما عندنا فهي أرخص بحوالى ١٥ مرة.

بوسعنا ذكر العديد من الأمثلة على المعالجة العملية البنّاءة للمسألة. فبوسع الصناعات الحربية تقديم الكثير للاقتصاد الوطني، بل يتوجّب عليها القيام بذلك. ولست أغالي إذا قلت إنه تتوفّر في بلادنا طاقة، إذ لا توجد مسألة يعجز الاختصاصيون (لا أقصد، بالطبع، معهدي، فحسب) عن معالجتها لصالح الناس. نحن، مثلاً، قلقون جداً بشأن الإيكولوجيا، لأننا نعرف مقدار التلوّث الذي يسببه إنتاجنا وتسبّبه تكنولوجيات إنتاج الطاقة للبيئة في جمهوريتنا، ويكفي في هذا الصدد أن نتذكر تشيرنوبل. لقد صمّم معهدنا جهازاً يسمح بالحصول فوراً على خريطة التلوّث، سواء الكيميائي أو الإشعاعي منه.

نشتغل حالياً على نظام للاتصالات الريفية، يهدف إلى إقامة البنية التحتية الملائمة دون إنفاق عملات صعبة. وأعتقد أن لدينا حوالي ٨٠ ألف نقطة سكنية ريفية من دون اتصالات.

وقد حصل مشروعنا هذا على دعم مجلس الوزراء في أوكرانيا ووزارة صناعة الآلات والمجمع الصناعي الحربي وبرنامج تحويل الصناعات الحربية. وقد أدرجت التصاميم، التي وضعناها في البرنامج الوطني لتحويل الصناعات الحربية، وتم اختيار المصانع الاختبارية لإنتاج الأجهزة المقترحة من قبلنا. وحتى لو لم يتم تنفيذ برنامج تحويل الصناعات الحربية بحرفيته، وفي كل المجالات، فإن من الواضح أن مثل هذه النظرة للأمور تسمح للعاملين في حقل الإنتاج الحربي بتوظيف طاقاتهم على أفضل وجه.

وظيفتي الراهنة هي مدير معهد البحث العلمي «كوميتا» وكبير المصمّمين فيه. وهو تابع لوزارة صناعة الآلات والمجمع الصناعي الحربي وتحويل الصناعات الحربية في أوكرانيا. وقد اكتسب المعهد اسمه هذا في أوائل الخمسينات، حين قمت، مع زملائي العلماء الشباب، بتصميم أول صواريخ مضادة للسفن، كان اسمها السرّي «كوميتا».

ها قد مضى ثلاثون عاماً من حياتي في كييف. وقد وصلت إلى هنا بعد نفي دام عشر سنوات في سفردلوفسك.

وتجدر الإشارة إلى أن السلطات بقيت حتى النهاية ترفض أن تسمّي رسمياً فترة إقامتي في سفردلوفسك منفى. لكن ماذا يمكن أن نسمّي فترة إقامتي تلك في سفردلوفسك غير منفى؟ لقد نُقلتُ إلى هناك تحت الحراسة، ولم يكونوا حتى يحاولون إخفاء ترصّدهم لسجين ليفورتوفو وبوتيرسكايا السابق. اقتربتُ مرة من السيارة التي كانت ترافقني يوماً بعد يوم، واقترحتُ على من فيها قائلاً:

ـ اسمعوا، أليس من الأسهل أن تنقلوني معكم؟ فلن أتجلّد حينها على محطات الأوتوبيسات، وأوفّر ثمن تذاكر النقل؟

لم يرتبك الشباب الذين كانوا «من هناك» وأجابوني قائلين:

ـ تظاهر بأنك لا تلاحظ شيئاً، ولا تحرمنا هذا العمل الجيد...

وهكذا افترقنا حتى صباح الغد...

لديَّ ما يكفي من المسوّغات للحديث عن استفزازات كانت تُمارس ضدنا. وأكتفي بالإشارة هنا إلى الأشخاص المختلفين الذين كانوا يرسَلون إلينا بانتظام. عشر سنوات ونحن تحت المراقبة والترصّد الدائم! بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على انتقالنا إلى الأورال، تلقينا رسالة مقفلة تقول: سافروا إلى تشليابنسك، سوف يكونون بانتظاركم هناك في وقت كذا. ينتظركم حديث شديد الأهمية. لقد كانوا على علم بأنه يُحظَّر علينا مغادرة سفردلوفسك. ومع ذلك سافرنا إلى هناك، لكن من دون نتيجة.

تلقّينا عبر صندوق البريد آنئذٍ صورة فوتوغرافية، يظهر فيها والدي وهو يتجوّل في... بونس آيرس. لكن والدي لم يزر الأرجنتين قط. وكان من البديهي أن تضطرب والدتي.

إن قصة هذه الصورة اللغز لأشد إثارة من أي قصة بوليسية.

بعد عدة أشهر وجدت في صندوق البريد مجلة «فاكروغ سفيتا»[1] وما زلت أحتفظ بهذا العدد حتى اليوم.

وليصدّقني القارئ، فقد كانت الصورة تُبرز لافرنتي بافلوفيتش بيريا، الذي أعدم رمياً بالرصاص (؟!) في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٣، وهو يتجوّل برفقة سيدة في ساحة أرياني...في بونس آيرس. وكان القصر الرئاسي يظهر في مؤخرة الصورة. لكن النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي لم يزر أميركا اللاتينية في يوم من الأيام، ومع ذلك كانت الصورة تحمل تاريخ العام ١٩٥٨ .

كان بيريا يطل من الصورة، مع انحناءة رأسه المعروفة من قبل ملايين الناس، ومع القبعة المائلة على العينين. ويمكن العثور في الصحف العائدة إلى سنوات الثلاثينيات والخمسينيات على الآلاف من الصور المشابهة. لكن المثير

(١) مجلة "حول العالم" ـ المترجم.

في هذه الصورة بالذات هو أنها تُبرز أحد المقرّبين لستالين على خلفية القصر الرئاسي المذكور نفسه. وكانت هذه الصورة هي نفسها الصورة التي تحدّثت عنها أعلاه. وكان الكلام تحت الصورة يقول: «في عاصمة الأرجنتين المليئة بالضجيج ثمة أماكن هادئة نسبياً. من بين هذه الأماكن ساحة أيار، حيث يقع قصر الرئيس».

لا يزال هذا اللغز يعذبني بعد انقضاء عشرات السنين. وكان اسم عائلة مصور الصورة: إ. بيسارابوف. وأكثر ما يثير الدهشة، هو أن أحداً في هيئة التحرير لم يتمكّن من تفسير هذا الأمر برمّته. حين رأت والدتي الصورة للمرة الأولى اهتز كل كيانها وقالت: « إنه والدك!». إنني أجد صعوبة في تحديد مَن كان بحاجة إلى مثل هذا التزوير ولماذا، ومَن هو الشخص الذي كانت لديه إمكانية تشويه مقالة الكاتب الأرجنتيني ألفرد فاليري بهذه الصورة المزيفة؟

هل كانوا بهذه الطريقة يريدون اتهامنا بالإعداد لعبور الحدود؟ فقد تلقّيت مع هذه الصورة رسالة مغفلة أخرى تقول إن شخصاً «يحمل خبراً مهماً عن والدكم» سوف يكون بانتظارنا في اناكليا على شاطئ البحر الأسود. وعلى الرغم من الحظر المفروض علينا في مغادرة سفردلوفسك، حصلت والدتي على إجازة مَرَضية من المصنع، ورتّبت أنا لها رحلة سرية بالطائرة إلى جيورجيا. بقيت والدتي عدة أيام تظهر في المكان المحدد وتنتظر طويلاً، لكن أحداً لم يأت.

كنت أشعر بضغط النظام حتى بعد انتقالي إلى كييف. فالترصّد (وكنت أعرف ذلك معرفة أكيدة) لم يتوقّف خلال السنوات الأولى من العمل في أوكرانيا. وكما في سفردلوفسك، لم يسمحوا لي أن أكون مسؤول الشؤون العلمية، وإن كنت أعترف بأنهم كانوا يساعدونني. فالشغل نفسه كان يتطلّب أن أواصل أنا العمل.

بدأت مع الوقت، أتصرّف على نحو مغاير، وأخذت أطالب بالإقرار الرسمي بقيادة الأعمال المكلّف بها. لقد كان منصب كبير المصممين يسمح لي بالعمل على نحو رسمي كلياً مع الوزارات والإدارات، وليس عبر الوسطاء.

وبلغ الأمر أن أخذت أكاديمية العلوم تدعوني إلى العمل، وحصلت على منصب نائب مسؤول الشؤون العلمية في أحد معاهد الأكاديمية، وأصبحت كبير المصممين في مشروع كبير، ولنقُل إنه يتعلق بصنع نوع جديد من السلاح.

حين أخذت الأعمال، التي نقوم بها مع الزملاء من موسكو تكتسب أهمية كبيرة (بوسعي أن أقول فقط إن هذه الأعمال كانت تتعلق بالأجهزة الفضائية)، تقرر إنشاء فرع لمعهد موسكو في كييف. وهكذا أصبحت منذ عدة سنوات مديراً لمركز البحث العلمي هذا.

إن العمل الإداري، وأقول ذلك بكل صدق، لم يكن يستهويني، لا عندما كنت شاباً ولا فيما بعد. إلا أنني كنت مضطراً إلى مراعاة الظروف، إذ لا بد من القيادة الفردية من أجل اتباع النهج التقني اللازم. فالتقنيات لا تتقرّر بالتصويت، وقد أقنعتني تجربتي خلال السنوات الطويلة أنه يجب تفحّص الفرضيات والشروط جيداً. أما القرار، فينبغي أن يُتّخذ من قبل الأشخاص المسؤولين عن النتيجة النهائية للمشروع. تلك هي الاعتبارات التي وضعتها في الحسبان وأنا أعالج هذه المسألة الهامة بالنسبة إلي.

أسلّم كلّياً بأن الأمور كان يمكن أن تجري على غير ما جرت عليه حينذاك، أي في نهاية العام ١٩٥٤، وكان يمكن لقرار السلطات أن يكون مختلفاً. فالسلطات التي أبقت على حياتي، كان بوسعها أن تحرمني من العمل الذي أحبّ. أما وأن ذلك لم يحدث، فأنا مدين، كما ذكرت آنفاً، للعلماء السوفيات الذين وقفوا دفاعاً عني. ويبدو أن المكتب السياسي قد وجد نفسه مضطراً إلى الموافقة على حججهم. وأعتقد أن الناس، الذين كانوا على رأس السلطة حينئذٍ، كانوا ينظرون إلى الأمر من المنظار التالي: ومن يكون هو؟ فليحاول، وهو المحروم من كل شيء، أن يحرز شيئاً في هذه الحياة...

لقد كنت أعتبر أن حرمان المرء من ألقابه ومن وظيفته لا يعني أن كل شيء قد انتهى. ولا أريد هنا أن أجانب الحقيقة، ففي سنوات الصبا، كنت أتأثر حين كانوا يكافئون الأشخاص الذين يعملون معي ويتجنّبونني أنا. أجل هكذا كان الأمر، ولا أُخفي ذلك.

كما لا أخفي أيضاً أنه قد توفرت لي غير مرة فرصة مغادرة البلاد، سواء في السابق أو في السنوات الأخيرة أيضاً. لكنني لو فعلت ذلك لكان الأمر خيانة لذكرى والدي. كما أنني لم أساوِ في يوم من الأيام بين القيادة الحزبية العليا وبين البلاد التي خدمتها طوال حياتي. باختصار، حتى هذه الخطوة التي أقدم عليها الآخرون بكل تلك السهولة، لم أكن لأقدم عليها أنا.

مقتطفات من صحيفة «نيويورك تايمز»:

"دخل سيرغي نيكيتوفيتش خروتشوف، ابن الزعيم السوفياتي، المبنى الصغير لمكتب الهجرة في مدينة بروفيدانس بولاية رود آيلاند، وخرج من هناك وهو يتمتّع بالحقوق الكاملة التي يتمتع بها المقيم الدائم في الولايات المتحدة. بعد مضي ١٦ شهراً على سقوط الحزب الشيوعي السوفياتي، ينتظر المهندس البالغ من العمر ٥٧ عاماً، والذي أصبح متخصصاً في الشؤون السياسية (بوليتولوغ) مع زوجته فالنتينا، وثيقة الإقامة التي تُمنح للأجانب. وفي مقابلة أجريت مع السيد خروتشوف أخيراً، وتحدّث فيها من منزله الكائن في مدينة كرانستون بولاية رود آيلاند، قال إنه قرر الحصول على حق الإقامة الدائمة في الولايات المتحدة «لان الحياة والعمل أسهل في هذه البلاد. لا زلت أحتفظ بشقتي في موسكو. ولديّ هناك بيت صيفي، وعندي أشجاري وبحيرتي، بحيرة صغيرة فيها أسماك».

خلال ربع قرن بعد عزل نيكيتا خروتشوف من منصب القائد، لم تمنح السلطات خروتشوف الابن إذناً بالمغادرة إلى الخارج".

هذه الخطوة التي أقدم عليها الآخرون بكل تلك السهولة، لم أكن لأقدم عليها أنا. لقد رفضت جميع الدعوات للانتقال إلى الولايات المتحدة الأميركية وإلى بريطانيا، حيث كانت ستوفر جميع الظروف الضرورية للعمل.

في أحد اللقاءات مع رئيس الكي. جي. بي آنذاك يوري أندروبوف، الأمين العام المقبل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، والذي كان يستدعيني إليه من كييف كخبير لتقييم المعلومات المتعلقة بأجهزة اللايزر الفضائية الأميركية، جرى الحديث التالي معي، أي مع ابن لافرنتي بيريا.

كنّا نتحدث حول الشغل، أي حول المعلومات المتوفّرة للمخابرات

السوفياتية. وفجأة غيَّر يوري فلاديميروفيتش وجهة الحديث باتجاه آخر، وقال إنه يعتبر تصرفي صحيحاً.

أجبت:

ـ إنكم على خطأ يا يوري فلاديميروفيتش، فأنا لم أُخفِ آرائي حول ما جرى،لا في السجن أثناء التحقيق في قضيتي، ولا فيما بعد. لم أتخلَّ ولن أتخلى قط عن والدي. إنني أعتبره شخصاً بريئاً كلياً، قتلته النومانكلاتورا الحزبية. وإذا كنت لا أصرخ وأرفع صوتي بالأمر، فهذا لا يعني أنني قد صدّقت المسرحية التي لعبها قَتَلته...

استمع إلي يوري فلاديميروفيتش بانتباه وخفض عينيه، ولاذ بالصمت:

ـ ومع ذلك أنا أُحبّذ هذا التصرف...

التقينا لاحقاً عدة مرات. ولا زلت حتى الآن أعتبر أنه كان واحداً من أذكى الأشخاص الذين كان يمكن للسلطة السوفياتية أن تأتي بهم على رأس الدولة. إنني لا أوافق، بالطبع، على تصرفه في هنغاريا العام ١٩٥٦، وعلى مشاركته في النضال ضد الفكر الآخر. ويكفي أن نتذكر دور السفارة السوفياتية في بوادبست حين كان سفيراً فوق العادة للاتحاد السوفياتي. فقد أطلقوا النار هناك على الناس الذين كانوا يرفضون سياسة خروتشوف والقيادة الحزبية العليا تجاه هنغاريا. فمن يتحمّل المسؤولية عن إراقة هذه الدماء؟ لم يكن أندروبوف من أصدر الأوامر، بالطبع، لكنه هو الذي نفّذها. وحين عزلوا سيميتشاسني لاحقاً، نصّبوا أندروبوف رئيساً للكي. جي. بي.، مما يعني أنه كان شخصية منسجمة مع النظام. ومع ذلك، فقد كان على المستوى الشخصي محلّلاً أدرك أن النظام بحاجة إلى تدعيمه. لكن أندروبوف، الذي كان يعرف تجربة والدي المريرة، فضّل القيام بإجراءات تجميلية لا تمسّ مصالح النومانكلاتورا الحزبية. وهذا كان خطأ أيضاً، إذ من المستحيل تغيير النظام دون تغيير الحلقة الرئيسية فيه.

لقد اقتحم النظام حياتي الشخصية أيضاً.

بعد إطلاق سراحي من السجن، عشنا معاً، أنا وزوجتي، عدة سنوات. لكن مطاردتنا لم تتوقّف، للأسف. كنت آمل أن تتحسّن الأمور مع الوقت، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. قررنا أن نلجأ إلى الطلاق الوهمي من أجل مصلحة الأولاد، وضمان مستقبلهم، على أن نعود لنعيش معاً فيما بعد. غير أنه لم يتسنَّ لنا ذلك...

مارفا مكسيموفنا بيشكوفا هي امرأة رائعة. وقد بقيت محافظاً على أطيب العلاقات معها. تسكن هي في موسكو وتعمل في معهد الأدب العالمي كباحث علمي أول، وكثيراً ما تزورنا في كييف.

ابني سيرغي يعيش معي، وهو متزوّج من فتاة أوكرانية رائعة. لم يكن الأشخاص اليقظون جداً يرغبون، في حينه، برؤيته طالباً جامعياً، فتدخَّل آنئذٍ سيميتشاسني الذي أصبح، بعد إقالته من رئاسة الكي. جي. بي في الاتحاد السوفياتي، نائباً لرئيس مجلس الوزراء في أوكرانيا. حَرِدَ ابني آنذاك، وبدّل الجامعة التي كان يرغب في الانتساب إليها، وهو اليوم باحث علمي يعمل في حقل الراديوالكترونيك.

الابنة البكر نينا أنهت مدرسة ستروغانوفسكو وأكاديمية الفنون في فنلندا. كان زوجها المقبل يحضّر الدكتوراه في جامعة موسكو، وكنت أصدّق فعلاً أنه من أستونيا، إلا أنهما اعترفا فيما بعد أنه فنلندي، فلم يبق لي إلا أن أضحك وأقول لهما: «كان هذا ما ينقص أسرتنا!». وقد سمحوا لها بمغادرة البلاد.

الإبنة الصغرى ناديا تعيش في موسكو، وهي ناقدة فنية. وها هم الأحفاد يكبرون.

مقتطفات من "ملف ل.ب.بيريا":

«لقد ثبت للمحكمة أن نشاط ل. ب. بيريا الإجرامي الخياني وإقامة صلات سرية مع المخابرات الاجنبية يعود إلى أيام الحرب الأهلية... وكان بيريا في

السنوات اللاحقة وحتى لحظة اعتقاله يحافظ على صلاته السرية مع المخابرات الأجنبية ويوسعها. وقد بقي هو والمشاركون معه على امتداد سنوات طويلة يتسترون على نشاطهم المعادي... لقد ثبت كلياً أن جميع المتهمين مذنبون. وقد اعترفوا هم أنفسهم في اقتراف أقدح الجرائم بحق الدولة... لقد ثبتت التهمة الموجهة إلى ل. ب. بيريا في خيانة الوطن وتنظيم مجموعة تآمرية معادية للسوفيات بهدف الاستيلاء على السلطة وإحياء سيطرة البورجوازية، وفي ارتكاب أعمال إرهابية ضد الشخصيات السياسية المخلصة للحزب الشيوعي ولشعوب الاتحاد السوفياتي، وفي النضال النشيط ضد الحركة العمالية... الحكم عليه... بأقصى عقوبة جزائية وهي الإعدام رمياً بالرصاص ومصادرة الممتلكات الشخصية العائدة له مع تجريده من الرتب العسكرية والأوسمة. الحكم مبرم لا يخضع للتمييز».

إن التاريخ لا يعرف الافتراض، لكن مع ذلك لنفترض أن بيريا قرّر مع ذلك الاستيلاء على السلطة، وإحداث تغيير ما في هذا البلد التعيس، من كان سيعارض زعيم الدولة الجديد؟ ومن كان سيتبعه؟

إن دعم ما يسمّى «المعسكر الإمبريالي» لا يدخل في الحسبان، بالطبع... لكنني أعتقد أن غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف كان سيؤيّده، كما كان سيؤيده الجنرال شتيمنكو وقائد حامية موسكو الجنرال ارتيوموف. لقد كانت تقف وراءه قوة جدية هي الجيش. لست أدري أي موقف كانت ستتخذ وحدات وزارة الداخلية، لكن من المؤكد أن والدي لم يكن يعدّ للاستيلاء على السلطة. فالطامحون إلى السلطة في الكرملين بعد وفاة ستالين كانوا كثراً. وقد أثبت ذلك التطور اللاحق للأحداث...

كان الجهاز الحزبي يقف ضد والدي. وقد قرأت مرة، في المجلة الأسبوعية "أرغومنتي إي فاكتي"، اعتراف أحد العاملين في الجهاز الحزبي (أباراتشيك)، عمل في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أكثر من ثلاثين عاماً. يقول «جندي الحزب» هذا:

«حين توفي ستالين كنا جميعاً نرتجف خوفاً من مجيء بيريا. فلو جاء هو لكان أول ما قام به هو إبعاد الجهاز الحزبي بأسره...».

أكرر القول إنه لم يكن في نية والدي أن يصبح ديكتاتوراً. لكن العاملين في

الجهاز كانوا يتمتعون دوماً بغريزة بقاء متطورة. فلو لقي والدي الدعم آنذاك من أعضاء قيادة الكرملين، لكانت بدأت بعض الإصلاحات بالتأكيد، وهو ما كان يخشاه العاملون في الجهاز الحزبي.

لم يكن بوسع والدي أن يصبح الرجل الأول في الدولة لسبب واحد على الأقل. فبعد أن حكم البلاد طوال هذه السنين رجل جورجي، كان مجيء جورجي آخر إلى الحكم سيبدو أمراً، أقلّ ما يُقال فيه إنه غير جدي في بلد مثل روسيا.

من البديهي أنني فكرت كثيراً بكل ذلك، والتقيت الأشخاص الذين بوسعهم إلقاء الضوء على سر مقتل والدي. سبق أن تحدثت عن لقاءاتي مع غيورغي كونستانتينوفيش جوكوف. وكان يمكن أن يحصل لقاء آخر معه، إذ كان الماريشال يرغب جداً في رؤيتي. من المحتمل أنه كان يرغب في إضافة شيء ما إلى ما سبق أن قاله، لكن اللقاء لم يحصل... وليس لدي أي شك في أنهم تقصّدوا عدم السماح لي برؤية جوكوف. ولن أنسى أبداً كلماته: «لو كان والدك على قيد الحياة لكنتُ أنا معه...» .

في العام ١٩٥٨ التقيت شفيرنيك، عضو هيئة المحكمة المعروفة تلك. فقد كانت ابنته تعمل في حقل الراديوتكنيك، وكان يعرف أحدنا الآخر، قال بوسعي أن أقول لك شيئاً واحداً: لم أر والدك حيّاً. إفهم ذلك كما تريد، لكنني لن أضيف إلى ذلك شيئاً.

عضو المحكمة الآخر ميخايلوف أوحى إليّ هو الآخر، لدى لقائي به في منزله الصيفي في ضواحي موسكو، بأن شخصاً آخر كلياً كان يجلس في قاعة المحكمة، غير أنه لا يمكنه الحديث عن هذا الموضوع...

لماذا كان خروتشوف، وبعد مضي سنوات، يبعث بالرسائل إلى والدتي، ويسعى إلى لقائها؟ وكذلك الأمر بالنسبة لميكويان، الذي حاول لقاء والدتي مرتين. لماذا لم يطلعني أحد في يوم من الأيام، أو يطلع والدتي على ورقة واحدة من أوراق التحقيق موقّعة من قبل والدي؟

لا سرّ بالنسبة إليّ لماذا قُتل والدي. لقد كان يعتبر أنه يتعامل مع مسؤولين سياسيين، ولذلك اقترح والدي على زملائه عقد مؤتمر للحزب، أو على الأقل، اجتماع موسع للجنة المركزية، حيث يمكن التحدث عمّا ينتظره الناس منذ زمن بعيد. كان والدي يعتبر أن قيادة البلاد بأسرها ينبغي أن تتحدّث بصراحة ونزاهة عما جرى في الثلاثينيات والأربعينيات ومطلع الخمسينيات، وعن سلوكها في فترة القمع الجماعي. وأذكر أنه حين تحدث عن ذلك في البيت قُبَيل وفاته، حذّرته والدتي قائلة:

ـ اعتبر، يا لافرنتي، أن هذه هي نهايتك. فهم لن يسامحوك على ذلك قط...

لم يكن بوسع والدتي ولا بوسعنا جميعاً أن نفكّر آنذاك كيف سينقلب الأمر على أسرتنا. كانت والدتي تعني بالنهاية نهاية العمل السياسي لوالدي لا أكثر. لكن «الزملاء» ذهبوا بعيداً... فقد كان هناك، فعلاً، ما يخشاه خروتشوف ومالينكوف والآخرون.

إنني على قناعة بأنه قد تم آنذاك لعب الورقة القومية أيضاً. فقد جرى تحت هذه الراية تحميل والدي المسؤولية عن القمع بحق ملايين الأبرياء، ضحايا النظام الشيوعي.

«حتى حين أصبحنا على علم بالكثير من الأمور بعد محاكمة بيريا، قدّمنا للحزب والشعب تفسيرات خاطئة حمّلنا فيها كل شيء لبيريا. كان يبدو لنا شخصاً مناسباً، وفعلنا كل ما بوسعنا لتبرئة ستالين».

إن نيكيتا سيرغييفتش خروتشوف، كما ترون، هو أكثر صراحة هنا...

إنني لا زلت أنتظر منذ عدة سنوات متى سيفتحون الأرشيف، في نهاية الأمر، إذ سوف يتضح حينذاك من المسؤول عن الإرهاب الجماعي. فالأرشيف في الاتحاد السوفياتي كان دائماً في وضع لا بأس به. ويمكن دوماً، إذا ما توفّرت الرغبة، إيجاد شيء ما في هذا الأرشيف، حتى بعد «التنظيفات» الخروتشوفية. لقد كفّ الاتحاد السوفياتي عن الوجود منذ زمن بعيد، لكن أسرار الكرملين لا زالت أسراراً.

مقتطفات من صحيفة «كومسومولسكايا برافدا» (١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٣):

«... ليس كل ما في ماضينا واضح، حتى بالنسبة لمجرم موصوف مثل بيريا. فقد أعلن مؤخراً كبير المسؤولين عن المحفوظات في روسيا رودولوف بيخويا، وعلى أساس الوثائق التي اطلع عليها، أن الشخص الأساسي في القمع الستاليني لم يكن بيريا، بل مالينكوف».

ومع ذلك فقد انقضت أربعة عقود من الزمن ولافرنتي بيريا لا يزال في تصور الملايين من الناس المجرم الموصوف، الذي جمع كل الرذائل التي يمكن أن يتصوّرها إنسان، كما حاولت أن تصوره الدعاية الحزبية.

لاحظ أحد المؤرخين مؤخراً، أنه كُتب الكثير عن بيريا، وفي الوقت ذاته لم يُكتب شيء، تقريباً.

من الصعب ألّا توافق على هذا الكلام. فالأكاذيب والأقاويل لا تعدّ ولا تحصى بالفعل. لكن هل نحن سُذَّج لدرجة أننا لا نزال نخشى أن نعترف أن القيادة الحزبية العليا آنذاك، في العام ١٩٥٣، هي المسؤولة عن الجرائم ضد شعبها، وأنها قامت، بكل بساطة، بالتنكيل بسياسي عاقل وموزون، وحمّلت القتيل كل جرائم النظام التوتاليتاري تقريباً؟ لم يكن والدي، لافرنتي بافلوفيتش بيريا لا جاسوساً إنكليزياً، ولا منظّماً لحملات القمع الجماعي وملهماً لها. وأسماء الجلادين، بمن فيهم «الإصلاحي العظيم» خروتشوف ومالينكوف، معروفة...

إنَّ كل المسوّغات تفترض أنه لم يتعمّد الكذب على الشعب السوفياتي جميعُ قادة الحزب والدولة آنذاك، فحسب، بل ثمة دوائر سياسية محددة في روسيا لا تزال حتى الآن صاحبة مصلحة في إخفاء أسرار الدولة في الاتحاد السوفياتي السابق. ويكفي أن نتذكّر أن ما يسمّى «ملف ل. ب. بيريا» لا يزال حتى الآن طيّ الكتمان. فلماذا ؟ إنه سؤال في معرض البلاغة لا أكثر...

إنني لم أعمد إلى تأليف هذا الكتاب استغلالاً للتطوّرات الحالية للأحداث، بل من أجل الكشف عن الحقيقة التاريخية. ومن حق القارئ أن

يوافقني في ذلك وأن يناقشني به. إنني، ببساطة، أقترح التأمل بما جاء في هذا الكتاب.

أجل كان والدي يخطئ، أحياناً، إلا أنه كان صادقاً ووفياً للبلاد التي خدم. إنه هو، بيريا، الوحيد من بين أعضاء القيادة السوفياتية آنئذٍ الذي كان يقف علناً وباستمرار مع إعادة الاعتبار لملايين الناس الذين أودعوا السجون ومعسكرات الاعتقال. كما كان الوحيد أيضاً، بين أعضاء هيئة رئاسة اللجنة المركزية، الذي طالب بعقد مؤتمر استثنائي للحزب، ومحاسبة كل قيادة الكرملين عما جرى محاسبة كاملة. ولم يكن جواب القيادة الحزبية العليا على ذلك قتله فحسب، بل سيل من الكذب لا يزال يرافق اسمه بعد مضي عشرات السنين على مصرعه المأساوي.

من الواضح أن هذا السياسي الحكيم والمحلِّل الرائع والمنظِّم البارز، هذا الإنسان الذكي الموهوب، كان شخصاً نافراً وسط فريق سياسيي الكرملين الانتهازيين، الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت سيدهم يتنازعون فيما بينهم التركة التي خلّفها وراءه. لم تكن هذه الشخصية اللامعة لتنسجم مع الجهالة المندفعة نحو السلطة. فهل كان والدي يدرك هذا الأمر، حينذاك، أي في العام ١٩٥٣؟ وهل كان يصدّق فعلاً أن خروتشوف ومالينكوف وسواهما سوف يعترفون بجرائمهم؟ أم أنه كان يعتزم هو نفسه التحدث في المؤتمر عن جرائم الحزب البلشفي؟ فلم يكن من المصادفة، كما يبدو، أن يثير أرشيف النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي قلق القيادة الحزبية العليا...

ما أدراك كيف كان سيكون عليه تاريخ الدولة السوفياتية لو لم يرتكب خروتشوف والمحيطون به، المسؤولون عن القمع الجماعي، جريمة القتل السياسي هذه. أليس من المحتمل أن يكون قد تم التفريط حينذاك بفرصة تاريخية، أعيد التفريط بها مجدداً بعد سنوات عدة من خلال فشل البريسترويكا؟ ومهما يكن من حال، فقد أثبتت الحياة أن والدي كان على حق. لكنها أثبتت ذلك بعد أن كانت قد ضاعت سنوات على التجارب المتعددة، ومن ثم ضاعت الدولة نفسها التي كانت يوماً ما دولة قوية...

يمكن محاكمة الأمر، من وجهة نظر المرحلة الراهنة،على نحو مختلف بالقول: إن النظام الذي كان يسعى لإصلاحه كان منذ البداية نظاماً محكوماً عليه بالموت. لعله قد أخطأ في ذلك أيضاً. وليكن كذلك، لكن لكل وقت سياسيوه وأبطاله. لعلّ والدي، الذي كان قد فعل أكثر مما بوسعه، قد تحدّى النظام حينذاك، في ربيع ١٩٥٣، حين دعا الحزب البلشفي لتحمّل المسؤولية أمام الشعب. وهذا ما لم يحدث في الكرملين قط لا قبله ولا بعده. أما البريسترويكا التي شغلوا بها العالم بأسره، فتبيّن أنها ليست إلا محاولة فاشلة لتحقيق الأفكار التي طرحها هو قبل ثلاثة عقود من الاجتماع الموسّع «التاريخي» للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٨٥. إن النومانكلاتورا الحزبية لم تكن تنسى قط أن الجديد ما هو إلا الماضي الذي طواه النسيان جيداً...

أجرؤ على القول إن كل ما كتبوه في الأمس وما يكتبونه اليوم عن والدي، لافرنتي بيريا، لن يبدّل في الأمر شيئاً. فهو سيدخل التاريخ كسياسي رشيد من العهد السوفياتي، عمل لخير وطنه وشعبه المتعدد القوميات، وناضل حتى آخر أيام حياته كي تبتعد دولته عن طريق التوتاليتارية.

إننا نؤمن بأن هذا ما سيحدث. فالتاريخ يمكن إعادة كتابته، وقد حصل ذلك غير مرة، في عهد لينين، وفي عهد ستالين، وفي عهد خروتشوف، وفي عهد بريجنيف، وفي عهد غورباتشوف، لكن يستحيل حرمان الشعب ذاكرته التاريخية مرة إلى الأبد. فالخرافات، حتى لو صُنِّفت في مستوى أسرار الدولة، ليست أبدية، لحسن الحظ.

الفهرس

المؤلف

سيرغو بيريا هو ابن لافرنتي بيريا، الشخص الأكثر قرباً من ستالين. وهو اسم شهير جداً لدى أجهزة المخابرات في العالم، وإن كان حتى صدور كتابه اسماً مغموراً. كان سيرغو بيريا في عداد الأشخاص العشرة الذين تولّوا تفجير أول قنبلة نووية سوفياتية، إلى جانب كورتشاتوف وفانيكوف وسواهما من كبار العلماء السوفيات. وبقي حتى آخر أيامه يحتل موقعاً مرموقاً جداً بين مصممي الأنظمة الصاروخية والأسلحة الجديدة.

تولّى بعد تخرّجه من الأكاديمية العسكرية عام ١٩٤٧ منصب كبير المهندسين وكبير المصممين في «مكتب التصميم الأول» الشهير التابع لمفوضية الشؤون الداخلية (NKVD). وقد منح وسام لينين تقديراً لنجاحه في تصميم أنظمة صاروخية شديدة الفاعلية.

ولد في تبيليسي، عام ١٩٢٤. انتقل إلى موسكو حين تسلّم والده مفوضية الشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي (NKVD) عام ١٩٣٨. التحق، لدى تخرّجه من المدرسة الثانوية العام ١٩٤١، بالمختبر المركزي للراديوتكنيك التابع لمفوضية الداخلية.

حين اندلعت الحرب أرسل للدراسة في مدرسة المخابرات، وتخرّج، بعد دورة مكثّفة في حقل الراديوتكنيك، برتبة ليتنانت فنّي. قام بتكليف من الأركان العامة السوفياتية بتنفيذ عدد من المهمات في كردستان الإيرانية عام ١٩٤١، وفي مجموعة جيوش القفقاز عام ١٩٤٢.

تم تكليفه بأمر مباشر من ستالين والأركان العامة، بمهمات سرية خاصة في

طهران وفي يالطا وفي الجبهتين الأوكرانيتين الرابعة والأولى. منح وسام «النجم الأحمر» لحسن تنفيذه المهمات المكلّف بها.

اعتقل عام ١٩٥٣ إثر القضاء على والده، وبقي في السجن حتى عام ١٩٥٤، حيث تم نفيه إلى الأورال، وتم تسليمه أوراقاً ثبوتية باسم سيرغي، ألكسيفيتش غيغتشكوري (عائلة والدته). بقي في منفاه في مدينة سفردلوفسك، حيث كان يعمل برتبة المهندس الأول في مؤسسة سرية عشر سنوات. انتقل بعد ذلك، وإثر تدخل عدد من كبار العلماء السوفيات، للعيش في مدينة كييف، حيث عمل في مؤسسة سرية أيضاً، تحولت لاحقاً إلى مؤسسة "كفانت" للبحث العلمي. في العام ١٩٩٠، أصبح سيرغو بيريا (سيرغي غيغتشكوري) كبير المصممين في مؤسسة «كوميتا» للبحث العلمي في مدينة كييف.

توفي عام ٢٠٠٠.

المترجم

أستاذ في الجامعة اللبنانية، أنهى دراسة الاقتصاد في جامعة موسكو، ودافع عن أطروحة الدكتوراه في الاقتصاد في الجامعة نفسها. ترجم من الروسية إلى العربية عدداً من الكتب، من بينها: مذكرات رئيس الأركان السوفياتية إبان الحرب العالمية الثانية الماريشال فاسيلفسكي التي صدرت تحت عنوان "قضية حياتي"؛ "نفط الشرق الأوسط والاحتكارات الدولية" لمؤلّفه ألكسندر بريماكوف؛ "مراحل التاريخ" لمؤلّفه رئيس جمعية السوسيولوجيين السوفيات آنذاك مومجيان؛ "أسس علم السكان" لمجموعة من المؤلّفين السوفيات، وسواها من الكتب.

هذا الكتاب

- إجلاء شعوب بكاملها من أوطانها
- إعدام أكثر من عشرين ألف ضابط بولوني رمياً بالرصاص
- تصفية عشرات القياديين والعلماء ورجالات الفكر وكبار العسكريين

من يقف وراء كل ذلك: جوزيف ستالين أم لافرنتي بيريا أم الجهاز الحزبي؟

هذا ما كان يجري في عهد ستالين؛ وهذا ما أُلصق بلافرنتي بيريا عشيّة اعتقاله وإعدامه رمياً بالرصاص، بعد محاكمة سريّة، وفق ما تدّعي الرواية الرسمية.

من كان لافرنتي بيريا: جلاد البلاط أم الإصلاحي الكبير؟

لافرنتي بيريا الشخصيّة الأقرب إلى ستالين، ومسؤول المخابرات الاستراتيجية السوفياتية حتى وفاته، ووزير الداخلية والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء، وماريشال الاتحاد السوفياتي، وعضو هيئة رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، والذي غدا عَقِبَ موت ستالين الشخصية الأقوى في قيادة الكرملين.

لافرنتي بيريا ذاك، يتولّى ابنه سيرغو في هذا الكتاب المرافعة عنه، فيخوض في أصعب الملفّات وأكثرها تعقيداً وسرية وتعتيماً. يستعرض، من الوثائق، ما كان حقيقياً، وما جرى تزويره لطمس الحقائق.

يقول سيرغو إن زملاء أبيه، وعلى رأسهم خروتشوف، نزعوا عنه كل ما حقّقه من إنجازات عظيمة مثل:

- إشرافه الفاعل على صناعة السلاح النووي في الاتحاد السوفياتي
- تطهير مفوضية الداخلية، والإفراج عن ملايين المعتقلين ظُلماً
- تجنيد العملاء الأجانب، من علماء وسياسيين ورجال فكر وفن، لصالح الاتحاد السوفياتي، أمثال:

- سيكيروس (الفنان المكسيكي العظيم)
- زينوفي بيشكوف (رئيس المخابرات الفرنسية)
- أولغا تشيخوفا (المقربة من إيفا براون صديقة هتلر)

وألصقوا به، بدل ذلك، تهمة التآمر على الحزب الشيوعي والنظام الاشتراكي، ونسبوا إليه كلّ الجرائم والأحداث الدموية، ناهيك بمطاردة النساء اللواتي عُدِدْن بالمئات، على حدّ زعمهم.

ملفات شائكة تطرح السؤال الأهمّ: من كان القاتل في ذاك النظام ومن كان الضحيّة؟